الجزء الأول

قوت القلوب

في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد

للشيخ أبي طالب المكي
محمد بن علي بن عطية
(ت ٣٨٦ هـ)

حققه، وقدم له، وعلق حواشيه
د. محمود إبراهيم محمد الرضواني

مكتبة
دار التراث

قوت القلوب

في معاملة المحبوب
ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد

للشيخ أبي طالب المكي
محمد بن علي بن عطية
(ت ٣٨٦ هـ)

حققه، وقدم له، وعلق حواشيه
د. محمود إبراهيم محمد الرضواني
دار العلوم - جامعة القاهرة

الجزء الأول

مكتبة دار التراث

جميع حقوق الطبع محفوظة لـ
مكتبة دار التراث

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

مكتبة دار التراث
٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة - ت : ٣٩١٤٢٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، حَمْدًا يوافى نِعمهُ ويُكافئ مزيده، وأشهد أن لا إله إلا الله العلىُّ العظيم، وأشهد أن سيِّدنا وحبيبنا محمَّدًا عبدُه ورسولُه، وصفيُّه من خَلْقِه وحبيبُهُ. اللهمَّ صَلِّ وسلِّم على سيدنا محمَّد وعلى آل سيدنا محمد عددَ ما تعلمه من بَدْءِ الأمرِ إلى منتهاه، صلاةً وسلامًا أرقى بهما مراقى الإخلاص، وأنال بهما غاية الاختصاص، عدد ما أحاط به علمك، وأحصاه كتابك، وخطّه قلمك، واجمعنا به يا ربّنا فى أعلى علّيِّين.

أما بعد:

فهذا إمام من أئمة التصوف الإسلامى، وكتابه «القوت» أصل من أصوله، وقد أجاد «ابن عبّاد النفرى» شارح حكم ابن عطاء فى بيان قيمة الكتاب بألفاظ موجزة دالة عندما قال: «أما كتاب أبى طالب فعليه وقع الاختيارُ، إذ لم يقع بين أيدينا مثل منزعه، فإنّه فيه فتحَ مَغالِقَ علمِ التصوف، وجمع فيه بين المعانى الصحيحة، والألفاظ الحسنة، وذكر فروعَ علومهم وأصولَها، ورسمَ مسائلها وفصولَها، فكان لذلك كالمدوَّنة فى عِلْمِ الفقهِ، يقوم مقامَ غَيرِه، ولا يقومُ غَيرُهُ مقامَه».

وكذلك قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية (الفتاوى ١٠/ ٥٥١): «وأبو طالب أعلم بالحديث والأثر، وكلام أهل علوم القلوب من الصوفية وغيرهم من أبى حامد الغزالى، وكلامُه أَسَدُّ وأجودُ تحقيقًا، وأبعد عن البدعة».

ومن ثَمَّ فإننى أرى أن المكتبة العربية والإسلامية قد خسرت كثيرًا عندما غفلت عن تحقيق هذه الموسوعة الإسلامية، ونشرها نشرًا علميًا دقيقًا، على الرغم من الحاجة الماسة إلى مثل هذا النوع من التأليف لحياتنا فى العصر الحديث، وما أصاب المجتمعات الإسلامية من آثار الماديات وإفسادها للقلوب؛ مما نتج عنه كثير من الأمراض النفسية والاقتصادية والاجتماعية، وحال المسلمين اليوم لا يخفى على كل ذى عقل وبَصَر. ولعلّ هذه النشرة الجديدة التى قوبلت على عدة أصول

مخطوطة تعوض هذا الغبن الفاحش لأبى طالب وكتابه القوت.

وترجع صلتى بكتاب القوت إلى فترة قديمة جدًا إبّان مرحلة الطلب الأولى بمرحلة التعليم الثانوى، إذ يعد كتاب القوت من أوائل الكتب التى قرأت فيها وتعلّقت بها(١)، وتمنيت آنذاك لو يُنشر الكتاب بطريقة ميسرة لجميع طلاب العلم كما كان ينشر آنذاك إحياء علوم الدين. وظلّت هذه أمنية حبيسة فى نفسى زمنًا طويلاً، وقد تقلّبت بى الأيام، حتى قيَّض الله لى الاتصال بالأستاذ الفاضل إسماعيل عبيد صاحب ومدير مكتبة دار التراث، وعرض علىّ فكرة نشر الكتاب محققًا مضبوطًا، فأحيا فى نفسى تلك الأمنية القديمة فى نشر الكتاب، وعلمت أن الله جلّت قدرته قد أذن بتحقيقها، فسارعت من وقتها فى التنقيب عن أصول الكتاب المخطوطة، وبعد المضى قُدُمًا فى قراءة الأصول، هالنى ما رأيته من النصوص الطويلة التى لم تنشر من الكتاب، إذ يقل ما طبع من كتاب القوت بمقدار الثلث تقريبًا عما هو فى أصوله المخطوطة، واستعنت بالله العلى القدير فى قراءة تلك الأصول المخطوطة ومقابلة بعضها ببعض ومعارضتها بالمطبوعة، وكان الانتهاء من هذا العمل هو من فضل الله وحده، لما عانيته من قراءة تلك الأصول وما وجدتُه من المشكلات والتلف، وبعد جهد ولأْيٍ وتوفيق من الله تعالى، استوى كتاب القوت بين يَدَىّ كاملاً غير منقوص.

وبعد:

فإنى أتوجّه لله وحده بالشكر والحمد والتسبيح على أن قيّض لى تحقيق هذا الكتاب وأعاننى عليه، فهو كنز من كنوز الآخرة، ومدرسة عليا لتخريج الفحول والخواص من السالكين، ولا يستغنى عنه مسلم أبدًا فى حياته وجميع أحواله.

كما أشكر الأستاذ الفاضل إسماعيل عبيد، على قيامه بتحمل تكلفة طبع هذا الكتاب ونشره. وأشكر أخى المهندس ياسر الذى ساعدنى فى مقابلة أحد الأصول المخطوطة. ولا أنسى أخى الفاضل الأستاذ ناصر رجب الذى قام على تصحيح

(١) ذلك أننى نشأت فى بيئة مفعمة بالجو الروحى، فى أحضان السّاحة الرضوانية المباركة، بجنوب مصر بالأقصر.

تجارب الطبع وما أبداه من ملاحظات قيمة فكانت له أيادٍ على الكتاب وعلى محقِّقه لا تُنسى. كذلك لا أنسى رفيقة الدرب أمّ عبد الرحمن زوجتى وما أعانتنى به من التشجيع وحفز الهمّة والدّعاء لى لأنجز مهمتى تلك على خير وجه. أدعو الله السميع المجيب أن يجزيهم عنى خير الجزاء، وأن يجعل هذا الكتاب وما أنفقتُه فيه من جهد ووقت فى ميزان حسناتى يوم القيامة، وأن ينفع به جميع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها. وأطلب من أخى القارئ الكريم ألا ينسانى من صالح دعائه.

اللهمّ صلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد النبى الأُمّىّ وعلى آله وصحبه. اللهمّ إنِّى أعتذر إليك من جَهْلى، وأستَوْهِبُك سُوءَ فعلى، فاضمُمنى إلى كَنَفِ رحمتك تطوّلاً، واسْتُرْنى بستر عافيتك تَفَضُّلاً. اللهمّ وإنّى أتوبُ إليك من كلّ ما خالفَ إرادتك، أو زال عن محبَّتك من خطرات قلبى، ولحظات عينى، وحكايات لسانى، توبة تَسْلَمُ بها كلُّ جارحةٍ على حالها من تبعاتك، وتأمن ممَّا يخاف المعتدون من أليم سطواتك. اللهمّ إنى أمسيت وأصبحت وأنت ثِقَتى ورجائى فى الأمور كلها، فاقضِ لى بخيرها عاقبةً، ونَجِّنى من مُضِلاتِ الفِتَنِ، برحمتك يا أرحم الرَّاحمين، وصلّى الله على سيدنا محمد رسول الله المصطفى، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وسلامٌ على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

الجيزة ـ مدينة ٦ أكتوبر ـ الحى السابع
ت: ٠١١٣٦٢٥٩٧ ـ ٠١١٣٥٠٠٠٨
٢٧ من رجب سنة ١٤٢٢هـ
١٤ من أكتوبر سنة ٢٠٠١م

وكتبه الفقير الرّاجى عفو ربه
محمود بن إبراهيم بن محمد الرضوانى
دار العلوم ـ جامعة القاهرة

أبو طالب المكى، وكتابه «قوت القلوب» «سيرة موجزة»

• نسب أبى طالب:

هو أبو طالب، محمد بن على بن عطية، المكىّ، الحارثى، العجمى، ويلقّبه الذّهبىّ بالأستاذ(١).

ومن الغريب إغفال المصادر الصُّوفية له، إذ لم تعرِّف به، ولم تُترجم له، على الرغم من رسوخِ قدمه فى مجال علم التصوف، وكتابه يُعَدُّ مَعْلمًا مهمًا من معالم علم السلوك. إذ لا نجد له ترجمةً فى طبقات الصوفية للسُّلَمى مع أنه ألّفه فى نهاية القرن الرابع، أى بعد وفاة أبى طالب المكىّ سنة ٣٨٦هـ. كذلك أغفله صاحب «حلية الأولياء»، على الرغم من ـ كما يقول الدكتور عبد الحميد مدكور ـ «أن المكى وأبا نعيم يشتركان فى التّلقّى عن بعض الشيوخ كعلى بن أحمد المصّيصى، وأبى بكر الآجُرّى، وأبى بكر بن المفيد، وأبى بكر بن خلاّد النّصيبى»(٢). ولعل هذا يؤكد المقولة المشهورة: «المعاصرة حجاب».

كذلك لم يذكره القُشَيرى بين شيوخِ رسالته، ونحا ابن الجوزى هذا النحو فى كتابه، «صِفة الصَّفوة»، مع أنَّه ذكر المصطفين من عبّاد بغداد المجهولى الأسماء، بل ذكر المجانين والمعاتيه، والمجهولات الأسماء. كذلك أغفله ابن الملقّن فى كتابه «طبقات الأولياء»، والمناوى فى: «الكواكب الدّريّة». هذا الإهمال لترجمة هذا العَلَم الكبير أدّى إلى ضياع المعالم البارزة لحياته، حتى إن هذه الترجمات القليلة

---

(١) ثمة رسالة ماجستير بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة بعنوان: «أبو طالب المكى ومنهجه الصوفى» إعداد عبد الحميد عبد المنعم مدكور ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢م، وهى على حد علمى لم تطبع فى كتاب حتى الآن.

وقد أفدت من مقدمتها فى التأريخ لأبى طالب إفادة واسعة، ولو كانت مطبوعة فى كتاب لأحلت إليها وما كتبت هذا التعريف بأبى طالب.

(٢) انظر: أبو طالب، ص ٢١.

التى وصلت إلينا كانت مبتورةً غير دَالة، والمعلومات التى أوردتها ـ على قلّتها ووجازتها ـ «احتوت على بعض الأخطاء التاريخية»[١]، ذكر د. عبد الحميد مدكور من هذه الأخطاء حكاية رويت فى احتضار أبى طالب والصواب أنها ليست فى أبى طالب بل هو الذى رواها فى كتابه عن أحد الصالحين[٢].

ولعل أوّل الذين ترجموا لأبى طالب هو الخطيب البغدادى فى كتابه «تاريخ بغداد»، «وكانت ترجمته أساسًا لما تلاها من ترجمات، حيث كان بعضها ينقل عن بعض غالبًا»[٣] دون زيادة أو تحرير لما يكون فيها من أخطاء، كما سأشير إلى ذلك بعد قليل.

لا يحدّد المؤرخون تاريخًا لمولد أبى طالب المكّى، وكل ما يذكرونه أن مولده كان بالجبل (العراق)، ثم هاجر إلى مكة فنشأ بها ونُسِب إليها، ولا تذكر المصادر شيئًا عن تاريخ هذه الهجرة، ولم يحدثنا هو عن أسبابها. وفى مكّة التقى بعددٍ من شيوخه منهم ابن الأعرابى، وأبو بكر الآجرى، وأبو على الكرمانى، الذى يعدّه المكى من الأبدال.

ثم غادر المكّى مكة لعل ذلك قبل سنة ٣٤٦هـ، لأنه جرى خلاف بينه وبين عبد الصمد بن على أحد شيوخ الحديث ببغداد، إذ عاتبه فى السّماع، فأسمعه أبو طالب بيتًا من الشعر فخرج مغضبًا[٤]، وعبد الصمد هذا توفى ببغداد سنة ٣٤٦هـ. ثم دخل البصرة والتقى بشيخه أبى الحسن بن سالم، ثم غادر البصرة إلى بغداد، وكانت بغداد آنذاك مقامًا لكثير من الصوفية، ولما دخل بغداد «اجتمع الناسُ عليه، وعُقِد له مجلس الوعظ بها»[٥].

(١) أبو طالب المكى، د. عبد الحميد مدكور، ص ٢٢.
(٢) انظر: المصدر السابق، ص ٢٢.
(٣) السابق، ص ٢٢.
(٤) انظر: البداية والنهاية ١٥/ ٤٦٨.
(٥) انظر: تاريخ بغداد ٣/ ٨٩، والمصادر التى نقلت عنه هذه المقولة: البداية والنهاية ١٥/ ٤٦٧، وسير أعلام النبلاء ١٦/ ٥٣٦، وغيرهما.

● شيوخ أبى طالب المكى[١]:

تنوَّعَ شيوخُ أبى طالب ما بين فقيه ومحدِّث وصوفى، وقد استقى منهم ثقافتهم مما أسهم فى صقل موهبة أبى طالب وتنوع معارفه، وعلى الرغم من قلّة المادة العلمية فى ترجمة أبى طالب فإنها قد احتفظت لنا بذكر بعض العلماء الذين تلقى عليهم أبو طالب، وأهم هؤلاء:

١ ـ عبد الله بن جعفر بن فارس، وهو محدّث أصبهان، معروف بالصلاح، وقد روى عنه أبو طالب بالإجازة، ت ٣٤٦هـ.

٢ ـ أبو بكر الآجُرِّى، التقى به أبو طالب فى مكة بعد أن هاجر الآجرّى من بغداد هربًا من الفتن، وجاور بمكة، وقد أرّخ أبو طالب لدخوله مكة فقال: «قدِم علينا مكـة فى سنة ثلاثين وثلاثمائة»[٢]. وهو رجل ثقـة، ومن حفاظ الحديث، ت ٣٦٠هـ. [انظر ترجمته فى: سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٣٣ وما بعدها].

٣ ـ على بن أحمد المصِّيصىّ، ت ٣٦٤هـ، وهو موصوف بالتسامح فى رواية الحديث.

٤ ـ أبو زيد المروزىّ، ت ٣٧١هـ، وهو من أحفظ الناس لمذهب الشافعى، وله رواية لصحيح البخارى، روى أبو طالب عنه بعض صحيح البخارى.

٥ ـ أبو بكر محمد بن أحمد المفيد، ت ٣٧٨هـ، يوصف بالإكثار فى رواية الحديث، ولكنه متهم فى روايته. [انظر ترجمته فى: سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٦٩].

٦ ـ أبو بكر بن خلاد النُّصيبىّ.

وهؤلاء الشيوخ تبرز فيهم صفة الحديث والفقه، وهذا كما يقول د. عبد الحميد مدكور «يفسّر لنا تلك النزعة السلفية التى تعد من الصّفات البارزة فى شخصية

(١) انظر: أبو طالب المكى، ص ٥٣ وما بعدها. وانظر: سير أعلام النبلاء ١٦/ ٥٣٦.

(٢) انظر: القوت (الميمنية) ١/ ١٦٥، وقد سقطت «ثلاثمائة» من المطبوعة، أثبتها من نسخة (ك) المخطوطة، لوحة رقم ٨١.

المكى وثقافته، والتى اتّضحت فى نظراته التقويمية التى قاس بها كثيرًا من ظواهر الحياة فى عصره... ويبدو أنه تأثر فى بعض آرائه تأثرًا مباشرًا ببعض هؤلاء الشيوخ، فيمكن أن يكون موقفه من علم الكلام امتدادًا لآراء شيخيه: المروزى، والآجرِّى. كذلك يمكن أن يُعد موقفه من الحديث الضعيف راجعًا إلى تأثّره بشَيخيه: المصّيصى والمفيد»[١].

٧ ـ أبو عبد الله، محمد بن أبى الحسن أحمد بن محمد بن سالم[٢]، ويرى د. عبد الحميد مدكور «أن المكّىّ التقى بابن سالم وصحِبَهُ، ولعلّ صُحبته له كانت لمدة قليلة، ولكنها كانت كافية لينزل أبو الحسن من نفسه مكانة سامية، وإن كانت المصادر التاريخية تذكر أنه دخل البصرة بعد وفاة ابن سالم»[٣].

٨ ـ أبو سعيد بن الأعرابى البصرى، ت ٣٤١ هـ، بصرى الأصل، سكن بمكة، وكان فى وقته شيخ الحرم، ومات بها، صنَّفَ للقومِ كُتُبًا كثيرة[٤]، والتقى به أبو طالب فى مكة.

هؤلاء وغيرهم ممن أخذ عنهم وتتلمذ على كتبهم، وكان معجبًا كثيرًا بالحسن البصرى، وإبراهيم بن أدهم، يسير على نهجهم، وينقل كثيرًا عن سهل بن عبد الله التسترى[٥]، ويلقبه بشيخنا وإمامنا، ويقدّم آراءه على آراء غيره. يقول عن الحسن البصرى مثبتًا إمامته: «والحسن رحمه الله هو إمامنا فى هذا العلم الذى نتكلم به، أثره نقفو، وسبيله نتَّبع، ومن مشكاته نَسْتضىء، أخذنا ذلك بإذن الله تعالى، إمامًا عن إمام، إلى أن ينتهى ذلك إليه»[٦]. فهؤلاء الشيوخ وغيرهم من أهل العلم

---

(١) أبو طالب المكى، ص ٥٣ ـ ٥٤.

(٢) كذا نسبه فى السير ١٦/ ٢٧٢، وأثبته د. عبد الحميد فى رسالته: «أبو الحسن أحمد بن أبى عبد الله محمد بن أحمد بن سالم» ص ٦١، وانظر: طبقات الصوفية، ص ٤١٤ وما بعدها.

(٣) أبو طالب المكى، ص ٦١ ـ ٦٢، وانظر: وفيات الأعيان ٤/٣٠٣، وأنا أميل إلى ما ذهب إليه د. عبد الحميد، راجع أدلته فى ذلك.

(٤) طبقات الصوفية، ص ٤٢٧، وانظر: تذكرة الحفّاظ للذهبى ٣/ ٨٥٢.

(٥) راجع ترجمته ومصادرها فى طبقات الصوفية، ص ٢٠٦.

(٦) انظر: القوت (الميمنية) ١/ ١٤٩.

«قد أسهموا فى صقل مواهبه الروحية، وتحديد اتجاهه الصوفى، وأمدّوه بزاد من القواعد والتّقاليد التى انتفع بها وهو يضع منهجه، كما أضافوا إليه ثروةً من المعارف التى انتفع بها فى تأليف كتابه القُوت، ويشاركهم فى ذلك عدد كبير من الصوفية الذين امتلأ كتابه بالإشارة إلى أقوالهم وأحوالهم»(١).

• تلاميذه:

من المؤسف حقًا أن يقع أبو طالب - وهو العَلَم المشهور - «فريسة لإهمال غريب من مؤرخى الصوفية، الذى كان سببًا فى ندرة المعلومات التى نعرفها عنه، ويبدو أن هذا الإهمال قد ضرب أطنابه على من انتسب إليه من التلاميذ والأتباع»(٢).

ومن تلاميذه الذين أوردت بعض المصادر ذكرًا لهم: أبو القاسم بن سرات، وعبد العزيز الأزجى، ومحمد بن المظفر الخياط، وغيرهم. «وإذا لم يكن المكى قد حظى بعدد كبير من التلاميذ، فإنه أصبح فيما بعد أستاذًا لكثيرين ممن تأثروا به، واستشهدوا بآرائه»(٣).

• سلامة عقيدة أبى طالب المكى من البدع:

كان أبو طالب رحمه الله صحيح العقيدة، متبعًا للكتاب والسُّنّة، وهنا أفسح مجال القول للدكتور عبد الحميد مدكور ليبين مَعْلمًا مهمًا من حياة أبى طالب وكتابه، ويُظهر صحّة عقيدته، ويردّ عنه التهمة التى أُلصقت به ظُلْمًا وعُدوانًا، وسوف أسوق كلامه بطوله ونصه لدقته ودلالته فى توضيح ما نحن بصدده؛ لإصابته مفصل القول، يقول: «وإذا اعتبرنا «قوت القلوب» حصيلةً لدروس الوعظ التى كان يلقيها المكى بجامع بغداد - وهو لا شك يمثل جانبًا كبيرًا منها - فإن لنا

(١) أبو طالب المكى، ص ٥٩.

(٢) السابق، ص ٥٩، ولعل من بقايا الإهمال أيضًا لهذا الشيخ؛ أن تظل مثل هذه الدراسة القيمة - أعنى دراسة د. عبد الحميد مدكور - حبيسة الأرفف لم تطبع فى كتاب بعد - على حد علمى - يتداوله الناس ويتعرفون أحوال أبى طالب وعلمه عن قرب.

(٣) السابق، ص ٦١.

أن نَحْدِسَ بالموضوعات والمسائل التى كان يتناولها، فقد كان يتحدث عن تطهير القلب وإخلاص النية... ثم يتناول بالحديث مقامات الصالحين، وأحوال الموقنين، وإخلاص أهل الخصوص من العابدين. ولم يُخْلِ حديثه من (نَقدات) كان يوجهها إلى معاصريه، لتباعدهم عن هدى السلف وانشغالهم بزخارف الدنيا عن القيام بحقّ الله عليهم، وكان يستعين فى ذلك كلّه بمحفوظه من الكتاب والسنّة، ومعرفته بأحوال السّلف وأقوال الصّالحين، ناثرًا ذلك كله فى أسلوب رائق وعبارة طلية، تتناول موضوعات تحرّك القلب، وتهزّ الوجدان.

ومن شأن ذلك أن يجمعَ القلوب حوله، ومن شأنه ـ أيضًا ـ أن يحرّك الضّغائن والأحقاد لدى ضعاف القلوب الذين يتناولهم بنَقْده، ومن شأن هؤلاء أن يقبّحوا الحَسَنَ، ويَتَسَقَّطوا العثرات والزلات، بل قد يصل الأمر إلى حدّ تحريف الكَلِم عن مواضعه، أو التقوّل على الناس كذبًا وافتراءً. ويبدو أن «المكّىّ» أصابه من ذلك رشاش، فنُسب إليه أنه خَلَطَ فى كلامه، وأُضيف إليه أنه قال: «ليس على المخلوقين أضرُّ من الخالق. فبدّعه الناس وهجروه»[1]. والجماهير سهلة الانقياد، سريعة التّصديق، ليس لديها الوقت للتحقّق والبحث والتمحيص، وهى لا تملك وسائل ذلك إن أرادته، ومع ذلك كانت تجعل نفسها حكَمًا فى كثير من المسائل الاعتقادية دون أن تكون مزوّدةً بالوسائل المناسبة للفصل والقضاء فيها. ونتج عن ذلك أن امتنع المكّى من الكلام على الناس. ولعل ما حدث للمكّى كان متصلاً بسياسة الدولة التى كانت تلجأ فى بعض الأحيان إلى أن تصدر مرسومًا بألا يقص أحد أو يعظ فى سائر بغداد.

على أنَّ بعض المؤرّخين لم يُسلّم بنسبة هذه العبارة إلى المكّى، فحاول التشكيك فى نسبتها إليه، وعزا ذلك إلى الخطأ فى النقل عنه، ومن هؤلاء «طاش كبرى زاده» الذى يقول: وينسب هذا القول لأبى طالب... إلا أنّ شأن الرجل أعظم من أن يتكلم بأمثال هذا الكلام، ولعل فى النقل عنه خللاً[2]. ويشبه هذا الدّفاع

(١) تاريخ بغداد ٣/ ٨٩، وهو يرويه عن ابن العلاف الواعظ، وترجمة هذا بتاريخ بغداد ٣/ ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٢) مفتاح السعادة ١/ ٤٢٢.

ما ذكره الطُّوسى فى «اللمع» عند دفاعه عن أبى بكر الشِّبلى: «وإنّما يجد المتعنّت فرصة بالوقيعة والطعن فى الكلام المجمل دون المفصّل؛ لأنّ المجملَ ربما يكون له مقدمات لم تبلغ المستمع، والمفصّل يكون مشروحًا مبينًا محررًا والمجمل لا يكون كذلك»[١].

وذهب سبط بن الجوزى فى دفاعه عن المكّى إلى أن هذه الكلمة ربما تكون قد صدرت عن المكّى فى حالة القبض، إن ثبت ذلك عنه، فإنّه كان أورع من أن يتلفظ بمثل هذه الكلمات التى توقع فى المحذورات[٢].

والذى يظهر أن خللاً قد وقع بالفعل فى النقل عنه، ويمكن أن نتأكد من ذلك بالرجوع إلى قوت القُلوب ذاته، فقد تحدّث المكّى فيه عن هذه المسألة بعينها أثناء حديثه عن سعة رحمة الله، وتفضّله على عباده، وغفرانه لهم إذا أقبلوا عليه ولجأوا إليه، وإنها لرحمة تنتزع اليأس من القلوب... «وربما بلّغ الله تعالى العبدَ بحسن الظن به وقوّة الأمل والطمع فيه جميع ما ذكرناه من مقامات اليقين، بعد أن يكون حَسَنَ اليقين... وربما بلّغه منازل الشهداء بشىء واحد يتركه له، أو شىء يؤثره به، لأنه غفور شكور، وأضرُّ شىءٍ على العبد قلّةُ معرفته به، فلربما كان العبد على تسع كبائر، فيترك العاشرة لوجه الله تعالى، فتكون تلك الخصلة ذرّة إلى جنب تسعة أجبل، فينظر الله تعالى إليه بوجهه لوجهه الذى تركه له نظرة، فتمحو تلك النظرةُ الجبالَ التسعة فتصير هباء منثورًا[٣].

والفارق كبير بين ما يذكره المكّى فى هذا النص، وبين ما يُنسب إليه»[٤].

انتهى كلام أستاذنا الدكتور عبد الحميد عبد المنعم مدكور بمراجعه التى أثبتها

---

(١) اللمع، ص ٤٨٢.

(٢) مرآة الزمان، القسم ٢، ص ١٨٧.

(٣) قوت القلوب، الحلبى (١٩٦١م) ٢/١٥٩.

(٤) انظر هذا الكلام الطويل بنصه فى رسالة الماجستير «أبو طالب المكى» ص ٢٨ ـ ٣٠. وثمة تهمة أخرى ألصقت بأبى طالب وهى: نسبته إلى فرقة السالمية. وهذه أيضًا فندها د. عبد الحميد مدكور بما لا يدع مجالاً للشك فى براءته منها، انظر رسالته ص ٦١ ـ ٧٤، فإن المجال يضيق عن سردها هنا.

جزاه الله خيرًا، فقد أبان إبانة كاملة عما يعتمل فى نفسى من هذه القضية منذ أن قرأتها فى ترجمته وقرأت كتاب القوت وقابلته على نسخه المخطوطة؛ فلم أجد فيها مثل هذه التهمة ولا ما يقاربها، ولذلك فإن شيخ الإسلام ابن تيمية لم يتعرض لها لعلمه ببطلانها، عندما سئل عن كتاب القوتِ وكتاب إحياء علوم الدين للغزالى، فقال: «وأبو طالب أعلم بالحديث والأثر، وكلامِ أهل علوم القلوب من الصوفية وغيرهم من أبى حامد الغزالى. وكلامهُ أسدُّ وأجودُ تحقيقًا، وأبعدُ عن البدعة، مع أن فى «قوت القلوب» أحاديث ضعيفة وموضوعة، وأشياء كثيرة مردودة»[1].

ولا يقصد الشيخ بالأشياء المردودة مثل تلك التهمة، بل يقصد الروايات التى يرويها عن الأمم السابقة وعن بعض أهل العلم ويجعلها شاهدًا له فى شرح المقامات وغيرها.

وأيًا كانت الدّواعى لنسبة مثل هذا القول إلى المكّى، فإنّه امتنع عن الحديث والوعظ بمسجد بغداد، واستمر على ذلك حتى أدركته الوفاة لستٍّ خلَوْنَ من جمادى الآخرة سنة ٣٨٦هـ.

• مؤلفات أبى طالب:

تشير المصادر التاريخية إلى بعض مؤلفات لأبى طالب لكنها قليلة، ولم يصلنا سوى هذه الموسوعة العظيمة: «قوت القلوب» وهو أهمها، وسيجىء حديثنا عنه بعد قليل. فقد ذكر هو كتاب «مناسك الحج» فى ثنايا القوت. وأشار الذهبى إلى مسند له فى الحديث يضم أربعين حديثًا. أما كتاب «علم القلوب» الذى ينسب إليه، فإن الدكتور عبد الحميد مدكور يرجح أن هذا الكتاب ليس له، ويسوق حججًا قوية ومقنعة فى ذلك[2].

* * *

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٥٥١.

(٢) انظر: أبو طالب، ص ٧٦ ـ ٧٩.

قوت القلوب

ألّفه ببغداد، ولا يعرف على وجه التحديد الزمن الذى كتبه فيه، ويرى د. عبد الحميد مذكور أنه كتبه بعد سنة ٣٦٠هـ، لأنه كتبه بعد وفاة شيخه الآجُرِّى التى كانت فى هذه السنة.

• أهمية هذا الكتاب:

قال ابن عبَّاد النفرى شارح حكم ابن عطاء مبيّنًا قيمة كتاب القوت: «أما كتاب أبى طالب فعليه وقع الاختيار، إذ لم يقع بين أيدينا مثل مَنْزَعِه، فإنّه فيه فتح مغالق علم التصوف، وجمع فيه بين المعانى الصحيحة، والألفاظ الحسنة، وذكر فروع علومهم وأصولها، ورسم مسائلها وفصولها، فكان لذلك كالمدونة فى علم الفقه، يقوم مقامَ غيره، ولا يقوم غيره مقامه»[1]. هذا كلام رجل خبير بالكتاب وفوائده، فهو كلام دالٌّ على قيمة الكتاب وتفرّده فى بابه، ويمكن أن نبين ما أجملته الفقرة السابقة حول أهمية قوت القلوب فى النقاط الموجزة التالية:

١ ـ أراد أبو طالب من خلال تسمية كتابه «قوت القلوب...» أن يجعله مصدرًا مهمًا وينبوعًا فياضًا لحياة المسلم، إذ أنه معلوم بالضرورة أن القوت مطلب ضرورى لكل ذى روح، وحياة الإنسان تنبع من حياة قلبه، وصلاح جسده نتيجة لصلاح قلبه، وحياة قلبه بالزّاد والتقوى، فكان اختياره هذا اختيارًا لمّاحًا ينمّ عن بَصَرٍ وإشراق نفسٍ، صاغتها مكارم الإسلام، وزانتها رحابة آفاقه، وانفساح نظرته.

٢ ـ انطلق أبو طالب فى جميع مراحل كتابه من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهّرة، يستمد منهما الإشارات والقواعد التى ينطلق منها لوضع منارات الطريق،

(١) الرسائل الصغرى لابن عبّاد، تحقيق الأب بولس، وقد نقلته عن رسالة د. عبد الحميد مذكور: أبو طالب المكى، ص ٨١.

وبيان مدارج السالكين ومنازل السائرين، ويربط بين الأصلين القرآن والسنة وبين التطبيق العملى للسّالكين، فكل حالٍ أو إشارة أو مقالةٍ أو سلوك يخالف القرآن والسنة يوضح خلَله ويبرز ضعفه، ويسقطه من حساب المتقين.

٣ ـ تحليلات أبى طالب للمقامات وإشاراته للأحوال تنمّ عن معاناة حقيقية وتجربة روحية قد خاضها ومرَّ بها، إذ نجده فى كتابه يصف أحوالاً لا يصفها إلا عارف، ويفصل مقامات ويفرّق بين منازلها بصورة لا يعرفها علم اليقين إلا من سلك دروبها وخَبرَ شعابها وذاق من شرابها. ومن ثَمَّ فإن حديثه عن المقامات لم يكن كلامًا صادرًا عن مجرد التأمل النظرى أو تجميع النصوص من هنا وهناك، ورصّها رصًا دون فقه أو تحليل أو إرشاد، ولعل القوت بهذه الميزة يفارق كثيرًا من الكتب التى وضعت فى هذا المجال، ويحلّق وحده فى سماء الشفافية الروحية مخلّفًا غيره فى الأرض.

٤ ـ ولعل أبرز نقطة فى منهجه هو إلحاحه الشديد على بيان الفكرة المطروحة ومحاولة الإقناع بها بكافة السبل المتاحة من الأدلة والشواهد التطبيقية والتحليلات الخاصة. حتى لا يدع مجالاً للتردد أو الشك لدى القارئ فى التسليم والاقتناع ثم البدء فى التطبيق[1]. وكان يعرض ذلك كله فى أسلوب أدبى مشرق، وحجج قوية معتمدة على الكتاب والسنة، ومن خلال عبارات غنية دالة موحية بسلامة الذوق ونصاعة الحجة، وجودة الصياغة، وبلاغة التأثير. قد استهدف بكل حرف فى كتابه غاية قصد إليها، وحرص على إبلاغها، معبرًا فى كل تنظير أو تطبيق عن روح القرآن الكريم وجوهر السنة النبوية.

٥ ـ هذا الكتاب يعوض الإهمال الذى تعرض له أبو طالب من المؤرخين بصفة عامة، ومؤرخى الصوفية بصفة خاصة، ويرد عنه التُّهم التى ألقيت حوله جزافًا دون دليل أو سند، «ويصحح كذلك بعض ما حوته المصادر التاريخية من أخطاء

(١) يضيق المقام لو أردنا أن نذكر أمثلة على ذلك، ولكن أنت واجده فى جميع صفحات الكتاب، وعسى الله أن ييسِّر لنا قريبًا إخراج دراسة تفصيلية حول منهج أبى طالب وأسلوبه والفرق بينه وبين من كَتَب فى هذا الميدان سواء من سبقه أو لحق به.

لم يكن تصحيحها ممكنًا بغير الرجوع إلى القوت»[١].

٦ ـ يعتبر هذا الكتاب هو الكتاب الأم فى تاريخ التصوف الإسلامى ومَعْلمًا بارزًا من أهم معالمه، «فهو مع كتاب «اللمع» يمثلان أهم كتابين صدرا عن التصوف الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى، وقد أثَّرا معًا فى التصوف والصوفية تأثيرًا عميقًا، مادة ومنهجًا، فظهرت آثار القوت فى الإحياء، والغنية للجيلانى، وعوارف المعارف للسهروردى»[٢].

٧ ـ احتوى الكتاب «على صورة واضحة المعالم محدّدة القسمات للطريق الصوفى، ولما يكلّف به سالك الطريق من مجاهدات ومعاملات وما يرقى فيه من منازل ومقامات» كما اشتمل أيضًا على «كثيرٍ من آراء الزّهاد الصوفية قبل أبى طالب، مما يجعل الكتاب مرجعًا لا غنى عنه فى معرفة آراء هؤلاء واتجاهاتهم»[٣].

رحم الله أبا طالب؛ صوّر فأحسن التصوير، وبلّغ فأحسن التبليغ، ووصف فأحسن الوصف، وأشاع الحركة والحياة والرّوح والحيوية فى جوانب الطريق إلى الله، فطمأن السّالكين، وحذّر المدعين، فكان عالمًا نفسانيًا، وحكيمًا ربانيًا، وعارفًا روحانيًا، يتسلل بأحواله وتحليلاته إلى هواجس النفوس فيكشفها، وينفذ ببصيرته وقلبه إلى خفايا الصدور وخفقات القلوب فيبصّرها. ويخاطب كلاً بما يعرف من نفسه، وكأنّ القارئ فى حوارٍ خاص مع أبى طالب، وأنه هو المقصود وحده بالخطاب. كذلك كان أيضًا يغوص فى بحار المعرفة، ورقائق الذوق فيكشف عن أخطاء العابدين، وفتور السّالكين، وغرور الجاهلين، وتلبيسات المحبين ووسوسة الزاهدين، فجلّى بذلك صورة السّالك المسلم تجلية واضحة كما جاءت فى القرآن الكريم، وتجلّت فى سنة رسولنا الكريم ﷺ.

ذلك هو بعض ما نكشفه، ونبين عنه، ونشير إليه من جواهر القوت ليدل على ما فيه، فكلّ بيان وتقديمٍ له، لا ينهض بحقّه ولا بحقّ صاحبه، ولا يفى بقَدْره،

(١) أبو طالب المكى، ص ٨١.
(٢) السابق، ص ٨١.
(٣) السابق، ص ٨١.

ولا يصوّر علمه وذوقه. إنه جامعة إسلامية لتخريج أفذاذ الرّجال والفحول والأئمة الكبار، وتجميع مقامات السالكين بعيدًا عن الانحراف والبدع والادّعاء والتقليد والتزييف وطلب الدنيا، جامعة لا يعرف قدرها، ولا يطّلع على حقيقتها، ولا يدخل رحابها؛ إلا من تذوّق منهجها وعاش فى جنباتها، واستنار بأنوارها؛ إنه: «قوت القلوب فى معاملة المحبوب، ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد».

• مآخذ على كتاب القوت:

لا يعنى تقريظنا للكتاب ووصفه بالتفرّد أنه لا يخلو من مآخذ أو نواقص، وإنما النقص سمة من سمات البشر ومن طباعهم، ولذلك فهناك ثمة مآخذ على كتاب القوت أخذها عليه بعض العلماء والدّراسين، ذكرها د. عبد الحميد مدكور، وهى باختصار:

١ ـ يذكر ابن الجوزى ـ وهو محق ـ أن أبا طالب ذكر فى كتابه كثيرًا من الأحاديث الباطلة، وما لا يستند فيه إلى أصل من صلوات الليالى والأيام. ولكن منهج أبى طالب كما يقول د. عبد الحميد: أنه كان يقبل الحديث الضعيف إذا كان واردًا فى الترهيب والتزهيد فى الدنيا ـ وإن اختلف العلماء فى ذلك ـ وفى ذكر أهوال القيامة(١).

أقول: لكن تعدى أبو طالب الأحاديث الضعيفة إلى الموضوعة أحيانًا، وتعدّى دائرة الترهيب والتزهيد إلى دائرة الفضائل، ولقد كان ـ رحمه الله ـ فى غنى تامّ عن سرد مثل هذه الأحاديث، وليست هى على شرطه فى الكتاب ولا من غايته أن يتحدث عن فضائل الأعمال، فلو برّأ كتابه منها لارتفعت قيمته درجات.

٢ ـ بالكتاب أيضًا كثير من الإسرائيليات وأخبار الأمم السابقة، كان ينبغى أن يبرّأ كتابه منها، وروايات تحتاج فى قبولها إلى نظر.

أقول: وما أثر عن النبى ﷺ وما روى من سيرة سلفنا الصالح كان فيه غنًى ومقنع لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

٣ ـ وأخيرًا إن الكتاب ينقصه شىء من التبويب والترتيب يجمع شتات ما تناثر

---

(١) انظر: أبو طالب المكى، ص ٨٢ وما بعدها.

فيه من أجزاء كان ينبغى وصلها لارتباطها الوثيق بعضها ببعض، مثال ذلك الحديث عن الصلاة فقد جاء مفرّقًا فى مواطن عدّة.

أقول: على أيّة حال فإن هذه المآخذ تعد شيئًا هينًا فى جنب روعته وجماله، ولا تؤثر على الغاية التى وضع من أجلها، بل لعلها كانت فى بعض المواطن سببًا للإثارة والإمتاع.

• شرح القوت واختصاره:

ـ يوجد شرح للقوت كتبه أبو عبد الله الطبرى بن عبد الله، وسمّاه: «تبسيط كتاب قوت القلوب فى معاملة المحبوب». منه نسخة على الميكروفيلم بمعهد المخطوطات برقم ٨١ تصوف، ولكنها رديئة التصوير لا ينتفع بها.

ـ واختصره محمود بن على بن محمد القاشانى فى كتاب سمّاه: «لباب القوت من خزائن الملكوت»، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية برقم ٩٦٥ تصوف طلعت، وهى فى ١٢٠ ورقة وتاريخ نسخها ١١٢١هـ.

• أثر الكتاب فى اللاحقين:

يمثل أبو طالب وكتابه مَعْلمًا بارزًا مهمًا من معالم التصوف وكتب السلوك، بما يشتمل على كثير من آراء الزهاد والصوفية وأحوالهم وتجاربهم قبل أبى طالب وفى عصره مما يجعل الكتاب مرجعًا لا غنى عنه فى معرفة آراء هؤلاء واتجاهاتهم، ومن ثم فقد اتكأ عليه بعض الذين كتبوا فى منهج القوت من التصوف، فنجد تأثيره ظهر جَليًا عند عبد القادر الجيلانى ت٥٦١هـ فى كتابه «الغُنية لطالبى طريق الحق عز وجل»، وعند شهاب الدين السَّهرورْدى ت٥٣٩هـ فى كتابه «عوارف المعارف»، وعند الغزالى ت٥٠٥هـ فى كتابه الإحياء. وأكتفى بهذه الإشارة إلى مثل هذا التأثير، ومن أراد التفصيل حول ذلك فليرجع إلى ما كتبه د. عبد الحميد مدكور[١].

والآن بقى الحديث عن الأصول المخطوطة التى تم اعتمادها فى تحرير هذه النشرة الجديدة من كتاب القوت، وهذا هو حديثنا فى الصفحات التالية.

(١) راجع: أبو طالب المكى، ص ١٣٤ ـ ١٥٤.

النسخ المخطوطة المعتمدة فى التحقيق

اعتمدت فى إخراج هذه النشرة المحققة على النسخ التالية:

١ ـ نسخة دار الكتب المصرية برقم: ١٥٤٣ تصوف.

٢ ـ نسخة أخرى من دار الكتب المصرية برقم: ١٥٤٤.

٣ ـ نسخة مكتبة فيض الله بتركيا برقم: ١٢٤٩.

٤ ـ نسخة مكتبة جار الله بتركيا برقم: ١٠٧٦.

٥ ـ نسخة مكتبة ولى الدين بتركيا برقم: ١٧٥٧.

٦ ـ مطبوعة الميمنية لقوت القلوب وهى الطبعة الأولى للكتاب سنة ١٣١٠هـ.

• وصف النسخ:

١ ـ نسخة دار الكتب المصرية ورمزها (ك):

هى من مخطوطات دار الكتب المصرية برقم: ١٥٤٣ تصوف طلعت، ورقمها فى الميكروفيلم ٧٣٨٣، وعدد أوراقها ١٨١ ورقة فى كل ورقة وجهان أو صفحتان فى كل صفحة ٤٣ سطرًا، ويحتوى السّطر الواحد غالبًا على ٢٣ كلمة، ومقاس الأصل ٣٠ × ٢٢سم، كتبت بخط مغربى دقيق، خالية من التشكيل، وليس بها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ، وتشمل هذه النسخة الكتاب كاملاً، وعنوان الكتاب فيها كالآتى:

«كتاب قوت القلوب فى معرفة الطريق إلى معاملة المحبوب».

توجد فى هذه النسخة زيادات طفيفة على ما فى المطبوعة، لكنها فى الوقت نفسه تخلو منها بعض النصوص المطبوعة. وليس بها ذكر للفصول ولا ترقيم تلك الفصول المذكورة فى المطبوعة، ونجدها أحيانًا تصدّر العنوان بكلمة: كتاب، أو باب.

وقد وجدت بها خللاً فى ترتيب أوراقها، مما أخلّ بالمادة العلمية فى بعض الفصول، وكان هذا الخلل دقيقًا جدًا، وبعد جَهْد ولأْيٍ يسّر الله إصلاح هذا الخلل.

قسّم ناسخ المخطوط الكتاب إلى خمسة أسفار، وهذا التقسيم جاء فى ثنايا الفصول. وتكمن أهمية هذه النسخة فى أنها اشتملت على الكتاب كاملاً، وصححت بعض التصحيفات التى لحقت بالمطبوعة، كما أن زياداتها الطفيفة كانت مهمة وتجىء فى موضعها من النص.

٢ ـ نسخة أخرى من دار الكتب المصرية، ورمزها (د):

وهى تقع فى ١٨٧ لوحة، فى كل لوحة وجهان أو صفحتان، فى كل صفحة ٢٦ سطرًا وفى كل سطر ١٤ كلمة تقريبًا، وهى مكتوبة بخط نسخى، قليلة الخطأ، خالية من التشكيل، وناسخها هو عبد الله بن أحمد المقدسى، فرغ من نسخها سنة ٤٩٢هـ.

تضم هذه النسخة نصف الكتاب تقريبًا، حيث يوجد منها الجزء الثانى فقط، ويبدأ من باب: «ذكر فضائل التارك للكسب» وهذا يقع ضمن الفصل الثانى والثلاثين من الكتاب، وتنتهى النسخة بنهاية كتاب القوت.

توجد بهذه النسخة زيادات كثيرة جيدة ومهمة أثبتها بعد مقابلتها بالنسخ الأخرى.

٣ ـ نسخة مكتبة فيض الله، ورمزها (م):

وهى نسخة محفوظة بمكتبة فيض الله بتركيا برقم: ١٢٤٩، ومنها صورة على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات برقم: ٢٤٠ ق تصوف، وتقع هذه النسخة فى جزأين، يوجد منها بمعهد المخطوطات الجزء الثانى فقط، ويبدأ من: «شرح مقام التوكل» وذلك فى الفصل الثانى والثلاثين، وتنتهى بنهاية الكتاب.

ويقع هذا الجزء فى ٢٣٢ ورقة أو لوحة، فى كل لوحة صفحتان، وفى كل صفحة ٢٩ سطرًا، ومقاسها ١٦,٥ × ٢٦سم، كتبت بخط نسخى قديم،

مضبوطة بالشكل، وناسخها هو محمد بن الحسن بن منصور، فرغ من نسخها سنة ٥٧٠هـ.

وتشمل هذه النسخة زيادات كثيرة جدًا على ما فى المطبوع وعلى نسخة (ك)، غير أنه وقع فيها اضطراب فى أوائل النسخة، كما وقع فيها خلط فى ترتيب الأوراق، وتكثر بها التصحيفات والأخطاء فى الكتابة أو الضبط، لكننى أفدت منها كثيرًا وأثبت جميع الزيادات التى وردت بها واتخذتها أصلاً فى الجزء الذى أوردته، وقابلت عليها بقية النسخ المخطوطة والنسخة المطبوعة.

ويمكن القول: إن نسختى (م، خ) تشكلان معًا ثلاثة أرباع الكتاب، وعليها كان مدار هذه النشرة من الزيادات التى أثبتها، عدا بعض الزيادات التى وجدتها فى بعض النسخ، ولم أجدها فى هاتين النسختين فكنتُ أثبتها فى موضعها مع الإشارة إلى مصدر الزيادة.

٤ ـ نسخة مكتبة جار الله، ورمزها (خ):

وهى نسخة محفوظة بمكتبة جار الله بتركيا برقم: ١٠٧٦، ومنها صورة بمعهد المخطوطات على الميكروفيلم برقم: ٣٤٠، وهى تقع فى ثلاثة أجزاء يوجد منها الجزء الثانى فقط بمعهد المخطوطات، ويبدأ من شرح مقامات اليقين، وهو بداية الفصل الثانى والثلاثين، وتنتهى بنهاية كتاب الزهد، ويتلوه شرح مقامات التوكل.

وهى مكتوبة بخط نسخى نفيس، وقد ضبطت بالشكل الكامل ضبطًا صحيحًا متقنًا، قليلة الأخطاء، وناسخها هو عبد الله بن الحسن بن عبد الواحد بن بندار. فرغ من نسخها سنة ٥٦٢هـ، وعدد أوراقها ١٩٥ ورقة، فى كل ورقة صفحتان، فى كل صفحة ٢٣ سطرًا، مقاسها ١٩ ×٢٨,٥سم.

اتخذتها أصلاً فى الجزء الذى أوردته من الكتاب، إذ وجدت فيها زيادات كثيرة على المطبوعة، وصوبت كثيرًا من تصحيفات المطبوعة وتحريفاتها للنص، وتبدأ هذا الزيادات قليلة ثم تزداد شيئًا فشيئًا مع منتصف المخطوط، حتى تصل الزيادة أحيانًا إلى صفحات طويلة متصلة لا يوجد منها شىء فى المطبوعة. ولكن للأسف

الشديد يوجد بها أماكن كثيرة مطموسة بيضاء فى التصوير وفى كثير من صفحاتها ـ وخاصة فى أواخر المخطوط ـ طمس فى النصف الأسفل من الأوراق، مما شكّل معاناة شديدة فى قراءة الكثير منها.

٥ ـ نسخة مكتبة ولى الدين، ورمزها (هـ):

وهى نسخة محفوظة بمكتبة ولى الدين بتركيا برقم: ١٧٥٧، منها صورة بمعهد المخطوطات على الميكروفيلم برقم: ٣٣٩ تصوف، وهى تقع فى مجلدين منها المجلد الثانى فقط بمعهد المخطوطات، ويبدأ «بشرح مقام الشكر وأوصاف الشاكرين» وتنتهى بنهاية كتاب القوت، وعدد أوراقها ٤٦١ ورقة فى كل ورقة صفحتان، وكتبت بأكثر من خط، من ص١٧٦ إلى ص٢٢٥ كتبت بخط نسخى حديث، أما بقية المخطوط فيرجع تاريخ النسخ إلى سنة ٥٥٨هـ، ولكن لا يوجد اسم الناسخ، وعدد الأسطر فى الجزء المنسوخ حديثًا يصل إلى ١٥ سطرًا، بينما فى الخط القديم فيصل إلى ٢١ سطرًا. وتوجد بها زيادات فى الجزء المكتوب بخط قديم، بعض هذه الزيادات يوجد فى النسخ الأخرى، وبعضها ـ وذلك فى كتاب الأطعمة ـ لم أجده فى غيرها.

وأشار أبو طالب فى كتاب الأطعمة بهذه النسخة أكثر من مرة إلى الزيادات على الأصل الأول، راجع كتاب الأطعمة من هذه النشرة، ولذلك فقد أثبته كاملاً عن هذه النسخة مع إشارات أبى طالب إلى تلك الزيادات.

كذلك أُشير فى حاشية أحد الأوراق أنه ترك مقدار كراستين من النص، مما يدل على أن الناسخ ترك هذا إمّا لأن الأصل الذى نقل عنه لم يكن واضحًا أو أن فيه خرمًا.

وتخلو هذه النسخة من الضبط والنقط أحيانًا، وتكثر بها التصحيفات، وأن الناسخ أحيانًا لا يبصر موضع قدمه، وكان يضرب كثيرًا على الكلام المكتوب ويصححه بالحاشية، أو يتركه. على أية حال قد يسّر الله تعالى الإفادة منها إفادة كاملة وأسهمت إسهامًا بينًا فى توثيق نصوص المخطوطات الأخرى. والحمد لله أولاً وآخرًا.

وهناك بعض المخطوطات حديثة النسخ تركت الاعتماد عليها.

٦ ـ المطبوعة الميمنية ورمزها (ط):

وهى الطبعة الأولى لكتاب قوت القلوب، طبعت بالقاهرة سنة ١٣١٠هـ وقام على تصحيح هذه النشرة الشيخ محمد الزهرى الغمراوى، رحمه الله، وصدرت فى جزأين، يشمل الجزء الأول ٢٧١ صفحة، والثانى ٢٩٨ صفحة، فى كل صفحة ٣٦ سطرًا. ووضع على حاشية الجزء الأول كتاب: «سراج القلوب وعلاج الذنوب»، للشيخ أبى على زين الدين على، وعلى حاشية الجزء الثانى كتاب: «حياة القلوب فى كيفية الوصول إلى المحبوب».

لم يذكر الشيخ محمد الزهرى ـ رحمه الله ـ الأصل الذى نشرها عنه وهى مع ذلك لا توافق موافقة تامة أيًا من النسخ المعتمدة، ولذلك اعتمدتها نسخة من نسخ الكتاب وبخاصة فى بداية الكتاب وحتى بداية نسخة (خ) وقابلتها مع النسخ المخطوطة جميعًا حتى نهاية الكتاب، وما وجدته من زيادة لم ترد فى الأصول المخطوطة أثبته، وقد آزرت هذه النسخة وأيدتها نسخة (ك) المخطوطة والتى شملت الكتاب كله. ووجدت فيها أيضًا خلطًا فى ترتيب الأوراق لم يتنبه إليه الناشر[1]، وذلك فى «الفصل السابع والثلاثين» ج٢/١٥١ سطر ٤ بعد قوله: «ارتكاب المعاصى» إذ جاء بعد هذا الكلام جزء من الفصل الذى يليه والموضوع فى هذا الفصل يختلف عن الذى يليه، وقد أشرت إلى هذا الخلط فى موضعه من الكتاب. ومن الغريب أنه قد حدث خلط فى كل نسخة من النسخ المخطوطة السابقة عدا نسخة (هـ) وذلك فى ترتيب الأوراق، وكان يختلف الموضع من نسخة إلى أخرى، ويسّر الله بفضله تصحيحها جميعًا.

* * *

(١) أشار د. عبد الحميد مدكور فى رسالته إلى هذا الخلط ولكنى لم أطّلع عليه إلا بعد أن أصلحته من الأصول المخطوطة التى بين يدىّ، انظر: أبو طالب المكىّ، ص ٨٧.

منهجي في تحقيق هذه النشرة الجديدة من القوت

١ ـ قابلت بين النسخ المخطوطة وعارضتها بالنسخة المطبوعة، ونسخت نسخة (خ) ونسخة (م)، واعتمدتهما أصلاً للكتاب من بداية «شرح مقامات اليقين»، وحتى نهاية الكتاب، وأثبت جميع الزيادات التي أوردتها النسخ الأخرى ولم تكن بنصها أو بمعناها في هاتين النسختين، عدا «كتاب الأطعمة» فقد اعتمدت في نصه على نسخة (هـ) لزياداتها الوافية الموثقة.

أما في القسم الذي يسبق «شرح مقامات اليقين» فقد اعتمدت فيه على النسخة المطبوعة مع نسخة (ك) وأثبت الزيادات الطفيفة والتصحيحات التي أفدتها من النسخة المخطوطة.

وبذلك تكون هذه النشرة قد جمعت جميع النصوص التي وصلت إلينا عبر هذه الأصول في نص واحدٍ متكامل متناسق، وتتلافى النقص الفاحش الذي كان بالنشرات المطبوعة من قبل.

٢ ـ نظرًا للكثرة الفاحشة في الأخطاء والتصحيفات التي لحقت المطبوعة والاختلافات المتعددة بين المطبوعة والأصول المخطوطة، كنت أغفل أحيانًا الإشارة إلى حال المطبوعة وأكتفي بإثبات النص الصحيح، حتى لا يُشغل القارئ بتتبع ذلك ولا يزاحم بقية التعليقات المطلوبة الإشارة إليها أو الزيادات المهمة في الهوامش.

٣ ـ اقتصدت اقتصادًا بيّنًا في التعليق على كلام أبي طالب، وذلك لأمرين:

الأول: وضوح كلام أبي طالب، ومحاولته الدائبة لتأكيد ما يقول بكل الطرق وحشد الأدلة والشواهد لذلك، ويسوق هذا كله في عبارة مشرقة ناصعة البيان، بليغة التصوير، وأي تعليق عليها قد يفسد جمالها ويعكّر صفوها، فتركت القارئ يتمتع بذلك دون تدخّل مني.

الثانى: كثرة الهوامش تشغل القارئ عن متابعة المؤلف، وتشتت ذهنه، وهذا الكتاب كتاب سلوك يحتاج إلى تركيز بالعقل والقلب وعدم الالتفات.

٤ - أرجأت تخريج الأحاديث والآثار والتعليق عليها إلى نهاية الكتاب، وستخرج وافية مع الفهارس التفصيلية للكتاب فى مجلد مستقل. وقد يرى البعض أننى بذلك قد ارتكبت جريمة لا تغتفر فى حق الكتاب والتحقيق، للذين لا يرون من التحقيق إلا تخريج الحديث وحسب، أما أن يقيم نصًا أو يضبط مشكلاته فهذا ليس مهمًا عندهم، ولكنى أتانى القارئ الكريم فى الحكم حتى يرى بنفسه حجتى.

٥ - اعتنيت عناية شديدة بعلامات الترقيم وبدايات الفقرات وضبط المشكل منه، لأن لهذا العمل دورًا مهمًا جدًا فى قراءة النص وفهمه، وأكاد أقطع أن هذا العمل هو أجلّ وأهم خدمة يمكن أن تقدَّم لمثل هذا الكتاب وغيره من كتب التراث بعد استكمال النص بمقابلته على الأصول المخطوطة؛ لأن ما نشاهده من خلل العلم بصفة عامة وخلل التطبيق فى المجتمع الإسلامى بصفة خاصة، وكثرة الفرق والأهواء والزيغ والضلال، إنما يتأتى للمسلم من جهله بقراءة النص قراءة صحيحة لتهيئ فهما صحيحًا ومن ثَمَّ تطبيقًا صحيحًا، فلو اختلت القراءة وأُعجمت، اختل ما بعدها كله، ولولا أننى أخشى أن يخرج بى الحديث عن مساره ويطول لبينتُ بجلاء خطورة عدم ضبط القراءة وما تؤدى إليه من المفاسد التى نكتوى بنارها فى مجتمعاتنا اليوم وقبل اليوم، ولكنى أكتفى بأن أوجه القارئ إلى ما كتبه بعض الأعلام أمثال ابن السِّيد البطليوسى فى كتابه المهم «التنبيه على الأسباب التى أوجبت الاختلاف بين المسلمين»، وما كتبه شيخ العربية أبو فهر محمود شاكر فى «أباطيل وأسمار» و «المتنبى»، وغير هذه الكتب كثير.

٦ - يوجد أمر أود أن ألفتَ نظر القارئ إليه، وهو الاختلاف البيِّن بين النسخ المخطوطة والمطبوعة من حيث الزيادة والنقصان، وقد يكون مثيرًا للتساؤل: كيف تجيء نسخ الكتاب متفاوتة بهذه الدرجة، حيث توجد بعض النصوص فى النشرة الميمنية لا توجد فى جميع النسخ، وتوجد نصوص كثيرة وطويلة جدًا لا توجد فى

المطبوعة ولا فى كل النسخ وإنما تتفاوت الزيادة تفاوتًا بيّنًا بين النسخ؟!

ويكفينى فى الردّ هنا ما ذكره أبو فهر محمود شاكر ـ رحمه الله ـ فى برنامج طبقات فحول الشعراء عندما بيّن مثل هذه المشكلة فقال: «أمر مألوف كلَّ الإلْف، أن يوجد من كتابٍ واحدٍ، لمؤلفٍ واحد، نسخٌ يكثر عددها أو يقلّ يتردد جميعها بين التمام والنقص، وبين الاختصار الهيِّن والاختصار المبين، ويكون ذلك من فعل من أدّى إلينا الكتاب عن مؤلفه. بل إنّ المؤلف نفسه قد يترك بين يدى تلامذته نُسخًا من كتابه، بعضُها أتمُّ من بَعْضٍ، بما أدخل هو نفسه على كتابه، على تطاول السّنين، من زيادة أو حذف أو تبديل أو تغيير. أمرٌ مألوف كلَّ الإلف، وإن غفل عنه من غفل، وإن أغفله أيضًا مُتعمدًا من أغفله. . . مألوف من فعل رواة الكتب وناقليها إلينا، ومألوف أيضًا أن يفعله المؤلفون أنفسهم، إذا بدا لهم أن يزيدوا فى الكتاب، أو يحذفوا منه، أو يبدِّلوا أو يُغيِّروا»[1].

كلام أبى فهر هذا يؤكد لنا ما وجدناه فى النسخ التى وصلت إلينا من كتاب القوت، إذ نجد فى بعض النسخ زيادات طويلة هى من المؤلف نفسه، فهو يريد أن يؤكد الفكرة ويثبتها فى نفس القارئ، فيزيد فى الشواهد والأدلة ويبسط فى التعليقات وتبيين الأوجه الغامضة، وهذا ما لمسته بوضوح فى زيادات القوت، فهى لم تزد ـ غالبًا ـ موضوعًا لم يكن فى القوت، أو تستحدث عنوانًا جديدًا ليس له أصل بالكتاب، وإنما زياداتها تكشف عما طرحه أبو طالب فى كتابه من قبل، وتحلل الأوجه المشكلة منه، وتذلل صعوباته النّاجمة عن قلّة الشواهد أحيانًا، أو إيجاز العبارة أحيانًا أخرى، خاصة أن جزءًا من الكتاب كان نتيجة الدروس والمواعظ التى كان يلقيها فى جامع بغداد، ومن طبيعة الإلقاء فى الدروس أنه يختلف من آن لآخر من حيث الزيادة والبيان، إذ يتفتق ذهن المحاضر فى كل يوم عن جديد.

٧ ـ تجزئة الكتاب إلى ثلاثة أجزاء ـ كما هو عليه الآن ـ من صنع المحقق، نظرًا للاختلاف الشديد بين النسخ المخطوطة فى تجزئتها للكتاب.

---

(١) برنامج طبقات فحول الشعراء، أبو فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدنى بمصر، ص ٤٤.

وبعد:

فقد بذلت جهدى، وتحرَّيتُ الصواب ما استطعتُ، فما كان فيه من إحسانٍ فمن الله، وما كان فيه من زَلَلٍ فمنِّى، وأسأل الله أن يتغمّد ما أخطأتُ فيه، وأن يكتب لنا من السَّدادِ فى أعمالنا ما هو له أهل من تفضّله على خَلْقه ومنّه على عباده.

اللهمّ إنى أسألك عونًا لا ينقطع، وسدَادًا لا يُمَنُّ، وتوفيقًا لا يُحبس عنِّى خيرُه، برئتُ إليك ربّى من الحَوْلِ والقُوّةِ، كما بَرِئتُ من الشركاء والأنداد.

اللهم إنى أسألك أن ترحمنى إذا انقضى أجَلِى، وانقطع عمَلى، ولبستُ كَفَنِى، وفارَقْتُ سكَنِى، اللهم اغفر لى خطيئتى يوم الدِّين.

وكتبه الفقير الراجى عفو ربه

محمود إبراهيم الرضوانى

لوحة العنوان من الأصل (ك)

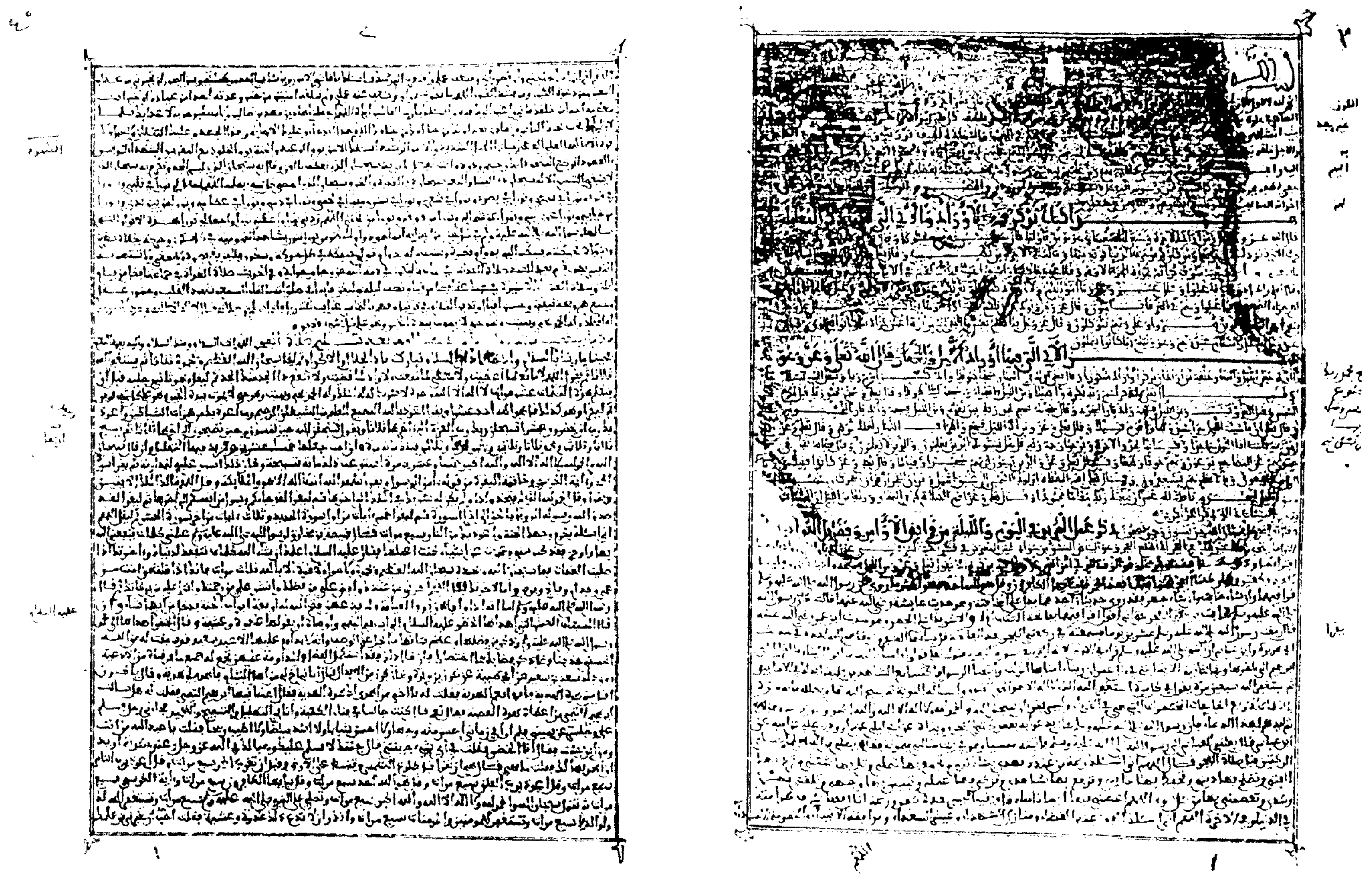

اللوحة الأولى من الأصل (ك)

اللوحة الأخيرة من الأصل (م)

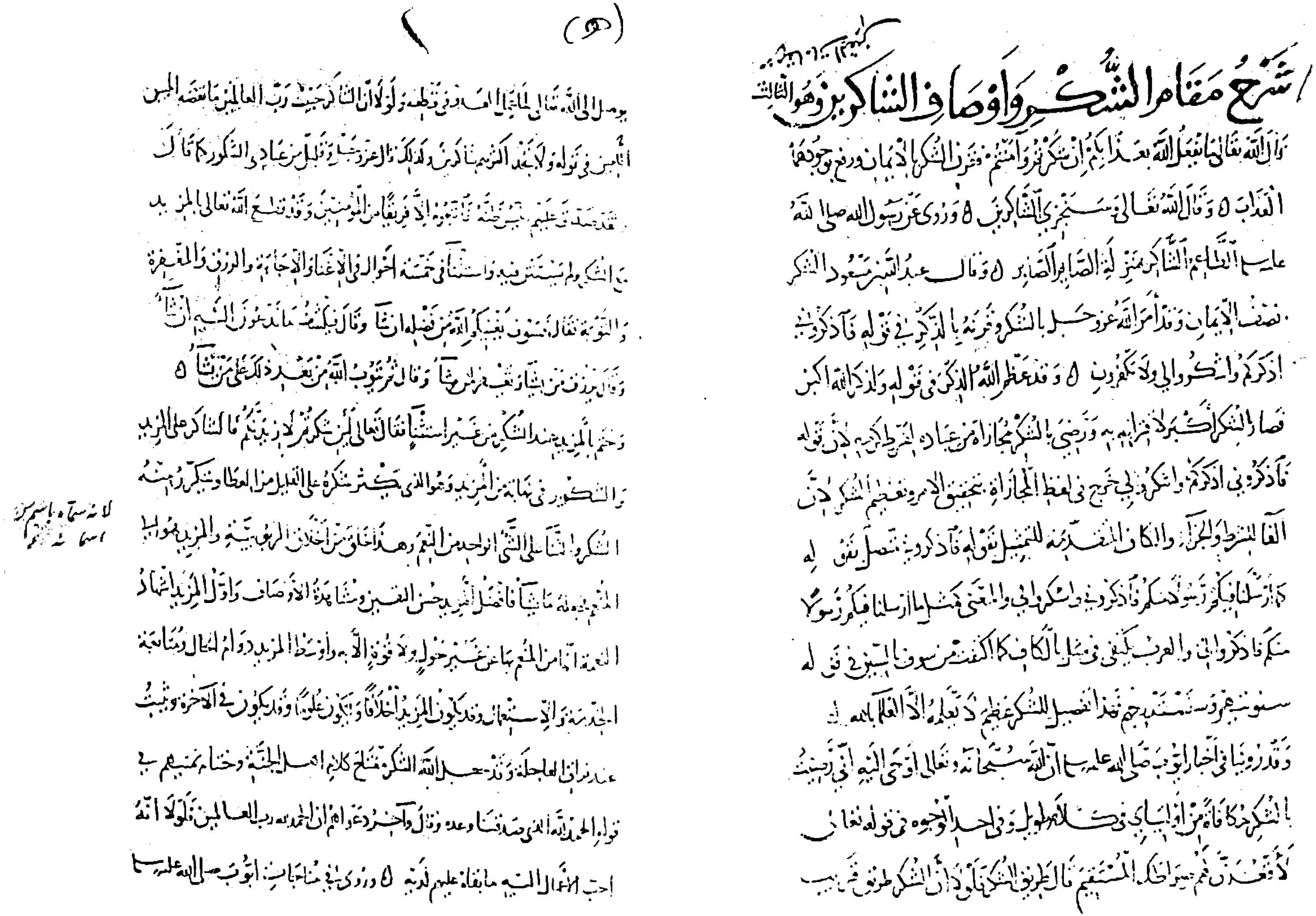
شرح مقام الشكر وأوصاف الشاكرين وهو الثالث
قال الله تعالى: ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم، فقرن الشكر بالإيمان ورفع بوجودهما
العذاب، وقال الله تعالى: وسنجزي الشاكرين، وروي عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم: الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر، وقال عبد الله بن مسعود: الشكر
نصف الإيمان، وقد أمر الله عز وجل بالشكر وقرنه بالذكر في قوله: فاذكروني
أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون، وقد عظم الله الذكر في قوله: ولذكر الله أكبر
فصار الشكر أكبر لاقترانه به، ورضي بالشكر مجازاة من عباده لخزائن كرمه إذ في قوله
فاذكروني أذكركم واشكروا لي خرج في لفظ المجازاة بتحقيق الأمر وتعظيم الشكر دون
ألفاظ الشرط والجزاء، والكاف المتقدمة للتمثيل في قوله فاذكروني متصل بقوله
كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم فاذكروني واشكروا لي، والمعنى كمثل ما أرسلنا فيكم رسولاً
منكم فاذكروني، والعرب تكتفي بمثل الكاف كالكناية من حروف الصفات في قوله
سنستدرجهم فهذا تفضيل للشكر عظيم لا يعلمه إلا العالم بالله
وقد روينا في أخبار أيوب صلى الله عليه وسلم أن الله سبحانه وتعالى أوحى إليه أني رضيت
بالشكر مكافأة من أوليائي في كلام طويل، وفي أحد الوجوه من قوله تعالى
لأقعدن لهم صراطك المستقيم قال: طريق الشكر، فلولا أن الشكر طريق قريب

(هـ)

يوصل إلى الله تعالى لما تعرض إبليس لقطعه، ولولا أن الشاكر حبيب رب العالمين ما نقصه اللعين
في قوله: ولا تجد أكثرهم شاكرين، ولذلك قال عز وجل: وقليل من عبادي الشكور، كما قال
ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين، وقد قطع الله تعالى بالمزيد
مع الشكر ولم يستثن فيه، واستثنى في خمسة أحوال في الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة
والتوبة فقال: فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء، وقال: فيكشف ما تدعون إليه إن شاء
وقال: يرزق من يشاء، ويغفر لمن يشاء، وقال: ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء
وختم المزيد للشاكر من غير استثناء فقال تعالى: لئن شكرتم لأزيدنكم، فالشاكر على المزيد
والشكور في نهاية من المزيد، وهو الذي يكثر شكره على القليل من العطاء ويكثر
الشكر ثناء على المنعم بما أولى من النعم، وهذا خلق من أخلاق الربوبية، والمزيد هو
المزيد منه ثانياً، فأفضل المزيد حسن اليقين ومشاهدة الأوصاف، وأول المزيد أن يشاهد
النعمة أنها من المنعم بها من غير حول ولا قوة إلا به، وأوسط المزيد دوام الحال ومتابعة
الخدمة والاستعمال، وقد يكون المزيد أخلاقاً ويكون علوماً، وقد يكون في الآخرة وتثبت
عند ترك العاجلة، وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة وختام نعيمهم في
قوله: الحمد لله الذي صدقنا وعده، وقال: وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين، ولولا أنه
أحب الأعمال إليه ما بقاه عليهم لديه، وروي في مناجاة أيوب صلى الله عليه وسلم

اللوحة الأولى من الأصل (هـ) خط حديث

قوت القلوب

في معاملة المحبوب
ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد

للشيخ أبي طالب المكي
محمد بن علي بن عطية
(ت ٣٨٦ هـ)

حققه، وقدم له، وعلق حواشيه
د. محمود إبراهيم محمد الرضواني
دار العلوم - جامعة القاهرة

الجزء الأول

مكتبة دار التراث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الأوّل الأزليِّ قبل الكون والمكان، من غيرِ أوّلٍ ولا بدايةٍ، الآخرِ الأبديِّ بعد فناء المكنونات والأزمان بغير آخرٍ ولا غاية، الظاهرِ فى علوِّه بقهره عن غير بُعْد، والباطنِ فى دنوِّه بقربه من دون مَسٍّ، الذى أحسنَ بلُطفه كلَّ شىءٍ بدأه، وأتقنَ صُنعَ كلِّ شىء أنشأه، ودبّرت الأحكامَ حكمتُه، وصرَّفت المحكوماتِ مشيئتُه؛ فأظهر فى الغيب والشهادة لطيفَ قدرته، وعمَّ فى العاجلِ والآجلِ خلقَه بنعمته، ونشر على مَن أحبَّ منهم فضلَه، وبسط لجميعهم عَدْلَه، وأنعم عليهم بتعريفِهم إيّاه - سبحانه وتعالى - به عزّ وجلّ، وأحسن إليهم باجتبائه إياهم إليه، وأفْضَلَ عليهم بتيسيرِ كلامِه لهم، ومَنَّ عليهم ببعثه رسولاً من أنفسهم إليهم.

فنسأله الصلاةَ على النبى وآله، وأن يُوزِعَنا بفضلِه شكر نعمه، ويعرفنا خفىَّ قدره.

وصلّى الله تبارك وتعالى على سيّد الأوّلين والآخرين، رسولِه المفضلِ بالشفاعة والحوض المورود، المخصوصِ بالوسيلة والمقام المحمود، وعلى إخوانه السالفين فى الأزمان، وأنصاره التابعين بإحسان.

وبعد.. فهذا كتابُ «**قوتِ القُلوبِ فى مُعامَلة المَحْبُوب، ووصفِ طريقِ المريد إلى مَقَام التوحيد**» ، تصنيف الشيخ أبى طالب، محمد بن على بن عطية الحارثى المكى رضى الله عنه. يشتمل على ثمانية وأربعين فصلاً، هذا ذِكْرُها:

الفصل الأول: فى ذِكْرِ الآى التى فيها المعاملات.

الفصل الثانى: فى ذكر الآى التى فيها أوراد الليل والنهار.

الفصل الثالث: فى ذكر عملِ المريدِ فى اليوم والليلة.

الفصل الرابع: فى ذكر ما يُستحب من الذكرِ، وقراءة الآى المندوب إليها بعد التسليم من صلاة الصبح.

الفصل الخامس: فى ذكر الأدعية المختارة بعد صلاة الصبح.

الفصل السادس: فى ذكرِ عملِ المريدِ بعد صلاةِ الصّبح.

الفصل السابع: فى ذكرِ أوراد النهار، وهى سبعةُ أوراد.

الفصل الثامن: فى ذكر أوراد الليل، وهى خمسةُ أوراد.

الفصل التاسع: فى ذكر وقت الفجر.

الفصل العاشر: فيه كتاب معرفة الزوال، وزيادة الظل ونقصانه بالأقدام.

الفصل الحادى عشر: فيه كتاب فضل الصلاة فى الأيام والليالى.

الفصل الثانى عشر: فى ذكر الوتر، وفضل الصلاة فى الليل.

الفصل الثالث عشر: فيه كتاب جامع لما يستحب أن يقول العبد إذا استيقظ من نومه، وفى يقظته عند الصباح.

الفصل الرابع عشر: فى تقسيم قيام الليل، ووصف القائمين.

الفصل الخامس عشر: فى ذكر ورد العبد من التسبيح والذكر والصلاة فى اليوم والليلة، وفضل صلاة الجماعة، وذكر فضل الأوقات المرجو فيها الإجابة، وذكر صلاة التسبيح.

الفصل السادس عشر: فى ذكر معاملة العبد فى التلاوة، ووصف التالين حقّ تلاوته بقيام الشهادة.

الفصل السابع عشر: فيه كتاب ذكر نوع من المفصل والموصل من الكلم، ومدح العاملين به، وذم الغافلين عنه، وهو من تفسير غريب القرآن.

الفصل الثامن عشر: فيه كتاب ذكر الوصف المكروه من نعت الغافلين.

الفصل التاسع عشر: فيه كتاب ذكر الجهر بالقرآن، وما فى ذلك من النيات، وتفصيل حكم الجهر والإخفات.

الفصل العشرون: فى ذكر الليالى المرجوّ فيها الفضل المستحب إحياؤها، وذكر

مواصلة الأوراد فى الأيام الفاضلة.

الفصل الحادى والعشرون: فيه كتاب الجمعة وهيئاتها وآدابها، وذكر المزيد فى يوم الجمعة وليلتها.

الفصل الثانى والعشرون: فيه كتاب الصوم وترتيبه، ووصف الصائمين.

الفصل الثالث والعشرون: فى ذكر محاسبة النفس، ومراعاة الوقت.

الفصل الرابع والعشرون: فى ذكر ماهيّة الوِرد للمريد، ووصف حال العارف بالمزيد.

الفصل الخامس والعشرون: فيه كتاب تعريف النفس، وتصريف مواجيد العارفين.

الفصل السادس والعشرون: فيه كتاب ذكر مشاهدة أهل المراقبة.

الفصل السابع والعشرون: فيه كتاب أساس المريدين.

الفصل الثامن والعشرون: فيه كتاب مراقبة المقربين.

الفصل التاسع والعشرون: فى ذكر أهل المقامات من المقربين، وتمييزهم، ونعت حال المتعبدين الموقنين، وتمييز حال أهل الغفلة المبعدين.

الفصل الثلاثون: فيه كتاب ذكر خواطر القلب لأهل معاملات القلوب.

الفصل الحادى والثلاثون: فيه كتابُ العلم وتفضيله وأوصاف العلماء. وذكرُ فضل علم المعرفة على سائر العلوم، وكشفُ طريق العلماء من السلف الصالح. وذكرُ بيان فضلِ علم الباطن على علم الظاهر، والفرقُ بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة. وذكرُ علماء السوء الآكلين بعلومهم الدنيا. وذكرُ وصف العلم وطريق السلف، وما أحدث المتأخرون من القَصَص والكلام. وباب ذكر ما أحدث الناس من القول والفعل فيما بينهم مما لم يكن عليه السلف. وباب من تفضيل علم الإيمان واليقين علىٰ سائر العلوم، والتحذير من الزلل فيه، وبيان ما ذكرناه. وبابُ تفضيل الأخبار وبيان طريق الآثار.

الفصل الثانى والثلاثون: فى شرح مقامات اليقين وأحكام الموقنين، وأصل مقامات اليقين التى تُرد إليها فروع أحوال المتقين، وهى تسعة: أوّلها التوبة، ثم الصبر، ثم الشكر، ثم الرجاء، ثم الخوف، ثم الزهد، ثم التوكل، ثم الرضا، ثم المحبة.

الفصل الثالث والثلاثون: فيه شرح مبانى الإسلام وهى خمسة:

فالأول: فرض شهادة التوحيد للمؤمنين، ووصف فضائلها؛ وهى شهادة المقربين، وذكر شهادة الرسول ﷺ وفضلها للموقنين.

والثانى: شرح الصلاة، فأوّلها فرض الاستنجاء وسننه، وفرائض الوضوء وسننه وفضائله، وفرائض الصلاة وسننها، وأحكام المصلّى فى فَوْت الصلاة ودَرْكها، وما يتعلق بها، وهيئة الصلاة وآداب المصلّى فيها.

والثالث: شرح الزكاة ووقت أدائها، وذكر فضائل الصّدقة، وآداب العطاء، ووصف أحوال الفقراء.

والرابع: شرح صوم شهر رمضان.

والخامس: شرح كتاب الحجّ؛ الذى به كمال الشريعة وتمام الملة.

الفصل الرابع والثلاثون: فيه كتاب تفصيل الإسلام والإيمان، وعقود السنّة واعتقاد القلوب، وشرح معاملة الناس من العلم الظاهر. وذكر دعائم الإسلام وأركان الإيمان، واتصال الإيمان بالإسلام، واقتران القلوب بالعمل. وذكر بيان التفرقة بين الإيمان والإسلام، والاستثناء فى الإيمان، والإشفاق من النفاق، وطريقة السلف فى ذلك.

الفصل الخامس والثلاثون: فيه كتاب السنّة وشرح فضائلها، وجمل من آداب الشريعة، وذكر عقود القلوب من علم الظاهر، وهى ستَّ عشرَةَ خصلة: أولها أن تعتقد أن الإيمان قول وعمل. وأنّ القرآن كلام الله تبارك وتعالى غير مخلوق. وأن تسلم أخبار الصفات. وأن تعتقد وتعلم تفضيل أصحاب رسول الله ﷺ. وأن تقدِّم من قدَّمه الله عزّ وجلّ ورسوله ﷺ. وأن تعتقد أن الإمامة فى قريش عامة

إلى أن تقوم الساعة. وأن لا تكفِّر أحدًا من أهل القبلة. وأن تصدّق بجميع أقدار الله عزّ وجلّ خيرها وشرها. وأنّ مساءلة منكر ونكير حقّ. وأنّ عذاب القبر حقّ. وأن تؤمن بالميزان. وأن تعتقد أن الصراط حق. وأن تؤمن بالحوض المورود حوض محمد ﷺ. وأن تؤمن بالنظر إلى الله سبحانه وتعالى. وأن تعتقد إخراج الموحِّدين من النار. وأن تؤمن بوقوع الحساب، وفيه فصل مستنبط من معنى الإجماع بذكر أهل البدع وإخراجهم من الجماعة. وذكر فضائل السنة، ووصف طرائق السّلف التابعين بإحسان.

الفصل السّادس والثلاثون: فى ذكر جُمل الشريعة وعزّ الإيمان، وذكر شرط المسلم الذى يكون به مسلمًا، وذكر حسن إسلام المرء، وعلامة محبة الله عزّ وجلّ له، وذكر حقّ المسلم على المسلم، وهو وجوب حرمة الإسلام على المسلمين، وذكر سُنَن الجسد، وذكر ما فى اللحية من المعاصى والبدع، وذكر ما جاء فى فضل بعض ذلك واستحسانه، وكتاب ما ذكر من نوافل الركوع، وما يكره من النّقصان منه.

الفصل السابع والثلاثون: فيه كتاب شرح الكبائر وتفصيلها، ومسألة فى محاسبة الكفّار.

الفصل الثامن والثلاثون: فيه كتاب الإخلاص، وشرح البيان والأمر بتحسينها فى تصرف الأحوال والتحذير من دخول الآفات عليها فى الأفعال.

الفصل التاسع والثلاثون: فيه كتاب ترتيب الأقوات، بالنقصان منها أو بزيادة الأقوات.

الفصل الأربعون: فيه كتابُ الأطعمة، وما يجمع الأكل من السنن والآداب، وما يشتمل على الطعام من الكراهية والاستحباب.

الفصل الحادى والأربعون: فيه كتاب فرائض الفقر وفضائله، ونعت عموم الفقراء وخصوصهم، وتفصيل قبول العطاء وردّه، وطريق السلف فيه.

الفصل الثانى والأربعون: فيه كتاب حكم المسافر، والمقاصد فى الأسفار.

الفصل الثالث والأربعون: فيه كتاب حكم الإمام، ووصف الإمامة والمأموم.

الفصل الرابع والأربعون: فيه كتاب الأخوّة فى الله عزّ وجلّ، والصحبة ومحبة الإخوان فيه تبارك وتعالى، وأحكام المؤاخاة وأوصاف المحبين.

الفصل الخامس والأربعون: فيه كتاب ذكر التزويج فى فعله وتركه أيهما أفضل، ومختصر أحكام النساء فى ذلك.

الفصل السادس والأربعون: فيه كتاب ذكر دخول الحمام.

الفصل السابع والأربعون: فيه كتاب الصنائع والمعايش، والبيع والشراء، وما يجب على التاجر والصانع من شروط العلم فى أحكام التصرف.

الفصل الثامن والأربعون: فيه كتاب تفصيل الحلال والحرام، وما بينهما من الشبهات، وفضل الحلال، وذم الشبهة، وتمثيل ذلك بصور الألوان[1].

(١) هذه المقدمة - لا شك - ليست من وضع أبى طالب المكى ولا من إنشائه، ولعل أحد تلاميذه أو أهل العلم وضعها بعد ذلك، وبخاصة أنى لم أجدها فى مقدمة الأصل المخطوط الكامل للكتاب وهى نسخة (ك)، ولا فى ثنايا بعض الأصول المخطوطة، كما أنه توجد اختلافات بينها وبين ما ورد فى ثنايا الكتاب.

الفصل الأول

في ذكر الآي التي فيها ذكر المعاملة

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]. وقال عزّ وجلّ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى﴾ [النجم: ٣٩ ـ ٤١]. وقال جلّت قدرته: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]. وقال عزّ من قائل: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢]. وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ [سبأ: ٣٧]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨ ـ ٥٩]. وقال سبحانه: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٧].

* * *

الفصل الثانى

فى ذكر الآى التى فيها أوراد الليل والنهار

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]. وقال جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ لَكَ فِى النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ [المزمل: ٧ ـ ٨]. وقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ [الإنسان: ٢٥ ـ ٢٦]. وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩ ـ ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨ ـ ٤٩]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل: ٦]. وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠]. وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]. وقال عزّ اسمه: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧ ـ ١٨]. وقال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ [الإسراء: ٧٨ ـ ٧٩]. وقال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَىِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧ ـ ١٨].

الفصل الثالث

فى ذكر عمل المريد فى اليوم والليلة
من فرائض الأوامر وفضائل النوادب

فمن ذلك يستحب عند طُلوع الفجرِ؛ وهو البياضُ المشتقّ من سواد الليل المُعترض فى قُطْر السّماء الشرقى، عند إدبار النجوم. وإدْبارُها: افتراقها وذَهابُ ضوئها لغلبة ضوء الفجر عليها. وهو الوقتُ الذى أمر اللهُ تعالى فيه بذكره إذ يقول تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور:٤٩]. فليصلِّ العبد ركعتَى الفجر، يقرأ فيهما: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، فهو أكثر ما رُوى أنّ النبىّ ﷺ قرأ فيهما؛ فإن شاء خافَت وإن شاءَ جَهَر.

فقد رُوى حديثان، أحدُهما يدلّ على المخافتة؛ وهو حديث عائشة رضى الله عنها[١] قالت: «كان رسولُ الله ﷺ يخفِّفُ ركعتى الفجرِ، حتى أقول قرأ فيهما بفاتحة الكتاب أم لا».

والآخر: يدل على الجَهْر، وهو حديثُ ابن عمرَ: «رمقتُ النبىَّ ﷺ عشرين يومًا، فسمعته يقرأ فى ركعتى الفجر ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ »[٢].

وفى حديث أبى هريرة وابن عباس، أنه قرأ ﷺ فى الركعة الأولى الآية التى فى سورة البقرة: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ [البقرة:١٣٦] إلى آخرها، وفى الركعة الثانية: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٣].

(١) المسند ٦/ ٢٠٤، والحلية ٦/ ٣٣٧.

(٢) الكامل لابن عدى ٧/ ٢٦٤٨ بلفظ: «خمسًا وعشرين صباحًا».

فليقرأ بذلك أحيانًا. ثم يستغفر اللهَ تعالى سبعينَ مرّة؛ يقول فى كلّ مرّة: أستغفرُ اللهَ العظيمَ الذى لا إله إلا هو الحىَّ القيومَ، وأسأله التوبةَ(١).

ثم يسبِّحُ اللهَ ويهلِّله، مائة مرة، بالكلمات الأربع الجامعات المختصرات التى فى القرآن، وليست بقرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وأستغفرُ الله، وتباركَ اللهُ، مرة واحدة. ولْيَدْعُ بهذا الدعاءِ، فإنّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يدعو به بعد ركعتى الفجر.

روينا عن ابن أبى ليلى، عن داود بن على، عن أبيه، عن ابن عباس، قال: بعثنى العباسُ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله، فأتيته ممسيًا وهو فى بيت خالتى ميمونة، فقام يصلّى من الليل، فلمّا صلّى الركعتين قبل صلاة الفجر قال:

«اللّهم إنى أسألكَ رحمةً من عندك تَهدى بها قلبى، وتَجْمعُ بها شَمْلى، وتَلُمُّ بها شَعْثى، وتردُّ بها أُلفَتى، وتُصلح بها علانيتى، وتَقْضى بها دَيْنى، وتحفظُ بها غائبى، وترفعُ بها شاهدى، وتُزكّى بها عملى، وتُبيِّضُ بها وجهى، وتُلقِّنى بها رُشْدى، وتَعْصمنى بها من كل سوء.

اللّهم أعطنى إيمانًا صادقًا، ويقينًا ليس بعده كفر، ورحمةً أنال بها شرفَ كرامتِك فى الدنيا والآخرة.

اللّهم إنى أسألك الفوز عند القضاء، ومنازلَ الشهداء، وعيشَ السُّعداء، ومرافقةَ الأنبياء، والنصرَ على الأعداء.

اللهم إنى أُنزل بك حاجتى، وإن قَصُر رأيى، وضَعُف عملى، وافتقرتُ إلى رحمتك. فأسألك يا قاضىَ الأمورِ، ويا شافى الصدور، كما تُجير بين البحور، أن تجيرنى من عذابِ السّعير، ومن دعوةِ الثُّبور، ومن فتنةِ القبور.

اللهم ما قصُر عنه رأيى، وضعُف عنه عملى، ولم تبلغه نيَّتى وأمنيتى، من

(١) وردت هذه الصيغة فى سنن الترمذى بلفظ: «وأتوب إليه»، انظر: صحيح سنن الترمذى، للألبانى، رقم ٢٨٣١ جـ١ ص١٨٢.

خيرٍ وعدتَه أحدًا من خلقك، أو خيرٍ أنت معطيه أحدًا من عبادك، فإنّى أرغبُ إليك فيه، وأسألكه يا ربَّ العالمين.

اللهم اجعلنا هادينَ مهْديين، غير ضالّين ولا مضلّين، حربًا لأعدائك، وسِلْمًا لأوليائك، نحب بحبّك الناس، ونعادى بعداوتك مَنْ خالفك مِنْ خلقك.

اللهم هذا الدعاءُ وعليك الإجابة، وهذا الجَهْدُ وعليك التّكلان، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، لا حول ولا قوة إلا بالله ذى الحبل الشديد والأمر الرشيد.

أسألك الأَمْنَ يومَ الوعيدِ، والجنةَ يومَ الخلودِ، مع المقرَّبين الشهودِ، والركّعِ السجود، والموفين بالعهود، إنك رحيم ودود، أنت تفعل ما تريد.

سبحانَ الذى تعطَّف بالعزّ وقال به. سبحان الذى لبس المجدَ وتكرَّم به. سبحان الذى لا ينبغى التسبيحُ إلاّ له. سبحان ذى الفضل والنِّعَم. سبحان ذى القدرة والكرم. سبحان الذى أحصى كل شىء بعلمه.

اللهم اجعل لى نورًا فى قلبى، ونورًا فى قبرى، ونورًا فى سمعى، ونورًا فى بصرى، ونورًا فى شَعْرى، ونورًا فى بَشَرى، ونورًا فى لحمى، ونورًا فى دمى، ونورًا فى عظامى، ونورًا من بين يدى، ونورًا من خلفى، ونورًا عن يمينى، ونورًا عن شمالى، ونورًا من فوقى، ونورًا من تحتى. اللهم زدنى نورًا، وأعطنى نورًا، واجعل لى نورًا»[(١)].

هذه الأنوارُ التى سألها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله، فى كلّ

---

(١) هذه الرواية وردت فى الأسماء والصفات، للبيهقى، ١/ ١٦١ ـ ١٦٣، ووردت أيضًا فى المعجم الكبير للطبرانى ١٠/ ٣٤٣، والحلية ٣/ ٢٠٩، والإحياء ١/ ٣١٤، والإتحاف ٥/ ٦٥، وذكر الزَّبيدى رواياته المختلفة، وشرحه شرحًا جيدًا، من ذلك: «قال القاضى: معنى طلب النور للأعضاء: أن تتحلى بأنوار المعرفة والطاعة، وتعرى عن ظلم الجهالة والمعاصى، وطلب الهداية للنهج القويم. وقال غيره: اجعلنى نورًا، أى: اجعلنى هدى يهتدى به كل من رآنى» الإتحاف ٥/ ٦٥.

وقيل فى معنى الأنوار: أراد ضِياءَ الحقّ وبيانَه، كأنه قال: اللهمَّ استعمل هذه الأعضاء منى فى الحقّ، واجعل تصرُّفى وتقلُّبى فيها على سبيل الصواب والخير. (عن اللسان: نور).

جزء من أجزائه، إنما هو دوامُ النظرِ من نور النور، يشاهد القيوميةَ فى كل سكونٍ وحركة منه، يكلؤه بنظره، ويتولاه بحيطته، فينظر إليه بدوام نظره؛ ليستقيم له بتولِّى حفظه، فلا يزيغ بصره ولا يطغى، ولا تستهويه النفس بهوى.

فليدع العبدُ بهذا الدعاء بعد ركعتى الفجر، لكن يقدّم على دعائه المسألةَ لله تبارك وتعالى فى الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله، فيستجيب سبحانه وتعالى دعوته ولا يردّه، لقول الرسول ﷺ: «إذا سألتم الله تعالى حاجةً، فابدؤوا بالصّلاةِ علىّ، فإنّ الله تعالى أكرم من أن يُسأل فى حاجتين فيُعطىَ إحداهما ويردَّ الأخرى»[١].

ثم ليُصلِّ العبدُ صلاَةَ الغداةِ فى جماعةٍ، ليكون فى ذِمة اللهِ وجوارِه.

وفى الحديث: «صلاة الغداة فى جماعة أفضل من قيام ليلة، وصلاة العشاء الآخرة فى جماعة أفضل من قيام نصف ليلة»[٢].

وليكن قائمًا فى صلاته بإلقاء سَمْعٍ، وشهودِ قلبٍ، وحضورِ عقلٍ، وجَمْعِ هَمٍّ، وصحةِ تيقُّظٍ، وحُسْنِ إقبالٍ، وتَدبُّرٍ للكلام[٣]، وترتيلٍ وتفهُّمٍ بالتماس غرائبِ التنزيل.

فإذا سلّم من صلاته قال ما يُستحب من الذِّكر[٤].

***

---

(١) قال العراقى فى المغنى ١/٣٠٧: «لم أجده مرفوعًا، وإنما هو موقوف على أبى الدرداء».

(٢) المعجم الصغير، للطبرانى، ١/٢٦٧، وتاريخ بغداد ١٢/٤٣٩.

(٣) فى نسخة (ك): «وتدبّر الكلام فى ترتيل وفهم».

(٤) بعده فى (ك): «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير».

الفصل الرابع

في ذكر ما يستحب من الذكر، وقراءة الآي المندوب إليها بعد التسليم من صلاة الصبح، استخرجناها من الآثار

اللهم صلّ على محمدٍ وآله، اللهم أنتَ السَّلامُ، ومنك السلام، وإليك يعود السلام، فحيِّنا ربَّنا بالسلام، وأدْخلنا دارَ السّلامِ، تباركتَ يا ذا الجلالِ والإكرامِ.

ثم ليقل: سُبحانَ اللهِ العظيم وبحمده، ثلاثًا.

ثم يستغفر اللهَ، ثلاثًا. ثم يقول: اللّهمّ لا مانعَ لما أعطيتَ، ولا مُعطىَ لما منعْتَ، ولا يَنْفَعُ ذا الجدِّ منكَ الجدُّ.

ثم ليقل ـ وهو ثانٍ رِجْلَه من قبل أن يتكلمَ ـ هذه الكلمات، عشرَ مرات: لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له المُلكُ وله الحمدُ، يُحيي ويُميت، وهو حيٌّ لا يموتُ، بيده الخيرُ كلُّه وهو على كلِّ شيء قدير.

ثم ليقرأ وهو كذلك: ﴿**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**﴾ عشرًا. ويقول: أعوذُ باللهِ السّميعِ العليمِ من الشَّيطانِ الرّجيمِ: ﴿**رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونَ**﴾ [المؤمنون: ٩٧ ـ ٩٨] عشر مرات. وليقل: ﴿**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ [الصافات: ١٨٠] إلى آخر السورة، ثلاث مرات. وليقل: ﴿**فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ**﴾ [الروم: ١٧] إلى آخر الثلاث آيات، ثلاث مرات.

ثم يسبح ثلاثًا وثلاثين، ويَحْمد كذلك، ويكبّر أربعًا وثلاثين، فتلك مائة مرة. وإن أحب جعلَها خمسًا وعشرين؛ زاد فيها التهليل.

وإن قال: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، خمسًا وعشرين مرة، استوعب ذلك مائة تسبيحة، وكان أيسر عليه لأجل المداومة.

ثم يقرأ: سورةَ الحمد، وآيةَ الكرسى، وخاتمةَ البقرة من قوله: ﴿آمنَ الرّسُولُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، و ﴿شَهِدَ اللهُ﴾ [آل عمران: ١٨] الآية، و ﴿قُلِ اللهمَّ مَالكَ المُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦] الآيتين. ثم يقرأ: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ منْ أَنْفُسكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] إلى آخرها. ثم يقرأ: ﴿وَقُلِ الحَمْدُ لله الذى لَمْ يَتَّخذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١] الآية. [ثم يقرأ: ﴿لَقدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ منْ أنفُسكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] إلى آخرها](١). ثم يقرأ: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بالْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧] إلى آخر السورة. ثم يقرأ: خمسًا من أول سورة الحديد، وثلاثًا من آخر سورة الحشر. ثم ليقل: «اللهم إنى أسألك بكرمِ وجهك الصلاةَ على محمد وآله، وأسألك الجنةَ وأعوذ بك من النار» سبع مرات.

وقال قَبيصةُ بنُ مُخارِق للنّبى ﷺ: علِّمنى كلمات ينفعنى اللهُ بها وأوْجز؛ فقد كَبُر سنّى، وعَجزْتُ عَن أشياءَ كنتُ أعملُها. فقال: «أما لدنياك فإذا صلّيت الغداةَ فقل ثلاث مرات: سبحانَ الله وبحمده، سبحانَ الله العظيمِ وبحمده، لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله. فإنّك إذا قلتهن أمنْتَ من عمًى وجُذام وبَرَص وفَالِج. أمّا لآخرتك فقل: اللّهم صلِّ على محمد وآل محمد، واهْدنى من عندك، وأفضْ علىّ من فَضْلك، وانْشُرْ علىَّ من رحمتك، وأنزل علىّ من بَرَكاتك». ثم قال رسول الله ﷺ: «أمَا إنه إذا وافى بهنّ يومَ القيامة لم يَدَعْهُنّ، فُتحَ له أربعةُ أبوابٍ من الجنة يدخُل من أيِّها شاء»(٢).

وإن قال المُسبّعات العَشر التى أهداها الخضرُ عليه السّلام إلى إبراهيم التيمى، ووصاه أن يقولها غدوةً وعشيةً، وقال له الخَضر: أعطنيها محمد ﷺ، وذكر من فَضلها وعظَم شأنها ما يَجلّ عن الوصف، وأنّه لا يداوم على ذلك إلاّ عبدٌ سعيد قد سبقتْ له من الله عزّ وجلّ الحسنى، وحذفنا ذكر فضائلها اختصارًا ـ فإن قال

(١) هذه تكملة من نسخة (ك).

(٢) حديث قبيصة، قال عنه العراقى: «أخرجه ابن السنى فى: اليوم والليلة، من حديث ابن عباس. وهو عند أحمد فى المسند مختصرًا، من حديث قبيصة نفسه، وفيه رجل لم يسم» الإحياء ١/٣١٥.

ذلك فقد استكملَ الفَضْلَ. والمداومةُ عليهنّ تجمعُ له جميع ما فرّقناه من الأدعية.

روى ذلك سعيدُ بن سعيد، عن أبى طيبة، عن كُرْزِ بن وَبْرَةَ[١]، وكان من الأبدال[٢]، قال: أتانى أخ لى من الشام، فأهدى لى هدية، وقال: يا كُرْزُ اقبل منى هذه الهدية، فإنها نعم الهَدِيّة. فقلت: يا أخى، مَن أهدى لك هذه الهَدِيّة؟ قال: أعطانيها إبراهيم التَّيْمى[٣]. قلت: أفلم تسأل إبراهيم مَن أعطاه؟ قال: بلى. قال: كنتُ جالسًا فى فناء الكعبة، وأنا فى التهليل والتسبيح والتحميد، فجاءنى رجل فسلّم علىّ، وجلس عن يمينى، فلم أرَ فى زمانى أحسن منه وجهًا، ولا أحسن منه ثيابًا، ولا أشدّ بياضًا، ولا أطيب ريحًا. فقلت: يا عبد الله، مَن أنت، ومن أين جئت؟ فقال: أنا الخضر[٤]. فقلت: فى أى شىء جئتنى؟ قال: جئتك للسلام عليك وحبًا لك فى الله عز وجلّ، وعندى هدية أريد أن أهديها إليك. فقلت: ما هى؟ قال: هى أن تقرأ، قبلَ طلوعِ الشّمس وتُبسط على الأرض، وقبل أن تَغْرُب: سورةَ الحمدِ، سبع مرات. وقل أعوذُ برب الناس، سبع مرات. وقل أعوذ برب الفلق، سبع مرات. وقل هو الله أحد، سبع مرات. وقل يا أيُّها الكافرون، سبع مرات. وآيةَ الكرسى، سبع مرات. وتقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، سبع مرات. وتصلى على النبى ﷺ، سبع

---

(١) كرز بن وبرة: ترجم له فى الحلية ٥/ ٧٩ بقوله: «من تابع التابعين، ومن أهل الكوفة والمعدودين فيهم، وسكن جرجان».

(٢) الأبدال: قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم، إذا مات واحد منهم أبدل الله تعالى مكانه آخر. الواحد: بَديلٌ.

(٣) هو إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمى، تيم الرباب، كوفى، روى عنه الأعمش وغيره، توفى سنة ٩٣هـ.

(٤) اختلف فى نسب الخضر، وفى حياته وموته، ويضيق المقام بتفصيل هذه المسألة، انظر ما قاله العراقى فى شأنه فى تعليقه على الخبر الذى بين أيدينا. وانظر ما كتبه ابن حجر العسقلانى فى رسالته «الزّهر النضر فى نبأ الخضر». وقال الزبيدى (الإتحاف ٥/ ١٣٥): «وهى مسألة شهيرة الاختلاف بين المحدِّثين والسادة الصوفية، والكلام عليها طويل الذّيل... وهذا الخبر على قواعد المحدِّثين لا يستقيم، فإنه رؤية منامية، وسعد بن سعيد الجرجانى، قال البخارى عنه: لا يصح حديثه. وأبو طيبة: ضعّفه يحيى بن معين. وكرز بن وبرة عن رجل من الشام مجهول لا يدرى من هو. ولكن مثل هذا يغتفر فى فضائل الأعمال، وقد تلقته الأمة بالقبول. والله أعلم».

مرات. وتستغفر لنفسك ولوالديك وما توالد، ولأهلك وللمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، سبع مرات. وتقول:

اللهم يا ربِّ افعلْ بى وبهم عاجلاً وآجلاً فى الدّين والدّنيا والآخرة ما أنتَ له أهلٌ، ولا تفعل بِنا يا مولاىَ ما نحنُ له أهلٌ، إنّك غفورٌ حليمٌ جوّادٌ كريمٌ رءوفٌ رَحِيم، سبع مرات.

وانظر ألاَّ تَدَعَ ذلك غدوةً وعشيةً.

فقلت: أُحب أن تخبرنى من أعطاكَ هذه العَطيّة. فقال: أعطانيها محمد ﷺ. فقلت: أخبرنى بثواب ذلك. فقال لى: إذا لقيتَ محمّدًا ﷺ فسَلْهُ عن ثوابه، فإنه سيخبرك.

فذكر إبراهيم التيمى، رحمه الله: أنه رأى ذاتَ ليلةٍ فى منامه أن الملائكةَ جاءته، فاحتملته حتى أدخلُوه الجنةَ، فرأى ما فيها، ووصفَ وَصفًا عظيمًا مما رأى فى صِفة الجنّة. قال: فسألتُ الملائكة فقلت: لمن هذا كلّه؟ فقالوا: للذى يعمل مثل عملك. وذكر أنه أكل من ثمرِها، وسقَوْه من شرابها، فأتانى النبىُّ ﷺ ومعه سبعون نبيًا، وسبعونَ صَفًا من الملائكة، كل صفٍّ مثل ما بين المشرق والمغرب، فسلّم علىّ وأخذ بيدى. فقلتُ: يا رسولَ الله، إن الخضرَ أخبرنى أنّه سمع منك هذا الحديثَ. فقال: صَدَقَ الخضرُ، وكلُّ ما يحكيه فهو حق، وهو عالمُ أهلِ الأرض، وهو رئيسُ الأبدال، وهو من جنود الله عز وجلّ فى الأرض.

فقلت: يا رسول الله، فمن فعل هذا ولم يرَ مثل الذى رأيتُ فى منامى، هل يُعطَى ممّا أُعْطيته؟ قال: والذى بعثنى بالحق إنه ليُعطى العامل بهذا وإن لم يَرَنى ولم يَرَ الجنة، إنّه ليُغفَر له جميع الكبائر التى عملها، ويرفع الله عزّ وجل عنه غضبه ومقته، ويُؤمر صاحب الشمال ألاَّ يكتب عليه شيئًا من السيئات إلى سَنة، والذى بعثنى بالحق نبيًا ما يعمل بهذا إلا من خلقه الله تعالى سعيدًا، ولا يتركه إلّا من خلَقه شقيًا[1].

---

(١) هـذا الخبر برمته فى الغنيـة، لعبد القادر الجيلانى، ١/ ١٠٤٥ ـ ١٠٤٩، وفيه زيادة فى آخره =

وقد كان إبراهيم التيمى رحمه الله مكَث أربعةَ أشْهرٍ لم يَطعم طعامًا، ولم يشرب شرابًا، فلعله بعد الرؤيا. والله تعالى أعلم، ذكره الأعمش عنه[١].

فهذا من جمل ما أتى ممّا يُستحَبُّ أن يُقرأ ويُقال بعد صلاة الغداة. ولذلك فضائلُ جمّة، وردت بها الأخبارُ حذفنا ذِكْرها للاختصار.

* * *

= ليست هنا. ونقله صاحب الإحياء عن القوت ١/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦، وقال العراقى عن هذا الخبر: «ليس له أصل، ولم يصح فى حديث قط اجتماع الخضر بالنبى ﷺ ولا عدم اجتماعه، ولا حياته ولا موته».

(١) انظر: الحلية ٤/ ٢١٣ ـ ٢١٤.

الفصل الخامس

فى ذكر الأدعية المختارة بعد صلاة الصبح الجامعة المختصرة المأثورة فى الأخبار المتفرقة (١)

رُوِىَ أن النبى ﷺ كان إذا افتتح دعاءً افتتحه بقوله: «سبحانَ ربى العلىِّ الأعلى الوهاب»(٢).

وأنه كان يقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له المُلك وله الحمد، يُحيى ويُميت، وهو حى لا يموت، بيده الخير وهو على كل شىء قدير. لا إلهَ إلا اللهُ أهلُ النعمةِ والفضلِ والثّناءِ الحسنِ. لا إله إلا اللهُ ولا نعبدُ إلاّ إيّاه مُخلصينَ له الدين ولو كره الكافرون».

وروينا أن رسول الله ﷺ قال لعائشة رضى الله عنها: «عليك بالجوامعِ الكوامل. قولى: اللّهم إنى أسألك الصّلاةَ على محمد وآله، وأسألكَ من الخيرِ كلِّه عاجله وآجله، ما علمتُ منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشرِّ كلِّه عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، وأسألك الجنةَ وما قرَّب إليها من قول وعملٍ، وأعوذُ بك من النّار وما قرَّب إليها من قول وعمل، وأسألكُ من خَيْرِ ما سألك به عبدُك ورسولُك محمد ﷺ، وأستعيذُك مما استعاذَك منه عبدُك ورسولك محمد ﷺ، وأسألك ما قضيتَ لى من أمر أن تجعل عاقبتَه رَشَدًا، برحمتك يا أرحمَ الرّاحمين»(٣).

(١) نقل الغزالى فى إحيائه معظم الأدعية التى وردت فى هذا الفصل، انظر: الإحياء ١/٣١٨ ـ ٣٢٨.

(٢) أخرجه أحمد من حديث سلمة بن الأكوع فى مسنده ٤/٥٤، والحاكم فى المستدرك، كتاب الدعاء ١/٤٩٨، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبى، وهو فى كنز العمال برقم ١٨٠٢٢، والإحياء ١/٣٠٧.

(٣) أخرجه ابن ماجه فى «باب الجوامع من الدعاء» انظر صحيح ابن ماجه ٢/٣٢٧ رقم ٣١٠٢. ورواه الإمام أحمد فى المسند ٦/١٦٧، وانظر الإتحاف ٥/٦٦.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يا فاطمةُ ما يمنعك أن تَسْمعى ما أُوصيك به، أن تقولى: يا حيُّ يا قيومُ برحمتك أستغيثُ، فأغثنى ولا تَكلْنى إلى نَفْسى طَرْفةَ عينٍ، وأصلح لى شأنى كله»(١).

وعلّم رسولُ الله ﷺ أبا بكرٍ الصديق رضى الله عنه هذا الدعاء، فقال: «قل: اللّهمّ إنى أسألُك بمُحمّد نبيّك، وإبراهيمَ خليلك، وموسى نجيِّك وكليمِك، وعيسى رُوحك وكلمتك، وبكلامِ موسى، وإنجيلِ عيسى، وزبورِ داود، وفرقان محمد ﷺ، وكلِّ وحى أوحيتَه، أو قضاء قضيتَه، أو سائلٍ أعطيتَه، أو غنىٍّ أقنيته، أو فقيرٍ أغنيته، أو ضالٍّ هديتَه، وأسألُك باسْمِك الذى أنزلتَه على موسى، وأسألك باسْمك الذى ثَبَّت به أرزاقَ العباد، وأسألك باسْمك الذى وَضعْتَه على الأرضِ فاستقرّت، وأسألك باسمك الذى وضعتَه على السَّموات فاستقلّت، وأسألك باسمك الذى وضعته على الجبالِ فأرستْ، وأسألُكَ باسمك الذى استقلّ به عرشُك، وأسألك باسمك الطُّهْر الطَّاهر الأَحَد الصَّمد الوِتر المنزَّل فى كتابك من لدنْك من النّور المبين، وأسألُك باسمك الذى وضعتَه على النّهار فاستنار، وعلى الليل فأظلم، وبعظمتك وكبريائك وبنورِ وجهك؛ أن تصلِّىَ على محمّد نبيك وعلى آله، وأن ترزقنىَ القرآنَ والعلْمَ وتَخْلطَه بلَحْمى ودَمى وسَمعى وبَصَرى، وتستعمل به جسدى، بحولِك وقوّتك، فإنّه لا حولَ لى ولا قوّةَ إلا بك يا أرْحَم الرّاحمين»(٢).

وروينا عن ابن عمرَ أنّ جبريل عليه السلام أتى النبىَّ ﷺ فعلّمه هذا الدعاء: «يا نورَ السَّموات والأرض، يا جمالَ السّموات والأرض، يا عمادَ السّموات والأرض، يا بديعَ السّموات والأرض، يا ذا الجلالِ والإكرام، يا صريخَ المستصرخين، يا غوثَ المستغيثين، يا منتهى رغبةِ الراغبين، والمفرِّجَ عَن

(١) أخرجه الحاكم وصححه ١/ ٧٣٠ ووافقه الذهبى، والمغنى عن حمل الأسفار (الإحياء) ١/ ٣١٤، والإتحاف ٥/ ٦٦، والكنز رقم ٣٩١٨.

(٢) قال عنه العراقى فى المغنى ١/ ٣١٥ : «رواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب من رواية عبد الملك بن هارون بن عبثرة عن أبيه. وعبد الملك وأبوه ضعيفان، وهو منقطع بين هارون وأبى بكر».

المكروبين، والمروِّحَ عن المغمومين، ومجيبَ دعوة المضطرين، وكاشفَ السوء، وأرحمَ الراحمين، وإلهَ العالمين، منزولٌ بك كلُّ حاجة، يا أكرمَ الأكرمين، ويا أرحمَ الراحمين»(١).

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: لم يكن النبى ﷺ يَدَع أن يدعو بهؤلاء الكلمات حين يُصبح وحين يُمسى: «اللهم إنى أسألُكَ العافيةَ فى الدّنيا والآخرة، وأسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وفى أهلى ومالى. اللهم استر عوراتى، وآمِنْ روعاتى، وأقِلْنى عثراتى. اللهم احفظنى من بين يدىَّ ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى، وأعوذ بك أن أُغتال من تحتى»(٢).

وقال بُرَيدُ الأَسْلَمِى: قال لى رسول الله ﷺ: «يا بُريد، ألا أعلّمُك كلمات من أراد الله عزّ وجلّ به خيرًا علّمهن إياه، ثم لم يُنسهن إياه أبدًا. قال: قلت: بلى يا رسول الله صلى الله عليك. قال: قل: اللهمّ إنى ضعيف فقوِّ فى رضاك ضعفى، وخذ إلى الخير بناصيتى، واجعل الإسلام منتهى رضاى. اللّهم إنّى ضعيف فقوِّنى، وإنى ذليل فأعزَّنى، وإنى فقير فأغننى، برحمتك يا أرحم الراحمين»(٣).

وروينا عن أبى مالك الأشْجعى قال: حدثنى أبى قال: كنا نغدو إلى النبى ﷺ فيجىء الرجل أو تجىء المرأة فيقول: كيف أقول يا رسول الله إذا أصبحت؟ قال: «تقول: اللهم صلّ على محمد وآله، واغفر لى وارحمنى، واهدنى وارزقنى، وعافنى واجبرنى. فقد جَمعْن لك خيرَ دنياك وآخرتك»(٤).

وروينا عن أبى زُرْعَة قال: كتب إلىّ أبو هريرة فيما أكاتبه، وشافهنى به فيما ألقاه، أنَّ الشيطانَ لا يَطِيفُ بإنسانٍ يقول حين يصبح وحين يمسى: اللهم إنى

(١) فى كتاب: الكنى والأسماء، للدّولابى، ٢/ ١٧.

(٢) أصله فى صحيح مسلم رقم ٢١٨٣، وصحيح ابن ماجه، باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح، رقم ٣١٢١، ومسند أحمد ٢/ ٢٥، وكنز العمال رقم ٤٩٥٧.

(٣) أخرجه الحاكم فى مستدركه ١/ ٧٠٨ وقال: صحيح الإسناد، والمغنى ١/ ٣١٥، وفى مجمع الزوائد ١٠/ ١٨٢ علق الهيثمى على سند الطبرانى فقال: «وفيه أبو داود الأعمى وهو ضعيف جدًا»، وكذا قال الذهبى فى التلخيص.

(٤) انظر: السلسلة الضعيفة، للألبانى، رقم ٢١٥، وتاريخ بغداد ١٣/ ٤٥٩، والإتحاف ٣/ ٢٨٦.

أعوذ باسمك وكلمتك التامة من شر السَّامَّة والهامَّة، وأعوذ باسمك وكلمتك التامة من شرِّ عذابك وشرّ عبادك، وأعوذ باسمك وكلمتك التامّة من شرّ الشيطان الرجيم. اللّهم إنى أسألك بأسمائك وكلمتك التامة أن تصلى على نبيك محمد وآله. وأسألك من خير ما تعطى وما تُسأل، ومن خير ما تُخفى وخير ما تُبدى. اللّهم إنى أعوذ باسمك وكلمتك التامّة من شرٍّ ما يجرى به النهار، إنّ ربّى الله الذى لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو ربُّ العَرْشِ العظيم». وإن كان مساءً قال: «ومن شر ما جاء به الليل»، يقول ذلك ثلاثًا.

وروينا عن عمر بن عبد العزيز عن محمد بن عبيد الله قال: أُتى أبو الدرداء فقيل له: احترقت دارك. فقال: ما كان الله عزّ وجلّ ليفعل. ثم أتاه آتٍ فقال: يا أبا الدرداء، إنّ النار حين دنَت من دارِكَ طُفئت. فقال: قد علمتُ. فقيل له: ما ندرى أىّ قوليك أعجب. قال: إنى سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «من قال هؤلاء الكلمات فى ليل أو نهار لم يضره شىء وقد قلتهن» وهى: «اللهمّ أنت ربى، لا إله إلا أنتَ، عليك توكلتُ، وأنت ربّ العرش العظيم، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، ما شاء الله عزّ وجلّ ربى كان، وما لم يشأ لم يكن، أعلم أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكلّ شىءٍ علمًا. اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى، ومن شرِّ كلِّ دابةٍ أنت آخذ بناصيتها، إن ربّى على صراطٍ مُستقيم»[(١)].

وقد روينا عن أبى الدرداء أنه قال: من قال فى كل يوم، سبع مرات: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] كفاه الله عزّ وجلّ ما يهمه من أمر آخرته صادقًا كان أو كاذبًا.

وروينا عن النبى ﷺ أنه قال: «ما أصاب أحدًا همٌّ ولا حزن فقال: اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمَتك، ناصيتى بيدك، ماضٍ فىّ حكمك، عدلٌ فىّ قضاؤك، أسألك اللهمّ بكل اسمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ به نفسك، أو أنزلتَه فى كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرتَ به فى علم الغيب عندك، أن تصلىَ على نبيك

(١) الأسماء والصفات، للبيهقى، ص١٦٣، وكنز العمال، رقم ٣٥٨٣، والكلم الطيب لابن تيمية، ص٢٨. وقال عنه العراقى فى المغنى ١/ ٣١٦: ضعيف.

وحبيبك محمد وآله، وأن تجعلَ القرآنَ ربيعَ قلبى، ونورَ صَدْرى، وجلاءَ حُزنى، وذهابَ همّى وغمّى، إلا أذهبَ اللهُ عزّ وجلّ همّه وحزنه، وأبدله مكانه فرحًا. قال: قيل: يا رسول الله ألاَ نتعلّمها؟ فقال ﷺ: بل ينبغى لمن سمعها أن يتعلّمها»[١].

وروينا فى الأخبار أنّ إبراهيم الخليل كان يقول إذا أصبح: «اللّهم هذا خلقٌ جديدٌ، فافتحه علىّ بطاعتك، واختمه لى بمغفرتك ورضوانك، وارزقنى فيه حسنةً تقبلها منّى، وزكّها وضعفّها لى، وما عملتُ فيه من سيئةٍ فاغفرها لى، إنّك غفورٌ رحيم، ودودٌ كريم». قال: ومن دعا بهذا الدعاء إذا أصبح فقد أدى شكر يومه، وكذلك إذا أمسى.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «من قال إذا أصبح وإذا أمسى ثلاث مرات: رضيتُ بالله عزّ وجلّ ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، كان حقًا على الله أن يرضيه يوم القيامة»[٢].

وروينا عن معمر عن جعفر بن برقان أن عيسى ابن مريم ﷺ كان يقول: «اللهم إنى أصبحتُ لا أستطيع دفع ما أكره، ولا أملك نفعَ ما أرجو، وأصبح الأمرُ بيدِكَ لا بيد غيرك، وأصبحتُ مرتهنًا بعملى، فلا فقير أفقر منى. اللّهم لا تشمِّت بى عدوى، ولا تُسئ بى صديقى، ولا تجعل مُصيبتى فى دينى، ولا تجعل الدنيا أكبرَ همى، ولا مبلغَ علمى، ولا غايةَ أملى، ولا تسلِّط علىَّ من لا يرحمنى».

ورُوينا عن عطاء عن ابن عباس قال: يلتقى الخضر وإلياس فى كل موسم، فيفترقان عن هذه الكلمات: «بسم الله، ما شاء الله، لا حول ولا قوّة إلا بالله. ما شاء الله، كل نعمة من الله. ما شاء الله، الخير كله بيد الله عزّ وجلّ. ما شاء الله، لا يصرفُ السّوء إلا الله. ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله»[٣]، فمن

---

(١) رواه أحمد فى مسنده ١/ ٣٩١، ومجمع الزوائد ٧/ ١٨٦.

(٢) فتح البارى ١١/ ١٣٠، ورواه الحاكم فى مستدركه ١/ ٥١٨.

(٣) نقل صاحب الإحياء هذا الخبر وعلّق عليه الزبيدى فى الإتحاف ٥/ ٦٩، قال: «وهو فى فوائد أبى إسحاق المزكّى تخريج الدارقطنى، وقال عنه: لا أعلمه إلا مرفوعًا إلى النبى ﷺ، ولكن ضعّف سنده بطرقه المختلفة».

قالها إذا أصبح ثلاث مرات أمن الحرق والغَرق والسَّرَق.

ويقال: إن هذا من استغفار الخضر عليه السلام: «اللهمَّ إنى أستغفرك من كل ذنب تبتُ إليك منه ثم عدتُ فيه. اللهم إنى أستغفركَ من كلِّ عقدٍ عقدتُه لك ثم لم أفِ لكَ به. اللهم إنى أستغفركَ من كلِّ نعمةٍ أنعمتَ بها علىَّ فقويتُ بها على معصيتك. اللهمّ إنى أستغفركَ من كل عملٍ عملتُه لوجهِك خالَطه ما ليسَ لكَ»[(١)].

وحكى سعيد بن أبى الروحاء الجمال وكان من أهل الخير، أنه توحّد ذات ليلة فى أرض قَفْرة، فاستوحش وفزع، فظهر له شخص، قال: فاشتد جزعى منه، حتى سمعتُه يقرأ القرآن، ثم قال: ألا أدلُّك على شىءٍ إذا أنت قلتَه أنِسْتَ إذا استوحشتَ، واهتديتَ إذا ضَلَلْتَ، ونمْتَ إذا أَرِقْتَ؟ قلتُ: علِّمنى رحمك الله. قال: قل: «بسمِ الله ذى الشّان، عظيم البرهان، شديدِ السلطان، كلّ يوم هو فى شأن، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم».

وحدثونا عن يعقوب بن عبد الرحمن الدّعّاء قال: سمعتُ محمد بن حسان[(٢)] يقول: قال لى معروف الكرخى[(٣)] رحمه الله: ألا أعلِّمك عشرَ كلمات؛ خمسة للدنيا؛ وخمسة للآخرة، مَنْ دعا الله عزّ وجلّ بهِنَّ وجدَ اللهَ سبحانه وتعالى عندَهُن. قلتُ: أكتبها؟ قال: لا، ولكن أُردِّدها عليك كما ردّدها علىَّ بكرُ بنُ خُنيس[(٤)]: «حسبى اللهُ تبارك وتعالى لدينى، حسبى اللهُ عزّ وجلّ لدنياى، حسبى

---

(١) هذا الخبر فى الإحياء، وعلّق عليه الزبيدى ٥/ ٦٩ ـ ٧٠، راجعه ثَمَّ إن شئت.

(٢) هو محمد بن حسان بن فيروز الأزرق البغدادى، روى عن ابن عيينة وجماعة، وروى عنه ابن ماجه، توفى ٢٥٧هـ. انظر: الكاشف ٣/ ٣٢ رقم ٤٨٥٩.

(٣) هو معروف بن فيروز الكرخى، كنيته أبو محفوظ، قال عنه أبو عبد الرحمن السلمى: «وهو من جلّة المشايخ وقدمائهم، والمذكورين بالورع والفُتُوة، وكان أستاذ سرىٍّ السَّقَطى» طبقات الأولياء ص٨٣ ـ ٩٠، وانظر فى ترجمته: حلية الأولياء ٨/ ٣٦٠، وتاريخ بغداد ١٣/ ١٩٩، وغيرها.

(٤) فى المطبوعة: «حبيش» والصواب ما أثبتّ. وهو من رجال الترمذى وابن ماجه، روى عنه ثابت ويزيد الرقاشى وجماعة. انظر فى ترجمته: ميزان الاعتدال ١/ ١٦٠، والكاشف، للذهبى، ١/ ١٦١.

اللهُ الكريمُ لِمَا أهَمّنى، حسبى اللهُ الحكيمُ القوى لمن بغى علىَّ، حسبى الله الشديد لمن كادنى بسوء، حسبى الله الرحيمُ عند الموت، حسبى الله الرءوف عند المسألة فى القبر، حسبى الله الكريم عند الحساب، حسبى الله اللطيف عند الميزان، حسبى الله القدير عند الصراط، حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم». وادع بهؤلاء الكلمات: «اللهمّ يا هادى المضلّين[١]، وراحمَ المذنبين، ومُقيلَ عثَرات العاثرين، ارحم عبدَك ذا الخطرِ العظيم، والمسلمين كلّهم أجمعين، واجعلنا من الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، آمين يا ربّ العالمين».

يقال: إن عتبة الغلام[٢] رئى فى المنام فقال: دخلتُ الجنة بهذه الدعوات.

وليقل بعد ذلك هذا الدعاء: «اللهم عالم الخفيات، رفيعَ الدرجات، ذا العرش، تُلقى الروح من أمرك على من تشاء من عبادك، غافرَ الذنبِ، وقابلَ التوب، شديدَ العقاب، ذا الطول، لا إله إلا أنت، إليك المصير».

رُئى إبراهيم الصائغ فى النوم فقيل له: بأى شىء نجوتَ؟ فقال: بهذه الدعوات.

وليقل هذا الدعاء: «يا مَنْ لا يشغله سَمْعٌ عن سَمْع، ولا تشتبه عليه الأصوات، يا من لا تغلطه المسائل، ولا تختلف عليه اللغات، يا من لا يتبرَّم بإلحاح الملْحين، أذقْنى بردَ عفوك، وحلاوةَ رحمتك».

يقال: إن الخضرَ عليه السلام علّم على بنَ أبى طالب عليه السلام هذا الدعاء.

وليسبّح تسبيحات أبى المعتمر، وهو سليمان التيمى[٣]، فقد رُوى فى فضلها أن

(١) قال الزبيدى (الإتحاف ٥/ ٧٠): «المضلّين، من أضَلَّ الرّجلُ؛ إذا صار حائرًا لا يهتدى».

(٢) هو عتبة بن أبان بن صمعة. ولقب بالغلام، لأنه كان فى العبادة غلام رهان. وقيل: لأنه كان نصفًا من الرجال. الحلية ٦/ ٢٢٦. والخبر السابق فى الحلية ٦/ ٢٣٨.

(٣) فى المطبوعة «التميمى» وهو تحريف، وسيتكرر هذا الخطأ كثيرًا، وهو سليمان بن طرْخان أبو المعتمر التيمى، نزل بالبصرة. كان يصلى الليل كله بوضوء العشاء، مناقبه جمّة، توفى ١٤٣هـ، انظر: الكاشف ١/ ٣٩٦، والحلية ٣/ ٢٧ ـ ٣٧، والإتحاف ٥/ ٧٢.

يونس بن عبيد رأى رجلاً كان قد قُتل شهيدًا ببلاد الروم، فقال له: ما أفضل ما رأيتَ ثَمَّ من الأعمال؟ قال: رأيت تسبيحاتِ أبى المعتمر من الله سبحانه وتعالى بمكان.

وقال المعتمر بن سليمان: رأيت عبد الملك بن خالد بعد موته فقلت: ما صنعت؟ قال: خيرًا. قلتُ: ترجو للخاطئ شيئًا؟ قال: يلتمس تسبيحاتِ أبى المعتمر، فإنّها نِعْم الشىء. وهذه هى التسبيحات:

«سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوّة إلا بالله، عدَد ما خلق الله وعددَ ما هو خالق، وزنةَ ما خلق وزنةَ ما هو خالق، وملءَ ما خلق وملءَ ما هو خالق، وملء سمواته، وملء أرضه، ومثل ذلك وأضعاف ذلك، وعددَ خلقه، وزنةَ عرشه، ومنتهى رحمته، ومداد كلماته، ومبلغ علمه ورضاه، وحتى يرضى وإذا رضى، وعدد ما ذكره به خلقُه فى جميع ما مضى، وعدد ما هم ذاكروه فيما بقى، فى كل سنة وشهر وجمعة ويوم وليلة وساعة من الساعات، ونَسْمة وشَمٍّ ونَفَسٍ ولَمْحة وطَرْفة من الأبد إلى الأبد، أبد الدنيا وأبد الآخرة، وأكثر من ذلك؛ لا ينقطع أُولّاه ولا ينفد أُخراه».

وليدعُ بهذا الدعاء، فإنه دعاء التوبة مرجوٌّ فيه الإجابة:

روينا عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت: لما أراد الله عزّ وجلّ أن يتوبَ على آدم طاف سبعًا بالبيت، وهو يومئذ ليس بمبنى؛ ربوة حمراء، ثم قام فصلى ركعتين، ثم قال: «اللهم إنّك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى، وتعلم حاجتى فأعطنى سؤلى، وتعلم ما فى نفسى فاغفر لى ذنوبى. اللهم إنى أسألك إيمانًا يباشر قلبى، ويقينًا صادقًا حتى أعلم أنه لا يصيبنى إلا ما كتبتَ لى، والرضا بما قَسمْتَ لى، يا ذا الجلال والإكرام».

فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: «إنى قد غفرت لك، ولن يأتينى أحد من ذريتك فيدعونى بمثل الذى دعوتنى به إلا غفرتُ له وكشفتُ غمومه وهمومه، ونزعتُ الفقرَ من بين عينيه، وأَتْجرت له من وراء كل تاجر، وجاءته الدنيا وهى راغمة وإن كان لا يريدها».

وليقل هذه الكلمات المنثورة، فإنّها ممّا روى فى اسم الله سبحانه وتعالى الأعظم بأخبار فى ذلك مأثورة:

«اللّهم إنى أسألك بأن الحمد لك، لا إله إلا أنت الحنَّان المنَّان، بديعُ السموات والأرض، ذو الجلال والإكرام، أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد، يا حىُّ يا قيوم، يا حىُّ حين لا حى فى ديمومية ملكه وبقائه، يا حى محيى الموتى، يا حى مميت الأحياء، وارثُ أهل الأرض والسماء.

اللهم إنى أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم، وباسمك الذى لا إله إلا هو الحى القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم.

اللهم إنى أسألك باسمك الأعظم الأجلِّ الأعز الأكرم، الذى إذا دُعيتَ به أجبتَ، وإذا سُئلتَ به أعطيتَ، يا نورَ النورِ، يا مدبرَ الأمورِ، يا عالمَ ما فى الصدور، يا سميعُ يا قريبُ يا مجيبَ الدعاء، يا لطيفًا لما يشاء، يا رءوفُ، يا رحيمُ، يا كبيرُ، يا عظيمُ، يا الله، يا رحمن، يا ذا الجلال والإكرام. الله لا إله إلا هو الحى القيوم، وعَنَتِ الوجوهُ للحىّ القيوم. يا إلهى وإلهَ كلِّ شىء إلهًا واحدًا لا إله إلا أنت.

اللهم إنى أسألكَ باسمك الله، الله، الله الذى لا إله إلا هو ربّ العرش العظيم، فتعالى الله الملك الحق، لا إله إلا هو ربّ العرش الكريم. أنت الأولُ الآخر، الظاهرُ الباطن، وَسِعْتَ كلَّ شىء رحمةً وعلمًا، كَهَيعص، حَم عسق، الر، حم، ن، يا واحد، يا قهار، يا عزيز، يا جبار، يا أحد، يا صمد، يا ودود، يا غفور، هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم، لا إله إلا أنتَ سُبْحَانَكَ إنى كنتُ من الظالمين.

اللهم إنى أدعوك باسمك المكنون المخزون، المنزَّل السلام، الطُّهر الطاهر، القدس المقدس، يا دهر، يا ديهور، يا ديهار، يا أبد يا أزل، يا من لم يزل، ولا يزول، هُو يا هُو، لا إله إلا هُو، يا من لا هو إلا هُو، يا من لا يعلم ما هو إلا هو، يا كان يا كينان، يا روح يا كائن قبلَ كلِّ كون، يا كائن بعد كلِّ كون، يا

مكنون لكل كون، اهيا شر اهيا، أدناى أصباؤت[١]، يا مجلى عظائم الأمور، ﴿فإن تولَّوْا فقُلْ حَسْبىَ اللهُ لا إله إلا هُوَ عَلَيْه توكَّلْتُ وَهُو ربُّ العَرْشِ العَظِيم﴾ [التوبة: ١٢٩] ﴿ليسَ كمثْله شىءٌ وهُو السَّمِيعُ البَصيرُ﴾ [الشورى: ١١].

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنّك حميد مجيد».

وليقل هذه الأدعية المأثورة:

«اللهم إنى أسألك الثّباتَ فى الأمر، والعزيمةَ على الرشد. وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك. وأسألك اللهم يا ربّ قلبًا سليمًا، ولسانًا صادقًا، وعملاً متقبلاً. وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شرّ ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، فإنك تعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، واغفر لى ما قدمتُ وما أخرتُ، وما أعلنتُ وما أسررتُ، فإنك أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر، وأنت على كل شىء قدير، وعلى كل غيب شهيد.

اللهم إنى أسألك إيمانًا لا يرتد، ونعيمًا لا ينفد، وقرةَ عين الأبد، ومرافقةَ نبيّك محمد ﷺ فى أعلى جنة الخلد.

اللهم إنى أسألك الطيبات، وفعلَ الخيرات، وتركَ المنكرات، وحبَّ المساكين. وأسألك اللهم يا ربّ الصلاةَ على محمد، وعلى آله أجمعين. وأسألك حبّك وحب من يحبك، وحبّ عملٍ يقرِّب إلى حبك، وأن تتوب علىّ، وتغفر لى، وترحمنى. وإذا أردتَ بقوم فتنة فاقبضنى إليك غير مفتون، يا أرحم الراحمين.

اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق؛ أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى،

---

(١) يقال إن هذه أسماء سريانية، ولعلها بقايا من تلك اللغة البائدة، التى هى الأم للعربية القديمة. انظر كتاب: منبع أصول الحكمة، ص ٨٨ ـ ٩٩.

وتوفّنى إذا كانت الوفاةُ خيرًا لى. وأسألك اللهم يا ربّ خشيتك فى الغيب والشهادة، وكلمةَ العدل فى الرضا والغضب، والقصدَ فى الغنى والفقر، ولذةَ النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، وأعوذ بك من ضراء مضَرّة، وفتنة مُضلّة.

اللهم يا ربِّ زيِّنا بزينةِ الإيمان، واجعلنا هداةً مهتدين.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، واقْسِم لنا من خَشْيتكَ ما يَحولُ بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تُدخلنا به جنَّتك، ومن اليقينِ ما تهوّن به علينا مصائبَ الدنيا.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وارزقنا حزنَ خوفِ الوعيد، وسرورَ رجاءِ الموعود، حتى نجد لذّةَ ما نطلب وغمَّ ما منه نَهْرُب.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد سيد الأولين والآخرين، وصلّ على محمد وعلى آله أجمعين، وألبسْ وجوهَنا منك الحياءَ، واملأ قلوبنا بك فرحًا، وأسكن فى نفوسنا من عظمتك، وذلِّل جوارحنا لخدمتك، واجعلك أحبَّ إلينا ممّا سواك، واجعلنا أخشى لك ممّا سواك.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وأعنِّى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وأسألك تمامَ النعمةِ بتمام التوبة، ودوامَ العافية بدوام العِصمة، وأداءَ الشكر بحُسنِ العبادة.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وأعوذ بك من فتنة الغنى، وفتنة الفقر، وأعوذ بك من ضيق الصدر، وشتات الأمر، وعذابِ القبر، وأعوذُ بك من غِنًى مُطْغٍ، ومن فقرٍ منسٍ، ومن هوًى مُرْدٍ، وقرين مُغْوٍ.

اللهم إنى أسألك الصلاة على محمد وعلى آله، وأسألك الهدى والتقى والعفاف والغِنى.

اللهم صلّ على محمد نبيّك وصفيك، ولا تقدِّمنى لعذاب، ولا تؤخِّرنى لسىء الفتَن. أعوذ بك يا اللهُ من الفتَنِ ما ظهر منها وما بطن، وأعوذ بك من المحنِ ما خَفِى منها وما عَلَنَ.

اللهم إنى أسألك الصلاةَ على نبيّك محمد وعلى آله، وأسألك خيرَ هذا اليوم وخيرَ ما فيه، وأعوذ بك من شرِّه وشرّ ما فيه. أعوذ بك اللهم يا ربّ من شرّ طوارق الليل والنهار، ومنْ بَغْتات الأمور، وفجأة الأقدار، ومن شرّ كل طارق يطرق إلا طارقًا يطرق منك بخير، يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

اللهم صلّ على محمد وعلى آله، واجعل يومنا هذا أوّلَه صلاحًا، وأوسطَه فلاحًا، وآخرَه نجاحًا.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، واجعل أوله رحمة، وأوسطه نعمة، وآخره تكرمة.

اللهم صلّ على محمد نبيك وعلى آله، وأعوذ بك أن أَزلَّ أو أُزلَّ، أو أَضِلَّ أو أُضَلَّ، أو أَظلم أو أُظلم، أو أجْهل أو يُجْهل علىّ، عزّ جارك وجلّ ثناؤك وتباركت أسماؤك، ولا إله غيرك.

اللهم صلّ على محمد وعلى آله، وأعوذ بك من عذاب جهنم وعذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدّجّال، وإذا أردتَ بقوم سوءًا أو فتنةً فاقبضنى إليك غيرَ مُبدِّلٍ ولا مَفْتون.

اللهم صلّ على محمد وعلى آله. اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى، وتوفَّنى إذا كانت الوفاةُ خيرًا لى، وأسألك خير الحياة، وبركة الحياة، وأعوذ بك من شرّ الوفاة، وأسألك خيرَ ما بينهما، وخيرَ ما بعد ذلك، أحينى حياةَ السعداء حياةَ من تحبّ بقاءه، وتوفّنى وفاةَ الشُّهداءِ وفاة من تحب لقاءه، يا خير الرازقين، ويا أحسن التوّابين، ويا أحكم الحاكمين، ويا أرحم الراحمين، ويا ربّ العالمين. أعوذُ بك من شر ما يَلِج ُفى الأرض وما يخرج منها، ومن شرّ ما ينزل من السماء وما يَعْرُجُ فيها.

الحمد لله الذى تواضع كلُّ شىء لعظمته، وذلّ كلُّ شىء لعزته، وخضع كل شىء لمُلْكه، واستسلم كلُّ شىء لقُدْرته. والحمد لله الذى سكن كل شىء لهيبته، والحمد لله الذى أظهر كلّ شىءٍ بحكمته، وتصاغر كلُّ شىء لكبريائه.

اللهم صلّ على نبيّك محمد وعلى آل محمد، وأزواجه وذريته فى العالمين، إنك حميد مجيد كريم.

اللهم صلّ على محمد عبدك ونبيِّك، ورسولك النبى الأمى، الرسول الأمين، وأعطه المقامَ المحمود يوم الدين.

اللهم إنى أعوذ بك من حِدّة الحرص، وشدةِ الطمع، وسَوْرةِ الغضب، وسِنَةِ الغفلة، وتعاطى الذلة. أعوذ بك من مباهاة المكثرين، والإزراءِ على المقلِّين، وأن أنصر ظالمًا، أو أخذُل مظلومًا، وأن أقولَ فى العِلم بغير العلم، وأعملَ فى الدينِ بغير يقين.

اللهمّ إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لِمَا لا أعلم. اللّهم إنى أعوذ بك من اتباع خطوات الشيطان وشركه فى المال والأهل، وقبول أمره فى السوء والفحشاء.

اللهم إنى أسألك الصلاة على نبيّك محمد وعلى آله، وأسألك حسنَ الاختيار، وصحةَ الاعتبار، وصدقَ الافتقار.

اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وافتح بخير، واختم بخير، وأنت الفتاحُ العليمُ.

اللهم صلّ على نبيك محمد وعلى آل محمد، وارحمْ ما خلقتَ، واغفر ما قدّرتَ، وطيِّب ما رزقت، وتَمِّم ما أنعمت، وتقبّل ما استعملت، واحفظْ ما استُحفظت، ولا تَهْتك ما سَترت، فإنه لا إله لنا إلا أنت.

أستغفرك من كلِّ لذّة بغير ذكرِك، ومن كلِّ راحةٍ بغير خدمتك، ومن كل سرور بغير قُربك، ومن كل فرح بغير مجالستك، ومن كل شُغل بغير معاملتك.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، واجعلنا من أوليائك المتقين، وحزبِك المفلحين، وعبادِك الصالحين.

اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، واستعملنا بمرضاتك عنّا، ووفّقنا لمحابّك منّا، وصرِّفنا بحسن اختيارك لنا.

اللهمّ صلِّ على نبيك محمد وعلى آله، ونسألك جوامعَ الخيرِ وفواتحه وخواتمه، ونعوذ بك من جوامع الشرّ وفواتحه وخواتمه.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، واحفظنا فيما أمرتنا، واحفظنا عمّا نهيتنا، واحفظ لنا ما أعطيتنا، يا حافظ الحافظين، ويا ذاكرَ الذاكرين، ويا شاكرَ الشاكرين، بحفظك حُفظوا، وبذكرِك ذَكروا، وبفضلك شكَرُوا. يا غوثُ، يا مغيثُ، يا مستغاثُ، يا غيّاثَ المستغيثين، لا تكِلْنى إلى نفسى يا ربّ طرفةَ عين فأهْلَكَ، ولا تكِلْنى إلى الخلق فأضيع. اكلأنى كلاءةَ الوليد، ولا تَخَلَّ عنى، وتولَّنى بما تتولَّى به عبادك الصالحين.

اللّهم صلّ على نبيك محمد وعلى آله، وبقدرتك علىّ تُب علىّ، إنّك أنت التواب الرحيم. وبِحلْمِك عنِّى اعفُ عنى إنّك أنتَ الغفارُ، وبعلمك بى ارفق بى إنك أنت الرحمن الرحيم، وبملكك لى ملِّكنى نفسى ولا تسلِّطها علىّ إنّك أنت الملك الجبار. سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت، عَملتُ سوءًا وظَلَمْتُ نفسى، فاغفر لى ذنبى، إنك أنت ربّى لا إله إلا أنت، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وألهمنى رُشْدى، وقنى شرّ نفسى.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وارزقنى حلالاً لا تُعاقبنى عليه، وقنِّعنى بما رزقتنى، واستعملنى به صالحًا تقبله منى.

اللّهم إنى أسألكَ أن تصلّى على نبيك محمدٍ وعلى آل محمد، وأسألك العفوَ والعافيةَ، وحسنَ اليقين، والمعافاةَ فى الدنيا والآخرة.

اللّهم صلّ على نبيك محمد وعلى آل محمد، وأعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك، لا أحصى ثناءً عليك أنت كما

أَثْنَيْتَ على نفسك، أبوءُ بنعمتك علىَّ، وأبوء بذنوبى إليك، هذه يداى بما كسبتُ، أنا عبدك ابنُ عبدك، ناصيتى بيدك، جارٍ فىَّ حكمُك، نافذ فىَّ قضاؤك، عَدْلٌ فىَّ مشيئتُك، إن تعذِّب فأهل ذلك أنا، وإن ترحم فأهل ذلك أنت، فافعل اللهم يا مولاى، يا الله، يا ربّ، افعل بى ما أنت له أهل، ولا تفعل اللّهم يا ربّ يا الله بى ما أنا له أهل، فإنّك أهل التقوى وأهلُ المغفرة.

يا من لا تضرّه الذنوب، ولا تنقصه المغفرة، هب لى اللّهم يا ربّ ما لا يضرك، وأعطنى ما لا ينقصك. أفرغ اللّهم علينا يا ربّ صبرًا، وتوفَّنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، أنت وليُّنا فاغفر لنا وارحمنا، وأنتَ خير الغافرين.

﴿وَاكْتُبْ لَنا فى هَذه الدُّنيا حَسَنَةً وفى الآخِرَة إنَّا هُدْنا إلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

﴿رَبَّنا عَلَيْكَ تَوكَّلْنا وإلَيْكَ أنَبْنا وإلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذينَ كَفَرُوا واغْفِرْ لَنا ربَّنا إنَّكَ أنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٤، ٥].

﴿رَبَّنا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وإسْرَافَنا فى أمْرِنا وثَبِّتْ أقْدامَنَا وانْصُرْنا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

﴿رَبَّنا آتنا مِن لَدُنكَ رَحْمَةً وَهيِّئ لنا من أمْرِنا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

﴿رَبَّنا آتِنا فى الدُّنْيا حَسَنَةً وفى الآخِرةِ حسنةً وقنا عَذابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

اللّهم إنى أسألك أن تصلّى على نبيك محمد وعلى آل محمد، وأسألك الصّيانةَ والعونَ على الطاعة، والعصمةَ من المعصية، وإفراغَ الصّبرِ فى الخدمة، وإيزاعَ الشكرِ على النّعمة.

وأسألك يا مولاى، يا الله، يا ربّ، الصلاةَ على نبيك محمد، وعلى آل محمد، وحسنَ الخاتمة. اللهم إنى أسألك أن تصلى على نبيك محمد وعلى آل محمد، وأسألك اليقين وحسنَ المعرفة بك، وأسألك المحبةَ وحسنَ التوكّل عليك، وأسألك الرضا وحسنَ المنقلب إليك.

﴿رَبَّنا إنَّنا سَمِعْنا مُنادِيًا يُنادى للإيمَانِ أنْ آمِنُوا بِربِّكُم فآمَنَّا رَبَّنا فاغْفِر لنا ذُنُوبَنا

وكَفِّرْ عنَّا سيِّئاتنا وتوفَّنا مع الأبْرارِ * ربّنا وآتنا ما وعدتّنا على رُسُلِكَ ولا تُخْزِنا يومَ القيامة إنَّك لا تُخْلِفُ الميعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٣ ـ ١٩٤].

﴿ربَّنا لا تُؤاخذْنا إن نَّسينا أو أخْطَأنا ربَّنا ولا تَحْمِلْ علَيْنا إصْرًا كَما حَمَلْتَه علَى الَّذين مِن قَبْلنا﴾ [البقرة: ٢٨٦] إلى آخرها.

اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، وطهِّر قلوبنا فى قلوب الأبرار، وزكِّ أعمالنا فى عمل الأخيار، وصلِّ على أرواحنا فى أرواح الشهداء، يا أكرم الأكرمين، ويا أجود الأجودين، ويا أرحم الراحمين.

ربنا آتنا فى الدنيا حسنةً وعلمًا وزهدًا وعبادة وأمنًا ورزقًا من حلال، وفى الآخرة حسنةً ورضوانك والجنة، وقِنا برحمتك عذابَ النار وعذابَ القبر، وقِنا سخطَك وغضبك وعذابَك وأهوالَه، عاجلاً وآجلاً فى الدين والدنيا والآخرة، برحمتك يا أرحم الراحمين».

وأن تُمجِّد الله تعالى غُدوةً وعشيَّة بما مجَّد به نفسه عزّ وجلّ، فقد رُوى من ثواب ذلك ما هو غاية الطَّالبين. رُوينا عن عليٍّ عليه السلام عن النبى ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى يمجّد نفسه فى كل يوم، يقول سبحانه وتعالى: إنى أنا الله ربُّ العالمين. إنى أنا الله لا إله إلا أنا الحى القيوم. إنى أنا الله لا إله إلا أنا العليُّ العظيم. إنى أنا الله لا إله إلا أنا العفو الغفور. إنى أنا اللهُ لا إله إلا أنا مبدئ كلِّ شىء وإلىّ يعود. إنى أنا الله لا إله إلا أنا لم ألد ولم أُولد. إنى أنا الله لا إله إلا أنا العزيزُ الحكيمُ. إنى أنا الله لا إله إلا أنا مالكُ يوم الدين. إنى أنا الله لا إله إلا أنا الرحمنُ الرحيمُ. إنى أنا الله لا إله إلا أنا خالقُ الخير والشر. إنى أنا الله لا إله إلا أنا خالقُ الجنة والنار. إنى أنا الله لا إله إلا أنا الواحدُ الأحدُ الفَرْدُ الصَّمدُ الذى لم يتّخذ صاحبة ولا ولدًا. إنى أنا الله لا إله إلا أنا الفرد الوتر. إنى أنا الله لا إله إلا أنا عالمُ الغيب والشهادة. إنى أنا الله لا إله إلا أنا الملكُ القدوسُ. إنى أنا الله لا إله إلا أنا السلامُ المؤمنُ المهيمنُ. إنى أنا الله لا إله إلا أنا العزيزُ الجبار المتكبر. إنى أنا الله لا إله إلا أنا الخالقُ البارئ. إنى أنا الله لا إله إلا أنا الأحدُ

المصوِّر. إنى أنا الله لا إله إلا أنا الكبيرُ المتعالُ. إنى أنا الله لا إله إلا أنا المقتدرُ القهارُ. إنى أنا الله لا إله إلا أنا الحكيمُ الكبير. إنى أنا الله لا إله إلا أنا القادرُ الرزاقُ. إنى أنا الله لا إله إلا أنا أهلُ الثناء والمجد. إنى أنا الله لا إله إلا أنا أعلمُ السرَّ وأخفى. إنى أنا الله لا إله إلا أنا فوق الخلق والخليقة. إنى أنا الله لا إله إلا أنا الجبارُ المتكبر»[1]. فيختم، ويقول: فسبحان الله ربّ العرش العظيم.

فمن دعا بهذه الكلمات فليقل: [إنَّك] أنت الله [الذى لا إله إلا أنت] كذا، و[إنّك] أنت الله [الذى لا إله إلا أنت][2] كذا.

ومن دعا بهذه الأسماء كُتب من الشاكرين الساجدين المخبتين، الذين يجاورون محمدًا ﷺ وإبراهيم وموسى وعيسى والنبيين صلوات الله عليهم أجمعين فى دار الجلال، وله ثواب العابدين فى السموات والأرضين.

وليقل: اللهم صلّ على محمد وآل محمد صلاةً تكون لك رضاء، ولحقّه أداءً، وأعطه الوسيلة والفضيلة، وابعثْه المقامَ المحمود الذى وعدته، واجزه عنا ما هو أهله، واجزه أفضل ما جازيتَ نبيًا عن أمته، وأعطه الشّرف والشفاعةَ يوم الدين.

اللهم صلِّ على محمد نبى الرحمة، وسيد الأمة، وعلى جميع إخوانه النبيين، وصلّ على أبينا آدم وأمنا حواء، ومن وُلدا بينهما من الصالحين والمسلمين. وصلّ على ملائكتك أجمعين من أهل السموات والأرضين. وصلّ علينا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين. واغفر لى ولوالدىَّ وما توالدا، وارْحَمْهُما كما ربّيانى صغيرًا، واغفر للمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات؛ الأحياء منهم والأموات.

ربّ اغفرْ وارحمْ، وتجاوز عمّا تعلَم، وأنتَ الأعزُّ الأكْرم، وأنتَ خيرُ الراحمين، وخيرُ الغافرين. وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلىّ العظيم. وحَسْبُنا الله ونعم الوكيل. وحسبنا الله وحده لا شريك له.

(١) قال عنه العراقى فى المغنى ١/ ٣١٧: «لم أجد له أصلاً». وفى الإتحاف ٥/ ٧١ ـ ٧٢: قال الزبيدى: «لكن وجدتُ فى (الحلية) فى ترجمة وهب بن منبه ما يقرب من ذلك».

(٢) ما بين المعكفات من الإحياء ١/ ٣١٧، والإتحاف ٥/ ٧٢.

فهذا جامعُ ما جاء من فضائل ما يقال من الدعاء عن [الرسول] المصطفى ﷺ، وعن الصحابة، وعن أئمة الهدى. وحذفنا ذِكْرَ فضائل ذلك وما جاء فيه من الروايات إيجازًا.

يقول هذا الدعاء بعد صلاة الغداة وقبل غروب الشمس، في كلّ يوم، فإن قاله بعد صلاة مكتوبة فقد استكمل الفضل، بفضلِ الله عزّ وجلّ ورحمته.

* * *

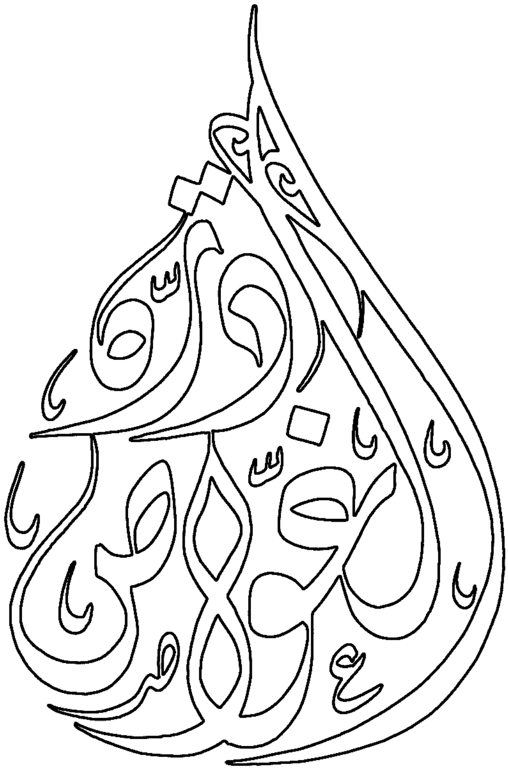

الفصل السادس

فى ذكر عمل المريد بعد صلاة الغداة

وهو أنه يأخذ فى تلاوة القرآن، وفى أنواع الذكر من التسبيح والحمد والثناء، وفى التفكر[(١)] فى عظمة الله سبحانه وتعالى وآلائه، وفى تواتر إحسانه ونعمائه، [وفى بواطن النعم وغوامضها التى لا تُحصى][(٢)]، من حيث يحتسب العبد، ومن حيث لا يحتسب، وفيما يعلم العبد وفيما لا يعلم.

ويتفكّر فى تقصيره عن الشكر فى ظواهر النعم وبواطنها، وعجزِه عن القيام بما أمره به من حُسن الطاعة، ودوام الشكر على النعمة.

أو يتفكّر فيما عليه من الأوامر والنّوادب فيما يستقبل.

أو يتفكّر فى كثيف ستر الله تبارك وتعالى عليه، ولطيف صنعه به، وخفيِّ لطفه له، وفيما اقترف وفرّطَ فيه من الزلل، وفى فوت الأوقات الخالية من صالح العمل.

أو يتفكّر فى حكم الله تعالى فى الملك وقدرته فى الملكوت، وآياته وآلائه فيهما.

أو يتفكر فى عقوبات الله عزّ وجلّ وبلائه، [وفى آلائه][(٢)] الظاهرة والباطنة فيهما، ومن ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ﴾ [إبراهيم: ٥]. قيل: بنعمه، وقيل: بعقوباته.

---

(١) جعل الغزالى «التفكُّر» قِسْمًا مستقلاً من ربع المنجيات، وهو الكتاب التاسع من (الإحياء ٤/ ٤٢٣)، وفيه فصَّل حقيقته وأهميته فى العبادة. ولكن مجامع أمر التفكر ترجع إلى ما ذكره أبو طالب هنا. انظر: الإتحاف ٥/ ١٣٥، ١٣٦.

(٢) ما بين المعكفات زيادة من: (ك).

ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

ومثله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] أي: بأى نعمةٍ تكذبان يا معشر الجنّ والإنس إن استطعتم، وهما الثقلان.

ففى أى نوع من هذه المعانى أخذ فيه فهو ذِكْر، والذكر عبادة[١]. وهو يُخرج إلى الفكر، والفكر يُدخل فى الخوف. والفكر[٢] إذا قَوِىَ صار مشاهدةً، كما قال عزّ وجلّ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وقُعودًا وعَلَى جُنُوبِهِم ويَتَفَكَّرُونَ فى خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ربَّنا ما خَلَقْتَ هذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]. ولا يكون مشاهدة إلا عن يقين، واليقينُ روح الإيمان، ومزيده، وفن المؤمن[٣].

وقال بعض العلماء فى تفسير الخبر: «تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ سنة»[٤]: هو التفكر الذى ينقل من المكاره إلى المحابّ، ومن الرغبة والحرص إلى القناعة والزهد[٥].

وقيل: هو التفكر الذى يُظهر مشاهدةً وتقوى، ويُحدث ذكرًا وهُدى [وزهدًا]، كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

---

(١) فى (ك): «والدعاء عبادة».

(٢) فى المطبوعة: «والذكر» وأثبت ما فى (ك).

(٣) فى (ك): «واليقين روح الإيمان وهو مزيد المؤمن».

(٤) ورد بهذا اللفظ فى الفوائد المجموعة، للشوكانى، ص٢٥١، وكشف الخفا، للعجلونى، ١/ ٣٧٠، والإتحاف ١٠/ ١٦١ وخرجه عن العراقى وغيره، انظر: الإحياء ٤/ ٤٢٣.

(٥) قال الزبيدى: «وإنّما كان التفكّر أشرف العبادات، إذ فيه معنى الذكر لله، وزيادة أمرين: أحدهما: زيادة المعرفة، إذ التفكر مفتاح المعرفة والكشف؛ لأنه إدارة فكر، وتصرف قلب فى معانى الأشياء لدرك المطلوب. فالفكر يدُ النّفس التى تنال بها المعلومات، كما تنال بيد الجسم المحسوسات. وبهذا التصرف القلبى يتدرج إلى فتوح باب المعرفة والكشف الإلهى. والثانى: زيادة المحبة، إذ لا يحب القلب إلا من اعتقد تعظيمه، ولا تنكشف عظمة الله سبحانه وجلاله إلا بمعرفة صفاته العلا، ومعرفة قدرته الباهرة، وعجائب أفعاله فى خلقه، فيحصل من الفكر المعرفة، ومن المعرفة التعظيم، ومن التعظيم المحبة». انظر: الإتحاف ٥/ ١٣٦.

ولقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أو يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

ومثله: ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٩ ـ ٢٢٠] أي: يفعلون لما يبقى، ويرغبون فيما يدوم، ويزهدون فيما يفنى.

وقد جعل الله عزّ وجلّ البيانَ يعلمنا اقتضاء الشكر عليه[١]، فقال: ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياته لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩]، وكما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فيه لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣]، وقد وصف [الله] أعداءه بعد ذلك [بصفات ضد ذلك][٢]، فقال: ﴿الذين كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فى غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِى﴾ [الكهف: ١٠١].

وقالت أم الدرداء: كانت أكثر عبادة أبى الدرداء التفكرَ، وقد كان يقول: ما يسرُّنى أن أربْحَ فى كل يوم ثلاثمائة دينار أنفقها فى سبيل الله عزّ وجلّ. قيل: ولم ذلك؟ قال: يشغلنى ذلك عن التفكُّر.

أو[٣] يعتقد حسن النيات، وينوى جميل الطويّات فيما بينه وبين الخالق تعالى، وفيما بينه وبين الخلق.

أو يستغفر الله تعالى، ويجدد التوبة لما مضى من عمره، ولما يأتنف من مستقبله.

أو يخلص الدعاءَ بتمسكن، وتضرُّع، وتملُّق، وتخشُّع، ووَجَلٍ، وإخباتٍ، إلى أن يعصمه من جميع المنهىِّ عنه، وأن يوفقه لصالح الأعمال، ويتفضل عليه برغائب الأفضال، وهو فى ذلك فارغ القلب، مجرد الهم، موقنٌ بالإجابة، راضٍ بالقِسْم.

أو يتكلم بمعروفٍ وخيرٍ، ويدعو به إلى الله تعالى، وينفع به أخاه، ويعلّم من هو دونه فى العلم.

---

(١) فى (ك): «البيان نعمة لما اقتضى الشكر عليه».

(٢) زيادة من (ك).

(٣) وردت فى (ك): «و» وكذلك فى مواضعها التالية.

فهذه كانت أذكار المتقدمين وأفكار السالفين. وقد كان الذكر والتفكُّر من أفضل عبادة العابدين، وهو طريق مختصر إلى ربّ العالمين. ففى أى هذه المعانى أخذ فهو ذاكر لله عزّ وجلّ، فلا يزال كذلك. وهو فى جميع ذلك مستقبل القبلة فى مصلاه.

ولا يُستحب له أن يتكلم أو يعمل غير ما ذكرناه من الأذكار. وقد كانوا يكرهون الكلام بغير معروف وتقوى، من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. ومنهم من شدّد فى ذم الكلام من الفجر إلى صلاة الغداة بغير ذكر وبِرٍّ.

وهذه سُنَّةٌ قد خَمِلَت، فمن عَمِلَ بها فقد ذكرها[1].

* * *

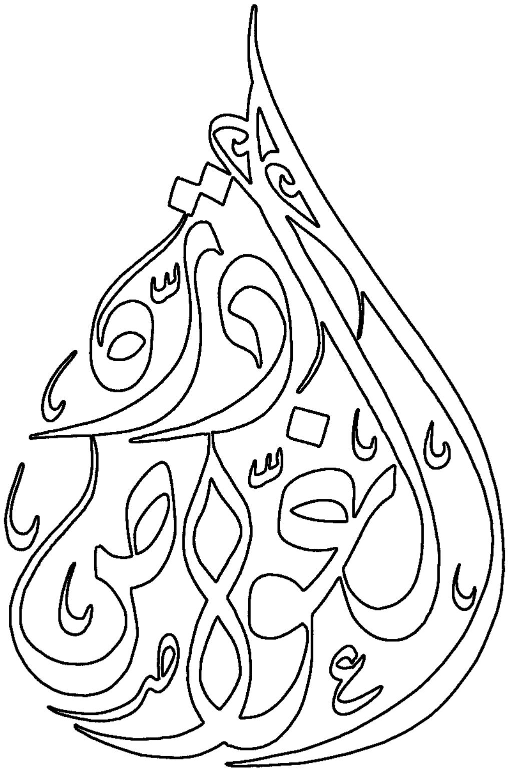

(١) فى (ك): «وهذه سنة قد جهلت، فمن عمل بها فقد أظهرها».

الفصل السابع

في ذكر أوراد النهار (١)

وهي سبعةُ أوراد. وهذا هو الورد الأول من النهار. وفي النهار سبعةُ أوراد: أولها: من طلوع الفجر. الثاني: إلى طلوع الشمس، وهو كما ذكرناه من الأذكار، وهو الذي أقسم الله عزّ وجلّ به فقال: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير:١٨]. فتنفسه من طلوع الفجر [الثاني](٢) إلى طلوع الشمس، وهو الظل الذي مده الله تعالى لعباده، ثم قبضه إليه ببسط الشمس عليه، وأظهره من آياته(٣)، وجعل الشمس كشفًا له ودليلاً عليه، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ يعني: بسطه ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ يعني: مقيمًا على حاله لا يتحوّل ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ [الفرقان:٤٥] يقول: كشفناه بها، ففيه أنّ الدليل هو الذي يكشف المشكل ويرفع المشتبه، ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان:٤٦] يعني: أن الظل من تحت الشمس قُبض قبضًا يسيرًا، أي خفيًا لا يُفطن له ولا يُرى، فاندرج الظلُّ في الشمس بقدرته اندراجَ الظلمة في النور، إذ دخل عليها بحكمته، وهو الإصباح والفلَق الذي يُمدح الله عزّ وجلّ بخَلْقه، وأمرنا بالتنزيه له عنده، والاستعاذة من شرّ ما خلق فيه، فقال عزّ وجلّ: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام:٩٦]، وقال ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم:١٧] أي: فسبِّحوه

---

(١) كل ما يتصل بالأوراد ضمنه الغزالي إحياءه مع تغيير العبارة أحيانًا والاختصار أحيانًا أخرى، ١/ ٣٢٩، كتاب ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء الليل. وانظر كذلك: الغنية، للجيلاني، فصل أوراد الليل والنهار ٣/ ١٠٧٤، نقله أيضًا عن القوت دون إشارة.

(٢) زيادة من (ك).

(٣) في (ط): «وهو الظل الذي أمده الله تعالى لعباده، ثم قبضه إليه ببسطه الشمس عليه، وأظهر من آياته» وأثبت ما في (ك).

بالصلاة عندهما، وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ١ ـ ٢] يعني: فلق الصبح.

فإذا أمنَ العبدُ الفتنة والكلامَ فيما لا يعنيه، والاستماع إلى شبهة من القول، وأمِنَ من النظرِ إلى ما يكره أو يشغله عن الذكر، أو ما يذكّره الدنيا، وأمِنَ من دخول الآفة عليه من التزيّن والتصنّع للناس، ورُزِق الشغلَ بمولاه، والإخلاص له بالإعراض عمّن سواه، فقال ما ذكرناه من الذكر فى مصلاه فى مسجد الجماعة، فهو أفضل؛ فلذلك أمر اللهُ برفع المساجد فى قوله عزّ وجلّ: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦].

وإن لم يأمن الفتنة، وخشى دخولَ الآفة عليه من لقاء مَن يكره، ومَنْ يُلجئه إلى تُقْية أو مداراة، أو خاف الكلام فيما لا يعنيه، أو الاستماع إلى ما لا يندب إليه، انصرف إذا صلّى الغداة [فى جماعة][1] إلى منزله، أو إلى موضع خلوةٍ، بعد أن يقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت، بيده الخير وهو على كل شىء قدير» عشر مرات فى مصلاه وهو ثانٍ رجله قبل أن يقوم، ويقرأ بعدها ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ عشرًا قبل أن يتكلم ـ فقد اشْتُرط تركُ الكلام فى هذين الحديثين اللذين وردا فيهما ـ ثم أتى ببقية وِرْدِه فى بيته أو فى خلوته، وهو فى ذلك مستقبل القبلة. وهذا حينئذ أفضل له، وأجمعُ لقلبه[2].

ولا يقدّم على التسبيح لله عزّ وجلّ والذكرِ له بعد صلاة الغداة وقبل طلوع الشمس إلا أحد معنيين:

معاونة على برٍّ وتقوى فُرض عليه، أو نُدب إليه، مما يختص به لنفسه، أو يعود نفعه على غيره. ويكون ذلك أيضًا ممّا يخاف فوته بفوت وقته.

---

(١) زيادة من نسخة (ك).

(٢) قال صاحب عوارف المعارف (ص٣٩١): «فإن السكوت والذكر فى هذا الوقت له أثر ظاهر يجده أرباب القلوب وأهل المعاملة».

والمعنى الآخر: يكون إلى تعلّم عِلم أو استماعه ممّا يقرّبه إلى الله تعالى فى دينه وآخرته، ويزهّده فى الدنيا والهوى، [ولا يسمعه إلا] من العلماءِ بالله عزّ وجلّ الموثوق بعلمهم، وهم علماء الآخرة، أولو اليقين والهدى، الزاهدون فى فضول الدنيا. ويكون فى طريقه ذاكرًا لله عزّ وجلّ، أو متفكرًا بأفكار[1] العقلاء عن الله عزّ وجلّ.

فإن اتفق له هذان، فالغدوّ إليهما أفضل من جلوسه فى مصلاه، لأنّهما ذكرُ اللهِ عزّ وجلّ وعمل له، وطريق إليه [تعالى] على وَصْف مخصوص مندوب إليه، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وقال النبى ﷺ: «من غَدا من بيتِهِ فى طَلَب العِلْم فهو فى سبيلِ اللهِ حتى يَرْجِع»[2].

وقال ابن مسعود: «اغدُ عالمًا أو متعلمًا أو مستمعًا، ولا تكن الرابع فَتهْلك». والغدوّ، والغداة: تكون قبل طلوع الشمس.

وفى الخبر: «مَن خرج مِن بيته فى طلبِ العلمِ فهو فى سبيل الله عزّ وجلّ حتى يرجع. ومَن خرج مِن منزِله يلتمس علمًا وضعت له الملائكةُ أجنحتها رضًا بما صنع، واستغفرَ له دوابُّ الأرضِ وملائكةُ السماءِ وطيرُ الهواءِ وحيتانُ الماءِ»[3].

وفى حديث أبى ذر الغفارى رحمه الله: «حضورُ مجلسِ علم أفضلُ من صلاة ألف ركعة، وأفضل من شهود ألف جنازة، ومن عيادة ألف مريض. قيل: ومن

(١) فى المطبوعة: «فى أفكار».

(٢) أخرجه الترمذى من حديث أنس فى باب فضل طلب العلم بلفظ: «من خرج فى ...» وقال: حسن غريب. وضعفه الألبانى، انظر: ضعيف الترمذى، ص٣١٤ رقم ٤٩٤.

(٣) أخرجه ابن ماجه فى سننه من حديث أبى الدرداء، باب فضل العلماء والحرص على طلب العلم، باختلاف فى اللفظ، رقم ٢٢٣. وانظر: صحيح ابن ماجه رقم ١٨٢ وفيه: «وإن طالب العلم يستغفر له من فى السماء والأرض، حتى الحيتان فى الماء». وأخرجه الترمذى بلفظ قريب من لفظ ابن ماجه، صحيح الترمذى رقم ٢١٥٩. وغيرهما من كتب السنة.

قراءة القرآن؟ فقال: وهل تنفع قراءة القرآن إلاّ بعلم»(١).

فإن لم يتفق له أحد هذين المعنيين، فقُعوده فى مصلاه أو فى مسجد جماعته أو فى بيته أو فى خلوته، ذاكرًا لله عزّ وجلّ بأنواع الأذكار، أو متفكرًا فيما فتح له بمشاهدة هذه الأفكار فى مثل هذه الساعة ـ أفضل له ممّا سواها(٢).

روينا عن رسول الله ﷺ: «لأن أقعد فى مسجدٍ أذكرُ اللهَ عزّ وجلّ فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحبُّ إلىَّ من أن أعتقَ أربعَ رقاب»(٣).

وروينا أن النبى ﷺ «كان إذا صلَّى الغداة قعد فى مصلاه حتى تطلع الشمس»، وفى بعضها: «ويصلى ركعتين»(٤).

وقد نُدب إلى ذلك فى غير حديث. وجاء فى فضل الجلوس بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس وفى صلاة ركعتين بعد ذلك ما يجلُّ وصفه، اختصرناه.

روينا عن الحسن أن النبى ﷺ كان يذكر من رحمة ربه أنه قال: «يا ابن آدم، اذكرنى من بعد صلاة الفجر ساعة، وبعد صلاة العصر ساعة، أكفك ما بينهما»(٥).

---

(١) قال العراقى (١/ ٩): «ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات، ولم أجده من طريق أبى ذر». وانظر: كشف الخفا، للعجلونى، ١/ ٤٣٣.

(٢) فى الإتحاف: «مما سواهما». وقال صاحب العوارف (ص٣٥٣): «فإذا فَرَغ من ذلك يشتغل بتلاوة القرآن حفظًا، أو من المصحف، أو يشتغل بأنواع الأذكار، ولا يزال كذلك من غير فتور وقصور ونعاس، فإن النوم فى هذا الوقت مكروه جدًا. فإن غلبه النوم فليقم فى مصلاه قائمًا، مستقبل القبلة، فإن لم يذهب النوم بالقيام يخطو خطوات نحو القبلة، ويتأخر بالخطوات كذلك، ولا يستدبر القبلة، ففى إدامة استقبال القبلة، وترك الكلام والنوم، ودوام الذكر فى هذا الوقت ـ أثر كبير، وبركة غير قليلة، وجدنا ذلك بحمد الله، ونوصى به الطالبين. وهذا الوقت أول النهار مطية الأوقات، والنهار مظنة الآفات، فإذا أحكم أوله بهذه الرعاية فقد أحكم بنيانه، وتبتنى أوقات النهار جميعًا على هذا البناء».

(٣) سنن أبى داود، باب فى القصص، رقم ٣٦٦٧، من حديث أنس بن مالك. وانظر: صحيح أبى داود رقم ٣١١٤، وهو بلفظ: «لأن أقعد مع قوم يذكرون الله...». وهو بنحوه فى مسند أحمد ٣/ ٤٧٤، وسنن البيهقى ١٠/ ٨٩، وغيرهما.

(٤) أخرجه مسلم من حديث جابر بن سمرة، كتاب المساجد، باب فضل الجلوس فى مصلاه، رقم ٢٨٦، ٢٧٠.

(٥) الحلية ٨/ ٢١٣ من حديث أبى هريرة، وقال عنه: «غريب من حديث الحسن».

فإذا ارتفعت الشمس وابيضّت صلّى الضحى ثمانى ركعات. وهذا الوقت هو الذى ذكره الله عزّ وجلّ فى قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٨].

ثم ينظر، فإن علم مريضًا عاده، وإن حضرت جنازة شيَّعها، وإن كانت معونة على برٍّ وتقوى سعى فيها، وإن كانت حاجة لأخٍ من إخوانه قضاها، وإن كانت فرضًا يلزمه القيام به سارع إليه، وإن لاحَ له فضل نُدب إليه انتهزه قبل فوته.

فهذا أفضلُ شىء يعمله بعد الأذكار والأفكار، من بعد طلوع الشمس.

فإذا فرغ من ذلك ولم يتفق له ما ذكرناه من القربات أخذ فى الصلاة أو تلاوة القرآن أو صنوف الأذكار ممّا أُمر به، أو نُدب إليه، أو المحاسبة لنفسه فيما سلف، أو المطالبة لها والاستخراج منها فيما يأتنف، أو المراقبة لربه فى كل حال، إلى أن تنبسط الشمس، وتَرْمَض الفِصَالُ(١)، ويرتفع النهار.

هذا هو الورد الثانى من النهار، وهو الضحى الأعلى الذى أقسم الله تعالى به فقال: ﴿وَالضُّحَى﴾ [الضحى:١] أى إذا أضْحت الأقدامُ بحرّ الشمس.

وإذا كان العبد على ذلك فقد اتّبع ما أنزل إليه ربُّه عزّ وجلّ، وقد سمع قوله عزّ وجلّ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:٣]، لأنه قال: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذه الْبَلْدَةِ الَّذى حَرَّمَهَا﴾ [النمل:٩١]. ثم قال: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ [النمل:٩٢]. كما قال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنّ الصّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]. وصلاة الضحى فى هذا الوقت أفضل، وهو حقيقة وقتها لوجود اسمها.

قال النبى ﷺ: «صلاةُ الضحى إذا رَمِضَت الفصالُ»(٢). وخرج على أصحابه عليه الصلاة والسلام يومًا وهم يصلون عند الإشراق، فنادى بأعلى صوته: «ألاَ إنّ

(١) الرمضاء: شدة الحرارة. والفصيل: ولد الناقة. والمعنى: إذا وجد الفصيل حرَّ الشمس من الرَّمضاء.

(٢) أخرجه مسلم من حديث زيد بن أرقم، باب صلاة المسافرين ب ١٩ رقم ١٤٣، ومسند أحمد ٤/٣٦٦.

صلاةَ الأوّابين إذا رَمِضَت الفصال». وقوله «الأوّابين»: يعنى التّوابين إلى الله عزّ وجلّ فى كلّ وقت.

ثم ليأخذ العبد بعد ذلك فيما نُدِب إليه، وأُبيح له من التصرف فى معاش، إن كان من تجارة بصدقٍ، أو صناعة بنصحٍ، إن أُحوِج إلى ذلك، وليكتفِ إن كُفى. وأدنى أحواله: الصمت، والنوم؛ ففيهما سلامة من الآثام، ومخالطة الأنام[١]، فقد جاء فى العلم: «يأتى على النّاس زمانٌ يكون أفضل علمهم [فيه] الصمت، وأفضل أعمالهم النوم»، هذا لدخول المشكلات فى الكلام، ووجودِ الآفاتِ فى الأحوال، وخروجِ الإخلاص من الأعمال.

وكان سفيان الثورى يقول: كان يُعجبهم إذا تفرَّغوا[٢] أن يناموا، طلبًا للسلامة.

فمن الناس من يكون أحسن أحواله النوم، وليت العبد يكون فى اليقظة كالنوم، إذ فى نومه السلامة، [والسلامة متعذرة فى يقظته]، وأفضل أعماله فى هذا الوقت السلامة. وإنما الفضائل لأهل الإفضال [والفضل] الذين زادوا على السّلامة بالعَمَل والإحسان، والفضل[٣].

فإن نام فى هذا الوقت فهو حينئذ نومُ القائلة، وما تسبب فيه من المعايش يَصنعه فى هذا الوقت من الضحى الأعلى إلى زوال الشمس.

وهذا هو الورد الثالث من النهار.

ثم يتوضّأ للصّلاة قبل دخول وقتها ذلك يستحب، وهو من المحافظة عليها،

---

(١) فى المخطوط (ك)، والإتحاف ٥/ ١٤٣: «ومخالطة اللئام».

(٢) فى (ك): «إذا يفرغون».

(٣) كان هناك تكرار واضطراب فى أجزاء من هذه الفقرة بالمطبوعة، والتصويب من (ك) والإتحاف ٥/ ١٤٣. وقال الغزالى فى الإحياء (١/ ٣٣٨): «فالنوم أحب له إذا كان نشاطه لا ينبعث إلى الأذكار والوظائف المذكورة». وقال صاحب العوارف (ص ٣٥٧): «فإن سئم من الصلاة تنزّل إلى التّلاوة، ثم منها إلى الذكر، ثم منه إلى الفكر والمراقبة. فإن عجز عن المراقبة، وتملكته الوساوسُ، وتزاحم فى باطنه حديث النفس، فلينم، ففى النوم السَّلامة، وإلا فكثرة حديث النفس تقسّى القلب، ككثرة الكلام، لأنه كلام من غير لسان، فيحترز عن ذلك. قال سهل بن عبد الله: أسوأ المعاصى حديث النفس. والطالب يريد أن يعتبر باطنه كما يعتبر ظاهره، فيقيد الباطن بالرعاية والمراقبة، كما يقيد الظاهر بالعمل وأنواع الذكر».

والإقامة لها.

فإن حصلت كفايته فى يومه وقُوته فى وقت من النهار، ترك السوقَ ودخل بيته، أو قعد فى بيت مولاه تعالى، واشتغل بخدمته مُتَزِّودًا لعاقبته. وقد كان الصالحون كذلك يفعلون. كان يقال: لا يوجد المؤمن إلا فى ثلاث مواطن: مسجدٍ يعمره، أو بيتٍ يستره، أو حاجةٍ لا بدّ له منها.

فإذا زالت الشمس فإنّ أبوابَ السَّماءِ تُفتح للمصلّين والذاكرين، ويستجاب الدعاء للمؤمنين.

فهذا هو الوِرْد الرّابع من النّهار. فليصل بعد الزوال أربع ركعات، يقرأ فيهنّ بمقدار سورة البقرة، أو سورتين من المائتين، أو أربع من المثانى، يطيلهنّ ويحسنهن، ولا يفصل بينهنّ بتسليم، هذه الصلاة وحدها من بين صلاة النهار أربع ركعات، بتسليمة واحدة. وهذا الورد هو الإظهار، الذى ذكر الله عزّ وجلّ الحمد فيه فقال: ﴿وَلَهُ الحَمْدُ فى السَّمَوات وَالأرْضِ وَعَشِيًا وَحينَ تُظهِرُونَ﴾ [الروم:١٨].

وليتّق العبدُ الصلاةَ عند استواء الشمس فى كبد السماء، وهو قَبل زوالها عند تقلص الظّل، وقيام ظلّ كلّ شىء تحته، فإذا زال الظّل فقد زالت، وقد يخفى(١) استواؤها فى الشتاء؛ لقصر النهار؛ ولعدول الشمس فى سيرها عن وسط الفلك، فتقطع [سيره] عرضًا، فيكون أقرب لغروبها، فليقدر ذلك تقريبًا، ومقدار استوائها قبل الزوال بنحو أربع ركعات بجزء من القرآن، أو بقدر جزء [يقرأ]، وهو آخر الورد الثالث. وإنّما فيه ورد القراءة والتسبيح والتفكر، وهو أحد الأوقات الخمسة التى نهى النبى ﷺ عن الصلاة فيهن. والأربعةُ الأخر: عند طلوع الشمس حتى ترتفع قِيدَ رُمحين فى عين الناظر. وعند تدلّيها للغروب حتى تحتجب. وبعد صلاة الصبح. وبعد صلاة العصر.

وأُحبّ له إحياء ما بين الأذان والإقامة بالركوع [والسجود]، لأنها ساعة

(١) فى (ط): «خفى» وأثبت ما فى (ك) والإتحاف ١/ ١٤٤.

مستجاب فيها الدعاء، وتُفتح فيها أبواب السماء، وتزكو فيها الأعمال. [وأفضل الأعمال ما كان فى أوقات الصلوات](١)، وأفضلُ أوقاتِ النّهار أوقات الفرائض، فإن لم يقرأ بين الأذانين من درسه فاستُحب له أن يقرأ فى تنفّله الآى التى فيها الدعاء، مثل آخر سورة البقرة، وآخر سورة آل عمران، ومن تضاعيف السور الاثنين والثلاث، مثل قوله تعالى: ﴿**أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ**﴾ [الأعراف: ١٥٥]. ومثل قوله: ﴿**رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا**﴾ [آل عمران: ٨]. وقوله: ﴿**رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ [الممتحنة: ٤].

وإن قرأ الآى التى فيها التعظيم، والتسبيح، والأسماء الحسنى، فحَسَن؛ مثل أول سورة الحديد، وآخر سورة الحشر، ومثل آية الكرسى، وقل هو الله أحد. ليكون بذلك جامعًا بين التلاوة والدّعاء، وبين الصلاة والتعظيم، والمدح بالأسماء. ثم ليصلِّ الظهر فى جماعة، ولا يدع أن يصلّى قبلها أربعًا، وبعدها أربعًا بعد ركعتين.

وهذا آخر الوردِ الرابع من النّهار، وهو أقصر الأوراد وأفضلها. فإن كان قد رقد قبل الزوال فلا يرقد فى هذا الورد، فإنه يُكره له نومتان فى يوم، كما يُكره له نوم النهار من غير سهر بالليل.

وروينا عن بعض العلماء: ثلاثٌ يمقت الله عليها: الضّحك من غير عجب، والأكل من غير جوع، ونوم النهار من غير سهر بالليل(٢).

وإن لم يكن قد رقد، فأحب أن ينام بين الظهر والعصر، ليتقوّى بذلك على قيام الليل، فَلْيَنَمْ، فإن نومَهُ بعد الظهر للَّيلة المستقبلة، ونومه قبل الظهرِ لليلة الماضية. فإن دام سهرُه بالليل واتّصلتْ أورادُه بالنّهار حَسُنَ أن ينام قبل الظهر، لما سلف من ليله، وينام بعد الظهر لما غبَر من الأخرى.

[والحدّ فى النوم: أنّ الليلَ والنهارَ أربعٌ وعشرون ساعة، فالاعتدال فى نومه

---

(١) زيادة من (ك).

(٢) هذا الأثر ينسب إلى معاذ بن جبل، انظر: الحلية ١/ ٢٣٧.

ثمانى ساعات فى الليل والنهار جميعًا، فإن نام هذا القدر بالليل فلا معنى للنوم بالنهار، وإن نقص منه مقدارًا استوفاه بالنهار][(١)]، إلا أنّه لا يستحب له أن يزيد فى اليوم والليلة أكثر من نوم ثمانى ساعات.

ومن الناس من يقول: إنه إن نقص من نوم هذا المقدار فى اليوم والليلة اضطرب بدنه؛ لأن النوم قوتُ الجسم وراحته، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبا:٩]، أى راحة، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعَاشًا﴾ [النبا:١١]. إلا أن يكون السهر عادة، فإن العادة قد تعمل عمل الطبع وتنقل عن العرف، فلا يقاس عليها.

وإحياءُ ما بين الظهر والعصر، وهو صلاة الغفلة، وهو يُشبَّه بقيام الليل. ويُستحب العكوفُ فى المسجد بين الأولى والعصر للصلاة والذكر، ليجمع بين الاعتكاف والانتظار للصلاة، فقد كان ذلك من سنّة السلف. قال: كان الداخل يدخل المسجد بين الظهر والعصر فيسمع للمصلين دويًا كدويِّ النحل من التلاوة، إلا أن يكون بيته أسلم لدينه وأجمع لقلبه، فالأسلم هو الأفضل.

وكذلك إحياء الورد الثالث؛ الذى هو بين الضحى الأعلى إلى زوال الشمس، فوق هذا الفضل يُدرك به العبدُ فوتَ قيام الليل؛ لأن الناس فى هذين الوقتين مشغولون بطلب الدنيا وخدمةِ الهوى؛ والقلب المتيقظ لربه عزّ وجلّ يَفْرُغ فى هذين الوقتين ويسكن، ويجد العامل للعمل حلاوة، وللإقبال والتفرغ لذةً، ويكون لفراغه من الخلق وشُغله بالخَالق تعالى مزيدٌ وبركةٌ.

وهذا أحد الوجهين فى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الذى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢] أى: جعلهما خلفتين يتعاقبان فى الفضل، فيخلف أحدهما الآخر. فمن فاته شىء من الليل قضاه فى هذين الوردين من النهار. أحدهما: من الضحى الأعلى إلى الزوال، والثانى: ما بين الأولى والعصر.

---

(١) هذه الفقرة سقطت من المطبوعة والمخطوطة، وهى فى الإتحاف ٥/١٤٧ نقلاً عن إحدى نسخ القوت التى كانت بين يديه. وأيضًا فى الإحياء ١/٣٢٩.

والوجه الثانى: أن النهار كله خِلْفة من الليل، فمن فاته شىء من عمل الليل قضاه بالنهار فكان منه بدلاً، ومن فاته شىء من أوراد النهار كان الليل خَلَفًا، إذ كل واحد منهما خَلَفٌ من صاحبه، ففيه دَرك ما فات، وخَلَفُ ما سلف من الذّكر والشّكر.

والذِّكر: اسم جامع لأعمال القلوب كلّها من مقامات اليقين ومشاهدة العلوم من الغيب. والشكر ـ أيضًا ـ يستعمل على جُمل أعمالِ الجوارح من شرائع الإسلام. وهذان جملة عمل العبد، وكُنه خدمته.

وهذان المعنيان هما اللذان ذَكَرَهُما الكليمُ للجليلِ فى قوله تعالى: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٣٣ ـ ٣٤]، انتظم التسبيح والذكر فى جمل تصرّف الجسم، وتصرّف القلب.

وهذا الورد الخامس الذى هو ما بين العصرين من أطول الأوراد، وأمتعها للعبادة[1]، وهو يضاهى الورد الثالث فى الطول. وهو أصيل النهار، وأحد الآصال التى ذكر الله عزّ وجلّ فيه سجود كل شىء، وقرنه بالغدوّ فقال: ﴿وَلِلَّه يَسْجُدُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]. فما أقبح أن تكون الأشياء الموات لربها ساجدات ذاكرات، والمؤمن الحى عن ربّه معرض ذو غفلات!!

ثم ليصلّ قبل صلاة العصر أربعًا، ويغتنم الصلاة بين الأذان والإقامة، كما ذكرنا آنفًا، فإنها ساعة مرجوّة فيها الإجابة.

فإذا دخل وقت العصر دخل العبدُ فى الورد السادس من النهار، وقد أقسم الله عزّ وجلّ به فى قوله: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ [العصر: ١]. وهذا أحد المعنيين فى الآية، وهو أحد الوجهين من الوقت فى الآصال، الذى ذكره الله عزّ وجلّ. وهو العشى الذى ذكر الله عزّ وجلّ التسبيح فيه، والتنزيه والحمد له، فقال: ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٨]. وقال: ﴿بِالْعَشِىِّ وَالإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]. وليس فى هذا

(١) فى الإحياء ١/ ٣٤٠، والإتحاف ٥/ ١٤٨: «وأمتعها للعبّاد».

الورد صلاة، إلا ما كان بين الأذانين، ثم ينتقل بعد العصر فيما شاء من ذكر أو فكر من أعمال القلوب والجوارح، فيما فُرض عليه أو نُدب إليه. وأفضل ذلك تلاوةُ القرآنِ بتدبر وترتيل وتفهّم وحسن تأويل.

فإذا اصفرّت الشّمس، ومات حرّها، وارتفعت إلى أطراف الجُدُر ورءوسِ الشجر، فكانت مثلها حين تَطْلُع دخل فى الورد السابع من النهار. فهذا للتسبيح والذّكر والتلاوة والاستغفار إلى غروب الشمس. ومن أفضل ما قيل فى هذا الوقت، وفى مثله من أول النهار، أن يقال: أستغفر الله لذنبى، وسبحان الله بحمد ربى، لجمعه بين الاستغفار والتسبيح فى الكلام بلفظ الأمر بهما فى القرآن، لقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥].

وإن قال: أستغفر الله الحىّ القيوم وأسأله التوبة، سبحانَ الله العَظِيمِ وبحَمْده، فقد جاء فضل ذلك فى الأثر، والأفضل الاستغفار على الأسماء، كما فى القرآن، مثل أن يقول: أستغفر الله إنّه كان غفّارًا. أستغفر الله إنه كان توابًا. أستغفر الله إنّ الله غفور. أستغفر الله التّوابَ الرّحيم. ربِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ، وأنْتَ خَيْرُ الرّاحمين، واغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا، وأنْتَ خيرُ الغافرين.

وهذا الورد فى الفضل مثل الورد الأول، من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. وهو المساء الذى ذكر الله تعالى التنزيه فيه، فقال: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]، أى سبحوا الله عزّ وجلّ، فأقام الاسم مقام الفعل، وهو الطرف الثانى من النهار، الذى أمر الله عزّ وجلّ فيه بالتسبيح، بقوله عزّ وجلّ: ﴿فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠]. ويستحب أن يقرأ قبل غروب الشمس: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١]، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل: ١]، والمعوّذتين، وأن تغرب الشمس عليه وهو فى الاستغفار؛ فذلك مما أُمر به فى هذا الوقت من الأذكار.

وكما[1] يُستحب من التّسبيح والحمدِ والدّعاء والذّكر فى أوّل النهار قبل طلوع

(١) فى المطبوعة: «كلما» وهو خطأ، وأثبت ما فى (ك).

الشمس، فإنه يُستحب في هذا الورد قبل غروب الشّمس؛ لأن الله تعالى قرنَهُما فى الذكر، فقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]. وقال تعالى: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠]. وقال تعالى: ﴿بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ١ ـ ٣] أى: من شر الليل إذا دخل. فليُعد العبدُ ما ذكرناه فى الورد الأول من الأدعية والتسبيح، وليقل عند أذان المغرب: اللهم هذا إقبالُ ليلك وإدبارُ نهارك وأصواتُ دُعاتك وحُضُور صَلاتك وشُهودُ ملائكتك. صلِّ على محمد وعلى آله، وأعطه الوسيلة والفضيلة، وابْعَثه المقامَ المحمود الذى وعدته. ثم ليقل: رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، ثلاثًا، ففى هذا أثر وفضل.

وكذلك فليقل مثله إذا سمع أذان الفجر، إلا أنه يقول عنده: اللهم هذا إدبار ليلك وإقبال نهارك. والنصّ بهذا فى صلاة المغرب.

وكان الحسن البصرى يقول: كانُوا أشدّ تعظيمًا للعشى منهم لأول النهار. وقال بعض السلف: كانوا يجعلون أول النهار للدنيا، وآخره للآخرة.

فإذا توارت بالحجاب انقضت أورادُ النهارِ السبعة.

فانظر أيّها المسكين ماذا انقضى لك معها، وماذا انقضى منك عندها، وماذا قُضى عليك فيها. فقد قطعتَ من عمرك مرحلة ونَقصْتَ من أيامك يومًا. فماذا قطعتَ فى سفرِك بقَطْع مرحلتك؟ وماذا ازددت فى غَدك بما نَقَصْت من يومك؟

قال النبى ﷺ: «الناس غاديان: فغادٍ لنفسه فمُعتقها، أو راهنٌ نفسه فمُوبقها»(١).

وقد قال الله عز وجلّ فى تصديق قول رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل: ٤].

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير ١٩/ ١٣٦ من حديث عبد الله بن مسعود، وقال الهيثمى ١٠/ ٢٣٦: «وإسناده جيد».

وقال في معناه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۞ إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٨ ـ ٣٩].

وجاء في الخبر: «لا بورك لي في يوم لا أزداد فيه خيرًا». وجاء في الأثر: «من استوى يَوْماه فهو مَغْبون، ومن كان يومه شرًا من أمسه فهو محروم».

ثم دخلت أورادُ الليل الخمس، فتدارك الآن ـ رحمك الله تعالى ـ فيما يستقبل من الليل ما فات فيما مضى من النهار.

فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ يُبغض كلَّ جَعْظريٍّ جوّاظ ـ أي: سمين، كثير الأكل ـ سخّاب[1] بالأسواق، جيفةٍ بالليل، حمَّارٍ بالنهار، عالمٍ بأمر الدنيا، جاهلٍ بأمر الآخرة»[2].

* * *

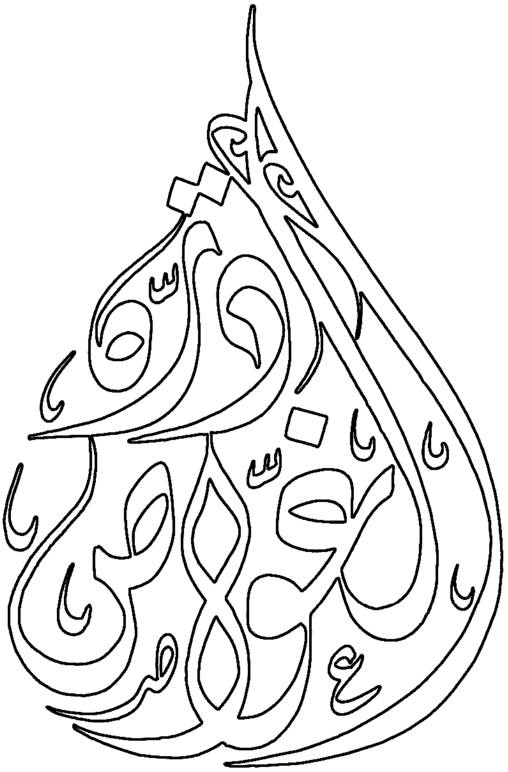

(١) سَخَّاب: من الصَّخَب، وهو شدَّةُ الصَّوت.

(٢) سنن البيهقي ١٠/ ١٩٤، والسلسلة الصحيحة، للألباني، رقم ١٩٥.

الفصل الثامن

فى ذكر أوراد الليل الخمسة

وفى الليل خمسةُ أوراد:

أوّلها: أن يصلِّيَ بعد المغرب ستَّ ركعات، ويستحب ذلك قبل أن يُكلم أحدًا. يقرأ فى الأوليين: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، وليُسرع بِهما بعدَ صلاة المغرب، من قبل أن يتكلم ويشتغل بشىء. وفى الخبر: «أسرعوا بركعتين بعد المغرب فإنّهما يُرفعان معها». فإن كان منزلُه قريبًا من مسجده، فلا بأس أن يركعهما فى بيته، وليُطِل الأربعةَ الأُخَر. وكان أحمد بن حنبل رحمه الله يستحب أن يصليهما الرجل فى بيته. وكذلك كان يفعل، ويقول: هو سنّة؛ لأنه روى أن النبى ﷺ كان يصليهما فى بيته. ولكنّ بيتَ رسولِ الله ﷺ كان فى مُؤخر المسجد، وقد صلاهما فى المسجد.

ثم ليصل بين العشاءين ما تيسر إلى أن يغيبَ الشفقُ الثانى، وهو البياض الذى يكون بعد ذهاب الحمرة، وبعد غسق الليل وظلمته؛ لأنه آخر ما بقى من شعاع الشمس فى القطر الغربى، إذا قطعت الأرض العليا ودارت من وراء جبل قاف، مُصْعِدَةً تطلب المشرق، فهذا هو الوقتُ المستحبُ لصلاة العشاء الآخرة.

وهذا آخرُ الوردِ الأول من أوراد الليل. والصلاة فيه ناشئةُ الليل، أى: ساعاته؛ لأنه أول نشوء ساعاته، وهو آن من الآناء التى ذكرها الله عزّ وجلّ فى قوله: [﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل:٦]، وقال:](١) ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ [طه: ١٣٠]. فالآناء: جمع آنٍ، أى وقت منه فصل، وقيل: ناشئة الليل: قيام الليل. هذا وافق لسان الحبشة، تقول: نشا، إذا قام. وقد أقسم الله

(١) ما بين المعكفتين ساقطة من (ط) وأثبتها من (ك).

تعالى به فقال: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ [الانشقاق: ١٦] والشَّفق ما بين العِشاءَيْن. وهى صلاة الأوّابين. ويقال أيضًا: صلاة الغفلة. قال يونس بن عبيد عن الحسن فى قوله عزّ وجلّ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦] قال: الصلاة بين العشاءين. حتى قال أنس بن مالك رضى الله عنه وقد سئل عمن نام بين المغرب والعشاء، فقال: لا تفعل، فإنها هى الساعة التى وصف الله عز وجلّ المؤمنين بالقيام فيها، فقال عزّ وجلّ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ يعنى: الصلاة بين المغرب والعشاء.

وقد أسند ابن أبى زياد[١] إلى النبى ﷺ أنه سئل عن هذه الآية: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾، قال: الصلاةُ فيما بين العشاءين. ثم قال: عليكم بالصلاة فيما بين العشاءين، فإنها تَذْهب بِمُلاغاة أوّلِ النهار، وتُهذِّب آخِرَه[٢].

قوله «الملاغاة» جمع: ملغاة، من اللغو، أى: تسقط اللغو، أى تطرح المطرح عن العبد من الباطل واللهو، وتهذب له آخره: أى تصفِّيه وتجوِّده.

ويُستحب العكوف فى المسجد بين العشاءين للصّلاة وتلاوة القرآن، فقد رُوى فَضْلُ ذلك، إلا أن يكون بيتُه أسلمَ له؛ لدخول آفةٍ عليه، فما سَلِم فيه فُضِّل به.

ثم ليصلِّ قبل العشاء الآخرة أربعًا وبعدها ركعتين، ثم أربعًا. ويقال: إن الأربع بعد صلاة العشاء فى بيته يَعْدِلْن مثلهن من ليلة القدر.

وكان رسولُ الله ﷺ يُصلّيهن فى بيته، أوّل ما يَدْخل قبل أن يجلسَ.

وكان ابنُ مسعود يكره أن يصلّى بعد كل صلاةٍ مثلها. وكانوا يستحبّون أن يصلّى بعد المكتوبة ركعتين، ثم أربعًا. وإن قرأ فى الأربع: فى الأولى: آية الكرسى والآيتين اللتين بعدها، وفى الثانية: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ

(١) فى المطبوعة والمخطوط (ك): «الزناد»، والصواب ما أثبت من الإتحاف ٥/ ١٥١. وقد نص الزبيدى على خطأ بعض نسخ القوت. وهو إسماعيل بن أبى زياد، قال الدارقطنى: هو متروك الحديث. انظر: الإتحاف ٥/ ١٥١.

(٢) انظر: الإتحاف ٥/ ١٥١.

ربِّه﴾ [البقرة: ٢٨٥] والآية قبلها، وفى الثالثة: أول الحديد إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الحديد: ٦]، وفى الرابعة: آخر الحشر من قوله تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الذى لا إلهَ إلا هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الحشر: ٢٢] - فقد أحسن وأصاب.

فإن صلّى بعد الأربع ثلاث عشرة ركعة آخرهن الوتر إن أحب، فإن هذا العدد أكثر ما رُوى أن النبى ﷺ صلّى به من الليل، إلا فى خبرٍ مقطوعٍ وهو سبعةَ عشر ركعة.

والمشهور: أنه كان يصلى إحدى عشرة ركعة، وثلاث عشرة ركعة، وربما حسبوا فيها ركعتى الفجر، واستُحِبّ له أن يقرأ فى ركوعه هذا ثلاثمائة آية فصاعدًا، فإذا فعل ذلك لم يُكتب من الغافلين، ودخل فى أحوال العابدين. فقد قيل: إن الأكياسَ يأخذون أوقاتهم من أول الليل، والأقوياءَ يأخذون أورادهم من آخر الليل. فإن قرأ فى ركوعه هذا سورة الفرقان وسورة الشعراء، ففيهما ثلاثمائة آية، فإن لم يحسنهما قرأ خمسًا من المفَصّل، فيهنّ ثلاثمائة آية: سورة الواقعة، وسورة نون، وسورة الحاقة، وسورة المدثر، وسورة سأل سائل. فإن لم يحسنهنّ قرأ من سورة الطارق إلى آخر القرآن ثلاثمائة آية.

ولا يُستحَبّ للعبد أن ينام حتى يقرأ هذا المقدار من الآى فى هذا العدد من الركوع، بعد صلاة العشاء الآخرة.

فإن قرأ فى هذا الورد الثانى، أعنى بعد صلاة العشاء الآخرة وقبل أن ينام، ألفَ آية، فقد استكمل الفضل، وكُتب له قنطار من الأجر، وكتب من القانتين.

وأفضل الآى أطولُها لكثرة الحروف، وإن اقتصرَ على قِصار الآى عند فتوره أدرك الفضل لحصول العدد. ومن سورة المُلك إلى آخِر القرآن ألف آية، فإن لم يحسن ذلك قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ﴾ مائتين وخمسين مرة، فى ثلاثَ عشرة ركعة، فإن فيها ألف آية، فهذا فضل عظيم. وفى الخبر: «مَنْ قرأها عشرَ مراتٍ بَنَى الله عزّ وجلّ له قصرًا فى الجنّة».

وروينا عن النبى ﷺ فى السّور التى لم يكن يدعها فى كل ليلة ثلاثة أحاديث أشهرها: «أنه لم يكن ينام حتى يقرأ سورة السجدة وتبارك الملك»[١].

والذى بعده: «أنه كان يقرأ فى كل ليلةٍ بنى إسرائيل والزّمَر»[٢].

والقريب منها: «أنه كان يقرأ المسبحات فى كلّ ليلة ويقول: فيها آية أفضل من ألف آية[٣].

قال: وكان العلماء يجعلونها ستًا، ويزيدون فيها: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ [سورة الأعلى].

وفى الخبر: «كان رسول الله ﷺ يحب ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾»[٤].

فهذا يدل على أنه كان يكثر قراءتها.

ولا يدع أن يقرأ هذه الأربع سور فى كل ليلة: سورة يس، وسورة لقمان، وسورة الدخان، وتبارك الملك. فإن ضَمَّ إليها سورة الواقعة، وسورة الصّفّ، والحاقّة، والزُّمَر، فقد أكثرَ وأحْسَنَ[٥].

فإنْ لم يكن من عادته[٦] القيامُ من الليل قدَّم الوترَ بنيةِ الخَبرِ المروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «أوصانى رسول الله ﷺ أن لا أنام إلا على وتر».

وإن كان معتادًا لصلاةِ الليلِ، فالأفضل تأخيرُ الوتر إلا آخر صلاته من تهجّده

(١) أخرجه الترمذى من حديث جابر، باب فيما يقرأ من القرآن عند المنام، انظر صحيح الترمذى رقم ٢٧١٠.

(٢) أخرجه الترمذى من حديث عائشة: «كان لا ينام حتى يقرأ الزمر وبنى إسرائيل»، صحيح الترمذى، رقم ٢٧١١.

(٣) صحيح سنن الترمذى رقم ٢٧١٢ من حديث العرباض بن سارية بلفظ «خير من»، ووردت لفظة «آية» الأولى محرفة فى المطبوعة إلى «إنه».

(٤) راوه الإمام أحمد فى مسنده ١/ ٩٦ من حديث على، وقال عنه العراقى: سنده ضعيف. وهو فى مجمع الفوائد ٧/ ١٣٦، والكنز، رقم ٤٠٨٤.

(٥) من أول قوله «فى خبر مقطوع» فى الصفحة السابقة إلى هنا، نقله صاحب الإتحاف نصًا ٥/ ١٥٣.

(٦) فى المطبوعة: «عبادته» والصواب ما أثبت من الإتحاف ٥/ ١٥٣.

أو إلى السَّحر، على حديث ابن عمر رضى الله عنه: «صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خِفْتَ الصبح فأوتر بركعة»(١).

وفى حديث عائشة رضى الله عنها: «أوتر رسول الله ﷺ من أول الليل، ومن أوسطه، ومن آخره، وانتهى وتره إلى السَّحَر»(٢).

فإن نام على وتر، ورُزق القيامَ، لم يوتر بعده، وكفاه وِترُه الأوّل، على الخبر الذى جاء: «لا وِتران فى ليلة»(٣).

وقد قال بعض العلماء: يصلى ركعةً واحدة يشفع بها وتره من أول الليل، ثم يصلى صلاته من الليل، ويوتر آخر صلاته. وقد رُوى فى هذا أثر عن عثمان وعلى رضى الله عنهما.

وإن كان قد صلّى ركعتين من جلوس بعد وِتره الأول ثم استيقظ للصلاة شفعتا وِتْرَه الرّكعة الواحدة؛ لأنهما بمنزلة ركعة واحدة يشفع بها ركعة الوتر التى صلاها قبلها. ثم ليُصَلِّ من الليل مستأنفًا ما بدا له، ثم يوتر بركعة واحدة فى آخر صلاته، فيكون له فى ذلك ثلاثة أعمال: قَصْرُ الأملِ، وتحصيلُ الوترِ، والوترُ من آخر الليل.

وكذلك كان رسول الله ﷺ يصلى ركعتين جالسًا بعد وتره، والله تعالى أعلم.

فليقرأ فيهما جالسًا بسورة الزلزلة، وسورة أَلهاكُم التكَاثُر، فقد جاء ذلك فى حديثين: أن النبى ﷺ كان يقرأ فيهما بذلك؛ لما فى الزلزلة والتكاثر من التخويف والوعظ. وفى رواية: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ﴾؛ لما فى سورة الكافرون من التنزيه من عبادة سوى المعبود، وإفراد العبادة لله سبحانه فيها بالتوحيد. وكان رسول الله ﷺ يقرأ بها عند النوم، وأوصى رجلاً بقراءتها عند مَنامه.

وتقديم الوتر مستحب لمن لم يكن عادته قيام الليل، ولمن كان الأغلب عليه النوم. وتأخير الوتر يكون لمن أخَّر صلاته قبل طلوع الفجر أفضل.

---

(١) أخرجه النسائى فى سننه، صحيح سنن النسائى، رقم ١٥٧٥.

(٢) صحيح سنن النسائى، رقم ١٥٨٧.

(٣) أخرجه النسائى من حديث قيس بن طلق، صحيح سنن النسائى، رقم ١٥٨٥.

وليقل بعد التسليم من الوتر: سبحانَ الملك القدوسِ ربِّ الملائكةِ والروح. جلّلتَ السموات والأرضَ بالعظمة والجَبروت، وتَعزَّزْتَ بالقُدرة، وقهرتَ العبادَ بالموت. يقول هذا ثلاث مرات.

وهذا هو الورد الثانى من الليل، أعنى الصلاة بعد العشاء الآخرة إلى حد نَوْمة الناس، فقد أقسم الله عزّ وجلّ [به، تعظيمًا له وتشريفًا، لتوسطه بين آخر الليل وأول النهار][1] فى قوله: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ [الانشقاق:١٧]، أى: وما جمع من ظلمته. وذكره الله عزّ وجلّ فى قوله: ﴿إلى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء:٧٨]، فهناك يَغْسِق الليل، وتستوسق ظلمته[2].

ثم ينام إن أحَبّ وهو على طهارة وعلى ذكر. وقد كان الصالحون لا ينامون إلا عن غلبة، ويكرهون التعمد للنوم، وهو التهيؤ للعادة، وقد كان منهم من يمهّد لنفسه بالنّوم، ليتقوّى بذلك على صلاة أوسط الليل وآخره، للفَضْل فى ذلك.

ومَنْ غَلَبه النوم حتى شَغَله عن الصلاة والذكر، فإنّ السُّنّة أن ينام حتى يَعْقل ما يقول، وينشط فى خدمته. وقد كان ابن عباس يكره النوم قاعدًا.

وفى الخبر: «لا تُكابِدُوا اللّيلَ»[3].

وقيل لرسول الله ﷺ: إنّ فلانةَ تُصلى من الليل، فإذا غَلَبها النَّوم تعلقت بحبل، فنهى عن ذلك، وقال: «لِيُصلّ أحدُكم من الليلِ ما تيسَّر، فإذا غلبه النومُ فليرقد»[4].

وقال: «اكْلَفُوا من العمل ما تطيقون، فإن الله تعالى لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا»[5].

(١) زيادة من (ك).

(٢) غَسَق الليل: شدة ظلمته. وفى الإتحاف (٥/ ١٥٢): «وتستوثق ظلمته». وتستوسق: تجتمع، وتستوثق: تتأكد.

(٣) قال العراقى ١/ ٣٤٤: «رواه الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف»، وانظر: الإتحاف ٥/ ١٦٠.

(٤) أصله فى الصحيح من كتب السنن، صحيح سنن النسائى، رقم ١٥٤٩، باب الاختلاف على عائشة فى إحياء الليل.

(٥) صحيح سنن أبى داود، باب ما يؤمر به من القصد فى الصلاة، رقم ١٢١٩، من حديث عائشة.

وقيل له: إن فلانًا يصلّى الليل لا ينام، ويصوم الدهر لا يفطر. فقال ﷺ: «خير هذا الدين أيسره». ثم قال: «لكنى أنا أصلى وأنام، وأصوم وأفطر، فهذه سنتى، فمن رَغِب عن سنتى فليس منى»(١).

وقال ﷺ: لا تُشَادُّوا هذا الدين فإنه متينٌ، فمن يُشادُّه يَغْلِبُه، ولا تُبغِّض إلى نَفْسك عبادةَ الله عزّ وجلّ(٢).

والورد الثالث يكون بعد نَوْمةِ الناس، وهو التهجد؛ الذى ذكره الله فى قوله: ﴿ومِنَ الليلِ فتَهَجَّدْ به نَافلَةً لَكَ﴾ [الإسراء:٧٩]، ولا يكون التهجد إلا بعد النوم، وتلك النومة هى الهجوع، الذى قال الله عزّ وجلّ: من القائمين آنَاء اللَّيْل، فقال تعالى: ﴿كَانُوا قَليلاً منَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات:١٧]. فالهجوع: النوم، والتهجد: القيام. وقد يقال: الهجود، أيضًا، وهذا يكون نصف الليل.

فهذا أوسط الأوراد، وهو يشبه الورد الأوسط من النهار، فى أفضل أوراده، وهو أفضل الأوراد وأمتعها للعبادة. وقد أقسم الله عزّ وجلّ به فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إذَا سَجى﴾ [الضحى:٢]. قيل: إذا سكن، وسكونه: هدوّه وسِنَةُ كلِّ عين فيه وغفلتها إلا عين الله تبارك وتعالى، فإنّه الحىّ [القيوم] الذى لا تأخذه سنة ولا نوم. وقيل: إذا سَجَى: إذا امتدّ وطَال. ويقال: إذا أظَلم. وسئل رسولُ الله ﷺ: أىّ الليلِ أَسْمع؟ فقال: «جوفُ الليلِ الغَابر»(٣).

وروينا فى أخبار داود عليه السلام: إلهى إنّى أُحِبّ أن أتعبَّدَ لك فأىُّ وَقْتٍ تَقْبل؟ فأوحى اللهُ عزّ وجلّ إليه: يا داودُ لا تقم أوّلَ الليلِ ولا آخِرَه؛ فإنّه من قام

---

(١) قال العراقى: «أخرجه النسائى من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله: «هذه سنتى»، وهذه الزيادة لابن خزيمة، وهى متفق عليها من حديث أنس». وهو فى مشكل الآثار، للطحاوى، ٢/ ٨٨ وغيره.

(٢) هما حديثان، روى البخارى طرفًا منهما من حديث أبى هريرة، انظر فتح البارى ١/ ١١٦، وروى البيهقى فى سننه من حديث جابر: «إن هذا الدين متين...» وقال العراقى ١/ ٣٤٤: «ولا يصح إسناده».

(٣) صحيح سنن ابن داود، رقم ١١٣٧.

أوّله نام آخرَه، ومن قام آخره لم يقم أوّله، ولكن قم وسط الليل، حتى تخلوَ بى وأخلوَ بك، وارفع إلىّ حوائجك.

والورد الرابع: يكون بين الفجرين، أحدُهما الفجر الأول وهو بُدوُّ سلطان شعاع الشمس إذا ظهرت من وراء الأرض الخامسة، وسطَع ضوءُها فى وسط السماء، حتى يقطعها بمقدار طلوع الفجر الأول، [فذلك الضياء الذى يظهر فى السماء فى الثلث الأخير من الليل هو الفجر الأول](1)، ثم تغرب [الشمس] فى الفلك الأسفل المُتجَانِف وتحجُبها الأرضُ السّادسة، فيذَهب [ذلك] الضوء [الذى ظهر فى السماء]، ويعود سواد الليل كما كان، لغيبة الشمس، وهو الثلث الأخير.

وفيه وردت الأخبار؛ باهتزاز العرش، وانتشار الرياح من جنّات عدن، ومن نزول الجبّار إلى سماء الدنيا. وفيه الخبر الذى جاء أنّ النبى ﷺ سُئل: أىُّ الليلِ أفضلُ؟ فقال: «نصفُ الليل الغابر» يعنى: الباقى.

وهذا هو الورد الرابع من نصف الليل إلى وَقْتِ السّحر الأول.

ثم يدخل الورد الخامس: وهو السَّحَر الأخِيرُ، وفيه يُسْتَحبُّ السُّحور، فمن لم يتسحَّر فى أوله بَغَتَهُ الفَجْرُ، وهو قبل طلوع الفَجْر الثانى بمقدار قراءة جزء من القرآن.

فى هذا الورد الخامس: الاستغفارُ، وقراءةُ القرآن، وقد ذكره الله عزّ وجلّ فى قوله: ﴿وَقُرآنَ الفَجْرِ إنَّ قُرآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨]. قيل: تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، لتوسط هذا الورد بينهما.

ومن ذلك ذهب أهل الحجاز إلى أن الصلاة الوسطى التى نصّ الله تعالى على [إفراد] المحافظة عليها هى صلاة الفجر، تعظيمًا لهذا الوقت، وتشريفًا له، لتوسطه بين آخر الليل وأول النهار.

---

(١) من كتاب الغنية، لعبد القادر، ٣/١٠١١، حيث نقل عنه، وكذلك فى الموضعين التاليين.

فهذا الوردُ هو أقصر الأورادِ، ومن أفضلها، وهو من السَّحَر الأوّل إلى طُلوع الفجرِ الثانى، إلا ما كان من صلاة نصف الليل، فذلك هو أفضل شىءٍ من الليل، وهو أوسط الأورادِ؛ لأنه هو الورد الثالث.

ويصلح فى هذا الورد الخامس من السَّحَر الأخيرِ الصّلاةُ لمن استيقظ من ساعته، أَوْ لمن تَمّم به صلاته. فالصلاةُ فيه لها فضلٌ وشرف، وهو بمنزلة الصّلاة فى أول الليل بين العَشاءين. ولأن معنى قوله عزّ وجلّ عند بعض المفسرين: ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٨]: أى يُصلون.

وكذلك قوله عزّ وجل: ﴿وَقُرْآنَ الفَجْرِ﴾ [الإسراء:٧٨]، يعنى به: الصلاة، فكنَّى بذكر[١] القرآن والاستغفار عن الصلاة؛ لأنهما وصفان منها، كما قيل للصلاة: تسبيحٌ، وَسُبْحَةٌ؛ لأن فيها التسبيح. وكذلك يقال للصلاة: استغفار؛ لأنه يُطلب بها المغفرة.

وتكون هذه الصلاة فى السحَر، بدلاً من السُّجود[٢] إلى طُلوع الفجرِ الثانى. وقد أمر بها سلمانُ أخاه أبا الدرداء ليلةَ زاره، فى حديث طويل، قال فى آخره: «فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم، فقال له سَلْمان: نم، فنام، ثمّ ذهب ليقوم فقال له: نم، فنام. فلما كان عند الصبح قال له سَلْمان: قم الآن، فقاما فصلّيا، فقال: «إنّ لِنَفْسك عَليك حقًا، وإن لأهلك عليكَ حقًا، وإن لربّك عليك حقًا، وإن لضيفِك عَلَيك حقًا، فأعطِ كلَّ ذِى حَقٍّ حقّه».

وذلك أن امرأةَ أبى الدرداء أخبرت سَلْمان أنه لا ينام الليل، قال: فأتيا النبى ﷺ فذكرا ذلك له، فقال: «صَدَق سلمان».

وهذا الورد الخامس يشبه الوردَ السابع من النهار قبل الغروب، فى فضل وقتيهما، وهذا قبل الفجر الثانى.

والفجر الثانى: هو انشقاقُ شفقِ الشمس، وهو بدوّ بياضها، الذى تحته

(١) فى (ط): «بذلك» وأثبت ما فى الإتحاف ٥/ ١٦٦.

(٢) فى (ط): «السحور» وأثبت ما فى (ك) والإتحاف ٥/ ١٦٦.

الحُمرة، وهو الشَّفَق الثانى على ضدّ غروبها؛ لأنَّ شفقها الأوّل من العشاء وهو الحمرة بعد الغروب، وبعد الحمرة البياض، وهو الشفق الثانى من أوّل الليل، وهو آخر سلطان الشمس. وبعد البياض سوادُ الليلِ وغسقه، ثم ينقلب ذلك إلى الضد، فيكون بدوَّ طلوعها الشفقُ الأوّل وهو البياض، وبعده الحمرة وهو شفقها الثانى، وهو أول سلطانها من آخر الليل، وبعده طلوع قرص الشمس.

والفجر: هو انفجارُ شعاعِ الشمس من الفلك الأسفل، إذا ظَهرت على وجهِ الأرض الدّنيا، يستر عَيْنَها الجبالُ والبحارُ والأقاليم المشرِقَة[1] العالية، ويظهر شعاعها منتشرًا إلى وسط السماء عرْضًا مستطيرًا. فهذا آخر الورد الخامس، وعنده يكون الوتر.

فإذا طلع الفجر فقد انقضت أوراد الليل الخمسة، ودخلت أوراد النهار. فانظر هل دَخلْتَ فى دُخوله عليك فى جُملة العابدين، أم خرجَ عنك وأنتَ فيه من الغافلين؟ وتفكَّر أىّ لبسةِ ألبسك، فإنّ الليلَ جُعل لباسًا، هل أُلبست فيه حُلَّة النّور بتيقظك فتربحَ تجارة لن تبور، أم ألبسك الليلُ ثوبَ[2] ظلمتهِ فتكون ممّن مات قلبُه بموتِ جسده بغفلته[3]؟ [نعوذ بالله من سَخَطِه وبُعده].

ثم يقوم العبد حينئذ فيصلّى ركعتى الفجر، وهما معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدبَارَ النُّجُوم﴾ [الطور:٤٩]. قيل: ركعتى الفجر.

ثم يقرأ: نعوذ بالله من سخطه، وبعده: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّه لا إِلَه إلا هُو﴾ [آل عمران:١٨] إلى آخرها، ويقول:

أنا أشهدُ بما شَهِد الله به لنفسه، وشهِدَتْ به ملائكته، وأولو العلم من خَلْقه. وأستودعُ اللهَ العظيمَ هذه الشهادةَ، وهى لى عند الله وديعة حتّى يؤديها، وأسأله حِفْظها حتى يتوفانى اللهُ عليها. اللّهم احْطُط بها عنِّى وِزرًا، واجعل لى بها

---

(١) فى المطبوعة: «المسروقة» والصواب من (ك) والإتحاف ٥/ ١٦٧.

(٢) فى الإتحاف ٥/ ١٦٨: «بثوب».

(٣) فى المطبوعة: «بغفلتك» وأثبت ما فى المخطوطة، وما بين المعكفتين بعدها من الإتحاف ٥/ ١٦٨.

عندك ذُخرًا، واحفظنى بها، واحفظَها علىّ، وتوفَّنى عليها حتى ألقَاكَ بها غير مبدِّل تبديلاً.

وأفضل ما عمل العبدُ فى وِرْد من أورادِ الليل والنهار، بعد القيام بفرضٍ يلزمه، أو قضاءِ حاجة لأخيه المؤمن يعينه [عليها]: الصلاةُ، بتدبُّر الخِطاب، ومشاهدة المخاطَب، فإنّ ذلك يجمع العبادة كلَّها، ثُمّ من بعد ذلك: التلاوةُ، بتيقُّظِ عَقْلٍ، وفَراغِ همٍّ. ثُمَّ أىُّ عملٍ فُتح له فيه؛ من فِكرٍ، أو ذِكْرٍ برقّة قلبٍ وخُشوعِ جوارحٍ ومشاهدةِ غيبٍ، فإن ذلك أفضلُ أعماله فى وقته.

* * *

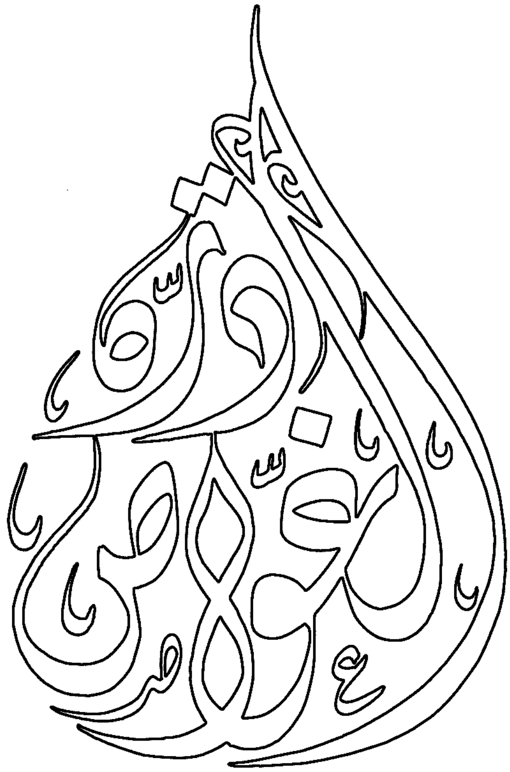

الفصل التاسع

فيه ذكر وقت الفجر، وحكم ركعتيه؛ الأداء والقضاء، وحكم الوتر، ووقت القضاء له والأداء

وفى الشهر ليلتان يُعتبر بهما وقتُ الفجر: إحداهما: يطلع القمرُ فيها عند طلوع الفجر الأول، وهى ليلة ستٍ وعشرين. والأُخرى: يغيب القمر فيها عند طلوع الفجر، وهى ليلة اثنتى عشرة من الشهر. ومن طلوع الفجر إلى طلوع الشمس مقدارُ ثلثى سُبْع تلك الليلة. وهذا يكون فى الصيف، ويكون فى الشتاء أقلّ من ذلك؛ لأنّه يكون نصفَ سُدسِ تلك الليلة. وهذا الورد الأول من النهار، ووقت الأداء للوتر من بعد صلاة العشاء الآخرة إلى طلوع الفجر الثانى.

فإذا طلع الفجر الثانى فقد ذهب وقت الأداء، وهو وقت القضاء للوتر، فليصلِّ الوترَ حينئذ مَنْ لم يكن أدّاه إلى قبل صلاة الصبح.

فإذا صلّى الصبحَ ذهب وقتُ قضاء الوترِ أيضًا.

ووقتُ الأداءِ لركعتى الفجرِ إذا طلع الفجرُ الثانى، فالمستحب له أن يصليهما فى منزله، وقبلَ صلاة الغداة. والسُّنّة أن يخففهما، فإذا صلّى الصبح ولم يكن صلاهما فقد ذهب وقت الأداء، وبقى له وقت القضاء، فليُمهل حتى تطلع الشمس، وتحلَّ الصلاة، فَلْيُقدِّمها على سُبْحة الضحى، وهذا وقت القضاء لركعتى الفجر إلى صلاة الظهر.

فإذا صلّى الظهر، ولم يكن صلاهما، فقد ذهب وقت قضائهما أيضًا.

ومن فاتَه وِرْدٌ من الأوراد فاستُحبّ له فعل مثله فى وقته، أو قبلَه إذا ذكره، لا على وجه القضاء، فإنه لا يُقضى إلا الفرائض، ولكن على وجه التدارك ورياضةِ النفس بذلك؛ ليأخذ بالعزائم؛ كيلا يعتاد التراخى والترخّص؛ ولأجل الخبر المأثور: «أحب الأعمالِ إلى الله عزّ وجلّ أَدْوَمُها وإن قَلَّ»[1].

(١) رواه مسلم، كتاب المسافرين، رقم ٢١٨، وهو فى المسند ٦/ ١٦٥.

كيف، وفي حديث عائشة رضى الله عنها الوعيدُ على ترك العادة فى العبادة، رَوَتْ عن النبى ﷺ: «من عبد الله تعالى عبادةً ثم تركها ملالةً مَقَته اللهُ تعالى»[١].

وقالت: «كان رسولُ الله ﷺ إذا غلبه النومُ أو عاقه مرضٌ، فلم يقم فى تلك الليلة، صلّى من النهار اثنتى عشرة ركعة».

ومن دخل المسجدَ لصلاةِ الصبح، ولم يكن صَلّى ركعتى الفجرِ فى منزِله، صلاهما واجزأتا عنه من تحية المسجد. ومن كان قد صلاهما فى بيته نظر؛ فإن كان دخولُه المسجدَ بغَلَس عند طلوعِ الفجر واشتباكِ النّجوم صلّى ركعتين تحية المسجد، وإن كان دخولَه عند امحاقِ النّجومِ ومُسْفِرًا عند الإقامة قعدَ ولم يصلِّ ركعتين؛ لئلا يكون جامعًا بين صلاةِ الصبح وبين صلاةٍ قبلها.

ولا يصلّى بعد طلوعِ الفجر الثانى شيئًا إلا ركعتى الفجر فقط.

ومن دخل المسجد ولم يكن صلّى ركعتى الفجر، فإن كان قبل الإقامة صلاهما، وإن دخل وقتُ الإقامةِ وقد افتتح الإمامُ الصلاةَ، فلا يصلّيهما، وليدخل فى الصلاة المكتوبة فإنه أفضل، والنّهى فيه. روينا عن رسول الله ﷺ: «إذا أُقيمت الصلاةُ فلا صلاةَ إلا المكتوبة»[٢].

وليقل مَنْ قعدَ فى المسجدِ من غير صلاةِ ركعتين تحيةَ المسجد: سبحانَ الله، والحمد لله، ولا إله إلا اللهُ، واللهُ أكبرُ، هذه الأربع كلمات، يقولها أربع مرات، فإنها عِدْلُ ركعتين فى الفَضل.

وكذلك من دخله وكان على غيرِ وُضوء، أو مرّ فى المسجد عابرَ طريقٍ.

ومن دخل مسجدًا فلا يقعد حتى يصلّى ركعتين، وأَكْرَهُ له دُخولَ المسجدِ والقُعودَ فيه على غَيْرِ وُضوء[٣].

(١) قال العراقى: «رواه ابن السنى فى كتاب رياضة المتعبدين موقوفًا على عائشة» الإتحاف ٣/ ٣٦٢، والإحياء ١/ ٢٠٥.

(٢) حديث صحيح ورد فى معظم كتب السنة، انظر منها: صحيح سنن أبى داود رقم ١١٢٧.

(٣) قد جمع الزبيدى فى أمر تحية المسجد أقوالاً ومذاهب وتفسيرات طيبة، راجعها فى الإتحاف ٣/ ٤٥٨ ـ ٤٦٣.

الفصل العاشر (١)

فيه كتاب معرفة الزوال، وزيادة الظل ونقصانه بالأقدام واختلاف ذلك فى الصيف والشتاء

قال الله جلت قدرته: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ الآية إلى قوله: ﴿عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢]. وقال سبحانه: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥].

وفى حديث أبى الدرداء وكعب الأحبار، فى صفة هذه الأمة: «يراعون الظّلال لإقامة الصلاة».

وأحبُّ عبادِ الله إلى الله عزّ وجلّ الّذين يراعون الشّمس والقَمر والأظِلّة لذكرِ الله عزّ وجلّ.

وقال بعضُ العلماء بالحساب والأثر من أهل الحديث: إنّ الليلَ والنهارَ أربعٌ وعشرون ساعة، وإنَّ السّاعةَ ثلاثون شعيرةً، يأخذ كلٌّ واحدٍ منهما من صاحبه فى كل يوم شعيرةً، حتى تُستكمل السّاعةُ فى شهْر، وبين أولِ الشّهر وآخرِه ثلاثون درجةً، الشّمسُ كل يومٍ فى دَرجةٍ.

قال: وتفسيرُ ذلك: أنه إذا مَضَى من أيلول سبعة عشر يومًا استوى الليل والنهار. ثم يأخذ الليلُ من النّهار من ذلك اليوم فى كل يوم شعيرةً، حتى يستكمل ثلاثين يومًا، فيزيد ساعة حتى يصير سبعة عشر يومًا من كانون الأول،

(١) معظم هذا الفصل نقله صاحب الإتحاف بنصه ولفظه مع اختلافْ يسير فى ترتيب بعض الأخبار، انظر: ٣/ ٣٤٠ وما بعدها. وكذلك نقله صاحب الغنية باستبعاد بعض الأخبار والكلام، انظر: الغُنية ٣/ ١١٠٥. وكانت هناك اختلافات يسيرة فى الألفاظ بين الإتحاف والقوت، أثبت بعضها فى الحواشى هنا وأضربت عن البعض.

فينتهى طولُ الليل وقصرُ النهار، وكانت تلك الليلة أطول ليلة فى السنة وهى خمسةَ عشرَ ساعة، وكان ذلك اليومُ أقصرَ يومٍ فى السّنة وهو تسع ساعات.

ثم يأخذ النهارُ من الليل كلَّ يومٍ شعيرةً، حتى إذا مضى سبع عشرة ليلة من آذار استوى الليلُ والنهارُ، وكان كلُّ واحدٍ منهما اثنتى عشرةَ ساعة. ثم يأخذ النّهارُ من الليل كلّ يومٍ شَعِيرة، حتى إذا مَضى سَبْعةَ عشر يومًا من حُزيران كان نهاية طولِ النهار وقصر الليل، فيكون النهارُ يومئذ خمسَ عشرة ساعة، والليل تسع ساعات.

ثم ينقص من النهار كل يوم شعيرةٌ، حتى إذا مضى سبع عشرة ليلة من أيْلُول استوى الليلُ والنهارُ، ثم يعود الحساب على ذلك.

قال: فمواقيتُ الصلاةِ من ذلك أن الشمس إذا وقفت فهو قبل الزوالِ، فإذا زالت بأقل القليل فذلك أول وقت الظهر، فإذا زادت على سبعة أقدامٍ بعد الزوالِ فذلك أوّلُ وقتِ العصر؛ وهو آخر وقت الظهر.

قال: والذى جاء فى الحديث: «إن الشمس إذا زالت بمِقْدارِ شِراكٍ، فذلك وقتُ الظُّهر إلى أن يصيرَ ظلُّ كلِّ شىءٍ مثله، فذلك آخر وقت الظهر وأول وقت العصر»(١).

وهكذا صلّى رسولُ الله ﷺ فى أول يومٍ، ثم صلّى من الغد الظهر حين صار ظلُّ كل شىءٍ مثله، فذلك آخرُ وقتِ الظهر وأوّلُ وقتِ العصر، ثم صلّى العَصْرَ حين صارَ ظلُّ كلِّ شىءٍ مثليْه، وقال: ما بين هذين وقتٌ. فإذا أردت أن تقيسَ الظّل حتّى تعرفَ ذلك، فانصب عودًا، أو قم قائمًا فى موضعٍ من الأرض مستو، ثم اعرِف موضعَ الظّل ومُنتهاه، فخطّ على مَوضع الظّل خطًا، ثم انظر: أينقصُ الظّلُّ أم يزيد؟

فإن كان الظلُّ ينقُص، فإن الشمس لم تَزُل بعدُ، ما دام الظّل ينقص.

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه بلفظ مختلف، فى كتاب الصلاة، باب فى المواقيت، انظر صحيح أبى داود رقم ٣٧٧، وذلك من حديث ابن عباس.

فإذا قام الظل، فذلك نصف النهار، ولا يجوز فى هذا الوقت الصلاة.

فإذا زاد الظل، فذلك زوالُ الشمس إلى طُول ذلك الشيء الذى قستَ به طولَ الظّل، وذلك آخر وقت الظهر.

فإذا زاد الظّلُّ بعد ذلك قَدَمًا فقد دخل وقتُ العصرِ، حتى يزيد الظلُّ طول ذلك الشيء مرةً أخرى، فذلك وقتُ العصر الثانى.

فإذا قُمتَ قائمًا تريد أن تقيس الظل بطُولك، فإن طولَك سبعةُ أقدام بقدمك، سوى قدمك التى تقوم عليها، فإذا قام الظّل، فاستقبل الشمس بوجهك، ثم مُرْ إنسانًا يعلِّم طرفَ ظِلّك[1] بعلامةٍ، ثم قِسْ من عَقِبك إلى تلك العلامة، فإن كان بينهما أقلُّ من سبعة أقدام، سوى ما زالت عليه الشمس من الظلّ، فإنّك فى وقت الظهر ولم يدخل وقتُ العصر؛ حتى يزيد الظّلّ على سبعةِ أقدام، سوى ما تزول الشمس عليه من الظّل، فذلك وَقْتُ العصرِ.

ثم إنّ الأقدامَ تختلفُ فى الشّتاء والصّيف، فيزيد الظّل ويَنْقصُ فى الأيام. فمعرفة ذلك: أنّ استواءَ الليلِ والنهار فى سبعةَ عشرَ يومًا من آذار، فإنّ الشمس تزول يومئذ وظلُّ الإنسان ثلاثةُ أقدام. وكذلك ظِلُّ كلِّ شيءٍ تنصبه، فإن الشمس تزول يومئذٍ وظِلُّ كلِّ شيء[2] ثلاثةُ أسباعه.

ثم ينقُص الظّل، وكُلّما مضَت[3] ستة وثلاثون يومًا نقَصَ الظّل قدمًا، حتى ينتهى طولُ النهارِ وقِصَرُ الليلِ فى سَبْعةَ عشرَ يومًا من حُزَيران، فتزول الشمس يومئذٍ وظلُّ الإنسانِ نصفُ قَدَمٍ، وذلك أقل ما تزولُ عليه الشّمسُ.

ثم يَزيدُ الظّل، فكلما مَضَت ستةٌ وثلاثون يومًا زاد الظلُّ قَدَمًا، حتى يستوى الليلُ والنّهار فى سبعة عشر يومًا من أيلول، فتزول الشمسُ يومئذٍ والظّلُّ على ثلاثةِ أقدام.

(١) فى (ط): «ذلك» وأثبت ما فى الإتحاف ٣/ ٣٤١ لأنه أدق.
(٢) فى الغنية ٣/ ١١٠٥: «وظل ذلك الشيء».
(٣) فى (ط): «أمضى» وأثبت ما فى الإتحاف ٣/ ٣٤١.

ثم يَزِيدُ الظِّل، وكلّما مضى أربعةَ عشرَ يومًا زاد الظلُّ قَدَمًا، حتى ينتهى طولُ الليلِ وقصَرُ النهار، وذلك فى سبعةَ عشرَ يومًا من كانون الأول، فتزول الشمس يومئذ على تسعةِ أقدام ونصفِ قدمٍ، وذلك أكثرُ ما تزولُ الشمس يومئذٍ عليه.

ثم كلّما مضى أربعةَ عشرَ يومًا زاد الظل قدمًا، حتى ينتهى إلى سبعةَ عشرَ يومًا من آذار، فذلك استواءُ الليلِ والنهار. وتزول الشمسُ على ثلاثةِ أقدامٍ، وذلك دخولُ الصّيفِ.

وزيادة الظّل ونقصانه الذى ذكرناه، فى كل ستة وثلاثين يومًا، قدمٌ فى الصيف والقيظ. وزيادتُه فى كلِّ أربعةَ عشرَ يومًا قدمٌ فى الرّبيع والشتاء.

وهذا ذكرهُ بعضُ علماءِ المتأخرين من أهل العلم بالنجوم.

وقد ذكر غيرُه من القدماء قريبًا من هذا، وذكر زوالَ الشمسِ بالأقدام فى شهر تشْرين. وخالف هذا فى حدّين من نهاية الطول والقصر قدمين، فذكر أنّ أقلَّ ما تزولُ عليه الشمسُ فى حُزيران على قَدَمين، وأن أكثرَ ما تزولُ عليه الشمسُ فى كانون ثمانيةُ أقدامٍ.

فكان الأوّل هو أدقّ تحديدًا، وأقومُ تحريرًا.

وذكر أنّ الشمس تزولُ فى أيلول على خَمْسةِ أقدامٍ، وفى تشرين الأوّل على ستة، وفى تشرين الأخير على سبعةٍ، وفى كانون على ثمانيةٍ. قال: وذلك منتهى قصر النهار وطول الليل، وهو أكثرُ ما تزول عليه الشمس.

قال: ثم ينقص الظل ويزيد النهار؛ فتزول الشمس فى كانُون الأخير على سبعة أقدام، وتزول فى شِباط على ستّة أقدام، وفى آذَار على خَمْسة، وذلك استواءُ الليلِ والنّهار. وتزول فى نِيسان على أربعة أقدام، وتزول فى آيار على ثلاثة أقدام، وتزول فى حزيران على قدمين. فذلك منتهى طولِ النهار وقصر الليل، وهو أقل ما تزول الشمس عليه، فيكون النهار حينئذ خمسَ عشرةَ ساعة، والليل تسعَ ساعات.

وتزول الشمس فى تموز على ثلاثة أقدام، وفى آبَ على أربعة أقدام، وفى

أيلول على خمسة أقدام، وفيه يستوى الليل والنهار[١].

وقد روينا عن سفيان الثورى رحمه الله [أنه قال]: أكثر ما تَزولُ عليه الشمسُ تسعةُ أقدامٍ، وأقلُّ ما تزول عليه قدم [واحدة].

وهذا أقرب إلى القول الأول فى التحديد.

وقد جاء فى ذِكر الأقدامِ لوقتِ الصلاة أثرٌ من سُنَّةٍ، فلذلك ذَكرنا منها ما شَرَحه مَن عرفه.

روينا عن أبى مالك سعد بن طارق الأشعرى، عن الأسود بن زيد، عن ابن مسعود قال: «كان قدرُ صلاةِ الظهر مع رسول الله ﷺ فى الصَّيفِ ثلاثةَ أقدامٍ إلى خمسةِ أقْدام، وفى الشتاء خمسةَ أقدامٍ إلى ستةِ أقدام»[٢].

وفَصْلُ الخِطابِ: أن معرفةَ الزوالِ بهذا التحديدِ ليس بفَرْضٍ، ولكنْ صلاةُ الظهرِ بعد تيقن زوالِ الشمسِ فَرْض.

فمتى زالتِ الشمسُ بمبلغ علمك، ويقين قلبك، ومنظرِ عينك، فكانت الشمس على حاجبك الأيمنِ فى الصّيف إذا استقبلت القبلة، فقد زالت لا شكّ فيه، فصَلِّ إلى أن يكون ظِلُّ كل شىءٍ مثله، فهذا آخر وقت الظهر وأوّل وَقْت العصر.

ثم صلِّ العَصْر إلى أن يَصير ظلُّ كل شىء مثلْيه، فهذا آخر وقت العصر المستحب.

ثم إلى أن تصفرّ الشّمسُ، وتَدَلّى لِلغروب، فهذا وقتُ الضَّرُورات، وهو مكروهٌ إلا لمريضٍ أوْ مَعْذُورٍ.

وروى عن النبى ﷺ: «من أدرك من العصر ركعةً قبلَ أَنْ تَغرُب الشمسُ فقد أدرك العصر. ومن أدرك من الصُّبح ركعةً قبل أن تطلعَ الشمسُ فقد أدركَ الصُّبح»[٣].

---

(١) انظر: الإتحاف ٣/ ٣٤٢.

(٢) شرح السنة للبغوى ٢/ ٢٠٢، والإتحاف ٣/ ٣٤٧.

(٣) أقرب الألفاظ إلى لفظ هذا الحديث هنا ما أخرجه النسائى من حديث أبى هريرة فى كتاب المواقيت، باب من أدرك ركعتين من العصر، انظر: صحيح النسائى رقم ٥٠١.

فإذا كانت الشمس على حاجبك الأيسرِ، وأنت مستقبلٌ القبلةَ فى الصّيفِ، فإنّ الشمسَ لم تزل فى مبلغِ علمك ومنظرِ عينك.

فإذا كانَتْ بين عيْنَيك فهو استواؤها فى كَبِد السماء، نَظَرَ عينك. ويصلُح أن تكون قد زالت لِقصَرِ النّهار، وفى أول الشتاء. وقد لا تكون زالت إذا طال النّهار، وتوسّط الصّيف.

فإذا صارَتْ إلى حاجبك الأيمن، فقد زالت فى أىّ وقتٍ كان.

ثم إن هذا يختلفُ فى الشتاء، فإذا كانت على حاجبك الأيسر فى الشتاء، وأنت متسقبلٌ القبلة، فيصلح أن تكون زالت لقصر النهار، فى أول الشتاء. وقد لا تكون زالت إذا امتدّ النهار، فى أول الصيف.

فإذا كانت الشمس بين عينيك فى الشتاء فقد زالت لا شَكَّ فيه، فصَلِّ الظهر. فإذا صارت إلى حاجبك الأيمن، فهذا آخر وقت الظهر فى الشتاء، وهو أولُ وقتِ الظّهر فى الصّيف. وهذا التّقديرُ إنَّما هو لأهل إقليمِ العِراق وخُرَاسان؛ لأنّهم يُصلّون إلى الحجر الأسود وتلقاءِ البابِ من وِجْهَةِ الكَعْبة.

فأما إقليمُ أهلِ الحجاز واليمنِ، فإن تَقْديرَهم على ضدِّ ذلك، وقبلتهم إلى الركن اليمانى، وإلى مؤخر الكعبة. فلذلك اختلف التقدير، وتضادَّ الاختلاف للتوجه إلى شطر البيت، وتفاوت الأمصار فى الأقاليم المستديرة حوله، فهذا كان تقدير المتقدمين. وما سوى ذلك من التدقيق والتحرير فمُحْدَث إلا أنه عِلْمٌ لأهلِه.

ومن أشكل عليه الوقتُ؛ لجهلٍ بالأدلة، أو لغيمٍ اعترض، فليتحرَّ بقلبه، ويجتهد بعمله، ولا يصلِّ صلاةً إلا بعد تيقن دخول وقتها، وإن تأخّر ذلك فهذا أفضل حينئذ. ولكن قد جاء فى الخبر: «ثلاثٌ من مَناقب الإيمان: الصّيامُ فى الصّيف، وإسباغ الوُضوءِ فى الشتاء، وتَعجيلُ الصلاةِ فى يومِ دَجْن»[1].

---

(١) لم أعثر عليه، ولا يوجد بلفظه، وإن كانت هناك أحاديث فى بيان فضيلة الصيام فى يوم شديد الحر، وإسباغ الوضوء على المكاره، وتعجيل الفطر. وقوله «يوم دجن»: يقصد به إلباس الغيم الأرض وأقطار السماء.

ومن أمثال العرب: «يوم الدَّجْن يُضرب فيه عَبْدُ السُّوء».

هذا؛ لأن الوقتَ فى الغيم كأنه يقصر لغيبة الشمس، فيغفل الإنسان عن مراعاة الوقت، أو يتشاغل عنه؛ لأن الفرائض لا تُقبل إلا عن يقين، فأداؤها بعد دخول الوقت على اليقين أفضل من أدائها فى الوقت على الشّك. ألم تسمع إلى قوله ﷺ: «فإن غُمَّ عَلَيكم فأكْمِلُوا عَدَد شَعْبان ثَلاثين»[١]؟ فترك الاحتياط لليقين.

ومن صلّى وهو يرى أنه الوقت، أو توجّه إلى القبلة فيما يعلم، ثم تبين له بعدُ أنّه صلّى قبل الوقت، أو صلى لغير القبلة، نظر: فإن كان فى الوقت أو بعده قليلاً أعاد الصلاةَ احتياطًا، وإن كان الوقت قد خرج فلا شىء عليه، وهو معفو الخطأ، وأحبُّ أن يعيد تلك الصلاة متى ذكرها.

وقال بعضُ العلماء: للشمس سبعةُ أزْولة. ثلاثةٌ منها لا يعلم بها البشر:

الزّوالُ الأول: تَزوُّله[٢] عن قُطْبِ الفُلْك الأعلى، لا يَشْهده ولا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ.

والزوال الثانى: عن وسَط الفُلك لا يعلمُه من خَلْق الله تعالى إلا خُزّانُ الشمسِ الموكَّلون بها، الذين يرمونها بجبالِ الثّلج ليسكن حرّهُا، ويحتبسون شعاعها عن العالمين، ويسوقونها على العجلة المركَّبة فى الفلك.

والزوال الثالث: يعلمه ملائكةُ الأرض.

ثم إنّ الزوال الرابع: يكون على ثلاث دقائق، وهو رُبع شَعيرة، والشعيرةُ: جزء من اثنى عشر جزءًا من ساعةٍ، فهذا الزوال تعرفه الفلاسفةُ من المنجِّمين أهلُ العلم بمساحة الفُلك، وتركيبِ الأفلاك فيه، وتقدير سَيْر الشمس فى الشّتاء والصّيف فى فلكها منه، فيقوّمون ذلك بالنّظر فى المرتجلات[٣] الطّالعة على التقويم.

فإذا زالت الشمسُ الزوالَ الخامس نصفَ شعيرةٍ، وهى ست دقائق، عرَف

(١) روى كثيرًا بألفاظ متقاربة، انظر: صحيح سنن النسائى من رقم ١٩٩٧ إلى رقم ٢٠١١.
(٢) فى المطبوعة: «نزوله» وأثبت ما فى الإتحاف ٣/ ٣٤٠ والمخطوط.
(٣) فى الإتحاف ٣/ ٣٤٠: «المرتحلات» بالحاء المهملة.

زوالها أهلُ الحساب والتقاويم بالإسطرلاب الطالع.

فإذا زالت شعيرةً، وهو الزوال السادس المشترك، وهو جزء من اثنى عشر جزءًا من ساعة، عَرفَ زَوالَها علماءُ المؤذنين وأصحاب مراعاة الأوقات.

فإذا زالت ثلاث شُعيرات، فهو الزّوال السّابع، وهو ربع ساعة، عرف الناسُ كلُّهم زوالها، وعند هذا الوقت صلاةُ الكافة، وهو أوسط الوقت وأوسعه، وذلك واسع برُخصة الله سبحانه وتعالى ورحمته.

وهذا كله؛ لبُعد منصبِ السّماء؛ ولاستواء تقويم صنعتها فى الأفق الأعلى؛ ولإتقان[١] صنعتها فى الجو المتخرق علوًا، وفى الأقطار المتسعة المستديرة استواءً وامْلِساسًا[٢].

وقد يروى فى الخبر أن النبى ﷺ سأل جبريلَ عليه السلام فقال: «هل زالت الشمس؟ فقال: لا، نعم. فقال: كيف هذا؟ فقال: بين قولى لك: لا، نعم، قطعت الشمسُ فى الفلك خمسين ألْفَ فرسخ»[٣]. فكأنّ النبى ﷺ سأله عن زوالها على علم الله سبحانه وتعالى به.

وقد قال بعضُ الفلاسفةِ: إن السماء تدور كما تدور الرحى، فتدير الأفلاكَ بدَورانِها على القطب، ولكن لا يُرى ذلك منها، لبعدها وعلوها وتقويم استدارتها.

وقد ذكره بعض العلماء من السّلف، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وذكر بعضُ العارفين أعجب من هذا وألطف، من قدرة الله عز وجل وخفىّ صُنعه، ذكر: أنّ الليلَ والنهار أربعة وعشرون ساعة، وأن الساعة اثنتا عشرةَ دقيقة، كلُّ دقيقة اثنتا عشرةَ شعيرة، وكلُّ شعيرةٍ أربعة وعشرون نَفَسًا. فتظهر الأنفاسُ من خِزانة الجسمِ، فتُنشىء الشعائر، وتنشأ الشعائر فتُظهر الدقائق، فتنتج

(١) فى الإتحاف ٣/ ٣٤٠: «ولاتفاق».

(٢) فى المطبوعة: «ومتناسبًا» وأثبت ما فى الإتحاف ٣/ ٣٤٠.

(٣) قال عنه العراقى ٤/ ٤٤٥: «لا أصل له» ، وانظر: الغنية ٣/ ١١٠٨.

الساعات، وتتحرك الساعات فتُدير الأفلاكَ، وتدور الأفلاكُ فتُنشر الليلَ والنّهارَ فى الجَوِّ والأقطارِ، ويُنشر الليلُ والنهارُ فتُدير السّماءَ فى الآفاق، وينعقد الحسبانُ بالتفصيل. فإذا خفى الإحساسُ انقطعت الأنفاسُ، فانفكّت الأفلاكُ، فعندها تنتشر النجومُ، وتَنْشقُّ السّماء، وتخرب الدِّيار، وتَظْهرُ دار القرار.

فسبحانَ الله ألطف الصَّانعين وأَقْدر القادرين.

وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١ ـ ٢]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ [الطور: ٩] يعنى: تدور دورًا. فسبحان اللطيف الحكيم، أدار تلك الأفلاك الكثاف بهذه الأنفاس اللّطاف، كما حجب الفلكَ الكثيفَ بستر الفَضَاء اللّطيف، فالفلك العظيم لا يَحجبُ السماء، والفضاء الرقيق يَحْجب الفلك؛ لأنه أراد سبحانه وتعالى أن يرينا السّماء، وأحبّ أن يُخفى عنّا الفلك، فلم نرَ إلا ما أرانا.

فالعبدُ هو سبب لذلك، ومحرك لذلك، ولا يشعر بذلك، فمدارُه أنفاسُه، وأنفاسُه ساعاتُه، وساعاته عمرُه، وعمره أجلُه، وأجلُه آخرتُه، وهو فى غفلة بدنياه، وفى لَعب بما يهواه. فإن نظرتَ إلى السّماء رأيتَها تُنشىء الأنفاس، وإن نظرتَ إلى الأنفاسِ رأيتَها تُدير الأفلاكَ، وإن نظرتَ إلى فَوق الفوقِ عَميتَ عمّا سواه. فلا إله إلا هو ربُّ العرش العظيمِ، ﴿صُنْعَ الله الَّذى أَتْقَنَ كُلَّ شىء﴾ [النمل: ٨٨]، ﴿إِنَّ ربِّى لَطِيفٌ لِمَا يَشَاء﴾ [يوسف: ١٠٠]، ﴿سَنُريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفُسِهم﴾ [فصلت: ٥٣]، ﴿وفى الأَرْض آياتٌ للمُوقنينَ * وفى أَنْفُسكُم أفلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠ ـ ٢١]، ﴿فلا أُقْسمُ بما تُبْصِرُونَ * وما لا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٣٩]، ﴿سَيَذكَّرُ مَن يَخْشَى * وَيَتَجنَّبُها الأَشْقَى﴾ [الأعلى: ١٠ ـ ١١].

فأمّا صلاةُ المغربِ فأفضلُ ما صُلِّيت فيه إذا تَدَلّى حَاجبُ الشمسِ الأعلى، وهو غيبتها عن الأبصار. رُوى عن عمر رضى الله عنه أنه أخّر صلاةَ المغربِ ليلةً حتى طلع نجمٌ، فأعْتَق رقَبة.

وروينا عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه أخّر المغربَ حتى طَلَع كَوْكَبان، فأعْتَق رقبتين.

وأفضل ما صُلِّيت فيه عشاء الآخرة إذا غابَ البياضُ الغربىّ، وأظلم مكانه، وهو الشفق الثانى إلى ما بعد ذلك، فتأخيرها أفضل إلى رُبع الليل ما لم تنم، والنّوم قبلها مكروه شديد.

ووقتٌ حَسَن فى سنّةٍ أن تُصلّى بمقدار غيبةِ القمر ليلة ثلاث من الشهر، وهذا يكون بعد سُبْعٍ ونصفٍ من الليل؛ لأنا رُوينا عن رسول الله ﷺ أنه «كان يصلّى العشاءَ الآخرة لسُقوط القمر ليلة ثلاث».

وأفضلُ ما صُلّيت فيه صلاةُ الصبح إذا طلعَ الفجرُ الثانى، وهى الصّلاةُ الوسطى، التى أفرد الله تبارك وتعالى محافظتَها؛ لأنّها تختص بمعانٍ ثلاث من التوسّط لا توجد فى سائر الصلوات، منها: أنها بين الليلِ والنهار، والثانى: أنها بين صلاتين من صلاة الليل وصلاتين من صلاة النهار، والثالث: أنها متوسطة بين صلاتى جهر وصلاتى مخافتة. وأيضًا: فإنها أقصرُ الصلاةِ عددًا؛ لا ثلاثًا، ولا أربعًا.

فلمَّا اخْتُصَّت بتوسط هذه المعانى دون غيرها، كانت هى الوسطى.

وأيضًا فإن الله تعالى نص على ذكر الفجر فى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]. وقيل فى تفسير ذلك: تشهده ملائكةُ الليلِ والنهار. فكان هذا ذكرًا لها بوصف آخر، توكيدًا للمُحافظةِ عليها.

فإن صَحَّ الخبرُ عن رسولِ الله ﷺ: «شَغَلُونا عن الصّلاة الوُسطى صلاةِ العصر»(١) بطَل ما قلناه، وثبت قولُ رسولِ الله ﷺ؛ لأنه هو الحقّ، وبه نقول، ولا أحسب الخبرَ إلا ثابتًا. فقد جاء بأشد اليقين: أُخبرنا أن النبى ﷺ سئل عنها،

(١) نعم صحّ عن رسول الله ﷺ فى حديث متفق عليه أخرجه البخارى ومسلم من حديث عبد الله ابن مسعود، باب ما فى الصلاة الوسطى، رقمه فى مسلم: ٦٢٨، وورد فى كثير من كتب السنة.

فقال: «هى التى شُغل عنها أخى سليمان حتى توارت بالحجاب».

والسُّنَّةُ أن تقرأ فى صلاةِ الصُّبح بسورةٍ من المثانى، أو بطِوال المُفَصّل، لأنها قُصرت وعُوِّض عنها طولُ القيام.

فإن كان أجمعَ للمُصلين وأكثرَ لعددهم إذا توسّط الوقتُ، فحَسَنٌ، قبل أن تَمَّحق النّجومُ. فأما أن يُسْفِر حتى ينتشرَ البياض تحْتَ الحُمْرة، وذلك هو شيءٌ من شعاع الشمس، فلا، وإن كَثُرُوا فصلاتُها بغَلَسٍ فى القليلِ أَفْضل.

والمحافظةُ على أوائِل الأوقاتِ من كلِّ صلاةٍ من أفضلِ الأعمال، إلا ما ذكرناه من تأخير صلاة العشاء الآخرة، للأثر فيه عن رسول الله ﷺ: «فضلُ الصّلاةِ فى أوّل الوَقْتِ على الصّلاة فى آخر الوقت كفضل الآخرةِ على الدنيا»[1].

وفى الخبر: «إنّ العبدَ لَيُصلّى الصلاةَ فى آخر وقتها، ولما فاته من الوقت الأولِ خيرٌ له من الدنيا وما فيها».

والخبرُ المشهور أن النبى ﷺ سئل: «أى الأعمال أفضل؟ فقال: الصّلاةُ لوَقْتها».

وقد جاء فى الأثرِ: «الوقتُ الأولُ رضوانُ الله عز وجلّ، والوقت الأخير عفوُ الله تبارك وتعالى». قيل: فرضوانُ الله عزّ وجلّ يكون للمحسنين، وعفو الله سبحانه وتعالى يكون عن المقصّرين.

والوقت الأول من كلّ صلاة: من عزيمةِ الدِّين، وطريقةِ المقيمين للصلاة المحافظين، والوقت الثانى: رخصةٌ فى الدين، وَسَعَةٌ من الله عزّ وجلّ، ورحمةٌ للغافلين.

* * *

(١) أخرجه أبو نعيم من حديث ابن عمر مرفوعًا فى أخبار أصبهان ٢/ ٢٠ بسند ضعيف، انظر: إرواء الغليل ١/ ٢٩٠.

الفصل الحادى عشر

فيه كتاب فضل الصلاة فى الأيام والليالى [١]

• ذكر ما جاء فى صلاة النهار من الفضائل:

روينا عن أبى سلمة، وعن أبى هريرة، قالا: قال رسول الله ﷺ: «إذا خرجتَ من منزِلكَ فصلِّ ركعتين، يمنعانك مُخرجَ السّوء. وإذا دَخلْت إلى مَنزِلك فصلِّ ركعتين، يمنعانك مُدخل السوء»[٢].

وعن سعيد بن أبى سعيد الطّويل، سمع أنسَ بن مالك، عن رسول الله ﷺ أنه قال فى صلاة الصبح: «مَنْ توضأ ثم توجّه إلى مسجد يصلى فيه الصلاة، كان له بكل خُطْوة حَسَنة، ومحا عنه سيئةً، والحسنةُ بعَشْرِ أمثالها. فإذا صلّى ثم انصرف عند طلوع الشمس كُتب له بكل شَعَرة فى جسده حسنة، وانقلب بحَجّة مبرورة. فإن جلس حتى يركعَ كتَبَ اللهُ له بكل جِلسة ألفَ ألفَ حسنةٍ، ومن صلّى العَتْمَة فلَهُ مثلُ ذَلِك، وانقلب بحَجّة وعُمْرة مبرورة»[٣].

وعن عطاء بن يسار، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «مَنْ صلَّى أربع ركعات بعد زوالِ الشّمس، يحسن قراءتهن وركوعهن وسجودهن، صلّى معه سبعون ألف ملك، يستغفرون له حتى الليل»[٤].

ولم يكن رسول الله ﷺ يدع أربعًا بعد الزوال، يطيلهن ويقول: «إن أبوابَ

---

(١) انظر أيضًا: الإحياء ١/ ٣٦١ فصل بيان الأيام والليالى الفاضلة، ١/ ١٩٢ باب النوافل من الصلوات. والغنية ٣/ ١٢١٤ وما بعدها.

(٢) صحيح الجامع الصغير، رقم ٥٠٥.

(٣) قال عنه العراقى: «لم أجد له أصلاً بهذا السياق» انظر: الإتحاف ٥/ ١٢٧. وقال الزبيدى: «بل له أصل أخرجه ابن عساكر فى التاريخ . . . بمثل سياق المصنف. . .» وسنده ضعيف جدًا.

(٤) قال العراقى ١/ ١٩٣: «ذكره عبد الملك بن حبيب بلاغًا من حديث أبى مسعود، ولم أره من حديث أبى هريرة»، وانظر: الإتحاف ٣/ ٣٣٦.

السّماء تُفتح فى هذه الساعة، وأُحِبّ أن يُرفع لى فيها عمل. قيل: يا رسول الله، فيهنّ سلام فاصل. قال: لا»[١].

وروى عنه ﷺ: «رحم الله عبدًا صلّى أربعًا قبل العصر»[٢].

(ذكر صلاة يوم الأحد):

رُوى عن سعيد بن جبير، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ: «من صلّى يومَ الأحد أربع ركعات، يقرأ فى كلّ ركعةٍ فاتحةَ الكتابِ وآمنَ الرّسُولُ، مرةً، كتب الله عزّ وجلّ له بعدد كل نصراني ونصرانية حسنات، وأعطاه ثوابَ نبىٍّ، وكتب له حجّة وعُمرة، وكتبَ له بكلّ ركعةٍ ألفَ صَلاةٍ، وأعطاه الله عزّ وجلّ فى الجنَّة بكل حَرْفٍ مدينةً مِن مِسْك أذْفرٍ»[٣].

وروينا عن علىّ عليه السلام، عن النبى ﷺ قال: «وحِّدُوا اللهَ تبارك وتعالى بكثرة الصلاة فى يوم الأحد، فإنه سبحانه وتعالى واحدٌ أحدٌ لا شريكَ له، فمن صلّى يوم الأحد بعد صلاة الظهر أربعَ ركعات بعد الفريضة والسنة، قرأ فى الركعة الأولى فاتحة الكتاب وتنزيل السجدة، وفى الثانية: فاتحة الكتاب وتبارك الملك، ثم تشهَّد وسلَّم، ثم قام فصلّى ركعتين أخريين قرأ فيهما: فاتحة الكتاب وسورة الجمعة، وسأل الله تبارك وتعالى حاجته، كان حقًا على الله سبحانه وتعالى أن يقضى حاجته، ويبرِّئه مما كانت النصارى عليه»[٤].

(ذكر صلاة يوم الاثنين):

روينا عن أبى الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى يوم

(١) فى صحيح سنن ابن ماجه ١/ ١٩٠ رقم ٩٥٠ من حديث أبى أيوب، بلفظ يختلف عن هذا اللفظ، ودون قوله: «قيل: يا رسول الله... إلخ»، وروى حديثه أيضًا بألفاظ مختلفة فى المعجم الكبير ٤/ ٢٠٠، ومسند أحمد ٥/ ٤٢٠، وقريب من هذه الرواية ما ورد فى الكنز رقم ٢١٧٦٥.

(٢) صحيح سنن الترمذى من حديث ابن عمر، رقم ٣٥٤.

(٣) قال العراقى ١/ ١٩٧: «أخرجه أبو موسى المدينى من حديث أبى هريرة بسند ضعيف»، وانظر: الإتحاف ٣/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣.

(٤) قال العراقى ١/ ١٩٧: «ذكره أبو موسى المدينى بغير إسناد».

الاثنين عند ارتفاع النهار ركعتين، يقرأ فى كلِّ ركعة فاتحةَ الكتابِ مرةً، وآيةَ الكرسى مرةً، و ﴿قل هو الله أحد﴾ مرةً، والمعوذتين مرة، فإذا سلّم استغفر الله عزّ وجلّ عشر مرات، وصلّى على النبى ﷺ عشر مرات، غفر الله عزّ وجلّ له ذنوبه كلها»[١].

ثابت البنانى، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى يوم الاثنين اثنتى عشرة ركعة، يقرأ فى كلّ ركعة فاتحةَ الكتابِ وآيةَ الكرسى، مرةً، فإذا فرغ من صلاته قرأ اثنتى عشرة مرة: ﴿قل هو الله أحد﴾، واستغفر الله اثنتى عشرة مرةً، يُنادَى به يوم القيامة: أين فلان ابن فلان، لِيَقُمْ، فيأخذ ثوابه من الله عزّ وجلّ، فأول ما يُعطَى من الثواب ألف حُلّة، ويُتوَّج، ويقال له: ادخل الجنة، فيستقبله مائة ألف ملك، مع كل مَلَك هدية، يسعَوْن به حتى يدور على ألفِ قصرٍ من نور يتلألأ»[٢].

(ذكر صلاة يوم الثلاثاء):

يزيد الرّقّاشى، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن صلّى يومَ الثلاثاءِ عشرَ ركعات عند انتصاف النهار، يقرأ فى كلّ ركعةٍ فاتحة الكتاب وآية الكرسى، مرة، و ﴿قل هو الله أحد﴾، ثلاث مرات، لم يُكتب عليه خطيئة إلى سبعين يومًا، فإن مات إلى سبعين يومًا مات شهيدًا وغُفر له ذنوب سبعين سنة»[٣].

(ذكر صلاة يوم الأربعاء):

أبو إدريس الخولانى، عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى يومَ الأربعاء اثنتى عشرة ركعة عند ارتفاع النهار، يقرأ: فاتحةَ الكتاب، و ﴿قل هو الله أحد﴾، ثلاث مرات، والمعوذتين، ثلاث مرات، نادى به ملك عند العرش: يا عبد الله، استأنف العمل، فقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك، ودفع اللهُ عزّ وجلّ

(١) قال العراقى ١/ ١٩٨: «أخرجه أبو موسى المدينى من حديث جابر عن عمر مرفوعًا، وهو حديث منكر»، وانظر: الإتحاف ٣/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

(٢) قال العراقى ١/ ١٩٨: «ذكره أبو موسى المدينى بغير سَنَد، وهو منكر».

(٣) قال العراقى ١/ ١٩٨: «أخرجه أبو موسى المدينى بسند ضعيف»، وانظر: الإتحاف ٣/ ٣٧٥.

عنه عذابَ القبرِ وضِيقَه وظُلمتَه، ودفَع عنه شدائدَ القيامةِ، ورفع له من يومه عملَ نبى»[١].

(ذكر صلاة يوم الخميس):

روينا عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى يوم الخميس ما بين الظهر والعصر ركعتين، يقرأ فى الركعة الأولى: فاتحة الكتاب، مرة، ومائة مرة: آية الكرسى. وفى الركعة الثانية: فاتحة الكتاب، مرة، ومائة مرة: ﴿قل هو الله أحد﴾، ويصلّى على النبى مائة مرة، أعطاه الله عزّ وجلّ ثوابَ من صامَ رجبَ وشعبانَ ورمضان، وكان له من الثواب مثل حاجّ البيت، وكتب له بعددِ كل مَن آمن بالله عزّ وجلّ وتوكل عليه»[٢].

(ذكر صلاة يوم الجمعة):

روينا عن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، عن أبيه، عن جده قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يوم الجمعة صلاةٌ كلّه، ما من عبد مؤمن قام إذا استقلّت الشمس وارتفعت قِيدَ رُمح أو أكثر من ذلك، فتوضّأ، ثم أسبغ الوُضوء، فصلّى تسبيحة الضّحى ركعتين، إيمانًا واحتسابًا، كتب اللهُ له مائتى حسنة، ومحا عنه مائتى سيئة. ومَن صَلّى أربع ركعاتٍ رفع الله تبارك وتعالى له فى الجنّة أربعمائة درجة. ومن صلّى ثمانى ركعات رفعَ الله له فى الجنة ثمانمائة درجة، وغفر الله له ذنوبه كلّها. ومن صلّى اثنتى عشرة ركعة كتب الله عزّ وجلّ له ألفًا ومائتى حسنة، ومحا عنه ألفًا ومائتى سيئة، ورفع له فى الجنة ألفًا ومائتى درجة»[٣].

أبو صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى الصبحَ يومَ

---

(١) قال العراقى ١/ ١٩٨ : «أخرجه أبو موسى المدينى، وقال: رواته ثقات، والحديث مركب. قلت: بل فيه غير مسمى، وهو محمد بن حميد الرزارى، أحد الكذابين»، وانظر: الإتحاف ٣/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦، والكاشف رقم ٤٨٧٩.

(٢) قال العراقى ١/ ١٩٨ : «أخرجه أبو موسى، وسنده ضعيف جدًا».

(٣) قال العراقى ١/ ١٩٨ : «لم أجد له أصلاً، وهو باطل».

الجمعة فى جماعة، ثم جلس فى المسجد يذكر الله سبحانه وتعالى حتى تطلع الشمس، كان له فى الفردوس الأعلى سبعون درجة، بُعد ما بين الدّرجتين حُضْرُ[١] الجواد المُضمر سبعين سنة. ومن صلّى صلاة الجمعة فى جماعة، كان له فى الفردوس خمسون درجة، حُضْرَ الجواد خمسين سنة. ومن صلّى العصر فى جماعة فكأنما أعتق ثمانيةً من ولد إسماعيل كلّهم رب بيت. ومن صلّى المغرب فى جماعة فكأنما حجّ حجة مبرورة وعمرة متقبلة».

نافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «من دخل الجامع يوم الجمعة، فصلّى أربع ركعات قبل صلاة الجمعة، قرأ فى كلّ ركعة: الحمد، مرة، و ﴿**قل هو الله أحد**﴾ ، خمسين مرة، فإنه لا يموت حتى يرى مقعده فى الجنة، أو يُرى له»[٢].

(ذكر صلاة يوم السبت):

سعيد، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى يوم السبت أربع ركعات، يقرأ فى كل ركعة: فاتحة الكتاب، مرة، و ﴿**قل يا أيها الكافرون**﴾ ، ثلاث مرات، فإذا فرغ وسلّم قرأ آية الكرسى، كتب الله له بكل حرف حجة وعمرة، ورفع له بكل حرف أجر سنة؛ صيام نهارها وقيام ليلها، وأعطاه الله عزّ وجلّ بكل حرف ثواب شهيد، وكان تحت ظل عرشه مع النبيين والشهداء»[٣].

(فضل صلاة الجماعة):

أبو كامل، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «من صلّى أربعين يومًا فى جماعة لا تفوته التكبيرة الأولى مع الإمام، كتب الله عزّ وجلّ له براءتين: براءة من النار، وبراءة من النفاق»[٤].

---

(١) حُضْرُ الجواد: ارتفاعُ الفَرَسِ فى عَدْوِه.

(٢) قال العراقى ١/ ١٩٩: «أخرجه الدارقطنى فى غرائب مالك، وقال: لا يصح».

(٣) قال العراقى ١/ ١٩٩: «أخرجه أبو موسى المدينى بسند ضعيف جدًا».

(٤) العلل المتناهية، لابن الجوزى، ١/ ٤٣٥.

• ذكر ما جاء فى صلوات الليل وما دخل فيه من الصلاة بين العشاءين:

(صلاة ليلة الأحد):

عن مختار بن فلفل، عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلّى ليلة الأحد عشرين ركعة، قرأ فى كل ركعة: الحمد لله مرة، و ﴿**قل هو الله أحد**﴾ خمسين مرة، والمعوذتين مرة، ثم استغفر الله عزّ وجلّ مائة مرة، واستغفر لنفسه ولوالديه مائة مرة، وصلى على النبى [مائة مرة]، وتبرأ من حوله وقوته، والتجأ إلى حَوْلِ الله عزّ وجلّ وقوته، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن آدم صفوةُ الله تبارك وتعالى وفطرتُه، وإبراهيمَ خليلُ الله، وموسى كليمُ الله، وعيسى روحُ الله، ومحمدًا ﷺ حبيبُ الله تبارك وتعالى، كان له من الثواب بعدد من دعا لله عزّ وجلّ ولدًا، ومن لم يَدْعُ لله عزّ وجلّ ولدًا، وبعثه الله تبارك وتعالى يوم القيامة مع الآمنين، وكان حقًا على الله سبحانه وتعالى يوم القيامة أن يدخله الجنةَ مع النبيين»[1].

(فضل صلاة ليلة الاثنين):

روينا عن الأعمش، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى ليلةَ الاثنين أربع ركعات، قرأ فى الركعة الأولى: الحمد لله، و ﴿**قل هو الله أحد**﴾ ، عشر مرات، وفى الركعة الثانية: الحمد لله، و ﴿**قل هو الله أحد**﴾ ، عشرين مرة، وفى الركعة الثالثة: الحمد، مرة و ﴿**قل هو الله أحد**﴾ ثلاثين مرة، وفى الركعة الرابعة: الحمد مرة، و ﴿**قل هو الله أحد**﴾ أربعين مرة، ثم تشهّد وسلم، وقرأ ﴿**قل هو الله أحد**﴾ خمسًا وسبعين مرة، واستغفر الله لنفسه ولوالديه خمسًا وسبعين مرة، وصلّى على محمد خمسًا وسبعين مرة. ثم سأل الله سبحانه وتعالى حاجتَه، كان حقًا على الله عزّ وجلّ أن يؤتيه سُؤله ما سأل»[2]. وهى تُسمَّى صلاة الحاجة.

---

(١) قال العراقى ١/ ١٩٩: «ذكره أبو موسى المدينى بغير إسناد، وهو منكر»، وانظر: الإتحاف ٣/ ٣٧٨.

(٢) قال العراقى ١/ ١٩٩: «ذكره أبو موسى المدينى بغير إسناد»، وانظر: الأسرار المرفوعة، لعلى القارى، ص٤٢٢.

القاسم بن عبد الرحمن، عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى ليلة الاثنين ركعتين، يقرأ فى كلّ ركعة: فاتحةَ الكتاب، و ﴿**قل هو الله أحد**﴾، خمس عشرة مرة، و ﴿**قل أعوذ برب الفلق**﴾، خمس عشرة مرة، و ﴿**قل أعوذ برب الناس**﴾، خمس عشرة مرة، ويقرأ بعد التسليم خمس عشرة مرة: آيةَ الكرسى، ويستغفر الله سبحانه وتعالى خمس عشرة مرة، جعل الله عزّ وجلّ اسمه فى أصحاب الجنة وإن كان من أصحاب النار، وغفر له ذنوب السرّ وذنوبَ العلانية، وكتب له بكل آية قرأها حَجّة وعُمرة، وإن مات ما بين الاثنين إلى الاثنين مات شهيدًا»[1].

(ذكر صلاة ليلة الثلاثاء):

فى الخبر: «من صلّى ليلةَ الثلاثاء اثنتى عشرة ركعة، يقرأ فى كلّ ركعة: فاتحة الكتاب مرة، و ﴿**إذا جاء نصر الله**﴾ خمس عشرة مرة، بنى الله له بيتًا فى الجنة عرضه وطوله وِسْع الدنيا سبع مرات»[2].

(صلاة ليلة الأربعاء):

فى الخبر: «من صلّى ليلة الأربعاء ركعتين، يقرأ فى أوّل ركعة: فاتحة الكتاب مرة، و ﴿**قل أعوذ برب الفلق**﴾ عشر مرات، وفى الركعة الثانية: فاتحة الكتاب مرة، و ﴿**قل أعوذ برب الناس**﴾ عشر مرات، نزل من كلّ سماء سبعون ألف ملك يكتبون ثوابه إلى يوم القيامة»[3].

(فضل صلاة ليلة الخميس):

أبو صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صلّى ليلة الخميس ما بين المغربِ والعشاء ركعتين، يقرأ فى كلٍّ ركعة فاتحةَ الكتاب، وآية الكرسى،

(١) ذكره الزبيدى فى الإتحاف ٣/ ٣٧٩، ولم يتعرض له.

(٢) الإتحاف ٣/ ٣٨٠. وقال ابن الجوزى: «المتهم بصلاة ليلة الثلاثاء هو الجوزقانى، وهو الذى وضع حديثها».

(٣) الفوائد المجموعة، للشوكانى، ص٤٦، والإتحاف ٣/ ٣٨٠، وأشار ابن الجوزى إلى أن صلاة ليلة الأربعاء من وضع الجوزقانى.

خمس مرات، و ﴿قل هو الله أحد﴾ خمس مرات، والمعوذتين خمس مرات، فإذا فرَغ من صلاته استغفر اللهَ تبارك وتعالى خمس عشرة مرة، وجعل ثوابَه لوالديه، فقد أدى حقّهما وإن كان عاقًا لهما، وأعطاه الله تعالى ما يعطى الصدِّيقين والشهداء»[١].

(فضل صلاة ليلة الجمعة):

أبو جعفر محمد بن على، عن جابر، عن النبى ﷺ قال: «مَنْ صلَّى ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء اثنتى عشرة ركعة، يقرأ فى كل ركعة: فاتحة الكتاب مرة، و ﴿قل هو الله أحد﴾ إحدى عشرة مرة، فكأنّما عبدَ اللهَ سبحانَه وتعالى اثنتى عشرةَ سنةً، صيام نهارها وقيام ليلها»[٢].

وروينا عن كثير بن سليم، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى ليلة الجمعة العشاء الآخرة فى جماعة، وصلّى ركعتى السنة، ثم صلّى بعدهما عشر ركعات، قرأ فى كل ركعة: الحمدُ مرة، و ﴿قل هو الله أحد﴾ مرة، والمعوذتين مرة، ثم أوتر بثلاث ركعات، ونام على جنبه الأيمن ووجهه إلى القبلة، فكأنما أحيا ليلة القدر»[٣].

وقال النبى ﷺ: «أكثِروا علىّ من الصلاة فى الليلة الغراء واليوم الأزهر»[٤] يعنى: ليلة الجمعة، ويوم الجمعة.

(فضل صلاة ليلة السبت):

عن كثير بن شنظير، عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ قال: «مَنْ صلّى ليلة

(١) الفوائد المجموعة، ص ٤٦، وأشار ابن الجوزى إلى أن هذه الصلاة من وضع الجوزقانى. وانظر: الإتحاف ٣/ ٣٨١.

(٢) قال العراقى ١/ ٢٠٠: «باطل لا أصل له».

(٣) قال العراقى ١/ ٢٠٠: «باطل لا أصل له» وقال: «وليس يصح فى أيام الأسبوع ولياليه شىء، والله أعلم».

(٤) قال العراقى ١/ ٢٠٠: «رواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة، وفيه عبد المنعم بن بشير، ضعفه ابن معين وابن حبان»، وانظر: ضعيف الجامع الصغير رقم ١١٠٦، والعلل المتناهية ص٥٨٩، وإرواء الغليل ١/ ٣٤ ـ ٣٥.

السبت بين المغرب والعشاء اثنتى عشرة ركعة، بنى الله له قصرًا فى الجنة، وكأنّما تصدّق على كل مؤمن ومؤمنة، وتبرّأ من اليهودية، وكان حقًا على الله عز وجل أن يغفر له»(١).

• ذكر فضل الصلاة بين العشاءين وما يختص به ذلك الوقت فى كل ليلة:

روينا عن سليمان التّيمى أن رجلاً حدثه قال: قيل لعبيد مولى رسول الله ﷺ: «هل كان رسولُ الله ﷺ يأمر بالصّلاة غير المكتوبة؟ قال: ما بين المغرب والعشاء».

أبو صخر، سمع محمد بن المنكدر يحدِّث عن النبى ﷺ قال: «مَنْ صلّى ما بين المغرب والعشاء فإنها من صلاة الأوّابين»(٢).

عبد الرحمن بن الأسود، عن أبيه قال: ما أتيتُ عبدَ الله بن مسعود فى تلك الساعة إلا وجدتُه يصلّى، فقلتُ له فى ذلك، فقال: نعم، ساعة الغفلة. يعنى بين المغرب والعشاء.

وسئل مولى رسول الله ﷺ: أى شىء كان يصنع النبى ﷺ بين المغرب والعشاء إذا دخل منزله؟ قال: يصلّى.

ثابت البنانى قال: كان أنس بن مالك يصلّى بين المغرب والعشاء، ويقول: هى ناشئة الليل(٣).

حُدثنا عن فضيل بن عياض، عن أبان بن أبى عياش قال: سألت امرأةٌ أنسَ بن مالك فقالت: إنى أرقد قبل العشاء، فنهاها وقال: نزلت هذه الآية فيما بينهما: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُم عن المَضَاجِعِ﴾ [السجدة:١٦].

حدثنا أحمد بن أبى الحوارى قال: قلت لأبى سليمان الدّارانى: أصومُ النهارَ وأقعد أتعشى بين المغرب والعشاء أحبّ إليك، أو أفطر النهار وأُحيى ما بينهما؟

---

(١) قال العراقى ١/ ٢٠٠: «لم أجد له أصلاً»، وانظر: الإتحاف ٣/ ٣٨٢.

(٢) قال العراقى ١/ ١٩٧: «أخرجه ابن المبارك فى الرقائق مرسلاً»، وانظر الزهد، لابن المبارك، ص٤٤٥ رقم ١٢٥٩.

(٣) انظر: الإتحاف ٥/ ١٨١.

فقال: إن جمعتهما فهو أفضل. قلت: فإن لم يتيسر لى. قال: فأفطر بالنّهار وصلِّ بين المغرب والعشاء.

هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أفضلَ الصلوات عند الله عز وجل صلاةُ المغرب، لم يحطّها عن مسافر ولا مقيم، فتح بها صلاةَ الليل وختم بها صلاةَ النهار، فمن صلّى المغرب وصلّى بعدها ركعتين بنى اللهُ له قصرين فى الجنة لا أدرى من ذهب أو فضة، ومن صلّى بعدها أربعَ ركعاتٍ غفر اللهُ له ذنوبَ عشرين سنة، أو قال: أربعين سنة»[1].

أبو سلمة عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صلّى ست ركعات بعد المغرب عُدِلَتْ له عبادةَ سنةٍ، أو كأنّه أحيا ليلة القدر»[2].

سعيد بن جبير، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عكّف نَفْسَه ما بين المغرب والعشاء فى مسجد جماعة، لم يتكلم إلا بصلاة أو قرآن، كان حقًا على الله سبحانه وتعالى أن يبنى له قصرين فى الجنة، مسيرة كل قصر منهما مائة عام، ويغرس له بينهما غراسًا لو طافه أهلُ الدنيا لوسعهم»[3].

محمد بن الحجاج سمع عبد الكريم بن الحارث يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ ركع عشر ركعات ما بين المغرب والعشاء بنى الله له قصرًا فى الجنة. فقال عمر: إذًا تكثر قصورنا يا رسول الله؟! قال: الله أكبر وأفضل، أو قال: وأطيب»[4].

أبو عائشة السعدى وأبو حفص العوفى، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله

---

(١) قال العراقى ١/ ٣٥١: «رواه الطبرانى فى الأوسط مختصرًا، وإسناده ضعيف»، وانظر: الإتحاف ٥/ ١٧٩، وجمع الجوامع رقم ٦٢٤٥.

(٢) إلى قوله: «عبادة سنة» فى سنن ابن ماجه رقم ١٣٧٤، وهو فى ضعيف سنن ابن ماجه رقم ٢٨٩، ولفظه ثمَّ: «عبادة اثنتى عشرة سنة»، أما قوله: «كأنه أحيا ليلة القدر» قال العراقى ١/ ٣٥٢: «فهو من قول كعب الأحبار من حديث ابن عباس، رواه الديلمى فى الفردوس بسند ضعيف».

(٣) قال العراقى ١/ ٣٥٢: «لم أجد له أصلاً من هذا الوجه».

(٤) رواه ابن المبارك فى الزهد مرسلاً، رقم ١٢٦٤.

ﷺ: «مَنْ صلّى المغرب فى جماعة، ثم صلّى بعدها ركعتين، ولم يتكلم بشىء فيما بين ذلك من أمر الدنيا، يقرأ فى الركعة الأولى بفاتحة الكتاب، وعشر آيات من أول البقرة، وآيتين من وسطها، وهما: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] إلى آخر الآيتين، و ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ خمس عشر مرة، ثم يركع ويسجد، فإذا قام إلى الركعة الثانية قرأ بفاتحة الكتاب وآية الكرسى، وآيتين بعدها إلى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وثلاث آيات من آخر البقرة، من قوله عزّ وجلّ: ﴿للهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ﴾ [البقرة: ٢٨٤] إلى آخرها، و ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ خمس عشرة مرة، بُنِى له فى جنات عدن ألفُ مدينةٍ من الدّر والياقوت، فى كل مدينة ألفُ قصر، فى كل قصر ألفُ دار، فى كل دار ألفُ حجرة، فى كل حجرة ألفُ صفَّة، فى كل صفة منها ألف خيمة، فى كل خيمة ألف سرير من أصناف الجواهر، على كل سرير ألف فِراش؛ بطائنها من إستبرق وظواهرها من نور منضَّد، وألف مِرْفَقة(١) من هذا الطرف من السرير، وألف مِرْفَقة من الطرف الآخر، فوق تلك الفرش زوجة من الحور العين لا توصف بشىء إلا زادت عليه جمالاً وكمالاً، لا يراها ملك مقرَّب ولا نبى مُرسَل إلا افتُتن بحسنها، قد ملأ مأكمتاها(٢) ما بين طرفى السرير، على كل زوجة منهن ألف حُلَّة لا توارى حلةٌ حلةً، ولا توارى الحللُ كلُّها الجلدَ، يُرى بعضها من تحت بعض، كما يُرى السلك من الياقوتة، وكما يُرى الشراب الأحمر من الزجاجة البيضاء، لكل زوجة منهن مائة ألف وصيف، ومائة ألف جارية، ومائة ألف قهرمان، على قصورها وضياعها، هذا لها خاصة سوى خدم زوجها، فى كل خيمة منهن نهر من التسنيم، ونهر من الكوثر، وعين من الكافور، وعين من الزنجبيل، وعين من السلسبيل، وغصن من شجرة طوبى، وغصن من سدرة المنتهى، فى كل خيمة ألف مائدة من الدر والياقوت، أدنى مائدة منها مثل استدارة الدنيا مرتين، على كل مائدة منها ألف صحفة، صحاف من

(١) منضّد: بعضه فوق بعض. المرفقة: المتّكأ والمخدَّة، وقد ترفَّق وارتفق: توكَّأ.
(٢) المأكمة: العَجيزة. والمأكمتان: اللحمتان اللتان على رءوس الوَرِكَيْن.

ذهب مكلَّلة بالدّر والجوهر، فى كل صحفة منها مائة ألف لون من طعام مختلف، طعمه ولونه وريحه، يعطى الله سبحانه وتعالى وليَّه المؤمن من القوّة ما يأتى على تلك الأطعمة، ومثلها من الأشربة، ويأتى على أولئك الأزواج كلهنّ، فى مقدار يوم من أيام الدنيا»(١).

فسبحان الملكِ الوهّابِ القادرِ على ما يشاء، ربّ العالمين.

عبد الرحمن بن منصور، عن سعد بن سعيد، عن كُرْزِ بنِ وَبْرَةَ قال: وكان وبرة من الأبدال، قال: قلت للخضر عليه السلام: علِّمنى شيئًا أعمله فى ليلى. فقال: إذا صليتَ المغرب فقُمْ إلى صلاة العشاء الآخرة مصلِّيًا من غير أن تكلِّم أحدًا، وأقبلْ على صلاتك التى أنت فيها، وسلّم فى كل ركعتين، واقرأ فى ركعة بفاتحة الكتاب مرة، و ﴿قل هو الله أحد﴾ سبع مرات، فإذا فرغت من صلاتك انصرف إلى منزلك ولا تكلم أحدًا، وصلِّ ركعتين واقرأ بفاتحة الكتاب، مرة، و﴿قل هو الله أحد﴾ سبع مرات، فى كل ركعة. ثم اسجد بعد تسليمك، واستغفر اللهَ سبحانه وتعالى سبع مرات، وصلّ على النبى ﷺ سبع مرات، وقل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، سبع مرات. ثم ارفع رأسك من السجود، واستو جالسًا، وارفع يديك وقل:

يا حىُّ، يا قيومُ، يا ذا الجلال والإكرام، يا إله الأوّلين والآخرين، يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، يا ربّ، يا ربّ، يا ربّ، يا الله، يا الله، يا الله.

ثم قم وأنت رافع يديك، وادْعُ بهذا الدعاء، ثم نم حيث شئت مستقبل القبلة

(١) اكتفى الغزالى فى الإحياء من هذا الحديث إلى قوله: «خمس عشرة مرة» وعلّق العراقى على هذا الجزء من الحديث بقوله ١/٣٥٢: «أخرجه أبو الشيخ فى الثواب من رواية زياد بن ميمون عنه مع اختلاف يسير، وهو ضعيف»، ولم يتعرض للحكم على بقية الحديث، وذكر الزبيدى جزءًا مما ذكره أبو طالب هنا وعلّق قائلاً ٥/ ١٨٠: «ولوائح الوضع ظاهرة عليه».

قلت: رحم الله أبا طالب المكى، لم يكن فى حاجة إلى إيراد مثل هذه الأحاديث الموضوعة والتى لا تهم المسلم فى عمله، وبخاصة أنه ذكر فى بعض مواضع من كتابه أنه لا يهتم بذكر فضائل الأعمال.

على يمينك، وصلّ على النبى ﷺ، وأدمِ الصلاةَ عليه حتى يذهب بك النوم.

فقلت له: أحب أن تُعلمنى ممّن سمعت هذا الدعاء. فقال: إنى حضرت محمدًا ﷺ حيث عُلِّم هذا الدعاء، وأُوحى إليه، وكنتُ عنده، وكان ذلك بمحضرٍ منّى، فتعلمته ممّن علَّمه إياه(١).

ويقال: إن هذه الصلاة وهذا الدعاء مَنْ داوم عليه بحسن يقين وصدق نية، رأى رسولَ الله ﷺ فى منامه قبل أن يخرج من الدنيا، وقد فعل ذلك بعض الناس فرأى أنه دخل الجنة، ورأى فيها الأنبياء، ورأى رسولَ الله ﷺ وكلّمه وعلّمه.

ولهذا فضائل كثيرة اختصرناها للإيجاز.

* * *

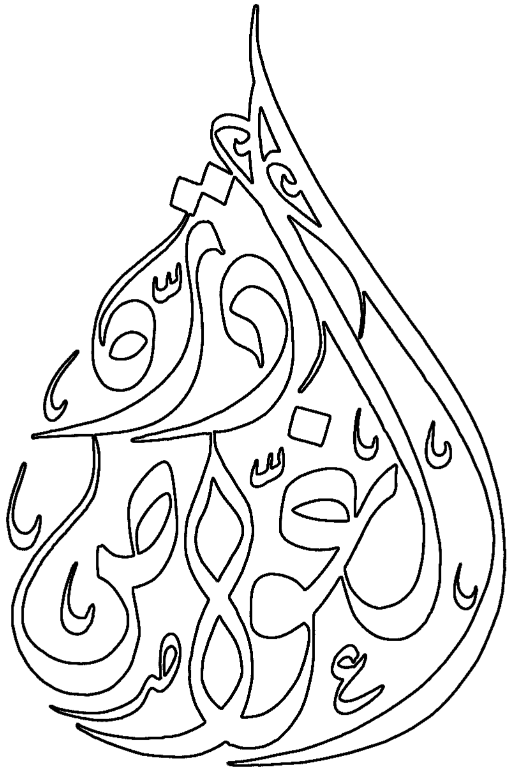

(١) قال العراقى ١/ ٣٥٢: «وهذا باطل لا أصل له»، وقال الزبيدى: «ولم يثبت عند المحدثين فى لقاء الخضر للنبى ﷺ شىء نفيًا ولا إثباتًا» انظر: الإتحاف ٥/ ١٨١. وقد مرّ قريبًا طرف من هذه المسألة.

الفصل الثاني عشر

في ذكر الوتر وفضل الصلاة بالليل

عن مبارك بن عوف الأَحْمُسى، عن عمر بن الخطاب، قال: إن الأكياسَ الذين يُوترون أوّل الليلِ، وإن الأقوياءَ يوترون آخر الليل، وهو أفضل.

وقد رُوى فى خبر: «أن رسول الله ﷺ سأل أبا بكر رضى الله عنه: متى توتر؟ فقال: من أول الليل، قبل أن أنام. وقال لعمر رضى الله عنه: متى توتر؟ فقال: من آخر الليل. فقال لأبى بكر: حَذِرَ هذا، وقال لعمر: قوى هذا»[1].

وفى بعض الأخبار أنّه قال لأبى بكر: «مَثَلُك كالذى قال: أَحْرزتُ نَهْبى وأبتغى النوافلا، وقال لعمر: إنّك لقوىٌّ مكين».

وروينا عن عثمان رضى الله عنه أنه قال: أما أنا فأوتر أول الليل، فإذا استيقظتُ صليتُ ركعة شفعت بها وترى، فما شبهتهما إلا كالغَرِيبةِ من الإبل ضممتها إلى أخواتها، ثم أوترت من آخر صلاتى. والمشهور عنه من فعله أنّه كان يحيى الليل كلّه بركعة واحدة يختم فيها القرآن، وهى وتره.

وروينا عن على عليه السلام أنه قال: الوتر على ثلاثة أنحاء: إن شئتَ أوترت أوّلَ الليل، ثم صلّيت ركعتين ركعتين. وإن شئت أوترت بركعة، فإذا استيقظت شفعتَ إليها أخرى ثم أوترت من آخر الليل. وإن شئتَ أخّرت الوترَ حتى يكون آخر صلاتك.

وفى حديث ابن عمر: «صلاةُ الليلِ مَثْنى مثنى، فإذا خِفت الصّبح فأوتر بركعة».

وهذا أحبّ الوجوهِ إلىَّ.

---

(١) مسند أحمد ٣/ ٣٠٩، ومعجم الطبرانى الكبير ١٧/ ٣٠٣، وموارد الظمآن للهيثمى ص٦٧٣.

وقال مجاهد: قال عبد الله بن عمر: من صلّى أربعًا بعد العشاء، كُنَّ كعدْلهن من ليلة القَدْر. قال حصين: فذكرت ذلك لإبراهيم فقال: كان عبد الله بن مسعود يكره أن تُتْبع كلّ صلاة بمثلها، وكانوا يصلون العشاء، ثم يصلون ركعتين، ثم أربعًا. فمَن بدا له أن يوتر أوتر، ومن أراد أن ينام نام.

وقال رسول الله ﷺ: «أوتروا يا أهلَ القرآنِ من كلّ الليل».

وقالت عائشة رضى الله عنها: «قد أوتر رسول الله ﷺ من أوله، وأوسطه، وانتهى وتره إلى السَّحَر».

وفى الخبر: «كان رسول الله ﷺ يوتر عند الأذان، ويصلى ركعتين عند الإقامة»(١).

وسأل رجلٌ عليًا عليه السلام عن وقت الوتر فسكت عنه، ثم خرج إليهم عند الأذان لصلاة الفجر، فقال: أين السائل عن الوتر؟ هذا وَقْت وترٍ حسن.

أبو أمامة عن عَمْرو بن عنبسة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنّ أقربَ ما يكون الربّ عزّ وجلّ من العبدِ جوفَ الليلِ الأخيرِ، فإن استطعت أن تكون ممّن يذكر اللهَ سبحانَه وتعالى فى تلك السّاعة فكُن»(٢).

أبو ذر الغفارى قال: «قلت: يا رسول الله، أىُّ الليلِ الصّلاةُ فيه أفضل؟ قال: نصفُ الليلِ الغابر»(٣) يعنى: الباقى.

وسأل رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام: «أى الليل أسمع؟ فقال: إن العرشَ يهتزُّ من السَّحَر»(٤).

وقد روى فى الخبر: «إنّ فى الليل ساعةً لا يوافقها عبدٌ مسلم يسأل الله خيراً إلا أعطاه».

---

(١) مسند أحمد ١/ ٨٧، ١١١.

(٢) صحيح سنن النسائى، رقم ٥٥٧.

(٣) الكامل لابن عدى ٣/ ١٢١، ١٢٢.

(٤) مستدرك الحاكم ٣/ ٣٨.

وروى فى خبر آخر: «يصلى أو يدعو إلا استجاب له». وهى فى كل ليلة.

ويقال: إن فى الليل وقتًا لا بدّ أن يُنام فيه، أو تغفل كلُّ ذى عين، إلا الحى الذى لا يموت، فلعلها هذه الساعة.

وروى عن النبى ﷺ: «إذا مضى نصفُ الليلِ ـ وفى لفظ آخر: إذا بقى ثلثُ الليل الأخير ـ نزل الجبّارُ سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا، فقال: لا يسأل عن عبادى غيرى، هل من تائب فأتوبَ عليه؟ هل من مستغفر فأغفرَ له؟ هل من داعٍ فأستجيبَ له؟ هل من سائل فأعطيَه؟ كذلك حتى يطلع الفجر»[1].

وفى حديث عمرو بن عنبسة: «عليك بصلاة آخر الليل، فإنها مشهودة محضورة»، يعنى: يحضرها ملائكةُ الليل وملائكةُ النهارِ.

* * *

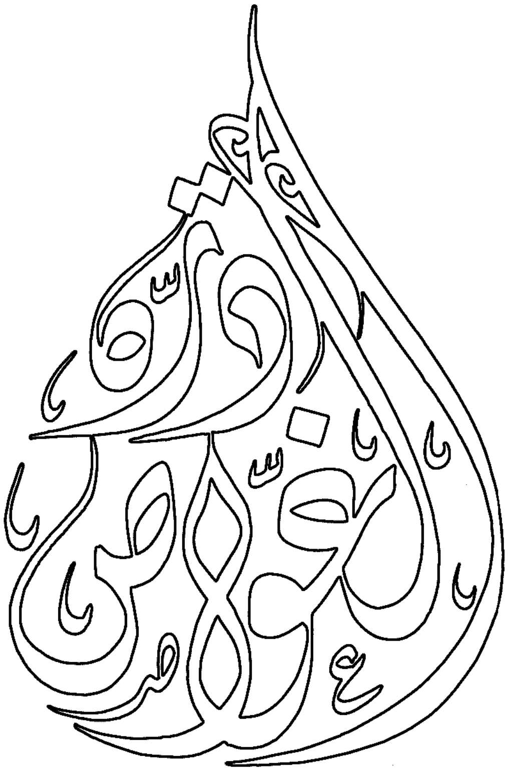

(١) المعجم الكبير للطبرانى ٥/ ٤٤، ٤٥، وانظر: الكنز، رقم ٣٣٩٠، ٣٠١٤٧.

الفصل الثالث عشر

فيه كتاب جامع لما يستحب أن يقول العبد إذا استيقظ من نومه للتهجد، وفى يقظته عند الصباح (١)

ليقل إذا استيقظ من منامه بُكرةً: أصبحنا وأصبح الملكُ لله، والعظمة لله، والسلطان لله، والبهاء لله، والقدرة لله، والعزة لله، والتسبيح لله، أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد ﷺ، وعلى ملّة أبينا إبراهيم حنيفًا، وما كان من المشركين. الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور.

اللهم إنا نسألك أن تبعثنا فى يومنا هذا إلى كل خير، ونعوذ بك أن نجترح فيه سوءًا أو نجرَّه إلى مسلم، فإنك قلت: ﴿**وهُو الذى يَتَوفَّاكُم باللَّيلِ ويَعْلَمُ ما جَرَحْتُم بالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُم فِيه لِيُقْضَى أجَلٌ مُسَمًّى**﴾ [الأنعام: ٦٠].

اللهم فالقَ الإصباح، وجاعلَ الليل سكنًا، والشمسَ والقمرَ حسبانًا، أسألك خيرَ هذا اليومِ وخيرَ ما فيه، وأعوذ بك من شرِّه وشرِّ ما فيه.

بسم الله، ما شاء الله، لا قوةَ إلا بالله، ما شاءَ الله، كلُّ نعمةٍ من الله، ما شاء الله، الخيرُ كلُّه بيد الله، بسم الله، لا يَصْرِف السوءَ إلا الله، رضيتُ بالله عزّ وجلّ ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا، ربّنا عليك توكّلنا وإليك أنبنا وإليك المصير. وليقرأ المعوذتين.

فإذا أمسى قال مثل ذلك كله، إلا أنه يقول: أمسينا وأمسى الملك لله عزّ وجلّ، أسألك خير هذه الليلة.

ولا يدع أن يقول فى كل ليلة: بسم الله الذى لا يضُرُّ مع اسمه شىءٌ فى

(١) راجع فى مثل هذا: الإحياء ١/ ٣٥٠ ـ ٣٦٠، والغنية ٣/ ١٠٥٦ وما بعدها.

الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم. أعوذ بكلمات الله التامات وأسمائه كلِّها من شرِّ ما ذرأ وبرأ، ومن شر كلِّ ذى شر، ومن شر كلِّ دابةٍ أنت آخذٌ بناصيتها. إن ربىّ على صراطٍ مستقيم.

وإن قَلَّ دخوله الخلاء عند وقت السَّحَر كان أفضل؛ كيلا يشغله عن الذكر، يجعل ذلك فى آخرِ النهار أو من أول الليل، فقد فعل ذلك كثيرٌ من الصالحين، وهو حسن، إلا أن دخولَ الخلاءِ عند الصّباحِ أصلحُ للجسد من جهة الطب، وأنظفُ للطهارةِ، سيما لمن يأكل بالنهار.

• ذكر ما يستحب من القول إذا أخذ العبد مضجعه للنوم:

ليقل: «باسمك ربّى وضعتُ جنبى، وباسمك أرفعه. اللهم إن أمسكت نَفْسى فاغفر لها وارحمها، وإن أرسلْتها فاعْصِمها واحفظها بما تحفَظُ به عبادَك الصالحين».

وعلّم رسول الله ﷺ البراءَ بن عازب أن يقول إذا أخذ مضجعه ليلاً: «اللهم إنى وجَّهْتُ وجهى إليك، وفوَّضتُ أمرى إليك، وألجأت ظهرى إليك، رهبةً ورغبةً إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنتُ بكتابك الذى أنزلت، وبرسولك الذى أرسلت»(١).

وروى عن النبى ﷺ أنه كان يقول عند النوم: «اللهمّ قِنى عذابك يوم تبعث عبادَك»(٢).

وأنه أمر أن يقال: «الحمدُ لله الذى عَلا فقَهر، الحمد لله الذى بطَن فخَبر، الحمدُ لله الذى ملَك فقدَر، الحمدُ لله الذى هو يحيى الموتى، وهو على كلِّ شيءٍ قدير»(٣).

---

(١) انظر: السلسلة الصحيحة، رقم ٢٨٨٩، وصحيح الأدب المفرد، بتحقيق الألبانى، رقم ٩٢٠.

(٢) السلسلة الصحيحة، رقم ٢٧٥٤.

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى الدرداء، وقال الهيثمى: «وفيه أبو جناب الكلبى وهو ضعيف» المجمع ١٠/ ١٢٤، والترغيب ١/ ٤١٧.

وليقل بعد ذلك: اللهم إنى أسألك الراحةَ بعد الموت، والعفوَ عند الحسابِ، اللّهم إنى أعوذُ بك من غَضبك، وسوءِ عقابك، وشرِّ عبادك، وشرِّ الشياطين وشِرْكِهم.

وليقرأ: خمسًا من أول سورة البقرة، وثلاثًا من آخرها، وآيةَ الكرسى، والآيتين اللتين بعدها.

وليقرأ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]، والآية التى بعدها إلى قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤]. ويقال: من قرأ هذه الآية عند منامِهِ حُفِظ عليه القرآنُ فلم يَنْسَه.

ولا يدع أن يقرأ آخر الإسراء؛ الآيتين: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ...﴾، وهذه الآية من سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذى خَلَقَ السَّمَوات والأرضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف:٥٤]، فإنه يدخل فى شعاره(١) مَلَك يُوكَّل بحفظه، ويستغفر له.

وليقرأ الخمسَ آيات من أوّل سورة الحديد، والثلاثَ من آخر سورة الحشر، و﴿قُلْ يا أَيُّها الكافِرُون﴾ ، و ﴿قُلْ هُو اللهُ أحَدٌ﴾ ، والمعوذتين، ويَنْفُثُ بهنّ فى يديه، ويمسح بهما وجهَه وسائرَ جسده. كذلك روى عن النبى ﷺ من قوله وفعله.

وليقرأ عشرًا من أوّل الكهف، وعشرًا من آخرها. وهذه الآى لقيام الليل.

وأمر رسول الله ﷺ بقراءة: ﴿قل يا أيُّها الكافِرُون﴾ عند النوم. وكان عليه الصلاة والسلام يقول: «ما أرى أن رجلاً مستكملَ عقله، ينامُ قبل أن يقرأ الآيتين من [آخر] سورة البقرة ﴿آمنَ الرَّسُولُ﴾ ، وليقل: اللهم أيقظنى فى أحبِّ الساعات إليك، واستعملنى بأحب الأعمالِ لديك، التى تقربنى إليك زلفى، وتبعدنى من سخطك بعدًا، أسألك فتعطينى، وأستغفرك فتغفر لى، وأدعوك فتستجيب لى. اللهم لا تؤمِّننى مكْرك، ولا تولِّنى غيرك، ولا ترفعْ عنى سترك،

(١) الشعار: ما ولى جسدَ الإنسان دون ما سواه من الثياب.

ولا تُنسنى ذكرك، ولا تَجْعلنى من الغافلين.

يقال: من قال هذه الكلمات عند نومه أهبط اللهُ سبحانه وتعالى ثلاثة أملاك يوقظونه للصلاة، فإن صلَّى ودعا أمَّنوا على دعائه، وإن لم يقم تعبّدت الأملاكُ فى الهواءِ وكُتب له ثواب عبادتهم.

وليسبّح ثلاثًا وثلاثين مرة، وليحمد ثلاثًا وثلاثين مرة، وليكبِّر أربعًا وثلاثين مرة، وإن شاء ربَّعَها خمسًا وعشرين مرة، وزاد فيها التهليل، وإن شاء قال: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، خمسًا وعشرين مرة، فهنّ يجمعن له مائة كلمة، وهو أخفّ عليه للمداومة.

وقد أمر رسول الله ﷺ بذلك، وندب إليه فى أدبار الصلوات الخمس، وعند النوم.

وروينا عن مطرف عن الشّعبى عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ آخر ما يقول حين ينام وهو واضع خدّه على يده اليمنى، وهو يرى أنّه مَقْبوض[1] فى تلك الليلة: اللهمَّ ربّ السموات السبع، وربّ العرشِ العظيم، ربَّنا وربَّ كلِّ شىء، منزِّلَ التوراةِ، والإنجيلِ، والزبور، والفرقان، فالق الحبِّ والنوى، أعوذ بك من شرّ كل دابة أنت آخذ بناصيتها. اللهم أنتَ الأول فليس قبلك شىء، وأنت الآخر فليس بعدك شىء، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء، وأنت الباطن فليس دونك شىء، اقضِ عنِّى الدَّيْن وأغننى من الفقر».

فهذا جامع ما يُستَحبُّ من قراءةِ الآى والدّعاء عند النوم.

(١) قولها «وهو يرى أنه مقبوض»: أى يوطِّن نفسه ﷺ أن هذه آخر ليلة له فى الدنيا، وكذا أَمرَ أمّتَهُ بتقصير الأمل، وأن يدعو المسلم قبل نومه دعاء من يفارق الحياة، وسيجىء التنبيه على ذلك من أبى طالب.

• ذكر هيئة العبد عند النوم، وأهبته للمضجع، ومعنى الاعتبار بذلك لذوى الأبصار:

يُستحبُّ للعبد أن ينامَ على طهارةٍ سابغة، وإلا مسح أعضاءه بالماء مسحًا، وقد كانوا يستحبّون السّواك عند النوم، [كما يستحبّونه عند الاستيقاظ][1]، فكان رسولُ الله ﷺ يفعله، وكان بعض السّلف يجعل عند رأسه سواكَه وطَهُوره، فإذا تعارَّ[2] من الليلِ استاك، ومسح أعضاءه بالماء مسحًا، وذكر اللهَ عزّ وجلّ بالتلاوة والتسبيح، ثم رقَد. وكانوا يعدّون هذا يَعدِل قيامَ الليل[3]. وقد روى هذا الخبر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وعن غيره.

وروينا عن رسول الله ﷺ نحوه، وأنه كان يستاك فى كلِّ ليلة مرارًا عند كلّ قَوْمةٍ من نومه[4].

فليعدّ العبدُ طهورَه وسواكه عند رأسه، وينوى قيامَ الليل، فأىّ وقتٍ استيقظ توضأ وصلّى، أو قعد فقرأ، أو دعا وذكر الله عزّ وجلّ واستغفره، أو تفكّرٌ[5] فى آلائه وعظمته ومعانى قدرته. ففى أىّ وجهٍ أخذَ من هذه الأذكار والأفكار[6] فقد استعمل بذلك، وفيه قُربةٌ إلى الله عز وجلّ، وهو فضلٌ من الله تعالى ورحمةٌ عليه.

ولا ينبغى للعبد أن يبيت وله شىء يوصى فيه إلا ووصيته مكتوبة عنده، فإنه لا يأمن القبضَ والوفاة. وقد ندب رسولُ الله ﷺ إلى ذلك فى قوله: «لا ينبغى لعبدٍ أن ينام لَيلتين وله شىء يوصى فيه إلا ووصيتُه مكتوبة عنده»[7].

---

(١) ساقطة من (ط) وأثبتها من (ك).

(٢) فى (ط): «فإذا انتبه»، وأثبت ما فى (ك).

(٣) فى (ط): «وكانوا يذكرون الله عز وجل بالتلاوة والتسبيح فى تقلبهم ويعدون هذا يعدل قيام الليل» وأثبت عبارة (ك).

(٤) انظر مسند أحمد ٥/٤١٧، وكتاب الطهارة فى مسلم وغيره.

(٥) عبارة (ك) باللام المؤكدة: «فليتوضأ... أو ليتفكر».

(٦) فى (ط): «ففى أى وجه أخذ من هذه المعانى فهو ذكر».

(٧) صحيح فى كتب السنة باختلاف يسير، أخرجه البخارى، كتاب الوصايا، رقم ١٥، ومسلم، كتاب الوصية، رقم ١، ٤، وغيرهما.

ويقال: من مات عن غير وصية لم يؤذن فى الكلام فى البرزخ إلى يوم القيامة(١)، تتزاور الأمواتُ ويتحدثون وهو لا يتكلم فيما بينهم إلى يوم القيامة، فيقول بعضُهم لبعض: هذا المسكين مات عن غير وصية. فيكون ذلك حسرةً عليه بينهم، [وذلك أن] موتَ الفَجْأَة تخفيفٌ ومستحبٌ للمؤمن الفقير للثواب، الذى لا مال له، ولا دَيْن عليه. فأما المُثْقل بالدَّين، أو المخلّط فى الدَّين، أو مَن له مال [وعليه دين]، أو هو مُصِرٌّ على مَطْل(٢)، فإنّ موتَ الفَجْأَة لهؤلاء عقوبةٌ ومكروه.

ولا ينبغى للعبدِ أن يَبيتَ إلا تائبًا من كلِّ ذَنْبٍ، سليمَ القلبِ لجميعِ المسلمين، لا يحدِّث نفسَه بظُلم أحدٍ، ولا يَعْقِد على خطيئةٍ إن استيقظ.

وقد جاء فى الخبر: «من أوى إلى فراشه، لا ينوى ظلمَ أحدٍ ولا يَحْقدِ على أحدٍ، غُفر له ما اجْترم»(٣).

وليستقبل فى نومه القبلةَ. واستقبالُ القبلةِ على ضربين: إن كان مستلقيًا، فاستقبالُه القبلةَ أن يكون وجهُه إليها مع أخمصِ قدميه، كحال الميت المسجَّى. وإن كان نائمًا على جنبٍ فاستقبال القبلة أن يكون وجهُه إليها مع شقه الأيمن، كهيئة الملحَّد فى قبره، فسيصير إليه عن قريب. وليَذكر [العبدُ] بنَوْمه على هذين الحالين [ذينك الحالين](٤) عند موته، وحين اضطجاعه فى قبره، [فيصير إليها عن قريب فلا يسهى]. وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥ ـ ٢٦] فى أحد الوجهين، وهو مذهب أهل التفسير، أى: يكفتهم ويجمعهم أحياءً على ظهرها، وأمواتًا فى بطنها.

وقد جعل الله سبحانه وتعالى النومَ من آياته الدالة على [وحدانيته] لأهل

(١) روى شيء من هذا مرفوعًا من حديث قيس بن قبيصة بلفظ: «من لم يوص لم يؤذن له فى الكلام مع الموتى. . .» قال الزبيدى ٥/ ١٥٩: «رواه أبو الشيخ فى كتاب الوصايا».

(٢) عبارة (ك): «فأما المثقل المخلط أو المصر أو الذى له مال».

(٣) قال العراقى ١/ ٣٤٢: «رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب السنة من حديث أنس بلفظ مختلف وسنده ضعيف»، وانظر: الإتحاف ٥/ ١٥٩.

(٤) ساقطة من (ط) وكذا المواضع الآتية والتى سبقت، فإنى لا ألتزم الإشارة إليها فى كل موضع، حتى لا ينشغل بها القارئ.

السّمع منه، [والاستجابة له][(١)]، وهو سمع اليقين، وقرنه بالابتغاء من فضله، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٣].

وكان فقراءُ أهلِ الصُّفّة وبعضُ زهاد التابعين إذا رقدوا لا يجعلون بينهم وبين الأرض شيئًا. كان أحدهم يباشر التراب بجلده، ويطرح ثوبه فوقه، ويقول: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥]، كأنهم كرهوا الترفّع عليها والوقاية منها، يجدون ذلك أرقَّ لقلوبهم، وأبلغَ فى تواضعهم.

ومَثلُ النّومِ عند أهل الاعتبار مَثَل البرزخ هو بين الدّنيا والآخرة، كذلك النّوم بين الحياة والموت، فإذا كُشف حجابُ النوم ظهرت الدنيا بالحكمة، وكذلك إذا كُشف الغطاءُ ظهرت الآخرة بالقدرة، فصارت الدنيا كالأحلام فى النوم، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

وكان بعضهم يقول: عجبًا لمن يَعْصى الله عزّ وجلّ ثُمَّ ينام بعد ذلك. وذكر بعضُ العلماء عن الله عزّ وجلّ: إن كنتم تعصونى فاخرُجوا مِن بساطى، ولا تناموا فى قبضتى.

وقال لقمان لابنه: يا بنىّ إن كنت تشك فى الموت فلا تنم، فكما أنك تنام فكذلك تموت. وإن كنت تشك فى البعث فإذا نِمت فلا تنتبه، فكما أنّك تنتبه بعد نومك فكذلك تُبعث بعد موتك.

فيلتذكّر العبدُ عند نومِه حين موته[(٢)]، وليعلم أن الله تعالى يكون له بعد موته كما كان العبدُ له قبل نومه، فلينظر على أى حال نام وعلى أى هَمٍّ توفاه الله عليه، وليتذكر بانتباهه البعثَ، فإن العبد يُبعث على ما مات عليه فى الدنيا، فيُبْعَث بهمِّه، ويُحشر مع محبوبِه. كما ينتبه النائم عن همِّه إلى محبوبه الذى نام عنه.

(١) من (ك)، وكذلك المواضع السابقة التى بين المعكفات.
(٢) حين موته: أى وقت موته وأجَله.

وفى الخبر: «إن المرءَ مع من أحبّ، وله ما احتسب».

وروى عنه ﷺ: «من مات على مرتبة من المراتب بُعث عليها يوم القيامة»[(١)].

وروينا عن كعب الأحبار قال: إذا نمت فاضطجع على شقّك الأيمن، واستقبل القبلة بوجهك، فإنها وفاة.

• بيان آخر من الاعتبار لأهل التبصرة والتذكار:

وليعلم العبد أن الله عزّ وجلّ يكون له بعد بعثه من قبره كما كان العبد له بعد بعثه من نومه، فلينظر إلى أى حال يُبعث.

فإن كان العبدُ لنظرِ مولاه مُكرِمًا، ولحرماته مُعَظِّمًا، وإلى محبوبه ومرضاته مُسارعًا، كان اللهُ تعالى فى آخرته لوجهه مُكرمًا، [ولشأنه مُعظِّمًا، وإلى مسرته من النعيم المقيم مسارعًا][(٢)].

وإن كان العبدُ فى حقِّ مولاه مُتهاونًا، وبأمره مُسْتَخفًّا، ولشعائرِه مُسْتَصْغرًا، كان الله تعالى [لوجهه] مهينًا، وبشأنه متهاونًا، [وإلى ما يكرهه من العذاب الأليم مسارعًا][(٣)]. قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ والَّذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ولا الْمُسِىءُ﴾، ثم قال: ﴿قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [غافر:٥٨] موبخًا لهم بذلك. وقال فى مثله: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم:٣٥]، ثم قال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:٣٦] ذامًا عائبًا لحكمهم.

ثم أخبر بحكمه فيهم فقال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أن نَجْعَلَهم كالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَات سواءً مَحْيَاهُم وَمَمَاتُهُم ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:٢١]. هكذا تقدير الكلام، وهو من المقدَّم والمؤخَّر، فرفع حسناتهم، وأخبر بسوء حكمهم، ثم ذكر حكمهم عنده فى المحيا والممات، فقال: ﴿سواءً مَحْيَاهُم

---

(١) السلسلة الصحيحة، رقم ٢٨٣. وسوف أعود إلى تخريج جميع الأحاديث تخريجًا كاملاً فى نهاية الكتاب.

(٢) كانت الفقرة مضطربة فى (ط) فقومتها من (ك).

(٣) من (ك) وهى ساقطة من المطبوعة.

وَمَمَاتُهُم﴾، أي: كما كانوا في الحياة، كذلك يكونون بعد الوفاة. ثم عقب ذلك بذكر عدله في خلقه فقال: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية:٢٢] فكان هذا فصل الخطاب، وتذكار أُولي الألباب.

وقال في معناه، وأمر بتدبّر كلامه، وأمر بتذكّر العقلاء عن خطابه، فقال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩] هل يتدبرون فيجدون أنّا نجعل المفسدين كالمصلحين، أم نجعل المتقين كالفاسقين؟ وهو قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨]. فالتدبّر: التفهّم. والتذكّر: التقوى والعمل.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «مَنْ أحبَّ أن يعلمَ منزلتَهُ عندَ الله عزّ وجلّ فلينظر كيف منزلةُ الله تعالى من قلبه، فإن الله عزّ وجلّ يُنزل العبدَ عندَه من حيث أنزله العبدُ من نفسه»(١).

فإذا نام العبد على طهارة وذكر، وعن مثل هذه المشاهدة والفكر، فإنّ مضطجعه يكون مسجدًا، وإنّه يُكتب مُصلّيًا حتى يستيقظ، ويدخل في شعاره مَلَك، فإن تحرك في نومه فذكر الله عزّ وجلّ دعا له الملك واستغفر له(٢).

وفي الخبر: «إذا نام العبدُ على طهارة عُرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة»(٣). وإن لم ينم على طهارة قَصُرت روحه عن البُلوغ، فتلك المنامات

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق ٢/ ٢٨٩.

(٢) يقول صاحب العوارف (ص ٣٣٦): «فإذا استيقظ العبد من النوم فمن أحسن الأدب عند الانتباه أن يذهب بباطنه إلى الله، ويصرف فكره إلى أمر الله، قبل أن يجول الفكر في شيء سوى الله، ويشغل اللسان بالذكر... والعبد إذا انتبه من النوم فباطنه عائد إلى طهارة الفطرة، فلا يدع الباطن يتغير بغير ذكر الله تعالى، حتى لا يذهب عنه نور الفطرة الذي انتبه عليه، ويكون فارًا إلى ربّه بباطنه خوفًا من ذكر الأغيار».

(٣) هذا الحديث ذكره أبو طالب بمعناه، وهو بلفظ مختلف في مستدرك الحاكم ٤/ ٣٩٦ ـ ٣٩٧، وتعقبه العراقي وقال: «من حديث علي وسنده ضعيف».

أضغاثُ أحلامٍ لا تُصدَّق.

فإن غلبه النوم حتى يصبح حُسِب له قيام ليلة، وكان نومه عليه صدقة، ومَن كان هذا وَصْفه فى منامه يسبق كثيرًا من العبادِ فى قيامهم عن شهودِ غفلةٍ وسهوٍ.

وقد روينا فى خبر: «نوم العالِم عبادةٌ، ونَفَسُهُ تَسْبِيحٌ»(١).

● ذكر ما يستحب من القول عند القيام إلى التهجد:

فإذا قام من الليل متهجدًا فليقل: الحمدُ للهِ الذى أحيانى بعد إذ توفّانى وإليه النشور. وليقرأ العَشر الأواخر من سورة آل عمران، وليستك وليتوضأ، ويقول: سُبحانَك وبحمدِك لا إله إلا أنت، أستغفرُك وأسألك التوبةَ، فاغفرْ لى وتُب علىَّ، إنك أنتَ التوّاب الرحيم. اللهم اجعَلْنى من التوّابين، واجْعلنى من المتطهرين، واجعلنى صبورًا شكورًا، واجعلنى أذكرك كثيرًا وأسبِّحك بُكرة وأصيلاً.

ثم يرفع رأسه إلى السماء فيقول: أشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله، وأعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سَخَطك، وأعوذ بكَ منك، لا أُحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، أنا عبدك ابنُ عبدك، ناصيتى بيدك، جارٍ فىَّ حكمك، عدلٌ فىَّ قضاؤك، هذه يدى بما كسبَت، وهذه نفسى بما اجْترحتْ، لا إله إلا أنتَ سبحانك إنّى كنتُ من الظّالمين، عملتُ سوءًا وظلمتُ نفسى، فاغفر لى ذنبى إنك أنت ربّى إنّه لا يغفر الذنوب إلا أنت. فلا إله إلا أنت، لا إله إلا أنت.

فإذا قام إلى الصلاة متوجهًا فليقل: اللهُ أكبر كبيرًا، والحمدُ لله كثيرًا، وسبحان الله بكرةً وأصيلاً.

ثم ليسبِّح عشرًا، وليحمد عشرًا، وليهلّل عشرًا، وليكبِّر عشرًا، وليقل: اللهُ أكبر ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والجلال والعظمة والقدرة.

---

(١) المعروف فيه «نوم الصائم . . .» كما قال العراقى، رواه أبو نعيم من حديث ابن مسعود فى الحلية ٥/٨٣، وانظر: الأسرار المرفوعة، لعلى القارى، ص٣٧٤.

وليقل هذه الكلمات، فإنها مأثورة عن رسول الله ﷺ فى قيامه للتهجُّد: اللهم لك الحمدُ أنت نورُ السموات والأرض، ولك الحمدُ أنت بهاءُ السموات والأرض، ولك الحمدُ أنتَ نورُ السموات والأرض، ولك الحمدُ أنت زَينُ السموات والأرض، ولك الحمد أنت قيّامُ السموات والأرض ومَن فيهنّ ومَن عليهنّ، أنت الحقّ، ومنك الحقّ، ولقاؤك حقٌّ، والجنة حقٌّ، والنّار حقٌّ، والنبيون حقٌّ، ومحمد ﷺ حقٌّ.

اللهم لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكلتُ، وبكَ خاصمتُ، وإليك حاكمتُ، فاغفر اللهم يا ربّ لى ما قدّمتُ وما أخّرتُ، وما أسْررتُ وما أعلَنتُ، أنت المقدِّم وأنتَ المؤخِّر، لا إله إلا أنت.

اللهم آتِ نفسى تَقْواها، اللهم زكِّها أنت خيرُ من زكاها، أنت وليُّها ومولاها.

اللهم اهدنى لأحسن الأعمال لا يهدى لأحسنها إلا أنت، واصرف عنّى سيّئها لا يصرف عنى سيّئها إلا أنت.

أسألك مسألةَ البائس المسكين، وأدعوك دعاءَ المفتقرِ الذليل، فلا تجعلنى بدعائك ربِّ شَقيًا، وكن بى رءوفًا رحيمًا، يا خيرَ المسؤولين، ويا أكرمَ المُعْطين.

ويستحبّ أن يفتتح صلاته بركعتين خفيفتين. ويُستحب له أن لا يأكل شيئًا ولا يشرب ماء حتى يقضى نَهْمَتَهُ(١) من صلاته، فإنّ العبَد إذا استيقظ من نومه يكون جامَّ(٢) القلبِ، فارغَ الهمّ؛ فإذا أكَل أو شرِب تغيّر قلبه عن هيئته، فليؤخر أكلَه وليقدِّم صلاته(٣)، إلا أن يخاف أن يَفْجَأه الفجرُ إن لم يتسحّر أو يشرب، فليبدأ حينئذ بذلك.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

❊ ❊ ❊

(١) فى (ط): «همته» والصوابُ ما أثبت من (ك). والنَّهْمة: الحاجة وبلوغ الهِمَّة والشهوة فى الشىء.
(٢) جامّ القلب: مجتمعه غير مشتت.
(٣) فى (ط): «فليغيب أكله إلا»، وأثبت ما فى (ك).

الفصل الرابع عشر

فى ذكر تقسيم قيام الليل ونومه ووصف القائمين والمتهجدين

قد قَرَن الله سبحانه وتعالى قوَّام الليل برسوله المصطفى، وجمعهم معه فى شُكر المعاملة وحُسن الجزاء، فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل: ٢٠]. وقد أخبر الله سبحانه أنّ قراءةَ الليل أشدُّ وطئًا للقلب، وأقومُ قيلاً للحفظ والذكر، أى: يواطئ القلبُ اللسانَ بالفهمِ والحفظِ.

وقد سمى الله تعالى أهلَ الليل علماءَ، وجعلهم أهلَ الخوف والرجاء، وأخفى لهم قُرَّةَ العينِ من الجَزَاء فقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾، ثم قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وهذا من المحذوف ضدّه لدلالة الكلام عليه، والمعنى: أمّن هو هكذا عالمٌ قانت مطيع، لا يستوى مع من هو غافلٌ نائمٌ ليله أجمع، فهو غير عالم بما يحذر، وبما يرجو من ربه عزّ وجلّ.

وقال عزّ وجلّ فى وصفهم فى الدنيا، ووصف ما أعدّ لهم فى الآخرة: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤]، [وقال:] ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، أى: تنبو عن الفراش، فلا تطمئن، لما فيها من خوف الوعيد ورجاء الموعود. ثم قال: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. قيل: كان عملُهم قيامَ الليل. وقيل: بل كانوا أهلَ خوف ورجاء.

وهذان من أعمالِ القلوب عن مشاهدة الغيوب، فلمّا أخفوا له الإخلاص بأعمال السرائر أخفى لهم من الجزاء نفيس الذّخائر، ولا تقرُّ أعين هؤلاء المحبين

إلا بوجهه، كما لم يعملوا إلا لوجه الله تعالى.

وقال بعض العلماء فى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ قال: هى صلاة الليل استعينوا بها على مجاهدة النفس ومصابرة العدوّ. ثم قال: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] يعنى الخائفين المتواضعين، لا تثقل عليهم ولا تجفو بل تخِفُّ وتَحْلُو.

وفى الخبر: «قيل: يا رسول الله، إن فلانًا يصلى من الليل فإذا أصبح سرق. فقال: سينهاه ما تقول»(١). وقال ﷺ: «نِعْمَ الرجل عبد الله بن عمر لو كان يصلّى من الليل»(٢). قال: فما فاته بعد ذلك ليلة حتى يقوم فيها. وفى الخبر: «عليكم بقيام الليل، فإنّه مرضاة لربكم، ومكفِّر سيّئاتكم، وهو دأبُ الصّالحين قبلكم، ومنهاةٌ عن الإثم، وملقاة للوزر، ومذهبة لكيد الشيطان، ومَطْرَدة للدّاء عن الجسد»(٣).

وقد جعل الله سبحانه قيامَ الليلِ من أوصاف الصالحين بقوله: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣ ـ ١١٤].

فيُستحب من قيام الليل ثلثاه، وأقل الاستحباب من القيام سدسه، لأنا روينا أن النبى ﷺ: «لم يقم ليلةً قط حتى أصبح بل كان ينام منها، ولم ينم ليلة حتى يصبح بل كان يقوم منها»(٤).

---

(١) فى مسند أحمد ٢/ ٤٤٧ من حديث أبى هريرة، والطحاوى فى مشكل الآثار ٢/ ٤٣٠، وإسناده صحيح، وانظر: الضعيفة ١/ ٥٨.

(٢) متفق عليه، فتح البارى ٧/ ٩٧، من حديث ابن عمر عن حفصة، والمسند ٢/ ١٤٦.

(٣) إلى قوله «ومنهاة عن الإثم» فى الترمذى، كتاب الدعوات، من حديث أبى أمامة. وفى صحيح سنن الترمذى رقم ٢٨١٤ مع اختلاف طفيف فى الألفاظ. وهو بروايات أخرى فى كتب السنة، انظر: كنز العمال، رقم ٢١٤٠٩، ٢١٤٢٨، ٢١٤٢٩.

(٤) لا يوجد بلفظه تمامًا، وورد جزء منه فى حديث صحيح طويل فى سنن أبى داود بلفظ: «ولم يقم رسول الله ﷺ ليلة يتمها إلى الصباح» فى كتاب الصلاة، باب فى صلاة الليل، رقم: ٣١٧. وهو فى صحيح أبى داود برقم: ١١٩٣.

ويقال: إن الصلاةَ أوّل الليل للمتهجدين، وقيام أوسطِه للقانتين، وقيام آخره للمصلين، والقيام من الفجر للغافلين.

وحدثنا عن عبد الله بن عمر قال: حدثنا يوسف بن مهران قال: بلغنى أنّ تحت العرش مَلَكًا فى صورة ديك، براثنه من لؤلؤ، وصئصئتاه[١] من زبرجد أخضر، فإذا مضى نصف الليل الأوّل ضرب بجناحه وزَقَى[٢]، وقال: ليقم القائمون. فإذا مضى نصفُ الليلِ ضرب بجناحه وزَقَى، وقال: ليقم المتهجّدون. فإذا مضى ثُلث الليلِ ضرب بجناحه وزقى، وقال: ليقم المصلون. فإذا طلع الفجر ضربَ بجناحهِ وزَقَى، وقال: ليقم الغافلون وعليهم أوزارُهم.

وقال بعض العلماء[٣]: أهلُ الليلِ على ثلاثة أصناف: قوم قَطعَهُم الليلُ، فكان هؤلاء المريدون ذوو الأوراد والأجزاء، كابدوا الليل فغلبَهُم. قال: وقوم قطعُوا الليل، فكان هؤلاء العاملون[٤] الذين صبروا، وصابروا الليلَ فغلبوه. قال: وقوم قَطَع بهم الليل، فكان هؤلاء المحبون.

والعلماء أهل الفكر والمحادثة، وأهل الأنس والمجالسة، وأهل الذكر والمناجاة، وأهل التملّق[٥] والملاقاة، نغّصَ عليهم الليلُ حالَهم، وقصَّر النعيمُ عليهم ليلهم، ورفع الحبيبُ عنهم نومهم، وخفَّف الفهمُ عليهم قيامَهم، وأذهب مزيدُ الوصل عنهم مللَهم، وأوصل العتابُ بهم[٦] سهرَهم.

وقيل لبعض أهل الليل: كيف أنت والليل؟ فقال: ما راعيته[٧] قط، يرينى وجهه ثم ينصرف وما تأملته.

---

(١) البراثن: الكف مع الأصابع. والصئصئ: الأصل.

(٢) زقى: صاح.

(٣) الأقوال التالية نقلها صاحب الإتحاف، انظر: ٥/ ١٩٦ ـ ١٩٨.

(٤) فى المطبوعة: «العالمون» وأثبت ما فى المخطوطة والإتحاف.

(٥) فى الإتحاف: «التخلق».

(٦) فى المطبوعة: «لهم» وأثبت ما فى المخطوطة والإتحاف.

(٧) فى المطبوعة: «ما رعيته» وأثبت ما فى (ك)، والإتحاف: ٥/ ١٩٦، والعوارف: ص٣٢٦.

وقال آخر: أنا والليل فرسا رهانٍ، مرة يسبقنى إلى الفجر، ومرة يقطعنى عن الفكر.

وقيل لبعضهم: كيف الليلُ عليك؟ فقال: هو ساعة؛ أنا فيها بين حالين: أفرح بظلمته إذا جاء، وأغتم بفجره إذا طلع، ما تمّ فرحى به قط، ولا اشتفيتُ منه قط[1].

وقيل لبعض المحبين: كيف الليل عليك؟ فقال: والله ما أدرى كيف أنا فيه! إلا أنا بين نظرة ووقفة، يقبل بظلامه فأتدرَّعه، ثم يُسْفِرُ قبل أن أتلبَّسُه، ثم أنشد:

لم أستَتِمّ عناقَه لقُدومهِ ... حتّى بدا تسليمُه لِوَداعِ[2]

وقال بعضهم:

وَزَارنى طَيْفُـك حتّى إذا ... أرادَ أن يَمْضى تَعلّقْتُ بِه

فَليتَ لَيلى لم يَزَل سَرْمَـدًا ... والصُّبحَ لم أَنظرْ إلى كَوْكَبِه

وشكا بعضُ المريدين إلى أستاذه طولَ سهره بالليل، وأن السَّهر قد أضرَّ بِه. ثم قال: أخبرنى بشىءٍ أجتلبُ به النَّومَ. فقال له أستاذُه: يا بُنَىّ إن لله نفحاتٍ فى الليل والنهار تصيبُ القلوبَ المتيقظةَ، وتخطئ القلوبَ النّائمة، فتعرَّضْ لتلك النفحات، ففيها الخير. فقال: يا أستاذ تركتنى لا أنامُ بالليل ولا بالنّهار[3].

وتذاكَر قومٌ قِصرَ الليلِ عليهم، فقال بعضهم: أما أنا فإنّ الليل يزورنى قائمًا ثم ينصرف قبل أن أجلس.

وقال على بن بكار: منذ أربعين سنة ما أحزننى شىء إلا طلوعَ الفجر.

وقال الفضيل بن عِياض: إذا غَرَبت الشّمس فرِحتُ بدُخول الظّلام لخلوتى فيه بربى، فإذا طلع الفجر حزنت لدُخول الناس علىَّ.

---

(١) فى الإتحاف: ٥/١٩٦ نصّ على لفظ القوت وهو: «ولا استشفيت فيه قط».

(٢) الخبر والبيت فى الإتحاف: ٥/١٩٦.

(٣) فى الإتحاف: ٥/١٩٧.

وقال أبو سليمان: أهل الليل فى ليلهم ألذُّ من أهل اللهو فى لهوِهم، ولولا الليل ما أحببتُ البقاءَ فى الدّنيا.

وقال أيضًا: لو عوّض اللهُ عزّ وجلّ أهلَ الليل من ثوابِ أعمالهم ما يجدونَه فى قلوبهم من اللّذّة لكان ذلك أكثر[١] من أعمالهم.

وقال بعض العلماء: ليس فى الدنيا وقتٌ يشبه نعيمَ أهل الجنة إلا ما يجده أهلُ التملّقِ فى قلوبهم بالليل من حلاوةِ المناجاة[٢].

وقال بعضهم: قيامُ الليل، والتملّقُ للحبيب، والمناجاةُ للقريب فى الدنيا، ليس من الدنيا، هو من الجنّة أُظهر لأهل الله تعالى فى الدنيا، لا يعرفه إلا هُمْ، ولا يجده سواهم رَوَحًا لقلوبهم.

وقال عتبة الغلام: كابدتُ الليلَ عشرين سنة، ثم تنعّمت به عِشرين سنة.

وقال يوسف بن أسباط[٣]: قيامُ ليلةٍ أسهل علىَّ من عَمل قُفّةٍ، وكان يعمل كلَّ يومٍ عَشْرَ قفافٍ.

وقال غيره: ما رأيتُ أعجبَ من الليلِ، إذا اضطربتَ تحته غَلَبك، وإن ثَبَتَّ له لَم يَقِف.

وبكى عامرُ بن عبد الله[٤] حين حضرته الوفاةُ، فقيل له فى ذلك، فقال: والله ما أبكى حبًا للبقاء، ولكن ذكرتُ ظمأ الهواجرِ فى الصّيف، وقيامَ الليلِ فى الشتاء.

---

(١) فى المطبوعة: «أكبر» وأثبت ما فى الإتحاف ٥/ ١٩٧.

(٢) بعده فى عوارف المعارف والخبر فيه تامًا، ص٣٢٦: «فحلاوة المناجاة ثوابٌ عاجل لأهل الليل».

(٣) الشيبانى، الزاهد الواعظ، يروى عن سفيان الثورى وغيره، وثقه يحيى بن معين. ميزان الاعتدال ٢/ ٣٢٨.

(٤) ابن عبد قيس، من رجال الحلية: ٢/ ٨٧ ـ ٩٤، وهو من بنى العنبر، وأول من عُرف بالنّسك واشتهر من عبَّاد التابعين بالبصرة، وكان ممن تخرّج على أبى موسى الأشعرى فى النسك والتعبد، ومنه تلقى القرآن. والخبر الذى بين أيدينا فى الحلية ٢/ ٨٨.

وقال ابنُ المنكدر[١]: ما بقى من لذات الدنيا إلا ثلاث: قيامُ الليل، ولقاءُ الإخوان، والصلاة فى جماعة.

وقال بعضُ العارفين: إن الله عزّ وجلّ ينظر بالأسحار إلى قلوب المتيقظين فيملؤها أنوارًا، فتَرِدُ الفوائدُ على قلوبهم فتستنير، ثم تنشر من قلوبهم العُوَافى[٢] إلى قلوب الغافلين.

وقال بعض العلماء: إنّ الله عزّ وجلّ ينظر إلى الجنانِ عند السَّحر نظرةً، فتُشرق وتُضىء، وتَهتزّ وتَربو، وتَزْداد جمالاً وحسنًا وطيبًا ألفَ ألف ضعفٍ فى جميع معانيها. ثم تقول: قد أفلحَ المؤمنونَ. فيقول الله عزّ وجلّ: هنيئًا لكِ منازلَ الملوك! وعزّتى وجَلالى و[عُلوىّ فى] ارتفاعِ مكانى، لا أُسكنكِ جبّارًا ولا بَخيلاً ولا مُتكبّرًا ولا فَخُورًا. وينظرُ [سبحانه] إلى العَرْش نظرةً فيتسع ألفَ ألف سعةٍ، ويزداد بكل تَوْسعة ألف ألف عالم، منها كلّ عالم لا يعلم وسعه إلا الله عزّ وجلّ، ثم يهتزّ فيثقل على الحَمَلَة حتى يموج بعضهم فى بعض، ويَحْطُم بعضهم بعضًا، وهُم بعدَد جميعِ ما خلق الله عزّ وجلّ، وأضعاف ما خلق الله عزّ وجلّ، فيقول العرش: سبحانك أينما كنت وأينما تكون. فينادى حَمَلَةُ العرشِ: سبحان من لا يعلم أين هو إلا هو، سبحان مَنْ لا يعلم ما هو إلا هو.

وروينا عن بعض العلماء من القدماء أن الله عزّ وجلّ أوحى إلى بعض الصّديقين: إن لى عبادًا من عبادى يحبوننى وأحبهم، ويشتاقون إلىّ وأشتاقُ إليهم، ويذكروننى وأذكرهم، وينظرون إلىّ وأنظر إليهم. فإن حذوتَ طريقهم أحببتُك، وإن عدلتَ عنهم مَقتُّك.

---

(١) هو محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير التيمى، كان من معادن الصدق، توفى ١٣٠هـ، روى عن أبيه وعائشة وأبى هريرة، وعنه شعبة ومالك. انظر: الكاشف ٣/ ١٠٠، والإتحاف ٥/ ١٩٧.

(٢) هكذا، وقد وردت فى الإحياء ١/ ٣٥٨ والإتحاف ٥/ ١٩٧ ولم يفسّرها، وفى اللسان (عوف): «والعُواف والعُوافة: ما ظَفِرْتَ به ليلاً. ويقال: كل من ظفر بالليل بشىء، فذلك الشىء عوافته». وعلى هذا فمعناها هنا: «تنتشر من هذه القلوب الأنوار التى ظفرت بها ليلاً من العبادة وقيام الليل إلى قلوب الغافلين». وفى العوارف (ص٣٢٦): «الفوائد».

قال: يا ربّ وما علامتهم؟

قال: يراعون الظِّلال[١] بالنّهار كما يراعى الراعى الشّفيقُ غنمَه، ويحنُّون إلى غروب الشمس كما تحنّ الطيور إلى أوكارها عند الغروب. فإذا جنَّهم اللّيل، واختلط الظلام، وفُرِشت الفرش، ونُصبت الأسِرَّة، وخلا كلُّ حبيب بحبيبه، نصبوا لى أقدامهم، وافترشوا إلىَّ وجوههم، وناجَوْنى بكلامى، وتملَّقوا إلىَّ بإنعامى. فبين صارخٍ وباكٍ، ومتأوِّه وشاكٍ، وبين قائم وقاعد، وبين راكع وساجد، بعينى ما يتحملون لأجلى، وبسمعى ما يشتكون من حبّى. أوّل ما أعطيهم أقذف من نورى فى قلوبهم، فيخبرون عنِّى كما أخبر عنهم. والثانية: لو كانت السموات السّبع والأرض وما فيهما فى موازينهم لاستَقْلَلْتُها لهم. والثالثة: أقبل بوجهى عليهم. أفَترى مَن أقبلتُ بوجهى عليه يعلم أحدٌ [ما أريد به و][٢] ما أريد أن أعطيه.

وقال مالكُ بنُ دينار[٣]: إذا قام العبدُ يتهجّد من الليل ورتّل القرآنَ كما أُمر، قَرُب الجَبَّار تعالى منه. قال: وكانوا يَرَوْن أن ما يجدون فى قُلوبهم من الرّقة والحَلاوَة والفُتوح والأنوار من قُرْبِ الرَّبِّ تعالى من القَلْب.

وفى الأخبار عن الجبّار عزّ وجلّ: أى عبدى، أنا الله الذى اقتربتُ لقلبك، وبالغيب رأيتَ نورى.

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ: «ما أذن الله لشىءٍ إذْنه [إلى] حسن الصّوتِ

(١) فى (ط): «الظلام» وهو خطأ صوابه من (ك) والإتحاف ٥/١٩٧.

(٢) ساقطة من المطبوعة والتكملة من (ك)، وعلّق عليه صاحب عوارف المعارف (ص٣٢٧) فقال: «فالصّادق المريد إذا خلا فى ليلة بمناجاة ربِّه، انتشرت أنوارُ ليله على جميع أجزاء نهاره، ويصير نهارُه فى حماية ليله، وذلك لامتلاء قلبه بالأنوار، فتكون حركاته وتصاريفه بالنهار تصدر من منبع الأنوار المجتمعة من الليل، ويصير قالبُه فى قُبَّة من قباب الحقّ، مُسَدَّدًا حركاتُه، موفَّرةً سكناتُه».

(٣) هو أبو يحيى الناجى السامى البصرى، روى عن أنس بن مالك وعن جلّة من التابعين منهم الحسن وابن سيرين وغيرهما، له ترجمة مطولة فى الحلية ٢/٣٥٧ ـ ٣٨٩، وكان أبوه من سبى سجستان، وقيل كابل، وثقه النسائى، مات سنة ١٢٣هـ.

بالقرآن»[١]. يعنى ما استمع إلى شىء كاستماعه إليه.

وفى الحديث الآخر: «للهُ أشدُّ أُذنًا إلى قارئ القرآن من صاحب القَيْنة إلى قَينته»[٢].

وأهلُ اللهو فى غفلة عمّا أهل الآخرة فيه، وفى عمًى عمّا ينظر هؤلاء الحاضرون إليه، ﴿**وكأيِّن من آية فى السَّموات والأرض يَمُرُّون علَيها وهُمْ عَنها مُعْرِضُون**﴾ [يوسف:١٠٥]، ﴿**بَلْ قُلُوبُهُم فى غَمْرَةٍ من هَذا**﴾ [المؤمنون:٦٣]، ﴿**ونَطْبعُ على قُلُوبِهم فَهُم لا يَسْمَعُون**﴾ [الأعراف:١٠٠].

يقال: إنّ وهب بن منبِّه اليمانى[٣] ما وضع جنبه إلى الأرضِ ثلاثينَ سنةً، كانت له مَسْوَرَة من أَدَم إذا غَلَبه النّوم وضَع صَدْره عليها، وخَفَق خفقات، ثم يفزع إلى القيام. وكان يقول: لأن أرى فى بيتى شيطانًا أحبُّ إلىَّ من أن أرى فيه وسادة. يعنى لأنّها تدعو إلى النّوم.

وقال رَقَبَة بن مَسْقَلة[٤]: رأيتُ ربَّ العزةِ تعالى فى النّوم، فسمعتُه يقول: وعزّتى وجَلالى لأكرمنَّ مَثْوى سُليمان التَّيمى، فإنّه صلّى الغداةَ بوُضوء العشاء الآخرة أربعينَ سنة. ويقال: إنه كان مذهبه أن النوم إذا خامر القلبَ وجبَ الوُضوء.

• ذكر من روى عنه أنه أحيا الليل كله:

ومَن اشتُهِر بإحياء الليلِ كلِّه، وصلّى الغداةَ بُوضوءِ العِشاء الآخرةِ أربعين سنةً أو ثلاثين سنة، حتى نقل عنه ذلك أربعونَ من التّابعين، منهم: سعيدُ بنُ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تحسين الصوت، رقم ٢٣٣، ولفظه: «ما أذن اللهُ لشىءٍ ما أذن لنبىٍّ حَسَن الصَّوت، يتغنى بالقرآن، يجهر به»، وأخرجه البخارى فى كتاب التوحيد، وكتاب فضائل القرآن، وهو فى كثير من كتب السنن.

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة (١٧٦) باب فى حسن الصوت، وهو فى ضعيف ابن ماجه رقم ٢٨٢، والسلسلة الضعيفة رقم ٢٩٥١، ولفظة ثمَّ: «... إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن...» وانظر: الإتحاف ٤/٤٩٧، والمسند ٦/١٩ ـ ٢٠.

(٣) يكنى بأبى عبد الله، وفى صفة الصفوة ٢/٢٩٦: روى عن معاذ، وأبى هريرة... ومات بصنعاء سنة ١١٤ هـ، وله ترجمة مطولة جدًا فى الحلية ٤/٢٣ ـ ٨١.

(٤) فى الحلية ٣/٣٢: «مصقلة» بالصاد، وفيه هذا الخبر.

المسيّب[1]، وصفوان بن سليم[2]، المدنيّان. وفضيلُ بنُ عِياض[3]، ووَهيب بن الورد[4]، المكّيّان. وطاووس[5]، ووَهْب بن منبه، اليَمانيّان. والرّبيع بن خَيْثم، والحَكَم بن عُيَينة[6]، الكُوفيان. وأبو سُلَيمان الدّاراني، وعلى بن بكار، الشاميان. وأبو عبد الله الخوّاص، وأبو عاصم، العباديان. وحبيب أبو محمد، وأبو جابر السَّلماني، الفارسيان. ومالك بن دينار، وسُليمان التّيمى، ويزيد الرّقاشى، وحبيب ابن أبى ثابت، ويحيى البكاء، البصريون. وكَهْمس بن المِنْهال، وكان يختم فى الشهر تسعين ختمة، وما لم يفهم رجَع فقرأه مرة أخرى. وأيضًا من أهل المدينة: أبو حازم، ومحمد بن المنكدر، فى جماعة يكثر عددهم. هؤلاء المشهورون منهم.

فإن أحبّ المريد نام ثُلثَ الليلِ الأول، وقام نصفَه، ونام سُدُسَه الأخير، وإن أراد نام نصف الليل، وقام ثُلثه، ونام سدسه [الآخر]. فقد رُوى أنّ هذا من أفضل القيام، وأنه كان قيام نبى الله عزّ وجلّ داود عليه السلام، جاء ذلك فى روايتين.

وإن أحبَّ العبدُ قدّم القيامَ فيهما، وأخَّر وِتره إلى السَّحَر، فإنْ قام نصفَ الليل قسَّم نومه فى أوّل الليل وآخره، فإن قام ثُلث الليلِ نام سدسه الأخير، وإن اختار أن يقوم من أوّل الليل حتى يغلبه النوم، ثم ينام، ثم يقوم متى استيقظ، ثم ينام

(١) هو أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن، سيد التابعين، ولد لسنتين مضتا لخلافة عمر رضى الله عنه، وكل أعلم أهل المدينة بالحلال والحرام، توفى سنة ٩٤هـ وهو ابن خمس وسبعين سنة. الحلية ٢/ ١٦١ ـ ١٧٥.

(٢) أبو عبد الله القرشى الزهرى، ثقة، كثير الحديث، عابد. قال يحيى بن سعيد: هو رجل يستسقى بحديثه، وينزل المطر من السماء بذكره. الحلية ٣/ ١٥٨ ـ ١٦٥.

(٣) ولد بسمرقند، ونشأ بأبيورد، وكتب الحديث بالكوفة، وسكن مكة ومات بها سنة ١٨٧هـ، روى له الجماعة إلا ابن ماجه، ترجمته فى الحلية ٨/ ٨٤ ـ ١٣٩.

(٤) هو أبو عثمان المكى، ثقة، توفى سنة ١٥٣هـ، ترجمته فى الحلية ٨/ ١٤٠ ـ ١٦١.

(٥) هو طاووس بن كيسان، أبو عبد الرحمن، أدرك خمسين من الصحابة وعلمائهم، ترجمته فى الحلية ٤/ ٣ ـ ٢٣.

(٦) روى له الجماعة، ولد سنة ٥٠ هـ ومات سنة ١١٣ هـ. الإتحاف ٥/ ١٩٩، وانظر بقية ترجمة هؤلاء فى الإتحاف.

متى غلبه النوم، ثم يقوم آخر الليل، فيكون له فى الليل نومتان وقومتان، فهذا من مُكابدة الليل، وهو من [أفضلِ القيام و][1] أشدِّ الأعمال، وهذه طريقةُ أهلِ الحضور واليقظَة، وأهلِ الأفكار[2] والتذكرة. وقد كان هذا من أخلاق رسول الله ﷺ. قال أنس بن مالك: ما كنت تريد أن ترى رسولَ الله ﷺ نائمًا إلا رأيتَهُ، ولا كنتَ تُريد أن تراه قائمًا إلا رأيتَهُ. وكان هذا مذهب ابنِ عمر وأُولى العَزْم من الصّحابة فى قيام الليل، وفَعَله جماعةٌ من التابعين.

وقد رأينا من كان له فى الليل قومات ونومات فى تضاعيف ذلك. فأمّا أن يكونَ المنامُ والقيامُ موزونًا عدلاً، فليس ذلك إلا لنبىٍّ بقلبٍ دائم اليقظة، وبوَحى من الله عزّ وجلّ، ولا يسلك هذا الطريق [ولا يُطاق عليه][3] إلا بأسبابٍ هى زادُه؛ لأن كلَّ طريقٍ يُقطع بزادٍ مثله. فمَنْ أراده احتقَب وأخذ من زاده، فالأسباب: أحدها: همٌّ يلزم القلبَ، وحُزْنٌ يسكن فيه، أو يقظةٌ دائمةٌ يحيا بها القلبُ، وفكرٌ فى الملكوتِ متّصلٌ، وخلوُّ المعدة من الطعامِ، وقلةُ الشُّرب[4]، وأن يَقِيلَ بالنّهار، ولا يُكثر تعبَ جوارحِه فى أمر الدنيا[5].

فهذه رياضة المريد إلى أن يألف القيام، وليستوطن حينئذ، فيتجافى جنبه لما فى قلبه من الخوف والرجاء الذى قد استكنّ فيه.

وروى عن الله سبحانه وتعالى: «إن عبدى الذى هو عبدى حقًا، الذى لا ينتظر بقيامه صياحَ الدِّيك». ففى هذا حثٌّ على القيام قبل السَّحَر.

---

(١) زيادة من (ك).

(٢) فى (ط): «التذكار» وأثبت ما فى (ك).

(٣) زيادة من (ك).

(٤) فى (ك): «وقلّة شرب الماء».

(٥) وذكر صاحب العوارف (ص ٣٢٩) أسبابًا أخرى تعين على قيام الليل، من ذلك: «أن يستقبل العبدُ الليلَ عند غروب الشمس بتجديد الوضوء، ويقعد مستقبل القبلة منتظرًا مجىء الليل وصلاة المغرب، مقيمًا فى ذلك على أنواع الأذكار. وأن يواصل بين العشاءين بالصلاة أو بالتلاوة أو بالذكر؛ فإن ذلك يغسل عن باطنه آثار الكدورة الحادثة فى أوقات النهار. . . ومن ذلك ترك الحديث بعد العشاء الآخرة، فإن الحديث فى ذلك الوقت يذهب طراوة النور الحادث فى القلب من مواصلة العشاءين. . .».

ونومُ آخرِ الليل نستحبّه لمعنيين: أحدُهما: أنه يَذهب بالنّعاس بالغَدَاة، وقد كانوا يكرهون النعاس[١] بالغداة، ويأمرون النّاعسَ بعد صلاةِ الصُّبح بالنّوم، [وورد فيه الكراهية][٢]. والمعنى الثانى: أنه يُقلّ صُفْرَةَ الوجه [لأنَّ نعسَ الغداة واصفرار الوجه يكون من سهر آخر الليل][٣]، فلو قام العبدُ أكثرَ الليلِ ونامَ سحَرًا، ذَهب نعاسه بالغداة وقلّت صُفرةُ وجهِه. ولو نام أكثرَ الليل وسهر من السّحر، جلب عليه النعاسَ بالغداة وصفرةَ الوجه.

فليتقِ العبد ذلك؛ فإنّه باب غامض من الشُّهرة، والشَّهوة الخفيّة [به]، وليُقلّ شُربَ الماء بالليل، فقد يكون منه الصّفرة، سيّما فى آخر الليل، وبعد الانتباه من النوم.

وقالت عائشة رضى الله عنها: «كان رسولُ الله ﷺ إذا أوتر من آخر الليل فإن كانت له حاجة إلى أهلِه دنا منهنّ، وإلا اضطجع فى مصلاه حتى يأتيه بلال، فيُؤذنه بالصَّلاة»[٤].

وقالت أيضًا: «ما ألفيتُه فى السَّحَرِ الأعلى إلا نائمًا»[٥]، تعنى رسول الله ﷺ. وفى الخبر الآخر: «كان النبى ﷺ إذا أوتر من آخرِ اللّيل اضطجع على شِقّه الأيمنِ ضجعةً حتى يأتيه بلالٌ، فيخرج معه إلى الصلاة».

فقد كان السّلف يستحبون هذه الضّجعة بعد الوتر، وقبل صلاةِ الصبح، حتى قال بعضهم: هى سُنَّة، منهم: أبو هريرة وغيره[٦].

والنّومُ من آخرِ الليلِ وفى الثّلث الأخيرِ مزيد لأهل المشاهدةِ والحضور؛ لأنّه

(١) فى (ك): «التنعّس».

(٢) زيادة من (ك).

(٣) زيادة من (ك) والعبارة قبلها فيه: «والوجه الثانى: أنه يبقى لون الوجه على حاله».

(٤) هذا بمعناه، وأصله فى مسلم من عدة روايات، كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الليل، رقم ٧٣٩، وانظر رقم ٧٣٦.

(٥) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، رقم ٧٤٢، ولفظه: «ما ألفى رسول الله ﷺ السحرَ الأعلى فى بيتى أو عندى إلا نائمًا».

(٦) فى (ط): «ومروان» وأثبت ما فى (ك).

كَشْف له عن الملكوت، واستماع [إلى][(١)] العلوم من الجبروت[(٢)]، وهو راحةٌ وسكَن للعمّالِ وأهلِ المجاهدة. ولذلك حُظِرت الصّلاة بعد طلوع[(٣)] الفجر، وبعد صلاة العصر؛ ليستريح عمالُ الله عزّ وجلّ وأهلُ أورادِ الليل والنّهار فيهما.

والنوم من آخر الليل هو نُقصان لأهلِ السّهو والغَفْلة، من حيث كان مزيدًا لأهلِ الشهود واليقظة؛ لأنّه آخرُ خدمةِ أولئك، ففيه راحتُهم، وهو تطاول النومِ والغفلةِ بهؤلاء، فهو نَقْصُهم.

وليَفْصِل العبدُ فى تضاعيفِ صلاةِ الليل بجُلوسٍ يُسبِّح فيه مائة تسبيحة، فذلك ترويحٌ له، وعونٌ على الصّلاة، وهو داخل فى قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ**﴾ [ق: ٤٠] أى أعقاب الصّلاة، فى أحد الوجهين على قراءة مَنْ نَصَب.

وإن أرادَ المزيدَ أحيا الوِردَيْن اللّذين من أوّلِ الليل؛ أحدهما: بين العشاءين. والثانى: قبل نومةِ الناس. فإن إحياءَ هذين الوردين عند بعض العلماء أفضلُ من صيام يوم، [وبعضهم قال: صلاة ما بين المغرب والعشاء أفضلُ من صومهِ يومَه][(٤)].

ثم ليقم الورد الرابع، وهو ما بين الفجرين، وهو أوّل ثلث الليل الأخير. والوردُ[(٥)] الخامسُ، وهو السَّحَرُ الأخير قبلَ طلوعِ الفجر الثانى، وهو يصلح لقراءة [القرآن][(٦)] وللاستغفار، إن كان لم يعتد القيامَ فى جوف الليل.

وفى خبر أبى موسى ومعاذ لـمَّا التقيا: «قال معاذ لأبى موسى: كيف تصنعُ فى قيام اللّيل؟ قال: أقومُه أجمع لا أنام منه شيئًا، وأتفوّقُ القرآنَ فيه تفوّقًا. قال

(١) زيادة من (ك).
(٢) فى (ك): «الرغبوت».
(٣) فى (ط): «صلاة».
(٤) ساقطة من (ط).
(٥) فى (ط): «أو الورد» وأثبت ما فى (ك) وضبطها.
(٦) زيادة من (ك)، وفى (ط): «للقراءة والاستغفار».

معاذ: لكنّى أنامُ ثم أقوم، وأحتسبُ فى نَومتى ما أحتسب فى قَومتى. فذَكرا ذلك لرسول الله ﷺ فقال لأبى موسى: معاذٌ أفقهُ منك»(١).

وقد كان بعضهم لا ينام حتى يغلبه النوم. وكان بعض السلف يقول: هى أولُ نومةٍ فإن انتبهتُ ثم عدت إلى نومةٍ أخرى فلا أنام الله عينيَّ. [وكان منهم من ينام أوّل الليل، فأىّ وقت انتبه أحيا بقية ليلته، ولم يَعُد لنومةٍ ثانيةً](٢).

وسُئل فزارة الشّامى عن وصف الأبدال، وكانوا يظهرون له، فقال: أكلُهم فاقةٌ، ونومُهم غَلَبة، وكلامُهم ضرورة، وصَمْتهم حِكمة، وعِلْمُهم قُدرة. وقيل لآخر: صف لنا الخائفين، فقال: أكلُهم أكلُ المرضى، ونومهم نوم الغرقى.

ولا يدع العبدُ أن يقوم مقدار خُمس الليل أو سُدسه، وهو وِرد من أوراد الليل، أو وردان(٣) على اختلافهما فى الطول والقصر، متفرقًا كان قيامه أو متصلاً.

وأى وِرْد أحياه من الليل، بأىّ نوعٍ من الأذكار، فقد دخل فى أهل الليل، وله معهم نصيبٌ. ومَن أحيا أكثر ليلته أو نصفها كُتب له إحياءُ جميعها، ويُتصدّق(٤) عليه بما بقى منها. ومَن صلّى فى ليلته(٥) عشرين ركعة، وأوتر بعدها بثلاث، حُسِبَتْ له كأنّه أحياها، بفضل الله ورحمته.

---

(١) أخرج البخارى جزءًا منه فى كتاب المغازى، باب بعث أبى موسى ومعاذ إلى اليمن، ولفظ البخارى: «فقال: يا عبد الله، كيف تقرأ القرآن؟ قال: أتفوّقه تفوُّقًا. قال: فكيف تقرأ يا معاذ؟ قال: أنام أول الليل، فأقوم وقد قضيت جزئى من النوم، فأقرأ ما كتب الله لى، فأحتسب نومتى كما أحتسب قومتى» وليس فيه «فذكرا ذلك...» وإنما زاد الطبرانى فيه: «فكان معاذ أفضل منه». وأورد أبو عبيد فى غريب الحديث ٥/ ١٩٧ قطعة منه وفسّر قوله: «أتفوقه: أى لا أقرأ جزئى بمرّة، ولكن أقرأ منه شيئًا بعد شىء فى آناء الليل والنهار، فهذا التفَوُّق إنما هو مأخوذ من فُواق الناقة، وذلك أنها تحلب ثم تترك ساعة حتى تدر ثم تحلب». وانظر: فتح البارى ٧/ ٦٥٩.

(٢) ساقطة من (ط).

(٣) فى (ك): «أو وردَين».

(٤) فى (ط): «وتصدق».

(٥) فى (ط): «ليلة».

وقد كان رسولُ الله ﷺ يقوم ليلةً نصفَ الليل، وليلةً ثُلثه، وليلةً ثلثيه، وذلك مذكور فى أوّل الآيتين من قيام الليل فى سورة المزمل. وقد كان رسول الله ﷺ يقوم ليلةً نصفَ الليل ونصفَ سُدسه معه، ويقوم ليلةً رُبعه، ويقوم ليلةً سُدسَ الليلِ حسب، وذلك مذكور فى آخر الآيتين من قيام الليل، وهذا على قراءة من كسر: «ونصْفِه وثُلثِه» فأما من نصب فقال: «ونصْفَه وثُلثَه»[١]، فإنه يعنى: يقوم النصفَ مع نَصف السدس، والنِّصف وحدَه، والثُّلُث وحدَه، وهو الذى ذكرناه من الآية الأولى. وقد جاء فى التفسير نحو هذا. وهو ﷺ مفترض عليه صلاة الليل. فالآية الأولى أمره تعالى بقيام الليل فيها، والأخرى أخبر عنه بقيامه كيف هو.

فالأجود أن يكون ما أخبر عنه مواطِئًا[٢] لما أمره به، فالذى أمره به أنه قال تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ ثم استثنى القليلَ منه، فقال: ﴿إلا قَليلاً﴾، ثم فسّر أمره، فقال: ﴿نِصفَه أو انقُص منه قَليلاً﴾ [المزمل: ٢] [أو زد على ذلك قليلاً][٣] يعنى، والله أعلم: انقص نصفَ السُّدسِ، أو ثلث ثُلثَ النّصف[٤]، هذان أقل أسماء النُّقصان عند العرب.

ثم قال: ﴿أوْ زِدْ عَلَيه﴾ [المزمل: ٤] يعنى: زد على النصف، كأنه [قال:] زد عليه نصفَ سُدس الليل؛ لأنه أخبر عنه فى الآية الأخرى بأقل من الثلثين فقال: ﴿إنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِن ثُلُثى الليلِ﴾ يكون هذا نصفًا ونصفَ سُدس، وهو

---

(١) قراءة الكسر، قرأ بها: نافع، وأبو عمر، وابن عامر، وقرأ الباقون بالنصب، انظر كتاب السبعة فى القراءات، لابن مجاهد، ص٦٥٨، وقال أبو على الفارسى فى كتابه الحجة ٦/ ٣٣٦: «ومن نصب حمله على «أدنى» التى هى فى موضع نصب، ومن جرّ فإنه يحمله على الحال».

(٢) فى (ط): «مواظبًا» وهو تصحيف، صوابه من (ك) والإتحاف ٥/ ٢٠٣.

(٣) ساقطة من (ط).

(٤) فى (ط): «أو نصف الثلث» وهو خطأ صوابه ما فى (ك) والإتحاف ٥/ ٢٠٣. وهذا أحد الأوجه فى تفسير الآية، على اعتبار أن قوله: ﴿نصفه﴾ بدل من ﴿قليلاً﴾ وأن معنى القليل هو: ما دون النصف أو السدس أو الثلث. ووجه آخر: أن ﴿نصفه﴾ بدل من ﴿الليل﴾. انظر: تفسير القرطبى ١٩/ ٣٥.

أقل التسمية عندهم. ثم قال: ﴿ونصفَه﴾ أى: ويعلم أنك تقوم نصفه أيضًا ﴿وثُلُثَه﴾ [المزمل: ٢٠] أى: وتقوم ثلثه.

فهذه الأخبار[١] أشبه لِوَطْءِ الأمر من قراءة مَن كَسر فقال: «ونصفِه وثُلثِه» يريد: وتقوم أدنى من نصفه وهو الربع، أو الثلث، وأدنى من ثلثه وهو السدس، أو نصف السدس.

وقد قالت عائشة رضى الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يقوم من الليل إذا سمع الصّارخ يعنى الديك»[٢]. فهذا يكون من السَّحَر فقط، فكان هذا يكون سُدس الليل أو نِصف سدسه، [وهذا أيضًا] فيه رخصةٌ وسَعَة لقُوّام الليل.

قلنا هذا تقريبًا لا تحديدًا، والله أعلم [بحقيقة الأمر][٣]. والنّصبُ اختيارُنا فى القراءة على معنى كثرة القيام، ولمواطأة الخبر عنه للأمر. وقد جاء فى الأثر: «صلِّ من الليل ولو قدر حلب شاة». فهذا قد يكون أربع ركعات وقد يكون ركعتين.

وقال أبو سليمان: مَنْ أحسن فى نهاره كُوفئ فى ليله، ومن أحسن فى ليله كوفئ فى نهاره. وكان يقول: أهلُ الليل على ثلاث طبقات: منهم مَنْ إذا قرأ مُتفكرًا بكى، ومنهم من إذا تفكّر صاح وراحته فى صياحه، ومنهم من إذا قرأ وتفكّر بُهت، فلم يبك ولم يَصِح. فقلتُ له: من أىّ شىء صاح هذا؟ ومن أى شىء بهت هذا؟ [ومن أى شىء بكى هذا؟][٤]، فقال: لا أقوى على التفسير.

وقال رجل للحسن: يا أبا سعيد، إنى أبيتُ معافًى، وأُحبُّ قيامَ الليل، وأتخذ طهورى، فما بالى لا أقوم؟ فقال: ذنوبك قيَّدتك يا ابن أخى. وكان الحسن إذا دخلَ السوقَ فسمع لَغطَهم ولَغْوهم، قال: أظنّ ليلَ هؤلاء ليلَ سُوء، ما يَقيلون.

وقال بعض السلف: كيف ينجو التّاجر من سوء الحساب، وهو يلغو بالنهار وينام بالليل؟

---

(١) فى (ك): «فهذا الإخبار».

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، رقم ٧٤١.

(٣) ساقطة من (ط).

(٤) ساقطة من (ط).

وقال الثّورى: حُرِمتُ قيامَ الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته. قيل له: وما هو؟ قال: رأيتُ رجلاً يبكى، فقلتُ فى نفسى: هذا مُرَاءٍ.

وقال بعضهم: دخلتُ على كُرز بن وَبْرة، وهو يبكى، فقلتُ: ما بالُك، أتاكَ نعيُ بعض أهلك؟ فقال: أشد. فقلت: وجع يؤلمك؟ قال: أشدّ. قلتُ: فما ذاك؟ قال: بابى مُغلق، وسِترى مُسبَل، ولم أقرأ حِزبى[1] البارحة، وما ذاك إلا بذنب أَحْدَثْتُه[2].

وقال محمدُ بن شبانة: سمعتُ بعضَ الشيوخ الثقات المستورين ببغداد يقول: سمعتُ ابن الصّافى البقّال بدَيْنور يقول: كان بدَيْنَور سجّان، قال: إنّى بقيتُ على باب السِّجن نيِّفًا وثلاثين سنةً، فما من أحد حُمِل إلى السّجن من الذين أخذهم الطَّوْف بالليل إلا سألته، فقلتُ له: هل صلّيتَ صلاةَ العشاء الآخرة فى جماعة، إلا قال: لا[3].

وقال أبو سليمان: لا تفوت أحدًا صلاةٌ فى جماعة إلا بذنبٍ. وكان يقول: الاحتلام بالليل عقوبة، والجنابة: البُعد. فكأنّه بَعُد من الصّلاة والتلاوة، إذ فى ذلك قُرب، ومن هذا قوله تعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ﴾ [القصص:١١] [أى عن بُعْد. وقال آخر: لا يعوقُ أحدًا قيامَ ليلةٍ إلا لحدث أحدثهُ فى نهاره][4]. وكان الحسن يقول: إن العبدَ ليُذنب الذّنب فيُحرَم به قيامَ اللّيل وصيامَ النهار.

وقال بعض العلماء: إذا صُمت يا مسكين، فانظر عند مَنْ تُفطر وعلى أى شىء تُفطر، فإن العبدَ ليأكل الأكلةَ فينقلب قلبُه عمّا كان عليه فلا يَعُود إلى حاله الأول. وقال آخر: كم من أكْلة منعتْ قيامَ الليلِ، وكم من نَظْرة حرَمت قِراءة سُورة. وإن العبدَ ليأكل الأكلةَ أو يفعل فِعلةً فيُحرَم بها قيام سَنة.

---

(١) فى (ط): «جزئى» وهو تصحيف، صوابه من (ك) والإتحاف ٥/ ١٩٣.
(٢) فى (ط): «أحدثه».
(٣) هذا الخبر ليس فى (ك).
(٤) ساقطة من (ط).

فبُحسن التفقّد يعرف [المريدُ][1] النُّقصان من المزِيد، وبقلَّة الذُّنوب يُوقف على التفقّد.

وكان الفُضيل يقول: لو رُزقت من فَهْم القرآنِ وقيامِ الليل فى أوّل أمرى ما رزقت الآن، ما كتبتُ حديثًا قط، ولا اشتغلتُ بغيرِ القرآن.

ويقال: إنّ طولَ القيام راحات القيامة، وإنّ صلاةَ الليل كفاراتُ الكبائرِ. وقيل: إنّه جبران لما نقَص من الفرائض من صلاة النَّهار[2].

وقد كانوا يستحبّون فى صلاة النهار كثرةَ الركوع والسّجود، وفى صلاة الليل طولَ القيام.

واعلم أن صلاةَ الليل فريضة على رسول الله[3] ﷺ [وهى نافلةٌ لنا]؛ لأنه كان مُتمًّا لفرائضه، وصلاة الليل [تطوعٌ لنا وجبرانٌ] وتكملة [النقصِ] فرائضنا.

وفى الخبر: «إذا نام العبد عقد الشّيطان على رأسه ثلاث عقد، فإن قعَد وذكر اللهَ انحلّت عقدة، وإذا توضّأ انحلّت عقدة، وإن صلّى ركعتين انحلّت العقد كلّها، فأصبح نشيطًا طيّبَ النفس وإلا أصبح كَسلانَ خبيثَ النّفس»[4].

وفى الخبر: «إنَّ الرجلَ إذا نام حتى يُصبح بال الشّيطانُ فى أذنه»[5].

وقد روينا فى الخبر الآخر: «إنّ للشيطان سَعُوطًا ولَعوقًا وذَرُورًا، فإذا أسعط العبدَ ساء خلقه، وإذا ألعقَهُ ذَرِب لسانه بالشّر، وإذا ذرَّه نام بالليل حتّى يُصبح»[6].

---

(١) ساقطة من (ط).

(٢) فى (ط): «الليل» والصواب ما فى (ك).

(٣) فى (ط): «نافلة لرسول الله» والصواب ما أثبت من (ك) وكان ثَم نقص فى المطبوعة أكملته من المخطوط.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، رقم ٧٧٦. والبخارى فى كتاب التهجد، وكتاب بدء الخلق. وأخرجه النسائى، كتاب قيام الليل، باب الترغيب فى قيام الليل، رقمه فى الصحيح: ١٥١٦. وأخرجه غيرهم.

(٥) أخرجه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين، رقم ٧٧٤، وصحيح سنن النسائى، رقم ١٥١٧.

(٦) قال العراقى ١/٣٥٣: «أخرجه الطبرانى فى الكبير من حديث أنس. . . ورواه البزار من حديث سمرة بن جندب، وسندهما ضعيف». وانظر: الإتحاف ٥/١٨٥.

ويُستعان على قيامِ الليل بثلاث: أكلِ الحلالِ، والاستقامة على التوبة، وغمٍّ خوف الوعيد أو شوق رجاء الموعود.

والذى يُحرَم العبدُ به قيامَ الليل، أو يُعاقَب معه بطول الغفلة، ثلاثٌ: أكل الشّبهات، وإصرار على الذنب، وغلبة همّ الدنيا على القلب(١).

* * *

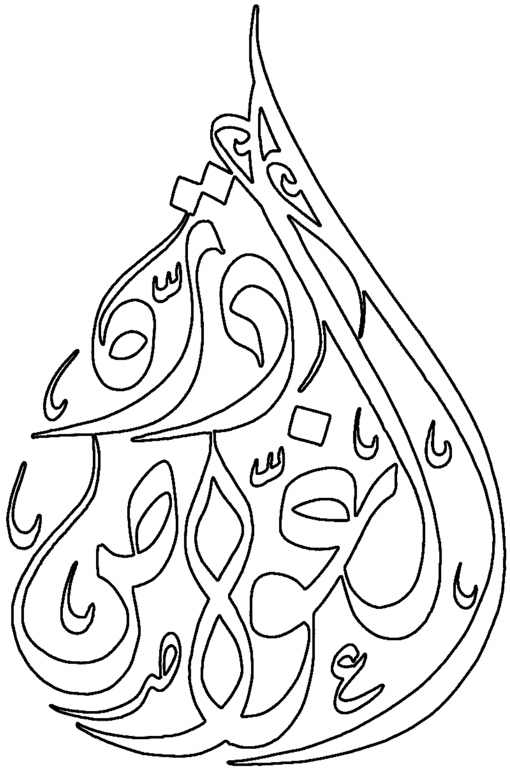

(١) وهذا كله يعنى أن «لزوم الذكر يطرد الشيطان، ويجلو مرآة القلب، وينوّر البصيرة. ولا يتمكن منه إلا الذين اتقوا، فالتقوى باب الذكر، والذكر باب الكشف، والكشف باب الفوز الأكبر، وهو الفوز بلقاء الله عز وجل» عن الزبيدى ٥/ ١٨٥. وبقيت بعض الأسباب فى قيام الليل، ذكرها صاحب العوارف، ص٣٦٥ ـ ٣٦٧. وانظر: الإحياء ١/ ٣٥٦.

الفصل الخامس عشر (١)

فى ذكر ورد العبد من التسبيح والذكر والصلاة فى اليوم والليلة، وفضل صلاة الجماعة، وذكر أفضل الأوقات المرجو فيها الإجابة، وذكر صلاة التسبيح، وما يُستحب أن يكون شعاره [من أخلاق السلف] (٢)

ليكن للعبد فى كلّ يوم وليلةٍ وردٌ من التسبيح، وأقلُّ ذلك تِسعمائة مرة من أنواع الأذكار التى وردت بها الأخبار. فليقل:

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمدُ، يحيى ويميت وهو حىٌّ لا يموت، بيده الخير وهو على كل شىء قدير، مائة مرة. فإذا قال ذلك مائتى مرة لم يعمل أحد فى يومه أفضل من عمله، بأثرٍ فيه عن رسول الله ﷺ.

وليقل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وتبارك الله، مائة مرة.

وليقل: اللهم صلّ على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى، مائة مرة.

وليقل: أستغفر الله الحى القيوم، وأسأله التوبة، مائة مرة.

وليقل: سبحانَ اللهِ العظيم وبحمده، مائة مرة.

وليقل: لا إله إلا الله الملك الحق المبين، مائة مرة.

وليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، مائة مرة.

يقول هذا فى كلّ يوم، وفى كل ليلة، فإن رُزق مزيدًا عليه فهو فضل، وإلاّ كان هذا معلومه. وقد كان فى الصحابة مَن وِردُه كلَّ يومٍ اثنا عشر(٣) ألف

(١) لا يوجد هذا الترقيم للفصول فى نسخة (ك) فى جميعها.

(٢) زيادة من (ك).

(٣) فى (ك): «اثنتى عشرة».

تسبيحة، وكان من التابعين مَن وِرده فى كلّ يوم ثلاثون ألفًا، [ومنهم مَن ورده خمسون ألفًا](١).

وحدثونا عن إبراهيم بن أدهم عن بعض الأبدال، أنه قام ذات ليلة يصلى على شاطئ البحر، فسمع صوتًا عاليًا بالتسبيح ولم يرَ أحدًا، فقال: مَنْ أنت، أسمع صوتك ولا أرى شخصك؟ فقال: أنا مَلَك من الملائكة موكَّل بهذا البحر، أسبِّح اللهَ عزّ وجلّ هذا التسبيح منذ خُلقتُ. قلت: فما اسمك؟ قال: مهيهيائيل. قلت: فما ثواب من قاله؟ قال: من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة، أو يُرى له. وهو هذا التسبيح: سبحانَ الله العلىِّ الديَّان، سبحان الله شديد الأركان، سبحان مَن يَذهب بالليل ويأتى بالنّهار، سبحانَ من لا يَشْغله شَأنٌ عن شان، سبحان الله الحنَّان المنَّان، سبحان الله المسبَّح فى كلّ مكان.

وإن كان للعبد من الصلاة أورادٌ معلومة فحسنًا قد فعل [ذلك]، وكان من التابعين مَن وِرْدُه فى كلّ يوم ثلاثمائة ركعة، وأربعمائة ركعة. وكان منهم مَنْ ورده ستّمائة ركعة إلى ألف ركعة. وأقلّ ما نُقل عنه من الأوراد مائة ركعة فى اليوم [والليلة](٢).

وكان كُرز بن وَبْرة مُقيمًا بمكة، وكان يطوف فى كل يوم سبعين أسبوعًا، وفى كل ليلة سبعين أسبوعًا(٣). قال: فحَسَبْنا ذلك فكان عَشْرة فراسخ. [وفى] هذه الأسابيع مائتان وثمانون ركعة. قال: وكان يختم ـ مع ذلك ـ القرآنَ فى اليوم والليلة مرتين. وقال هشام بن عِروة: كان أبى يواظب على وِرده من التّسبيح كما يواظب على حزبه من القرآن. وروى عنه أيضًا: كان يواظب على حزبه من الدعاء كما يواظب على حزبه من القرآن.

ولا يدع العبدُ أن يسبِّح أدبارَ الصلوات الخمس مائة تسبيحة عند كل صلاة

(١) ساقطة من (ط)، وكذا فى الموضعين التاليين.

(٢) ما ذكره هنا شيء لم يثبت فى السّنة ولم يؤثر عن الصحابة، بل الذى ورد فى السُّنّة يخالف ذلك. وفى إطالة الركوع والسجود والذكر غنًى عن هذه الكثرة المتكلفة.

(٣) الأُسْبوع من الطَّواف: سبعة أطواف، وطُفتُ بالبيت أُسبوعًا، أى: سَبْعَ مرَّات.

مكتوبة، وكذلك عند النوم مائة. وليواظب على أن يقول إذا أصبح وإذا أمسى ما جاء في تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٣] فإنّ لذلك ثوابًا عظيمًا.

ورُوينا عن عثمان رضى الله عنه أنه سأل النبى ﷺ عن تفسير هذه الآية: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ، فقال: «لقد سألتنى عن شىء ما سألنى عنه أحد قبلك، هو: لا إله إلاّ الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر اللهَ الأولَ والآخرَ والظّاهرَ والباطنَ، له الملك وله الحمد، بيده الخيرُ، وهو على كل شىء قدير. مَنْ قالها عشرًا حين يصبح وحين يمسى أُعطى بها ست خصال؛ فأول خصلة: يُحرس من إبليس وجنوده. والثانية: يُعطَى قنطارًا من الأجر. والثالثة: يُرفَع له درجةٌ فى الجَنة. والرّابعة: يُزوِّجه الله عزّ وجل من الحُور العين. والخامسة: يحضرها اثنا عشر مَلكًا. والسادسة: يكون له من الأجر كمن حَجَّ واعتمر»[١].

وقد روينا فى تفسيرها قولاً آخر، من رواية أخرى، واتصل به ذكر كَنز أهل الجنة ما هو، فإن ضمّ هذا إليه فقد جمع الروايتين، واستوعب الفضيلتين. رواه عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن عثمان بن عفان رضى الله عنه، أنه سأل النبى ﷺ مسائل فأجابه عنها، فقال: ما مقاليدُ السموات والأرض؟ فقال: أن يقول العبدُ: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وأمّا كنزُ أهل الجنة، فيقول: سبحان مَن فى السماء عرشُه، سبحان مَن فى السماء موضعُ أثره، سبحان مَن سَبَقت رحمتُه غَضبَه، سبحان من لا ملجأ ولا مهرب إلا إليه. يا عثمان مَن قالها كلّ يوم عشر مرات كُتب له بها ست خصال: ينجيه الله من إبليس وجنوده، وإن مات مات شهيدًا، وبنى له قصرًا فى الجنة، وكأنّما قرأ التوراةَ والإنجيل والزبور والفرقان، وكأنما اشترى ثمانيةً من ولد إسماعيل وأعتقهم[٢].

(١) ذكر القرطبى هذا الحديث فى تفسيره ١٥/ ٢٧٥، وذكر أن الثعلبى ذكره فى تفسيره وزاد الزيادة التى رواها صاحب القوت هنا. وأخرجه بمعناه أبو عوانة ١/ ١٦٨.

(٢) المذكور هنا خمسة فقط، وسيجىء تخريج هذا وغيره فى آخر الكتاب.

ولا يدع قراءةَ هذه الآيات السّت[١] عند كلّ صلاة يصليها، فريضة أو تطوّع، ففى ذلك ثواب عظيم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلامٌ على المرسَلين * والحَمْدُ لله ربِّ العَالَمِين﴾ [٢] [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢]، وقوله: ﴿فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وله الحَمْدُ فى السَّموات والأرض وعَشيًا وحِينَ تُظْهِرُون يُخْرِجُ الحىَّ مِنَ الميِّتِ ويُخْرِجُ الميِّتَ مِنَ الحىِّ ويُحْيِى الأرضَ بَعْدَ مَوْتِها وكَذلكَ تُخْرَجُونَ﴾ [٣] [الروم: ١٧ ـ ١٩].

ويَستغفرُ[٤] للمؤمنين والمؤمنات فى كل يوم خمسين مرة، خمسًا وعشرين إذا أصبح، وخمسًا وعشرين إذا أمسى، فإنه يُكتب من الأبدال بأثر فى ذلك[٥] رويناه، ولفظ الاستغفار الذى جاء فى الخبر أن يقول: «اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، حيِّهم وميِّتهم، شاهدِهم وغائبهم، قريبهم وبعيدهم، إنك تعلم متقلَّبهم ومثواهم».

وليقل هذا الاستغفار فى تشهده أيضًا، فقد جاء ذلك.

وليقل فى كل عشر مرات: اللهم أصلح أمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد، اللهم فرِّج عن أمة محمد ﷺ، يقال: مَنْ قاله فى كل يوم كُتب له ثوابُ بَدلٍ من الأبدال.

وليقل إذا أصبح ثلاثًا، وإذا أمسى ثلاثًا: اللهم أنت خلقتنى، وأنت هديتنى، وأنت تطعمنى، وأنت تسقينى، وأنت تميتنى، وأنت تحيينى، وأنت ربى لا ربّ لى

(١) فى (ط): «وليواظب على قراءة هؤلاء الست آيات».

(٢) فى (ط) ذكر جزءًا من الآية، وهى مذكورة بتمامها فى (ك).

(٣) فى (ط) ذكر جزءًا من الآية الأولى، وهى مذكورة بتمامها فى (ك).

(٤) فى (ط): «واستغفر».

(٥) يقصد الحديث الذى روى عن أبى الدرداء أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كل يوم سبعًا وعشرين مرة أو خمسًا وعشرين مرة كان من الذين يستجاب لهم، ويرزق بهم أهل الأرض» ضعفه الألبانى، انظر: ضعيف الجامع الصغير، رقم ٥٤٠٤، ومجمع الزوائد ١٠/ ٢١٠.

سواك، ولا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك. فإن فى ذلك شكر نعمة يومه.

ولا يدع أن يقول كلّما استيقظ من نومه وكلما أراد المنام هذه الكلمات: بسم الله، ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، ما شاء اللهُ كلُّ نعمة من الله، ما شاء الله الخيرُ كله بيد الله، ما شاء الله لا يصرف السوءَ إلا الله. ففى هذا عصمة من الله عزّ وجلّ وحِرْز له من الشيطان. وقد جاء فى الخبر: «مَنْ قالهنّ مائة مرة يوم عرفة قبل غروب الشمس ناداه الله عز وجلّ من فوق عرشه: قد أرضيتنى وعلىّ رضاك، سَلنى ما شِئت أعطك».

ولا يدع أن يقول كل غداة وكل عشية: **﴿فإن تَوَلَّوْا فَقُل حَسْبِىَ اللهُ لا إلهَ إلا هُو عَلَيْه تَوكَّلْتُ وهو رَبُّ العَرْشِ العَظِيم﴾** [التوبة: ١٢٩] سبع مرات.

وكذلك يسأل الله الجنة، ويستعيذ به من النار، سبعًا، وكلما سمع الأذان قال كما يقول المؤذن، فإذا فرغ فليقل: رَضِيتُ بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا. اللهم ربَّ هذه الدعوةِ التامة، والكلمةِ الصادقة، والصلاةِ القائمة، صلِّ على محمد وعلى آله، وأعطه الوسيلةَ والفضيلة [والدرجة الرفيعة][(١)]، وابعثه المقامَ المحمود الذى وعدته.

فإن كان الأذان لصلاة الصبح أو صلاة المغرب زاد فى ذلك: اللهم هذا إدبارُ ليلك، وإقبالُ نهارك، وأصواتُ دعاتك، وحُضورُ صلاتك، وشهودُ ملائكتك، صلِّ على محمد وآله. ثم لِيَدْعُ بما أحَبّ، ولِيَغْتنِم الصّلاةَ والدّعاءَ بين الأذان والإقامة، فإنه يُستحب.

ولتكن هذه الكلمات هِجِّيرَه [ودِثارَهُ][(١)] وشِعاره فى الأوقات، فإنّها من دعاء الأبدال فيما بينهم، وشعارهم فى أوقاتهم: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، العفوّ الغفور، يا سلام سلِّم، يا رب، يا رب، يا ذا الجلال والإكرام، افتح بخيرٍ واختم بخير، فلا إله إلا الله الحى القيوم. سبحان ربنا إنْ كان وَعْدُ ربِّنا لمفعولاً. يا رب، يا رب، يا الله، يا الله، يا عزيز، يا عزيز، يا قريب يا قريب، يا حليم، يا ستار.

---

(١) ما بين المعكفات من (ك). هجِّيره: دأبه وشأنه. دِثاره: لِباسه.

سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً. يا الله، يا الله، يا عزيز، يا عزيز، يا قريب، يا قريب، يا كريم، يا غفار، يا واسعَ المغفرة اغفر لى، عافنا واعف عنا، نسألك العفو والعافية، يا غياث المستغيثين.

وفى جميع ما ذكرنا فضائل وردت بها الآثار عن النبى ﷺ وعن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، طوينا نشر ذلك؛ إذ لم يكن قصدنا ذكر فضائل الأعمال، وإنّما أردنا شرحَ أورادِ العُمّال.

ولا يدع السِّواك كلما استيقظ من نوم النهار أو الليل، فإنه يقال إنه من خير خِصال الصّائم، إلا بعد العصر فقد كُره [ذلك] للصائم.

وفى الخبر: «طيِّبوا طرق القرآن من أفواهكم بالسّواك»(١). وفى الحديث: «السِّواك مطهرة للفم مرضاة للرب عزّ وجلّ»(٢). ويقال: «إن الصّلاة بعد السّواك تَفْضُل على الصّلاة بغير سواك سبعين ضِعفًا»(٣).

وأوْكد ما استُعمل فيه السّواك أربعةُ أوقات: قبل الزّوال للصّائم، ويوم الجمعة مع الغسل لها، وفى قيام الليل، وبالغَدَاة عند الاستيقاظ من النوم.

وقد كانوا يستحبون أن لا يأتى على العبد يوم وليلة إلا تصدَّق فيه بصدقة وإن قلّ، مثل لقمة أو تمرة، حتىّ كان بعضهم يتصدّق ببصلة وبخيط؛ لأنه جاء فى الأثر: «كلّ امرئ يوم القيامة فى ظل صدقته»(٤). والله سبحانه يشكر القليل الدائم، وهو أحب إليه من الكثير المنقطع، ألم تر كيف ذَمَّ مَن أعطى وقطع فى قوله تعالى: ﴿وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى﴾ [النجم:٣٤]، أى قطع. ومدح فواكه الجنة

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الطهارة، باب السواك، عن على، انظر صحيح ابن ماجه رقم ٢٣٦، ولفظه «إن أفواهكم طرق للقرآن فطيبوها بالسواك». والصحيحة، رقم ١٢١٣.

(٢) أخرجه البخارى، كتاب الصوم ب٢٧، والنسائى، كتاب الطهارة.

(٣) من حديث أخرجه الإمام أحمد فى المسند ٦/ ٢٧٢ من حديث عائشة، والحاكم فى المستدرك ١/ ١٤٦، ولفظ المسند: «فضل الصلاة بالسواك على الصلاة بغير السواك بسبعين ضعفًا».

(٤) فى المسند ٤/ ١٤٨ من حديث عقبة بن عامر بلفظ: «كل امرئ فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس».

يعيب بذلك فواكه الدنيا فى تدبُّر الخطاب فقال: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٢ ـ ٣٣]، أى: فازهدوا فى فواكه الدنيا فإنها مقطوعة ممنوعة، رغبةً فى هذه الدائمة.

وكان من أخلاق السلف أن لا يردّوا سائلاً إلا بشىء وإن قَلَّ، لقول رسول الله ﷺ: «اتقوا النّار ولو بشِقّ تمرة»[١]، ولقوله ﷺ: «للسائل حقٌّ، ولو جاء على فرس مطوّق بفضّة»[٢]، ولقوله ﷺ: «لا تردّ السائل ولو بظِلْفٍ محترق»[٣].

ودفعت عائشة رضى الله عنها إلى السائل عنبة واحدة، قال: فنظر بعضنا إلى بعض، فقالت: ما لك؟ إنّ فيها لمثاقيل ذرة كثيرة.

وقد كان من أخلاقهم أن لا يُسأل أحد شيئًا، أو يُراد بأمر مباح، فيقول لا، لكراهتهم الخلاف ومحبتهم الائتلاف. وكان ذلك من أخلاق رسول الله ﷺ: «ما سُئل شيئًا قط فقال: لا، فإن لم يقدر عليه سكت»[٤].

وقد كانوا يجتمعون على الأمر الواحد بقَلْب واحد، ولا يستبدُّ بعضهم بأمرٍ دون بعض، ولا يستأثر أحدُهم بشىء دون أخيه، وبذلك وصفهم الله عزّ وجلّ فى قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الشورى:٣٨] أى: أمورهم مشاعة فيما بينهم غير مقسومة، هم فيها سواء.

ويُستحبّ للعبد أن يعمل فى الجمع بين أعمال أربعة[٥] [فى يوم واحد، فإذا اتفقت له فهى نعمة من الله عز وجلّ:] صوم وصدقة وعيادة مريض وشهود

(١) أخرجه البخارى، كتاب الأدب ب٣٤، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم ٦٧، من حديث عدى بن حاتم، وفى غيرهما من كتب السنة.

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الزكاة، باب حق السائل، رقم ١٦٦٥، وضعيف أبى داود، رقم ٣٦٤، من حديث حسين بن على، دون قوله: «مطوق بفضة».

(٣) أخرجه النسائى، كتاب الزكاة، باب رد السائل رقم٧٠٠، والصحيح ٢٤٠٥، والمسند ٤/ ٧٠، ٥/ ٢٨١، من حديث حواء بنت السكن بلفظ: «ردّوا السائل».

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، ب٤ ح ٥٦، وأحمد فى المسند ٦/ ١٣٠ من حديث جابر بن عبد الله.

(٥) فى (ط): «أن يجمع بين هذه الأعمال الأربعة» وأثبت ما فى (ك)، وما بين المعكفات من (ك).

جنازة. وقد كان هذا طريق المريدين يسارعون إليه ويحرصون عليه. وفى الخبر: «مَنْ جمع بين هذه الأربع فى يوم غُفر له». وفى بعضها: «دخل الجنة»[١]. فإن اتفقَ له منها ثلاث أو اثنان فأعجزه[٢] ما بقى، حُسب له تمامها، لحُسن نيّته [لذلك].

ولا يدعنَّ الجماعة سيما إذا سمع التأذين، أو كان فى جوار المسجد. وحدُّ الجوار أن يكون بينه وبين المسجد ثلاث دور [ومنزله هو الرابع]. وأولَى المساجدِ أن يصلِّى فيه أقربها منه، إلا أن يكون له نية فى الأبعد لكثرة الخُطى [مع حصول السلامة]، أو لفضل الإمام فيه، والصّلاةُ خلف العالم الفاضل أفضل. أو يريد أن يعمر بيتًا من بيوت الله عزّ وجلّ بالصّلاة فيه، وإن بَعُد.

وقال سعيد بن المسيب: من صلّى الخمس فى جماعة فقد ملأ البرَّ والبَحْرَ[٣] عبادة.

وليتوضأ لكلّ صلاةٍ قبل دخول وقتها، فإنّه من المحافظة عليها، وحُسن القيام بها[٤].

وقال أبو الدرداء، وحَلَف بالله، وما سمعته حالفًا بالله قط، قال: «من أحبِّ الأعمال إلى الله عزّ وجلّ ثلاث: أمرٌ بصدقة، وخطوة إلى صلاةِ جماعة، أو إصلاح بين الناس».

ويستحب له كلّما دخل منزله[٥] أن يصلى ركعتين[٦]، وكلما خرج منه صلّى ركعتين. وقد كان السّلف لا يخرجون من منازلهم حتى يتوضؤوا. ويستحب له

(١) ليس بلفظه فى معجم الطبرانى الكبير ١١/ ١٤٣.

(٢) فى (ك): «وأعجز له».

(٣) فى (ط): «البرين والبحرين» وأثبت ما فى (ك)، وما بين المعكفات كلها من (ك).

(٤) فى (ط): «ومن حسن معاملتها» وأثبت ما فى (ك).

(٥) فى (ط): «ويستحب له كلما دخل المسجد أو منزله»، والصواب ما أثبت من (ك).

(٦) بعدها فى (ط): «فإن ذلك من عمل الأبرار» وليس كذلك فى (ك)، وقد تكررت بعد ذلك، فحذفتها.

كلّما أحْدثَ أن يتوضأ، وكلما توضأ أن يصلّى ركعتين، فإنّ ذلك من عمل الأبرار، وهو لمن مات على هذا العمل شهادة.

وإذا خرج من منزله قال: بسم الله ما شاء الله، حسبى الله، توكلت على الله، لا قوة إلا بالله. اللهم إليك خرجتُ وأنت أخرجتنى، اللهم سلّمنى وسلّم منى فى دينى كما أخرجتنى. اللهم إنى أعوذ بك أن أزلَّ [أو أُزَلّ، أو أَضِلَّ] أو أُضَلّ، أو أظلم أو أُظلم، أو أجْهَل أو يُجْهل علىَّ. عزّ جارُك، وجلّ ثناؤك، ولا إله غيرك، وليقرأ سورة الحمد، والمعوذتين.

ولا يدع صلاةَ الضحى أربعة ركعات، ويزيد ما شاء الله إلى ثمان ركعات إلى اثنى عشر ركعة، ولا يزيد على ذلك، إن نشط أطالهن، وإن فتر قَصَرهن، وليجعل من قراءته فيهنّ: والشمس وضحاها، وسورة الضحى، وآخر سورة البقرة، وآخر سورة الحشر. ثم ليتنفَّل بعد ذلك بما شاء من غير أن تكون ورد الضحى، فيلزمه المواظبة عليه(١).

وفى حديث عائشة رضى الله عنها: «إن النبى ﷺ كان يصلّى الضحى أربعًا، ويزيد ما شاء الله»(٢).

وفى خبر عن الله عزّ وجلّ: «يا ابن آدم، صلِّ لى أربع ركعات فى أول النهار أكْفِك آخره»(٣).

وفى حديث أم هانئ بنت أبى طالب: «إن النبى ﷺ صلّى الضحى ثمان ركعات»(٤).

وفى الخبر: «يُصبح ابنُ آدم وعلى كلِّ سُلامى من جَسده صَدَقة، يعنى فى كل مِفْصل، وفى جسده ثلاثمائة وستون مِفْصلاً؛ فأمرُك بالمعروفِ صدقة، ونهيُكَ عن

(١) فى (ك): «ثم ليتنفل بعد ذلك ما شاء الله، من غير أن يكون يلزمه المواظبة عليه».

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، ب١٣، ح رقم ٧٨.

(٣) أخرجه الترمذى، كتاب أبواب الصلاة، ح رقم ٤٧٨، والصحيح رقم ٣٩٥، من حديث أبى الدرداء، والمسند ٥/ ٢٨٧.

(٤) من حديث طويل أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، رقم ٨٢.

المنكر صدقة، وحملُك عن الضّعيف صدقة، وهدايتُك إلى الطريق صدقة، وإماطتُك الأذى صدقة، حتى ذكرَ التسبيحَ والتهليل، ثم قال: وركعتا الضحى تأتى على ذلك كله»[(١)]. أو قال: «تجمعن لك ذلك [كله]».

وقد كان من سيرة المتقدمين دخولُ المسجد سَحَرًا قبل طلوع الفجر، والقعود فيه إلى صلاة الصبح، ويفضّلون هذا الفعل. حدثونا عن رجل من التابعين قال: دخلت المسجدَ قبل طلوع الفجر، فألفيتُ أبا هريرة قد سبقنى، فقال: يا ابن أخى، لأىّ شىء خرجتَ من منزلك هذه الساعة؟ فقلتُ: لصلاةِ الغداة. فقال: أبْشِر، فإنّا كنّا نعدُّ خروجنا وقعودنا فى هذا المسجد هذه الساعة ننتظر الصلاة بمنزلة غَزوة فى سبيل الله عزّ وجلّ. أو قال: مع رسول الله ﷺ.

وأفضل الأوقات المرجوّ فيها الإجابة أربعة: عند السَّحَر، وعند طلوع الشمس، وعند غُروبها، وبين الأذان والإقامة. وأفضل أوقات الليل والنهار أوقاتُ الصلوات المكتوبات.

وإذا دعا الله سبحانه وتعالى فَلْيَدْعُه بمعانى أسمائه فإنها صفاته، وهو يحبّ ذلك، وإنما أظهرها ليُعرفَ بها وليُدعى بها[(٢)]، مثل أن تقول: يا جبّار اجبر قلبى، يا غفار اغفر ذنبى، يا رحمن أصلحنى، يا رحيم ارحمنى، يا توّاب تب علىّ، يا سلام سلّمنى.

واستُحب أن يدعو الله عزّ وجلّ بأسمائه التسعة والتسعين فى كل يوم وليلة مرة، فإنه روى عن النبى ﷺ قال: «من أحصاها دخل الجنة»[(٣)]، وهى متفرقة فى جميع القرآن. فمن دعا الله عزّ وجلّ بها [مُخلصًا] موقنًا كان كمن ختَمه. فإن تعذر عليه حفظها فإنها منشورة على غير ترتيب، فليتطرق إليها من حروف المعجم، فليذكر من كل حرف ما فيه، كأن يبتدئ بالألف فينسق ما عليه من الأسماء، ثم بالباء، ثم بالتاء، فيقول: يا الله، يا أول، يا آخر، يا بارئ، يا

---

(١) هذا بمعناه، وأصله فى مسلم، كتاب صلاة المسافرين، رقم ٧٠٢.

(٢) فى (ط): «ليعرف بها الداعى، وليدع بها» وأثبت ما فى (ك).

(٣) أخرجه البخارى، كتاب التوحيد، ب١٢، من حديث أبى هريرة.

باطن، يا تواب. وقد يتعذّر عليه وجودُ بعضها فى بعض الحروف كغيرها، إلا أنها تخرج فى سائر الحروف المتيسرة بالأسماء الظاهرة، فإذا عدّ من الأحرف تسعة وتسعين اسمًا أجزأه؛ لأنه يجد فى الحرف الواحد العشرة فأكثر، ودونَ ذلك فلا يضرّه إن لم يعرف فى بعض الحروف اسمًا إذا أحصى العدد، فقد حصل له الفضل، للأثر فى ذلك[1].

• ذكر صلاة التسبيح:

استُحب له أن يصلّى صلاة التسبيح فى الجمعة مرتين: مرة نهارًا ومرة ليلاً؛ وهى ثلاثمائة تسبيحة فى أربع ركعات. إن صلاها نهارًا لم يفصل بينهن بتسليم، وإن صلاها ليلاً سلّم فيها سلامين، فقد كان الصالحون يصلونها، ويتعرفون بركتها، ويتذاكرون فضلها. وقد روينا فيها روايتين:

إحداهما: حديث الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال للعباس بن عبد المطلب: «ألاَ أعطيك، ألا أمنحك، ألا أحبوك بشىء إذا أنت فعلته غفر الله لك ذنبكَ أوله وآخره، قديمَه وحديثه، خطأهُ وعَمْده، سرّهُ وعلانيته: تصلّى أربعَ ركعات تقرأ فى كل ركعة بفاتحة الكتابِ وسُورة. فإذا فرغتَ من القراءة فى أول ركعة وأنت قائم قلتَ: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، خمسَ عشْرة مرة. ثم تركع فتقولها عشرًا. ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشرًا. ثم تسجد فتقولها عشرًا. ثم ترفع من السجود فتقولها عشرًا. ثم تسجد الثانية فتقولها عشرًا. ثم ترفع من السجود ثم تجلس فتقولها عشرًا. ثم تقوم. فذلك خمسة وسبعون فى كل ركعة. تفعل ذلك فى أربع ركعات. إن استطعت أن تصلّيها فى كل يوم مرة فافعل، فإن لم تفعل ففى كل جمعة مرة، فإن لم تفعل ففى كل شهر مرة، فإن لم تفعل ففى كل سنة مرة، فإن لم تفعل ففى عمرك مرة»[2].

---

(١) فى الفقرات الأربع الماضية اختلاف فى الترتيب بين المطبوعة والمخطوط.

(٢) صحيح ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، رقم ١١٣٩، وصحيح أبى داود رقم ١١٥٢، وفى رواية أخرى لابن ماجه صحيحة أيضًا وفى آخرها: «فلو كانت ذنوبك مثل رَمْل عالج غفرها الله لك».

حُدّثناه عن أبى داود السجستانى، فقال: ليس فى صلاة التسبيح حديث أصحّ من هذا، فذكر فى هذه الرواية: أنه يسبح فى القيام خمس عشرة مرة بعد القراءة، وأنه يسبح عشرًا بعد السجدة الثانية فى الركعة الأولى قبل القيام، كأنه يجلس جلسة قبل أن ينهض، وفى الركعة الثانية أيضًا، وكذلك قبل التشهد.

وروينا فى الخبر الآخر: أنه يفتتح الصلاة فيتوجه، ويقول: سبحانك اللّهم وبحمدك، تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك. ثم يسبح خمس عشرة تسبيحة قبل القراءة، ثم يقرأ الحمد وسورة، ثم يسبح عشرًا، ثم يركع فيكون له فى قيامه خمس وعشرون تسبيحة. ولا يسبح بعد السّجود فى الجلسة الأولى بين الركعتين ولا فى جلسة التشهد شيئًا.

وكذلك روينا فى حديث عبد الله بن زياد بن سمعان، عن معاوية بن عبد الله ابن جعفر عن أبيه: أن النبى ﷺ علمه صلاة التسبيح قال فيها: يفتتح الصلاة مكبِّرًا. ثم يقول، فذكر الكلمات، وزاد فيها: ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. وقال فيه: يقول ذلك خمس عشرة مرة. ولم يذكر بعد السجدة الثانية عند القيام أن يقولها. وهذه الرواية أحبّ الوجهين إلىّ، وهو اختيار عبد الله بن المبارك.

حدثونا عن سهل بن عاصم، عن ابن وهب قال: سألت ابن المبارك عن الصلاة التى يُسبَّح فيها، فقال: يقول: سبحان الله، والحمد لله. . . الكلمات، خمس عشرة مرة. ثم يتعوّذ ويقرأ فاتحة الكتاب وسورة. ثم يقولها عشرًا ثم يركع، وذكرها. قال: فذلك خمس وسبعون، يصلّى أربع ركعات على هذا، إن صلّيت ليلاً فأُحب أن يسلم فى الركعتين، وإن صلّيت نهارًا صلّيت أربعًا، وإن شئت سلّمت. وإذا عدَّ فى الركوع فعدَّ بأصبعه على ركبتيه، وفى السجود بأصبعه على الأرض.

وحدثونا عن محمد بن جابر قال: قلتُ لابن المبارك: فى صلاة التسبيح إذا رفعت رأسى للقيام من آخر السجدتين أسبِّح قبل أن أقوم؟ قال: لا، تلك القعدة ليست من سُنَّة الصلاة.

وقال ابن أبى رزمة عن ابن المبارك: قلتُ له: يقول: سبحان ربى العظيم ثلاث مرات، سبحان ربى الأعلى ثلاث مرات، قال: نعم. قلت: فإن سها يسبِّح فى السهو عشرًا. قال: لا، إنّما هى ثلاثمائة تسبيحة.

وأحب أن تكون السورة التى يقرأها فى صلاة التسبيح مع الحمد فوق العشرين آية. فقد روينا فى حديث عبد الله بن جعفر، الذى رواه إسماعيل بن رافع، أن النبى ﷺ قال فى السورة التى بعد أمّ القرآن: عشرين آية فصاعدًا.

وكذلك أحبُّ زيادةَ: لا حول ولا قوة إلا بالله، لما ذكرناه فى الخبر الآخر، فإن قرأ مع فاتحة الكتاب فى كل ركعة عشر مرات: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، فقد ضاعفَ العددَ واستكمل الأجرَ.

* * *

الفصل السادس عشر

فى ذكر معاملة العبد فى التلاوة ووصف التالين للقرآن حق تلاوته بقيام الشهادة

استُحب للمريد أن يختم القرآنَ فى كلّ أسبوع خَتْمَتَين؛ ختمةً بالنهار، وختمة بالليل. ويجعل ختمةَ النّهار يوم الاثنين فى ركعتى الفجر أو بعدهما. ويختم ختمةَ الليل ليلة الجمعة فى ركعتى المغرب أو بعدهما؛ ليستقبل بختمته أوّل النهار وأوّل الليل، فإنّ الملائكة تصلّى عليه إن كانت ختمته ليلاً حتى يصبح، وتصلّى عليه إن كانت ختمته نهارًا حتى يُمسى، فهذان الوقتان يستوعبان كُلية الليل و[كلية][1] النهار.

وفى الخبر: «لم يَفْقه من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث»[2].

وأمر رسول الله ﷺ عبد الله بن عمر «أن يقرأ القرآنَ فى كلّ سبع»[3]. وكذلك جماعة من الصحابة يختمون القرآن فى كل جمعة.

ورُوينا عن يحيى بن الحارث الديناري، عن القاسم بن عبد الرحمن قال: كان عثمان بن عفان رضى الله عنه يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة، وليلة السبت بالأنعام إلى هود، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم، وليلة الاثنين بطه إلى طَسم موسى وفرعون، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى صاد، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن، ويختم ليلة الخميس.

وكذلك كان زيد بن ثابت وأُبَىّ [بن كعب][4] يختمان القرآن فى كل سبع.

---

(١) زيادة من (ك).

(٢) ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، رقم ١٣٤٧، وصحيحه رقم ١١٠٧.

(٣) من حديث فيه حوار مع النبى ﷺ، أخرجه ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، رقم ١٣٤٦، وصحيحه رقم ١١٠٦.

(٤) زيادة من (ك).

وروينا عن ابن مسعود: أنه سبّع القرآن فى سبع ليال، فكان يقرأ فى كل ليلة بسُبعه. إلا أنّ تأليفه على غير ترتيب مصحفنا هذا فلم يذكره؛ لأنّ الاعتبار لا يتبيّن به.

وجماعة يُذكر عنهم ختمُ القرآن فى كلّ يوم وليلة، وقد كره ختمَه فى أقلَّ من ثلاث طائفةٌ.

والتوسط من ذلك ما ذكرناه؛ وهو أن يختم فى كلّ ثلاثة أيام.

• ذكر أحزاب القرآن وكيف حزبه الصحابة رضى الله عنهم:

[قال أبو طالب:](1) وإن قرأ القرآن أحزابًا، فى كلّ يومٍ وليلةٍ حزبًا، فحَسَنٌ، وهو سنّة، فذلك أشدّ لمواطأة القلب وأقْوم للتّرتيل(2)، وأدنى إلى الفَهْم.

وإن أحبّ قرأ فى ركعة(3) ثلثَ عُشر القرآن، أو نصف ذلك، يكون الجزء من الأجزاء الثلاثين فى ركعة(4) أو ركعتين. فإن قرأ فى كل وِرْد حزبًا أو حزبين، أو دون ذلك، فحَسَن.

وأحزاب القرآن سبعة: فالحزب الأول: ثلاث سور، والحزب الثانى: خمس سور، والحزب الثالث: سبع سور، والرابع: تسع سور، والخامس: إحدى عشرة سورة، والسادس: ثلاث عشرة سورة، والمفصل: من «ق» [إلى آخر القرآن](5). فهذه كانت أحزاب القرآن، وكذلك حزَبه الصحابةُ رضى الله عنهم أجمعين. وكانوا يقرؤونه كذلك. وفى ذلك خبر [ثابت] عن رسولِ الله ﷺ [فى قصة](6).

(١) زيادة من (ك).
(٢) فى (ط): «للترتيب»، وكذلك فى الإتحاف ٤/ ٤٧٥، وأثبت ما فى (ك).
(٣) فى (ط): «كل ركعة» وأثبت ما فى (ك).
(٤) فى (ط): «كل ركعة» وكذلك فى الإتحاف ٤/ ٤٧٥.
(٥) ساقطة من (ط).
(٦) زيادة من (ك)، والخبر الذى يقصده هو حديث أوس بن حذيفة، أخرجه ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، رقم ١٣٤٥، وضعيف أبى داود، رقم ٢٤٦، وذكر الزبيدى عدة روايات وتخريجات للحديث، ثم علّق على نقل الغزالى من القوت هذا الكلام. انظر: الإتحاف ٤/ ٤٧٥ ـ ٤٧٦.

وكأنّه حُزِب على عدد الآيات[١]، إذ عددها ستة آلاف [آية] ومائتان وست وثلاثون آية.

وقد اعتبرتُ ذلكَ فى كلّ حزبٍ فرأيتُه يتقارب، وهذا قبل أن تُعمل الأخماس، والعواشر، والأجزاء، فما سوى هذا مُحْدَث. يقال: إنّ الحجاج جمع قرّاءَ البصرةِ والكوفة، منهم: عاصم الجَحْدَرِىُّ، ومطَر الورّاق، وشهاب بن شريفة، فأمرهم بذلك.

وقد كان الحسن وابنُ سيرين ينكران هذه الأخماس والعواشر والأجزاء. ورُوى عن الشعبى وإبراهيم [النّخعى] كراهية النُّقَط بالحُمرة، وأخذ الأجر على ذلك، وكانوا يقولون: جرِّدُوا القرآن.

وقال الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير: كان القرآن مجرّدًا فى المصاحف، فأول ما أحدثوا فيه النقط على الباء والتاء، وقالوا: لا بأس به فإنه نور له، ثم أحدثوا بعده نقطًا كبارًا عند منتهى الآى، فقالوا: لا بأس به يُعرف به رأس الآى، ثم أحدثوا بعد ذلك الخواتيم والفواتح، وقالوا: لا بأس به؛ لأنها علامة تُعرف بها.

واعلم أنه لا يجد فَهْمَ القرآنِ الفهمَ الذى يكشف مُشَاهَدة [المخاطب] ويظهر من الملكوت القُدْرة[٢] عبدٌ فيه إحدى هذه الخصال: ذو بدعة[٣]، أو مُصِرٌّ على ذَنب، أو عبدٌ فى قلبه كِبر، أو مقارفٌ[٤] لهوى قد استكَنَّ فى قلبه، أو محبٌّ للدنيا، أو عبدٌ غيرُ متحقّقٍ بالإيمان، أو ضعيفُ اليقينِ، ولا مَن هو واقف مع مقراه، ولا عبد مهتمٌّ بتتبع حروفه واختياره، ولا ناظر إلى قول مفسّر ساكن إلى علمه[٥] الظاهر، ولا راجع إلى معقوله، ولا قاضٍ بمذاهب أهلِ العربية واللغةِ فى باطنَ الخطابِ وسرّ المراد[٦].

---

(١) فى (ط): «وكأنه حزبه على عدد هذه الآى» وأثبت ما فى (ك).

(٢) فى (ط): «يكشف بمشاهدته ويظهر من الملكوت قدره» وأثبت ما فى (ك).

(٣) فى (ط): «أدنى بدعة».

(٤) فى (ط): «مقارب».

(٥) فى (ط): «عمله».

(٦) فى (ط): «وسر المرء» وهو خطأ.

وهؤلاء كلّهم محجوبون بعقولهم، مردودون إلى ما يقدَّر فى علومهم، موقوفون مع ما تقرّر فى قلوبهم[١]، مزيدهم على مقدارِ عُلومهم وغرائز عقولهم. وهؤلاء مُشركون بعقولهم وعلومهم عند الموحّدين، وهذا داخلٌ فى الشِّرْك الخفىّ، الذى [هو] أخفى من دبيب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء.

قال محمد بن على بن سنانة: إذا معقولُه وعلمُه عن عقلٍ غير كامل؛ لأنَّ العقل الكامل ما عقل عن الله عزّ وجلّ، وفهم حُكْمَهُ وكلامَهُ، ويعقل به كلامه.

وقد قال الرسول صلوات الله عليه فى صفة كمال العقل: «العاقل مَنْ عقل عن الله سبحانه وتعالى أَمْرَه ونهيه»[٢]. وفى الخبر: «أكثر منافقى أمتى قرَّاؤها»[٣]. فهذا نفاق الوقوف مع سوى الله تعالى، والنظر إلى غيره، لا نفاقَ الشركِ والإنكارِ لقدرة الله عزّ وجلّ، فهو لا ينتقل عن التوحيد، ولكنّه لا ينتقل إلى مقام المزيد.

فإذا كان العبد ملقيًا السّمع بين يدى سَميعه، مُصْغيًا إلى سرٍّ كلامه، شهيدَ القلبِ لمعانى صفات شهيده، ناظرًا إلى قدرته، تاركًا لمعقوله ومعهودِ علمه، متبرِّئًا من حوله وقوته، مُعَظِّمًا للمتكلم، واقفًا على حضوره، مفتقرًا إلى الفَهْمِ بحالٍ مستقيم، وقلبٍ سليم، وصفاءِ يقين، وقوةِ علمٍ وتمكين، سَمِعَ فَصْلَ الخطابِ، وشهد عِلْمَ غَيْبِ الجواب.

وأفضلُ القراءةِ الترتيلُ؛ لأنّه يجمع الأمرَ والنَّدبَ، وفيه التدبُّر والتذَكُّر [والتفكُّر]. رُوى عن علىٍّ رضى الله عنه: لا خيرَ فى عبادة لا فقْهَ فيها، ولا فى قراءة لا تَدبُّر فيها. وعن ابن عباس: لأن أقرأ البقرةَ وآل عمران أرتِّلهما وأتدبّرهما أحبُّ إلىَّ من أن أقرأ القرآن كلّه هَذْرَمةً[٤]». ورُوى عنه أيضًا: لأنْ أقرأ إذا زُلْزِلَت، والقَارِعَة، أتدبّرهما أحبُّ إلىَّ من أن أقرأ البقرةَ وآل عمران هَذْرمةً.

---

(١) فى (ط): «عقولهم».

(٢) لم أجده بلفظه، وذكر القرطبى فى تفسيره ١٣/ ٣٤٦ من حديث جابر: «العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه». وانظر: شرح السنة، للبغوى، ٥/ ١٩٤.

(٣) المسند ٢/ ١٧٥ و ٤/ ١٥١، ١٥٥ من حديث ابن عمر، وعقبة بن عامر.

(٤) الهذرمة: سرعة القراءة، بلا أحكام ولا تدبُّر.

وسئل مجاهد عن رجلين دخلا فى صلاة، فكان قيامُهما واحدًا، إلا أن أحدهما قرأ البقرة، والآخر قرأ القرآنَ كلَّه. فقال: هما فى الأجر سواء؛ لأنّ قيامَهُما كان واحدًا.

وأفضلُ التّرتيلِ والتدبُّر فى القرآن ما كان فى صلاةٍ. ويقال: إنّ التفكُّرَ فى الصّلاة أفضلُ منه فى غير الصلاة؛ لأنهما عملان.

وهذا هو التفكُّر فى معانى التدبُّر، والفهم بخطاب الوعد والوعيد، والزجر والأمر تعظيمًا للمتوعِّد، وإجلالاً للآمرِ.

وسئل النبى ﷺ: «أى الصلاة أفضل؟ فقال: طول القنوت»(١). وروى فى خبر آخر: «مَنْ سجد لله عز وجلّ سجدة رفعه اللهُ عزّ وجلّ بها درجةً»(٢). وأنه قال لأبى فاطمة خادمه، وقد سأله مرافقته فى الجنة، فقال: «أعنِّى بكثرةِ السُّجود». وروينا عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه أنه قال: إنّه كثرة السجود بالنّهار، وإنّه طولُ القيام بالليل.

ويقال: إن العبدَ يُحشر عند الموتِ من قَبْرِه على هيئته فى صلاته من السُّكونِ والطّمأنينة، وتكون راحتُه فى الموقفِ على قدر راحته وتنعّمه بالصّلاة. وروينا معنى هذا عن أبى هريرة.

وعَلى هذا المعنى تأويلُ قولِ رسول الله ﷺ لبلال: «أرحنا بالصّلاة»(٣)، أى: روِّحنا بها ونَعِّمْنا بها، من الرَّوح والرّاحة إليها. ويقال: أرحنا بالشىء، أى رَوِّحْنا به. وأَرِحْنا منْهُ: أى أسقطه عنّا وخفّف عنّا منه. ولم يقل: أرحنا منها. كيف وقُرّةُ عينه فيها؟!

وقال بعضهم: إنّى لأفتتحُ السُّورةَ فيُوقفنى بعضُ ما أشهدُ فيها عن الفَراغِ منها، حتى يطلع الفجر، وما قضيتُ منها وَطَرِى.

---

(١) مسلم، كتاب صلاة المسافرين، رقم ٧٥٦ من حديث جابر.

(٢) مسند أبى حنيفة، ص٣٦.

(٣) المسند ٤/ ٣٦، ٣٧١.

وقال سليمانُ بن أبى سليمان الدّارانى: إنه وعد ابنُ ثوبان أخًا له أن يفطر عنده، فأبطأ عليه حتى طلع الفجر، فلَقِيَهُ أخوه من الغد، قال: وعدتنى أن تفطرَ عندى فأخلفتَ. فقال: لولا ميعادك ما أخبرتك بالذى حبسنى عنك. إنّى لما صلّيتُ العَتمة، قلت أُوتر قبل أنْ أجيئك؛ لأنّى لا آمَن ما يحدث من الموت. فلما كنتُ فى الدعاء من الوتر رُفعت لى روضةٌ خضراء، فيها أنواع الزّهر من الجنة، فما زلتُ أنظر إليها حتى أصبحت.

وقال عزّ وجلّ: ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]. قيل: القرآن قوّى إيمانَهم بعلمِ القرآن، فالقرآن رُوح الإيمان، وتقويتهم استعمالُهم به. وفى التفسير ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّة﴾ [مريم: ١٢]، قيل: بجدٍّ واجتهاد. ومثله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوّة﴾ [البقرة: ٦٣، الأعراف: ١٧١]، قيل: بعملٍ به. وقيل لبعضهم: إذا قرأت القرآن تحدِّث نفسك بشيء؟ فقال: أوَ شيء أحبُّ إلىَّ من القرآن أحدِّث نفسى به؟ وهذه صفةُ قوىٍّ مكين.

ويقال: إنّ فى القرآن ميادين، وبساتين، ومقاصير، وعرائس، وديابيج، ورياضًا، وخانات. فالميمات: ميادين القرآن، والراءات: بساتين القرآن. والحامدات(١): مقاصير [القرآن]، والمسبحات: عرائس القرآن، والحواميم: ديباج القرآن، والمفصّل: رياضه، والخانات: ما سوى ذلك. فإذا جال المريدُ فى الميادين، وقطف من البساتين، ودخل المقاصير، وشهد العرائس، ولبس الديباج، وتنزّه فى الرياض، وسكَن غُرفَ الخانات، اقتطعه وأوقفه ما يراه، وشغله الشاهد به عما سواه.

وروى عن النبى ﷺ «أنه قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، فردّدها عشرين مرة»(٢). وكان له ﷺ فى كلِّ ردَّةٍ فَهمٌ، ومن كلِّ كلمة علمٌ.

(١) فى (ط): «الحاآت» وأثبت ما فى (ك)، وانظر: الإتحاف ٤/ ٥٠٤.

(٢) قال العراقى فى المغنى، هامش الإحياء ١/ ٢٨٢: «رواه أبو ذر الهروى فى معجمه من حديث أبى هريرة بسند ضعيف». وانظر: الإتحاف ٤/ ٥٠٥.

فينبغى أن يكون قلبُ التّالى بوصفِ كلِّ كلمةٍ يتلوها مشاهدًا لمعناها إلى ما يفتح اللهُ عز وجلّ له من المزيد عليها من مجاورتها، ومع ما يفهم بها من غيرها، ويشهدُ غيرها منها. فقد كان بعضهم يقول: كلُّ آيةٍ لا أتفهَّمَها، ولا يكون قلبى فيها، لم أعدَّ لها ثوابًا. وكان بعض السلف إذا قرأ السورة [أو آية][1]، ولم يكن قلبه فيها، أعادها ثانية، فإذا مرّ بتسبيحٍ وتكبيرٍ سبّح وكبّر، وإن مرّ بدعاءٍ واستغفار دعا واستغفر، وإن مرّ بمُخوِّف ومَرجوٍّ استعاذ وسأل. فذلك معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تلاوَتِه﴾ [البقرة:١٢١]. وكذلك كان رسول الله ﷺ فى تلاوته.

وعلى هذا المعنى ما روى فى الخبر: «مَن أراد أن يقرأ القرآنَ غَضًّا كما أُنزل فلْيقرأه على قِراءةِ ابنِ أُمِّ عَبد»[2]. أى: على معنى تِلاوته؛ لأنه كان يقرأ بقلبٍ شهيد، وسمعٍ عتيد، وبصرٍ حديد، فكان يتلو القرآنَ على معانى الكلام، وعلى شهادة وصفِ المتكلم، الوعيدُ منه بالتحزين، والوعدُ بالتشويق، والوعظُ بالتّخويف، والإنذار بالتّشديد، والتّبصير[3] بالتّرقيق، والتّبشير بالتّوفيق؛ لأنه كان عالمًا بصفاتِ المتكلم، واجدًا لذوقِ الكَلِم. فمثل هذا العبد أحسنُ الناسِ صوتًا بالقرآن، كما جاء فى الخبر: «أحسنُ الناسِ صوتًا بالقرآن مَن إذا قرأ رأيتَ أنّه يَخْشى الله»[4]. ومن هذا قيل: «إذا قرأتمُ القرآنَ فابكُوا، وإن لم تبكوا فتباكَوْا»[5]. ومثل هذا: «إن القرآن نزل بحُزن، فإذا قرأتُمُوه فتحازَنُوا». أى: إنّ القرآن لما فيه من التهديدِ والوعيد، والوثائق[6] والعهود، يوجب البكاءَ والحُزن، فإن لم تَحزنوا

---

(١) زيادة من (ك).

(٢) صحيح ابن ماجه، رقم ١١٤، من حديث عبد الله بن مسعود.

(٣) فى (ط): «والتفسير» وأثبت ما فى (ك).

(٤) صحيح الجامع الصغير، رقم ١٩٤، من حديث ابن عمر بلفظ: «أحسن الناس قراءة...» ومن حديث جابر فى سنن ابن ماجه، كتاب الإقامة، والصحيح رقم ١١٠١.

(٥) فى ضعيف ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، رقم ٢٨١، ورقمه فى السنن ١٣٣٧، وانظر: الإتحاف ٤/ ٤٧٩.

(٦) فى (ك): «المواثيق».

وَجْدًا، ولم تبكوا يقينًا، فتباكوا وتحازنوا لَفْظًا، لأجلِ التصديقِ والإقرار به. فندبَهُم إلى التّحازن فى التلاوة، والتباكى؛ ليجتمع همُّ العبدِ فى المتلو، فيتدبر الكلامَ، عسى أن يكون قلبُه بمعناه، فيكون التباكى والتحزين سببًا لجمع همِّه وفراغ قلبه؛ لأنّ المتباكى الصادقَ مجتمعُ الهمِّ فيما يبكيه، والحزينَ حاضرُ القلبِ مجموعُ الفكرِ، ومشغولٌ عن سوى مبكيه(١).

من ذلك ما روينا عن ابن عباس: «إذا قرأتم سجدةَ ﴿سُبْحان﴾ فلا تعجلوا بالسُّجود حتى تبكوا، فإن لم تبكِ عينُ أحدِكم فليَبْكِ قلبُه، فبكاءُ القلبِ حزنُه وخشيتُه». أى فإن لم تبكوا بكاء العلماء عن الفهم فَلْتَحزن قلوبكم على فقد البكاء، وليخشَ كيف لم يوجد فيكم وصفُ أهل العلم.

وقد روينا فى غرائب التفسير من معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ﴾ قال: هى العين الكثيرة البكاء ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ قال: هى العين القليلة البكاء ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [البقرة:٧٤] قال: هو بكاء القلب من غير دموع عين.

وقال ثابت البنانى: رأيتُ فى النوم كأنّى أقرأ على رسول الله ﷺ القرآن. فلما فرغت قال: هذه القراءة، فأين البكاء؟

وكان الحسن يقول: والله ما أصبح اليوم عبدٌ يتلو هذا القرآن يؤمن به إلا كَثُر حزنه وقلّ فرحُه، وكثُر بكاؤه وقل ضحكه، وكبر نَصَبُه وشغلُه وقلَّت راحتُه وبَطالتُه.

والنّاسُ فى التلاوة على ثلاث مقامات: أعلاهُم: مَن يَشهد أوصافَ المتكلمِ فى كلامه، ويعرف أخلاقَه بمعانى خطابه، وهذا مقامُ العارفين من المقربين.

ومنهم: من يَشهد ربَّه تعالى يناجيه بألطافه، ويخاطبه بإنعامه وإحسانه، فمقامُ هذا الحياءُ والتعظيمُ، وحالُه الإصغاءُ والتفهيم. وهذا للمقربين من عموم المقربين(٢).

---

(١) فى (ك): «والحزين حاضر القلب مجموع الهمّ فيما شغله عن سوى حبيبه».

(٢) فى (ط): «وحاله الإصغاء والفهم، وهذا للأبرار من أصحاب اليمين» وأثبت ما فى (ك).

ومنهم: من يرى أنه [هو الذى][(١)] يناجى ربّه عزّ وجلّ، فمقامه السؤال والتملّق، وحالُه الطّلب والتعلّق، وهذا للمعترفين والمريدين، وهم من خصوص أصحاب اليمين.

وينبغى للعبدِ أن يشهد فى التّلاوة أن مولاه يُخاطبه بالكلام؛ لأنه سبحانه متكلِّم بكلام نفسه، وليس للعبد فى كلامه كلام، وإنّما جعل له حركةَ اللسانِ بوصفه، وتيسير الذكر بلسانه بحكم ربّه عزّ وجلّ حدًا للعبد ومكانًا له[(٢)]، كما كانت الشجرة وجهةً لموسى عليه السلام، وكلّمه الله عزّ وجلّ منها[(٣)].

ويقال: إنّ كلّ حرف من كلام الله عزّ وجلّ فى اللوح المحفوظ أعظمُ من جبل قاف، وإنّ الملائكة لو اجتمعت على الحرف الواحد أن يُقلُّوه ما أطاقوه، حتى يأتى إسرافيل، وهو مَلَك اللوح المحفوظ، فيرفعه فيقلّه بإذن الله عزّ وجلّ ورحمته، إذ كان الله تعالى أطاقه ذلك لما استعمله به[(٤)].

وقال جعفرُ بن محمد الصادق: واللهِ لقد تجلّى الله عزّ وجلّ لخلقه فى كلامه، ولكن لا يبصرون. وقال أيضًا، وقد سألوه عن شىءٍ لَحقَه فى الّصلاة حتى خرّ مغشيًا عليه، فلما سُرّىَ عنه قيل له فى ذلك، فقال: ما زلتُ أردّد الآيةَ على قلبى، حتى سمعتها من المتكلم بها، فلم يثبت جسمى لمعاينة قدرته تعالى.

وكذلك الخصوص يرددون الآية بقُلوبهم على قُلوبهم، ويتحقّقون بها فى مشاهدتهم بمدَد من شهيدِهم وسيّدهم، حتى يستغرقهم الفهم، فيغرقون فى بحر العلم[(٥)]. فإن قصرت مشاهدةُ التّالى عن هذا المقام، فيشهد أنه يناجيه بكلامه، ويتملّقه بمناجاته [وألطافه][(٦)]، فإنّ الله عزّ وجلّ إنّما خاطَبه بلسانه، وكلّمه بحركته

---

(١) زيادة من (ك).

(٢) فى (ك): ويسّر الذكر بلسانه لحكمة ربه، حدًا للعبد ومكانًا له».

(٣) فى (ك): «كما كانت الشجرة وجهة لموسى صلى الله عليه وسلم، كلّمه ربّه منها».

(٤) هذه الفقرة ليست فى (ك).

(٥) فى (ك): «حتى يستغرقهم الفهم، فيستغرقون فى حقيقة منها».

(٦) زيادة من (ك).

وصوته، ليفهم عنه بعِلْمه الذى جَعَله له، ويعقل عنه بفهمه الذى قَسمه[١] له، حكمةً منه ورحمةً، إذ لو تكلم الجبّار عزّ وجلّ بوصفه الذى يدركه سَمْعُه لما ثبت للكلام عرش ولا ثرى، ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه، وسُبُحات أنواره، فحجب ذلك فى غيب علمه عن العقول، وستره بصنعِ قُدْرتهِ عن القلوب، وأظهر للقلوبِ علومَ عقولِها، وأشهدَ للعقول عُرفَ معقولِها، بلطفه وحنانه ورحمته وإحسانه.

وبلغنا فى الأخبار السالفة[٢]: أنّ وليًا من أولياء الله عزّ وجلّ من الصديقين ابتعثه فى الفترة إلى مَلِك من الجَبابرة يدعوه إلى التوحيد، وإلى شريعة الأنبياء. فسأله الملك عن أشياء من معانى التوحيد، فجعل الصِّدِّيق يجيبه عنها بما يقرُب من فهمه، ويدركه عقلُه؛ مِن ضَرْب[٣] الأمثال بما يستعمله الناس بينهم، ويتعارفونه عندهم. إلى أن قال له المِلكُ: أفرأيتَ ما يأتى به الأنبياءُ إذا ادّعيت أنه ليس بكلام النّاس ولا رأيهم، أمِن كلامِ الله هو؟

قال الحكيم: نعم. قال الملك: فكيف يُطِيق الناسُ حمله؟

قال الصدّيق: إنّا رأينا الناس لما أرادوا أن يُفهموا بعضَ الدّواب والطيرَ ما يريدون من تقديمها وتأخيرها وإقبالها وإدبارها، لم يجدوا الدّوابّ والطير تحمل كلامهم، فوضعوا لها من النقر والصّفير والزجر ما عرفوا أنها تطيق حمله. فكذلك الناس يعجزون أن يحملوا كلامَ الله بكنهه وكمال صفاته[٤]، فصاروا بما يتراجعون به بينهم من الأصوات التى يسمعون بها الحكمة[٥]، كصوت الزّجر والنقر الذى سمعت به الدّواب من الناس. ولم يمنع ذلك معانى الحكمة المخبوءة فى تلك الأصوات من أن يشرُف الكلامُ، فشرفت الأصوات لشرفها، وعظم

(١) فى (ط): «جعل له. . . قسم له»، وأثبت ما فى (ك).

(٢) هذا الخبر لم يرد فى المخطوط، وقد أورده صاحب الإتحاف ٤/ ٥٠٢، والغزالى فى إحيائه ١/ ٢٨٠ ـ ٢٨١. ونص الزبيدى على لفظ القوت، وعلى نقله قابلت هذا الخبر.

(٣) فى (ط): «ضروب» وأثبت ما فى الإتحاف، لأنه أدق.

(٤) فى (ط): «ككنهه بكماله وصفته» وأثبت ما فى الإتحاف.

(٥) فى (ط): «فصاروا بما تراجعوا بينهم من الأصوات التى سمعوا بها الحكمة» وأثبت ما فى (ك).

لتعظيمها[١]. فكان الصوتُ للحكمة جسداً ومسكنًا، والحكمة للصوت نفسًا وروحًا. فكما أن أجساد البشر تُكرَّم وتُعَزُّ لمكان الروح التى فيها، فكذلك أصوات الكلام تُشرَّف وتُكرَّم للحكمة التى فيها. والكلامُ على المنزلة رفيعُ الدرجةِ، قاهرُ السُّلطان، نافذُ الحكم فى الحقّ والباطل. وهو القاضى العادل، والشاهد المرتضى؛ يأمر وينهى. ولا طاقة للباطل أن يقوم قدّام كلام الحكمة، كما لا يستطيع الظلُّ أن يقوم قدّام[٢] شعاعِ الشّمس، ولا طاقة للبشر أن ينفذوا غور الحكمة، كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس، ولكنهم ينالون من شعاع الشمس ما تحيا به أبصارهم، ويستدلون به على حوائجهم.

فالكلامُ كالملك المحجوبِ، الغائبِ وجهُهُ، الشاهدِ أمرُه، وكالشمس العزيزة الظاهرة، مكنون عنصرها[٣]، وكالنّجومِ الزاهرة التى قد يهتدى بها من لا يقع على سرّها. فالكلامُ أعظمُ وأشرفُ من ذلك، هو مفتاح الخزائن النفيسة[٤]، وباب المنازل العالية، ومراقى الدّرجات الشّريفة، وشراب الحياة الذى مَنْ شرب منه لم يمُت، ودواءُ الأسقام التى مَنْ سقى منه لم يَسقم. إذا لبسه مَنْ لم يتسلّح به أبدى عورته، وإذا تسلح به غير أهله لم يخرج إلا منهم.

نقلتُ هذا نقلاً من كلام الصّدّيق الحكيم الذى خاطب به الملك، فاستجاب له بإذن الله عزّ وجلّ. فهذا وصف كلام الله عزّ وجلّ، الذى جعله اللهُ لنا آيةً وعبرة، ونعمةً علينا ورحمة.

فانظر إلى الحكيم كيف جعل عقولَ البشرِ فى فهمِ كلام الله العظيم بمنزلة فهم البهائمِ والطير بالنقر والصّفير إلى عقول البشر، وجعل النقر والصّفير والإفهام من الناس للأنعامِ والهوامِّ مثلاً لما أفهم اللهُ تعالى به الأنامَ من معانى كلامه الجليل، بما

---

(١) فى (ط): «أن شرف الكلام بشرفها وعظم بتعظيمها» وأثبت ما فى إحدى نسخ القوت التى نقل عنها الزبيدى ونص على ذلك، لأنه كان بين يديه عدة نسخ من القوت. ورواية الإتحاف والإحياء: «لشرفها وعظم لتعظيمها».

(٢) هكذا فى المطبوعة والإتحاف.

(٣) نص الإتحاف ٤/ ٥٠٣ على بعض نسخ القوت: «وعنصرها مكنون».

(٤) فى (ط): «النفسية» وأثبت ما فى الإتحاف.

ألهمَهم فيه[١] من الكلام، ﴿إنّ ربّى لَطيفٌ لما يَشاءُ إنّه هُو العَليمُ الحَكيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]. فهذه قدرةٌ لطيفةٌ من قدرته التى لا تتناهى، وحكمةٌ مُحكمةٌ من حِكَمِه التى لا تُضاهَى، إنّه حكيمٌ عليمٌ[٢].

ثم ليشهد العبدُ أنّه مقصودٌ بجميعِ القرآنِ من فاتحته إلى خاتمته، مرادٌ معْنىٌّ به، له ضربت الأمثال به[٣]، وفيه جميعُ ذكرِه وأوصافه؛ لأنّ اللهَ سبحانه وتعالى لما تكلّم بهذا الكلامِ وخاطب به المؤمنين، كان هو واجدهم، وكان حاضراً معهم، وقد سوّى اللهُ عزّ وجلّ بين المؤمنين فى تنزيل القرآن عليهم وبين النبى ﷺ بمعنًى من المعانى، فقال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُم وَمَا أَنْزلَ عَلَيْكُم منَ الكتَاب والحِكْمَة يَعظُكُم به﴾ [البقرة: ٢٣١]، كما قال: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كتَابًا فيه ذكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وكذلك قال: ﴿وأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ولَعَلَّهُمْ يَتفكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]. وقال: ﴿كَذَلكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أمْثَالَهُمْ﴾ [محمد: ٣] يعنى صفاتهم. وقال: ﴿ولَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيكُم آيات مُبيِّنات﴾ [النور: ٣٤]. كما قال: ﴿ولَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آيات بيِّنات﴾ [البقرة: ٩٩][٤]. وقال عزّ وجلّ: ﴿واتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ واصْبِرْ﴾ [يونس: ١٠٩]. ثم قال: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُم﴾ [الأعراف: ٣]. وقال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢].

غير أنّه سبحانه عمَّ الجملة بالبصائر والبيان، وخصّ بالهدى والرحمة أُولى التّقى والإيمان. فمن ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿هذا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]، ﴿هذا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

(١) فى (ط): «بما ألهم به» وأثبت ما فى الإتحاف.
(٢) إلى هنا ينتهى السقط من المخطوط، وكذا النقل المتصل للزبيدى من نسخ القوت.
(٣) فى (ك): «معْنًى به، له ضربت أمثاله به».
(٤) أتم فى (ك) بعض الآيات.

فالموقنون هم المتّقون، والمهديّون هم المرحومون، وقد أُمرنا بطلب فهم القرآن، كما أُمرنا بتلاوته، فروى عن النبى ﷺ أنّه قال: «اقرؤوا القرآنَ والْتَمسوا غَرائبه».

وقال ابنُ مسعود: مَن أراد علمَ الأوّلين والآخرين فَليُثَوِّرِ القرآن[١].

ومن حديث على رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «والذى بعثنى بالحق نبيًا لتفترقنّ أمّتى على أصل دينها وجماعتها على اثنين وسبعين فرقة، كلّها ضالّة مضلّة يدعون إلى النّار، فإذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله عزّ وجلّ؛ فإنّ فيه نبأ ما كان قبلكم، ونبأ ما يأتى بعدكم، وحُكمَ ما بينكم. مَن خالَفَهُ من الجبابرةِ قصمه الله، ومَن ابتغى العلمَ من غيره أضلّه الله. وهو حبلُ الله المتين، ونورُه المبين، وشفاؤه النافع، عصمةٌ لمن تمسّك به، ونجاةٌ لمن اتّبعه، لا يَعْوَجّ فيُقام، ولا يزيغ فيستقيم[٢]، ولا تنقضى عجائبه، ولا يَخْلُقه كَثْرةُ الردِّ. هو الذى سمعتُه الجنُّ فلمّا قُضى ولّوْا إلى قَوْمهم منذرين، فقالوا: ﴿**إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ**﴾[٣] [الجن: ١ ـ ٢]. من قال به صَدَق، ومن عَمِل به أُجر، ومن تَمسّك به هُدى إلى صراط مستقيم».

وروينا معناه فى حديث حذيفة لما أخبره رسول الله ﷺ بالاختلاف والفُرقة بعده. قال: «فقلتُ: يا رسولَ الله، فما تأمرنى إن أدركتُ ذلك؟ فقال: تعلّم كتابَ الله عزّ وجلّ واعمل بما فيه، فهو المخرجُ من ذلك. قال: فأعدتُ عليه. فقال: تعلّم كتابَ الله عزّ وجلّ واعمل بما فيه، فهو المخرج من ذلك. قال: فأعدتُ عليه. فقال: تعلّم كتابَ الله واعمل بما فيه، ففيه النجاةُ، ثلاثًا».

وعن على رضى الله عنه قال: «ما أسرّ إلىّ رسول الله ﷺ شيئًا كتمه الناسَ إلاّ

---

(١) معنى «فليثور القرآن»: «تثويرُ القرآن: قراءتُهُ ومفاتَشةُ العلماء به فى تفسير معانيه، وقيل: لينقِّر عنه ويفكر فى معانيه وتفسيره وقراءته» عن لسان العرب (ثور)، وفيه الخبر، وفى الإتحاف: ٤/ ٥٠٩. والرواية فى (ك): «فليثُر» ونص الإتحاف على هذه الرواية، وقال: «رواه الديلمى عن أنس بن مالك».

(٢) فى (ك): «فيقوم».

(٣) فى المطبوعة و (ك): «فقالوا يا قومنا» وهو خطأ ظاهر فى القرآن.

أن يؤتى الله عبدًا فهمًا فى كتابه». وعنه رضى الله عنه أنه قال: ومَن فَهم فسَّر [جميع][(١)] جُمَل العلم.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما وغيره فى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيرًا كَثيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩] قال: الفهم فى كتاب الله عزّ وجلّ.

وقال أحسن القائلين: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمانَ وكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء:٧٩] فرفع الفهمَ مقامًا فوق الحُكم والعلم، وأضافهُ إليه؛ للتخصيص، وجعله مقامًا عامًا فيهما.

فإذا فهم العبدُ الكلامَ، وعامل به المولى، تحقّق بما يقول، وكان من أصحابه[(٢)]، ولم يكن حاكيًا لقائله، مثل أن يتلو منه: ﴿إنِّى أَخَافُ إنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس:١٥]، ومثل أن يقول: ﴿ربَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وإلَيْكَ أَنَبْنَا وإليكَ المصيرُ﴾ [الممتحنة:٤]، ومثل قوله: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ [إبراهيم:١٢]، فيكون[(٣)] هو الخائف لليوم العظيم، ويكون هو المتوكّل المنيب، وهو الصابر على الأذى؛ توكلاً[(٤)] على المولى، ولا يكون مخبرًا عن قائل قاله، فلا يجد حلاوةَ ذلك ولا ميراثَه [حتى يكون على وصفِ ما ذكرتُ][(٥)] وإذا كان هو كذلك وجد حلاوةَ التلاوةِ، وتحقق جزء[(٦)] الولاية.

وكذلك إذا تلا الآى المذمومَ أهلها، الممقوت فاعلها، مثل قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فى غَفْلَة مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:١]، وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إلاَّ الحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم:٢٩]، ومثل قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئكَ هُمُ

---

(١) زيادة من (ك).

(٢) فى (ك): «تحقق بما أقول وكان من أهله».

(٣) فى (ك): «بأن يكون».

(٤) فى (ط): «متوكل» وأثبت ما فى (ك)، لأنه أدق.

(٥) ساقطة من (ط).

(٦) فى (ك): «بحسن».

الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات:١١]. فما أقبحَ من يعيب[١] ذلك وهو من أهله، وما أعظمَ أن يذمَّ أهلَ ذلك وهو بوصفه! فهذا من حُجج القرآنِ عليه، فلا يجد مع ذلك حلاوةَ المناجاة، ولا يسمع خطابَ المناجى؛ لأنّ وصفَه المذموم قد حجبه، وهواه المردى عن حقيقةِ الفَهم قد حرمَه، ولأنّ قسوةَ قلبه [صدّه][٢] عن الفهم، وصرَفَه وكذّبه فى حاله عن البيان وأخْرسه.

فإذا كان هو المتيقظ المقبل، [وبان][٣] هو التائب الصادق، سمع فصلَ الخطابِ، ونظر إلى الداعى وله استجاب.

وقد اشترط اللهُ عزّ وجلّ الإنابةَ للتبصرة[٤]، وحضورَ القلب للتذكرة، فقال عزّ وجلّ: **﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾** [ق:٨]، وقال: **﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ﴾** [غافر:١٣]، وقال عزّ وجلّ: **﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُواْ الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾** [الرعد:١٩، ٢٠]. فالاستقامة على التوبة من الوفاء بالعهد، وتعدّى الحدود من نقضِ الميثاق وقلّة الصدق. والإنابةُ: هى التوبةُ بالإقبالِ[٥] على الله عزّ وجلّ. والألباب: هى العقولُ الزاكية والقلوب الطاهرة.

وينبغى للتّالى الخائفِ النّاصحِ لنفسه وللخَلْقِ، السليمِ القلبِ، إذا تلا آى الوعد والوعيد[٦] والمدح ومحاسن الوصفِ ومقاماتِ المقربين، أن لا يشهد نفسَه هناك، ولا يراها مكانًا لذلك، بل يشهد للمؤمنين فيها، وينظر إلى الصدِّيقين منها سلامةً ونُصحًا. فإذا تلا الآى المقوت أهلها، المتهدَّد عليها[٧]، المذموم وصفها من مقامات الغافلين وأحوالِ الخاطئين، شهد نفسه هناك، وأنّه هو المخاطَبُ المقصودُ

(١) فى (ك): «أن يعيب».
(٢) ساقطة من (ط).
(٣) ساقطة من (ط) وفيها: «فهو التائب».
(٤) فى (ط): «للإنابة التبصرة» وأثبت ما فى (ك).
(٥) فى (ط): «والإقبال» وأثبت ما فى (ك).
(٦) فى (ط): «إذا تلا الآى الوعد».
(٧) فى (ك): «المقوت فيها، المصر عليها».

بذلك، خوفًا منه وشفقًا. فبهذه المشاهدةِ يرجو للخلق[١] ويخاف على نفسه، ومن هذه الملاحظة يُسلم قلبه للعباد ويَمقُت نفسه.

وروينا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول: اللّهم إنى أستغفرك لظلمى وكفرى. قال: فقلتُ: يا أمير المؤمنين، هذا الظلم فما بال الكفر؟ فتلا قوله [تعالى]: ﴿إنَّ الإنسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فإن قُلِب هذان المعنيان على عَبد حتى يشهد نفسه فى المَدْح والوصف، ويشهد غيرَه فى الذم والمقتِ، انقلب قلبُه عن وجهة الصادقين، وتنكَّب بقصده عن صراط الخائفين، فهلَك وأهْلك؛ لأنّ من شهد[٢] البعدَ فى القُرب لُطِفَ له بالخوف، ومن شهد القربَ فى البعدِ مُكِرَ به فى الأمن.

وقال بعض العلماء: كنتُ أقرأ القرآنَ فلا أجد له حلاوة، حتى تلوته كأنّى أسمعه من رسول الله ﷺ يتلوه على أصحابه. ثم رُفعتُ إلى مقام فوقه[٣] فكنتُ أتلوه كأنّى أسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله ﷺ. ثم جاء الله بمنزلة أخرى، فأنا الآنَ أسمعُه من المتكلِّم عزّ من قائل، فعندها وجدتُ له نعيمًا ولذّة لا أصبر عنها.

وقال عثمان رضى الله عنه أو حذيفة: لو طَهُرت القلوبُ لم تَشبع من تلاوةِ القرآن.

وقال ثابت البنانى: كابدتُ القرآنَ عشرينَ سنة، وتنعَّمتُ به عشرين سنة.

وقال بعضُ علمائنا: لكل آيةٍ ستون ألفَ فَهْمٍ، وما بقى من فهمها أكثر.

وعن على رضى الله عنه: لو شئتُ لأوقرت سبعين بعيرًا من تفسيرِ فاتحة الكتاب[٤].

(١) فى (ك): «يرجو للخالق».
(٢) فى (ك): «أشهد».
(٣) ليس هناك مقام لمخلوق أعلى من مقام رسول الله ﷺ، ولعله يقصد الترتيب الزمانى فى نزول القرآن.
(٤) الخبر فى الإتحاف ٤/ ٥١١، ونقل تفسيرًا له، فراجعه ثَمَّ.

وعن أبى سليمان الدّارانى: إنى لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال، وذكر خمسَ ليال، ولولا أنّى أقطع الفكرَ فيها لما جاوزتُها إلى غيرها.

ورُوينا عن بعض السّلف: أنّه بقى فى سورة هود ستةَ أشهر يكررها، ولا يفرغ منها.

وحُدثنا عن بعض العارفين قال: لى فى كل جمعةٍ ختمةٌ، وفى كل شهرٍ ختمة، وفى كل سنةٍ ختمة، ولى ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد. يعنى ختمةَ الفَهْمِ والمشاهدة. وكان هذا يقول: أقمتُ نفسى فى العبودية مقام الأُجَرَاءِ، فأنا أعمل مياوَمَةً، ومجامَعَةً، ومشاهَرةً، ومسانهةً[١].

وإنّما حجب [الله] الخلقَ عن فهم كنه الكلام، ومعرفة كلية المراد[٢]؛ لأنّه حجبهم عن حقيقة كنه معرفته. وإنّما أعطاهم من معرفةِ الكلام بقدر ما أعطاهم من معرفة المتكلّم، إذ بمعانى كلامه تُعرف معانى صفاته وأفعاله وأحكامه؛ لأنّ معانى كلامه عين معانى أوصافه وأخلاقه؛ فلذلك جاء فيه السّهل اللطيف، والشديد العسُوف[٣]، والمرجو والمخوف؛ لأنّ من أوصافه الرحمةَ واللطف والانتقام والبطش. فلمّا لم يصلح أن يعرفوه كعلمِه بنفسه لم يصلح أن يعلم كنهَ كلامه إلا هو، كما لا يعرف[٤] كنه صفاته إلا هو.

فأعلمُ الخلقِ لمعانى كلامه أعرفهم لمعانى الصفات[٥]. وأعرفُ العباد بمعانى الأوصاف والأخلاق وغوامض الأحكام أعرفهم بسرائر الخطاب، ووجه الحروف، ومعانى باطن الكلام، وأحقهم بذلك أخشاهم له، وأخشاهم له أقربهم منه،

(١) شرح الزبيدى هذا الخبر فقال: «الأجراء جمع أجير، وهو من يستعمل نفسه بالأجرة. ومياومة: وهى معاملة يوم بيوم، وهى لغة العامة. ومجامعة: وهى معاملة الجمعة إلى الجمعة، ولم يسمع استعماله عن العرب. ومشاهرة: من الشهر إلى الشهر. ومسانهة: من السنة إلى السنة» اهـ ملخصًا.

(٢) فى (ط): «ومعرفة سرّ المراد» وأثبت ما فى (ك).

(٣) الشديدُ العسُوف: يقصد البعيد المعانى، والذى يحتاج إلى تأويل لفهمه.

(٤) فى (ط): «هو، ويعرف» وأثبت ما فى (ك).

(٥) فى (ك): «فأعلم الخلق بمعانى كلامه أعرفهم بمعانى الصفات».

وأقربهم منه مَنْ خصّه بأثرته وشمله بعنايته. فقد جاء فى الخبر: «أحسنُ الناس صوتًا بالقرآن مَن إذا قرأ رأيتَ أنّه يخشى الله». ولا يخشاه حتى يعرفه، ولا يعرفه حتى يعامله، ولا يعامله حتى يقربه، ولا يقربه حتى يُعنى به وينظر إليه؛ فعندها يعرف سرّ الخطاب، ويطلع على باطن أصل المراد، وفهم الكتاب[1].

فإذا سجد العبدُ سجودَ القرآنِ، فَلْيدعُ فى سجدته بمعانى الآية من الخير، وليستعذ من معانى شرّها، فإن ذلك فعل العلماء بالقرآن، والله يحب ذلك، ولتلك المعانى أسجدهم له. مثل أن يقرأ قوله عزّ وجل: ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥]، فيقول: اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك، المسبِّحين بحمدك، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك، أو على أوليائك. ومثل هذا قوله عزّ وجلّ: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩]، فليقل: اللّهم اجعلنى من الباكين إليك، الخاشعين لك. وعلى هذه المعانى ونحوها[2].

وليكن القرآن هو علمه وعمله، وذكره ودعاؤه، وهمّه وشغله، فعنه يُسأل، وعليه يُثاب، ومقامُه منه، وذكره فيه، وأحواله فيه، مجموعٌ له ذلك كلّه فيه. فبكلامِهِ عرفه العارفون، وبمخاطبته شهد أوصافه الموقنون، فعلومهم من كلامه[3]، ومواجيدهم من علومهم، ومشاهدتهم من معانى أوصافه، وكلامهم عن مُشاهدتهم؛ لأنّ ضروب الكلام عن الله هى معانى الصفات[4]، فمنه كلام راضٍ ومنه كلام غضبان، ومنه كلام مُنْعِم، وكلام مُنتقم، ومنه كلامُ جبّار متكبّر،

(١) فى (ط): «ويطلع على باطن الكتاب» وأثبت ما فى (ك)، وفى الإتحاف كلام جيد ومفيد فى حظ التالى من القرآن ومعرفة صفات الله تعالى، فراجعه ثم: ٤/ ٥٠٨.

(٢) عقد الحكيم الترمذى فصلاً جيدًا فى سجدات القرآن، وما لكل منها من الأدعية الخاصة، لكنه سقط من النسخة المطبوعة التى بيدى، وهو ثابت فيما نقله عنه الزبيدى فى الإتحاف ٤/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣. فهذا مما يستدرك على مطبوعة «نوادر الأصول».

(٣) فى (ك): «من كلامهم».

(٤) فى (ك): «لأن ضروب الكلام هو عن الله تعالى معانى الصفات».

وحنّان [عطوف][١] متعطّف.

فإذا كان العبد من أهل العلم بالله والفهم عنه، والسّمع من الله عزّ وجلّ والمشاهدة له، شهد ما غاب عن غيره، وأبصر ما عمى عنه سواه. وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٣٩]. وقال عزّ وجلّ: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢] معناه فى الفهم: اعبروا إلىّ فقد أبصرتم. و«التاء» قد تكون بمعنى التفعيل[٢]، تدخل للتحقيق والوصول[٣] بالوصف والمبالغة فى الفعل، فلما أعطاهم الأيدى والأبصار عَبَرُوا بقلوبهم[٤] إلى ما أبصروا، ففرّوا إلى الله عزّ وجلّ من الخلق حين ذكَرُوه بما خلق، فخرجوا على[٥] معيار حسن الابتلاء، ولم ينقصهم البلاء شيئًا، فكانوا كما أخبر والذى[٦] أمر فى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوا إِلَى اللهِ﴾ [من الأزواج][٧]، ثم قال: ﴿وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلهًا آخَرَ﴾ [الذاريات: ٤٩ ـ ٥١] فكانوا هم الموحدين المخلِصين له، وكان هو المنفردَ المستخلِصَ لهم. ثم جاوزوا التذكرةَ بالأشياء[٨] إليه، فذكروه عنده به، فحينئذ هربوا إليه منه حين هلّلوه به، فلم يتألّهوا إلى ما سواه، كما لم يعبدوا إلا إيّاه، وكذلك رأيتُها فى مصحف عبد الله: «فَفِرُّوا إلى اللهِ منه إنّى لَكُم مِنْهُ نَذيرٌ مُبين».

وفى الخبر عن ابن مسعود، وبعضُ الرواةِ يرفعُه، وقد رويناه مسندًا من طريقٍ: «إنَّ للقُرآنِ ظَهْرًا وبَطْنًا وحدًا ومُطَّلعًا». فنقول: فظاهره لأهل العربية، وباطنه لأهل اليقين، وحدُّه لأهل الظاهر، ومطّلعه لأهل الإشراف، وهم خصوص

(١) ساقطة من (ط).
(٢) فى (ط): «فالتاء قد تكون بمعنى تاء التفعل» وأثبت ما فى (ك).
(٣) ليست فى (ك).
(٤) فى (ط): «بقواهم» وأثبت ما فى (ك).
(٥) فى (ك): «عن».
(٦) فى (ط): «كما أخبروا كالذى» وأثبت ما فى (ك) فهو أصح وأدق.
(٧) ساقطة من (ط).
(٨) كذا فى المطبوعة والمخطوطة، ولعلها «بالانقياد إليه».

العارفين من المحبين والخائفين، اطلعوا على لطف المطّلع، بعد أن خافوا هول المطْلَع، فأُودعوا السرّ عند مقام أمين، وأُوقفوا على الخبر فى حال مكين، فكانوا لديه مقرَّبين، إذ كانوا به شاهدين[١].

وقال النبى ﷺ: «يرى الشاهد ما لا يرى الغائب». فمن حضَر شهد، ومن شهد وجد، ومن وجد وحّد، ومن وحّد عزّز، ومن غاب عمِى، ومن عمِى فُقِد، ومن فُقِد نَسِى، ومن نَسى فقد نُسى، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿**كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى**﴾ [طه:١٢٦] أى تركتها فلم تعبأ بها، ولم تنظر إليها، وهكذا اليوم تُترك فلا يُنظَر إليك برحمة، ولا تُكلَّم بلطف، ولا تُزلف بقُرب[٢].

***

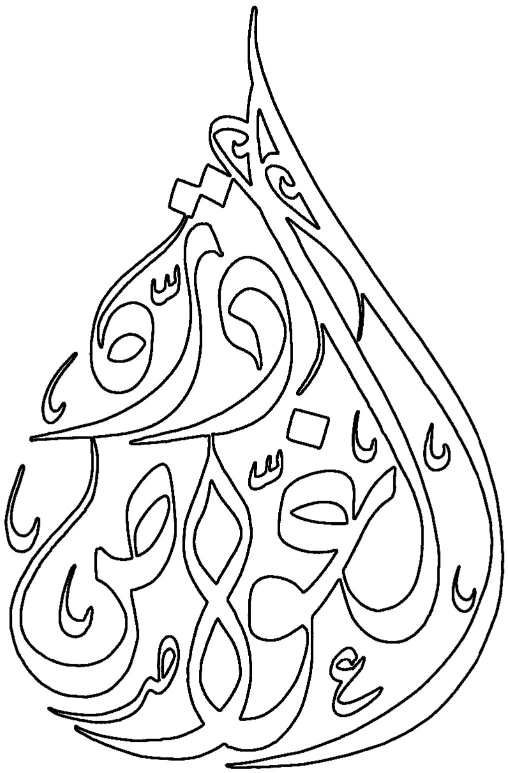

(١) بعض هذه الجمل السابقة تكرر فى المطبوعة قبل خبر ابن مسعود، وليس كذلك فى (ك).

(٢) هذه الفقرة برمتها ليست فى (ك).

الفصل السابع عشر

فيه كتاب ذكر نوع من المفصل والموصل من الكلام، وفيه مدح العالمين (١)، وذم الغافلين عنه، وتفسير الغريب، والمشكل من القرآن، باختصار الأصول الدالة على المعنى

فأمّا ظاهرُ الكلامِ فعلى مَعْنَيين عَجِيبين، وهو مجملٌ مختصرٌ، وموصل مكرّر. فإجماله واختصارُه للبلاغة والإيجاز، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٦]، ومكرره وتَفْصيله للإفهام والتذكار. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١].

وقال عزّ وجلّ فى المبهم المجمل والتوحيد المفصّل: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، فهذه ثلاثة أسماء: الله، لطيف، رحيم. وقيل: بل هى حروفٌ من اسم وهو الرحمن، ثم أظهر السَّبب فقال: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ يعنى بالتوحيد، ثم ﴿فُصِّلَتْ﴾ أى بالوعد والوعيد، ثم قال: ﴿مِن لَدُن حكيم﴾ أى للأحكام ﴿خبير﴾ أى بالأحكام، خبير بالتفصيل للحلال والحرام ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلا اللهَ﴾ هذا هو التوحيد الذى أحكمه ﴿إِنَّنِي لَكُم مِنهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ١ ـ ٢] هذا هو الوعد والوعيد الذى أعلمه.

فمن المختصر للإيجاز قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]، ففى هذا مختصر ومحذوفان؛ فالمُضْمر قوله: ﴿مُبصرة﴾ المعنى: آية مبصرة، فأُضمر. ومحذوفاه: قوله: ﴿فظَلَمُوا بِها﴾ المعنى: ظلموا أنفسهم بالتكذيب بها، فاختصرت كلمتان من كلمتين للإيجاز.

---

(١) فى (ك): «العاملين به» وهذا العنوان مختصر فيها.

ومثله قوله: ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِها﴾ [البقرة:٢٥٩] الخواء: الخلاء. والعروش: السقوف، وهو جمع عَرش، فكيف تكون خاوية من العروش، والعروش موجودة فيها. فهذا من المختصر المحذوف، ومعناه: وهى خاوية من ثمرها، أو من أهلها، واقعة على عروشها.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [البقرة:١٧٧]، حُذف الفعل وأُقيم الاسم مقامه، فالمعنى فيه: ولكن البرَّ برُّ مَن آمن بالله. وقد يكون من المبدل، فيكون المحذوف هو الاسم أُبدل الفعل مكانه، والمعنى: ولكن البر، [أى الرجل البَرُّ][1] مَن آمن بالله، فلمّا كان البرُّ وصفَه أُقيم مكانه.

وبمثل المعنى الأول قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأُشْرِبُوا فى قُلُوبِهِمُ العِجْلَ﴾ [البقرة:٩٣] أى حب العجل.

ومن ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف:٧٤]، ولم يذكر قَتلَه. والمعنى: بغير نفس قَتلها، فحذف الفعل.

ومثله: ﴿أنَّه مَنْ قَتَل نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فى الأَرْضِ﴾ [المائدة:٣٢] أضمر قوله: ﴿بغَيْرِ نَفْسٍ﴾ قَتَلها، أو بغير ﴿فسادٍ فى الأرضِ﴾، فاكتفى عنه بذكر «غير» الأولى.

وكذلك قوله: ﴿مَنْ فِى السَّمَواتِ والأرضِ﴾ [آل عمران:٨٣] معناه: ومن فى الأرض.

وكذلك قوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بالدِّين﴾ [التين:٧]، هو متصل بقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِى أحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] وفصل بينهما النعت والاستثناء، والمعنى: فما يكذبك بعد هذا البيان أيّها الإنسان بالدِّيانة فأى شيء يحملك على التكذيب، بأن تدين لله تعالى، وهو أحْكَمُ الحاكمين؟

---

(١) كانت العبارة ناقصة مضطربة فى المطبوعة هكذا: «فيكون المحذوف هو اسم أبدل الفعل مكانه ولكن البر من آمن بالله» وأصلحتها من (ك).

ومن المبدل المضمر أيضًا: ﴿إذًا لأذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاة وَضِعْفَ المَمات﴾ [الإسراء:٧٥] المعنى: ضعف عذاب الأحياء وضعف عذاب الموتى، فأضمر ذكر العذاب، وأبدل الإحياء والممات[1] بذكر الحياة، فأقام الوصفَ مقامَ الاسم. ويصلح أيضًا أن يترك الوصفَ على لفظه، ويضمر «أهل»، فيكون ضعف عذاب أهل الحياة وضعف عذاب أهل الممات، كما أضمر «أهل» فى ذكر القرية وذكر العِير فقال: ﴿وَسْئَلِ القَرْيَةَ الَّتى كُنَّا فِيها والعِيرَ الَّتى أقْبَلْنَا فيهَا﴾ [يوسف:٨٢]، والمعنى: واسأل أهلَ القريةِ، واسأل أهل العير.

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فى السَّمَوات وَالأَرْضِ﴾ هو من المبدل المضمر، فمبدله ﴿ثَقُلَت﴾ ومعناه: خفيت، أُبدل بدلالة المعنى عليه؛ لأنّ الشىءَ إذا خَفِىَ علمه ثَقُلَ. وكذلك قوله ﴿فى السموات﴾ معناه: على، ومضمره «أهل»، والمعنى: خفيت على أهل السموات وأهل الأرض، ﴿لا تَأتِيكُم إلاَّ بَغْتَةً﴾ [الأعراف:١٨٧] يعنى: فجأة.

ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿تَفْتَؤُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٥]. فيه مضمر، ومحذوف. فمحذوفه «تزال» ومضمره «لا» التى هى جواب القسم. والمعنى: قالوا: تالله لا تزال تفتؤ تذكر يوسف، فأُضمرت لا وأُبدلت «تزال» بقوله: ﴿تَفْتَؤُ﴾، وهى من مختصر الكلام وفصيحه وبليغه، وهى لغة لبعض العرب، وفى القرآن من كل لغة.

ومن هذا قوله عزّ وجلّ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:٨٢]، وقوله سبحانه: ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ الله كُفْرًا﴾ [إبراهيم:٢٨]، معناه: تجعلون شكر رزقكم أنّكم تكذِّبون، وكذلك بدّلوا شكر نعمةِ الله كفرًا بها.

ومثله: ﴿فَكَأَيِّن مِنْ قَرْيَة أهْلَكْنَاهَا﴾ [الحج:٤٥]، ﴿وَكَأَيِّن مِنْ قَرْيَة أمْلَيْتُ لَهَا﴾ [الحج:٤٨]، معناه: أهلُ قرية، مثل قوله: ﴿وَسْئَلِ القَرْيَةَ التى كُنَّا فيها

(١) فى (ط): «والموتى» وأثبت ما فى (ك).

﴿والعيرَ﴾[1] [يوسف:٨٢] المعنى: أهل العير، والعير هى الإبل المجهولة، وهذا الذى يُسميه النحويون: «المجاز».

وكذلك قوله: ﴿إنَّ هَذَا القُرآنَ يَهْدِى للَّتى هىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩] معناه: للطريقة التى هى أقوم. ومثل هذا قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقُلْ لعبَادى يَقُولُوا الَّتى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء:٥٣] أى: يقولوا الكلمة التى هى أحسن.

ومثل هذا قوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتى هِىَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون:٩٦] أى: بالكلمة أو بالفعلة التى هى أحسن. ومثل قوله: ﴿إنَّ الَّذينَ سَبَقَتْ لَهُمْ منَّا الْحُسْنَى﴾ [الأنبياء:١٠١] أى: الكلمة الحسنى. والوجه الآخر: أن الحسنى اسم لا نعت، فمعناه: الجنة. وهكذا قوله: ﴿عَلَى مُلْك سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة:١٠٢] أى: على عهد ملك سليمان، فأضمر «عهد». ومثل قوله: ﴿وآتنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلكَ﴾ [آل عمران:١٩٤] أى: على ألسنة رسلك، فأضمر «ألسنة».

ومن المكنَّى المضمر قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْسانيهُ إلاَّ الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف:٦٣] أضمر الحوتَ وذكرَه واسْمَ موسى للاختصار، والمعنى: وما أنسانى ذكرَ الحوتِ لك إلا الشيطان.

ومثله قوله: ﴿إنَّا أَنْزَلْنَاهُ فى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر:١] أى: أنزلنا القرآن، فكنَّى عنه ولم يتقدّم له ذِكْر.

وكذلك قوله: ﴿حتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص:٣٢] يعنى: توارت الشمس بحجاب الليل، فكنَّى عنها ولم يجرِ لها ذكر.

ومثله قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إلاَّ الَّذينَ صَبَرُوا﴾ [فصلت:٣٥] أى: الكلمة الطيبة أو الفعلة التى هى أحسن. وبمعناه قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُلَقَّاهَا إلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ [القصص:٨٠] يعنى: كلمة الزهد فى الدنيا، ومقالة الترغيب والرغبة فى الآخرة،

(١) هذه الآية ليست بالمخطوط، وكانت مختلة فى المطبوعة هكذا: «وسئل العير» وليست هذه فى القرآن.

عائد على قوله تعالى: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ﴾ أي: هذه المقالة.

ومن المبدل المختصر قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾ [البقرة:٢٠٦] معناه: حملته العزة على الإثم، أي حمله التعزز والأنَفَة على الإثم ولم يبال. فأخذته بمعنى حملته بالإثم، بمعنى على الإثم.

ومن هذا قوله: ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥] أي: لا تحمله سنة ولا نوم؛ لأن السِّنَة تحمل العبد، أي تذهب به عن التيقُّظ.

ومن المنقول المنقلب قوله عزّ وجلّ: ﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ [الحج:١٣]، اللام في «لمن» منقولة، والمعنى: يدعو مَنْ ضره أقرب من نفعه. ومثله: ﴿لَتَنُوءُ بِالعُصْبَةِ﴾ [القصص:٧٦] معناه: لتنوء العصبة بها، أي لتثقل بحملها لثقلها عليهم. ومثله قوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين:٢]، ﴿سَلاَمٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات:١٣٠] وهو مما قلب اسمه، لازدواج الكلم. المعنى: طور سينا وسلام على الياسين، قيل: إدريس، لأن في حرف ابن مسعود: «سلام على إدريس». ونحوه: ﴿جَعَلُوا القُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر:٩١] أي: إعضاه، كأنهم عَضوه، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض. وبمعناه: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ والخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة:٦٠] المعنى: وجعل منهم من عبدَ الطاغوتَ. ويصلح أن يكون معطوفًا على قوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ ومَنْ ﴿عَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾. ومن قرأ: «الطاغوت»[1] بالكسر فإنه يجعل «عَبُدَ» اسمًا، وأضافه إلى الطاغوت، بمعنى: وعَبَدة، وعبّاد. وفيه خمس لغات أخرى: عُبّاد الطاغوت، وعُبُدَ الطاغوت، وعَبَدَةَ الطّاغوت، وعابد الطّاغوت، وعُبْدَ الطاغوت. وأما «عَبَد الطاغوتَ» نصبًا، فهو بمعنى الفعل من العبادة.

ومن المضمر المختصر أيضًا قوله عزّ وجلّ: ﴿أَلاَ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ [هود:٦٠] ضميرُه إحدى كلمتين: كفروا نعمة ربهم [أو] كفروا توحيد ربهم،

(١) قرأ حمزة وحده: «وعبُدَ الطاغوتِ»، انظر: السبعة في القراءات، ص٢٤٦.

فأُضْمِرَ للاختصار، وانتصب الاسم لسقوط الخافض. وفيها وجه غريب إلاّ أنّه محمول على المعنى؛ لأنه أي: غطّوا ربهم التغطية، أي غطوا آياته وما دعا إليه من الحق، والمعنى: كفرهم، أي غطى عليهم بما غطوا ربهم. هكذا حقيقة في التوحيد، إذ الأولية في كل فعل منه، وهم ثوانٍ فيما بعد، فهو بمعنى قوله: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩] اللبس: التغطية.

ومنه قوله: ﴿والَّذين اتَّخذُوا منْ دُونه أَوْلياءَ ما نَعْبُدُهُم﴾ [الزمر: ٣] مضمره: يقولون ما نعبدهم. ومثله: ﴿فَظَلْتُم تَفَكَّهُونَ * إنّا لَمُغْرَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥ ـ ٦٦] أي يقولون: إنّا لمغرمون. وعلى هذا المعنى وُجِّه قوله: ﴿فَمَالِ هَؤُلاء القَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَة فَمِنَ الله وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَة فَمِن نَفْسِك﴾ [النساء: ٧٨ ـ ٧٩]، المعنى فيه: يقولون ما أصابك، على معنى الإخبار عنهم والذم لهم. فهلكت بذلك «القَدَرِيّة» لجهلهم بعلم العربية، فظنّوا أنّه ابتداءُ شرع وبيانٌ من الله عزّ وجلّ، وقد أحكم الله عزّ وجلّ ابتداءَ شرعِه وبيانَهُ بأوّل الآية في قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْد الله﴾ [النساء: ٧٨].

وقد كان ابن عباس يقول: إذا اشتبه عليكم شيءٌ من القرآن فالتمسوه في كلام العرب، فإنّ الرجل يتلو الآية فيعيا بوجهها فيكفر.

وقرأتُها في مصحف عبد الله بن مسعود: «فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا. قالوا ما أصابك من حسنة». فهذا كما أنبأتكَ.

وقد رأيتُ في مصحف عبد الله: «والذين اتّخذُوا من دونه أولياءَ قالوا ما نعبدهم». فهذا من ذلك.

ومن المضمر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنا مِنكُم مَلائكَةً في الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠] ليس أنه يجعل من البشر ملائكة، ولكن معناه: لجعلنا بدلاً منكم ملائكة، ويصلح: لجعلنا بدلكم، بمعنى: منكم.

ومن المبدل له قوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١] اللام بدل من

الباء، والمعنى: وهم بها سابقون، لأنّهم لو سبقوها لفاتتهم. وعلى هذا المعنى قال بعضهم: إن قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف:١٤٣] أي بالجبل، كان الجبل حجابًا لموسى فكشفه عنه، فتجلّى به، كما قال: ﴿مِنَ الشَّجرة أَنْ يا مُوسى إنّنى أنا الله﴾ [القصص:٣٠]، فكانت الشجرة وجهةً لموسى، كلّمه الله عزّ وجلّ منها.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فى جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه:٧١] معناه: على جذوع. وكذلك: ﴿فَلا تَجْعَلْنى فِى القَوْمِ الظَّالمينَ﴾ [المؤمنون:٩٤] معناه: أى مع القوم. وبمعناه: ﴿أمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فيه﴾ [الطور:٣٨] أي: عليه، ويصلح «به». وكذلك قوله: ﴿مُسْتَكْبِرينَ بِهِ﴾ [المؤمنون:٦٧] أي: عنه، يعنى عن القرآن.

فعلى هذا مجاز قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩] أى: سل عنه. فحروفُ العوامل يقوم بعضها مقام بعض.

ومثله قوله [تعالى]: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل:١٨] أى: فيه، يعنى فى اليوم. ومثله: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [البقرة:١٥٠] معناه: ولا الذين ظلموا، فأُبدلت بإلا، ولا يجوز أن تكون «إلاّ» مستأنفة بمعنى: لكن الذين ظلموا، متصلة بخبرها من قوله: ﴿فَلا تَخْشَوْهُمْ﴾ فهو بمعنى قوله: ﴿لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إلاَّ مَنْ ظَلَمَ﴾ أى: لكن من ظلم ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ [النمل:١٠ ـ ١١]، فيكون مبتدأ لذكر خبرها بعد. وبمعناه قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إلى أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء:٢] أى: مع أموالكم. وكذلك قوله: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إلى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة:٦] أى: مع المرافق؛ لأنها داخلة فى الغسل.

والحروف العوامل تنوب بعضها عن بعض، ولو أظهر مثل هذا المضمر ووصل مثل هذا المحذوف لكانت القراءة ضعيفة.

ومن الموصول المكرر للبيان والتوكيد قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ﴾ [يونس:٦٦] قوله: ﴿إنْ يَتَّبِعُونَ﴾ مردود،

ردّه للتوكيد والإفهام، كأنه لما طال الكلام أعيد لِيَقْرُبَ من الفهم. والمعنى: ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ﴿إلاَّ الظَّنَّ﴾ ، أي: اتباعهم الشركاء ظنًا منهم غير يقين.

ونحوه من المكرر المؤكد [قوله عز وجل]: ﴿قالَ الملأُ الَّذينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِه لِلَّذينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمنَ مِنهُم﴾ [الأعراف:٧٥] اختصاره: الذين استكبروا لمن آمن من الذين استضعفوا، فلما قدّم الذين استضعفوا، وكان المراد بعضهم، كرر [للإفهام][1] المراد، بإعادة ذكر من آمن منهم للبيان. ومثله: ﴿إلاَّ آلَ لُوط إنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعينَ * إلاَّ امْرَأَتَهُ﴾ [الحجر:٥٩ ـ ٦٠]، فأدخل الاستثناء على الاستثناء، وهو يطول فى كلامهم، لأنه أراد بالنّجاة بعضَ الآل، فلما أجملهم أخرج مستثنى من مستثنى. وفى هذا دليل أنّ الأزواج من الآل، لأنّه استثنى امرأته من آله.

ومن المكرر للتوكيد قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ﴾ مختصره: فلما أراد أن يبطش. وقد قيل: إن هذا من المختصر المضمر مما أُضمر فيه الاسم وحُذف منه الفعل، وهو غريب؛ فيكون تقديره: فلما أن أراد الإسرائيلى أن يبطش موسى ﴿بالَّذى هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ فلم يفعلْ ﴿قَالَ يَا مُوسى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنى﴾ [القصص:١٩]، فهذا حينئذ من أخصر الكلام وأوجزه.

ومن المكرر المؤكد قوله عزّ وجلّ: ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كان عَاقبَةُ الَّذينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنهُمْ قُوَّةً﴾ [غافر:٢١]، مفهومه وجائزه: فينظرون كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدّ منهم قوّة، فوصل بـ «من» ووكّد بـ «كان» وعَدَّ لهم[2]، وقرأتُها فى مصحف ابن مسعود: «عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدَّ قوّة» ليس فيها «كانوا» ولا قوله «هم».

---

(١) زيادة من (ك).

(٢) فى (ط): «ووكد فكان هم أشد» وأثبت ما فى (ك).

وبمعناه، وإن قَصَر، قوله تعالى: ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الزخرف:٣٣]، هذا مما طُوِّل للبيان، والمعنى: لجعلنا لبيوت من يكفر بالرحمن، فلما قدَّم «مَنْ» وهى أسماء من يكفر أعيد ذكر البيوت مؤخرًا.

ومن المكنَّى المبهم المشتبه قوله عزّ وجلّ: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلوكًا لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَىءٍ﴾ [النحل:٧٥] الشىء فى هذا الموضع: الإنفاق مما رزق الله. وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَىءٍ﴾ [النحل:٧٦] فالشىء فى هذا الموضع: الأمر بالعدل والاستقامة على الهدى. وكذلك قوله: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِى فَلا تَسْئَلْنِى عَنْ شَىءٍ﴾ [الكهف:٧٠] الشىء فى هذا الموضع: وصف مخصوص من وصف الرّبوبية من العلم الذى علمه الخضر عليه السلام من لدنه، لا يصلح أن يسأل عنه حتى يبتدئ [هو][1] به؛ فلذلك كنّى عنه. وكذلك العلم على ضربين:

ضرب لا يصلح أن يُبتدأ به حتى يُسأل عنه؛ وهو مما لا يضيق علمه، فلذلك وسع جهله وحسن كتمه.

وعلم لا ينبغى أن يُسأل عنه، من معنى صفات التوحيد ونعوت الوحدانية، لا يُوكل إلى العقول بل يُخصّ بها المراد المحمول. فعِلْمُ الخَضِر الذى شرط على موسى عليهما السلام أن لا يسأل عنه حتى يبادئه به من هذا النوع، واللهُ غالبٌ على أمره.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىءٍ﴾ [الطور:٣٥] يعنى الله تعالى، أى: كيف يكون خَلْق من غير خالق؟ ففى وجودهم ثبوت خالق، فهم دلالة عليه أنّه خلَقهم. وروينا ذلك عن ابن عباس وعن زيد بن على رضى الله عنهما، قالا فى قوله عزّ وجلّ: ﴿مِنْ غَيْرِ شَىءٍ﴾ أى: من غير ربّ! كيف يكون خلق من غير خالق؟!

(١) زيادة من (ك).

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِى الرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١] فالبعض الأوّل المفضَّل فى الرزق هم الأحرار، والبعضُ الآخر المفضول هم المماليك.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٢٣] قرينه هذا هو المَلك الموكَّل بعلمه، أحضر ما عنده مما علِمه من فِعْله. وقوله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ [ق: ٢٧] قرينه هذا هو شيطانه المقرون به.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى الْغَىِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢] الهاء والميم المتصلة بـ «إخوان» أسماء الشياطين، والهاء والميم المتصلة بـ «يَمُدُّونَ» أسماء المشركين، أى الشياطين إخوان المشركين، يمدّون المشركين فى الغىّ ولا يقصرون عنهم فى الإمداد.

وبمعنى هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠] الهاء الأولى المتصلة بـ «يَتَوَلَّوْن» كناية عن إبليس، والهاء المتصلة بالباء من قوله «هم به» هى اسم الله عزّ وجلّ، وقد قيل أيضًا: إنّها عائدة على إبليس أيضًا، فيكون المعنى: هم به قد أشركوا فى التوحيد، أى أشركوه بعبادة الله عزّ وجلّ.

ومثل هذا قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ [العاديات: ٤ ـ ٥] «الهاء» الأولى: كناية عن الحوافر، وهنّ الموريات قدحًا، يعنى: الخيل تقدح بحوافرها فُتورى النار، «فأثرن به» أى: بالحوافر النقع، يعنى التراب. «والهاء» الثانية: كناية عن الإغارة، «فوسطن» أى توسطن به بالإغارة، وهنّ المغيرات صبحًا، وسَطْنَ جمعَ المشركين [الذى][1] أغاروا عليهم بجمعهم، والمشركون غارون.

وبهذا المعنى قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ٥٧] الهاء الأولى عائدة على السحاب، أى: أنزلنا بالسحابة الماء. وفى

(١) زيادة للبيان من تفسير القرطبى ٢٠/ ١٦٠، وهى ساقطة من (ك) و (ط).

قوله «به» مُبدل ومُكَنَّى. فالمكنى: هو ما ذكرناه من أسماء السحاب. والمبدل: أن «به» بمعنى «منه».

ومثل هذا قوله: ﴿يَشْرَبُ بها عبَادُ الله﴾ [الإنسان:٦] أى: منها، وهو صريح قوله فى المفسَّر: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ:١٤] يعنى: السحاب، وهو قوله: ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾، وقوله فى الهاء الثانية: ﴿فَأَخْرَجْنا به من كُلِّ الثَّمرات﴾ [الأعراف:٥٧]، يعنى بالماء، فجمع بين اسم السحاب والماء بالهاء فأشكل.

ومن البيان الثانى والثالث للخطاب المجمل قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذى أُنْزِلَ فيه القُرآنُ﴾ [البقرة:١٨٥] فلم يفهم إلا أن القرآن أُنزل فى شهر رمضان، ولم يُدْر أنهارًا أُنزل فيه أو ليلاً؟ فقال فى البيان الثانى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فى لَيْلَة مُبارَكَة﴾ [الدخان:٣]، فلم يُفهم منه إلا أنه أُنزل منه ليلاً فى ليلة مباركة، ولم يدر أى ليلة هى، فقال فى البيان الثالث: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر:١]، فهذا غاية البيان.

وبمعناه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّه واسْتَوى آتَيْنَاهُ﴾ [القصص:١٤]. فهذا البيان الأوّل زيادة على الأشد وهو الوصف، إلا أنه غير مفسَّر. ثم قال فى البيان الثانى: ﴿حتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وبَلَغَ أَرْبَعينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف:١٥] ففسّر الأشد بالأربعين، [إذا كانت الواو للمدح والوصف فى أحد الوجهين][(١)].

ومن الموجز ومعناه الجمع قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفى خُسْرٍ﴾ معناه: إن الناس لفى خسر، أى لفى خسران، لقوله: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر:١ ـ ٣]، ولا يُستثنى جماعة من واحد، وإنما يستثنى جماعة من جماعة أكثر منهم، وإنّما وحَّد الاسم للجنس.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحًا﴾ [الانشقاق:٦]

(١) هذه الجملة ساقطة من (ك).

معناه: يا أيها الناس إنكم كادحون، دلّ عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِه﴾ [الانشقاق:٧]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِه﴾ [الانشقاق:١٠]، وإنما وحّد النعتَ لتوحيد الاسم.

وكذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب:٧٢] معناه: حملها الناس[١] كلّهم، وهذا أحب الوجهين إلىّ، لقوله عزّ وجلّ: ﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ [الأحزاب:٧٣].

ومثله قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ معناه: وإنا إذا أذقنا النّاس منا رحمة فرحوا بها، فلما وحّد الاسم وحّد نعته، دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الشورى:٤٨] فأظهر الجمع.

ومن الجمع المراد به الواحد قوله عزّ وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥] يعنى نوحًا وَحْدَه؛ لأنّه لم يرسل إلى قوم نوح غيره. ودلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ [الشعراء:١٠٦]، فوحّد الجمع.

ومثله: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُم عَلَيْه مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَه عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [الحشر:٦] يعنى بذلك النبىَّ ﷺ وحْدَه يوم خيبر.

ومن الجَمْع المكنّى قوله عزّ وجلّ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:٥٧] الناس[٢] فى هذا الموضع: الدجالَ. ونزل ذلك فى ذكر الدجال، [ونزل ذكرهم][٣] لا ستعظامهم لوصفه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣] يعنى رجلاً واحدًا قاله لهم، وهو عروة بن مسعود الثقفى، فجمع لفظه لأجل جنسه، والعرب تجمع الواحد للجنس.

---

(١) فى (ط): «حملها ظهره» وأثبت ما فى (ك).

(٢) فى (ط): «يعنى» وأثبت ما فى (ك).

(٣) زيادة من (ك)، والعبارة كانت مضطربة فى (ط)، فقومتها من (ك).

وكذلك قيل فى أحد الوجوه أن قوله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة:١٩٩] يعنى آدم ﷺ وحده، وهو أوّل من طاف بالبيت، وأتاه جبريل، وأشعر له المناسك. وقد قرأتُ فى بعض حروف السلف: «من حيث أفاض آدم» فهذا شاهد له.

ومن المقدَّم والمؤخَّر لحسن تأليف الكَلِم، ومزيد البيان والإظهار، قوله عزّ وجلّ: ﴿مَنْ كَفَرَ بالله مِنْ بَعْدِ إيمانه إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطمَئِنٌّ بالإيمانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النحل:١٠٦] اختصاره ومؤخره: «مَنْ كفر بالله بعد إيمانه وشرح بالكفر صدرًا، فعليهم غضب من الله إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان». ولكن وكّد بقوله: ﴿ولكنْ مَنْ شَرَحَ بالكُفر صدراً﴾ لما استثنى المكره وقلبه مطمئن بإيمان، ولم يجعل المكره آخر الكلام لئلا يليه قوله: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ الله﴾ فيتوهم أنه خبره، وجعل آخر الكلام ﴿فعَلَيْهم غَضَبٌ مِنَ الله﴾ وهو فى المعنى مقدَّم خبر الأوّل، من قوله: ﴿مَن كَفَر بالله من بَعْد إيمانه﴾ فأُخِّر ليليه قولُه تعالى: ﴿ذلكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الحَياةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَة﴾ [النحل:١٠٧] لأنه من وصفهم، فيكون هذا أحسن فى تأليف الكلام وسياق المعنى.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقيله يَا رَبِّ إنَّ هؤُلاَءِ قَوْمٌ﴾ [الزخرف:٨٨]. هذا من المعطوف المضمر، ومن المقدَّم والمؤخَّر. فعاطفه قوله: ﴿وعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَة﴾ [الزخرف:٨٥] وضميره قوله: ﴿وَقيله يَا رَبِّ﴾، والمعنى: عنده علم الساعة وعلم قيله يا ربّ. هذا على حرف من كسر اللام، فأما من نصبها[1]، فإنّه مقدَّم أيضًا، ومحمول على أن المعنى: أى وعنده علم الساعة ويعلم قيله يا رب.

فأما من رفع اللام فقرأ «وقيلُه» فتكون مستأنفة على الخبر، وجوابها الفاء من

(١) قوله: «من نصبها» يقصد قراءة «قيلَهُ» وهى قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر وأبى عمرو والكسائى. والكسر قراءة عاصم وحمزة. انظر كتاب: السبعة فى القراءات، ص٥٨٩. أما قراءة الرفع فهى قراءة الأعرج وقتادة. وانظر: تفسير القرطبى ١٦/١٢٣ ـ ١٢٤، ففيه تفصيل للمعانى.

قوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أى قوله: ﴿إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنونَ * فاصْفَحْ عَنْهُم﴾ [الزخرف:٨٨ ـ ٨٩]. وقد تكون الواو فى قوله «وقيله» للجمع مضمومة إلى علم الساعة، والمعنى: وعنده علم الساعة، وعنده قيله يا رب. جمع بينهما بعند.

فهذا مجاز هذه المقارى الثلاث فى العربية.

ومما حُمل على المعنى قوله عزّ وجلّ: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ ثم قال: ﴿وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام:٩٦] فلو لم يُحمل على المعنى لكانت الشمس والقمر خفضًا إتباعًا للفظ قوله «فالق» و«جاعل» ولكن معناه: وجعل الشمس والقمر حسبانًا، وهى على قراءة من قرأ ﴿وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا﴾ متبعة لجعل ظاهر.

وبمعناه قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة:٦] فى قراءة من نصب اللام، محمولاً على معنى الغسل من قوله عزّ وجلّ: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ أيضًا. ومن قرأ: ﴿وأرجلكم﴾ خفضًا حمله على اتباع الإعراب، من قوله عزّ وجلّ: ﴿بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ فأتبع الإعراب بالإعراب قبله؛ لأن مذهبه المسح لا الغسل.

واختيارُنا نصبَ اللام فى المقروء على نصب الغسل، واتباع الوجه واليدين، إلا أنه رُوى عن ابن عباس وأنس بن مالك: نزل القرآن بغسلين ومسحين، وسنّ رسولُ الله ﷺ غسل الأقدام، فنحن نفعل كما فعل.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [طه:١٢٩] من المقدَّم والمؤخَّر. فالمعنى فيه: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمًّى لكان لزامًا، وبه ارتفاع الأجل، ولولا ذلك لكان نصبًا كاللزام، فَأُخِّر لتحسين اللفظ.

وبمعناه قوله عزّ وجلّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف:١٨٧] المعنى: يسألونك عنها كأنك حفىٌّ بها، أى ضنين بعلمها.

ومثله قوله تعالى: ﴿أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة:١٠٦] أى نأت منها بخير، فقدّم «بخير» وأخّر «منها»، فأشكل.

ومن المؤخَّر بعد توسط الكلام قوله عزّ وجلّ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق:١٩] فى قراءة من وحّد الفعلَ، وهو متصل بقوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا﴾ [الانشقاق:٦] لتركبن طبقًا عن طبق، أى حالاً بعد حال فى البرزخ، فأخّر الأحوالَ للقرار فى الدار. وكذلك هو فى قراءة مَن جمع فقال: لتركبن أيّها الناس، فيكون الإنسان فى معنى الناس، كما ذكرناه آنفًا(١)، ويكون الجمع عطفًا على المعنى، وإنّما وحَّد للجنس، فكأنّه قال: يا أيها الناس لتركبن طبقًا عن طبق، فأخّر هذا الخبر لما توسطه من الكلام المتصل بالقصة، ومعناه التقديم.

ومثل هذا قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء:٨٣] وقوله: ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ هو متصل بقوله: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ إلاّ قليلاً، وآخر الكلام: ﴿لاتَّبَعْتُمُ الشيطَانَ﴾. وقد قيل: إن قوله ﴿إلاّ قليلاً﴾ مستثنًى من الأول فى قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ إلا قليلاً منهم، وفى هذا بُعد، والأوّلُ أحبُّ إلىّ.

وعلى هذا المعنى قرأ ابنُ عباس فى رواية عنه: ﴿لا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء:١٤٨] جعله متصلاً بقوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ [النساء:١٤٧] إلا من ظَلَم، وصار آخرُ الكلام: ﴿لا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ القول﴾ فاصلاً.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِى الأَرْضِ﴾ [الأنفال:٧٣] إنّما هو من صلة قوله: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ [الأنفال:٧٢] إلا تَفعلُوه تَكُنْ فتنة فى الأرض.

(١) انظر (ص ١٦٨).

وكذلك قوله فى أول السورة: ﴿ومَغْفرَةٌ ورزْقٌ كَريمٌ * كمَا أَخْرَجَكَ ربُّك منْ بَيْتكَ بالحَقِّ﴾ [الأنفال: ٤ ـ ٥] ليس هذا من صلة الكلام، إنّما هو مقدّم ومتصل فى المعنى بقوله: ﴿قُلِ الأنْفَالُ لله وَالرَّسُول﴾ [الأنفال: ١]، و ﴿كمَا أَخْرَجَكَ ربُّك منْ بَيْتكَ بالحَقِّ﴾، أى: فصارت أنفال الغنائم لك إذ أنت راضٍ بإخراجك وهم كارهون، فاعترض بينهما الأمر بالتقوى والإصلاح والوصف بحقيقة الإيمان والصلاح، فأشكل فهمه.

وعلى هذا قوله عزّ وجل: ﴿حتّى تُؤْمنُوا بالله وَحْدَهُ إلاّ قَوْلَ إبْراهيمَ لأَبيه لأَسْتَغْفرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤] إنّما هو موصول بقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فى إبراهيمَ وَالَّذينَ معَهُ﴾ إلاّ قولَ إبراهيمَ لأبيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لك؛ لأنها نزلت فى قولهم: قد استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك، عند قوله: ﴿سأَسْتَغْفرُ لكَ ربِّى﴾ [مريم: ٤٧] فقالوا: فهلا نستغفر لآبائنا المشركين. فنزلت هذه الآية ليستثنى القدوة فى إبراهيم فى هذا، ثم نزلت الآية الأخرى موعدة له وعده إيّاها إلى أن علم موته على الكفر فقال: ﴿وَما كَان اسْتغْفَارُ إبْراهِيمَ لأَبيه إلاَّ عَنْ مَوْعدَة وَعَدهَا إيَّاه﴾ [التوبة: ١١٤] الآية.

وكذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَرَضيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فى مَخْمَصَة غَيْرَ مُتَجَانف لإثْمٍ﴾ ، وهذا متصل بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ المَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣] إلى آخر المحرمات، ثم قال: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فى مَخْمَصَة﴾ يعنى مجاعة.

ومثل ما ذكرناه من علم القرآن كثير، وإنّما نبهنا بيسير على كثير، ودللنا بنُكَت على جَمٍّ غفير، ليُستدل بما ذكرناه على نحوه، ويُتطرّق به إلى مثله. وهذا كلّه على ضروب كلام العرب، ومعانى استعمالهم، ووجوه استحسانهم. إنّه فى كلامهم المطوّل للبيان، والمختصَر للحفظ، والمقدّم والمؤخّر للتحسين. وكلّه فصيح بليغ؛ لأن وصف البلاغة عندهم رد الكثير المنثور إلى القليل المجمل، وبسط القليل المجمل إلى المبثوث المفسر. فالمقصَّر من الكلام عندهم مع الحاجة إلى

المعانى المفرقة عجز، والمطوَّل منه مع الاكتفاء بالمعنى الجامع منه عيٌّ. فلما خاطبهم بكلامهم أَفْهَمهُم بعقولهم ومستعملاتهم؛ ليحسن ذلك عندهم [فى المجاوزة][1]، فيكون [المبثوث][1] حجة عليهم من حيث يعقلون؛ لأنه أمرهم بما يعلمون وما يستحسنون، حكمةً منه ولطفًا.

فكذلك[2] أيضًا على هذه المعانى يفهم الخصوصُ من مكانهم ومشهدهم، على علوِّ مقامِهم فى مكان ما أظهر لهم من العلم به، ونصيب ما قَسَم لهم من العقل عنه. فهم متفاوتون فى الأشهاد والفهوم حسب تفاوتهم فى الأنصبة من العقول والعلوم. إذ فى[3] القرآن عمومٌ وخصوص، ومحكمٌ ومُتشابه، وظاهرٌ وباطن. فعمومه لعموم الخلق، وخصوصه لخصوصهم، وظاهره لأهل الظاهر، وباطنه لأهل الباطن، والله واسع عليم. فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه.

فإذا صفا القلبُ بنور اليقين، وأُيِّد العقل بالتوفيق والتمكين، وتجرّد الهمُّ من التعلق بالخلق، وتألَّه السرُّ بالعكوف على الخالق، وخلت النفسُ من الهوى، سرت الروحُ فجالت فى الملكوت الأعلى، وكُشف للقلب[4] بنور اليقين الثاقب [سِدْرةُ المنتهى و][5] ملكوتُ العرشِ عن معانى صفاتِ موصوف، وأحكام خلاق[6] مألوف، وباطن أسماء معروف، وغرائب علم رحيم رءوف، فشهد عن الكشف أوصافَ ما عرَف، فقام حينئذ بشهادةِ ما عرَف، فكان ممن قال سبحانه: **﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تلاوَته أُولئكَ يُؤْمنُونَ به﴾** [البقرة:١٢١]. فحقّ التلاوة للمؤمنين، لأنه إذا أعطاه حقيقة من الإيمان أعطاه مثلها من معناه، ومعدنها حقيقة من مشاهدة، فكانت تلاوته عن مشاهدة، وكان مزيده عن معنى تلاوته، وكان ذلك على معيار حقيقة

(١) زيادة من (ك).

(٢) فى (ط): (فذلك» وأثبت ما فى (ك).

(٣) «فى» ساقطة من (ط).

(٤) فى (ط): «كشف القلب» وأثبت ما فى (ك).

(٥) ساقطة من (ط).

(٦) فى (ك): «أخلاق».

من إيمانه، كما قال: ﴿وإذَا تُليَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُمْ إيمانًا... أُولَئكَ هُمُ الْمُؤْمنُونَ حَقًا﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤].

فيكون العبد بوصف من نُعت بالحضور والإنذار، وخُصَّ بالمزيد والاستبشار، فى قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا حضَرُوهُ قَالُوا أَنْصتُوا فَلَمَّا قُضىَ وَلَّوْا إلى قَوْمهِمْ مُنْذرينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، وفى قوله عزّ وجلّ: ﴿فَزَادَتْهُمْ إيمانًا وَهُمْ يَسْتَبْشرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

ويكون من نَعْت من مَدَحه بالعلم، وأثنى عليه بالرجاء، ووصفه بالخوف، فى قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الآخرَةَ ويَرْجُوا رَحْمَةَ ربِّه قُلْ هَلْ يَستوى الَّذينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وقال عزّ وجلّ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، فكان هذا من أهل الله وخاصته، ومن محبيه وخالصته.

كما روينا عن رسول الله ﷺ: «أهل القرآن أهل الله وخاصته من خلقه».

وقال ابن مسعود: لا على أحدكم أن يسأل عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآنَ فهو يحب الله، وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله. وهذا كما قال؛ لأنك إذا أحببت متكلمًا أحببت كلامه، وإذا كرهته كرهت مقاله.

وقال أبو محمد سهل: من علامة الإيمان حب الله عزّ وجلّ، ومن علامة حبِّ الله حبُّ القرآن، ومن علامة حبِّ القرآن حبُّ النبى ﷺ، ومن علامة حبِّ النبى ﷺ اتباعه، ومن علامة اتباعه الزهدُ فى الدنيا.

وحدثونا عن بعض المريدين قال: كنتُ فى جدّة إرادتى قد لهجتُ بتلاوة القرآن، ثم رَهَقتنى فَتْرة[1]، فبقيتُ أيامًا لا أقرأ، فهتف بى هاتف من قِبَلِ الله عزّ وجلّ: إن كنتَ تحبنى فلِمَ جفوتَ كتابى، أمَا ترى ما فيه من لطيف عتابى؟

وقال بعض العارفين: لا يكون المريد مريدًا حتى يجد فى القرآن كلَّ ما يريد،

(١) رهقتنى فترة: رهقه: غشيهُ ولحقهُ. وفَتَر: سكن بعد حِدَّة.

ويعرف منه النقصان والمزيد، ويستغنى بالمولى عن العبيد.

وأقلّ ما قيل فى العلوم التى يحويها القرآن من ظواهر المعانى المجموعة فيه أربعة وعشرون ألف علم وثمانمائة علم، إذ لكل آية علوم أربعة: ظاهر، وباطن، وحد، ومطّلع.

وقد يقال: إنّه يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتين من علوم، إذ لكل كلمة علم، وكل علم وصف، فكل كلمة تقتضى صفة، وكل صفة موجبة أفعالاً حسنة وغيرها على معانيها، فسبحان الفتّاح العليم.

***

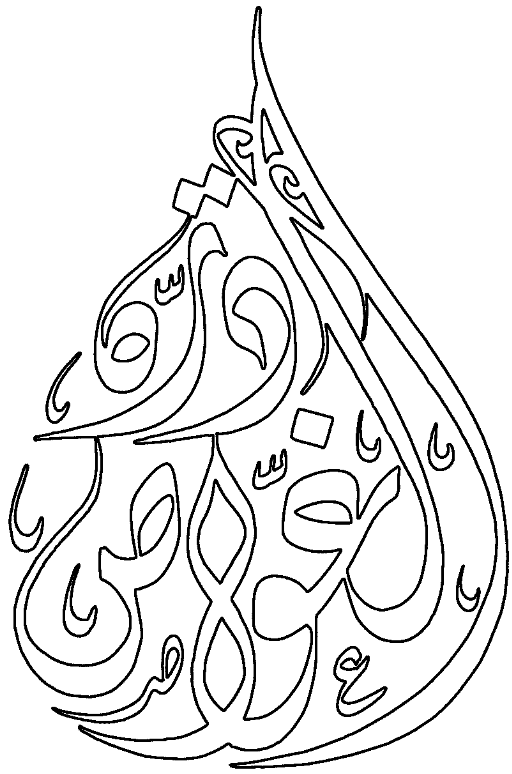

الفصل الثامن عشر

فيه كتاب ذكر الوصف المكروه من نعت الغافلين

فإذا خالف التّالى هذا الوصف الذى شرحناه، أو كان على ضد ذلك من السهو والغفلة والعمى والحيرة، محدِّثًا[١] لنفسه، مُصغيًا إلى هواه ووسوسة عدوّه [فى أمور دنياه][٢]، متوهِّمًا للظنون، عاكفًا على الأمانى، حقَّت عليه أن يكون بمعنى ما[٣] قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إلاَّ أَمَانِيَّ﴾ يعنى: إلا تلاوة القرآن لا غير ﴿وإنْ هُم إلا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:٧٨] فوصفهم بالظن وهو ضد اليقين. كما أخبر عن الظّانين فى قوله: ﴿إنْ نظُنُّ إلا ظَنًّا وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية:٣٢]، وبمعنى ما قال: ﴿وكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فى السَّمواتِ وَالأرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥].

فالقرآنُ من أجلِّ آيات الأرضين والسموات الدالّة على فاطرهما ومنزِّله، وكان بوَصْفِ من يهدده بعلمه فيه عند استماعه لكلامه العزيز، متهاونًا به، مناجيًا لغيره، أن يقول تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ [الإسراء:٤٧].

وبمثل مَن يسمع وقلبه مشغول عن المسموع بما يضرّه عما ينفعه، حتى إذا خرج عن الكلام سأل مَن حضر بقلبه ماذا فهم من الخطاب الذى كان هو عنه بغفلته قد غاب، وقد كان حاضرًا بجسمه حجة عليه، فمن ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾

(١) فى (ك): «محادثًا لنفسه».

(٢) زيادة من (ك).

(٣) فى (ط): «بمعانى ما».

ثم قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أى: عن فقه الخطاب، فلم تسمعه القلوب ولم تعه ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦] يعنى أباطيلهم وظنونهم الكاذبة.

ويقال: إنّ العبد إذا تلا القرآن واستقام نَظَرَ اللهُ إليه برحمته. فإذا قرأ القرآن وخلّط ناداه الله عزّ وجلّ: ما لك ولكلامى وأنت معرض عنى؟ دع عنك كلامى إن لم تتب إلىّ.

وروينا فى الإسرائيليات: أوحى الله عزّ وجلّ إلى نبيه موسى عليه السلام: مُرْ عُصاةَ بنى إسرائيل أن لا يذكرونى، فإنى آليتُ على نفسى أن أذكر من ذكرنى، وإنّى أذكرهم بلعنة.

وكان بوصف من أخبر عنه، إذ يقول تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩] الآية. وهذا وصفُهم الظن الكاذب والرجاء المختلف، اللذان لم يفترقا إلى خوف وإشفاق، عصَوْا خالقهم عاجلاً، وتمنوا عليه المغفرة آجلاً، جهلاً منهم بحكمته، وإعراضًا عن أحكامه. قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾، ثم أخبر عن علمهم بذلك، علم قولٍ وخبر لا علم يقين ومعاينة، فقال سبحانه: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٦٩] أى: قرؤوا هذا وعلموه ولم يعملوا به، فلم ينتفعوا بشىء منه، فكان هذا توبيخًا لهم وتقريعًا، كقوله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣]، وفيها وجه غريب: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾: أى محوه بترك العَمل به والفهم له، من قولك: درست الريحُ الآثارَ، إذا محتها. وخطٌّ دارس، وربْع دارس: إذا مُحى وعفَى أثره. وهذا المعنى مواطئ لقوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾ [البقرة: ١٠١ - ١٠٢] أى: ما تتبع وتهوى. ومواطئ لقوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا

به ثَمنًا قَليلاً فَبئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران:١٨٧] فسمّى تركَ العمل منهم به فى كل حالةٍ طرحًا له وإلقاءً ونفيًا له وبيعًا له، وبالدنيا اشتراء.

وكلّ آية فى التهديد والوعيد فللخائفين منها وعظ وتخويف، وللغافلين عنها وصف وتعريف، عَلِمَه مَن علمه، [وجهله من جهله](١)، كقوله تعالى فى ذكر النار: ﴿ذلكَ يُخَوِّفُ اللهُ به عبَادَهُ يَا عبَاد فَاتَّقُون﴾ [الزمر:١٦]. وقال عزّ وجلّ فى خبرها: ﴿أُعدَّتْ للكَافرينَ﴾ [البقرة:٢٤].

وقال بعضُ السّلف: إنّ العبد ليفتتح السورة فتصلّى عليه الملائكة حتى يفرغ منها، وإنّ العبد ليفتتح السورة فتلعنه حتى يفرغ منها. فقيل: وكيف ذلك؟ قال: إذا أحلّ حلالها وحرّم حرامها صلّت عليه، وإلا لعنته.

وقال بعض العلماء: إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم، يقول: «ألاَ لَعْنَةُ الله علَى الظَّالمينَ» وهو ظالم، «ألاَ لَعْنَةُ الله علَى الكَاذبين» وهو منهم.

وقال سفيان فى قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذينَ يَتَكَبَّرُونَ فى الأَرْض بغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦] قال: أصرف عنهم فهمَ القرآن.

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ: «إذا عظّمت أمتى الدّينار والدّرهم نُزع منها هيبةُ الإسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر حُرموا بركةَ الوحى».

قال الفضيل: حُرموا فَهْمَ القرآن.

وفى الأخبار مِن ذَمِّ قراءةِ البطّالين(٢) أكثرُ من أن تذكر، فمنها ما رُوى عن النبى ﷺ أنه قال: «أكثرُ منافقى أمّتى قُرّاؤها».

وكان الحسن يقول: إنكم اتّخذتُم قراءةَ القرآنِ مراحل، وجعلتم الليل جَملاً، فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحله، وإنّ مَنْ كان قَبلكُم رأوه رسائلَ أتتهم من ربّهم، فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار.

---

(١) ساقطة من (ط).

(٢) فى (ك): «ذم القرأة من البطالين».

وكان ابنُ مسعود من قَبْله يقول: أُنزل عليهم القرآنُ ليعملوا به، فاتخذوا دراسته عملاً، إنّ أحدَهم ليتلوَ القرآنَ من فاتحته إلى خاتمته ما يُسقط منه حرفًا، وقد [أسقطه كله] وأسقط العملَ به.

وفى حديث ابن عمر وحديث جُندب: لقد عِشنا برهةً من دَهْرنا وأحدُنا يُؤتَى الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورةُ على محمد ﷺ، فنتعلم حلالها وحرامها، وأمْرها وزجْرها، وما ينبغى أن نقف عليه منها، كما تعلَّمون أنتم القرآن. ثم بعدُ لقد رأيتُ رجالاً يُؤتَى أحدُهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، لا يدرى ما أمْره ولا زجْره، ولا ما ينبغى أن يقف عنده منه، فينثره نَثْرَ الدَّقَل[1].

وهذا كما قال؛ لأنّ المراد والمقصود بالقرآن الائتمار لأوامره، والانتهاء عن زواجره، إذ حِفْظُ حدوده مُفْترضٌ ومسؤولٌ عنه العبد، ومعاقبٌ عليه، وليس حفظ حروفه فريضة، ولا عقاب على العبد إذا لم يحفظ ما وسعه منه، قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل: ٥] أى العمل به ثقيل، وإلا فقد يسَّره للذكرى.

ومن ذلك الخبر المأثور عن رسول الله ﷺ: «اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، ولانت له جلودكم، فإذا اختلفتم فلستم تقرؤونه». وفى بعضها: «فإذا اختلفتم فقوموا عنه».

وحدثنى شيخ فاضل قرأت عليه القرآن قال: قرأتُ القرآن على شيخ لى، فلما ختمتُ رجعتُ إليه لأقرأ، فانتهرنى وقال: جعلتَ القرآن علىَّ عملاً، اذهب فاقرأ على الله عزّ وجلّ، فانظر ماذا يُسمعك منه ويُفهمك عنه.

وقد كان من أصحاب رسول الله ﷺ من لا يحفظ إلا الجزء والجزءين، والسور المعدودة وسورتين، وكان من يحفظ الحزب منه وهو السبع أو البقرة والأنعام علَمًا فيهم. وقُبض رسول الله ﷺ عن عشرين ألف صحابى لم يقرؤوا القرآن غير نظر، فلم يحفظ القرآن كله منهم إلا ستة، اختُلف منهم فى اثنين. وقال بعضهم:

---

(١) الدَّقَل: أردأ التمر.

ولم يكن جمعه من الخلفاء الأربعة أحد.

وختم ابن عباس على أُبيٍّ بن كعب، وقرأ عبد الرحمن بن عوف على ابن عباس، وقرأ عثمان بن عفان على زيد بن ثابت، وقرأ أهل الصفة على أبى هريرة. وكلّهم كان متبعًا لأوامره، مجتنبًا لزواجره، عالمًا به، فقيهًا فيه.

وقال يوسف بن أسباط، وقد قيل له: إذا ختمتَ القرآن بأى شىء تدعو؟ فقال: بأى شىء أدعو!! أستغفر الله عزّ وجلّ مائة مرة من تلاوتى. وكان يقول: إنى لأهمُّ بقراءة القرآن فإذا ذكرتُ ما فيه خشيتُ المقت فأعدل إلى التسبيح والاستغفار.

واعلم أن للعبد فى قراءة القرآن بحسب ما له من تعظيمه، والفهم له، والمشاهدة منه، والمعاملة به؛ لأنّه من أكبر شعائر الله فى خَلقه، وأعظم آياته فى أرضه الدالات عليه، وأسبغ نعمه الكاملة علينا.

وللعبد من التعظيم له بقدر تقواه، وله من فهم الخطاب وتعظيم الكلام على نحو ما أُعطى من معرفة المتكلم وهيبته وإجلاله. فإذا عظُم المتكلم فى قلبه، وكَبُر فى همّه(١)، أنعم تدبّر كلامه، وأطال الفكرَ فى خطابه، وأكثر ترداده وتكريره على قلبه، وأسرع بذكره عند النازلة به، والحاجة إليه، فاتّقَى وحذر، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فيه لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣]، وقال: ﴿كَذَلكَ يُبيِّنُ اللهُ آياته للنَّاسِ لَعلَّهُم يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ﴿لَعَلَّهم يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١]؛ لأنّ كلّ كلامٍ موقوف على قائله، يعظم بتعظيمه، ويقع فى القلب بعلو مكانه، أو يهون بسهولة شأنه. واللهُ(٢) عزّ وجلّ ليس كَمِثْله شىءٌ فى العظمة والسّلطان، وليس ككلامه كلام فى الأحكام والبيان.

وقرأتُ فى سورة الحنين من التّوراة: «يا عبدى أمَا تستحى منى، يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت فى الطريق تمشى فتعدل عن الطريق وتقعد لأجله،

(١) فى (ط): «فى فهمه» وأثبت ما فى (ك).
(٢) فى (ط): «قال الله» وأثبت ما فى (ك).

وتقرؤوه وتتدبره حرفًا حرفًا؛ حتى لا يفوتك شيء منه، وهذا كتابى أنزلته إليك، انظر كم وصلتُ لك فيه من القول، وكم كررت عليك فيه، [وكم فصّلتُ عليك فيه من العتاب](١)، فتأمَّلت طوله وعرضه، ثم أنت معرض عنى(٢). أفكنتُ أهونَ عليك من بعض إخوانك؟!

أى عبدى، يقعد إليك بعض إخوانك، فتقبل عليه بكل وجهك، وتصغى إلى حديثه بكل قلبك، فإن تكلّم متكلم أو شغلك شاغل عن حديثه أومأتَ إليه أن كُفَّ، وها أنا ذا مقبلٌ عليك ومحدِّث لك، وأنت معرض بقلبك عنى، فجعلتنى أهونَ عندك من بعض إخوانك». أو كما قال. [كتبتُ هذا حفظًا وتحريت الألفاظ، ولم أخرم المعانى](٣).

وإنما خفّ القيام على أهل الليل لفهم الخطاب، وثقل على أهل النوم لانفصام القلوب عن الفقه، وشدّة الحجاب، كما قال تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٧] أى خفى علمها، يعنى الساعة، فثقلت عليهم، فسمَّى ما خفى علمه ثقيلاً. والله أعلم.

* * *

---

(١) ساقطة من (ط)، وفى (ك): «فتأمل طوله وعرضه».

(٢) فى (ط): «عنه».

(٣) ساقطة من (ط). وقوله «لم أخرم المعانى»: أى لم أسقط منها شيئًا.

الفصل التاسع عشر

فيه كتاب الجهر بالقرآن، وما فى ذلك من النيات، وتفصيل حكم الجهر، [وبيان حكم][(١)] الإخفات

روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «فَضْلُ قراءة السرّ على قراءة العلانية كفضل صدقة السرِّ على صدقة العلانية». وفى لفظ آخر: «الجاهرُ بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسرُّ به كالمسرِّ بالصّدقة».

وفى الخبر العام: «يَفْضُلُ عملُ السرِّ على عمل العلانية بسبعين ضعفًا». وفى مثله من العموم: «خير الرزق ما يكفى، وخير الذكر الخفى». وفى الخبر: «لا يجهر بعضُكم على بعض فى القراءة بين المغرب والعِشاء».

وسمع سعيد بن المسيب ذات ليلة فى مسجد رسول الله ﷺ عمر بن عبد العزيز يجهر بالقرآن فى صلاته، وكان حسن الصوت، فقال لغلامه برد: اذهب إلى هذا المصلِّى فمُره أن يخفض من صوته. فقال الغلام: إن المسجد ليس لنا، وإنّ للرجل فيه نصيبًا، فرفع سعيد صوته فقال: يا أيّها المصلى إن كنتَ تريد الله عزّ وجلّ بصلاتك فاخفض صوتك، وإن كنت تريد الناسَ فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا. قال: فسكت عمر، وخفّف ركعته، فلما سلّم أخذ نعليه وانصرف، وهو يومئذ أمير المدينة.

وعلى ذلك فقد كان رسول الله ﷺ يسمع جماعة من أصحابه يجهرون بالقراءة فى صلاة الليل، فيصوّب ذلك لهم، ويسمع إليهم، وقد أمر بالجهر فيما روى عنه: «إذا قام أحدكم من الليل يُصلى فلْيَجْهر بقراءته، فإنّ الملائكة وعُمَّار الدار يستمعون إلى قراءته، ويصلون بصلاته».

---

(١) ساقطة من (ط) وأثبتها من (ك).

ومرَّ رسول الله ﷺ على ثلاثة من أصحابه فى الليل مختلفى الأحوال؛ منهم من كان يخافت وهو أبو بكر رضى الله عنه، فسأله عن ذلك فقال: إن الذى أناجيه هو يسمعنى. ومنهم من كان يجهر وهو عمر رضى الله عنه، فسأله عن ذلك فقال: أُوقظ الوسنانَ وأزجر الشيطان. ومنهم من كان يقرأ آيًا من هذه السورة ومن هذه السورة، وهو بلال، فسأله عن ذلك فقال: أخلط الطّيب بالطيب. فقال: كلّكم قد أَحسن وأصاب.

فنقول، والله أعلم: إن المخافتة بالقراءة أفضل إذا لم تكن للعبد نية فى الجهر، أو كان ذاهبًا عن الهِمَّة والمعاملة بذلك؛ لأنّه أقرب إلى السّلامة، وأبعدُ من دخول الآفة. وإنّ الجهر أفضل لمن كان له نية فى الجهر ومعاملة مولاه به؛ لأنه قد قام بسُنة قراءة الليل، ولأن المخافتَ نفعُه لنفسه والمجاهرَ نفعُه له ولغيره، وخيرُ الناس من ينفع الناس، والنفع بكلام الله عزّ وجلّ أفضلُ المنافع، ولأنه قد أدخل عملاً ثانيًا يرجو به قُربة ثانية على عمله الأول، فكان فى ذلك أفضل.

وليجعل العبد مفتاح درسه أن يقول: أعوذُ بالله السّميع العليمِ من الشّيطان الرجيم، ربّ أعوذ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك رب أن يحضرون، وليقرأ: ﴿**قُلْ أعُوذُ بِرَبِّ النَّاس**﴾، وسورة الحمد قبلها.

وليقُل عند فَراغِه من كلّ سورة: صدق اللهُ، وبلَّغ رسولُ الله، اللّهم انفعنا به، وبارك لنا فيه، الحمدُ لله رب العالمين، أستغفر اللهَ الحىَّ القيوم.

ومن حفظ جوارحه وقلبه عن المنهى عنه فقد عمل بالقرآن إلى خاتمته، لأنّه مقسط على جملة العبد وجوارحه.

وفى الجهر بالقراءة سبعُ نيات:

منها: الترتيلُ الذى أُمر به.

ومنها: تحسين الصوت بالقرآن الذى نُدب إليه فى قوله ﷺ: «زيِّنوا القرآن بأصواتكم». وفى قوله: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» أى يحسن به صوته، وهو أحد الوجهين وأحبهما إلى أهل العربية. والوجه الآخر: أى من لم يستغن به،

من الغنية والاكتفاء. وقد يقال: من هذا الوجه يتغانى به.

ومنها: أن يُسمع أذنيه [ونفسه][(١)]، ويوقظ قلبه؛ ليتدبّر الكلام، ويتفهم المعانى، ولا يكون ذلك كلّه إلا فى الجهر.

ومنها: أن يطرد الشيطان والنوم عنه برفع صوته.

ومنها: أن يرجو بجَهْره يقظةَ نائمٍ، فيذكر الله عزّ وجلّ، فيكون هو سبب إحيائه.

ومنها: أن يراه بطَّالٌ غافِلٌ، فينشط للقيام، ويشتاق إلى الخدمة، فيكون معاونًا له على البرّ والتقوى.

ومنها: أن يكثر بجهره تلاوته، ويدوم قيامه على حسب عادته للجهر، ففى ذلك كثرة عمله.

فإذا كان العبد معتقدًا لهذه النيات، طالبًا لها، ومتقربًا إلى الله سبحانه وتعالى، عالمًا بنفسه، مصحّحًا لقصده، ناظرًا إلى مولاه الذى استعمله فيما يرضاه، فجهره أفضل، لأنّ له فيه أعمالاً. وإنما يفضل العمل[(٢)] بكثرة النيات فيه. وارتفع العلماءُ، وفَضُلَتْ أعمالُهم بحُسن معرفتهم بنيات العمل، واعتقادهم لها، فقد يكون فى العمل الواحد عشر نيّات، يعلم ذلك العلماء فيعملون بها، فيُعطَوْن عشرة أجور.

وأفضلُ الناسِ فى العمل أكثرهم نية فيه، وأحسنهم قَصْدًا وأدبًا، وفى بعض التفاسير فى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١] قال: قراءة القرآن.

وفى الخبر: «من استمع إلى آيةٍ من كتاب الله عزّ وجلّ كانت له نورًا يوم القيامة». وفى خبر آخر: «كُتب له عشر حسنات».

---

(١) ساقطة من (ط).

(٢) فى (ك): «تفضل الأعمال».

والتّالى شريك المستمع فى الأجر؛ لأنّه أكسبه ذلك. وقال بعضهم: للقارئ أجر، وللمستمع أجران. وقال آخر: للمستمع تسعة أجور. وكلاهما صحيح؛ لأنّ كل واحد منهما على قدر إنصاته ونيته. فإذا كان التالى مُكسبًا لغيره هذه الأجور، فإن له بكل أجر أكسبه إياه أجرًا يكتسبه، لقوله ﷺ: «الدال على الخير كفاعله»، سيما إذا كان عالمًا بالقرآن فقيهًا فيه، فيكون مقراه ووقوفه حجة وعلمًا لسامعه.

وفى الخبر: أن رسول الله ﷺ كان ينتظر عائشة رضى الله عنها فأبطأت عليه، فقال: ما حبسك؟ فقالت: يا رسول الله كنت أستمع قراءة رجل ما سمعتُ صوتًا أحسن منه. فقام ﷺ حتى استمع إليه طويلاً ثم رجع، فقال: هذا سالم مولى أبى حذيفة، الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثله.

واستمع أيضًا ذات ليلة إلى قراءة عبد الله بن مسعود، ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهم، فوقفوا طويلاً ثم قال: «من أراد أن يقرأ القرآن غضًا كما أُنزل فليقرأ على قراءة ابن أم عبد».

وقال رسول الله ﷺ لابن مسعود: «اقرأ. فقال: يا رسول الله أقرأ وعليك أُنزل. فقال: إنى أحبّ أن أسمعه من غيرى»، فكان يقرأ وعينا رسول الله ﷺ تفيضان، وذلك عند قوله: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا**﴾ [النساء: ٤١].

واستمع رسولُ الله ﷺ إلى قراءة أبى موسى فقال: «لقد أُوتىَ هذا مزمارًا من مزامير داود. فبلغ ذلك أبا موسى فقال: يا رسول الله لو علمت أنك تسمع إلىّ لحبَّرته لك تحبيرًا».

وكان ابن مسعود يأمر علقمة بن قيس أن يقرأ بين يديه، فيقول له: رتِّل فداك أبى وأمى. وكان حسن الصوت بالقرآن.

وفى الخبر: كان أصحاب رسولِ الله ﷺ إذا اجتمعوا أمروا أحدهم أن يقرأ سورة من القرآن.

وقد كان عمر يقول لأبي مسعود رضى الله عنهما: ذكِّرنا ربَّنا، فيقرأ عنده حتى يكاد وقت الصلاة أن يتوسط، فيقال: يا أمير المؤمنين الصلاةَ الصّلاة، فيقول: أوَلَسْنَا فى صلاة؟ فكأنه يتأوّل قوله عزّ وجلّ: ﴿ولَذكْرُ الله أكْبرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقال بعضُ عبّاد البَصْريين لما وضع بعضُ البَغْداديّين كتابًا فى معانى الرياء ودقائق آفات النفوس، قال: لقد كنتُ أمشى بالليل أسمع أصواتَ المتهجدين كأنها أصوات الميازيب، فكان فى ذلك أُنس وحَثٌّ على الصّلاة والتّلاوة، حتى جاء البغداديون بدقائق الرياء وخفايا الآفات فسكتَ المتهجّدون، فلم يزل ذلك ينقص حتى ذهب وانقطع وتُرك إلى اليوم.

فإن لم يكن للتّالى نيَّة فى شىء مما ذكرناه، وكان ساهيًا غافلاً عن ذلك، وكان واقفًا مع شىء من الآفات، أو لُمح فى قلبه شخص، أو ساكن ذكرى هوًى، فقد اعْتلَّ، فعليه أن يحتمى بالجهر. فإن جهر على [ذلك][1] ثَقُل قلبه وفسد عمله، لاستكنان الداء فيه، وكان إلى النقصان أقرب، ومن الإخلاص أبعد، فعليه حينئذ بالإخفاءِ[2]، فهو دواؤه يعالج به حاله، فإنّه أصلح لقلبه، وأسلم لعمله، وأحمد فى عاقبته.

وقد يكون العبدُ واجدًا لحلاوة الهوى فى الصّلاة والتلاوة، وهو يظن أن ذلك حلاوة الإخلاص، وهذا من دقيق شأن الشهوة الخفية، ولطيف الانتقاص. وقد يلتبس ذلك على الضعفاء، ولا يفطن له إلا العلماء. وإنّما يجد حلاوة الإخلاص الزاهدون فى الدنيا وفى مدح الناس لهم به، ويتلذذون بنصح المعاملة، وصدق الخدمة، المحبّون لله عزّ وجلّ، الخائفون منه.

واعتبارُ فَقْدِ ذلك بأحدِ شيئين: سقوط النفس باستواء المدح والذم، وهذا حال فى مقام الزهد. أو الخلو من القلب بشهادة اليقين، وهذا فى مقام المعرفة. وفى هذين المقامين يستوى السر والعلانية، وقد تكون العلانية أفضل لأئمة التقوى والعدل.

---

(١) ساقطة من (ط).

(٢) فى (ط): «بالإخلاص»، وأثبت ما فى (ك) فهو أصح وأدق.

وحُدِّثتُ عن رجل من أهل الخير قال: كنت أقرأ فى السَّحَر فى غرفة لى شارعة سورةَ طه، فلما ختمتُها غفوت بعدها غفوة، فرأيت شخصًا نزل من السماء بيده صحيفة بيضاء، فنشرها بين يدى، فإذا فيها سورة طه، وإذا تحت كل كلمة عشر حسنات مثبتة، إلا كلمة واحدة، فإنّى رأيت مكانها محوًا ولم أرَ تحتها شيئًا، فغمَّنى ذلك، فقلت: قد والله قرأت هذه الكلمة ولم أرَ لها ثوابًا، ولا أراها أُثبتت، فقال الشخص: صدقتَ، قد قرأتها وكتبناها لك إلا أنَّا سمعنا مناديًا ينادى: امحوها وأسقطوا ثوابها، فمحوناها. فبكيتُ فى منامى، وقلت: لم فعلتم ذلك؟ قالوا: مرّ رجل فرفعت صوتك بها لأجله، فمحوناها.

وقد روينا أنّ النبى ﷺ سمعَ رجلاً يجهر بقراءته فناداه: «يا فلان أَسمع اللهَ ولا تُسمعنى».

واعلم أنّ السُّمعةَ مقرونةٌ بالرياء، ومحكوم لها بحكمه، من فساد العمل ونقصان العامل. وهى مأخوذة من السمع، كأنّ العبدَ يُسْمِعُ بعمله غيرَ الله عزّ وجلّ، ويحب أن يُسمع به مخلوقًا، ليمدحه به، لغلبة هواه وضعف نفسه، فيكون قد أشرك فى عمله غير الله عزّ وجلّ، فيبطل عمله لجهله بالتوحيد، إذ لو علم يقينًا أن لا نافع إلا الله عزّ وجلّ، ولا ضارّ ولا معطى ولا مانع إلا إياه، خلُص له توحيده من الشرك، فخلُص له عمله من الرياء. وكذلك الرياء مأخوذ من رأْى العين، فالسمعة هنا بمعناه.

وفى الخبر: «لا يقبل الله عزّ وجلّ من مُسَمِّع ولا مراءٍ». وفى خبر آخر: «مَنْ سَمَّع سمَّع الله به، ومَنْ راءى راءىَ الله به وصغَّره وحقَّره».

فأما من كانت له نية صالحة فى أن يُسمع أخاه كلام الله ليتعظ به ويتدبره، أو ينتفع باستماعه ويتذكر به، فليس داخلاً فى السُّمعة؛ لوجود حُسن النية وصحة القصد، ولفقد اقتران الآفة، لإرادة طمع عاجل من مدح أو غرض دنيا. كما قال أبو موسى لرسول الله ﷺ: «لو علمتُ أنك تسمع لحبّرته لك تحبيرًا». فلم ينكر عليه لأنّه ذو نية فى الخير وحسن قصد به. وقال للآخر الذى رفع صوته بالآية: «أسمع الله عزّ وجلّ ولا تُسمعنى». فأنكر عليه لما شهد السمعةَ فيه.

وقد روينا أنه ﷺ مرّ برجل يظهر التأوّه والوَجَل، فقال مَن كان معه: يا رسول الله، أتراه مرائيًا؟ فقال: «لا، بل أوّاه منيب».

واعلم أن الأكل والنوم على السّلامة والصّدق أفضلُ فى الحال، وأرفع فى المقام، وأحمد فى المآل، من القيام والصيام على يسيرٍ من التصنّع والتزيّن للخلق. ومعرفةُ هذا والقيامُ به هو موضعُ عِلْمِ العلماءِ بالله عزّ وجلّ.

وحُدِّثنا عن الحسن البصرى قال: تَفَقَّدِ الحلاوةَ فى ثلاثٍ، فإن وجدتها فأبشر وامض لقصدك، وإن لم تجدها فاعلم أنّ بابك مغلق: عند تلاوة القرآن، وعند الذكر، وفى السجود. وزاد غيره: وعند الصدقة، وبالأسحار.

وقراءةُ القرآن فى المصحف أفضلُ من قراءته عن ظهر قلب. يقال: الختمة بسبع ختم؛ لأنّ النظر فى المصحف عبادة(١). وكان كثير من الصحابة والتابعين يقرؤون فى المصحف، ويستحبون أن لا يخرجوا يومًا إلا نظروا فيه. وخرق عثمان مصحفين من كثرة درسه فيهما(٢).

* * *

(١) نقل الزبيدى كلام القوت، ثم ذكر عدّة أحاديث فى فضيلة القراءة من المصحف، وكلها لا تخلو من علّة وضعف، ولكن فى مجموعها تؤيد أهمية النظر فى المصحف والقراءة منه، بالإضافة إلى القراءة بظهر الغيب لمن يحفظه. انظر: الإتحاف ٤/ ٤٩٥.

(٢) راجع ما كتبه الغزالى فى إحيائه، كتاب آداب التلاوة ١/ ٢٧٢ ـ ٢٨٧، إذ نقل ما فى القوت وفصّله ورتّبه. وراجع أيضًا ما كتبه الزبيدى فى الإتحاف ٤/ ٤٧٠ وما بعدها.

الفصل العشرون

فى ذكر إحياء الليالى المرجو فيها الفضل المستحب إحياؤها، وذكر مواصلة الأوراد فى الأيام الفاضلة

ويُستحب إحياءُ خمسَ عشرةَ ليلة فى السنة، خمس منها فى شهر رمضان، وهى وتر ليالى العشر الأخير منه. وليلة سبع عشرة من رمضان، وهى صبيحة يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، فيه كانت وقعة بدر. وكان ابنُ الزبير يذهب إلى أنها ليلة القدر.

وأما التسعة الأُخر: فأوّل ليلة من شهر المحرم، وليلة عاشوراء، وأوّل ليلة من شهر رجب، وليلة النصف منه، وليلة سبع وعشرين منه؛ وفيها أُسرى برسول الله ﷺ، وليلة المعراج، وليلة عرفة، وليلة العيدين، وليلة النصف من شعبان. وقد كانوا يُصلّون فى هذه الليلة مائةَ ركعة بألف مرة: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ عشرًا فى كل ركعة، ويسمون هذه الصلاة صلاة الخير، ويتعرفون بركتها ويجتمعون فيها، وربّما صلوها جماعة.

وروينا عن الحسن قال: حدثنى ثلاثون من أصحاب النبى ﷺ «أن مَنْ صلّى هذه الصلاة فى هذه الليلة نظر الله عزّ وجلّ إليه سبعين نظرة، وقضى له بكل نظرة سبعين حاجة أدناها المغفرة».

وقد قيل: إن هذه الليلة هى التى قال الله عزّ وجلّ فيها: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]، وأنه يُنسخ فيها أمر السَّنَة وتدبير الأحكام إلى مثلها من قابل، والله أعلم.

والصحيحُ من ذلك عندى أنه فى ليلة القدر، وبذلك سُمِّيت؛ لأن التنزيل يشهد له إذ فى أوّل الآية: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ ثم وصَفَها فقال: ﴿فِيهَا

يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾. فالقرآن إنما أُنزل فى ليلة القدر، فكانت هذه الآية بهذا الوصف فى هذه الليلة مواطئة لقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

• ذكر مواصلة الأوراد فى الأيام الفاضلة:

وهى تسعةَ عشرَ يومًا، تُستحب فيها مواصلة الأورادِ، والدأبُ فى العبادة: يوم عاشوراء، ويوم عرفة، ويوم سبعة وعشرين من رجب، ويوم سبعةَ عشر من شهر رمضان، ويوم النصف من شعبان، ويوم الجمعة، ويوم العيدين، والأيام المعلومات وهى عشرُ ذى الحجة، والأيام المعدودات وهى أيام التشريق.

وفى الخبر: «صوم يوم عرفة يكفّر سنتين: سنة ماضية، وسنة مستقبلة، وصوم يوم عاشوراء كفارة سنة».

وقد روينا عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ: «إذا سَلِم يومُ الجمعة سلمت الأيام، وإذا سلم شهر رمضان سلمت السَّنَة»(١).

وقال بعض علمائنا: من أخذ مهناه فى هذه الأيام الخمسة فى الدنيا لم ينل مهناه فى الآخرة. وقال: هذه الأيام يُرجى فيها الفضل من الله عزّ وجلّ والمزيد، فإذا اشتغلت فيها بهواك وعاجلِ الدنيا فمتى ترجو الفضل والمزيد؟! يعنى بالأيام الخمسة: العيدين، ويوم الجمعة، ويوم عرفة، ويوم عاشوراء.

ومن فواضل الأيام بعد هذه: يوم الاثنين، ويوم الخميس؛ يومان تُرفع فيهما الأعمال إلى الله عزّ وجلّ.

ومن الفاضل الشهورُ الأربعةُ الحرم؛ وهى: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب. خصهن الله عزّ وجلّ بالنّهى عن الظلم فيهن لعظم حرمتهن. فكذلك الأعمال لها فيهنّ فضل على غيرها، وأفضلها ذو الحجة لوقوع الحج فيها، ولما خُصّ به من الأيام المعلومات، والأيام المعدودات، ثم ذو القعدة لجمعه الوصفين

(١) انظر: الإتحاف ٣/ ٢١٦، ٢١٧. وتخريج هذه الأحاديث والأخبار سيجىء آخر الكتاب إن شاء الله تعالى.

معًا، وهو من الأشهر الحرم، ومن أشهر الحج. فأما المحرمُ ورجبُ فليسا من أشهر الحج. وأما شوّالُ فليس من أشهر الحرم؛ ولكنه من أشهر الحج. وأفضل الأيام فى الشّهر العشران: العشر الآخر، والعشر الأول من ذى الحجة. وبعدهما عشر المحرم من أوله.

فالأعمال فى هذه الأيام لها فضل ومزيد على سائر الشهور.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «من صام ثلاثةَ أيام من شهر حرام بَعّده اللهُ من النار سبعمائة عام: يوم الخميس، ويوم الجمعة، ويوم السبت»[1].

وفى خبر آخر: «صومُ يوم من شهر حرام يعدل صومَ ثلاثين يومًا من غيره، وصومُ يوم من شهر رمضان يعدل صوم ثلاثين يومًا من شهر حرام»[2].

ثم إن أفضلَ الأوقات فى جملة الأيام أوقاتُ الصلوات الخمس.

وروينا أن رسول الله ﷺ «كان إذا دخلت العشرُ الأواخر من شهر رمضان طوى الفراش وشد المئزر». وفى حديث آخر: «إذا دخلت العشرُ الأواخر دأبَ وأدْأب أهله» يعنى: أدام وأداموا التعبَ والنصَب فى العبادة.

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ: «ما من أيام العملُ فيهن أفضلُ وأحبُّ إلى الله عزّ وجلّ من أيامِ عشر ذى الحجة. إنَّ صومَ يومٍ منه يَعْدل صيامَ سنة، وقيامَ ليلةٍ منه يعدل قيامَ ليلة القدر. قيل: ولا الجهادَ فى سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع منهما بشىء». وفى لفظ آخر: «إلا من عُقِرَ جواده وأُهرِقَ دمه».

وإذا أحبّ الله عزّ وجلّ عبدًا استعمله فى الأوقات الفاضلة بأفضل الأعمال، ليُثيبه أفضل الثواب. وإذا مقتَ عبدًا استعمله بأسوأ الأعمال فى أفاضل الأوقات ليضاعف له السيّئات، بانتقاص حرمات الشعائر، وانتهاك المحرمات فى الحرمات.

---

(١) قال العراقى ١/ ٢٣٧: «أخرجه الأزدى فى الضعفاء من حديث أنس».
(٢) قال العراقى ١/ ٢٣٧: «لم أجده هكذا».

ويُقال: من علامات التوفيق ثلاثٌ: دخولُ أعمال البر عليك من غيرِ قصد لها، وصرفُ المعاصى عنك مع الطَّلب لها، وفتحُ باب اللجا والافتقار إلى الله عزّ وجلّ فى الشّدة والرخاء [فى كل الأحوال][(١)].

ومن علامات الخذلان ثلاثٌ: تعسُّر الخيراتِ عليك مع الطلَب لها، ودخول المعاصى عليك مع الهرب منها[(٢)]، وغلق باب اللجا والافتقار إلى الله عزّ وجلّ [وترك الدعاء فى كل الأحوال][(٣)].

فنسأل الله تعالى بفضله حسنَ التوفيق والاختيار، ونعوذ به من سوءِ القضاءِ والأقدارِ.

* * *

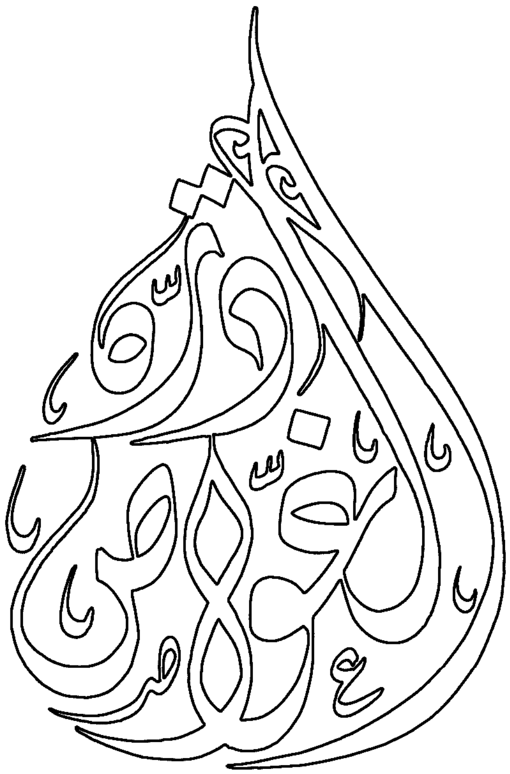

(١) زيادة من (ك).

(٢) فى (ط): «وتيسر المعاصى لك مع الرهب منها» وأثبت ما فى (ك).

(٣) زيادة من (ك).

الفصل الحادي والعشرون

فيه كتاب الجمعة وذكر هيئاتها وآدابها وذكر ما يستحب للمريد في يوم الجمعة وليلتها (١)

صلاةُ الجمعة: واجبةٌ بأوصاف، وساقطةٌ بأوصاف. فوجوبها: يكون بالإقامة، والاستطاعة، وحضور وقت الظهر، وتكملة عدّة أربعين رجلاً أحرارًا. وسقوطها: بالسفر، ودخول وقت العصر، ونقصان العدد، ووقوع العذر.

وهى من أعمال الأمراء، تُصلَّى خلف كل مَنْ أقام بها منهم. إلاَّ أنى أحبّ إعادتها ظهرًا إذا صُلِّيت خلف مبتدع. فإن اجتمع فى بلد كبير جامعان صُلِّيت خلف الأفضل من إماميهما، فإن استويا فى الفضل صُلِّيت فى القديم من الجامعين، فإن تساويا صُلِّيت فى الأقرب منهما، إلا أن تكون له نيّة فى الأبعد، لاستماع علم أو نشره أو تعلّمه. فصلاتُها فى الجامع الأعظم وحيث يكون المسلمون أكثر أفضل. ومن صلّى فى أيّهما أحبَّ حُسبت صلاته.

قال ابن جريج: قلت لعطاء: إذا كان فى المصر جامعان أو ثلاثة فى أيها أصلّى؟ قال: صلِّ حيث جُمع المسلمون، فإنها جمعة.

وهو يوم عظَّم الله تعالى به الإسلام وزيَّنه، وشرَّف به المسلمين وفضَّلهم، قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة:٩] الآية. فالبيعُ والشراءُ محرّم بعد الأذان للجمعة عند طائفة من العلماء، لعموم النهى عنه. ومنهم من قال: يُرد البيع لأنه فاسد. إلا أنى أحسب أن ذلك يُحرَّم عند الأذان الثانى، وهو مع خروج الإمام إذا قعد على المنبر، لأن هذا كان هو الأذان على عهد رسول الله ﷺ، وعهد أبى بكر

(١) انظر: الإحياء ١/١٧٨ ـ ١٩١.

وعمر رضى الله عنهما. والأذان الأوّل أحدثه عثمان رضى الله عنه لما كثُر الناس.

وقال الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾ [الجمعة: ١٠] الآية. فأمر عباده المؤمنين فى يوم الجمعة بالذكر له، ونهاهم عن البيع، وأمرهم فيه بطلب الفضل منه، ووعدهم الخيرَ والفلاح، وهما اسمان جامعان لغنيمة الدنيا والآخرة.

وروى عن رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ فرض عليكم الجمعة فى يومى هذا، فى مقامى هذا». وروى عنه ﷺ: «مَنْ ترك الجمعةَ ثلاثًا من غير عذر طبع الله على قلبه». وفى لفظ حديث آخر: «فقد نبذَ الإسلامَ وراءَ ظهرِه».

واختلف رجل إلى ابن عباس فسأله عن رجل مات لم يكن يشهد جمعة ولا جماعة، فقال: فى النار. فلم يزل يتردّد إليه شهرًا يسأله عنه، كل ذلك يقول: فى النار.

وتُقصد الجمعة من فرسخين أو ثلاثة. واستُحب لِمَنْ بكّر إليها من أهل القرى فأدركها وأدركه الليل فأواه إلى أهله إذا رجع أن يشهدها. إلا أنها ساقطة عن خمسة: الصبى، والمملوك، والمرأة، والمسافر، والمريض. فمن شهدها من هؤلاء فصلاها أجزأت عنه، وكان مؤديًا لفرضه.

وفى الخبر: أن أهل الكتابين أُعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه، فصُرفوا عنه، وهدانا الله عزّ وجلّ برحمته له. ادّخره لهذه الأمة، جعله عيدًا لهم، فهم أول الناس به سبقًا، وأهل الكتابين لهم تبع.

وفى حديث أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال: «أتانى جبريل عليه السلام وفى كفه مرآة بيضاء فقال: هذه الجمعة يفرضها عليك ربك، لتكون لك عيدًا ولأمتك من بعدك. قلت: فما لنا فيها؟ قال: لكم فيها خير ساعة، من دعا فيها بخير هو له[١] قِسْمٌ أعطاه الله عزّ وجلّ إيّاه، أوْ ليس له قسم ادخر له ما هو أعظم منه، أو يتعوّذ من شرٍّ هو عليه مكتوب إلا أعاذه الله تعالى من أعظم منه. وهو سيد الأيام

(١) فى (ك): «خوّله».

عندنا، ونحن ندعوه فى الآخرة يوم المزيد(١)».

قلتُ: ولِمَ قال إن ربك عزّ وجلّ اتخذ فى الجنة واديًا أفيحَ، من مسك أبيض، فإذا كان يوم الجمعة نزل من عليين على كرسيه؟ وذكر الحديث، قال فيه: ويتجلّى لهم حتى ينظروا إلى وجهه. ذكرناه بتمامه فى مسند الألف.

وروى عنه ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُهبط إلى الأرض، وفيه تقوم السّاعة».

وهو عند الله يوم المزيد، كذلك تسميه الملائكة فى السماء، وهو يوم النظر إلى الله عزّ وجلّ فى الجنة. فى أخبار يطول ذكرها.

وفى الحديث: ما من دابة إلا وهى قائمة على ساق يوم الجمعة، مصيخة ـ أى مصغية تتوقع ـ مشفقة من قيام الساعة، إلا الشياطين وشَقِىَّ بنى آدم.

ويقال: إنّ الطيرَ والهوام يلقى بعضها بعضًا فى يوم الجمعة، فتقول: سلامٌ سلامٌ، يوم صالح.

وفى الخبر: «إنّ لله عزّ وجلّ فى كل يوم جمعة ستمائة ألف عتيق من النار».

وفى حديث أنس عن النبى ﷺ: «إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام».

وقال كعب فى الخبر: «إن الله عزّ وجلّ فضّل من كل شىء من خلقه شيئًا، ففضل من البلدان مكة، ومن الشهور رمضان، ومن الأيام الجمعة».

وفى الخبر: «إنّ جهنم تَسعَّر فى كل يوم قبل الزّوال عند استواءِ الشمس فى كبد السماء، فلا تصلوا فى هذه الساعة، إلا يوم الجمعة، فإنه صلاة كله، وإنّ جهنم لا تُسَعَّر فيه».

فأفضل ما يعمله العبد فى يوم الجمعة البكور إلى الجامع فى الساعة الأولى، فإن لم يفعل ففى الساعة الثانية، فإن لم يفعل ففى الساعة الثالثة؛ لأن النبى ﷺ قال: «من راح إلى الجمعة فى السّاعة الأولى فكأنّما قرَّب بَدَنة. ومن راح فى

(١) فى نسخة أخرى من القوت، نص عليها الزبيدى ٣/ ٢١٥: «ونحن نسميه يوم المزيد».

السّاعة الثانية فكأنما قرّب بقرة. ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرّب كبشًا أقرن. ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما أهدى دجاجة. ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما أهدى بيضة. فإذا خرج الإمام طُويت الصحف، ورُفعت الأقلام، واجتمعت الملائكة عند المنبر يسمعون الذكر».

فمن جاء بعد ذلك فكأنما جاء لحقّ الصلاة، وليس من الفضل فى شيء.

فالسّاعة الأولى: تكون بعد صلاة الصبح. والسّاعة الثانية: تكون عند ارتفاع الشمس. والساعة الثالثة: تكون عند انبساطها وهى الضحى الأعلى، إذا رمضت الأقدام بحر الشمس. والسّاعة الرابعة: تكون قبل الزوال. والساعة الخامسة: إذا زالت الشمس أو مع استوائها. وليس الساعة الرابعة والخامسة مستحبتين للبكور، ولا فضل لمصلى الجمعة بعد الساعة الخامسة؛ لأنّ الإمام يخرج فى آخرها، فلا يبقى إلا فريضة الجمعة.

ويقال: إنّ الناس يكونون فى قربهم من الله عز وجلّ عند الزيارة للنظر إليه تعالى على قدر بكورهم إلى الجمعة.

ودخل ابن مسعود يوم الجمعة بكرة، فرأى ثلاثة نفر قد سبقوه بالبكور، فوَجِمَ لذلك وجعل يقول: رابع أربعة ـ يعنى نفسه ـ وما رابع أربعة من الله ببعيد.

وهذا من اليقين فى هذه المشاهدة للخبر.

وقد جاء فى الأثر: «إن الملائكة يفتقدون العبدَ إذا تأخّر عن وقته يوم الجمعة، فيسأل بعضهم بعضًا عنه: ما فعل فلان، وما الذى أخّره عن وقته؟ فيقولون: اللّهم إن كان أخّره فقر فأغْنه، وإن كان أخّره مرضٌ فاشْفه، وإن كان أخّره شُغل عنه ففرِّغه لعبادتك، وإن كان أخّره لهو فأقبل بقلبه على طاعتك».

ولا تقعد إلى القَصّاص يوم الجمعة، فقد كُره ذلك، ولا فى حلقة قبل الصّلاة.

وروينا فى خبر مقطوع عن النبى ﷺ: «ثلاث لو يعلم الناس ما فيهن لركضوا رَكْضَ الإبل فى طلبهن: الأذانُ، والصفُّ الأوّل، والغدوُّ إلى الجمعة».

قال أحمد بن حنبل، وقد ذكر هذا الحديث: أفضلهن الغدوُّ إلى الجمعة.

وقد رُوى فى خبر آخر: «إذا كان يوم الجمعة، قعدت الملائكة على أبواب المسجد، بأيديهم صحف من فضة، وأقلام من ذهب، يكتبون الأول فالأول على مراتبهم».

وروينا فى خبر عن النبى ﷺ أنه نهى عن التحلُّق يوم الجمعة قبل الصلاة، إلا أن يكون عالمًا بالله تعالى، يذكِّر بأيام الله عزّ وجلّ، ويفقِّه فى دين الله عزّ وجلّ، يتكلم فى الجامع بالغداة، فيُجلَس إليه، فيكون جامعًا بين البكور إلى الجمعة والاستماع إلى العلم.

ولا يدع الغُسل لها يوم الجمعة إلا من ضرورة، فإنّه عند بعض العلماء فرض. والاغتسال فى البيت أفضل.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «غسلُ الجمعة واجبٌ على كل محتلم». والمشهور من حديث نافع عن ابن عمر: «مَنْ أتى الجمعة فليغتسل».

وكان أهل المدينة يتسابُّون بينهم، فيقولون: لأنت شرٌّ مِمَّن لا يغتسل يوم الجمعة. وقد قال عمر لعثمان رضى الله عنهما لما دخل وهو يخطب: أهذه الساعة؟! فقال: ما زدت بعد أن سمعت الأذان أن توضأت وخرجت. فقال عمر: والوضوء أيضًا وقد علمت أن رسول الله ﷺ كان يأمر بالغسل؟

ولكن فى ترك الغسل رخصة، لوضوء عثمان مع علمه، ويسند ذلك إلى الخبر المسند: «مَنْ توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت، ومن اغتسل فالغسل أفضل».

وروينا عن الصحابة: أُمرنا بالغسل يوم الجمعة فى الصيف، فلما جاء الشتاء كان من شاء اغتسل، ومن لم يشأ ترك الغسل. وقد روينا عن رسول الله ﷺ: «من شهد الجمعة من الرجال والنساء فليغتسل». فلذلك قال مالك بن أنس: إنّ النساءَ إذا حضرن الجمعة اغتسلن لها.

ومن اغتسل من جنابة أجزأه لغسل الجمعة إذا نوى. ولا بدّ من النية لغسل الجنابة لأجل الجمعة، فهو أفضل، ويكون الغسل للجمعة داخلاً فيه. فإذا أفاض عليه الماء ثانية بعد غسله للجنابة لأجل الجمعة فهو أفضل. دخل بعض الصحابة

على ابنه يوم الجمعة وهو يغتسل، فقال: للجمعة غسلُك هذا؟ قال: لا، بل من الجَنابة. قال: فأعدْ غسلاً ثانيًا، فإنّى سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «واجبٌ على كلِّ مسلم أن يغتسلَ يوم الجمعة».

ومن اغتسل بعد طلوع الفجر للجمعة أجزأه، ولكن أفضل الغسلِ لها عند الرَّواح إلى الجامع.

وأُحبُّ أن لا يُحدث وضوءًا بعد الغسل، حتى يفرغ من صلاة الجمعة، فمن العلماء من كره ذلك. ولكن إن بكّر إلى الجامع فتوضأ هناك من حَدَثٍ لَحِقَه لامتداد الوقت، فإنه على غسل الجمعة.

ويُستحب أن يستاك، وأن يلبس من صالح ثيابه، ويجتنب الشهرة من الثياب، ومن أفضل ما لبس البياض، أو بُردين يمانيين. ولبسُ السوادِ يوم الجمعة ليس من السنة، ولا من الفضل أن ينظر إلى لابسه، وليقلِّم أظفاره، ويأخذ من شاربِه، فقد رُوى فضل ذلك من فعلِ رسول الله ﷺ، ومن أمره. وقد روينا عن ابن مسعود وغيره: «من قلَّم أظفاره يوم الجمعة أخرج الله عزّ وجلّ منها داء وأدخل شفاء».

وليتطيب بالطيب مما ظهر ريحه وخفى لونه، فذلك طيب الرجال. وطيبُ النساء ما ظهر لونُه وخَفِى ريحه. روينا ذلك فى الأثر.

وتُستحب العمامة يوم الجمعة. وقد روينا فيها حديثًا شاذًا عن واثلة بن الأسقع عن رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجلّ وملائكته يصلّون على أصحاب العمائم يوم الجمعة». فإن أكربه الحرُّ فلا بأس أن ينزعها قبل الصلاة، وبعدها، ولكن يخرج من منزله إلى الجامع وهو لابسها، ولا يصلّى إلا معتمًّا[1]، لتحصل له فضيلة العِمّة، فإن نزعها فليلبسها حينئذ عند صعود الإمام المنبر، ثم ليصلِّ وهى عليه، فإن شاء نزعها بعد ذلك.

وليخرج إلى الله عزّ وجلّ خاشعًا متواضعًا ذا سكينة ووقار، وإخبات وافتقار، وليكثر من الدعاء والاستغفار. وينوى فى خروجه زيارة مولاه فى بيته، والتقرّب

(١) فى (ك): «متعممًا».

إليه بأداء فريضته، والعكوف فى المسجد إلى حيث انقلابه. ثم لينوِ كفَّ جوارحه عن اللهو واللغو، وينو الشُّغلَ بخدْمة مولاه[1]، وليترك راحته فى ذلك اليوم فى مهناه من عاجل حظ دنياه، وليواصل الأوراد فيه، فيجعل أوله إلى انقضاء صلاة الجمعة للخدمة بالصلاة، وأوسطه إلى صلاة العصر لاستماع العلم ومجالس الذكر، وآخره إلى غروب الشمس للتسبيح والاستغفار. فكذلك كان المتقدمون يقسمون يوم الجمعة هذه الأقسام الثلاثة.

وإن صامه فحسن، يضم إليه يوم الخميس، أو يضيف إليه يوم السبت، وقد كُره إفراده بصوم. ومن لم يصمه، وكان له أهل، فالمستحب أن يجامع فيه، فقد رُوى فضل ذلك، وكان بعض السلف يفعله.

وقد روينا عن رسول الله ﷺ: «من غسّل واغتسل، وغدا وبكّر، ودنا من الإمام ولم يَلْغُ، كان له بكل خطوة صيام سَنَة وقيامها». وفى خبر آخر: «ودنا من الإمام واستمع، كان له ذلك كفارة لما بين الجمعتين، وزيادة ثلاثة أيام». وفى لفظ آخر: «غُفر له إلى الجمعة الأخرى». وقد اشترط فى بعضها: «ولم يتخطَّ رقاب الناس».

فمعنى قوله: من غسّل، بالتشديد، أى غسّل أهله، كناية عن الجماع. وبعض الرواة يخففه فيقول: «غسَل واغْتسل»، فيكون معناه: غسل رأسه، واغتسل لجسده.

وليتق أن يتخطّى رقابَ الناس، فإن ذلك مكروه جدًا، وقد جاء فيه وعيد شديد أن من فعل ذلك جُعل جسرًا يوم القيامة على جهنم تتخطّاه الناس. وقال ابن جريج حديثًا مرسلاً «أن النبى ﷺ بينما هو يخطب يوم الجمعة إذ رأى رجلاً يتخطّى رقابَ الناس حتى تقدّم وجلَس، فلمّا قضى النبى ﷺ صلاته عارض الرجل حتى لقيه، فقال: يا فلان ما منعك أن تُجمّعَ اليوم معنا؟ فقال: يا نبى الله قد جمَّعْتُ. فقال: أوَ لم أرك تتخطّى رقاب الناس؟».

(١) فى (ط): «ويتق الشغل حين يخدم مولاه» وأثبت ما فى (ك).

وفى حديث مسند أن النبى ﷺ قال له: «ما منعكَ أن تصلّى معنا الجمعة؟ فقال: أوَ لم ترنى؟ قال: قد رأيتُك تأنَّيت وآذيت». أى: تأخّرت عن البكور، وآذيت بالحضور.

ولا يقعد إلى القصّاص فى يوم الجمعة، فقد كُره ذلك، ولا فى حلقة قبل الصلاة. فقد روى عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن عبد الله بن عمر «أنَّ النبى ﷺ نهى عن التحلّق يوم الجمعة قبل الصلاة»، إلا أن يكون عالمًا بالله عزّ وجلّ، يذكِّر بأيام الله، ويفقِّه فى الدين، يتكلم فى الجامع بالغداة، فيُجلَس إليه، فيكون جامعًا بين البكور إلى الجمعة وبين الاستماع إلى العلم.

وقد روينا عن بعض علماء السلف قال: إن لله تعالى فضلاً من الرزق سوى أرزاق العباد، لا يعطى من ذلك الفضل إلا من سأله عشية الخميس ويوم الجمعة.

وفى الخبر المشهور: «إن فى الجمعة ساعةً لا يوافقها عبدٌ مُسلم يسأل الله عز وجلّ فيها شيئًا إلا أعطاه». وفى لفظ آخر: «لا يصادفها عبد يصلّى».

واختُلف فى وقت هذه الساعة، فقيل: إنها عند طلوع الشمس. وقيل: إذا قام الناس إلى الصلاة. وقيل: عند الزوال. ويقال: مع الأذان. وقيل: هى إذا صعد الإمام المنبر وأخذ فى الذكر. وقيل: بعد العصر من آخر أوقاتها. وقيل: عند غروبِ الشمس إذا تدلّى حاجبها الأسفل. كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تراعى ذلك الوقت، وتأمر خادمها أن ينظر إلى الشمس، فيؤذنها بسقوطها، فتأخذ فى الدعاء والاستغفار فى ذلك الوقت إلى أن تغرب الشمس، وتخبر أن تلك الساعة هى المنتظرة، وتؤثره عن أبيها ﷺ.

فهذا جُمل ما قيل فى هذه الساعة، بروايات جاءت فى ذلك متفرقة، حذفنا ذكرها للاختصار. فليُتوَخَّ هذه الأوقات، وليُتعَهَّد الدعاء فيها والصّلاة فيما صلُح منها.

وقد قال بعض العلماء: إن هذه الساعة مبهمة فى جميع اليوم، لا يعلمها إلا الله عزّ وجلّ، كإبهام ليلة القدر فى جميع شهر رمضان، وكإبهام الصلاة الوسطى

فى جُملة الصّلوات الخَمْس[١].

وقد قيل: إنها تنتقل فى ساعات يوم الجمعة كتنقل ليلة القدر عند بعضهم فى ليالى الشهر، ذلك ليكون العبد طالبًا إلى الله عزّ وجلّ، وراغبًا متضرعًا مفتقرًا فى جميع ذلك اليوم. فمن واصل الأوراد فيه، وعمّر بالذكر كلّ ساعة، صادفها بإذن الله عزّ وجلّ، فإن لم يواصل السّاعة فى يوم واحد فليواصلها فى جُمَعٍ شتى، وقتًا على وقت، على ترتيب أوقات يوم، فإنّها تقع فى جميع الأوقات لا محالة.

وليكثر الدعاء والتضرّع فى وقتين خاصة: عند صعود الإمام المنبر إلى أن تقام الصلاة ويدخل فيها. وعند آخر ساعةٍ وقت تدلّى الشمس للغروب. فهذان الوقتان من أفضل أوقات الجمعة، ويَقْوى فى نفسى أنّ فى أحدهما الساعةَ المرجوّة.

وقد اجتمع كعب الأحبار مع أبى هريرة، واجتمع رَأْيُ كعب أنّها فى آخر ساعة من يوم الجمعة. فقال أبو هريرة: كيف تكون آخر ساعة وقد سمعتُ النبى ﷺ يقول: لا يوافقها عبد يصلى ولات حين صلاة؟ فقال كعب: ألم يقل رسول الله ﷺ: من قعد ينتظر الصلاة فهو فى صلاة؟ قال: بلى. قال: فذاك صلاة. فسكت أبو هريرة، فكأنه وافقه.

وليكثر من الصّلاة على النبى ﷺ فى يوم الجمعة وليلتها، وأقل ذلك أن يصلّى عليه ﷺ ثلاثمائة مرة.

وقد جاء فى الخبر: «من صلّى علىّ فى يوم الجمعة ثمانين مرة غفر الله له ذنوب ثمانين سنة. قيل: يا رسول الله، كيف الصلاة عليك؟ قال: تقول: اللّهم صلِّ على محمّدٍ عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى، وتعقدها واحدة».

فكيف ما صلّى عليه، بعد أن يأتى بلفظ ذكر الصلاة عليه، فهى صلاة. والصلاة المشهورة هى التى رُويت فى التشهد، وإن جعل من صلاته عليه أن يقول: اللّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، صلاةً تكون لك رضاءً، ولحقّه

---

(١) فى (ط): «كأنها بمنزلة ليلة القدر مبهمة فى جميع شهر رمضان وكأنها مثل الصلاة الوسطى فى جملة الصلوات الخمس» وأثبت ما فى (ك).

أداء، وأعطه الوسيلة، وابعثه المقام المحمود الذى وعدته، واجْزِه عنّا ما هو أهله، واجْزِه أفضلَ ما جَزَيت نبيًا عن أمته، وصلِّ على جميع إخوانه من النبيّين والصّالحين يا أرحم الراحمين.

تقول هذا سبع مرات، ففى هذا فضل عظيم. ويقال: من قاله سبع جمع، فى كل جمعة سبع مرات، وجَبَت له شفاعة رسولِ الله ﷺ.

وإن زادَ هذه الصلاةَ فهى مأثورة:

اللّهم اجعل فضائلَ صلواتِك، وشرائفَ زكواتك، ونوامى بركاتك، ورأفتكَ ورحمتكَ وتحيّتك، على محمد سيّد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، ورسول رب العالمين، قائد الخير، وفاتح البر، ونبى الرّحمة، وسيّد الأمة.

اللّهم ابعثهُ مقامًا محمودًا، تُزلف به قُربَه، وتُقرُّ به عينَه، يغبطه به الأولون والآخرون. اللهم أعطهِ الفضلَ والفضيلة، والشرفَ والوسيلة، والدرجةَ الرفيعة، والمنزلةَ الشامخة المنيفة.

اللّهم أعط محمدًا سؤله، وبلِّغه مأموله، واجعله أوّلَ شافع، وأوّل مشفع. اللّهم عظّم برهانه، وثقّل ميزانه، وأبلج حُجته، وارفع فى أعلى المقربين دَرجته. اللّهم احشرنا فى زمرته، واجعلنا من أهل شفاعته، وأحينا على سُنته، وتوفّنا على مِلَّته، وأوْرِدنا حوضه، واسْقنا بكأسه غير خزايا ولا نادمين، ولا شاكّين ولا مبدِّلين، ولا فتّانين ولا مفتونين، آمين يا ربّ العالمين.

وليكثر من الاستغفار يوم الجمعة وليلتها، وأى لفظ ذكر فيه سؤال المغفرة فهو مستغفر. وإن قال: اللّهم اغفر لى وتب علىَّ إنك أنت التواب الرحيم، فهو أفضل. وإن قال: ربّ اغفر وارحم، وتجاوز عما تعلم، وأنت خير الراحمين، فحسن.

واستُحب له أن يقرأ ختمة يوم الجمعة. فإن ضاق عليه ذلك فليشفع إليه ليلتها؛ ليكون ابتداؤه من ليلة الجمعة. وإن جعل ختمه للقرآن فى ركعتى الفجر من يوم الجمعة، أو فى ركعتى المغرب ليلة الجمعة، فحسن؛ ليستوعب بذلك كله

اليوم والليلة. وإن جعل ختمه بين الأذان للجمعة والإقامة للصلاة، ففيه فَضلٌ عظيم.

ويُستحب أن يصلّى قبل الجمعة اثنتى عشرة ركعة، وبعدها ست ركعات، وإذا دخل الجامع فليصلِّ أربع ركعات يقرأ فيهن: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ مائتى مرة، فى كل ركعة خمسين مرة، ففيه أثر عن رسول الله ﷺ: «من فعله لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة، أو يُرى له».

وإذا دخل الجامع فلا يقعدنّ حتى يصلى ركعتين قبل أن يجلس، وكذلك إن دخل والإمام يخطب، صلاهما خفيفتين، وإن سمعه، لأمر النبى ﷺ بذلك؛ لأنه قد جاء فى حديث غريب أن النبى ﷺ سكت له حتى صلاّهما.

فقال الكوفيون: إن سكت له الإمام صلاهما. ولعل سكوتَ رسولِ الله ﷺ مخصوصٌ له، لوجوب قوله.

وروى ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس وأبى هريرة قالا: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة، أو يوم الجمعة، أُعطى نورًا من حيث يقرأها إلى مكة، وغُفر له إلى الجمعة الأخرى وفضل ثلاثة أيام، وصلّى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح، وعُوفى من الداء والدُّبَيْلَةِ[1] وذات الجنب والبرص والجذام وفتنة الدجال».

واستُحب أن يصلّى يوم الجمعة أربع ركعات بأربع سور: سورة الأنعام، وسورة الكهف، وسورة طه، وسورة يس. فإن لم يحسن ذلك قرأ سورة يس، وسجدة لقمان، وسورة الدخان، وسورة الملك. ولا يدع قراءة هذه الأربع سور فى كل ليلة جمعة، ففى ذلك أثر وفضل كبير. فإن لم يحسن جميع القرآن قرأ ما يحسن منه، فذلك له ختمة. فقيل: ختمة من حيث علمه.

وقد كان العابدون يستحبون أن يقرؤوا يوم الجمعة ألف مرة: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ ، فإن قرأها فى عشر ركعات أو عشرين فهو أفضل من ختمة. وقد كانوا

---

(١) الدُّبيلة: داء يكون فى الجوف، وهى تصغير دُبْلة. والدبيلة أيضًا: الداهية، وهى مصغرة للتكبير.

يصلّون على النبى ﷺ ألف مرة. ومن التسبيح والتهليل بالكلمات الأربع ألف مرة.

وهذه ثلاثةُ أورادٍ حسنة فى يوم الجمعة، أعنى: قراءةَ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ﴾، والصلاةَ على النبى ﷺ، والتسبيحَ والتهليلَ ألفًا ألفًا، فلا يدعنَّ ذلك، مَنْ رُزِقَها أو أحدَها فإنّه من أفضل الأعمال فى هذا اليوم.

وإن صلّى يوم الجمعة قبل الزوال صلاةَ التسبيح، وهى ثلاثمائة تسبيحة فى أربع ركعات، فقد أكثر وأطاب. وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «صلّها فى كل جمعة مرة». وذكر أبو الجوزاء عن ابن عباس: أنه لم يكن يدع هذه الصلاة كلَّ يوم بعد الزوال، وأخبر عن فضلها ما يجلّ وَصْفُه.

وإن قرأ المسبّحات السّتّ فى يوم الجمعة أو ليلتها، فحسن. وليس يُروى أن النبى ﷺ كان يقرأ السور بأعيانها إلا يوم الجمعة وليلتها. فإنا رُوينا أنه كان يقرأ فى صلاة المغرب ليلة الجمعة: ﴿قُلْ يا أيُّها الكَافِرُون﴾، و ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ﴾. وكان يقرأ فى صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة: سورة المنافقين. وقد رُوى أنه كان يقرأ بهاتين السورتين فى صلاة الجمعة، وكان يقرأ فى صلاة الغداة يوم الجمعة بسورة سجدة لقمان، وسورة ﴿هَلْ أتَى عَلَى الإنسان﴾.

واستماعه إلى علم اليقين، والمعرفة، وحضور مجالس الذكر، أفضلُ من صلاته، وصلاته أفضل من حضوره مجالس القصّاص. وروينا فى حديث أبى ذر: «حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة». وفى خبر آخر: «لأن يتعلم أحدُكم بابًا من العلم أو يعلّمه خير له من صلاة ألف ركعة». وفى خبر: «قيل: يا رسول الله، ومن قراءة القرآن؟ فقال: وهل ينفع القرآن إلا بعلم؟».

والصّلاةُ إذا عدم مجلس العلم بالله، والتفقه فى دين الله عزّ وجلّ، أزكى من حضور مجلس القصص، ومن الاستماع إلى القصاص، فإن القصص كان عندهم بدعة، وكانوا يخرجون القصاص من الجامع. روى أن ابن عمر جاء ذات يوم إلى مجلسه فى المسجد فإذا قصّاص يقصّ، فقال له: قم من مجلسى. فقال: لا أقوم

وقد جلستُ فيه، أو قال: قد سبقتك إليه. قال: فأرسل ابن عمر إلى صاحب الشرطة فأقامه. فلو كان ذلك من السّنة لما حَلَّ لابن عمر أن يقيمه من مجلسه، سيما وقد سبقه إلى الموضع. كيف! وهو الذى روى عن رسول الله ﷺ: «لا يقيم أحدُكم أخاه من مجلسه ثم يجلس فيه، ولكن تفسَّحوا وتوسَّعوا». قال: فكان ابن عمر إذا قام له الرجل من مجلسه لم يجلس فيه حتى يعود إليه. وروينا: «ثم يجلس فيه».

وقد روينا أن قاصًا كان يجلس بفناء حجرة عائشة يقصُّ، فأرسلت إلى ابن عمر أن هذا قد آذانى بقصصه، وشغلنى عن سبحتى. قال: فضربه ابن عمر، حتى كسر عصًا على ظهره، ثم طرده.

وليحذر أن يمرَّ بين يدى المصلى وإن كان مروره لا يقطع الصلاة. ففى الخبر: «لأن يقف أحدُكم أربعين سنةً خيرٌ له من أن يمر بين يدى المصلِّى». وقد جاء فيه وعيد شديد: «لأن يكون الرجل رمادًا تذروه الرياح خير له من أن يمر بين يدى المصلِّى». وقد سوّى فى ذلك بين المارِّ والمصلِّى فى الوعيد، ففى حديث زيد بن خالد الجهنى قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم المارُّ بين يدى المصلى ما عليهما فى ذلك لكان أن يقف أربعين خير له من أن يمر بين يديه».

ولْيَدْنُ المصلِّى من أسطوانة أو جدار، فإذا فعل ذلك فلا يدعنَّ أحدًا أن يمرّ بين يديه، وليدفعه ما استطاع. وفى حديث عبد الرحمن بن أبى سعيد الخدرى عن أبيه قال: «فإن أبى فليُقاتلْه فإنّما هو شيطان». وكان أبو سعيد يدفع مَن يمرّ بين يديه حتى يصرعه، فربما تعلق به الرجل فاستعدى عليه مروان، فيخبره أن النبى ﷺ أمرَ بذلك.

فإن لم يتفق له أسطوانة فليجعل شيئًا بين يديه، يكون طوله عظم الذراع، وقد قيل: وإن كان حبلاً ممدودًا حاجز بينه وبين المارة.

وقد قيل: أربعٌ من الجفاء: أن يبول الرجل قائمًا، أو يصلى فى الصف الثانى ويترك الأول فارغًا، أو يمسح جبهته فى صلاته، أو يصلى بسبيل مَنْ يمرُّ بين يديه.

وقد كان الحسن يقول: تخطّوا رقاب الذين يقعدون على أبواب الجامع يوم الجمعة، فإنّه لا حُرمة لهم.

ولْيَقْرُبْ من الإمام، وينصت، ويستمع، ويستقبله بوجهه، كذلك السّنة، إلا أن يخاف أن يسمع أو يرى منكرًا من لبس نقش سواد، أو حرير أو ديباج، أو حَمْل سلاح ثقيل، ولا يستطيع تغييره، فليبعد حينئذ فهو أسلم.

ولا يلغو ولا يتكلم فى خطبة الإمام، وإن بعُد، ولا يجلس فى حلقة من يتكلم والإمام يخطب، ولا يقول لآخر اسكت، ولكن يومئ إليه إيماء، أو يَحْصِبُه بحصاة، فإن لغا والإمام يخطب بطلت جمعته، ولا يتكلم فى العلم فى خطبة الإمام. ومن لم يَقْرُبْ من الإمام ولم يستمع فلينصت، وإن بَعُد، كذلك المستحب.

وقد روينا عن عثمان وعلى رضوان الله عليهما: «من استمع وأنصت فله أجران، ومن لم يستمع وأنصت فله أجر، ومن سمع ولغا فعليه وزران، ومن لم يستمع ولغا فعليه وزر واحد». وفى حديث أبى ذر لما سأل أُبيًا والنبى ﷺ يخطب فقال: متى أُنزلت هذه السورة، فأومأ إليه أن اسكت. فلما نزل النبى ﷺ قال له أُبى: اذهب فلا جمعة لك. فشكاه أبو ذر إلى النبى ﷺ فقال: «صدق أُبىّ».

وكذلك جاء فى الخبر: «من قال لصاحبه والإمام يخطب انصت أو مَهْ، فقد لغا، ومن لغا والإمام يخطب فلا جمعة له».

وليقطع الصلاة إذا قام المؤذنون للأذان بين يدى الإمام. فقد روى أبو إسحاق عن الحارث عن على رضوان الله عليهم: «تُكره الصلاة فى أربع ساعات: بعد الفجر، وبعد العصر، ونصف النهار، والصلاة والإمام يخطب». وقد جاء فى الأثر: «خروج الإمام يقطع الصّلاة، وكلامه يقطع الكلام».

وسجود العامة عند قيام المؤذنين للأذان قبل الخطبة ليس بسُنّة، فإن وافق ذلك سجوده فى صلاته، أو سجود قرآن، فلا بأس أن يمتدّ فى الدعاء إلى فراغهم؛ لأنّه وقت مفضل. ولا أعرف فى ذلك أثرًا، غير أنه مباح.

ومن العلماء من كره الصلاة فى المقصورة لأجل أنها قُصرت على السلطان وأوليائه، وذلك بدعة عند أهل الورع ابتُدعت فى المساجد؛ لأنها غير مطلقة لجملة الناس. فلذلك نُقل فى الخبر: كان الحسن وبكر المزنى لا يصلّيان فى المقصورة. وروى: رأيت أنسَ بنَ مالك يصلّى فى المقصورة، وعمرانَ بن حصين أيضًا. ومنهم من لم يكره ذلك، ورأيت فيه فضلاً لأجل السّنة فى الدنو من الإمام واستماع الذكر؛ فإن أُطلقت للعامة زالت الكراهة عنها، وإن خُصّ بها أولياء السلطان تُركت عليهم، فإن صلّى فيها سبعًا يُصلَّى فيها، فإن بعض العلماء كره الصلاة فى فناء المنبر، من قِبَل أن المنبر يقطع الصفوف، وكان عندهم أن تقدمة الصفوف إلى فناء المنبر بدعة. وكان الثورى يقول: الصفّ الأول هو الخارج من بين يدى المنبر.

ومن خشى الفتنة والآفة فى قربه من الإمام، بأن يسمع ما يجب عليه إنكاره، أو يرى ما يلزم الأمر فيه أو النهى عنه من لبس حرير أو لبس ديباج، أو الصلاة فى السّلاح الثقيل للشّغل، كان بُعده من الصفوف المقدَّمة أصلح لقلبه، وأجمع لهمّه، لقلّة ملاقاة الناس، ولترك النّظر إليهم. فالأصلحُ للقلب والأجمع للهم هو الأفضل حينئذ. وقد كان جماعة من العلماء والعبَّاد يصلّون فى أواخر الصفوف إيثارًا للسلامة. وقيل لبشر بن الحارث: نراك تبكّر يوم الجمعة وتصلى فى أواخر الصفوف؟! فقال: يا هذا إنّما نريد قُربَ القلوب لا قُربَ الأجسادِ.

ونظر سفيان الثورى إلى شعيب بن حرب عند المنبر يستمع إلى خطبة أبى جعفر، فلما جاءه بعد الصلاة قال: شغل قلبى قُربُك من هذا، هل أمنت أن تسمع كلامًا يجب عليك إنكاره فلا تقوم به، ثم ذَكَر ما أحدثوا من لِبس السّواد، قلتُ: يا أبا عبد الله أليس فى الخبر: ادْنُ واستمع، فقال: ويحك ذاك للخلفاء الراشدين المهديين، فأما هؤلاء فكلما بعُدت عنهم ولم تنظر إليهم كان أقرب لك إلى الله عزّ وجلّ.

وقد روينا عن أبى الدرداء فضيلة فى الصّف المؤخَّر، قال سعيد بن عامر: صليتُ إلى جنبه فجعل يتأخر فى الصفوف، حتى كنا فى آخر صف، فلما صلّينا

قلت له: أليس يقال: خير الصفوف أولّها؟ قال: نعم، إلا أن هذه أمة مرحومة منظور إليها من بين الأمم، وإنّ الله عزّ وجلّ إذا نظر إلى عبد منهم فى الصّلاة غفر لمن وراءه من الناس، فإنّما تأخرتُ رجاء أن يُغفر لى بواحد منهم، ينظر الله إليه.

وقد رفعه بعض الرواة، أن أبا الدرداء سمع النبى ﷺ يقول ذلك.

والصّدقة مستحبة مفضَّلة يوم الجمعةِ خاصّة، فإنّها تُضاعَف، إلا على مَن سأل والإمام يخطب، وكان يتكلم فى كلام الإمام، فهذا مكروه. قال صالح بن أحمد: سأل مسكين يوم الجمعة والإمام يخطب، وكان بجنب أبى، فأعطاه رجل قطعة ولم يعرفه ليناوله إياها، فلم يأخذها منه أبى.

وقال ابنُ مسعود: إذا سأل الرجل فى المسجد فقد استحق أن لا يُعطَى، وإذا سأل على القرآن فلا تُعطوه.

ومن العلماء من كره الصدقة على سؤّال الجامع الذين يتخطون رقاب الناس، إلا أن يسأل قائمًا من غير أن يتخطّى المسلمين، أو قاعدًا فى مكان.

وروينا عن كعب الأحبار: من شَهِد الجمعةَ ثم انصرف يتصدّق بشيئين مختلفين من الصّدقة، ثم رجع فركع ركعتين يتم ركوعهما وخشوعهما وسجودهما، ثم يقول: اللهم إنى أسألكَ باسمك بِسم الله الرّحمن الرحيم، وباسمك الذى لا إله إلاّ هو الحى القيوم لا تأخذه سِنةٌ ولا نَوْم، لم يسألِ الله عزّ وجلّ شيئًا إلا أعطاه.

وقد روينا عن بعض السّلف على غير هذا الوصف قال: مَنْ أطعمَ مِسكينًا فى يوم الجمعة، ثم غدا وابتكر ولم يؤذِ أحدًا، ثم قال حين يسلم الإمام: اللّهم إنى أسألك ببسم الله الرحمن الرحيم الحى القيوم أن تغفر لى وترحمنى وأن تعافينى من النار، ثم دعا بما بدا له استُجيب له.

وإن سمع قراءةَ الإمام لم يقرأ فى صلاته إلا سورة الحمد لا غير، وإن لم يسمع قراءته قرأ سورة مع الحمد، إن أحب. فأما من سمع قراءةَ الإمام، وقرأ معه سورة الجمعة أو غيرها من السور، فقد خالف الأمة، وعصى رسولَ الله

ﷺ، ولا أعلمه مذهب أحد من المسلمين.

فإذا سلّم من صلاة الجمعة قرأ وهو ثانٍ رجلَه قبل أن يتكلم: الحمد سبع مرات، و ﴿قُلْ هو اللهُ أحد﴾ سبعًا، والمعوذتين سبعًا، ففي ذلك أثر عن بعض السّلف: أنّ من فعله عُصِم من الجمعة إلى الجمعة، وكان ذلك حِرزًا له من الشيطان.

واستُحبّ له أن يقول بعد صلاة الجمعة: «اللهم يا غنيّ يا حَميدُ، يا مبدئُ يا معيدُ، يا رحيمُ يا ودودُ، اغننى بحلالكَ عن حرامِك، وبفضْلك عمّن سِواك». يقال: من داوم على هذا الدعاء أغناه الله عز وجلّ عن خلقه، ورزقه من حيث لا يحتسب.

وقد روى ابن عمر أن النبى ﷺ كان يصلّى بعد الجمعة ركعتين. وروى أبو هريرة أنه كان يصلّى بعدها أربعًا. وروى على وعبد الله رضى الله عنهما أن النبى ﷺ كان يصلّى بعدها ستًا. فإذا صلّى العبدُ ستَّ ركعاتٍ فقد استوعب جميعَ الروايات.

وأكره شراءَ الماء فى المسجد للشرب أو لتسبيله؛ لئلا يكون مبتاعًا فى المسجد، فقد كُره الشراء والبيع فى المسجد، فإن بايعه أو دفع إليه القطعةَ خارجًا من المسجد، وشرِب أو سبَّل فى المسجد، فلا بأس.

وقد جاء عن بعض السّلف أنه كره الصلاة فى رحاب الجامع، وعن بعض الصحابة أنه كان يضرب الناس، ويقيمهم من الرحاب، ويقول: لا تجوز الصلاة فى الرحاب. فهذا عندى على ضربين: وهو أن الصّلاةَ فى رحاب الجامع الزوائد فيه المتصلةِ بالصفوف المحيط بها حائط الجامع الأعظم كالصّلاةِ فى وسطه غيرُ مكروهة، والصّلاةَ فى رحابه المتفرقة فى أفنيته التى هى من وراء جدر الجامع كلّه مكروهةٌ. وكذلك الصّلاة فى الطرقات المنفردة عن الجامع غير المتصلة بالصفوف؛ لحجز طريق أو بعد مكان، فلا يجوز. وهذا الذى كرهه من كان ينهى عن الصّلاة فيه.

فإذا صلّى الجمعةَ انتشر في أرض الله عزّ وجلّ، يطلب من فضل الله عزّ وجلّ، ومن الفضل طلبُ العلم واستماعُه، ويقال: هو مزيد يوم الجمعة للعالم والمتعلم، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً﴾ [سبأ: ١٠]، يعني: العلم، بدليل نظيرها من الآية الأخرى في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالاَ الْحَمْدُ لله الَّذِى فَضَّلَنَا﴾ [النمل: ١٥].

وروينا عن أنس بن مالك في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ الله﴾ [الجمعة: ١٠] قال: أمَا إنه ليس بطلب دنيا؛ ولكنه عيادة مريض، وشهود جنازة، وتعلّم علم، وزيارة أخ في الله عزّ وجلّ. فإنّ الذكرَ بالعلم، وتعليمَ الناس إياه، والتذكيرَ بالله عزّ وجلّ، والدعوةَ إليه في يوم الجمعة، له فضلٌ على سائر الأيام، لأنه يومُ المزيد، فللقلوب فيه إقبالٌ وتحديد، وكذلك السعيُ إليه، والاستماعُ له، وحضورُ مجالس الذكر يوم الجمعة لا مجالس القصاص، أفضلُ من سائر الأيام، والمستمع شريك القائل في الأجر. وقد قيل: إنه أقربُ للرحمة.

وقد كره العلماءُ الجلوسَ إلى القصاص سيما يوم الجمعة خاصة؛ لأنهم يثبطون عن الغدوّ إلى الجامع في السّاعة الأولى والثانية؛ لأنّ الكتاب ورد بالفضل فيهما[1]. فمن اتُّفق له عالم بالله عزّ وجلّ يذكّره به ويدلّه عليه، من علماء الآخرة الزاهدين في الدنيا، يومَ الجمعة غدوةً في الجامع، أو بعد صلاة الجمعة ـ جلس إليه واستمع منه، وإن حضر مُفْتٍ يتكلّم بعلم الدين وكان العبد محتاجًا إلى ذلك جالسه، فهو الأفضل، فإنّ مجالس العلماء في الجامع مِنْ زَيْن يومِ الجمعة ومن تمامِ فضلِه. قال الحسن: الدنيا ظُلمة إلا مجالسَ العلماء. فإن لم يتفق له ذلك، أحيا ما بين الصلاتين. وهو الورد الخامس من النهار.

ويُستحب صلاة العصر في الجامع، إلا لسببٍ لا بدّ منه مانعٍ. وإن قعد إلى

---

(١) في (ك): «اللتين ورد به الفضل فيهما».

غروب الشمس فهو أثوب للسّاعة المنتظرة من آخر النهار، إذا أمنَ الفتنةَ والتّصنُّعَ والكلامَ فيما لا يعنيه. ويقال: من صلّى العصرَ فى الجامع كان له ثواب حجة، ومن صلّى المغرب كان له ثواب عمرة. فإن خشى دخولَ الآفة عليه، أو لم يأمن التّصنّعَ، والخوضَ فيما لا يعنيه، انصرف إلى منزله ذاكرًا لله عزّ وجلّ، مفكرًا فى آلائه وحسن نعمائه، فراعَى غروبَ الشمس بالأذكار والتسبيح والاستغفار فى منزله أو مسجد حيّه، فذلك حينئذ أفضل له.

وقال بعض السّلف: أوفر الناسِ نصيبًا يوم الجمعة مَنْ راعاها وانتظرها من الأمس، وأخسُّ الناسِ منها نصيبًا مَنْ يصبح يوم الجمعة فيقول: ايش اليوم. وقد كان بعضهم يبيت ليلة الجمعة فى الجامع لأجل صلاة الجمعة. ومنهم من كان يبيت ليلة السبت فى الجامع لمزيد الجمعة. وكثير من السلف من كان يصلّى الغداةَ يوم الجمعة فى الجامع، ويقعد ينتظر صلاةَ الجمعة، لأجل البكور، ليستوعب فضل الساعة الأولى، ولأجل ختم القرآن. وعامَّةُ المؤمنين كانوا ينحرفون من صلاة الغداة فى مساجدهم فيتوجهون إلى جوامعهم.

ويقال: أول بدعة حدثت فى الإسلام ترك البكور إلى الجوامع. قال: وكنتَ ترى يومَ الجمعة سَحَرًا وبعد صلاة الفجر الطرقاتِ مملوءةً من الناس، يمشون فى السُّرج، يزدحمون فيها إلى الجامع كما ترون اليوم فى الأعياد، حتى دَرَس ذلك وقَلَّ وجُهِل وتُرِك. أوَ لا يستحى المؤمنُ أنّ أهلَ الذمة يبكّرون إلى كنائسهم وبِيَعِهم قبل خروجه إلى جامعه؟! أوَ لا يعتبر بأهلِ الأطعمةِ المباعة فى رحابِ الجامع أنهم يَغْدون إلى الدنيا والناس قبل غدوّه هو إلى الله تعالى وإلى الآخرة؟! فينبغى أن يُسابِقَهُم إلى مولاه [وإلى الآخرة][1]، ويسارعهم إلى ما عنده من زُلفاه.

ويجب أن يكون للمؤمن يوم الجمعة مزيدٌ فى الأوراد والأعمال، وليتفرغ فيه لربه عزّ وجلّ، ويجعله يوم آخره[2]، إن لم يكن له يوم السبت فيوم الجمعة فى الأوراد المتصلة، والمزيد من الأذْكار على المعلوم منها، فلا يكون الجمعة كالسبت

(١) ساقطة من (ط).

(٢) فى (ط): «يوم آخر» وأثبت ما فى (ك). أى آخر يوم فى عمره.

فى تجارة الدنيا والشغل بأسبابها.

وأكره له التأهُّب ليوم الجمعة فى باب الدنيا من يوم الخميس؛ من إعداد المأكول، والترفُّه من النّعمة والأكل والشرب. فقد روينا حديثًا من طريق أهل البيت، فيه نظر، أن النبى ﷺ قال: «يأتى على أمتى زمان يَتأهّبون لجُمعتهم فى أمر دُنياهم عشيةَ الخميس كما يتأهب اليهودُ لسبتها عشيةَ الجمعة». وإنّما كان المؤمنون يتأهبون فيه للآخرة بالأوراد الحسنة، يزدادون من الأوراد المتصلة.

وقد كان أبو محمد سهل رحمه الله يقول: من أخذ مَهْنأه من الدنيا فى هذه الأيام لم ينل مهنأه فى الآخرة، منها يوم الجمعة. وقال أيضًا: يومُ الجمعة من الآخرة ليس هو من الدنيا. وقال بعضهم: لولا يومُ الجمعة ما أحببت البقاءَ فى الدنيا.

فهو عند الخصوص: يومُ العلوم والأنوار، ويوم الخدمة والأذكار؛ لأنّه عند الله عزّ وجلّ يومُ المزيد بالنظر إليه فى المزار.

وروينا حديثًا غريبًا عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «دعوا أشغالكُم يومَ الجمعة فإنه يومُ صلاةٍ وتهجّد».

وروينا عن جعفر الصادق قال: يومُ الجمعة لله عزّ وجلّ ليس فيه سفر، قال الله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وما ذكرناه من الصّلاة، والسّورِ المقروءة، والصلاةِ على النبى ﷺ، وجميعِ الذكر فى يوم الجمعة، فإنه يُستحب فى ليلتها، وهى من أفضل الليالى، فلا يدعنَ ذلك مَنْ وجد إليه سبيلاً. فإنّ للصادق المريدِ فى كل وقت مفضَّلٍ من الله عز وجلّ مزيدًا، فإذا أحبّ اللهُ تعالى عبدًا استعمله فى الأوقات الفاضلة بفواضل الأعمال، وإذا مقتَ عبدًا استعمله فى الأوقات المفضّلة بسيئ الأعمال؛ ليكون أوجعَ فى عقابه، وأشدَّ لمقته، لحرمانه بركة الوقت، وانتهاكه حرمة الوقت.

وما يُختص به يومُ الجمعة من الذّكر والتمجيد بالأسماء فصول أربعة:

أولها: الأربعون اسمًا التى دعا بها إدريسُ ﷺ، خصّه الله تعالى بها، وذكر

الحسنُ البصرى أن موسى ﷺ قد كان دَعا بهنّ، وأنّها كانت من دعاء محمد ﷺ.

والفصل الثانى: كان إبراهيم بن أدهم الزاهد يدعو بها كلّ يوم جمعة عشر مرات إذا أصبح وإذا أمسى، فكان ذلك من عمله فى يومه.

والفصل الثالث: روينا عن على رضى الله عنه، رواه عن رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ يمجِّد نفسه فى كل يوم وليلة».

والفصل الرابع: تسبيحات أبى المعتمر، وهو سليمان التيمى، الذى كان رأى الشهيد بعد قتله فى المنام، فقيل له: ما أفضل ما رأيت هناك من الأعمال؟ فقال: رأيتُ تسبيحات أبى المعتمر من الله عزّ وجلّ بمكان.

فأما هذان الفصلان من تمجيد الربّ سبحانه وتعالى نفسه، وتسبيحات أبى المعتمر، فقد ذكرناهما فى أول الكتاب، فيما اخترنا من الأدعية المختارة بعد صلاة الغداة وقبلَ غروبِ الشمس فى كل يوم، فاستثقلنا إعادتهما ههنا[١]. وأما الفصلان الآخران فنحن ذاكروهما.

• ذكر دعاء إدريس النبى ﷺ[٢]:

حدثنا الحسنُ بن يحيى الشاهد ، حدثنا القاسم بن داود القراطيسى ، حدثنا عبد الله بن محمد القرشى، حدثنا محمدُ بن سعيد المؤذن، حدثنا سلام الطويل، عن الحسن البصرى قال: لما بعث الله عزّ وجلّ إدريسَ إلى قومه علّمه هذه الأسماء، فأوحى الله إليه: قُلهنّ سرًا فى نفسك ولا تُبدهنّ للقوم فيدعونى بهنّ. قال: وبهنّ دعا، فرفعه الله عزّ وجلّ مكانًا عليًا. ثم علّمهن اللهُ عزّ وجلّ موسى عليه السلام، ثم علّمهن الله عزّ وجلّ محمدًا ﷺ، وبهنّ دعا فى غزوة الأحزاب.

قال الحسن: وكنتُ مستخفيًا من الحجاج، فدعوتُ اللهَ بهنّ فحبسه عنى، ولقد دخل علىّ ست مرات، فأدعو اللهَ بهنّ فأخذ الله عزّ وجلّ بأبصارهم عنّى.

(١) انظر ص ٢٦ وما بعدها، و ص ٣٥ وما بعدها من هذا الجزء.

(٢) ويسميها بعض أهل الطريق اليوم: «الأسماء السّهروَرْدية».

فادعُ الله عزّ وجلّ بهنّ لالتماس المغفرة لجميع الذنوب، ثم سَلْ حاجتك من أمر آخرتك ودنياك، فإنّك تُعطاه إن شاء الله تعالى. فإنّهن أربعون اسمًا عدد أيام التوبة:

سُبحانَك لا إلهَ إلا أنتَ، يا ربَّ كلِّ شيء، وَوارثَهُ، وَرازقَهُ، وراحمَهُ. يا إلهَ الآلهةِ، الرفيعُ جلالُه. يا اللهُ المحمودُ فى كلِّ فعالِه. يا رَحْمنَ كلِّ شيءٍ وَراحمَهُ.

يا حيُّ حينَ لا حَيَّ فى دَيْمُومَةِ مُلْكه وبَقائه. يا قَيّومُ فلا يفوتُ شَيءٌ من علمِه، ولا يَؤُودُه حفظُه. يا واحدُ، الباقى أوّلَ كلِّ شيءٍ وآخرَه. يا دائمُ فلا فناءَ ولا زوالَ لُملكِه. يا صَمَدُ مِن غيرِ شَبيهٍ، ولا شَىء كمثْله.

يا بارُّ فلا شيءَ كفؤه، ولا مكان لوصفه. يا كبيرُ أنتَ الذى لا تَهتدى العُقولُ لوَصْف عظمته. يا بارئَ النفوسِ بلا مثالٍ خَلا مِنْ غَيْره. يا زاكى؛ الطّاهرُ من كلِّ آفة بقُدْسه. يا كافى؛ الموسّعُ لما خَلَق مِن عَطايا فضْلِه. يا نَقيًّا من كلِّ جَوْرٍ لم يَرْضَه، ولم يخالِطْهُ فعالُه.

يا حنّانُ أنتَ الذى وسِعْتَ كلَّ شيءٍ رَحْمةً وعِلْمًا. يا منَّانُ ذا الإحسانِ قد عَمّ كلَّ الخلائقِ منُّه.

يا ديَّانَ العباد، كلٌّ يقومُ خاضعًا لرَهْبتِه [ورغْبَته]. يا خالقَ مَن فى السموات والأرض، وكلٌّ إليه معادُهُ. يا رحيمَ كلِّ صريخٍ ومكروبٍ وغياثَهُ ومعاذَهُ. يا تامُّ فلا تصفُ الألسنُ كلَّ جلالِه ومُلكه وعزِّه.

يا مُبدعَ البدائِع، لم يبغِ فى إنشائِها عوْنًا من خَلْقه. يا علاّمَ الغيوبِ فلا يَفُوته شيءٌ مِن حِفظه ولا يؤوده. يا حليمَ ذا الأناة فلا يُعادِلُهُ شيءٌ من خَلْقه. يا مُعيدَ ما أفناهُ إذا برز الخلائقُ لدعوتِه مِنْ مَخَافَته.

يا حميدَ الفعالِ ذَا المنّ على جَميعِ خَلْقه بلُطْفِه. يا عزيزُ؛ المنيعُ الغالبُ على أمره، فلا شيءَ يُعادِلُه. يا قاهرُ؛ ذا البطشِ الشديد، أنت الذى لا يُطاق انْتقامُه. يا قريبُ؛ المتعالى فوقَ كلِّ شيءٍ علوَّ ارتفاعِه. يا مُذلَّ كلِّ جبارٍ عنيدٍ بقَهْرِ عزيزِ سُلْطانِه.

يا نورَ كلِّ شيءٍ وهُداه، أنت الّذى فَلَق الظُّلُمات بنُورِه. يا عالى؛ الشّامخُ فوقَ كلِّ شيءٍ علوَّ ارتفاعِه. يا قدّوسُ؛ الطّاهرُ من كلِّ سوءٍ، فلا شىءَ يُعادِلُه مِن جميع خَلْقِه.

يا مُبدئَ البَرايا ومُعيدَها بَعد فَنائها بقُدْرَتِه. يا جليلُ، المتكبِّرُ على كل شيءٍ، فالعدلُ أمرُه والصِّدقُ وَعْدُه.

يا محمودُ، فلا تبلغ الأوهامُ كُنْهَ ثنائه ومَجْدِه. يا كريمَ العفوِ ذا العدل، أنت الذى ملأ كلَّ شيءٍ عَدْلُه. يا عظيمُ ذا الثناء الفاخر، وذا العزّ والمجد والكبرياء، فلا يَذِلُّ عِزُّه. [يا قريبُ المجيبُ الدّانى، دون كل شيءٍ قُرْبُه]. يا عجيبَ [الصّنائع] فلا تنطِقُ الألسنُ بكُنْهِ آلائه وثنائِه. يا غِياثى عند كلِّ كُربةٍ، ويا مجيبى عند كلِّ دعوةٍ.

أسألك اللهم يا ربّ الصلاةَ على نبيك محمد ﷺ، وأمانًا من عقوبات الدنيا والآخرة، وأن تحبس عنى أبصارَ الظّالمين، المريدين بى السّوء، وأن تصرف قلوبهم عن شرّ ما يضمرون بى إلى خير ما لا يملكه غيرك.

اللهم هذا الدعاءُ ومنكَ الإجابةُ، وهذا الجهد وعليك التكلان، ولا حول ولا قوّة إلا بالله، وصلى الله على سيّدنا محمد وآله وسلم.

• ذكر دعاء إبراهيم بن أدهم:

حدثنا أحمدُ بن الموصلى الوكيل بن الموكل، حدثنا جعفرُ بنُ نصير الخواص الخراسانى، حدثنى إبراهيم بن بشار خادم إبراهيم بن أدهم، قال: كان إبراهيم بن أدهم يقول هذا الدعاء فى يوم الجمعة إذا أصبح، ويقول إذا أمسى مثل ذلك:

مرحبًا بيوم المزيدِ، والصبحِ الجديدِ، والكاتبِ الشهيد. يومُنا هذا يومُ عيدٍ، اكتب لنا ما نقول. بسم اللهِ الحميدِ المجيدِ الرفيعِ الودودِ الفعّالِ فى خلقهِ ما يُريد.

أصبحتُ بالله مُؤمنًا، وبلقائه مُصدِّقًا، وبحُجَّته مُعترفًا، ومن ذنبى مُستغفرًا، ولرُبوبية اللهِ خاضعًا، ولسوى الله عزّ وجلّ فى الإلهية جاحدًا، وإلى الله فقيرًا، وعلى الله متوكلاً، وإلى الله مُنيبًا.

أُشهدُ اللهَ وأُشهدُ ملائكتَه وأنبياءَهُ ورُسُلَه وحملةَ عرشِه ومَنْ خَلَق ومَن هو خالقُه، بأنّه هو اللهُ لا إله إلا هو، وحدَه لا شريك له، وأن محمدًا عبدُه ورسولُه ﷺ، وأنّ الجنةَ حقٌّ، والنارَ حقٌّ، والحوضَ حقٌّ، والشفاعةَ حقٌّ، ومنكرًا ونكيرًا حقٌّ، ولقاءك حقٌّ، ووعدَك حقٌّ، والساعةَ آتيةٌ لا ريب فيها، وأن اللهَ يبعثُ مَن فى القبور. على ذلك أحيا، وعليه أموت، وعليه أُبعث إن شاء الله.

اللهم أنت ربى، لا إله إلا أنت، خَلَقْتنى، وأنا عبدُك، وأنا على عَهْدك ووَعدِك ما استطعتُ. أعوذ بكَ اللهمّ من شرِّ كل ذى شرّ. اللهم إنى ظلمتُ نفسى فاغفر لى ذنوبى، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. واهْدنى لأحسنِ الأخلاق، فإنه لا يهدى لأحسنها إلا أنت. واصرف اللهم يا ربّ عنى سيئَها، فإنّه لا يصرف سيئها إلا أَنت.

لبّيك وسَعْديكَ والخيرُ كلُّه بيديك، أنا لكَ وإليك، أستغفركَ وأتوب إليك. آمنتُ اللهمّ بما أرسلتَ من رسول، وآمنتُ اللهم بما أنزلتَ من كتابٍ. وصلّى اللهُ على سيِّدنا محمد النبى وعلى آله وسلّم كثيرًا خاتَمِ كلامِى ومفتاحِه، وعلى أنبيائه ورسله أجمعينَ، آمينَ يا ربَّ العالمين.

اللهمَّ أوْرِدْنا حوضَه، واسْقِنا بكأسه مَشْروبًا رويًا سائغًا هنيئًا لا نَظْمأ بعدَه أبدًا، واحْشُرنا فى زُمرته غير خزايا ولا نادمين، ولا ناكثين، ولا مرتابين، ولا مفتونين، ولا مغضوبًا علينا ولا ضالين.

اللّهم اعْصِمْنى من فِتَن الدّنيا، ووفِّقنى لما تحبّ وترضى من العمل، وأصلح لى شأنى كلّه، وثبِّتنى بالقول الثّابتِ فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، ولا تُضلّنى وإن كنتُ ظالمًا.

سُبحانَكَ سبحانَكَ يا علىُّ، يا عظيمُ، يا بارُّ، يا رحيمُ، يا عزيزُ، يا جبارُ. سبحانَ من سبَّحت له السموات بأكنافها. وسبحانَ من سبّحت له الجبالُ بأصواتها. وسبحان من سبّحت له البحارُ بأمواجها. وسبحان من سبحتْ له الحيتانُ بلغاتِها. وسبحان من سبّحت له النجومُ فى السماء بأبراقها. وسبحان من سبّحت له الشّجرُ بأصولها ونضارتها. وسبحان من سبّحت له السموات السبع

والأرضون السبع ومن فيهن ومن عليهن. سبحانَك سبحانك يا حيُّ، يا حليم، سبحانك لا إله إلا أنتَ وَحْدَك، لا شريكَ لك، تحيي وتُميت وأنت حي لا تموت، بيدك الخير وأنت على كل شيء قدير.

فإذا دعا بهذه الأدعية الأربع يوم الجمعة، فقد كمّل الله عزّ وجلّ عمله، وتمّم عليه فضله. فإذا عمل بخير ما ذكرناه من الأعمال والأذكار، واجتنب سيِّئ ما ذكرناه من الأقوال والأفعال، فهو من أهل الجمعة، وممن له المزيد بها نصيبًا موفورًا، وكان عمله الخالص وذكره الصادق عند الله عزّ وجلّ مشكورًا، [ولا حول ولا قوة إلا بالله وحده][(١)].

وهذا آخرُ كتابِ الجمعةِ وهيئاتِها وآدابِها.

* * *

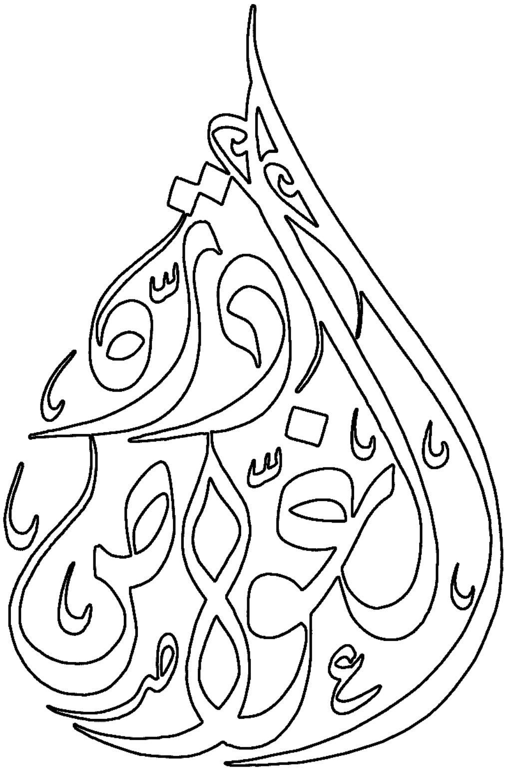

(١) ساقطة من (ط).

الفصل الثانى والعشرون

فيه كتاب الصيام وترتيبه، ووصف الصائمين، وذكر ما يستحب للعبد من الصيام، وطرقات الصائمين فى الصوم، ووصف صوم الخصوص (١)

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، جاء فى التفسير: الصّبر: يعنى الصوم. وكان رسول الله ﷺ يسمى رمضان شهر الصبر؛ لأن الصبرَ حبسُ النفسِ عن الهوى، وإيقافها وحبسها على أمر المولى. وقد روينا عن النبى ﷺ أنه قال: «الصبر نصف الإيمان، والصومُ نصفُ الصّبر».

وقول الله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ قيل: معناه: على مجاهدة النفس. وقيل: على مصابرة العدوّ. وقال بعض العلماء: استعينوا بالصّبر على الزّهادة فى الدنيا بالصوم؛ لأن الصائم كالزاهد العابد، فالصومُ مفتاح الزهد فى الدنيا، وباب العبادة للمولى؛ لأنّه منع النفس عن ملاذها وشهواتها من الطعام والشراب، كما منعها الزاهد العابد بدخوله فى الزّهد وشغله بالعبادة. ولذلك جمع رسولُ الله ﷺ بينهما فى المعنى فقال: «إنّ الله عزّ وجلّ يباهى ملائكته بالشّاب العابدَ، فيقول: أيها الشّاب التاركُ شهوته من أجلى، المبتذل شبابه لى، أنت عندى كبعض ملائكتى». وقال فى الصّائم مثل ذلك، يقول عزّ وجلّ: «يا ملائكتى انظروا إلى عبدى، ترك شَهْوتَه ولذّته وطعامه وشرابه من أجلى».

ففى الصّوم عونٌ على مجاهدة النفس، وقطعُ حظوظها، ومنعُ عادتها، وفيه إضعافٌ لها ونقصان لهواها. وقال رسولُ الله ﷺ: يقول الله عزّ وجلّ: «كلُّ عمل ابنِ آدم له إلا الصومَ، فإنّه لى وأنا أجزى به». فأضافه عزّ وجلّ إليه تفضيلاً

(١) سيتكلم عن الصوم مرة أخرى فى الفصل الثالث والثلاثين عندما يتكلم عن أركان الإسلام الخمس. وانظر: الإحياء، كتاب أسرار الصوم، ١/ ٢٣٢.

له وتخصيصًا، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لله فَلا تَدْعُوا مَعَ الله أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذه الْبَلْدَة الذى حَرَّمَهَا﴾ [النمل:٩١]، فلما كانت المساجد أحب بيوت الدنيا إليه، وكانت مكة أشرف البلاد عنده، أضافها إلى ذكره، وله كل شىء. كذلك لما كان الصيام أفضل الأعمال عنده، وأحبها إليه؛ لأن فيه خُلُقًا من أخلاق الصَّمدية، ولأنّه من أعمال السر بحيث لا يطلع عليه إلا هو، أضافه لنفسه.

وقيل: ما فى عمل ابن آدم شىءٌ إلا ويقع فيه قِصاصٌ، ويذهب برد المظالم، إلا الصوم فإنه لا يدخله قصاص، ويقول الله عزّ وجلّ يوم القيامة: هذا لى فلا يقتص منه أحد شيئًا. يقال: ما من عمل إلا وله جزاء معلوم، إلا الصّوم، فإنه لا تعلم نفس ما جزاؤه، ويكون أجره بغير حساب، يُفرغ له إفراغًا، ويُجازف مجازفة، وهو أحد الوجوه فى قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]. قيل: كان عملهم الصيام. وكذلك فى تأويل قوله عزّ وجل: ﴿السَّائِحُونَ﴾ [التوبة:١١٢] قيل: هم الصائمون، كأنهم ساحوا إلى ربهم عزّ وجلّ بجوعهم وعطشهم، وتركوا قرّة أعين أبناء الدنيا من أكلهم وشربهم، فآواهم مولاهم فيما أخفى لهم من قرّة أعين جزاءً لعملهم. وقال تعالى: ﴿إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]. قيل: الصائمون.

والصّبر اسمٌ من أسماء الصوم، فلما أخفى ذكره بالصوم فى نفسه أخفى الله عزّ وجلّ جزاءه إياه عن غير نفسه. وفى الحديث: «من ذَكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى». فالصوم ذِكرُ الله عزّ وجلّ، وهو سرّ.

وليس أستحب للعبد أن يزيد على إفطار أربعة أيام نَسَقًا؛ فإن ذلك يقسِّى القلب، ويغيِّر الحال، ويولِّد العادات، ويفتِّق الشهوات. ولأنّه لم يُؤمر، ولم يُندب إلى أن يوالى بين إفطار أكثر من أربعة أيام متوالية، وهى النّحر وأيام التشريق.

ويستحب له أن يصوم يومًا ويفطر يومًا، أو يصوم يومين ويفطر يومين، وذلك صوم نصف الدهر. وإن أحب فليَصُم يومين ويفطر يومًا، وذلك صوم ثلثى الدهر. فإن أحب فليصم يومًا ويفطر يومين، وهذا صيام ثلث الدهر. هذه طريق الصائمين، وفيها روايات حذفنا ذكر فضائلها للاختصار.

فإن صام ثلاثًا من أول الشهر، وثلاثًا من وسطه، وثلاثًا من آخره، فحسن. فإن صام الأثانين، والأخمسة، والجمع، فذلك خير كبير، وأقل من ذلك أن يصوم الأيام البيض، وأول يوم من الشهر، وآخر يوم منه.

وأفضلُ الصيام ما كان فى الأشهر الحُرُم، وأفضل ذلك ما وقع فى العشرين منها، وهو المحرم وذو الحجة. وبعد ذلك ما كان فى شعبان، فإن رسول الله ﷺ كان يكثر الصيام فيه حتى يصله بشهر رمضان. ولا يدع أن يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وليواظب على صوم الاثنين والخميس. وفى الخبر: «أفضلُ الصيام بعد شهر رمضان شهرُ الله المحرم».

وصومُ النصفِ الأول من شهر شعبان مستحب. وقد كانوا يفطرون النصف الأخير منه. وقد روينا خبر: «إذا كان النّصف من شعبان فلا صوم حتى يدخل رمضان». وليفطر قبل رمضان أيامًا، فإن وصَلَ شعبانَ برمضان فجائز. ولا يجوز أن يستقبل رمضان بيومين أو ثلاثة، إلا أن يوافق ذلك يوم اثنين أو خميس قد كان يصومه.

وقد كان بعض الصحابة يكره أن يصام رجب كلّه، لئلا يضاهى به شهر رمضان، وكانوا يستحبون أن يفطِروا منه أيامًا.

وقد كَرِه قومٌ صيامَ الدهرِ كلّه، ووردت أخبار فى كراهته. وقد تأوّل ذلك بأنهم كانوا يصومون السّنة كلها مع يوم العيد وأيام التشريق، فوردت الكراهة لذلك. وإن كان يريد صلاحَ قلبه وانكسارَ نفسه واستقامةَ حاله فى صوم الدهر فليصمه[1]، فهو حينئذ كالواجب عليه إذا كان تقواه وصلاحه فيه. فقد روينا عن

(١) أى الدّهر، عدا أيام العيدين والتشريق، فإن المنع فيها ثابت.

سعيد، عن قتادة، عن أبى تميمة الهجيمى، عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «من صام الدهر ضُيِّقت عليه جهنم، وعقد تسعين». معناه: لم يكن له فيها موضع. وقد دلّت الأصول على فضل صوم الدهر، وقد صامه طبقاتٌ من السّلف الصالح من الصحابة والتابعين بإحسان، إلا أن يكون الرجل يرغب عن السّنة، ولا يرى الرخصة فى الإفطار، فيُكره له صوم الدهر للمعاندة؛ لأن رسولَ الله ﷺ أمر بالسّعة فى الدين، وأخبر [عن] الله عزّ وجلّ بأنه يحب أن يؤخذ برُخَصِه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه. وفى لفظ آخر: «يحب أن يؤخذ برُخَصِه كما يكره أن تؤتى معصيتُه».

وقد دلّت الأخبار على فضل صومِ نصف الدهر، بأن يصوم يومًا ويفطر يومًا، وذلك ليكون العبد بين حالين: حال صبر، وحال شكر. ومن ذلك ما رُوى عن النبى ﷺ: «عُرِضت علىّ مفاتيحُ خزائنِ الدنيا وكنوزُ الأرض فردَدْتُها، فقلت: أجوعُ يومًا، وأشبع يومًا، أحْمدكَ إذا شبعتُ، وأتضرّع إليكَ إذا جعتُ». ومن ذلك قوله ﷺ: «أفضلُ الصيامِ صيامُ أخى داود عليه السلام، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا».

ومن ذلك مُنازلتُه عليه السّلام لعبد الله بن عمرو فى الصوم، وهو يقول: إنىّ أريدُ أفضلَ من ذلك. حتى قال له النبى ﷺ: صُم يومًا وأفطر يومًا. قال: أريد أفضل من ذلك. قال: لا أفضل من ذلك.

وروى فى الخبر: «صومُ يومٍ من شهر حرام أفضلُ من صوم ثلاثين يومًا من غيره. وصومُ يوم من رمضان أفضلُ من صوم ثلاثين يومًا من شهر حرام». وفى حديث: «مَن صام ثلاثةَ أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت كتب الله تعالى له عبادة سبعمائة عام».

وقد روينا أن النبى ﷺ ما صام شهرًا كاملاً قط إلا رمضان، بل كان يفطر منه. وقد وصل مرةً شعبان برمضان، وفصل صوم رمضان مرارًا من شعبان.

وما ذكرنا من أنواع الصوم فهو صيامُ جماعة من السّلف الصالح، وفى كلٍّ منه ورد فيه فضائلُ يكثر ذكرها. وكذلك فى جميع ما نذكره من أعمالِ القلوب

والجوارح فى الأيام والليالى، وكذلك فيما نذكره من أخلاق الإيمان وأوصاف الموقنين. وقد جاءت فى أكثر ذلك فضائل ومثوبات، إلا أنا لم نقصد تعديد ذلك، وليس مذهبنا الاشتغال بذكر فضائل الأعمال، إنما طريقنا تهذيب قلوب العمال. فبطهارة القلوب وحقيقة الإيمان تزكو الأعمال، ويَقْتربُ العاملون من ذى الجلال، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم.

• ذكر صوم الخصوص من الموقنين:

اعلم ـ وفقك الله تعالى ـ أن الصومَ عند الصائمين هو صومُ القالب(١).

فأما صومُ الخصوص من الموقنين، فإن الصومَ عندهم هو صوم القلب عن الهِمَم الدّنِيَّة، والأفكار الدنيوية. ثم صومُ السمع والبصرِ واللسانِ عن تعدى الحدود، وصومُ اليدِ والرجلِ عن البطش والسّعى فى أسباب النهى.

فمن صام بهذا الوصف فقد أدرك وقته فى جملة يومه، وصار له فى كل ساعة من نهاره وقت، وقد عمر يومه كلّه بالذكر. ولمثل هذا قيل: «نوم الصائم عبادة ونَفَسُه تسبيح»(٢).

وقد قرن الله عزّ وجلّ الاستماعَ إلى الباطل والقولَ بالإثم إلى أكل الحرام، ولولا أن فى المسموعات والمقولات حرامًا على المستمع الإصغاءُ إليه، وحرامًا على القائلِ النطقُ به، ما قَرَنَهُما إلى أكل الحرام، وهو من الكبائر، فقال تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٣].

فالعبدُ الحافظ لحدود الله عزّ وجلّ إن أفطر بالأكل والجماع فهو صائم عند الله فى الفضل للاتّباع، ومن صام عن الأكل والجماع وتعدى الحدود وأضاع فهو مفطر عند الله عزّ وجلّ صائم عند نفسه؛ لأن ما أضاع أحبُّ إلى الله عزّ وجلّ وأكثرُ ممّا

(١) العبارة فى (ك) هكذا: «والصوم عند الصائمين لله هو صوم القلب».

(٢) بعده فى (ك) يختلف ترتيب النصوص إلى آخر الفصل عما عليه فى المطبوعة، وهذا لم يؤثر كثيرًا على المعانى.

حفظ. ومَثَلُ مَن صام عن الأكل وأفطر بمخالفة الأمر بسائر الجوارح مَثَلُ مَنْ مَسح كلَّ عضوٍ من أعضائه فى وضوئه ثلاثًا ثلاثًا، ثم صلّى، فقد وافق الفضل فى العدد إلا أنه تارك للفرض من الغُسل، فصلاته مردودة عليه لجهله، وهو مغتر بفعله. وَمَثَل من أفطر بالأكل وصام بجوارحه عن النهى مَثَل من غسَل كلَّ عضو من أعضائه فى وضوئه مرة مرة، فهو تاركٍ للفضل فى العدد إلا أنه مكمِّل للفرض، محسن فى العمل، فصلاته متقبَّلة لإحكامه للأصل، ولعمله بالعلم. ومَثَل مَن صام عن الأكل والجماع، وحفظ جوارحَه عن الآثام، كمثَل مَن غسل كل عضو ثلاثًا ثلاثًا، فقد تمّم الفرض وأحسن بتكملة الفضل، فهذا كما قال تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ﴾ [الأنعام:١٥٤]. وكما قال رسول الله ﷺ فى الوضوء كذلك: «هذا وضوئى، ووضوء الأنبياء من قبلى، ووضوء أبى إبراهيم عليه السلام». وقد قال الله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبراهِيمَ﴾ [الحج:٧٨] أى: عليكم بها، فائتموا واقتدوا به فيها.

وقد روينا عن النبى ﷺ: «الطاعم الشّاكر بمنزلة الصّائم الصابر».

وجاء فى الخبر: أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ، فأجهدهما الجوعُ والعطشُ فى آخر النهار، حتى كادتا أن تتلفا، فبعثتا إلى رسول الله ﷺ يستأذناه فى الإفطار، فأرسل إليهما قدحًا، وقال: قل لهما قيئا فيه ما أكلتما! قال: فقاءت إحداهما نصفه دمًا غبيطًا ولحمًا عريضًا، وقاءت الأخرى مثل ذلك، حتى ملأتاه. فعجب الناس من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «هاتان صامتا عمّا أحل الله عزّ وجلّ لهما، وأفطرتا على ما حرم الله عزّ وجلّ عليهما، قعدت إحداهما إلى الأخرى فجعلا يغتابان الناس، فهذا ما أكلا من لحومهم».

وكان أبو الدّرداء يقول: يا حبّذا نومُ الأكياس وفطرهم، يعيبون صومَ الحمقى وسهرهم، ولَذرّة من ذى يقين وتقوى أفضلُ وأرجح من أمثال الجبال من عبادة المغترّين.

وكلُّ محظورٍ عليك أن تتفوَّه به فمحظور عليك أن تستمع إليه. وكلُّ حرام

عليك أن تفعله فمكروه أن تنظر إليه أو يخطر ببالك. وقد سوّى الله عزّ وجلّ بين المستمع والقائل في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠].

ومَثَل الصيام مَثل التوبة؛ لأنّ الصّبر من أوصافها، وإنّما كانت التوبة مكفِّرةً لما سلف من السيئات لأجل أنه صبر عما سلف من سيىء العادات، ثم اعتقد تَرْكَ العَوْدِ إلى مثل ما سلف، بصيانة جوارحه التى كانت طرائق المكروهات. كذلك كان الصيام جُنّةً من النار، وفضيلةً من درجات الأبرار؛ إذا صبر عليه الصائمُ، فحفظ جوارحَه فيه من المآثم، فإذا أمْرَحَها(١) فى الآثام كان كالتائبِ المتردد، الناقضِ للميثاق، لم تكن توبته نصوحًا، ولا كان صوم هذا صالحًا وصحيحًا، ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ: «الصوم جُنّة مِن النّار ما لم يخرقها بكذب أو غيبة». وأمره فى قوله عليه السلام: «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفُث ولا يَجْهل، وإن امرؤ شاتمه فليقل إنى صائم». وفى لفظ آخر: «لا يجعل يوم صومه ويوم فطره سواء» أى يتحفّظ فى صومه لحرمته. وفى خبر آخر: «الصوم أمانة، فليحفظ أحدُكم أمانَته»، فحفظُ الأمانة من صيانة الجوارح، لقول النبى ﷺ لما تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨]، وضع يده على سمعه وبصره، فقال: «السمع أمانة، والبصر أمانة». فذلك مجاز.

قوله «فليقل إنى صائم»: أى يذكر الأمانة التى حمل فيؤديها إلى أهلها، ومن حفظ الأمانة أن يكتمها، فإن أفشاها من غير حاجة فهى خيانة، لأن مودعها قد لا يحب أن يظهرها، وحقيقةُ حفظ السرّ نسيانه، وضياع السرّ أن يكثر خزانه، فحقيقة الصائم أن يكون ناسيًا لصومه لا ينتظر الوقت شغلاً عنه بالمؤقت.

***

(١) أى جعلها تمرح وترتع فى المعاصى دون محاسبة أو رقيب.

الفصل الثالث والعشرون

فيه كتاب محاسبة النفس ومراعاة الوقت (١)

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ إلى قوله: ﴿أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقرئت: «آتينا بها» ممدودة، أى: جازينا بها، فالتخويف بهذا الحرف أشد وأبلغ. وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ [الزلزلة:٦] الآية.

وأوصى أبو بكر عمرَ رضى الله عنهما عند موته، فقال: إن الحقَّ ثقيل وهو مع ثقله مرىء، وإن الباطل خفيف وهو مع خفته وبيىء. وإن لله عزّ وجلّ حقًا بالنهار لا يقبله بالليل، وحقًا بالليل لا يقبله بالنهار، وإنك لو عدلت على الناس كلهم وجُرت على واحدٍ منهم لمال جورُك بعدلك. فإن حفظت وصيتى لم يكن شىء أحبّ إليك من الموت وهو مُدرِكُك، وإن ضيَّعتَ وَصِيَّتى لم يكن شىء أبغضَ إليك من الموتِ ولن تُعجزه.

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: حاسِبُوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتزيّنوا للعرض الأكبر على الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٨]، وإنّما خفَّ الحسابُ فى الآخرةِ على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا، وثقلت موازين قوم فى الآخرة وزنوا أنفسهم فى الدنيا، وحق لميزان لا يُوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً.

وأوصى رسول الله ﷺ أبا ذر فقال له: «اتّق اللهَ أينما كنتَ، وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحها، وخالقِ الناسَ بخُلُقٍ حسنٍ».

---

(١) فى (ك): «هذا كتاب محاسبة النفس ومراعاة الوقت». ويوجد اختلاف فى ترتيب المادة بين المخطوط والمطبوع فى مواضع كثيرة، ويوجد أيضًا نقص فى محتويات المخطوط واختصار أحيانًا. وانظر فى المحاسبة: الإحياء ٤/ ٤٠٤ ـ ٤٢٢، كتاب المراقبة والمحاسبة.

ووجدت هذه الوصية فى كتاب الله عزّ وجلّ لعباده بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء:١٣١]. والكلمة الثانية فى قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الرعد:٢٢] أى يدفعون بعمل الحسنة ويتبعونها السيئة المتقدمة تكفرها. والكلمة الثالثة فى قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣]. وقد أخبر الله عزّ وجلّ عن وصية عباده الصالحين بثلاث فقال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أى: لفى خسران ونقص بفوت أوقاته وفقد أرباحه، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:٢ ـ ٣]. وقال فى الوصف الثالث: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد:١٧].

واتباعُ الحق بمخالفة الهوى فيه الصلاح؛ إذ فى موافقة الهوى الفساد. والصبرُ قِوامُ الأمر، وبمقداره يكون الربح. والرحمةُ للخلق بابُ الرحمة من الخالق، ومفتاح حسن الخلق، ومعها حسن الظن وسلامة القلب، وعندها ينتفى الحسَد والغلّ، ويُوجد التواضع والذل؛ وهذا وصف أصحاب رسول الله ﷺ الذين اختارهم الله لصحبة نبيه عليه السلام، وأنزل عليهم السَّكينة وأيدهم بروح منه، فقال: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]. وقال تعالى فى حقيقة الرحمة: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤]، وقال فى مثله عن وصف أحبابه لإخوانهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٥٤]. فهذه الثلاث مفاتيحُ رقة القلب ومغالقُ القسوة. وفى الرقَّة الإقبال على الله عزّ وجلّ، وعلى الدار الآخرة، والتيقظ لأمره، والتفكُّر فى وعده ووعيده. وفى القسوةِ الإعراضُ وطولُ الغفلة. فمحاسبة النفس تكون بالورع، وموزنتها تكون بمشاهدة عين اليقين، والتزيُّن للعرض الأكبر يكون بمخافة الملك الأكبر، وهو حقيقة الزهد.

وروينا عن على رضى الله عنه: أما بعد، فإن المرء يَسُرُّه دَرْكُ ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فَوْتُ ما لم يكن ليدركه. فما نالك من دنياك فلا تكترث به فرحًا، وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفًا. وليكن سرورُك بما قدَّمت، وأسفُك

على ما خلَّفت، وشغلُك لآخرتك، وهمُّك فيما بعد الموت. وقال أيضًا: الهوى شريكُ العمى، ومن التوفيق الوقوفُ عند الحيرة، ونعم طاردُ الهم اليقين، وعاقبة الكذب الذم، وفى الصدق السلامة. ربّ بعيد أقرب من قريب، وغريب من لم يكن له حبيب. والصديق من صدق غيبه، ولا يعدمك من حبيب سوء الظن. نِعم الخُلق التكرم، والحياءُ سبب إلى كل جميل. وأوثق العرى التقوى، وأوثق سبب أخذت به نفسك سببٌ بينك وبين الله عز وجلّ. إنّما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك. والرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك، فإن لم تأته أتاك. وإن كنتَ جازعًا على ما أتلفت من يديك فلا تَجْزَعَنَّ على ما لم يصل إليك، واستدللْ على ما لم يكن بما كان، فإن الأمور أشباه.

وقال عبد الله بن عباس: لكل شىء آفةٌ، وآفةُ العلم النسيان، وآفة العبادة الكسل، وآفة اللُّب العُجْب، وآفة الظَّرْف الصَّلَف[1]، وآفة التجارة الكذب، وآفة السخاء التبذير، وآفة الجمال الْخُيلاء، وآفة الدين الرياء، وآفة الإسلام الهوى.

وقال رسولُ الله ﷺ: «آفة أمتى الدينار والدرهم». وروينا عن وبرة السّلمى عن مجاهد قال: أوصانى ابنُ عباس بخمس، لَهُنَّ أحسنُ من الدرهم الموقوف ومن الذهب الموصوف. قال: لا تتكلمنّ فيما لا يعنيك؛ فإنّه أقرب لك من السلامة، ولا آمن عليك الخطأ. ولا تتكلمنّ فيما يعنيك حتى ترى له موضعًا، فرُبَّ متكلم فيما يعنيه قد وضعه فى غير موضعه، فلقى عَنَتًا. ولا تُمارِينَّ حليمًا ولا سفيهًا، أما الحليمُ فيَقْلِيك، وأما السّفيه فيُؤذيك. واخْلُف أخاك إذا غاب عنك بمثل ما تحب أن يخلفك به إذا غبتَ عنه، واعفه مما تحب أن يعفيك منه. واعمل بعمل رجل يعلم أنه مُكَافَأ بالإحسان مأخوذ بالإساءة.

وفى وصية العباس لابنه عبد الله قال: يا بنى، إنى أرى هذا الرجل يقدِّمك على الأشياخ ويكرمك، فاحفظ عنّى هذه الخصال: لا تفشينَّ له سرًا، ولا تَعصينَّ له أمرًا، ولا تغتابنّ عنده أحدًا، ولا يطَّلعن منك على خيانة، ولا يُجرِّبن عليك كذبة.

---

(١) الظرف: البراعة وذكاء القلب. الصلف: مجاوزة القدر فى البراعة تكبرًا.

هذا فى روايتين، دخلت إحداهما فى الأخرى، قال فى إحداهما: قلت للشّعبى: كل واحدة منهن خير من ألف. فقال: كلّ واحدة منهن خير من عشرة آلاف.

وقال يوسف بن أسباط: كان يقال: ثلاث من كنّ فيه فقد استكمل إيمانه: مَن إذا رضى لم يُخرجه رضاه إلى باطل، وإذا غَضِب لم يخرجه غضبه عن حق، وإذا قَدِرَ لم يأخذ ما ليس له.

وقد رويناه مسندًا من طريق.

وقال سرىٌّ بن المغلس: ثلاثٌ يستبين بهن اليقين: القيام بالحق فى مواطن الهلكة، والتسليم لأمر الله عزّ وجلّ عند نزول البلاء، والرضا بالقضاء عند زوال النعمة. نعوذ بالله منه.

وقد روينا عن النبى ﷺ: «ثَلاثٌ مَن كُنّ فيه استْكملَ إيمانه: لا يخاف فى الله لومة لائم، ولا يرائى بشىء من عمله، وإذا عُرِض عليه أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة؛ آثر الآخرة على الدنيا».

وفى الخبر المشهور: «ثلاثٌ منجيات، وثلاث مهلكات. فأما المنجيات: فخشيةُ الله فى السر والعلانية، وكلمةُ العَدْلِ فى الرضا والغضب، والقصدُ فى الغنى والفقر. وأما المهلكاتُ: فشحٌّ مطاع، وهوًى متّبع، وإعجابُ المرء بنفسه».

وروينا فى الخبر: «التكرمُ التقوى، والشرفُ التواضع، والغنى اليقين». وفى الحديث الآخر: «الإيمان عريان؛ ولباسه التقوى، وزينته الحياء، وثمرته العلم».

وفى حديث عمار أسنده إلى رسول الله ﷺ: «كفى بالموت واعظًا، وكفى بالخشيةِ عِلمًا، وكفى باليقين غِنًى، وكفى بالعبادة شُغلاً».

وروينا عن رسول الله ﷺ سيد الخطباء، وخطيب الخطباء، وحكيم الحكماء، فى خطبة الوداع، كلمات جامعات موجزات، فى الوعظ والتذكرة والتزهد والتبصرة، وينتظم جميع معانى ما قيل فى معناها، رواه أبان بن عياش، عن أنس ابن مالك، أن رسول الله ﷺ خطب على ناقته فقال: «يا أيها الناس، كأنّ الموتَ

فيها على غيرنا كُتبَ، وكأن الحقَّ فيها على غيرنا وَجَبَ، وكأن مَنْ نُشيِّع من الأموات سَفْرٌ عمَّا قليل إلينا راجعون، نبوِّئهم أجداثهم، ونأكل تراثهم، كأنّا مخلَّدون بعدهم، قد نسينا كل واعظة، وأمِنَّا كلَّ جائحة. طوبى لمن شغله عيبُ نفسه عن عيوب الناس، وأنفق من مالٍ اكتسبه من غير معصية، ورحم أهلَ الذلِّ والمسكنة، وخالط أهلَ الفقه والحكمة. طوبى لمن أذلَّ نفسه، وحَسُنَتْ خليقته، وصَلُحَتْ سريرته، وعزل عن الناس شرَّه. طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، ووسعته السُّنة، ولم يَعْدُها إلى بدعة».

وقد روى عنه ﷺ حديث جامع لهذه المعانى المبثوثة، مختصر فى اللفظ والمعنى، يقال إنه نصف العلم، وهو قوله: «من حُسْن إسلامِ المرءِ تَرْكُه ما لا يَعنيه». وما لم يُؤمر به العبد فرضًا، ولم يُندب إليه فضلاً، ولا يحتاج إليه مباحًا، فهو مما لا يعنيه.

وفى حديث آخر، هو نصف الورع، قوله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الإثم حوّاز القلوب» أى: دع ما تَشُكنّ فيه من قول أو فعل، فإن فيه غنيمة أو سلامة إلى شىء أنت على يقين من الفضيلة فيه أو السلامة معه، وما حزّ فى قلبك ولم ينشرح له فدَعْه، فإن ذلك إثم، وإن قلَّ ودقَّ.

وقد روينا عنه ﷺ فى الوصف المبسوط من أوصاف المؤمنين، كوصف الله تعالى أولياءه فى الكلام المشروح، أنه بينا هو جالس ﷺ بين أصحابه إذ سجد فأطال، ثم رفع رأسه مادًّا يديه، فقال: اللهم أكْرِمنا ولا تُهنَّا، وزدنا ولا تنقصنا، وأعزّنا ولا تذلّنا. قلنا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: أُنزلت علىَّ آيات مَنْ أقامها دخل الجنة، ثم تلا علينا: ﴿قد أَفْلحَ المؤمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] إلى آخر العشر.

وروينا عنه ﷺ فى حديث مجمل أن رجلاً سأله، فقال: يا رسول الله، متى أعلم أنّى من أهل الجنة؟ ـ وفى لفظ آخر: أنى مؤمن حقًا ـ فقال: إذا كنت بهذه الأوصاف، ثم تلا عليه: ﴿قد أَفْلحَ المؤمِنُونَ * الذينَ هُم فى صَلاتِهِم خَاشِعُونَ﴾ إلى آخر النعوت.

وروينا عنه ﷺ فى الوصف الجامع المختصر، كوصف الحكيم الأكبر مَن صلُح له من عباده بالإخلاص فى التوحيد والعمل، فقال ﷺ: «لو لم تنزلْ علىّ إلا هذه الآية كانت تكفى[١]. ثم قرأ آخر سورة الكهف: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا﴾ [الكهف:١١٠] إلى آخرها». فكان هذا فصل الخطاب، وبلاغًا لأولى الألباب.

فالعملُ الصالح بالإخلاصِ[٢] فى العبادة، ونفى الشرك بالخلق؛ هو اليقين بتوحيد الخالق. وقد قال الله، وهو أحسنُ القائلين، فى وصف أوليائه الخائفين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون:٥٧ ـ ٦١]. فوصفهم بسبع مقامات جامعات بالغات، تنتظم بمقامات أهل المحاسبة، وتستحوذ على معانى أحوال أهل المراقبة. افتتحها بالخشية والإشفاق، وختمها بالوَجَل والإنفاق، وجعل موجبها اليقين، وهو الذى رجحت به موازين المتقين، صيّره آخر وصفهم ونهاية نعتهم، وهو قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أى لأجل يقينهم بمرجعهم إليه خافوه وأشفقوا وآمنوا به، وأخلصوا وأتوه نفوسهم وأموالهم، فهذا كقوله فى الكلام المختصر: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٢٣]، فللخائفين الأمن من الخوف عند اللقاء، وحسن المنقلب والبشرى بالقرب لديه والزلفى.

فصورةُ المحاسبة: أن يقفَ العبدُ وقفةً عند ظهورِ الهمّة، وابتداءِ الحركة، ثم يميِّز الخاطرَ وهو حركةُ القلبِ، والاضطرابَ وهو تصرف الجسم. فإن كان ما خطرَ به الخاطرُ من الهمّة التى تقتضى نيةً، أو عقدًا، أو عزمًا، أو فعلاً، أو سعيًا؛ إن كان لله عزّ وجلّ وبهِ وفيه، أمضاهُ وسارع فى تنفيذِه[٣]. وإن كان لعاجلِ دنيا،

(١) فى (ك): «لكفتنى».

(٢) فى (ط): «الإخلاص» وما أثبتناه من المخطوط أدق وأصح.

(٣) كان ثَمّ اضطراب وتكرار فى (ط) قومته من (ك).

أو عارضِ هوى، أو لهوٍ وغفلةٍ سرَى بطبعِ البشريةِ ووصفِ الجَبلية، نفاهُ وسارعَ فى نفيِه، ولم يمكّن الخاطرَ من قلبِه بالإصغاءِ إليه، والمحادثة له، فيولِّد فيه همًّا رَدِيًّا يصعب عليه بعد حينٍ طرحُه، وينتج منه فِكرًا دَنِيًّا يعسر بعد وقتٍ نفيه، ويؤثر ذلك فى قلبه أثرًا يستبين له بعد حينٍ فعلُه.

معنى قولنا «إن كان لله تعالى»: أى خالصًا لأجله. ومعنى قولنا «به»: أى بمشاهدة قربه، لا بمقارنة نفسه ووصفه وهواه. ومعنى قولنا «فيه» أى: فى سبيله وطلب ما عنده، لا لأجل عاجل حظه(١).

فإن اشتبه عليه الخاطر، فلم ينكشف له ما ورد به، أمحمودٌ هو لله عز وجلّ فيه رضاه وعلى العبد فيه سبق وتنفيذ، أم مكروه وليس لله فيه محبة وللعبد فى نفيه مزيد وقربة؟ فيكون إشكال ذلك لأحد معان ثلاث: ضَعْف يقينٍ عن نقص معرفة بالمبتلى، أو قلة علمٍ عن جهل بغامض الحكم الباطل، أو لغلبةِ هوًى كامنٍ فى النفس متولد من طبائع الحس. وقد قال بعض العلماء: ليس العالمُ الذى يعرف الخير من الشر، هذا الجاهل يعلمه(٢)، ولكنّ العالمَ مَن يعرف خيرَ الشّرين؛ يعنى يفعله إذا اضطر إليه، وعَرَف شرَّ الخيرين؛ يعنى فاجْتنبه لما يؤول إليه.

واعلم أنَّ حكمَ الله فيما اشتبه من الأمور الإمساكُ والوقوفُ، وأن لا يُقْدم العبدُ على ذلك بعَقْدٍ ولا عزم إن كان من أعمال القلوب، ولا يُمضى ذلك بفِعْل ولا سَعْى إن كان من عمل الجوارح، بل يقف ويُوقف الأمرَ حتى يتبين له. وهو صورة الورع، لأن الورع هو الجبن والتأخر عن الإقدام على المشكلات، وعن الهجوم على الشبهات(٣)، لا بقول ولا بفعل ولا بعقد حتى تنكشف، وانكشافها بغامض العلم لغموضها، وتدقيق معرفة المعانى لدقتها وخفائها، كما جاء فى الخبر: «أعلمُ الناسِ أعرفُهم بالحق إذا اختلف الناس». وعن النبى ﷺ: «إن الله

(١) هذا الشرح تكرر فى المطبوعة فى ثنايا الفقرة السابقة، وليس كذلك فى (ك).

(٢) فى (ط): «هذا العاقل يعرفه» وأثبت ما فى (ك).

(٣) فى (ك): «لأن الورع هو الجبن والتأخر عن الإقدام على الشبهات، وعلى الهجوم على المشكلات». و«على» الثانية من (ك) وهى فى (ط): «فى الشبهات».

عزّ وجلّ يحب البصيرَ الناقدَ عند ورود الشبهات، والعقلَ الكاملَ عند هجوم الشّهوات».

وجاء عن ابن مسعود فى وصف كثرة الشُّبهات: أنتم اليومَ فى زَمَنٍ خيرُكم فيه المسارع، وسيأتى عليكم زَمان يكون خيرُكُم فيه المتثبِّت[1].

كما وقف طائفة من الصحابة عن القتال مع أهل العراق وأهل الشام، لمّا أشكل عليه الحال، منهم: سعد، وابن عمر، وأسامة، ومحمد بن مسلمة، وغيرهم.

فمن لم يتوقف عند الشبهات وأقدم عليها كان متبعًا لهواه، معجبًا برأيه، وهذا من معنى الخبر الذى جاء فى ذم من كان هذا وصفه: «فإذا رأيتَ شُحًا مطاعًا، وهوًى متبعًا، وإعجابَ كل ذى رأيٍ برأيه، فعليك بخاصةِ نَفْسك».

فلم يذم بوجود الشح؛ لأنّه صفة النفس، وإنّما ذمّ من أطاع النفس فى شحّها، بإمساك محبوبها على إيثار محبة الله عزّ وجلّ من الإنفاق. ومثله: «وهوى متبع»، فلم يعب بوجود الهوى، لأنه روحُ النفس، مستكن فيها، وإنما عيب باتباعه. وكذلك قوله: «وإعجاب كلّ ذى رأى برأيه»، لم ينقصه وجود رأيه ممّا رآه من الأمر، لأنه نتيجة عقله وثمرة فهمه، وإنما نقصه بنظره إليه وإدلاله به، دون سبق نظره إلى من أراه، وبنور هداه، وبإيثار رأيه على رأى من هو أعلم منه، أو بأن يُزرى على رأى غيره افتخارًا برأيه. وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم:٣٢]. وقد وصف أهل الرأى من أوليائه فى قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر:٧٥]. وقال تعالى: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨].

وجاء فى الأثر: «ما رآه المؤمنون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رآه المؤمنون قبيحًا فهو عند الله قبيح». وجاء: «أنتم شهداء الله فى أرضه». وعن بعض السلف: أفضلُ العبادة الرأىُ الحسن.

فأما ما أشكل، لتجاذب الأمثال، ولم يتبين لك إلى أى مَثَل ترده، فالورعُ أن

(١) فى (ط): «المثبت» وأثبت ما فى (ك).

تقف ولا تمضى حتى ينكشف.

وأما ما اشتبه لقصور العلم بالاستدلال، فالعلم فيه أن تعرف الأصلين من الحرام والحلال، ثم تردّه إلى أشبههما به، وهذا ظاهر، مثل ما أحلّت طائفةٌ النظرَ إلى الغلام الجميل، لأنه ذَكَرٌ، فتحتاج إلى أن ترده إلى أحد الأصلين، لأنه مشتبه، قال الله عزّ وجلّ: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ [الأنعام:٩٩]، وقال: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور:٣٠]، فكان هذا الأصل أشبه لوجود الجنس.

ومثله الاستماع إلى القصائد، أى إنشاد الشعر المباح، فكان الاستماع إلى القرآن حلالاً، والاستماع إلى الغناء حرامًا، وكانت القصائد بالغناء أشبه، فكرهناه لغير أهله.

وكذلك القول فى تلحين القرآن: إذا جاوز الحدّ فى مد المقصور، وقصر الممدود، مكروه لشبهه بالأغانى. ومثل لبس القطن ولبس الحرير، فكرهنا لبس المُلْحَم[1] والعمل به؛ لأنّه بالحرير أشبه، لما فيه منه.

فأما الإقدام على الأمور الغامضة، مما لم ينكشف للأسماع فلم يظهر للأبصار، فإنّ القلوب تُسأل عن عُقود سوءِ الظن بها، والقطعِ بظاهر الأمر عليها، وهو معنى قول الله عزّ وجلّ عن قَفْو ما لم يبين علمه إذا لم يُجعل من علم العبد وتهدده عليه بمساءلة الجوارح عنه، فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أى لا تتبع ولا تجسس أثر ما لم تعلم، فتشهد عليه بسمع أو رؤية أو عقد قلب، إذ حقيقةُ العلم: السّمعُ أو المشاهدةُ، فلذلك قال: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء:٣٦]. وكذلك قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظّنّ، فإن الظنَّ أكذبُ الحديث». فمن اشتبه عليه الأمر فقطع به فهو متبع للهوى، ومَن تفرّس فى فعلٍ أو أمرٍ غابَ عنه حقيقته، فأخبر به وأظهره على صاحبه، فقد أساء كثيرًا.

(١) المُلْحَم: جنس من الثياب.

وقد جاء في الخبر: «من حدّث بما رأتْ عيناه، أو سمعتْ أُذُناه، كتبه الله عزّ وجلّ من الذين يُحبّون أن تشيعَ الفاحشة في الذين آمنوا». هذا لكشفِ ستر الله على عباده، ومحبته للسّاترين منهم.

ولذلك كان من دعاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه: اللهم أرِنا الحقّ حقًا فنتبعه، والباطلَ باطلاً فنجتنبه، ولا تجعل ذلك علينا متشابهًا، فنتبع الهوى.

وكذلك رُوينا عن عيسى عليه السلام: إنّما الأمورُ ثلاثة: أمرٌ استبانَ لك رُشدُه فاتّبعه، وأمر استبانَ غيُّه فاجْتنبه، وأمرٌ أشْكَل عليك فكلْه إلى عالمه.

وقد كان من دعاء عليٍّ رضي الله عنه: اللهم إني أعوذ بك أن أقول في العلم بغير علم به.

فنعمةُ الله سبحانه وتعالى في كشف الباطلِ باطلاً وبيانِ الضلال ضلالاً مثلُ نعمه في إظهار الحق، وبيان الصدق؛ لأنه باب من اليقين، ولذلك تجمَّل اللهُ به على نبيه ﷺ، وجعله من تفصيل آياته، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ**﴾ [الأنعام: ٥٥]، فنَصْبُ «سبيل» على إضمار اسمه، ورفعه على كشف دلالاته وتبيان طرقه.

وقد وعد اللهُ ذلك للمتقين، وقدّمه على تكفير السيئات والمغفرة، وأخبر أن ذلك من الفضل العظيم، في قوله عزّ وجلّ: ﴿**يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتكُم**﴾ [الأنفال: ٢٩] أي: نورًا في قلوبكم تفرقون به بين الشبهات. ومثله: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا**﴾ أي: من كل أمر أشكل على الناس، ﴿**وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ**﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣] علم بغير تعليم، بل إلهام وتوفيق من لدن الخبير العليم. وقد وعد الله ذلك المؤمنين عند اختلاف العلماء، للبغي بينهم، وهو الكبر والحسد، وحرَّم ذلك على المنافقين الذين لا يصدّقون بالآيات والقُدَرِ الغائبات[١]، فقال عزّ وجلّ في ذلك: ﴿**وَمَا اخْتَلَفَ**

(١) القُدَر: جمع قُدْرة. الغائبات: الغيبية.

فيه إلاَّ الَّذينَ أُوتُوهُ منْ بَعْد مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذين آمَنُوا لمَا اخْتَلَفُوا فيه منَ الْحَقِّ بإِذْنه﴾ [البقرة:٢١٣]، فصُنع الهداية للحق أن يكشف الحقّ إذا هدى التقى له، ما يبدئ الباطل للابتلاء وما يعيد على العبد من الأحكام.

وقد يكون الباطل اسمًا للعدوّ، ويكون وصفًا للنفس، ألم تسمع قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ:٤٩] أى: لما جاء الحق أبدى الباطل وأعاده، فأظهر حقيقة الأمر بدءًا وعودًا. وقد قيل: إن الباطل يعنى به إبليس ههنا، فتدبروا. وقال: ﴿إِنَّ الذينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ الله لا يَهْدِيهِمُ اللهُ﴾ [النحل:١٠٤].

وكما أن الله عزّ وجلّ [ذَكَرَ أنَّ] فى البيان نعمة، لأنه لا يقع إلا بقُدرة، كما قال: ﴿فلمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ﴾ [البقرة:٢٥٩]، فكذلك على العبد فيه شكر قد يكون سببًا للإنعام بالبيان، وعلى الله المزيدُ على الشكر، كما قال: ﴿كَذَلكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاته لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٨٩]. وقال فى تحقيق الشكر بالمزيد للشاكرين على التصريف: ﴿كَذَلكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:٥٨].

فإذا تَوَقَّف العبد فى الشّبهات عن الإمضاء، وأوقف الخاطر على الابتداء، حتى يكشفه الله عزّ وجلّ له بمزيد علم أو قوة يقين أو كشف حجاب الهوى، فقد وُفِّق للصّواب، وهو من معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص:٢٠] وداخل فى قوله: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كثيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩]. هذا إذا لم يُرِدْهُ بالطلب، ولم يجعل لعالم آخر فيه مكانًا، كشفه للعبد بوصفه، فإذا أراده بالطلب لأوليائه، وجعل للعلماء مكانًا للدلالة عليه، اضطره أن يسأل عالمًا بالله وبباطن أحكامه، عارفًا بلطيف حجابه وخفى كَشْفه، فيكشف له على لسانه إذا لم يكن العبد ممن يكاشف بقلبه، لتحقيق قوله: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، ولتصديق قوله: ﴿الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩].

والله تعالى هو المسيّر الأوّل، والمبيّن الآخر، إلا أن السّير والسؤال على العبد، والهدى والبيان على الهادى المبين، كما قال: ﴿قُلْ سيرُوا فى الأرْضِ فانْظُرُوا﴾ [النمل:٦٩]، وقال تعالى: ﴿فَإنْ كُنْتَ فِى شَكٍّ مِمَّا أنزَلْنَا إلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الكِتَابَ﴾ [يونس:٩٤] الآية، وقال تعالى: ﴿إنَّ عَلَيْنَا بيَانَهُ﴾ [القيامة:١٩]، ﴿إنّ علَينا لَلْهُدَى﴾ [الليل:١٢]، ﴿وعلى الله قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل:٩].

كذلك سننه التى قد خلت من قبل، ولا تبديل لها ولا تحويل. ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١]. فهذا هو المجتَبى للتعليم، الآخذُ نصيبه من الله عزّ وجلّ، بتفهيم المصطفى لمكان التخصيص. ثم قال: ﴿يَا آدَمُ أنبِئْهُمْ بِأسْمَائِهِم فلمّا أنبأهُم بأسْمائِهِم﴾ ترك آدمَ، وردّ إليه، وذكر نفسه بالعلم منه بعد أن دلّ بالواسطة عليه، فقال: ﴿ألَمْ أقُلْ لَكُم إنى أعْلَمُ﴾ [البقرة:٣٣] ولم يقل: إن آدم يعلم، فأخذ آدم نصيبه من رازقه بقلبه لمكان رتبته، وأخذت الملائكة أنصبتها من الله عزّ وجلّ من نصيب آدم بواسطته، والله هو الرزاق ذو القوة المتين، كما هو الخلاّق: ﴿هَلْ مِن خَالِقٍ غَيرُ اللهِ يَرْزُقُكم﴾ [فاطر:٣]؟

والعبيد يأخذون أنصبتهم بأقسامهم من حيث هى طرق وسبب لهم، وهذا حينئذ أول المحاسبة عن مشاهدة حسيب، والتّحقيق بالمحاسبة هو أول المراقبة عن رؤية رقيب، والمقام من المراقبة هو حال من أحوال الموقنين، وعلم اليقين هو آخر علم الإيمان، وآخر نصيب العبد من علم اليقين ـ أعنى نهايته ـ أوّل عين اليقين، وهو شهادة المعرفة. والمعرفةُ على هذا الوصف أوّلُ المشاهدة، وهذا هو مقام المقربين، أعنى بمشاهدة وصف قريبٍ يحيط بِبُعد النفس فيستولى عليها، فيغيب بعدها فى قُربه، ويَنتبه عقلُه تحت ظنه، وتنطوى حكمتُه فى قدرته، كمَحْو نور القمر فى ضياء الشمس، والله غالبٌ على أمره.

وعلمُ معانى الأسماء والصفات، وتعريف الأخلاق وباطن أحكام الذات، يكون فى مقامات القرب بمرآة نور الوجه، فيرفع نور حكم المكان، ويشهد كأنه رفعَ كونَ المرآة، ويشهد الوجه بنورها، وتغيب المرآةُ عن كونها، فيكون العبدُ قائمًا

بقهرِ قيوميته، فيصيرُ العبدُ شبهَ ميتة، مشاهدًا بحيطة قُربه لا بكونه، كما يشهد الوجه بنور المرآة لا بجسمها، ولا يكون هذا إلا بعد معاينة[١] وصف، وبعد حُسن المراقبة فى جميع[٢] المعاملة، وحسن الأدب فى محاضرة الربّ، بتنفيذ خواطر الخير، وسرعة نفى خواطر الشرّ، حتى لا يبقى شىء منها. وهذا حالُ المشاهدةِ والقُرب، وذلك يُخرج العبدَ إلى صفاء القلبِ بعلم اليقين، وصفاءُ القلب يرفعه مقامات فى مشاهدة العين حتى لا يَخْطُر بقلبه[٣] إلا خاطر حق، فإن عصاه عصى الحق. وفى ترك هذا والغضّ عنه كَدَرُ القلب، وفى كَدَره ظلمته. وذلك مقامات فى القَسْوة، وهى أوّلُ البُعد.

وبلغنى أن ما من فِعْلَة وإن صغُرت إلا ويُنشر لها ثلاثة دواوين: الديوان الأول: لِمَ؟ والثانى: كيفَ؟ والثالث: لمن؟ فمعنى: لِمَ، أى لِمَ فعلت؟ وهذا موضع الابتلاء عن وصف الربوبية بحكم العبودية، أى: أكان عليك أن تعمل لمولاك أم كان ذلك منك بهواك؟

فإن سَلِمَ من هذا الديوان، بأن كان عليه أن يعمل كما أُمر به، سُئل عن الديوان الثانى، فقيل له: كيف فعلتَ هذا؟ وهو مكان المطالبة بالعلم، وهو البلاء الثانى، أى: قد عملته بأن كان عليك عمله، فكيف عملته؛ أبعلمٍ أم بجهلٍ؟ فإنّ الله تعالى لا يقبل عملاً إلا من طريقه، وطريقه العلم [والإخلاص][٤].

فإن سَلِم من هذا نُشر عليه الديوان الثالث، فقيل: لمن؟ وهذا طريق التعبّد بالإخلاص لوجه[٥] الربوبية، وهو البلاء الثالث، وهم بغية الله عزّ وجلّ من خلقه، الذين قال فى حقّهم: ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، وهذا مقتضى كلمة الإخلاص مِن نَفْى ما سواه، وهى لا إله إلا الله. وليس بعده إلا الإشفاق إلى وقت التلاق، أى قد عملته بعلم، فلِمَن عملته؟ لوجه الله عزّ وجلّ

(١) فى (ك): «بعد مشاهدة».

(٢) فى (ك): «من جميع».

(٣) فى (ك): «فى قلبه».

(٤) ساقطة من (ط).

(٥) فى (ك): «الوجد».

خالصًا فأجرك عليه، أم لشخصٍ مثلك فخُذْ أجرك منه، أم عملته لتنال عاجلَ دنياك، فقد وفّينا إليك عملك فيها، أم عملته لنفسك بسَهْوك وغَفْلتك، فقد سقَط أجرُك وحَبِط عملُك لذهابِك عن القصد وعدم النية فى الفعل؟

فجميع ما أردتَ به سواه فقد تعرضتَ للمقت واستوجبتَ العقابَ بترك ما عليك، وجَهلتَ[١] ما لمولاك، إذ كنتَ عبدًا لى وتتولى غيرى، وإذ أنت تأكل رزقى وتعمل لسواى، وإذ كان الدين قد جعلتُه لنفسى فقصدتَ به من دونى. ويلك، أمَا سمِعتَنى أقول: ﴿ألاَ لله الدِّينُ الخَالصُ﴾ [الزمر:٣]، ويلَكَ، ما قبلتَ أمرى إذ قلتُ: ﴿ومَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلصِينَ له الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة:٥].

ويقول له: ويلك أما سمعتنى أقول: ﴿إنَّ الذينَ تَعْبُدونَ من دُونِ الله لا يَمْلِكُون لَكُم رِزْقًا فَابْتَغُوا عندَ الله الرِّزْقَ واعْبُدُوه﴾ [العنكبوت:١٧]؟ [فيكون توبيخه بعزائم كلامه وغليظ خطابه أشدَّ عليه وأوجع من أليم عذابه][٢].

فهذه أمثال القرآن يشهد بها العلماء أمثالَهُم، وهى أركانُ الخطاب[٣] عند تدبّره يَفْهم بها العارفون أذكارهم، وهى توبيخُ الله عزّ وجلّ للغافلين، وعزائمُ كلامه[٤] وغليظُ خطابه أشدُّ عليهم وأوْجعُ لهم من أليمِ عقابه؛ وذلك أنَّ الله تعالى استخلص الدِّين لنفسه، ولم يُشرك فيه أحدًا من خَلْقه، فقال: ﴿ألاَ لله الدّينُ الخَالصُ﴾ ، يعنى الطريق الموحد غير المشترك، الصافى غير الكدر؛ لأنّ الإخلاصَ التصفيةُ من أكدار الهوى والشّهوة، وضده الشّرك وهو الخَلْط بغيره من النّفس والناس، كما أنعم علينا بالرزق الخالص من بين الفرث والدم، فتمّت به النعمة، فقال: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فى بُطُونه مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالصًا﴾ [النحل:٦٦]، فلو وُجد فيه خلط من أحدهما لم تتم به النعمة علينا.

(١) فى (ط): «وجهل».

(٢) هذه التكملة من (ك).

(٣) فى (ط): «وهى إذا كان الخطاب» وأثبت ما فى (ك) لأنه أصح وأدق.

(٤) فى (ط): «فيكون توبيخ الله عز وجل للغافلين بعزائم كلامه» وأثبت ما فى (ك)، وفيها شبه مع الجملة فى الفقرة السابقة، لكنها هكذا فى الأصل المخطوط لدى.

فكذلك ينبغى أن يكون عملنا له خالصًا من الهوى والشَّهوة؛ لنستحق به الأجر والحظوة منه، مع القيام بواجب الحق علينا، فكما أنّا لو رأينا فى اللبن الذى أنعم به علينا فرثًا أو دمًا عافته أنفسنا، فلم نأكله، فكذلك الحكيم الخبير إذا رأى فى عملنا خلطًا من رياء أو شهوة، ردَّه علينا فلم يقبله، وكما عمل لنا مما عملت يده بقدرته أنعامًا ذلّلها لنا، منها رَكُوبنا ومأكَلُنا، فينبغى أن نشكره، فنعمل له بعد الأكل عملاً صالحًا، كما أمرنا بعد إذ أنعم اللهُ علينا، فقال: ﴿**كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا**﴾ [المؤمنون: ٥١].

فمن جهل ما جعل اللهُ لنفسه، وترك ما أُمر به من الإخلاص بالدين لوجهه، استوجب المقتَ لجهله، واستحقَّ العقابَ لمخالفته. وفى تدبّر ما قلناه الهرب من الخلق، والبكاء على النفس إلى لقاء الحق، لمن أشهد ووقف، وأُريد بالحضور فلم يُصرف[1].

***

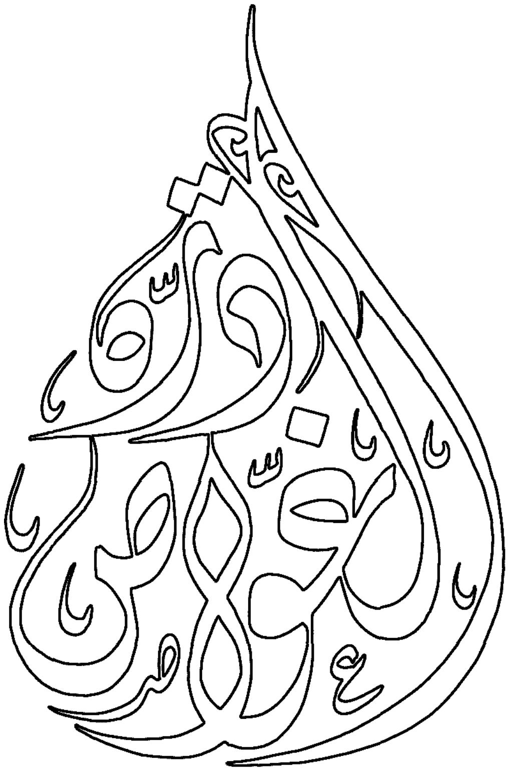

(١) فى (ك): «لمن أشهد وراقب، وصلى الله على محمد عبده».

الفصل الرابع والعشرون

فى ذكر ماهية الورد للمريد ووصف حال العارف من المزيد [١]

اعلم أن الوِرْدَ اسم لوقت من ليل أو نهار، يرد على العبد مكررًا فيقطعه فى قُربة إلى الله، ويورد فيه محبوبًا يَرِدُ عليه فى الآخرة.

والقربةُ اسم لأحد معنيين: أمر فُرِض عليه، أو فضل نُدب إليه. فإذا فعل ذلك فى وقت من ليل أو نهار وداوم عليه فهو وِرْدٌ قدَّمه يَرِدُ عليه غدًا إذا قَدِم.

وأيسرُ الأورادِ صلاةُ أربع ركعاتٍ، أو قراءة سورةٍ من المثانى، أو سعى فى معاونة على برٍّ وتَقْوى.

قال أنس بن سيرين: كان لمحمد بن سيرين فى كل ليلة سبعةُ أوراد، فكان إذا فاته منها شيء قضاهُ بالنهار. فسَمَّى العملَ الموظَّف المؤقت وردًا.

وقال المعتمر بن سليمان: ذهبتُ ألقّن أبى عند الموت، فأومأ إلىّ بيده: دعنى، فإنى فى وِرْدى الرابع. فسمى الحزبَ من أحزاب القرآن لوقتٍ ما وِردًا.

فمن العمّال من كان يجعل الأورادَ من أجزاءِ القرآن. ومنهم من كان يجعله من أعداد الركوع. وفوق هؤلاء من العلماء كانوا يجعلون الأوراد من أوقاتِ الليل والنهار، فإن قطع الوقتَ بآيةٍ أو ركعة أو فكرة أو شهادة، فذاك وِرْدُه.

وأما العارفون فإنهم لم يوقّتوا الأورادَ، ولم يقسّموا الأوقات، بل جعلوا الوِرْد واحدًا لمولاهم، وجعلوا حاجتهم من الدنيا ضرورتهم، وصيروا الوقتَ متساويًا لسيّدهم، وتصريفَهُم لمصالحهم يدخل عليهم، فوضعوا رقابهم فى رقّ العبودية، وصفُّوا أقدامهم فى مصافِّ الخِدمة، فكانوا فى كلِّ وقتٍ بحكمِ ما يُستعملون،

(١) فى (ط): «بالمزيد» وأثبت ما فى (ك). وأيضًا هذا الفصل يختلف فى ترتيب أجزاء وفقرات منه بين المطبوعة والمخطوطة.

وبوصف ما به يُطالَبون، ذلك وِرْدُهم، وتلك علامتهُم عن حسن اختيار الله عزّ وجلّ لهم، وجميل تولّيه إياهم. لا يَكلُهم إلى نفوسهم، ولا يولّيهم بعضهم؛ وهو يتولّى الصالحين. مشاهدتُهُم ذكرُهم، وقربُ الحبيب حبُّهم، ليس يشهدون فضيلةً فى غير محبوبهم، ولا يرجون قُربةً بغير معروفهم؛ به يتقربون إليه، وإليه يسبّحون له[١]، وعليه يتوكلون له، ومنه يخافون عنه، وإيّاه يحبّون منه. ولو أسقطوا الأعمالَ كلّها غير ما تعلّق بالتوحيدِ ثبوتُه ما نقصَ من توحيدهم ذرّة، ولو تركوا أورادَ المريدين كلّهم ما أثّر فى قلوبهم بقسوة ولا فترة؛ لأنّهم لا يزيدون بالأعمال فينقصون بها، ولا يتفقدون قلوبهم وأحوالهم بالأوراد فيعرفون النقصان والمزيدَ منها، ولا تجتمع همومُهم بسبب، ولا يقوى يقينُهم بطلب؛ فَيَتَشتَّت لفقدِ سببٍ، ويضعف يقينهم لعَدم طلب[٢]. هذه المعانى هى أحوال المريدين.

وجملةُ تَغيُّرُهم فى شيئين: ضيقُهم بالخالق فهربوا منه، واتساعُهم بالخلق فاستراحوا إليه. ولو دام قُربهم منه لدامت راحتهم به، ولو وَقَفتْ شهادتُهم عليه لما نظروا إلى سواه[٣].

وأمّا العارفون فقد فرغ لهم من قلوبهم، واجتمعت المتفرقات بمجامعها لهم، وأقامهم القائمُ لهم بشهادتهم له، فلهم بكل شىء مزيد، ومن كل شىء توحيد. كلّ خاطرٍ بهم يردهم إليه، وكلّ منظور إليه يدلُّهم عليه، وكل نظرة وحركة طريق لهم إليه. فتوحيدهم فى مزيد، ويقينهم فى تجديد، بغير تغيير ولا تَصْريد[٤]، ولا إيقاف ولا تحديد. ولربّما طلب أحدُهم التسببَ بالأسباب، فيجمعه بها ربُّ الأرباب؛ لأنه مراد بالاجتماع، وإنما استروح بالشّتات لاستجمام ما هو فى قلبه آت، ثقةً منه بحبيبه، وتمكنًا عند محبوبه، إذ قد علم أنه طالب، فطرح نفسه ليحمله، فحمله بما تولاه، ولم يَكِلْه إلى نفسه وهَواه.

---

(١) فى (ط): «وإليه به يسبحون له» وأثبت ما فى (ك).

(٢) فى (ط): «ولا تجتمع قلوبهم بسبب، ولا تقوى نفوسهم بطلب، فتتشتت لفقد سبب، ويضعف يقينهم لطلب» وهى مضطربة جدًا وخطأ محض، وأثبت ما فى (ك).

(٣) هذه الفقرة ليست بالمخطوط، ومعناها مضطرب.

(٤) تصريد: تقليل.

فهذه مقامات لأهلها لا يعرفها سواهم، ولا تصلُح إلا لهم، ولا تليق إلا بهم، ولا يُقاس عليها، ولا يُدَّعى مكانها، ولا تُنْتظَر فتُتْرَك لها الأوراد، ولا تُتَوَقَّع فيُقَصَّر لأجلها فى الاجتهاد. والمرادون بها محمولون بها، مواجهون بعلمها، مسلوكٌ بهم طريقها، مزوّدون زادها، وهى محبوسة عليهم مقصورة لهم، فهم لها سابقون.

فأولياء الله عابدوه، وقد عكفوا بقلوبهم لمن عبدوه، ونظروا إلى معبودهم الذى عكفوا عليه، ففهموا عنه فصلَ الخطاب، بما آتاهم من شهادةِ حكمه حكم الكتاب، إذ يقول: ﴿وانْظُرْ إلى إلهكَ الَّذى ظَلْتَ عَلَيْه عَاكفًا﴾ [طه: ٩٧] بعد قوله للغافلين[1] فوصَفَهم معرِّضًا: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لها عَاكفين﴾ [الشعراء: ٧١]، مع قوله: ﴿أن امْشُوا واصْبرُوا عَلَى آلهتكُمْ إنَّ هذا لشَىءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]، وقوله: ﴿واصْبرْ لحُكْم ربِّكَ فإنَّكَ بأعْيُننا﴾ [الطور: ٤٨].

فعلموا أنّ الإخلاصَ الذى أُمروا به هو العبادة، ولا عبادة إلا بمجانبة الهوى، وبعدها الإنابة إلى المولى، أما سمعت قوله عزّ وجلّ: ﴿والَّذينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أنْ يَعْبدُوهَا وَأَنَابُوا إلى الله لَهُمُ البُشْرَى﴾ [الزمر: ١٧]، وأيقنوا أن الصلاة عماد الدين، ولا صلاة إلا للمتقين، ولا تقوى إلا بإنابة، كما قال تعالى: ﴿مُنيبينَ إليه وَاتَّقُوهُ﴾ ثم قال: ﴿وَأَقيمُوا الصَّلاةَ وَلاَ تَكُونُوا منَ المُشْركينَ﴾ [الروم: ٣١].

فهذه عبادةُ العارفين على سنّة النبيين، فإنابتُهم مشاهدتُهم لمذكورهم، كقوله فى وصف ضدّهم: ﴿كَانَتْ أعْيُنُهُمْ فى غطَاء عَنْ ذكْرى﴾ [الكهف: ١٠١]، فهم عن كشفِ من ذكره، إذ كانوا بضد وصفهم، وحقيقة ذكرهم نسيانهم لسوى مذكورهم، بمعنى قوله: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إذَا نَسيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] فأخرجهم الذكرُ له إلى الفرار إليه كما فهموا عنه، إذ يقول: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢] فَفَرُّوا إلى الله، فلما هربوا إليه أواهم بقربه، ووهب لهم هدايةً إلى حبِّه، ونشر لهم من

(١) من هنا إلى آخر الفقرة غير واضح المعنى، ولعل هناك سقطًا أو تحريفًا.

رحمته، وطواهم فى قبضته، فلم يرهم إلا هم، ولم يعرفهم سواهم، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الكهف: ١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

• ذكر الأوراد وما يرجى بها من الازدياد:

ولكن بمواصلة الأوراد المرسومة، والأعمال الموقتة المعلومة، يستبينُ للمريد النقصانُ من المزيد، ويعرف قوّةَ العزم والشّره من وَهَنِ العادةِ والفَتْرة.

وفى الأوراد أيضًا فضيلةٌ وهو أنّ العامل إذا شُغل عنها بمرض أو سفر كتب له الملَك مثلَ ثوابِ ما كان يعمل فى الصِّحة. وقد يكون نومُ العارف أفضلَ من صلاة الجاهل؛ لأن هذا النائم سالم، وهو ذلك الزاهد العالم إذا استيقظ وُجد. وهذا الصائم القائم لا يؤمن عليه الآفات، وتطرقه الأعداء فى العبادات، وهو ذلك الجاهل المغتر إذا وُجد فُقد. وقد روينا فى خبر: «نوم العالِم عبادة، ونَفَسُهُ تسبيح». وفى الحديث: «عالم واحدٌ أشدّ على الشّيطان من ألف عابد». وروينا فى خبرٍ مقطوع: «لو وقعت هذه على هذه ـ يعنى السماء على الأرض ـ ما ترك العالم علمه لشىء، ولو فُتحت الدنيا على عابد ترك عبادة ربه».

ولأن العالِم قد يُكاشَف فى نومه بالآيات والعبر، ويُكشَف له الملكوت الأعلى والأسفل، ويُخاطَب بالعلوم، ويشاهد القدرةَ من معنى ما تشهده الأنبياءُ فى يَقَظتهم، فيكون نوم العارف يقظة؛ لأن قلبه حياة، ويكون يقظة الغافل نومًا؛ لأن قلبه موات، فيعدل نومُ العالِم يقظةَ الجاهلِ، وتقرب يقظةُ الجاهلِ الغافلِ من نوم العالم.

كيف وقد جاء فى خبر أبى موسى «أن النبى ﷺ نظر إلى أُحُدٍ فقال: هَذا جبل أُحُد، ولا يعلم خلقٌ ما وزنه، وإن من أمتى مَنْ تكون التسبيحة منه والتهليلة أوزنُ عند الله عزّ وجلّ منه». وفى حديث ابنِ مسعود إذ قال لعمر: ما أنكرت أن يكون عملُ عبدٍ فى يوم واحدٍ أثقلَ مَن فى السموات والأرض؟ ثم وصف ذلك: بأنه هو

العاقل عن الله عزّ وجلّ، الموقن، العالِم به.

وقد سُئلت عائشة رضى الله عنها عن صلاة رسول الله ﷺ فى رمضان، فقالت: «ما كان يخص رمضانَ بشيءٍ دون غيره، ولا كان يزيد فى رمضان على سائر السنَة شيئًا».

وقال أنسُ بن مالك: «ما كنتَ تريد أن ترى رسولَ الله ﷺ نائمًا من الليل إلا رأيته، ولا تريد أن تراه قائمًا إلا رأيته. وكان رسولُ الله ﷺ ينام، ثم يقوم قَدْرَ ما نام، ثم ينام قدر ما قام، ثم يقوم قدر ما نام، ثم ينام، ثم يخرج إلى الصلاة».

وقالت عائشة رضى الله عنها: «ما صام رسولُ الله ﷺ شهرًا كاملاً قط إلا رمضان، ولا قام ليلةً إلى الصبح حتى ينام منها». قالت: «وكان يصومُ من الشهر ويُفطر، ويقوم من الليل وينام».

وفى الخبر الآخر: «كان يصوم حتى تقول لا يفطر، ويفطر حتى تقول لا يصوم، وكان يصبح صائمًا ثم يفطر، ويصبح مفطرًا ثم يصوم».

وفى الخبر الآخر: «كان يدخل من الضّحى، فيقول: هل عندكم من شىء؟ فإن قُدِّم إليه شىء أكل، وإلا قال: إنّى صائم. وخرج يومًا فقال: إنى صائم، ثم دخل. فقلنا: يا رسولَ الله، أُهْدِى لنا حيس[1]. فقال: أما إنى كنت أردت الصوم، ولكن قَرِّبيه».

وكان وِرْدُه ﷺ حكم ما ورد عليه، فعن هذا المعدن يكون تصريف العارفين، ومن هذا المعنى تكون مشاهدة الموقنين، ليسوا مع الله بإيراد توقيت، ولا يقطع على تحديد، كما قيل لبعضهم: بأى شىء عرفت الله عزّ وجلّ؟ فقال: بفسخ العزائم وحلّ العقود.

ولكنّ الأورادَ طريقُ العمال، والوُظُفَ[2] أحوال العباد، منها دخلوا، وفيها

(١) الحَيْس: تمر يُخلط بِسَمْنٍ وأقط، فيُعجن شديدًا، وربما جُعل فيه سَوِيق.
(٢) جمع: «وظيفة»، و«الوظيفة من كل شىء: ما يُقدَّر له فى كل يوم من رزقٍ أو طعامٍ أو عَلَف أو شراب» اللسان (وظف)، ورسمها فى المخطوط غير واضح، ولعلها تقرأ «الوَظيف» أيضًا.

يُرفعون إلى أن يشهدوا الواحد، فتكون الأوراد كلّها وِردًا واحدًا، ويكونون بشهادتهم قائمين.

قال بعضُ العلماء من السلف: الإيمان ثلاثمائة خُلُق وثلاثة عشر [خُلُقًا][١]، على أعداد الأنبياء المرسلين، كل مؤمن على خُلق منها، هو طريقه إلى الله عزّ وجلّ، ووجهته من الله عزّ وجلّ ونصيبه، وفى كل طريقةٍ من المؤمنين طبقةٌ، وبعضهم أعلى مقامًا من بعض.

وقال عالم آخر: الطرقُ إلى الله عزّ وجلّ بعدد المؤمنين. وقال بعض العارفين: الطُّرق إلى الله بعدد الخليقة. يعنى أن للشهيد بكل خُلق طريقًا، فقد صارت المكوّنات للمكوّن طرقات.

وروينا فى الخبر: «الإيمانُ ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون طريقةً، من لقى الله عزّ وجلّ بالشهادة على طريقة منها دخل الجنةَ». ومن هذا قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِه فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٤]. فدلّ أنهم كلّهم مهتدون، وبعضهم أهدى من بعض، بمعنى أنّه أقرب إلى الله عزّ وجلّ وأفضل. وقد ندب إلى القُرْب فى الأمر بطلبه، وأخبر عن المقربين بالمنافسة فى طلب القُرْب، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْه الوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] يعنى القرب. وقال تعالى فيما أخبر: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فأقربُ الخلق من الله عزّ وجلّ أعلاهم عند الله عزّ وجلّ، وأعلاهم عنده أعرفهم به وأفضلهم لديه.

وروينا فى التفسير: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِه﴾ [الإسراء: ٨٤]. قال: على وحدانيته؛ يعنى بذلك على توحيده الذى يوحِّد الله عزّ وجلّ به ويعرفه منه. والشاكلة: الطريقة والخُلُق، قد شاكله، وقد شكل فيه.

ومن ذلك قول على رضى الله عنه: «لكل مؤمنٍ سيدٌ من عمله». فهذا السيد

---

(١) أثبتناها من (ك)، وقد ضبطها بفتح الخاء فى الموضعين، وفيها أيضًا: «خمسة عشر».

من العمل هو الذى يرجو به المؤمن النجاة، ويفضل به عند مولاه.

وقال بعض العلماء: كان عبّادُ الكوفةِ أربعة: أحدهم: صاحب ليل ولم يكن صاحب نهار. والآخر: صاحب نهار ولم يكن صاحب ليل. وبعضهم: صاحب سر ولم يكن صاحب علانية. والآخر: صاحب علانية ولم يكن صاحب سر.

وقد كان بعضهم يفضّل عبادةَ النهارِ على عبادة الليل؛ لما فيها من مجاهدة النفس، وكف الجوارح؛ لأنّ النهارَ مكان حركة الغافلين، وموضع ظهور الجاهلين، فإذا سكن العبد عند حركة الغافلين وموضع ظهور الجاهلين كان هو التقىُّ المجاهد والفاضلُ العابد.

وقد قيل: إن العبادة ليست الصوم والصلاة حَسْبَ، بل أفضل العبادة أداءُ الفرائض، واجتنابُ المحارمِ، وتقوى الله عزّ وجلّ عند اكتساب الدرهم، وهذا من أعمال النهار. وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿**وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ**﴾ [الأنعام: ٦٠] رأى ما كسبت جوارِحكُم، فعلّق الاجتراح بالنهار، ثم يبعثكم فيه، فإذا لم يعلم من عبدٍ اجتراحًا بالنهار، ولم يبعثه فيه فى مخالفة، فمَن أفضَلُ منه؟

وكان الحسن يقول: أشدُّ الأعمال قيامُ الليل بالمداومةِ على ذلك.

ومداومةُ الأورادِ من أخلاق المؤمنين وطرائق العابدين، وهى مزيدُ الإيمان، وعلامة الإيقان.

وسُئلت عائشة رضى الله عنها عن عمل رسول الله ﷺ، فقالت: «كان عمله ديمةً، وكان إذا عمل عملاً أتقنه». وهذا كان سبب ما نُقل عنه ﷺ من صلاته بعد العصر ركعتين أنّه كان ترك مرة ركعتى النافلة بعد الظهر، شغله الوفد[1] عن ذلك، فصلاهما بعد العصر، ثم لم يزل يصليهما بعد العصر كلما دخل منزله. رَوَت ذلك عنه عائشة وأمُّ سلمة[2]. ولم يكن يصليهما فى المسجد لئلا يستنّ

(١) الوفد: يعنى وفد بنى عبد القيس، وقيل: وفد من بنى تميم.

(٢) حديث أم سلمة متفق عليه. وراجع آراء الفقهاء فى ذلك فى: نيل الأوطار، للشوكانى، ٣/ ٢٧.

الناس به.

وفى الخبر المشهور: «اكْلَفوا[(١)] من الأعمال ما تطيقون، فإنّ الله عزّ وجلّ لا يملّ حتى تملوا». وفى الحديث الآخر: «أحبّ الأعمال إلى الله عزّ وجلّ ما دِيم عليه وإن قلّ».

وقد روينا فى خبر: «مَنْ عوّده اللهُ عزّ وجلّ عبادةً، فتركها ملالة مقته الله تعالى».

وفى خبر عن عائشة رضى الله عنها، وقد أسنده بعض الرواة من طريق: «كل يوم لا أزداد فيه علمًا فلا بُورك لى فى صباح ذلك اليوم». وقد جاء فى الخبر كلامٌ، تارةً يُروى عن الحسن بن على، وتارة يُروى عن الحسن البصرى، ومرة [عن عائشة رضى الله عنها. وبعضهم يحكيه][(٢)] عن رسول الله ﷺ [فى المنام][(٣)]: «من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان يومه شرًا من أمسه فهو محروم، ومن لم يكن فى مزيد فهو فى النقصان».

وفى لفظ آخر: «من لم يتفقد النّقصان من نفسه فهو فى نقصان، ومن كان فى نقصان فالموت خيرٌ له. ولعمرى إن المؤمنَ شكورٌ، والشاكر على مزيد».

* * *

(١) اكلفوا: هو من كَلِفتُ بالأمر إذا أُولعتُ به وأحببتُه.
(٢) ساقطة من (ط)، وأثبتناها من (ك).
(٣) فى (ط) بدلاً منها: «سمع يقول» وأثبت ما فى (ك).

الفصل الخامس والعشرون

فى ذكر تعريف النفس، وتصريف مواجيد العارفين

اعلم أنّ النقصانَ يبدو من الغفلةِ، والغفلةُ تنشأ من آفات النفسِ، والنفسُ مجبولةٌ على الحركة، وقد أُمرت بالسكون وهو ابتلاؤها، لتفتقر إلى مولاها، وتبرأ من حولها وقواها. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢] لتفزعوا إليه فتقولوا: ﴿ربَّنا أفْرِغْ عَلَيْنا صَبْرًا وتوفَّنا مُسْلِمين﴾ [الأعراف:١٢٦]. وكما قال: ﴿وكَانَ الإنسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء:١١]، ﴿خُلِقَ الإنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ ثم قال: ﴿سأُرِيكُمْ آيَاتى فَلاَ تَسْتَعْجِلُون﴾ [الأنبياء:٣٧]، وقال: ﴿أتَى أمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، فأخبر عن وصفِه بالعَجَلة، ثم أمره بتركها للبَلْوى. فإن نزلت السّكينة، وهى مزيد الإيمان، سكنت النفس عن الهوى بإذن مُنفِّسها. وإن حُجب القلبُ بالغفلة، وهى علامةُ على الافتقارِ والتضرّع، تحركت النفس بطبعها، فإن سكنت عن حركتها فبالمنّة والفَضل، وإن تحركت بوصفها فبالابتلاء والعدل. فأولُ البلاء اختلافها، وأولُ اختلافها خِلافُها، ومقدمتُه الهِمّة، وبابُه السّمع، وهو طريق إلى الكلام والنظر، والقول طريقٌ إلى الشهوةِ، والشهوةُ مفتاحُ الخطيئة، والخطيئةُ مقامٌ من النار حتى يزحزح عنها الجبّارُ بالتوبة فى الدنيا، والعفو فى العُقبى.

وقد تكون المخالفةُ على المحب العارف أشدَّ من النار، كما حُدِّثت عن بعضهم قال: لأن أُبتلَى بدخول النار أحبُّ إلىَّ من أن أُبتلَى بمعصية. قيل: ولِمَ؟ قال: لأنّ فى المعصية خلافَ ربّى تعالى وسخطَه، وفى النار إظهارَ قدرتِه وانتقامَهُ لنفسه، قال: فسخطه أعزُّ علىَّ وأعظمُ من تعذيب نفسى.

وكذلك حدثونا فى معناه عن بعض الموقنين من العمّال أنه قال: ركعتان تُتقبل

منّى أحبُّ إلىَّ من دخول الجنة. قيل: وكيف؟ قال: لأنّ فى الركعتين رضا ربى عزّ وجلّ ومحبته، وفى الجنّة رضاى وشهوتى. فرضا ربى عزّ وجلّ أحبُّ إلىّ من محبتى.

وقد قال وهيب بن الورد المكّى فى لبن سُئل أن يشربه، فلم يفعل؛ لأنه سأل عن أصله، فلم يستطبه، فقالت له أمه: اشرب، فإنى أرجو إن شربته أن يغفرَ اللهُ لك. فقال: ما أحبّ أنى شربته وأنّ الله غفر لى. قالت: ولِمَ؟ قال: لا أحبّ أن أنال مغفرته بمعصيته.

فجملةُ وصف النّفْس معنيان: الطّيش والشَّرَه. فالطيشُ عن الجهل، والشّره عن الحرص، وهما فطرة النفس. فمَثَلُها فى الطيش كمَثَل كُرة أو جَوْزة فى مكان أمْلس، مصوَّب سكونها بالْمُنَّة[1]، فإن أَشْرتَ إليها أو حرَّكْتها أدنى حركةٍ تحركت بوصفها، وهو خفتها واستدارتها. وصورتُها فى الشّره المتولدة من الحرص أنّها على صورة الفراشة التى تقع فى النار جاهلةً شرِهة، تطلب بجهلها الضوء وفيه هلاكها، فإذا وصلت إلى شىءٍ منه لم تقتنع بيَسيرِه لشرهها، فتحرص على الغايةِ منه، وتطلب عين الضوء وجملته، وهو نفس المِصباح، فتُحرق، ولو قَنعَت بقليلِ الضوء عن بُعْد سَلِمت. فكذلك النفس فى طَيْشها الذى يتولد من العَجلة، وفى شرهها الذى ينتج من الحرص والطّمع.

والحرصُ والطّمع هما اللذان كانا سبب إخراجِ آدم عليه السلام من الجنة؛ لأنه طمع فى الخلود، فحرص على الأكل، وكان ذلك عن الجهل، فكانت معصيتُه سببَ عمارة الدنيا، وصارت الطاعاتُ[2] سببَ عمارةِ الآخرة. فلذلك قيل: «حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة». فصار الزُّهد أصلَ كلِّ طاعة. فانظر كيف أُخرج من الجَنّة بعد أن جُعل فيها بذنبٍ واحد، وأنت تريد أن تدخلها ولم تملك النظر إليها بذنوب كثيرة!!

---

(١) الْمُنَّة: القوة.

(٢) فى (ط): «فصارت الطاعة» وأثبت ما فى (ك).

وفى الحديث الآخر: «الإيمان عُريان، فلباسه التقوى، وزينتُه الحياء، وثمرته العلم». ومن ثَمّ قيل: إن الجنةَ طيبةٌ لا يسكنها إلا الطّيب، فمتى طابوا لها دخلوها. ألم تسمع إلى وفاقه بين ذلك فى قوله تعالى: ﴿الَّذينَ تَتَوَفَّاهُمُ الملائكةُ طَيِّبينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُم﴾ [النحل:٣٢]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالدينَ﴾ [الزمر:٧٣] لأنّه قال: ﴿وَمَسَاكنَ طَيِّبَةً فى جَنَّات عَدْنٍ﴾ [التوبة:٧٢] والذّنوب خبائث، كما قال تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]، فلمّا طابوا لها طابت لهم، وقد أجمل ذلك بقوله تعالى: ﴿الخَبيثَاتُ للْخَبيثينَ﴾، وبقوله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ للطَّيِّبينَ﴾ [النور:٢٦].

وقد مثّل بعضُهم النفسَ فى شَرَهها بمثل ذُباب مرّ على رغيفٍ عليه عسل، فوقع فيه يطلب الكلية، فعلق بجناحه فقتله. وآخر مرّ به، فدنا من بعضه، فنال حاجته، فرجع إلى ورائه سالمًا.

وقد مثَّل بعضُ الحكماء ابنَ آدم مثل دُود القَزّ: لا يزال ينسج على نفسه لجهله، حتى لا يكون له مخلِّص، فيقتل نفسه، ويصير القزّ لغيره، وربما قتلوه إذا فرغ من نسجه؛ لأنّ القزّ يلتف عليه، فيَرُوم الخروجَ منه، فيَشْمسُ، وربما غمزوه بالأيدى حتى يموت، لئلا يقطع القز، وليخرج القز صحيحًا. فهذه صورةُ المكتسب الجاهل، الذى أهلكه أهله وماله، فتنعَّم ورثته بما شقى به، فإن أطاعوا به كان أجره لهم وحسابه عليه، وإن عصوا به كان شريكهم فى المعصية؛ لأنه أكسبهم إياها به، فلا يدرى أىَّ الحسرتينِ عليه أعظم، أذهابه عُمُره لغيره، أو نظره إلى ماله فى ميزان غيره؟

ومما سمعتُ فى علم شَرَه النّفس ما حدثنى بعض إخوانى عن بعض هذه الطائفة، قال: قَدِمَ علينا بعضُ الفقراء، فاشترينا من جارٍ لنا جملاً مشويًا، ودعوناه عليه فى جماعة من أصحابنا، فلما مدّ يده ليأكل، وأخذ لقمة وجعلها فى فِيه لَفظَها، ثم اعتزل وقال: كلوا أنتم، فإنه قد عَرَض لى عارض منعنى من الأكل. فقلنا: لا نأكل إن لم تأكل معنا. فقال: أنتم أعلم، أما أنا فغيرُ آكلٍ، ثم

انصرف. قال: فكرهنا أن نأكل دونه، فقلنا: لو دعونا الشوّاء فسألناه عن أصل هذا الجمل، فلعل له سببًا مكروهًا، فدعوناه، فلم نزل به نسأل عنه، حتى أقرّ أنّه كانَ مَيْتة، وأن نَفْسه شَرهت إلى بيعه حرصًا على ثمنه، فشواه، فوافق أنّكم اشتريتُموه. قال: فمزقناه للكلاب. قال: ثم إنى لقيتُ الرَّجُلَ بعد وقت، فسألته: لأىّ معنى تركتَ أكْلَه، وبأى عارضٍ؟ فقال: أُخبرك: ما شَرِهَت نفسى إلى طَعامٍ منذ عشرين سنةً بالرياضة التى رُضْتَها به، فلما قَدَّمتم إلىَّ هذا شَرهت نفسى إليه شَرَهًا ما عهدتُه قبل ذلك، فعلمتُ أن فى ذلك الطعامِ علةً، فتركت أكْلَه لأجل شَره النفس إليه.

فانظر رحمك اللهُ، كيف اتفقا فى شَرَه النّفس عن قصد واحد، ثم اختلفا فى التوفيق والخذلان، فعُصِم العالمُ بالورع والمحاسبة، وتُرِك الجاهلُ مع شَرَه النفس بالحرص وتركه المراقبة، أعنى البائع للجمل. ثم عُصِم الآخرون للتوفيق بحُسن الأدبِ، وهو قمعُ شَره النفس عن الأكل بعد صاحبهم، ثم تدارك البائع بعد وقوعه، لصدق المشترى وحسن نيته.

وجِبلاَّتُ النفسِ الأربعة هى أصول ما تفرّع من هواها، وهى مقتضى ما فطرها عليه مولاها؛ أولها: الضعف؛ وهو مقتضى فطرة التراب. ثم البخل؛ وهو مقتضى جبلَّة الطين. ثم الشهوة؛ وموجبها الحمائم. [ثم] الجهل؛ وهو ما اقتضاه موجب الصلصال. وهذه الصفات على معانى تلك الجبلات للابتلاء بالأمشاج، ففيه بدء الأمْت والاعوجاج، ذلك تَقْديرُ العزيز العليم.

ثم إن النّفسَ مبتلاةٌ بأوصاف أربعة متفاوتة: أولها: معانى صفات الربوبية، نحو: الكبر، والجبرية، وحب المدح، والعز، والغنى. ومبتلاة بأخلاق الشياطين، مثل: الخداع، والحيلة، والحسد، والظنة. ومبتلاةٌ بطبائع إليها ثَمّ وهو: حبُّ الأكل، والشربُ، والنكاح. وهى مع ذلك كله مطالبة بأوصاف العبودية، مثل: الخوف، والتواضع، والذل، بمعنى ما قلناه. قيل: إنها خُلقت متحركة وأُمرت بالسكوت، وأنّى لها بذلك إن لم يتداركها المالك؟ وكيف تسكن بالأمر إن لم يسكّنها محركها بالخير؟

فلا يكون العبدُ عبدًا مخلصًا حتى يكون للمعانى الثلاث مخلصًا، فإذا تحقق بأوصاف العبودية كان خالصًا من المعانى التى هى بلاؤه من صفات الربوبية. فإخلاصُ العبودية للوحدانية عند العلماء الموحدين أشدُّ من الإخلاص فى المعاملة عند العاملين. وبذلك رُفعوا إلى مقامات القرب، وذلك أنه لا يكون عندهم عبدًا حتى يكون مما سوى الله عزّ وجلّ حرًا، فكيف يكون عبد رب وهو عبد عبد؟ لأنّ ما قاده إليه فهو إلهه، وما ترتّب عليه فهو ربه. وهذا شِرْكٌ فى الإلهية عند المتألهين، ومَرَجٌ بالربوبية عند الربانيين، فهو مَتْعوسٌ منكوس بدُعاء الرسول ﷺ إذ يقول: «تَعِسَ عبدُ الدِّينار، تَعِسَ عبدُ الدِّرهم، تَعِسَ عبد الزّوجة، تَعِسَ عبد الحُلّة». فهؤلاء عبيدُ العدد الذين قال مولاهم: **﴿إنْ كُلُّ مَنْ فى السَّموات والأَرْضِ إلاَّ آتى الرَّحمنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُم وعَدَّهُم عَدًّا﴾** [مريم: ٩٣ - ٩٤] أصحابُ النفوس الأمّارة بالسوء، المسوِّلة، الموافقة للهوى، المخالفة للمولى، **﴿وعِبادُ الرَّحمنِ الّذين يَمْشُون عَلى الأرْضِ هَوْنًا﴾** [الفرقان: ٦٣] إلى آخر وصفهم، أولو النفس المرحومة المطمئنة المرضية، هم عباد الرحمن أهل العلم والحكمة، علَّمهم من لدنه، واختارهم لنفسه.

ولا يكون المريدُ بَدَلاً حتى يُبدِّل بمعانى صفات الربوبية صفاتَ العبودية، وبأخلاق الشياطين أوصافَ المؤمنين، وبطبائع البهائم أوصافَ الروحانيين من الأذكار والعلوم. فعندها كان بَدَلاً مقربًا. والطريق إلى هذا بأن يملك نَفْسَه فيملكَها، وتُسخَّر له فيُسلَّطَ عليها.

فإنْ أردتَ أن تَمْلك نفسَكْ فلا تُملِّكْهَا، وضيِّق عليها ولا تُوسِّع لها. فإن ملَّكْتَها ملَكَتْكَ، وإن لم تضيِّق عليها اتّسَعتْ عليك. فإن أردت الظفرَ بها فلا تُعرضها لهواها، واحتبسها عن معتاد بلاها، فإن لم تُمسكها انطلقت بك، وإن أردت أن تقوى عليها فأضعفها بقَطْع أسباب هَواها وحبس مواد شهواتها، وإلا قَويَتْ عليك فصرَعَتْك. فأولُ المَلَكة لها أن تحاسبَها فى كل ساعة، وتراقبَ حِسبتها فى كل وقت، وتقفَ عند كل همّة من خواطرها. فإن كانت الهمة لله عزّ وجلّ سابقتَ الموت وبادرتَ الفوتَ فى إمضائها. وإن كانت الهمة لغير الله تعالى

سابقت وبادرت في محوها؛ لئلا تثبت، وعملتَ في الاستبدال بها كيلا تستبدل بك.

وفي تأويل الخبر المروي: «البرُّ يزيدُ في العُمر». وهو معنى الدعاء المشهور من قول الناس: جعل الله في عمرك البركة، وقد بُورك له في عمره، فإنّ البركة في العمر أن تدرك في عمرك القصير بيقظتك ما فات غيرك في عمره الطويل بغفلته، فيرتفع لك في سنةٍ ما لا يرتفع له في عشرين سنة.

وللخُصوص من المقربين في مقامات القرب عند التجلي بصفات الرب إلحاقٌ برفيع الدرجات، وتداركُ ما فات عند أذكارهم وأعمال قلوبهم اليسيرة في هذه الأوقات. فكل ذَرّةٍ من ذِكْرٍ، أو تَسْبيحٍ، أو تهليل، أو حَمْد، أو تدبّر وتبصرة، وتفكر وتذكرة بمشاهدة قُرب، ووَجْدٍ برب، ونظرةٍ إلى حبيب، ودنوٍّ إلى قريب، أفضلُ من أمثال الجبال من أعمال الغافلين، الذين هم بنفوسهم واجدون، وللخلق مشاهدون[١]. مَثَل العارفين فيما ذكرته من قيامهم بمشاهدتهم، ورعايتهم لأمانتهم، وعهدهم في وَقْت قُربهم وحضورهم، مَثَلُ العاملِ في ليلة القدر، العمل فيها لمن وافقها خيرٌ من ألف شهر. وقد قال بعض العلماء: كلُّ ليلةٍ للعارفِ بمنزلة ليلة القدر. وروينا عن علي رضي الله عنه أنه قال: كل يوم لا يُعصى الله عزّ وجلّ فيه فهو لنا عيد.

وكان الحسن إذا تلا قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الأَيَّامِ الخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] قال: يا إخواني، هي واللهِ أيامكم هذه، فاقطعوها بالجدِّ والاجتهاد ولا تضيِّعوها.

فخُلُوُّها فراغها[٢] من حسن المعاملة، وبطالتك فيها عن الشّغل لمعادك المحصول عليه[٣] منها. كما قال المبطلون: ﴿يا حَسْرَتَنا عَلَى ما فَرَّطْنا فيها﴾ [الأنعام: ٣١] يعني في الأيام الخالية، التي هي محصولهم ومرجعهم ومثواهم. وكما قالت النفسُ

(١) العبارة في (ك) اختلفت مع الاختصار لبعض الكلام.

(٢) في (ط): «فراغًا» وهو تحريف، وأثبت ما في (ك). وقوله «فخلوها»: يقصد الأيّام الخالية.

(٣) في (ط): « بمعادك المحصول عليك» وأثبت ما في (ك).

الأمّارة بالسّوء: ﴿يا حَسْرَتا عَلَى ما فَرَّطْتُ فِى جَنْبِ الله﴾ [الزمر:٥٦] يعنى أيام الدنيا التى ضيَّعت العمر فيها، فخلت من الثواب والجزاء غدًا، وهذا أحد الوجهين فى قوله: ﴿الأيَّام الخَالِيَة﴾.

والوجه الآخر: الخالية، أى الماضية، خلت أوقاتها، وخلدت أحكامها، وذهبت شهواتها، وبقيت عقوباتها.

فإن قصَّرت عن هذه المحاسبة للحسيب، ولم يكن لك مقام المراقبة للرقيب، ولا مكان المحاسبة للحبيب، فلا يفوتنّك مقام الورعين، ولا تَبِن عن حال التائبين؛ وهو أن تجعل لك وردين فى اليوم والليلة، لمحاسبة النفس وموافقتها؛ مرة بعد صلاة الضحى، لما مَضى من ليلتك وما سلف من غفلتك، فإن رأيت نعمة شكرتَ الله، وإن رأيتَ بَليَّة استغفرتَ. فإن وجدتَ فى حالك أوصافَ المؤمنين التى وصفهم الله عزّ وجلّ ومدحهم عليها، رجوتَ وطَمعْتَ واستبشرتَ، وإن وجدت من قلبك وحالك وصفًا من أوصاف المنافقين أو خلقًا من أخلاق الجاهلين التى ذمَّهم الله عزّ وجلّ بها ومقتهم عليها، حزنتَ وأشفقتَ وتبتَ من ذلك واستغفرتَ.

والمرة الثانية: أن تحاسب نفسك بعد الوتر وقبل النوم، لما مضى من يومك، من طولِ غفلتك، وسوء معاملتك، وما فعلتَه من أعمالكَ، كيف فعلتها ولمن فعلتها، وما تركتَه من سُكوتك وصمتك لِمَ تركته ولمن تركته، فتنعقد الزيادة والنقصان، وتعرف بذلك التكلُّف والإخلاص من حركتك وسكونك. فما تحركتَ فيه وسكنتَ لأجل الله عزّ وجلّ به فهو الإخلاص، ثوابُك فيه على الله عزّ وجلّ عند مرجعك إليه، فاعمل فى الشكر على نعمة التوفيق وحسن العصمة من التهلكة. وما سكنتَ فيه أو تحركتَ لهواك وعاجل دنياك، فهو التكلف، الذى أخبر رسول الله ﷺ أنه هو والأتقياء من أمته برآء من التكلف. وقد استوجبتَ فيه العقاب عند نشر الحساب، إلا أن يغفر المولى الكريم الوهاب. فاعمل حينئذ فى الاستغفار بعد حسن التوبة وجميل الاعتذار، وخف أن يكون قد وَكَلَك إلى نفسك فتهلك.

فلعل مشاهدة هذين المعنيين؛ من خوفِ ما سلف منك، والطمعِ فى قبول ما

أسلفتَ، يمنعك من المنام، ويطرد عنك الغفلة، فتحيى ليلتك بالقيام، فتكون ممن وصف الله عزّ وجلّ فى قوله: ﴿**تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا**﴾ [السجدة: ١٦].

وقد قال بعض السلف: كان أحدهم يحاسب نفسه أشدّ من محاسبة الشريك لشريكه.

وقد قال بعض العلماء: من علامة المقت أن يكون العبد ذاكرًا لعيوب غيره، ناسيًا لعيوب نفسه، ماقتًا للناس على الظن، محبًا لنفسه على اليقين.

وتركُ محاسبةِ النفس ومراقبةِ الرقيب من طول الغفلة عن الله عزّ وجلّ. والغافلون فى الدنيا هم الخاسرون فى العقبى؛ لأنّ العاقبة للمتقين، قال الله عزّ وجلّ: ﴿**وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ [النحل: ١٠٨ ـ ١٠٩].

وطولُ الغفلة من العبد عن طبائع القلب من المعبود، والغفلة فى الظاهر غلاف القلب فى الباطن. تقول العرب: غَفْله وغُلْفه؛ بمعنًى، كما تقول: جَذَب وجَبَذ، وخُشَاف وخُفَاش.

وطبائع القلب عن ترادف الذنب بعضه فوق بعض، وهو الران الذى يتعقب الكسب، فيكون عقوبة له، قال الله تعالى: ﴿**كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [المطففين: ١٤]. قيل: المكاسب الخبيثة وأكل الحرام. وفى التفسير: هو الذنب على الذنب حتى يسودّ القلب. وأصل الرَّيْن: الميل والغَلَبة، وهو التغطية أيضًا. يقال: ران عليه النعاس: إذا غلبه. ورانت الخمر على عقله: أى غطته. ومن هذا قول عمر رضى الله عنه فى سابق الحاجِّ: فادّان مُعرضًا، فأصبح وقد رِينَ به. أى: مال به الدَّيْنُ فغَلَبه.

وأصل ترادف الذنوب من إغفال المراقبة، وإهمال المحاسبة، وتأخير التوبة، والتسويف بالاستقامة، وترك الاستغفار والندم. وأصل ذلك كله هو حب الدنيا، وإيثارها على أمر الله عزّ وجلّ، وغلبة الهوى على القلب. ألم تسمع إلى قوله عزّ

وجلّ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾ إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿أُولئكَ الذينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [النحل: ١٠٧ ـ ١٠٨]. وقال في دليل الخطاب: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عنِ الهَوَى﴾ [النازعات: ٤٠] يعني: عن إيثار الدنيا؛ لأن صريح الكلام وقع في وصفهم بالطغيان وإيثار الحياة الدنيا، ثم قال: ﴿طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦]، فاتّباع الهوى عن طبائع القلب، وطبائع القلب عن عقوبة الذنب، وميراثُ العقاب الصَّمَمُ عن فهم الخطاب. أمَا سمعتَه يقول: ﴿لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِم ونَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِم فَهُم لا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

وقد جعل عليٌّ رضي الله عنه الغفلة مقامًا من مقامات الكفر، فقال في حديثه الطويل: فقام إليه سلمان فقال: أخبرنا عن الكفر على ما بُني؟ فقال: على أربع مقامات: على الشكّ، والجفاء، والغفلة، والعمى. فإذا كثرت غفلةُ القلب قلّ إلهام الملَكِ للعبد، وهو سمع القلب، لأن طول الغفلة يَصِمُّه عن السّمع، وعدم سمع الكلام من الملك عقوبة الخطايا، وتثبيتُ الملَك للعبد على الخير والطاعة وحيٌ من الله عزّ وجلّ إليهم وتفضيل للعبد. أمَا سمعت قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى المَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

وفي الخبر: «إن آدم عليه السلام حُجِب عن سمع كلام الملائكة، فاستوحش بذلك، فقال: يا رب ما لي لا أسمع كلامَ الملائكة؟ فقال: خطيئتُك يا آدم».

فإذا لم يسمع العبد كلام الملائكة لم يفهم كلام الملك، وإذا لم يسمع الكلام لم يستجب للمتكلم، ﴿إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦].

وقال الحسنُ: إنّ بين العبد وبين الله عزّ وجلّ حدًا محدودًا من الذنوب، فإذا بلغه العبد طبع على قلبه، فلم يوفِّقه للخير أبدًا.

فبادر أيها المجاوزُ للحدود بالتوبة والرجوع، قبل أن تبلغ الحد فتَلْقَى غيًا وجهدًا.

وفى حديث ابن عمر: «الطّابع معلّق بقائم عرش الرحمن، فإذا انتهكت المحارم بعث الله عز وجلّ بالطابع على القلوب، فأعماها». وهذا هو القُفلُ الذى قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

واعلم أنّ القسوةَ التى يهدد الله عزّ وجلّ عليها بالويل المتولدة من طول الغفلة فى قوله عزّ وجلّ: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]. وقد قرنها الله عزّ وجلّ بالنّفاق، وأخبر أنه يجعل إلقاء الشيطانِ فتنة لأهل النفاق والقسوة. فإلقاءُ الشيطان يكثر عند قلة إلهام الملك، كما ذكرنا آنفًا، ينتظم ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [الحج: ٥٣] أى: وللقاسية قلوبهم أيضًا.

والقسوة ثمرةُ البعد، والبعدُ عقوبةُ الخيانة، والله لا يحب الخائنين، فذلك من تدبّر الخطاب من قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ أى: فبنقضهم الميثاق، و «ما» صلة فى الكلام، فهذا هو الخيانة؛ ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾ أى أبعدناهم ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣] بترادف الذنوب بعد القسوة من الكذب والنسيان، وكثرة الاطلاع على الخيانة منهم والبُهتان، فأُصيبوا بالذّنوب، فوقع الطابع على القلوب، فصُمَّت عن سمع كلام المحبوب، كما قال: ﴿أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٠٠]. فجلاء هذا الطابع التقوى، فهو مفتاح السمع، كما قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا﴾ [المائدة: ١٠٨].

والله تعالى الموفق.

* * *

الفصل السادس والعشرون

فيه كتاب ذكر مشاهدة أهل المراقبة (١)

اعلم أن مشاهدةَ المراقبين هى أولُ مراقبةِ المشاهدين، وذلك أنّ مَن كان مقامه المراقبة كان حالُه المحاسبة، ومَن كان مقامه المشاهدة كان وصفه المراقبة.

فأولُ شهادةِ المراقب هو أن يعلم يقينًا أن لا يخلو فى كلِّ وقتٍ وإن قَصُرَ من أحد ثلاثة معان:

[المعنى الأول:] أن يكون لله عزّ وجلّ عليه فرض. والفرضُ على ضربين: شىء أُمر بفعله، أو شىء أُمر بتركه، وهو اجتناب المنهى.

والمعنى الثانى: ندبٌ حُثَّ عليه، وهو المسابقة بخير يقرِّبه إلى الله عزّ وجلّ، والمسارعة بعمل برٍّ يبتدره قبل فَوْته.

والمعنى الثالث: شىء مباحٌ، فيه صلاحُ جسمِه وقلبه.

وليس للمؤمن وقت رابع، فإن أحدث وقتًا رابعًا فقد تعدّى حدود الله، ﴿ومَن يَتَعدَّ حدودَ الله فقد ظَلَم نَفْسَه﴾ [الطلاق:١] ، وقد أحدث فى دين الله سبحانه وتعالى، ومن أحدث فى دين الله فقد سلك غير طريق المتقين. ألم تسمع إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ الَّذى جَعَلَ الليلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أرَادَ أنْ يَذَّكَّرَ أوْ أرَادَ شُكُوراً﴾ [الفرقان:٦٢] فهل ترى بين هذين وقتًا يجهل أو هوى، كما لا ترى بين الليل والنهار وقتًا ثالثًا؟ فالذكر: الإيمان والعلم؛ فهذان ينتظمان جُلّ أعمال القلوب. والشكر: العمل بأخلاق الإيمان وأحكام العلوم، وهذان يشتملان على جميع أعمال الجوارح. قال الله عزّ وجلّ: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ:١٣].

(١) انظر: الإحياء ٤/ ٣٩٣، كتاب المراقبة والمحاسبة. ومدارج السالكين، لابن قيم الجوزية، ٢/ ٦٩ ـ ٩٢.

وقال: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران:١٢٣]. وقال: ﴿كَما أَرْسَلْنَا فيكُمْ رَسُولاً منْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَاذْكُرُونى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لى وَلا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة:١٥١ ـ ١٥٢]. وقال الله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ [النساء:١٤٧]. وقال رسول الله ﷺ، وقد عوتب فى طول قيامه حتى تورَّمت قدماه، فقال: «أفلا أكونُ عبدًا شكورًا»؟ ففسر الشكر بالعمل، كما فسر الله عزّ وجلّ العمل بالشكر.

والوقت الثالث الذى هو المباح داخل فيهما؛ لأنه مُعِينٌ عليهما، وبه استقامة العبد فيهما. وقد كان بعض العلماء يقول: لنا فى معاصى الطاعات هَمٌّ وشُغل عن معاصى المخالفات.

فيبتدئ العبدُ المراقب فينظر بيقظته فى أدنى وقتٍ هل لله عزّ وجلّ فيه فرض من أمر أو نهى؟ فيبدأ بذلك حتى يفرغ منه. فإن لم يجد فإنه لا يخلو من نوادب وفضائل، فيبتدئ بالأفضل. فإن لم يكن عمل فى أدنى الفضيلتين فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن يومه لأمسه، ومن ساعته ليومه، ومن دنياه لآخرته، كما أمره مولاه فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ منَ الدُّنْيا﴾ [القصص:٧٧] أى: لا تترك أن تأخذ نصيبك من الدنيا، ولا تترك أن تأخذ نصيبك للآخرة من دنياك؛ وهو أن تحسن كما أحسن الله إليك، ولا تطلب الفساد فى الدنيا، فتكون قد نسيت نصيبك من الآخرة، فيتركك الله من جزيل ثوابه الذى أعد لأحبابه، كما قال: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]، أى تركوه فتركهم. وتركُهم له تركُ نصيبهم منه، وتركه عزّ وجلّ لهم ترك محابِّهم من الآخرة.

فيبتدئ العبدُ الفَطِن، فيأخذ من عمره ووقته فيجعله لآخرته التى أيقن بها، ثم يأخذ من وقته أعلى ما فيه مما يختص به الوقت، ولا يوجد إلا فيه، ويفوت دركه بفَوْت وقته، وهو أفضلُ ما يقدر عليه مما أدّاه علمه إليه، فيجعله لمولاه.

ثم إن العبدَ لا يخلو فى كل وقت وإن قلَّ من أحد مقامين: مقامِ نعمة، أو مقامَ بليَّة. فحاله عن مقام النعمة الشكر، وحاله عن مقام البلية الصبر. ثم ليس

يفقد أحد مشاهدتين: شهودِ نعمة، أو شهودِ منعم. من حيث لا يخلو من وجودِ مالك وحضورِ مملوك. فعليه الخدمة للموجود، وعليه الحضور فى خدمة المعبود. والمراقبة علامةُ الحضور، والمحاسبة دليلُ المراقبة.

ويكون له أيضًا فى أدنى أوقاته، وهو الوقت الثالث الذى هو لمباحه، وهو أدنى أحوال المؤمن، يكون له فيه مشاهدة مُنعم، أو شُهود نِعمة، لئلا يذهب وقته هذا أيضًا فارغًا من دنياه، ولا يعود عليه شىء من ذكر مولاه، أو يذكر نعمةً تدلّه على منعم أو تخرجه إليه، فينفعه ذلك فى عقباه، إذ العاقبة للمتقين.

فإن شَهد مُنعمًا اقتطعه الحياء بالسّكينة والوقار للهيبة، وهذا مخصوص بخصوص. وإن شَهِد نعمةً استغرقه بالشكر والاعتبار، فكان لديه تبصرة وتذكار؛ وهذا لعموم الخصوص، قال الله عزّ وجلّ فى وصف الأوّلين: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَىْء خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوا إلى الله﴾ [الذاريات: ٤٩ ـ ٥٠]. وقال فى المقام الثانى: ﴿وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ الله إلهًا آخرَ﴾ [الذاريات: ٥١]. وقال فى مقام الأوّلين: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْء وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]. وقال فى وصف الآخرين: ﴿قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فيهَا﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ أفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٥].

وقد روينا فى الأثر من صفات العاقل وحال المراقب وحشو الأوقات بما ينبغى أن تملأ به جملُ ما ذكرناه من حديث أبى ذر الطويل: «ولا يكون المؤمن ظاعنًا إلا فى ثلاث: تزوُّد لمعاد، أو مرمَّة لمعاش، أو لذة فى غير محرم». وبمعناه: وعلى العاقل أن يكون له أربع ساعات: ساعة يناجى فيها ربه عزّ وجلّ، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفكِّر فى صُنع الله عزّ وجلّ. وساعة يخلو فيها للمَطعَم والمشرب؛ فإن فى هذه الساعة عونًا له على الساعات. وفيه أيضًا ثلاث مجملات من صفة العاقل، ومن علامة العاقل: أن يكون مقبلاً على شانه، حافظًا للسانه، عارفًا بزمانه. وفى بعضها: مكرمًا لإخوانه.

فأمّا وقت المباح من الأوقات فالنوائب والحاجات تَطْرُقه به، والفاقات تدخله

عليه، فلا يتكلَّفه قبل وقته، فيشغله عن وقته.

ثم إنّ العبادَ في مشاهدة المُلْك على أربع مقامات: كلّ عبد يشهد الملك من مقامه بعين حاله.

فمنهم من ينظر إلى المُلْك بعين التبصرة والعبرة، فهؤلاء أولو الألباب، الذين كشف عن قلوبهم الحجاب، وهم أولو الأيدى والأبصار، الذين أقامهم مقام الاعتبار، وهذا مقام العلماء الذين هم ورثة الأنبياء.

ومنهم من ينظر إلى المُلْك وأهله بعين الرحمة والحكمة، وهذا مقام الخائفين.

ومنهم من ينظر إلى المُلْك وأهله بعين المقت والبغضة، وهذا مقام الزاهدين.

ومنهم من ينظر إلى المُلك بعين الشهوة والغبطة، وهذا مقام الهالكين، وهم أبناء الدنيا الذين لها يسعون، وعلى فوتها يتحسرون.

فإن أُعطى العبد النظر إلى المُلْك بعين العبرة والحكمة أدخله المَلكُ على المُلْك، فاستغنى به عمّا سواه. وإن أُعطى الخائف النظر إلى المُلك بعين الرحمة اغتبط بمقامه، وعظُمَت لربه تعالى عليه النعمةُ. وإن أُعطى الزاهد النظر إلى المُلك بعين البغضة أخرجه المَلكُ عن المُلْك بالزهد فيه، فعوّضه من فوت المُلْك الصغير دَرْكَ المُلكِ الكبير. ومَنِ ابتُلى بالنظر إلى المُلك بعين الغبطة والحسرة أوقعه المَلِكُ فى الهلَكة، فسلك طريق المهالك.

ومن شاهد معنى خُلُق من أخلاق الذوات، أو معنى وصف من الصفات، كان مقتضاه ما يوجب الخلق أو الوصف من شهود نعيم أو عذاب، وهو مقام له فى التعريف يرفعه إلى مقام التعرف. وهذه شهادة العارفين من كل ما شهدوه من الأفعال التى تدل على معانى الأخلاق والأوصاف؛ لأنّه أظهرها عنه، ليُستَدَل عليه بها، ويُنظَر إليه منها.

فأمّا من شَهِد شهوةً من شهوات النفس بعين الهوى أخرجته إلى الأهواء، فتخطفه الشياطين ، وهوت به الريحُ فى مكان سحيق ، وتنكَّب طريقَ المسالك إلى المولى، التى تخرجه إلى القريب، وتقعده عند الحبيب فى مَقعدِ صِدْق عند مليك مُقتدر.

فمن فاته القربُ وقع فى التيه والبُعد، فهو اليائس المغبون، الخائن المفتون، الذى يكون أبدًا يومه شرًا من أمسه، وغده شرًا من يومه. فالموت خيرٌ له من حياته؛ لأن حياتَه عن الحبيب تبعده، وبقاءه عن السبيل يصدّه، ووَجْدَهُ لهواه يفقده، وظهورَ نفسه عليه من السّوابق يُقعده؛ لأنه إذا كان فى إدبار، وكان إدباره فى إقبال، فقد فاته عمره عن آخره، كفوت وقت واحد، وفوت شىء واحد؛ لأن العمر ليس مما يتأتى فوته دفعة واحدة كشىء واحد، لأنه ينشأ وقتًا بعد وقت، وإنّما يفوت جزءًا جزءًا على حكمة من الله عزّ وجلّ، وتمهُّل واستدراج منه، وقتًا بعد وقت، ويومًا بعد يوم، يستدرجه فى ذلك كما يصعد الدّارج فى الدَّرَج مرقاة مرقاة. كذلك يشغله فى وقتٍ عنه، ويفرّغه وقتًا آخر لغيره، ويذكِّره فى وقت سواه، ويُنسيه وقتًا آخر إياه، فشغلُه حينئذ كفراغه، وذكره يومئذ كنسيانه. وعلى هذا سائرُ أوقاته، تارةً يقطعه عنه، وتارةً يصله بغيره، حتى تفنى الأيام بالفوت، وتنقضى الأوقات إلى الموت. وفى ذلك يُسبل عليه الستر ليغترّ، ويسبغ عليه النعم كيلا يعلم، ويديم له العوَافى لئلا يفطن، ويبسط له الأمل ليزداد من سوء العمل، ويقبض عنه الأجل ليقبض منه الوَجَل، وينشر له الرجاء، ويطوى عنه الخوف، حتى يبغتهم فجأة من حيث أمّنهم، ويأخذهم بغتة فى حال غمْرتهم، كما قال: ﴿**وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**﴾ [النمل: ٥٠].

ومن معنى ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ أى: لما تركوا ما وُعظوا به وخُوِّفوا أسبغنا عليهم النعم، وأنسيناهم الشكر، فترادفت منهم الذنوب، وأنسيناهم الاستغفار، ثم قال: ﴿**حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا**﴾ أى: سكنوا إلى ذلك واطمأنوا، ولم يريدوا التحويل عنه ولا الاستعتاب منه ﴿**أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً**﴾ أى: فجأة فى حين أمنهم. وقيل: بغتة بعد أربعين سنة، ﴿**فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ**﴾ [الأنعام: ٤٤] متحيرون باهتون آيسون من كل خير.

واعلم أن العبد إذا كان بعد ساعة شرًا منه قبلها، وبعد يوم شرًا منه قبله، ثم

لم يُستعتب ولم يُتدارَك، كانت أوقاته كلّها وأيامه كيومٍ واحدٍ فى الشر ووقتٍ سرمدٍ فى السوء، فكان كمن فات عمره كلّه كفَوْت وقتٍ واحد منه؛ لأنه على هذا الوصف يكون فوَّت العمر لتراخيه وقتًا بعد وقت، وينساه شيئًا بعد شيء، ولتربية العبد بأوقاته وقتًا بعد وقت، إلا أنها فى آخر الحساب ومجمله كيوم واحد إضاعة، فكان مَثَله كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]. وكمن كان حاله الغفلة عن الوعد والوعيد، فلما كُشف عنه الغطاء حار بصرُه وبُهت، واحتدَّ وبرق، لمعاينة ما كان عنه غَفَل، وحسرة على ما فيه فرَّط، لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢] قيل: محدد إلى أعمالك السيئة أو ثقتك. وقيل: حديد إلى لسان الميزان يتوقع النقص والرجحان، وكان كمن قال تعالى فى قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ الأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ [مريم:٣٩]، قيل: جاءهم الموت وهم مشغولون بأمور الدنيا. وقيل: كانوا متشاغلين فى شأن النساء، وبوصف من قيل له: ﴿وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِىُّ﴾ يعنى: أمانى الهوى ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [الحديد:١٤] أى: قَدِم الموت ولم تقدِّموا له شيئًا تقدمون به عليه، فمثلهم كمن وصفه بالإفلاس وأخبر عنه بالإياس فى قوله عزّ وجلّ: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور:٣٩].

وقد كان أبو محمد يقول: لا يبلغ العبد منازل الصدِّيقين حقيقةً من هذا الأمر حتى يكون فيه هذه الأربع: أداء الفرائض بالسّنة، وأكلُ الحلال بالورع، واجتنابُ النهى فى الظاهر والباطن، والصبرُ على ذلك إلى الممات.

وكان الحسن يقول: والله ما لعمل المؤمن انتهاء دون الموت. والله ما المؤمنُ الذى يعمل الشّهرَ والشهرين والسنة والسنتين، إنّما المؤمنُ المداومُ على أمر الله، الخائفُ من مكر الله. إنّما الإيمان شدةٌ فى لين، وعزمٌ فى يقين، واجتهادٌ فى صبر، وعلمٌ فى زهد.

وكان عمر رضى الله عنه إذا تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ

استَقَامُوا﴾ [الأحقاف:١٣] يقول: قد قالها الناس ثم رجعوا. فمن استقام على أمر الله في السر والعلانية، والعسر واليسر، لم يخف في الله لومة لائم.

وقال مرة: استقاموا والله لربهم، ولم يروغوا روغان الثعالب.

وقال بعض العلماء: مَنْ كان طلبُ الفضائل أهمَّ إليه من أداء الفرائض فهو مخدوع، ومَنْ شُغل بغيره عن نفسه فقد مُكر به.

وقال سفيان الثورى وغيره: إنّما حُرموا الوُصولَ بتضييع الأصول.

فأفضلُ شيءٍ للعبد معرفته بنفسه، ووقوفه على حدّه، وإحكامه لحاله التي أقيم فيها. وابتداؤه بالعمل بما افتُرض عليه، بعد اجتنابه ما نُهى عنه، بعلم لم يدبره فى جميع ذلك، وورَع يحجزه عن الهوى فى ذلك. ولا يشتغل بطلب فضل حتى يفرغ من فرض؛ لأن الفضل لا يصحّ إلا بعد حَوْز السّلامة، كما لا يخلص الربح للتاجر إلا بعد حصول رأس المال. فمن تعذرت عليه السلامة كان من الفضل أبعدَ، وإلى الاغترار أقربَ.

وقد تلتبس الفضائل بالفرائض لدقة معانيها، وخفىّ علومها، فيقدِّم العبدُ النفلَ وهو يحسب أنه الواجب. فمن ذلك أن أبا سعيد رافع بن المعلى كان قائمًا يصلى، فدعاه رسول الله ﷺ فلم يجبه، فظن أن وقوفه بين يدى الله عزّ وجلّ بالغيب أفضل له. فلما سلّم جاءه، فقال له رسول الله ﷺ: ما منعك أن تجيبنى حين دعوتك؟ فقال: كنت أصلى. فقال: ألم تسمع الله عزّ وجلّ يقول: ﴿اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]؟

فكان رسول الله ﷺ دعاه وهو فى الصلاة؛ ليفيده باطن العلم، أو لينظر مبلغ علمه كيف يعمل، وكان إجابته لرسول الله ﷺ أفضل له من صلاته؛ لأن صلاته نافلة له، فهو مطيع لله عزّ وجلّ فى الغيب باختياره، وإجابته لرسول الله ﷺ فريضة عليه، فهو مطيع لله تعالى فى الشهادة بإيجابه. ففَضْلُ استجابته لرسول الله ﷺ على صلاته لنفسه كفضل الفرض على النفل. وقد قال سبحانه: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا

يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ [الفتح: ١٠]. والله تعالى معه فى المكانين معًا، وهو عند الرسول عليه الصلاة والسلام على يقين. فعبادة الله عزّ وجلّ ههنا أبلغ فى مرضاته، وأثوبُ له فى آخرته.

وفى هذا الحديث دليل أن الخبر إذا ورد فى أمر كان على جملة عمومه وكلية ما تعلق به، حتى تخصّ السنة أو الإجماع بعض شأنه. ومن ذلك أن قول الله عزّ وجلّ: ﴿اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] أنّ ظاهره مقصور على الاستجابة للرسول ولله بالإيمان بالطاعة فى أوامر القرآن، لا الإجابة له فى التصويت خاصة فى الصلاة، وهذا هو الذى حمله أبو سعيد بن المعلى عليه، وتأوله من الآية فأشكل عليه.

ومثل هذا فعلُ عَمّار فى التيمم، لما نزلت آية الإباحة للتيمم فى صلاة الفجر وهُم فى سَفر، فقال عزّ وجلّ: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ [النساء: ٤٣]، ولم يكن يسمع من النبى ﷺ فى تخصيص بعض اليد شيئًا، قال: فتيممنا إلى المناكب، واستوعب جملة اليد، لعموم الخطاب، حتى أخبر النبى ﷺ بذلك، فأمرهم بالتيمم إلى المرفقين، وفى خبر: إلى الزندين، باختلاف الروايتين، فخص بعض اليد، فلذلك اختلف العلماء فى تبعيض اليد فى المسح.

وكذلك العمل فيما ورد مجملاً أن يُستعمل فى الجملة حتى تخصه السنة. فمن ذلك ما روى أن رجلين على عهد رسول الله ﷺ تآخيًا فى العبادة، فاعتزلا الناس، فقال أحدهما لصاحبه: هلم اليوم فلننفرد عن الناس، ونلزم الصمت فلا نكلم من يكلمنا، فإنه أبلغ فى عبادتنا. قال: فاعتزلا فى خلوة، وصمتا، فمر بهما رسول الله ﷺ، فسلم عليهما، فلم يردا عليه السلام. قال: فسمعناه يقول حين جاوزنا: هلك المعتمّقون المتنطّعون، فاعتذرا إلى رسول الله ﷺ، وتابا من ذلك إلى الله عزّ وجلّ.

ومثل ذلك ما روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يَعُسُّ ذاتَ ليلة،

فنظر إلى مصباح أبيض فى خَلَل بابٍ، فاطلع، فإذا قوم على شراب لهم، فلم يدر كيف يصنع، فدخل المسجد، فأخرج عبد الرحمن بن عوف فجاء به إلى الباب فنظر، وقال له: كيف ترى أن نعمل؟ فقال: أرى والله أنا قد أتينا ما نَهانا الله عنه، لأنّا تجسسنا على عورة فاطّلعنا عليها وقد سترها الله دوننا، وما كان لنا أن نكشف ستر الله عزّ وجلّ. فقال: ما أراك إلا قد صدقتَ، ما أنفذ عنك[1]، فانصرفا. وفى لفظ آخر أنه قال له: أرى أنَّا قد عصينا الله ورسوله، ونهانا رسول الله ﷺ عن التجسس، فقال: صدقت، فأخذ بيده وانصرف.

وروينا نحو هذا أن عمر رضى الله عنه كان يعسُّ ليلة مع ابن مسعود، فاطَّلع من خلل الباب، فإذا شيخ بين زِقٍّ خمر وقَيْنة تغنّيه، فتسوَّر عليه، وقال: ما أقبح بشيخ مثلك أن يكون على مثل هذه الحال. فقام إليه الرجل فقال: يا أمير المؤمنين، أنشدك الله إلا أنصفتنى حتى أتكلم. فقال له: قل. فقال: إن كنتُ قد عصيتُ الله عزّ وجلّ فى واحدة فقد عصيتَه أنت فى ثلاث. قال: وما هى؟ قال: قد تجسست وقد نهاك الله عزّ وجلّ عن ذلك. وتسوّرت وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ [البقرة:١٨٩]. ودخلت بغير إذن وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور:٢٧]. فقال عمر: صدقت، فهل أنت غافر لى ذلك، فقال: غفر الله لك، فخرج عمر وهو يبكى حتى علا نشيجه، وهو يقول: ويل لعمر إن لم يغفر الله له، تجد الرجل كان يتخفَّى بهذا عن ولده وجاره، فالآن يقول: رآنى أمير المؤمنين، ونحو ذلك.

وجاء فى الخبر: «إذا دُعى أحدُكم إلى طعامٍ، فإنْ كان مُفْطِرًا فليُجب، وإن كان صائمًا فليقل: إنى صائم». فأمره بإظهار عمله وهو يعلم أن الإخفاء أفضل، ولكن إظهار عمله من حيث لا يؤثر فى قلب أخيه وَجْدًا أفضل من إخفائه لنفسه مع تأثير ذلك فى قلب أخيه؛ لتفضيل المؤمن وحرمته على الأعمال، إذ الأعمال

(١) «ما أنفذ عنك» ليست فى (ك). والمعنى: لا أدع رأيك وأتجاوزه.

موقوفة على العامل، وإنما يُعطى الثواب على قدر العامل لا على قدر العمل، لتضعيف الجزاء لمن يشاء على غيرِه فى العمل الواحد. فدلّ ذلك أنّ المؤمنَ أفضل من العمل، فقيل له: ارفع التأثير والكراهة عن قلب أخيك بإظهار عملك، فهو خير لك من إخفاء العمل مع وَجْد أخيك عليك، لأنّ أخاك إذا دعاك إلى طعام صنعه لك، فلم تجبه ولم تعتذر إليه عذرًا بيّنًا يقبله منك ويعرفه، شقّ عليه إن كان صادقًا فى دعائك.

وبمعنى هذا من خفيٍّ الأعمال ما يُحكَى عن بعض السلف: أنه كان يكون[1] فى الجماعة، فيقرأ فى نفسه سرًا لئلا يطلع على أعماله أحد، فإذا مرّ بآيةٍ فيها سجدة سجدَ بين الملأ، فكنا نعرف بسجوده أنه يقرأ. فلعل فارغًا قليل الفقه يقول: إن هذا قد أظهر عمله، إذ فعل ما يدل عليه، فلو ترك السجود ليخفى عمله كان أفضل، لأنه قد أظهر ما أخفاه. فهذا يدل على جهله بالمعاملة. وقد سمعتُ بعضَ من يدَّعى العلم[2] يطعن على هذا بفعله، بمعنى ما ذكرناه من القول. وهكذا يكون علم المريدين القصيرى العلم[3].

وليس الأمر كما قدّره هذا المنكر لسجوده، بل القائل المنكر لفعله قليل الفقه بدقائق الإخلاص جاهل بطريقة العاملين من العارفين، والعامل الذى نقل عنه هذا الفعل فقيهٌ مُخْلص، وذلك لأنّه قد حاز الفضلين معًا، لأنه كان فاضلاً فيما أخفى، إذ ابتدأ عمله بالخفية، فلما جاء السجود الذى لا يكون إلا ظاهرًا لم يصلح أن يترك قربةً إلى الله عزّ وجلّ من أجل الناس، فكان يسجد كما أُمر به، ويقرأ كما نُدب إليه، فصار فاضلاً فى الحال الثانى، لأنه أظهر لأجل الله عزّ وجلّ كما أخفى لأجله، ولأنه ترك مراقبة الناس ولم يترك عمله لأجلهم. ولو كان الفضل فى ترك السجود لإخفاء العمل كان الأفضل لمن دُخل عليه فى منزله وهو يصلى أن يقعد لأجلهم.

---

(١) قوله: «كان يكون» أسلوب عربى فصيح عند القدماء.

(٢) فى (ط): «وقد سمعت بعض العلماء».

(٣) هذه الجملة ليست فى (ك).

وقد وردت السنة فى ذلك أن له أجرين: أجر السر، وأجر العلانية. كيف، وقد كانوا يعدون أن الرياء ترك العمل لأجل الناس، فأما العمل لأجلهم فشرْك. وقد قيل: لا تعمل للرياء، ولا تترك العمل للحياء. فالحياء من الخَلْق شرْك، كما أن الحياء من الخالِق إيمان. وأيضًا لو أنه أطاع العدوّ فى ترك العمل لأجل الناس أطاعه مرة أخرى فى العمل لأجلهم. ومَثَل هذا كَمَثَل من كان يصوم ويصلى يومه أجمع فى منزله، لا يعلم به مخلوق، فلو نوى الاعتكاف ليضمه إلى صومه خرج إلى المسجد فكان يصلِّى مقيمًا فيه، فظهر الناس على عمله، فلم يكن ليدع ما نواه من العكوف فى المسجد لأجل نظرهم إليه، ولم يضره ظهور عمله، لثباته على نيته، ولمزيد الاعتكاف، إذا كان عالمًا متمكنًا.

وأيضًا فإن الإمام المتمكِّن المقتدَى به لا يضره ظهور الناس على أعماله، إذا لم يقصد ذلك ولم يحب مَدْحهم، وربما كان له أجران فى ذلك لتنبيه الغافلين عن الذكر، وتشويق العاملين إلى البر. كيف وعند بعض العلماء أن سجود القرآن فرض، وأن على مَنْ سمع آية سجدة أو تلاها، وكان على غير وضوء، أن يسجد لها إذا توضأ.

ونحو هذه المعانى ما هو حال للعبد وأولى به من حال غيره، ما رواه أبو نصر التّمّار أن رجلاً جاء يودع بشرَ بن الحارث، وقال: قد عزمتُ على الحج، أفتأمرنى بشىء؟

فقال له بشر: كم أعددتَ للنفقة؟ قال: ألفى درهم.

قال: فأى شىء تبتغى بحجك! نزهة، أو اشتياقًا إلى البيت، أو ابتغاء مرضاة الله عزّ وجلّ؟ قال: ابتغاء مرضاة الله عزّ وجلّ.

قال: فإن أصبتَ رضا الله وأنت فى منزلك، وتنفق ألفى درهم، وتكون على يقين من مرضاة الله عزّ وجلّ، أتفعل ذلك؟ قال: نعم.

قال: اذهب فأعطها عشرة أنفس؛ مدين يقضى بها دَيْنَه، وفقير يَرُمُّ شَعَثَه، ومَعيل يحيى عياله، ومربِّى يتيم يُفرحه. وإن قوىَ قلبك أن تعطيها لواحد فافعل،

فإن إدخالَك السرور على قلب امرئ مسلم، وتغيث لهفان، وتكشف ضر محتاج، وتعين رجلاً ضعيفَ اليقين، أفضلُ من مائة حجة بعد حجّةِ الإسلام. قم فأخرجها كما أمرناك، وإلا فقل لنا ما فى قلبك. فقال: يا أبا نصر، سفرى أقوى فى قلبى.

فتبسَّم بِشرٌ، وأقبل عليه، وقال له: المالُ إذا جُمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس إلى أن تقضى به وطرًا تُسرع إليه، فظاهرت أعمال الصالحات، وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين. [فبكى الرجل][(١)].

وفى نحوه قيل لبشر أيضًا: إن فلانًا الغنى كثير الصوم والصلاة، فقال: المسكين ترك حاله ودخل فى حال غيره، إنما حال هذا إطعامُ الطعامِ للجياع، والإنفاق على المساكين، فهذا أفضلُ له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدّنيا ومنعه للفقراء.

وقد يكون اختفاءُ الأوجب من الفرائض والتباسُه بالفضائل محنة من الله عزّ وجلّ لعباده، وحكمة له فيهم، فيرتكبون التأويل للسَّعَة، ويتركون الضيق لخفائه عليهم، لينفذ فيهم العلم، ويجرى عليهم الحُكم، ويكون ذلك تأديبًا لهم، وتعريفًا ومزيدًا فى التسليم وتوفيقًا. وقد قال الله تعالى فيما عتب على نبيه ﷺ ووعظه وزجره فى قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ [عبس: ١ ـ ٣].

يقال: إن رسول الله ﷺ لم يغتمَّ فى عمره كغمِّه حين أنزل عليه سورة عبس، لأن فيها عتبًا شديدًا على مثله، لأنه الحبيب الرشيد، ومع ذلك لم يقصده فى الخطاب فيكون أيسر للعتاب، بل كشف ذلك للمؤمنين، ونبّه على فعله عباده المتقين؛ لأن معنى قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ أى: انظروا أيها المؤمنون، أو اعجبوا إلى الذى عبس وتولى أن جاءه الأعمى.

---

(١) ساقطة من (ط) وأثبتها من (ك).

ولذلك رُوى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بلغه أن بعض المنافقين يؤمُّ قومه فكان لا يقرأ بهم إلا بسورة عبس، فأرسل فضرب عنقه، يستدل بذلك على كفره، ليضع من شأنِ الرسول ﷺ بذلك عنده وعند قومه.

ومثله قوله عزَّ وجلَّ عاتبًا على رسوله ﷺ: ﴿عفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أذِنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٣]، ونحوه: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أزْوَاجِكَ﴾ [التحريم:١]، وبمعناه قوله عزّ وجلّ: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيه وَتَخْشَى النَّاسَ واللهُ أحَقُّ أنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب:٣٧]، حتى قالت عائشة رضى الله عنها: «لو كتم رسول الله ﷺ شيئًا من القرآن كتم هذه الآية».

ومن أعجب ما سمعتُ فى هذا المعنى ما حدثونا فى الإسرائيليات عن وهب ابن منبه اليمانى، أن سليمان بن داود عليهما السلام لما قبضه الله عزّ وجلّ خلّف رجالاً من ولده يعمرون بيت المقدس ويعظّمونه برهة من الدهر، حتى خلَفه بعدهم رجلٌ من ولد سليمان، فخالف طريقة آبائه، وترك شريعتهم، وتكبَّر فى الأرض وطغى، وقال: بنى جدى داود وأبى سليمان مسجدًا، فما لى لا أبنى مسجدًا مثل ما بنوا، وأدعو الناس إلى شريعتى كما دعوا؟ فبنى مسجدًا يضاهى به بيت المقدس، وادّعى على الله عزّ وجلّ أنه أمره بذلك، وصرف الناس إليه، وبذل لهم الأموال، وأخرب مسجد بيت المقدس وهجره، فدخل الناسُ فى دينه رغبةً ورهبةً.

قال: فابتعث الله إليه نبيًا من بعض أهل القرى، فقال: اركب أتانك هذه، وأتِ هؤلاء القوم أحفلَ ما يكونون، فنادِ فى مسجدهم ومَجمعهم بأعلى صوتك: يا مسجد الضّرار، إن الله عزّ وجلّ حلف باسمه: ليوحشنَّك من عُمَّارك، وليقتلنّ أهلك فيك، وليَشدَخنَّهم بخَشَبك وجَنْدلك، ولَتلَغَنَّ الكلابُ دماءهم وتأكلنَّ لحومهم فيك. ونادِ فى المدينة بأعلى صوتك بمثل ذلك، ولا تأكل ولا تشرب ولا تستظل ولا تنزل عن أتانك هذه حتى ترجع إلى قريتك التى خرجت منها.

قال: ففعل ذلك، فثار الناس إليه يضربونه بالخشب، ويشجونه بالحجارة، وهو

على أتانه لا ينزل عنها، فناله على ذلك أذى كثير وضرب عظيم، ثم كرّ راجعًا في آخر النهار يؤمّ قريته التى خرج منها، وقد أدّى الرسالة، وصبر على الضرب والبلاء لله عزّ وجلّ.

فلما كان ببعض الطريق، سمع به نبى آخر كان فى بعض القرى، استقبله وسلّم عليه، فقال: إنّك قد أدّيت رسالة ربك، وإنّك أمضيت أمره، وإنّك قد نَصَبْتَ ولقيت عناء من هؤلاء القوم؛ وأنت جائع عطشان، تسيل دماؤك على جسدك وثيابك، فاغْدُ معى إلى منزلى، فكُل واشرب واسترح واغسل جسدك وثيابك. فقال: إن الله عزّ وجلّ لما أرسلنى قد كان عهد إلىّ أن لا آكل ولا أشرب ولا أستظل حتى أرجع إلى أهلى. فقال له النبى عليه السلام: فإنّى من أهلك، لأننى نبى مثلك، وأخوك فى الدين، فلا أرى الله عزّ وجلّ عنَى بذلك إلا القوم الذين بعثك إليهم، لأنهم أعداؤه، فنهاك أن تأكل من طعامهم، وتستظل عندهم ولا أحسب حرّم عليك دخول منزلى ولا الأكل من طعامى، لأنى شريكك فى الأخوّة والنبوّة. قال: فصدّقه، وانصرف معه إلى منزله.

فلما وضع الطعام بين يديه، وأهوى ليأكل عن جوعٍ شديدٍ قد أضرّ به، أوحى الله عزّ وجلّ إلى ذلك النبى الذى دعاه إلى منزله: قل له: آثرت شهوتك وبطنك على أمرى، ألم أعهد إليك أن لا تنزل ولا تستظل ولا تأكل حتى ترجع إلى قريتك التى خرجت منها، ولولا أنك اجتهدت برأيك وقلت بمبلغ علمك لَعمَّكُما العقابُ، وأنت أقل عندى عذرًا منه[1]، لأنّى عهدتُ إليه، فآثر هواه وشهوته وترك عهدى.

فأخبره النبى عليه السلام بما أُمر، فوثب مذعورًا يجرُّ إزاره، وجعل يرحِّل أتانه ويعجّل ولا يعقل ما هو فيه، فركبها طاردًا لها على وجهه، لجوعه وعطشه، ودماؤه على ثيابه وجسده، لا ينثنى. فلما هبط مِن عقبة تحتها غيضة عارضه سَبُع فافترسه، وانتصب السبع مقعيًا على قارعة الطريق يزأر، يحرس أتانه ورَحْلَه، كلما أقبل إنسان زأر عليه الأسد حتى يطرده. فسمع بخبره ذاك النبى، فأقبل

(١) فى (ط): «وهو أقل عندى عذرًا منك» وكذلك فى (ك) ولكنها مصححة فى حاشيتها.

نحوه، فلما نظر إليه الأسد انصرف عنه، وخلّى بينه وبينه.

قال: فكفّنه ووَاراه، وانصرف برحله وأتانه إلى أهله، فقال: يا رب، عبدك هذا الذى بلّغ رسالتك، وأمضى أمرك، وقد كان أجهده البلاء، فخالف ما أردتَ فلم يعلم، فعاقبته بهذه العقوبة. فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: ليست هذه عقوبة، ولم أفعل ذلك لهوانه علىّ، ولكن هذه مغفرة ورحمة، إنّه خالف أمرى، وكان قد اقترب أجله، فكرهتُ له أن يلقانى على المخالفة، فألقاه بما يكره، فقيّضتُ له كلبًا من كلابى، فطهّره للقائى. فكان ذلك له عندى شهادة، ودرجة فوق نبوته.

فقال: سبحانك وبحمدك، أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين.

فالعالم عند العلماء: مَنْ عَلِمَ خيرَ الخيرين فسبق إليه قبل فوته، وعَلِمَ شرَّ الخيرين فأعرض عنه لئلا يشغله عن الأخير منهما. وعلم أيضًا خير الشرين، ففعله إذا اضطر إليه، وابتُلى به، وعلم شرّ الشرين فأمْعَن[1] فى الهرب منه، واحتجب بحجابين عنه.

وفى هذه المعانى دقائقُ العلوم، وغرائبُ الفهوم، وأدلةٌ للسائلين، وعبرةٌ وآيات للعالمين. فأما شرّ الشرين، ومعرفةُ الخير من الشر، فهو معروف بأدلة العقول، وظواهر العلوم[2].

***

(١) أمعن فى الهرب: اشتد وتباعد.

(٢) رحم الله أبا طالب، كان كلامه فى الفصول الماضية متصلاً كسلاسل الذهب، فهو يتكلم بحاله لا بلسانه، وبقلبه لا بعقله، فهى فتوحات من العليم الوهّاب.

الفصل السابع والعشرون

فيه كتاب أساس المريدين

قال بعض العلماء: الخلق محجوبون بثلاث: حب الدرهم، وطلب الرياسة، وطاعة النساء. وقال بعض العارفين: الذى قطع العبادَ عن الله عزّ وجلّ ثلاثةُ أشياء: قلة الصدق فى الإرادة، والجهل بالطريق، ونطق علماء السوء بالهوى. وقال بعض علمائنا: إذا كان المطلوب محجوبًا، والدليل مفقودًا، والاختلاف موجودًا، لم ينكشف الحق، وإذا لم ينكشف الحق تحيَّر المريد.

واعلم أن المريد لا بدّ له من خصال سبع: الصدق فى الإرادة؛ وعلامته إعداد العدَّة. ولا بدّ له من التسبب إلى الطاعة؛ وعلامة ذلك هجر قرناء السوء. ولا بدّ له من المعرفة بحال نفسه؛ وعلامةُ ذلك استكشاف آفات النفس. ولا بدّ له من مجالسة عالم بالله؛ وعلامة ذلك إيثاره على ما سواه. ولا بد له من توبة نصوح؛ فبذلك يجد حلاوة الطاعة، ويثبت على المداومة، وعلامة التوبة: قطع أسباب الهوى، والزهد فيما كانت النفس راغبة فيه. ولا بدّ له من طعمة حلال لا يذمّها العلم، وعلامة ذلك الحلال المطالبة عنه، وحلول العلم فيه يكون بسبب مباح وافق فيه حكم الشرع. ولا بدّ له من قرين صالح يؤازره على ذلك؛ وعلامة القرين الصالح معاونته على البر والتقوى ونهيه إياه عن الإثم والعدوان.

فهذه الخصال السبع قوت الإرادة، لا قوامِ لها إلا بها. ويستعين على هذه السّبع بأربع هنّ أساس بنيانه، وبها قوة أركانه: أوّلها الجوع؛ ثم السهر؛ ثم الصمت؛ ثم الخَلْوة. فهذه الأربع سجن النفس وضيقها، وضرب النفس وتقييدها، بهن يضعف صفاتها، وعليهن تحسن معاملاتها. ولكل واحدة من الأربع صنعة حسنة فى القلب.

فأما الجوع: فإنه ينقص من دم القلب فيبيضّ، وفى بياضه نوره، ويذيب شحم

الفؤاد، وفى ذوبه رقته، ورقته مفتاح كل خير؛ لأن فى القسوة مفتاحَ كلِّ شرٍّ. وإذا نقص دم القلب ضاق مسلك العدوّ منه؛ لأن دم القلب مكانه. فإذا رقّ القلبُ ضعُف سلطان العدوّ منه؛ لأن فى غلظ القلب سلطانه.

والفلاسفة يقولون: إن النفس كلية الدم. وحجتهم فى ذلك أن الإنسان إذا مات لم يفقد من جسمه إلا دمه مع روحه. والعلماء منهم قالوا: الدم هو مكان النفس. وهذا هو الصحيح؛ لأنه مواطئ لما فى التوراة، سمعتُ أن فى التوراة مكتوبًا: يا موسى لا تأكل العروق فإنها مأوى كل نفس. وهذا مصدّق للحديث الذى رُوى: «إن الشيطانَ يجرى من ابن آدمَ مجرى الدم، فضيّقُوا مجاريَه بالجُوع والعطش».

وقد عبّر علماءُ الكوفة عن الدم بالنفس، فقالوا: إذا مات فى الماء من الهوام ما ليس له نفس سائلة لم يَنْجَسْ. يعنون الخنافسَ والصراصر والعناكب.

ففى الجوع نقصانُ الدم، ونقصانه ضيق مسلك العدوّ، وضعف مسكن النفس، لسقوط مكانها. وفى خبر عن عيسى عليه السلام: «يا معشر الحواريين، جوّعوا بطونكم، وعطّشوا أكبادكم، وأعروا أجسادكم، لعل قلوبكُم ترى الله عزّ وجلّ». يعنى بحقيقة الزهد، وصفاءِ القلب.

فالجوع مفتاحُ الزهد وبابُ الآخرة، وفيه ذلُّ النفس واستكانتها وضعفها وانكسارها، وفى ذلك حياة القلب وصلاحه. وأقل ما فى الجوع إيثارُ الصمت، وفى الصمت السّلامة، وهى غاية للعقلاء.

وقال سهل رحمه الله: اجتمع الخيرُ كلّه فى هذه الأربع خصال، وبها صار الأبدالُ أبدالاً: إخماصُ البطون، والصمت، والسّهر، والاعتزال عن الناس. وقال: من لم يصبر على الجوع والضّر لم يتحقق بهذا الأمر.

وكان عبد الواحد بن زيد يحلف بالله ما تحوّل الصدِّيقون صديقين إلا بالجوع والسّهر. فإنه ينير القلبَ ويجلوه، وفى استنارته معاينةُ الغيب، وفى جلائه صفاءُ اليقين. فتدخل الاستنارة والجلاء على البياض والرّقّة، فيصير القلب كأنه كوكب

دريٌّ في مرآة مجلوَّة، ويشهد الغيبَ بالغيب؛ فيزهد فى الفانى لما عاين من الباقى، وتقل رغبته فى عاجل حظوظ هواه لما أبصر من وبال العقاب، ويرغب فى الطاعات لمشاهدة الآخرة ورفيع الدرجات، فيصير الآجلُ عاجلاً، ويكون العاجل غائبًا، ويصير الغائبُ حاضرًا، والحاضرُ آفلاً، يطلبه ويرغب فيه فلا يحب الآفل ولا يبتغيه، ويطلب الآجل ويرغب فيه، وينكشف له عوار الدار، ويظهر له بواطن الأسرار، ويزول عنه كامن الاغترار. فهناك صار العبد مؤمنًا حقًا، بوصف حارثة الأنصارى، إذ يقول: عزفت نفسى عن الدنيا، وكأنى أنظر إلى عرش ربى تعالى بارزًا، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون، وإلى أهل النار يتعادون.

وكذلك وصف رسول الله ﷺ قلبَ المؤمن فى قوله: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن». وانجرادُ القلب بالزهد فى الدنيا وتجرده من الهوى، وسراجه الذى يزهر فيه هو نور اليقين، به يبصر الغيب.

وقال بعض علمائنا: من سهر أربعين ليلة خالصًا كُوشف بملكوت السماء. وكان يقول: اجتمع الخير كله فى أربع، ذكر منها سهر الليل.

واعلم أن نوم العلماء عن غلبة المنام بعد طول السهر بالقيام مكاشفة لهم وشهود، وتقريب لهم منه وورود.

ومن صفة الأبدال: أن يكون أكلهم فاقة، ونومهم غلبة، وكلامهم ضرورة. ومَنْ سَهِرَ بالليل لأجل الحبيب لم يخالفه بالنهار، فإنّه أسهره بالليل فى خدمته.

ودخل الحسن ذات يوم إلى السوق، فسمع لغطهم وكثرة كلامهم، فقال: أظنّ ليل هؤلاء ليل سوء، ما يقيلون.

وفى الخبر: «قيلوا، فإن الشياطين لا تقيل، واستعينوا على قيام الليل بقائلة النهار». وقد قيل فى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] قيل: بالصوم على قيام الليل. وقيل: استعينوا بالجوع وصلاة الليل على مجاهدة النفس. وقيل: استعينوا بالصبر والصلاة على اجتناب النهى.

وأما الصمتُ: فإنه يُلقح العقلَ، ويُعلِّم الورع، ويَجلب التقوى، ويجعل الله

عزّ وجلّ به للعبد بالتأويل الصحيح والعلمِ الرجيح مخرجًا، ويوفقه بإيثار الصّمت للقول السديد والعمل الرشيد.

وقد قال بعض السلف: تعلمتُ الصمت بحصاة جعلتها فى فمى ثلاثين سنة، كنتُ إذا هممتُ بالكلمة تلجلج بها لسانى، فأسكت. وقال بعضهم: جعلتُ على نفسى بكل كلمة أتكلمُ بها فيما لا يعنينى صلاةَ ركعتين، فسهل ذلك علىّ، فجعلتُ على نفسى بكل كلمة صوم يوم، فسهل علىّ، فلم أنْتهِ حتى جعلتُ على نفسى بكل كلمة أن أتصدق بدرهم، فصعب ذلك فانتهيتُ.

وقال عقبة بن عامر: «يا رسول الله، فيم النجاة؟ قال: أمسكْ عليك لسانَك، ولْيَسعْكَ بيتُك، وابْكِ على خطيئتك».

وقال ﷺ فى الخبر الجامع المختصر: «مَنْ سرَّه أن يسلم فليلزم الصمت». وأوصى رسولُ الله ﷺ معاذًا بالصلاة والصيام وغير ذلك، ثم قال فى آخر وصيته: «ألاَ أدلك على ما هو أملك لك من ذلك كله؟ هذا، وأومأ بيده إلى لسانه. فقلت: يا رسول الله، وإنَّا لَمؤاخذون بما تتكلم به ألسنتنا؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكبُّ الناسَ على مناخرهم فى جهنم إلا حصائدُ ألسنتهم».

إنك ما سكتَّ فإنك سالم، فإذا تكلمتَ فإنما هو لك أو عليك.

وقال عبد الله بن سفيان عن أبيه قال: «قلت: يا رسول الله، أوصنى بشىء فى الإسلام لا أسأل عنه أحدًا بعدك. فقال: قل: ربى الله ثم استقم. قال: قلت: فما أتقى بعد ذلك؟ ـ وفى لفظ آخر: «فأخبرنى بأضر شىء علىّ» ـ فقال: هذا، وأومأ إلى لسانِه».

وفى الخبر: «لا يتقى العبدُ ربَّه تعالى حقَّ تقاته حتى يَخْزُنَ[١] من لسانِه».

وفى الحديث: «لا يصلح العبدُ حتى يستقيم قلبُه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه».

وقال ابن مسعود: ليس شىء أحقّ بطول سَجْن من لسان. وقال بعض السلف:

---

(١) خزن الشىء: أحرزه وجعله فى خزانة.

فتشتُ الورَعَ، فما وجدتُ فى شىء أقل منه فى اللسان.

وقال بعض العلماء: ما استقام لسانُ عبد إلا عرفتَ الصلاحَ فى سائر عمله، وما اختلف لسانه إلا عرفتَ الفسادَ فى سائر عمله.

وقال بعض الحكماء: إذا كثر العقل قلّ الكلام، وإذا قلّ العقل كثر الكلام.

وقال أحمد بن حنبل: علماءُ أهل الكلام زنادقة. وقال بعض هذه الطائفة: من تكلم فأحسن كثيرٌ، ولكن الشأنَ فيمن يُحسن أن يسكت.

وقال ذو النون المصرى: الخوف يقلق، والحياء يسكت.

وقال بعض العارفين: قد جُزِّئَ العلم على قسمين: نصفه سكوت، ونصفه أن تدرى أين تضعه.

وقال الضحاك بن مزاحم: أدركتهم وما يتعلمون إلا الصمت والورع، وهم اليوم يتعلمون الكلام.

وقال الحسن عن أنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «أربع لا يُصَبْنَ إلا بعُجب: الصمت؛ وهو أول العبادة، والتواضع، وذكر الله عزّ وجلّ، وقلة الشىء».

وقال حماد بن زيد: قلت لأيوب: العلم اليوم أكثر أو فيما مضى؟ فقال: يا بنى، الكلام اليوم أكثر، والعلم فيما مضى كان أكثر.

وقيل: كانوا ينتفعون بصمت العالم مثل ما ينتفعون بكلامه. وقد قيل: من لم ينتفع بسكوت المتكلم لم ينتفع بكلامه.

وقيل لبعض العلماء: فلان أعلم أم فلان؟ فقال: فلان أعلم، وفلان أكثر كلامًا، ففرق بين العلم والكلام.

وقيل لبعض علماء خراسان عند وفاته: دُلّنا على رجل نجلس إليه بعدك. فقال لهم: فلان. فذكر لهم رجلاً صموتًا متعبدًا، لا يُعرف بكثير علم. فقيل له: إنّ فلانًا ليس عنده من العلم ما يجيب عن كل ما نسأله عنه من العلم. فقال: قد علمتُ، ولكن عنده من الورع ما لا يتكلم بما لا يعلم.

وكان الأعمش يقول: من الكلام كلامٌ جوابُه السّكوت. وقال بعض السلف: الصمت زين العالم وستر الجاهل. وقال غيره: الصمت جوابه. وفى الخبر: «الصمتُ زين للعالم وشين الجاهل». وقال بعضهم: ليس شيء أشد على الشيطان من عالم حليم؛ إن تكلم تكلم بعِلم، وإن سكت سكت بحلم. يقول الشيطان: انظروا إليه، سكوته أشدّ علىّ من كلامه.

وقال بعض السلف: تعلّم الصمتَ كما تتعلّم الكلام، فإن يكن الكلام يهديك فإن الصمت يقيك. ولك فى الصمت خصلتان: تدفع به جهل من هو أجهل منك، وتعلم به علم من هو أعلم منك. وقال بعض العلماء: تعلَّم لا أدرى، ولا تتعلم أدرى، فإن قلتَ لا أدرى علَّموك حتى تدرى، وإن قلت أدرى سألوك حتى لا تدرى. وقد قال العلماء: إذا أخطأ العالِمُ قولَ أدرى أُصيبت مقاتله.

وقال عيسى عليه السلام: «الخيرُ كلّه فى ثلاثة: فى الصمت، والكلام، والنظر. فمن لم يكن صمته تفكرًا فهو فى سهو، ومن لم يكن كلامه ذكرًا فهو لغو، ومن لم يكن نظره عبرًا فهو لهو».

وقال بعضهم: يأتى على الناس زمان يكون أفضل أعمالهم النوم، وأفضل علومهم الصمت. يعنى لفساد الأعمال، ولاشتباه العلم. ويقول أيضًا مع ذلك: وأفضل أحوالهم الجوع؛ لانتشار الحرام وغموض الحلال.

وقال بعض العلماء: الصمت نوم العقل، والنطق يقظته، وكل يقظة تحتاج إلى نوم، وما صمت عاقل قط إلا اجتمع عقلُه وحضر لُبُّه. وفى وصية ابن عباس مجاهدًا: لا تتكلمنَّ فيما لا يعنيك فإنه أسلم ولا آمن عليك الخطأ، ولا تتكلّم فيما لا يعنيك حتى ترى له موضعًا، فرُبَّ متكلِّم فيما يعنيه قد وضعه فى غير موضعه فعَنَت. وقال بعض العلماء: يستبين ورعُ الرجلِ فى منطقه.

وفى الخبر: «مَنْ كثر كلامُه كثُر سقطه، ومن كثر سقطه مات قلبه».

ويقال: إذا قلّ الكلام كثر الصواب. وعن جماعة السلف: إن تسعةَ أعشار السلامة فى الصمت. ويقال: كل كلمة من هَزْل أو مزح أو لغو يُوقَف العبد عليها

خمس مواقف بتوبيخ وتقرير، أولها: أن يقال له: لم قلت كلمة كذا، أكانَت فيما يعنيك؟ والثانية: هل نفعتك إذ قلتها؟ والثالثة: هل ضرتك لو لم تقلها؟ والرابعة: ألاَ سكتَّ فربحتَ السلامةَ من عاقبتها؟ والخامسة: هلا جعلت مكانها قولَ سبحانَ الله والحمد لله، فغنمت ثوابها.

ويقال: ما من كلمة إلا ويُنشر لها ثلاثة دواوين: الديوان الأوّل لِمَ؟ والثانى كيف؟ والثالث لمن؟ فإن نجا من الثلاث وإلا طال وقوفه للحساب.

وقال الحسن: لسان المؤمن وراء قلبه، إذا أراد أن يتكلم تفكّر، فإن كان له تكلم وإن كان عليه أمسك، وقلب المنافق على طرف لسانه.

أى كل شىء خطر بقلبه تكلم به، ولا يتوقف، ولا ينثنى.

وفى الخبر: «من آفة العالم أن يكون الكلام أعجب إليه من الصمت». وفى الكلام تنميق وزيادة، وفى الصمت سلامة وغنم. وفى موعظة النبى ﷺ: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وأنفق الفضلَ من ماله، وأمسك الفضلَ من قوله».

والأخبار فى الصّمت وفى جميع ما ذكرناه من المعانى تكثر، ولم نقصد جمعها.

وأما الخَلْوة: فإنها تفرغ القلب من الخلق، وتجمع الهمَّ بأمر الخالق، وتقوِّى العزمَ على الثبات. إذ فى مخالطة الناس وهَن العزم، وشتات الهم، وضعف النية. والخلوة تقلّ الأفكارَ فى عاجل حظوظ النفس، لفقد مشاهدتها بالأبصار؛ لأنّ العينَ بابُ القلب، ومنها يدخل آفاته، وعندها توجد شهواته ولذاته. وقد قال بعض العلماء: من كثُرتْ لحظاتُه دامَتْ حسراته.

والخلوةُ تجلب أفكار الآخرة، وتجدد الاهتمام بها لما شهد به الإيقان، وتنسى ادّكار العباد، وتواصل ذكر المعبود.

والخلوةُ من أكبر العَوافى؛ وذلك أنه قد جاء فى الحديث: «سلوا اللهَ العافية، فما أُعطى عبد بعد اليقين أفضل من العافية». ثم قد رُوى فى الخبر: «العزلة عن

الناس عافية». فدخل ذلك فى معنى ما ندب إليه من السؤال، وفيما فضل بعد اليقين على جميع الأحوال.

ولا يكون المريدُ صادقًا حتى يجد فى الخلوة من اللذة والحلاوة والمزيد ما لا يجده فى الجماعة. ويجد فى السّر من النشاط والقوة ما لا يجده فى العلانية. ويكون أنسه فى الوحدة، ورَوحه فى الخلوة، وأحسن أعماله فى السر.

ومَثَلُ الخلوةِ فى الأحوال من المخالطة للناس مَثَلُ الخوفِ فى المقامات من المحبة. الخوفُ يصلح لجميع العابدين، والمحبة مزيد لأهلها المخصوصين، كذلك الخلوة والانفراد يصلح لجميع المريدين.

والأنس بالناس مزيد لأهله، خاصة من الأئمة العالمين، إلا أن الخلوة تحتاج إلى عقل آخر، والوحدة والانفراد يحتاجان إلى إيمان ثان. وقد روينا عن سفيان الثورى، وعن بِشر بن الحارث: إذا استوحشتَ من الوحدة، واستأنستَ بالخلق، لم آمن عليك الرياء.

وكان أبو محمد يقول: اجتمع الخيرُ كلّه فى هذه الخصال الأربع، وبها صار الأبدال أبدالاً: إخماص البطون، والصمت، واعتزال الخلق، وسهر الليل.

وحُدثتُ عن عبد العزيز عن سهل رحمه الله قال: مخالطةُ الوليِّ للناس ذلٌّ، وتفرّده عزٌّ، وقَلَّ ما رأيتُ وليًا لله عزّ وجلّ إلا منفردًا. وقال بعض العارفين: الأنس بالوحدة علامةُ وجود الطريق.

فمن علامةِ صدق الإرادة بعد صحةِ التوبة وقوةِ العزم على الاستقامة إيثارُ هذه الأربع التى ذكرناها على أضدادها، ووجودُ القلب عندها، وانشراحُ الصدر بها، وحسنُ الخلقِ معها؛ لأنّ ضَدّها هو أبواب الدنيا، ومفاتيح الغفلة، وطرقات الهوى.

ومن ذلك: فإن فى الشبع قسوة القلب وظلمته، وفى ذلك قوّة صفات النفس، وانتشار حظوظها. وفى قوّتها وبسطها ضعفُ الإيمان، وخمود أنواره. وفى ضعف النفس وخمودِ طبعها قوةُ الإيمان واتساعُ شعاعِ أنوار اليقين؛ وفى ذلك

قرب العبد من القريب، ومجالسته للحبيب.

والشبعُ مفتاح الرغبة فى الدنيا. وقال بعض الصحابة: أول بدعةٍ حدثت بعد رسول الله ﷺ الشبع، إذ القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم شهواتهم. وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ وأصحابه يجوعون من غير إعواز»، أى مختارين لذلك. وقال ابن عمر: ما شبعتُ منذ قُتل عثمان رضى الله عنه. وقال هذا فى زمن الحجاج.

وفى حديث أبى جحيفة، لما تجشّأ عند رسول الله ﷺ فقال له: «اكفف عنا جُشاءك؛ فإن أطولكم شبعًا فى الدنيا أكثركم جوعًا فى الآخرة». فقال: والله ما تمليتُ طعامًا من يومئذ إلى يومى هذا، وأرجو أن يعصمنى الله عزّ وجلّ فيما بقى.

ويستحب على هذا أن يكون جوعُ العبد فى الدنيا أكثرَ من شبعه، وهى علامة الأولياء. فمن كان له أكلةٌ بين جوعتين إلى منتهاهما، فجوعه حينئذ أكثر من شبعه. ومن كان له بعد جوعةٍ بالغة شبعةٌ متوسطة، فقد اعتدل؛ شبعه، وأكلُه، وجُوعه. ومن أكل فى يوم مرتين، أو أكل من غير جوع ثم شبع، فشبعه أكثر من جوعه، وهذا مكروه، وكل من أكل بعد الجوع، ورفع يدَه قبل الشبع، فجوعه أكثر من شبعه، وهذا أوسط الأحوال.

وقال هشام عن الحسن: والله لقد أدركتُ أقوامًا كانوا لا يشبعون، يأكل أحدُهم حتى إذا ردّ نفسه أمسك، ذائبًا ناحلاً مقبلاً على طيه، يعيش عمره كله ما طُوى له ثوب قط، ولا أمر أهله بصنعة طعام قط، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئًا قط.

وقال جعفر بن حيان عن الحسن: المؤمنُ لا يأكل فى كلِّ بطنه، ولا تزال وصيته تحت جنبه.

ورويناعن الثورى: خصلتان تقسّيان القلب: طول الشبع، وكثرة الكلام. ورويناعن مكحول: خصال ثلاثٌ يحبها الله عزّ وجلّ، وثلاث يبغضها الله عزّ وجلّ. فأما اللاتى يحبها: فقلة الأكل، وقلة النوم، وقلة الكلام. وأما اللاتى

يبغضها: فكثرة الأكل، وكثرة الكلام، وكثرةُ النوم.

فأما النوم: فإن فى مداومته طول الغفلة، وقلة العقل، ونقصان الفطنة، وسهوة القلب. وفى هذه الأشياء الفوت، وفى الفوت الحسرة بعد الموت.

وروينا عن النبى ﷺ قال: «قالت أم سليمان بن داود لابنها: يا بنى، لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم تترك العبد فقيرًا يوم القيامة».

وقيل: كان شبان يتعبدون فى بنى إسرائيل، فكانوا إذا حضر عشاؤهم قام فيهم عالمهم فقال: يا معشر المريدين، لا تأكلوا كثيرًا، فتشربوا كثيرًا، فترقدوا كثيرًا، فتخسروا كثيرًا.

وكان بعض السلف يقول: أدنى أحوال المؤمن: الأكل والنوم، وأفضل أحوال المنافق: الأكل والنوم. وقال بعض الناس لفيلسوف من الحكماء: صف لى شيئًا أستعمله حتى أكون أنام النهار. فقال: يا هذا ما أضعف عقلك! إن نصف عمرك نوم، والنوم من الموت، تريد أن تجعل ثلاثة أرباعه نومًا، وربعه حياة؟ قال: وكيف؟ قال: أنت إذا عشت أربعين سنة، فإنما هى عشرون سنة، أفتريد أن تجعلها عشر سنين؟

وأما كثرة الكلام: فإن فيه قلةَ الورع، وعدم التقوى، وطولَ الحساب، وكثرةَ المطالبين، وتعلق المظلومين، وكثرةَ الأشهاد من الأملاك الكاتبين، ودوام الإعراض من الملك الكريم؛ لأن الكلام مفتاح كبائر اللسان، فيه الكَذِب، والغيبة، والنّميمة، والبُهتان، وفيه شهادة الزور، وفيه قذف المحصن، والافتراء على الله تعالى والإيمان، وفيه القول فيما لا يعنى، والخوض فيما لا ينفع. وقد جاء فى الخبر: «أكثر خطايا ابن آدم فى لسانه، وأكثر الناس ذنوبًا يوم القيامة أكثرهم خوضًا فيما لا يعنيه».

وفى اللسان: التزيُّن، والتصنُّع للخلق، والتحريف، والإحالة لمعانى الصدق. وفيه المداهنة، والمواراة، والتملّق لأهل الأهواء.

وفى اجتماع هذا على العبد شتات قلبه، وفى شتاته تفريق همِّه، وفى تفريق

همه سقوطه من مقام المقربين. وفى وصية ابن عباس لمجاهد: لا تمارينّ حليمًا ولا سفيهًا، فإن الحليم يَقْليك، وإن السفيه يؤذيك.

وفى الخبر: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يُلْقى لها بالاً يهوى بها أبعد ما بين السماء والأرض». وفى لفظ آخر: «ليتكلم بها فيهوى فى جهنم سبعين خريفًا».

وقال لقمان لابنه: لأن تعيش أخرس، يسيل لعابك على صدرك، خير لك من أن تنطق فى نادى القوم بما لا يعنيك.

وفى خبر: «من افتتح بكلمة سوء، ثم خاض الناس فى مثلها، كان عليه مثل أوزارهم». وفى الخبر: «لا يأتى بخبر السوء إلا رجل السوء». وحدثونا عن إبراهيم بن أدهم أنه كان إذا صحبه رجل، فجاء بخبر سوء فارقه.

وروينا فى الحديث: «من حدّث بما سمعت أذناه ورأت عيناه، كتبه الله تعالى من الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا».

وروينا عن على رضى الله عنه: مذيعُ الفاحشة فى الناس كفاعلها.

وفى الخبر: «إنّ بعض فقراء أهل الصفّة استُشهد فى سبيل الله عزّ وجلّ، فقالت أمه: هنيئًا لك فى الجنة، جاهدت فى سبيل الله، وهاجرت إلى رسول الله ﷺ، وقُتلت شهيدًا، طوبى لك الجنة. فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك أنه فى الجنة؟ فلعله كان يتكلم فيما لا ينفعه، أو يبخل بما لا يضره». وفى لفظ آخر: «لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه، ويبخل بما لا يغنيه».

وفى الخبر: إن بعض الصحابة قال لرجل: إنه لنؤوم. فقال رسول الله ﷺ: «اغتبتم أخاكم، سلوه أن يستغفر لكم». وفى خبر آخر: إنهم قالوا: ما أعجز فلانًا! فقال ﷺ: «أكلتموه».

وفى حديث عائشة رضى الله عنها: قالت لامرأة: ما أطول ذيلها، وفى لفظ آخر قالت: إنها لقصيرة. فقال رسول الله ﷺ: «اغتبتِها». وفى خبر آخر: إن رسول الله ﷺ قال لها: «لقد تكلمتِ بكلمة لو مُزج بها ماءُ البحر لامتزج». فهذا من وصف المبالغة فى الشدة.

وفى الخبر الجامع لهذه المعانى فى وصف الغيبة، ما روى عن رسول الله ﷺ: «من قال فى أخيه ما فيه فقد اغتابه».

وفى حديث أبان عن أنس عن رسول الله ﷺ أشد من ذلك أنه قال: «الغيبة ما إن قلت فى أخيك، لم تزكّه به». فهذا نهاية القول من الشدة، وغاية التشديد فى الغيبة.

والغيبة: اسم لغوى ، معناه شرعى ، مشتق من غَيْب الإنسان . وفسرها رسول الله ﷺ: أنها أن يقول العبد فى أخيه ما فيه. وعظّمها بقوله: «هى أشدّ من الزنا». فمتى قال العبد لأخيه فى غيبته ما يعلمه يقينًا فيه، مما لا يقوله بمحضره، أو مما ينقصه به، أو لا يزكّيه فيه، فقد اغتابه. فلو لم يكن فى الصّمت إلا السّلامة من الغيبة لكان ذلك غنيمة موفورة. كيف، وقد رُوى عن رسول الله ﷺ: «كلُّ كلام ابن آدم عليه لا له، إلا ثلاثة: أمرٌ بمعروف، أو نهىٌ عن منكر، أو ذكرُ الله عزّ وجلّ».

وأما مخالطةُ الناس فإنّها تضعف العزم الذى كان قويًا فى أعمال البر، وتحل العقد المبرم الذى استوطنه العبد فى الخلوة، لقلة المتعاونين على البر والتقوى، وكثرة المتعاونين على الإثم والعدوان. وفى مخالطة الناس قوّة الطلب، والحرص على عاجل الدنيا لما يعاين من إقبال أهلها عليه. وفيه الفتور عن الخدمة بالنظر إلى أهل الغفلة، والملل للطاعة بمجالسة أهل البطالة، ونقصان حلاوة المعاملة، وذهاب نور العلم، وسرعة خروج الوجد بالفهم لاستماع كلام أهل الجهالة، والنظر إلى الموتى من أبناء الدنيا. كما رُوِى عن عيسى عليه السلام: «لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم. قيل: ومن الموتى؟ قال: المحبّون للدنيا الراغبون فيها».

وقد كان الحسن يقول فى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ٢٢] قال: الفقراء والأغنياء. كأنَّ الفقراء حيوا بذكر الله عزّ وجلّ، والأغنياء ماتوا على الدنيا.

وأعظم ما فى مخالطة الناس، ومجالسة أهل البطالة وذوى غفلتهم: ضعفُ

اليقين برؤيتهم. وأضر ما ابتُلى به العبد، وأعمله فى هلاكه، وأشدّه لحجبه وإبعاده: ضعفُ يقينه بما وُعد به بالغيب، وتُوعِّد عليه فى الشهادة. وهذا أخوف ما خافه رسول الله ﷺ على أمته، فيما روينا عنه أنه قال: «أخوف ما أخاف على أمتى ضعفُ اليقين»؛ وذلك أن ضعف اليقين هو أصل الرغبة فى الدنيا، والحرص على التكاثر منها، والتضرّع إلى أبنائها والطمع فيهم.

كما قال ابن مسعود: إنّ الرجل ليخرج من بيته ومعه دِينه، فيرجع إلى بيته وما معه من دينه شىء؛ يَلْقَى هذا فيقول: إنك لذيت وذيت، ويَلْقى هذا فيقول: أنت كيت وكيت، ولعله لا يُخلى منهم بشىء، ويرجع إلى بيته وقد أسخط الله عزّ وجلّ.

وقد قال بعض التابعين: إن العبد ليقعد فى الخلوة على خصال من الخير، فيخرج إلى الناس فيَحلُّون ما عَقَدَهُ عقدةً عقدةً، حتى يرجع، وقد انحلّت العُقَدُ كلّها.

وقوّة اليقينِ أصلُ كلّ عمل صالح؛ لأن فى قوّة يقينه سرعةَ منقلبه، وطولَ مثواه فى دار إقامته، وإيثارَ التقلل من الفانى وتقديمَه للباقى، وضعفَ حرصه، وقلةَ طلبه، وفَقْدَ طمعه، وفراغَهُ من الاشتغال بعاجله، وإقبالَه وشغلَه بما نُدب إليه من مستقره. وفى جميع ذلك إخلاصُه فى أعماله، وحقيقة زهده فى تصرف أحواله، وفى قصر أمله، وتحسين عمله. ألم تسمع إلى وصف من أخبر الله عزّ وجلّ عنه بالتكاثر الذى ألهاه، حتى زار برزخَه ومثواه، كيف تهدّده حتى يعلم يقينًا، وتوعّده إذا رأى آخرته عيانًا، فقال سبحانه: ﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ**﴾ [التكاثر: ١] أى شغلكم الجمع للمكاثرة حتى حللتم القبور. ثم قال: ﴿**كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ**﴾ [التكاثر: ٥] أى لشغلكم العمل الصالح للآخرة عن اللعب واللهو، الذى هو مقتضى الشك، إذ هو ضد اليقين. فاشتغلتم بالآخرة عن التكاثر من الدنيا، كما شغلكم التكاثر باللهو واللعب، لعدم علم اليقين، كما قال: ﴿**أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ**﴾ [السجدة: ١٢] بعد أن قال: ﴿**بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ**

يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان:٩]، ثم توعدهم على ذلك مرتين، وتهددهم بالسؤال عن النعيم الذى شغلهم وهو التكاثر فى فضول العاجل. وقيل: هو الجمع والمنع.

فاعلم أنّ الذى قطَع العبادَ عن التوبة، وعرّج بالتائبين عن الاستقامة، ثلاثةُ أشياء: الكسبُ، والإنفاقُ، والجمع. وهذه الأسباب متعلقة بالخلق، وموجودة بوجودهم، ومفقودة بالانفراد عنهم، فمن زهد فى هذه الثلاثة فقد زهد فى الخلق، ومن رغب فى الخلق فقد رغب فى هذه الثلاث.

وقال الثورى: من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راياهم، ومن راياهم وقع فيما وقعوا، فهلك كما هلكوا.

وقد قال بعض هذه الطائفة من الصّالحين: قلتُ لبعض الأبدال المنقطعين عن الخلق: كيف الطريق إلى التحقيق؟ وقال مرة: قلتُ له: دلنى على عمل أعمله أجد فيه قلبى مع الله تعالى، فى كل وقت مع الدوام. فقال: لا تنظر إلى الخلق، فإنّ النظرَ إليهم ظلمة. قلت: لا بدّ لى من ذلك. قال: فلا تسمع كلامهم، فإنّ كلامهم قسوة. قلت: لا بدّ لى من ذلك. [قال:] فلا تعاملهم، فإن معاملتَهُم وَحشة. قلت: أنا بين أظهرهم، لا بدّ من معاملتهم. قال: فلا تسكُن إليهم، فإن السكونَ إليهم هَلَكة. قلت: هذه العلّة. فقال: يا هذا، أتنظر إلى الغافلين، وتسمع كلامَ الجاهلين، وتعامل البطّالين، وتريد أن تجد قلبك مع الله عزّ وجلّ على الدوام؟ هذا ما لا يكون.

وقد جاء فى فضل العزلة والانفراد، وفى فضل الصمت، وفى جميع ما ذكرناه من الجوع والسهر، ومن مكابدة الليل، ما يكثر جمعه فيما نبهنا عليه، وأشرنا إليه، بلاغٌ وغُنيةٌ لمن أراد الآخرة، وسعى لها سعيها وهو مؤمن، ولمن أريد بالمعاملة والمتاجرة، ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

***

الفصل الثامن والعشرون

فيه كتاب مراقبة المقربين ومقامات الموقنين (١)

• ذكر المقام الأول من المراقبة:

العبدُ إذا قوى يقينه عَلِمَ عِلْمَ يقينٍ أنّ أوقاتَه هذه التى وُكل تربيته إليها، وجُعل سبب نمائه وحياته منها، هى مكررةٌ عليه فى البرزخ، ومردودة إليه يوم القيامة، ومعادة عليه فى الجنة، إن دخلها ليس يُجازَى هناك إلا بمقدار ما أعطى من المعاملة ههنا، ولا يُعْطَى ثَمَّ إلا بقدر ما وُفِّق ههنا، لا يُسأل إلا عن أوقاته، ولا يُحاسَب إلا بساعاته، ولا يُجازَى إلا عليها، ولا تُرَدُّ عليه أوقات غيره كما لا يُعاد هو فى صورة غيره، ولا يُعطَى جزاء سواه كما لم يُعامَل ههنا معاملة سواه، ولكن الله يُبْدئ ويعيد، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]، ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩] من تدبره، ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] أى تدبروا آياته، هل ترون جزاء هؤلاء لوصف هؤلاء، أم هل تجدون وصف هؤلاء له جزاء أولاء؟ ومثله قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء: ١٢٣] فنفى أمانيهم بليس، وأثبت حكمه بلكن، وهى مُضمرة فى الكلام، المعنى: لكن من يعمل سوءًا يُجْزَ به. وفسّره رسول الله ﷺ فقال: «المؤمن يُجزَى بسيئته فى الدنيا من المصائب والجوع والعُرى، والمنافق تبقى ذنوبه عليه حتى يُوفَّى يوم القيامة، كأنه حمار يُجازَى بها فى الآخرة».

---

(١) انظر فى المراقبة: إحياء علوم الدين: ٤/ ٣٩٣ وما بعدها، مدارج السالكين: ٢/ ٦٧ وما بعدها، عوارف المعارف، ص ٤٣٠ وما بعدها.

وكان الحسن يقول: عبادَ الله، اتقوا هذه الأماني، فإنّها أودية النَّوْكَى[(١)] يُحلّون فيها، والله ما أتى عبدٌ اللهَ بأمنيته[(٢)] خيرًا من دنياه ولا آخرته. وقال بعضُ العلماء: كلَّما قلَّ العقل كثرت الأماني.

وكتب بعضُ السلف إلى بعض إخوانه من أبناء الدنيا يعظه: أخبرني عن هذا الذي تَكْدَحُ فيه، وتحرص عليه من أمر الدنيا، هل بلغت فيه ما تريد، وأدركت ما تتمنَّى؟ فقال: لا والله. فقال: أرأيتك هذا الذي أنت حريص عليه لم تنل منه ما تريد، فكيف تنال من الآخرة وقد أعرضت عنها وصرفت عنها؟ فما أراك تضرب إلا في حديد بارد.

وقال بعضُ العلماء: من ظنّ أنه يدخل الجنة بغير عمل فهو متمنٍّ، ومن قال أدخلُها بعمل فهو متعنٍّ. وقال بعضهم: الأماني تُنقص العقل. وفي الخبر: «ليس الإيمان بالتحلّي ولا بالتمنِّي، ولكن ما وقَر في القلب وصدّقه العملُ».

ومن هذا قول الله عزّ وجلّ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]. وقال في ضده: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠]. وقال في معناه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ [التوبة: ١٦]. وكذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وقال في مثله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ثم قال: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، فأبطل حسبانهم، وأدحض حكمهم، ثم أحكم ما عنده بقوله: ﴿سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ [الجاثية: ٢١] أي هم كما كانوا في المحيا محسنين يعملون الصّالحات كانت لهم الحسنى في الممات، وكما كانوا في المحيا مفسدين يعملون السيئات كانت لهم السوأى والمكروهات.

---

(١) النوكى: الحمقى، مفرده: أنوَك.

(٢) في (ك): «بتمنّيه».

وقيل: كانت هذه الآية مبكاة للعابدين؛ لأنها محكمة غير متشابهة. وكذلك جميع ما ذكرناه من نظائرها هو من المحكم الذى هو أم الكتاب، غير منسوخ ولا متشابه. وهذه الآى من عزائم القرآن، وهو من أحسن ما أُنزل علينا من ربّنا، الذى أمر الله سبحانه وتعالى باتباعه، ووصف أهل الهدى وأولى الألباب باستماعه فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر:١٨] قيل: عزائمه ووعيده.

وقد قيل فى قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧] قيل: الرجاء الخائب بالاغترار والظن الكاذب. وقيل: عملوا أعمالاً ظنوا أنها حسنات فوجدوها عند المحاسبة سيئات. والصحيح ما صحّ بعد الحساب، والحق ما ثقل عند الميزان، كما قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الأعراف:٨] قيل: العلم والعمل. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الأعراف:٥٢]، ثم قال: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾ [الأعراف:٧]، ثم قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزمر:٤٨] قيل: كانوا يقدِّمون الذنب، ويؤخِّرون التوبة، ويسوِّفون بالمغفرة. وكانت هذه الآية محزنة للخائفين، ومخافة للعارفين. وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه أعدّ النار للكافرين، ثم أمر المؤمنين باتقائها، ثم وصف الكافرين فيها، وخوَّف عباده بها، فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١]. وقال سبحانه: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر:١٦].

ويقال: إنّ العبد يستحق النارَ بأول معصية عصى مولاه بها بعد المعرفة، ثم هو بعد ذلك فى المشيئة. وإنّ فى كل عبد خصلة كريهة يُخاف عليه منها.

وكان عبد الواحد بن زيد يقول: ما صحَّ خوف خائف قط ظنَّ أنه لا يدخل النار. وما صدق خوفُ من ظنّ أنه يدخل النار فظن أنه يخرج منها. أى أنّ حقيقةَ الخوف خشيةُ دخول النار، ثم الخلود فيها.

وقد روينا مثل ذلك عن الحسن وقد ذُكر له الرجل الذى يخرج من النار بعد ألف عام، فبكى ثم قال: يا ليتنى مثل ذلك الرجل.

وروى عن رسول الله ﷺ: «من قال إنّى فى الجنّة فهو فى النار. ومن قال: إنّى عالم فهو جاهل».

وروى عنه ﷺ: «من أراد أن يعلم كيف منزلته من الله تعالى فلينظر كيف منزلة الله فى قلبه، فإنّ اللهَ يُنزل العبدَ منه بحَسْب ما أنزله من نفسه».

• ذكر المقام الثانى من المراقبة:

ثم يعلم العبدُ يقينًا أن لكل عمل صالح نعيمًا فى الجنة، وروحًا فى البرزخ. ولكل عملٍ حسن ومعرفةٍ خالصة مقامًا فى الجنة، وقد قُسم جزء هناك لعطاء معاملة ههنا. وأن لكل عمل سيئ وجهل قبيح عذابًا فى الآخرة، وكَرْبًا فى البرزخ، ومقامًا من النار، قد قسم جزء هناك لعمل ههنا. ثم قد أخفى اللهُ ذلك الجزء من الخير والشر، وأظهر أعمالهما للحاكمين، وأبان لهما طريقين يجريان إلى دارين، حكمةً منه. ثم قدّم المعاملات من المعنيين، وأخّر المثوبات من النوعين، إحكامًا منه للأفعال، واستسعاءً للعبد بالأعمال، ابتلاءً منه لتُجزَى كلُّ نفس بما تسعى، مِنَّةً منه ورحمةً، وقدرةً منه ومحبةً، لا يسئل عما يفعل؛ لأنه مَلك قهّار عزيزٌ جبار، وهم يسئلون؛ لأنّهم عبيد مقهورون، وذُلُل مجبورون، ولا تُضرب له الأمثال؛ لأنه قد جاوز الاحتجاج والاعتدال، ولا يُسوَّى بالعبيد؛ لأنه قد فات التقدير والتحديد، فله الحجة البالغة، والقدرة النافذة فى كل شىء، ليس كمثله شىء فى جميع ذلك كله.

وقد أحكم الله تعالى ما ذكرناه فى توحيد نفسه بالمشيئة والأفعال، ونهيه عن الشركِ به وضرب الأمثال. وعجب ممن يسوِّى بينه وبين خلقه فى الأحكام، وجعل ذلك جحودَ النعمة وشركًا فى ملكه، وأخبر به عن المشركين وإضلالهم أتباعَهم بعد ضلالهم المبين، وإضلالهم بتسويتهم بينه وبين عباده فى الأحكام، فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَالله إِنْ كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ

نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العَالَمين * وَمَا أَضَلَّنَا إلاَّ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الشعراء: ٩٦ ـ ٩٩]. قيل: أُنزلت فى القدرية؛ لأنهم أضافوا الحول والقوّة فى الشر إلى الخلق، فسوّوا بينهم وبين الخالق. وقد قال الله تعالى: **﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾** [الصافات: ٩٦]، فأضاف الأعمال إلى أنه خلقها كخلقه إياهم، فهم المجرمون الذين أُنزلت فيهم هذه الآية، التى ذكر فيها القدرية فوُصفوا بإنكارهم، فى قوله تعالى: **﴿إنَّ الْمُجْرِمينَ فى ضَلال وَسُعُر * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فى النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَر * إنَّا كُلَّ شَيء خَلَقْنَاهُ بِقَدَر﴾** [القمر: ٤٧ ـ ٤٩]. هم المجرمون الذين أضلوا أتباعهم، وهم الغاوون الذين كُبكِبُوا فى النار مع أشياعهم.

وقد أحكم الله تعالى تفضيل ما ذكرناه آنفًا فى خمس آيات محكمات تَنْظِمُ جمل معانى ما ذكرناه، تركنا شرح ذلك وبسطه، خشيةَ الإطالة، لأنا لم نقصد الاحتجاج فى الاستدلال، من ذلك قوله تعالى: **﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْض فى الرِّزْق﴾** يعنى: فضَّل الموالى على العبيد **﴿فَمَا الَّذينَ فُضِّلُوا﴾** يعنى الموالى **﴿بِرادِّى رِزْقِهِم عَلَى ما مَلَكَتْ أيمانُهُم فَهُم فِيه سَواءٌ أَفَبِنِعْمَةِ الله يَجْحَدُونَ﴾** [النحل: ٧١].

والآية الثانية قوله تعالى: **﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فى مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فيهِ سَوَاءٌ﴾** [الروم: ٢٨] أى: فكذلك أنا لا شريك لى من عبيدى، فلا تجعلوا لى ما لم أجعل أحدًا لا خلقى ولا عبيدى عليكم، إذ لم أسوِّ بينكم وبين عبيدكم، فلا تشركوا عبيدى فى حكمى.

والثالثة قوله تعالى: **﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيء﴾** يعنى: الإنفاق **﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُو يُنفِقُ مِنْه﴾** [النحل: ٧٥] فجعلهما على وصفين، أحدهما: بخيل لم يقدره على الإنفاق، ثم ذمَّه بالبخل والعجز وهو الذى أعجزه ومنعه، وجعل الآخر جوادًا إذ قدره وأعطاه الإنفاق، ثم مدحه بالجود.

وقال فى الآية الرابعة: **﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلى**

شيء﴾ هو الحكمة والعلم، ثم قال: ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ﴾ ؟ [النحل:٧٦] فجعل له عبدين: أحدهما: سفيه جاهل أبكم عن الحكمة، ولم يقدره على علم، ولم يعطه استقامة، ثم ذمّه بوصفه ومقته لمنعه. وجعل الآخر آمرًا بالعدل عن أمره، مستقيمًا على صراطه المستقيم الذى هو عليه، وهو أقامه، كما قال: ﴿هذَا صِراطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر:٤١]، فهل يسلك أحد طريقه إلا به؟ وهل يجوز عبد على سبيله إلا بحوله؟ ثم مدحه بإعطائه إياه ووصفه بوصفه، ثم علَّم سبحانه أن للعقل فى هذا تشبيهًا وتمثيلاً بخلقه، وتجويزًا وتظليمًا من خالقه، على قياس العقول، أن من فعل بعبدين له مثل هذا، ثم مدح أحدهما وهو الذى أعطاه وأقدره، وذم الآخر وهو الذى منعه وأعجزه، أنه قد ظلمه، فحسم ذلك عزّ وجلّ بنهيه، وأحكم النهى عن التمثيل به.

وفى الآية الخامسة الفاصلة القاضية التى نهانا فيها أن نضرب له بنا الأمثال مثل ما أجرى علينا من الأفعال فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلاَ تَضْرِبُوا لله الأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٤]. فوكّد ذلك بتحقيق علمه وغاية جهلنا، ثم أيّد هذا بقوله سبحانه: ﴿لاَ يُسأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسأَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣] فسلّم الراسخون فى العلم الأحكام كلّها للحاكم، فسَلِمُوا من عذابه، وآمن المؤمنون بجميع الأقدار أنّها عدل وحكمة من حاكم عادل حكيم، فأمِنُوا من عقابه؛ لأنهم آمنوا بالمتشابه، وأعطاهم بفضله من فضله جزيلَ ثوابه، فهلك الزائغون بالأقاويل، تتبعًا للشبهات وابتغاءً للتأويل، فوقعوا فى الضلال، وهلكوا غدًا فى المآل.

وقد روى الضحاك عن ابن عباس تصديقَ ما ذكرناه، قُبيل قوله عزّ وجلّ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر:٤٤]. قال ابن عباس: طبق أسفل من طبق، سبع دركات على قَدْر أعمالهم، كذلك يقتسمون الدركات بقدر ما اجترموا، كما اقتسم أهلُ الجنة الدّرجات بالفضائل، ﴿لِكُلِّ بابٍ منهم جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ يعنى: نصيبًا معلومًا مفروضًا لكل طبقة سكان.

وقال بعضُ العلماء: تالله ما فى الجنة قصر ولا نهر ولا نعيم إلا عليه اسم

صاحبه مكتوب، واسم ذلك العمل الذى هو جزاؤه مكتوب. وكذلك جهنم ما فيها غلٌّ ولا قيد ولا شعْب ولا عَذاب إلا وعليه وصفُ ذلك العمل الذى هو جزاؤه، واسم صاحبه مكتوب. وقال: قد أدخلهم الجنةَ قبل أن يطيعوه، وأدخلهم النارَ قبل أن يعصوه.

وقال بعض العارفين أيضًا: الخَلْقُ أهونُ من أن يعصوه عزّ وجلّ بما لم يُرِد، واللهُ أعزُّ من أن يرضيه إلا ما أحبَّ، لكنه غَضِبَ على قومٍ فى العدَم، فلمّا أظهرهم استعملهم بأعمال أهل الغضب، ليُحلَّهم دارَ الغضب، ورضى عن قومٍ فى القِدَم، فلما أظهرهم استعملهم بأعمال أهل الرضا، ليُحلَّهم دار الرضا.

وقال بعضُ أهل المعرفة: أظهر الخلقَ فى العدمِ، وأوجدَهُم إياهم اقتدارًا، ثم أظهر لهم أعمالهم، وخيَّرهم الأعمال منه اختيارًا، فاختار كلُّ عبدٍ منهم عملاً بعينه، ثم طوى الأعمال فيهم، وطواهم فى الغيب، فلما أظهرهم الآن فى الوجود حجبهم بالعقول، وأجرى كلُّ عبدٍ منهم اختياره لنفسه، فبذلك وقعت الحجة عليهم إذا كشف لهم غدًا ما حجبه عنهم اليوم.

وحُدّثتُ عن بعضِ هذه الطائفة قال: كان قد بقى فى نفسى شىء من القدَر، وكنت أستكشفُه من العلماء فلا ينكشف، حتى قيّضَ اللهُ تعالى لى بعضَ الأبدال فاستكشفته إياه، فقال: ويحك ما تصنع بالاحتجاج، نحن يُكشَف لنا عن سِرِّ الملكوت، فننظر إلى الطاعات تنزل صورًا من السماء حتى تقع على جوارحِ قوم فتتحرك الجوارحُ بها، وننظر إلى المعاصى صُورًا مصوّرة تنزل من السّماء، فتقع على جوارحِ قومٍ فتتحرك بها. قال: فكشف عن قلبى القَدَر، وأوقع لى العلمَ بمشاهدة القُدْرة[1].

وكنتُ أنا مرةً خاطبتُ بعضَ إخواننا فى شىء من الاستطاعة مع الفعل، لا أنّها[2] قبله ولا بعده، فتكلمت فى ذلك بمذهبِ المثبتة من أهلِ الكلام، قبل أن ينكشف لى مُشاهدةُ علمِ اليقين، فرأيتُ فى النوم كأنّ قائلاً يقول: القدَر من

(١) فى (ك): «مشاهدة اليقين».

(٢) فى (ط): «لا أنه».

القُدْرة، والقُدرة صفة القادر، فيقع القدر على الحركة ولا يَتبيَّن، فتظهر الأفعالُ من الجوارح، أو قال: فتتحرك الجوارح بالأفعال وتَسْتَبين[1]، فكيف يُتكلم فى شيءٍ لا يتبيّن. فجعلتُ على نفسى أنّى لا أناظر أحدًا منهم بعد ذلك فى شيء من هذا الباب.

وقد حدّثونا عن بعض العابدين قال: صليتُ من السّحر ركعتين ثم غفوت بعدهما، فرأيت قصرًا عاليًا ذا شُرُف بِيض كأنها الكواكب، فاستحسنته، فقلت: لمن هذا القصر؟ فقيل لى: هذا ثواب هاتين الركعتين، ففرحتُ فجعلتُ أطوف حوله، فرأيت شُرفةً من رُكنه قد وقعت فشانه ذلك، فاغتممتُ، وقلت: لو كانت هذه الشّرفة فى أعلاه فى هذا الموضع لتمّ حُسْنُ هذا القصرِ، فإنّ ثَلْمَها قد شانه. فقال لى غلام هناك: قد كانت هذه الشّرفة فى مكانها من القصر، إلا أنك التفتَّ فى صلاتك فسقطت.

وحدثونا عن بعض الزهاد أنه كُوشف مقامه من الجنة، فرأى الحور العين، وقُلن: نحن أزواجك. فلما خرجتُ تعلقت بى الحور وقلن: ننشدك الله إلا ما حسَّنت أعمالك، فإنّك كلّما حسنتها ازددنا لك حسنًا، وازددت بنا نعيمًا.

وحدثونا عن رابعة العدوية رحمها الله تعالى قالت: سبَّحتُ ذاتَ ليلة تسبيحات من السَّحَر، ثم نِمْتُ، فرأيت شجرةً خَضِرةً نَضِرة لا توصف عِظَمًا وحسنًا، وإذا عليها ثلاثة أنواعٍ من الثّمر لا أعرفه من ثمار الدنيا، كثُدَى الأبكار؛ ثمرة بيضاء وثمرة حمراء وثمرة صفراء، فهنّ يلمعن كالأقمار والشموس فى خلال خضرة الشجر. قالت: فاستحسنتها، فقلت: لمن هذه؟ فقال لى قائل: هذه لك بتسبيحاتك آنفًا. قالت: فجعلتُ أطوف حولها فإذا تحتها ثمرة منتشرة على الأرض فى لون الذهب، فقلت: لو كانت هذه الثمرة مع هذه الثمار على هذه الشجرة لكان أحسن، فقال لى الشخص: قد كانت هناك، إلا أنك حين سبَّحت تفكَّرت هل اختمر العجين أم لا، فانتثرت هذه الثمرة.

فهذه عبرة لأولى الأبصار، ومواعظ لأهل التقوى والأذكار.

---

(١) فى (ط): «ولا تتبين».

• **ذكر المقام الثالث من المراقبة:**

رُوى أن كعب الأحبار قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه: لو لقيتَ الله تعالى بعمل سبعين نبيًا لخشيتَ أنك لا تنجو من هول ذلك اليوم.

وقال بعض السلف: لو أنّ العبد كان يُجَرُّ على وجهه من أول الدنيا إلى قيام الساعة فى طاعة الله وعبادته لاحتقره يوم القيامة، لِمَا يرى من الزلازل والأهوال.

وفى الحديث: «معالجةُ مَلَكِ الموت أشدّ من ألفِ ضربةٍ بالسيف. وإنّ ألَم شعرةٍ من الموت لو وُضع على جميعِ الخلائق لماتوا. وإنّ بين الخلائق وبين الموت وبين دخول الجنة مائةَ ألفِ هول، كلّ هول منها يزيد على ألم الموت مائة ألف ضعف، لا ينجو العبد من كل هول منها إلا برحمة الله».

فيحتاج العبدُ إلى مائة ألف رحمة تنجيه من تلك الأهوال، يكون ذلك العدد من الرحمة مقسومًا على مائة ألف حسنة أعطيها من حسناته فى الدنيا التى أحسن بها إليه، يكون مكانًا لظهور الرحمة، وطريقًا لعطائها غدًا، حكمةً من الحكيم، وقسْمًا مدبرًا من الرحيم، لأنّ الصالحات طرق الجزاء، والحسنات كلها عن الرحمة الواحدة التى سبقت له بها النجاة، ثم سقطت فى طرقات الأعمال أماكن الثواب[1]، فيعطى ذلك ههنا اليوم، وهو العطاء الأول، بحُسن تَوْفيقه ولطف عنايته، ويعطى الجزاء هناك غدًا بفضل رحمته وتمام نعمته، ذلك تقدير العزيز العليم، كما قال تعالى: ﴿**هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ**﴾ [الرحمن: ٦٠].

قيل فى الخبر: «ما جزاءُ من أنعمنا عليه بالتوحيد إلا الجنة».

وقال بعض العلماء: وليس لقول لا إله إلا الله جزاء إلا النظر لوجه الله تعالى.

والجنّةُ جزاء الأعمال. ألم تَرَ أنه لو حُرم التوحيد اليوم لَحُرِم الجنة، ولو مُنع الإسلام اليوم لم يغفر الله له أبدًا؟ كما قال عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ**

(١) فى (ك): «والحسنات أماكن الثواب».

حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢]. وقال: ﴿إِنَّ الذين كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ الله ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُم﴾ [محمد: ٣٤]، فهذا مما لا حيلة فيه ولا سبيل إليه، وقد قال: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وأَهْلُ المَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦]. قيل: هو أهل أن يعطى التقوى، ومن أعطاه التقوى فهو أهل أن يعطيه المغفرة، كقوله تعالى: ﴿وأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]. وقال: ﴿واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقال: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ الله قَرِيبٌ مِنَ المُحْسِنِين﴾ [الأعراف: ٥٦]. وقال سبحانه: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤]. وقال تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ المُحْسِنِين﴾ [البقرة: ٥٨] مع[1] قوله: ﴿ما على المُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣]. فمن كانت أعماله الحسنات فهو من المحسنين، ومن كانت أعماله سيئة فهو من المسيئين. فاشتقاقُ الحسنةِ من الحُسْن، وجزاؤها الحسنى، وهى الجنة. واشتقاقُ السيئةِ من السّوء، وجزاؤها السوأى، وهى النار. وقد سبق خلقهما قبل خلق الخلائق، وفرغ من نصيب العباد من الجنة والنار. وسئل رسولُ الله ﷺ عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه». فهذا أولُ المراقبة، لأنّها عن غير المشاهدة، ترى الرقيب ثم تراقب.

وقد خص الله تعالى بالطيّبات من الأعمال الطيّبين من العمال، وابتلى بالخبيثات من الأعمال الخبيثين من العمال، وفرغ من ذلك بعلمه، وقدّره بحُكمه، وأخفاه بلُطفه، فقال تعالى: ﴿الخَبِيثَاتُ للخَبِيثِينَ﴾، قيل: الخبيثات من الأفعال والأقوال للخبيثين من الرجال. وقال: ﴿والطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور: ٢٦]، قيل: الطّيبات من الأعمال والمقال للطيّبين من الرجال.

ثم أخبر بحسن خاتمة أوليائه وسوء خاتمة أعدائه، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الملائكةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]،

---

(١) فى المطبوعة: «إلى»، وهى خطأ والصواب من المخطوط.

قيل: طابت حياتُهم فطابت وفاتهم، وطابت أعمالهم فطاب الموت لهم.

وقال فى وصف الظالمين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِى أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُم قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]، أظلمتْ حياتهم وأعمالهم، فأظلمتْ قبورهم ومثواهم.

فمن شهد ما ذكرناه يقينًا دامت مراقبته، وحسنت معاملته، واتصلت أوراده، وكثر من الخير ازدياده، ونَفذت مشاهدته لصفاء يقينه ودوام مزيده، فكان ممن ندب الله عزّ وجلّ فى قوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]، ﴿وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، وكان ممن وصف إذ يقول: ﴿يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]، أى: يسارعون الموت ويسابقون الفوت، ويسارعون الغافلين ويسابقون البطالين. ولعل بطالاً من الشاطحين، جاهلاً بحكمة الحكيم، يتوهم علينا بظنه أنّا نقول: إنه لا يعطى إلا شيئًا بشىء. ولسنا نقول ذلك، إنما نقول: إنّه يعطى شيئين بلا شىء. فهو المعطى الأول للشىء الذى هو الظرف والمكان من العبادة والإيمان، وهو الذى يعطى الشىء الذى هو النعيم والجنان، إلا أنّه أجرى ذلك بتقديره فى مجارى حكمته، كما سبق ذلك فى علمه، ثم أنشأه فى معلومه، لأنّه حكيم عليم.

• ذكر المقام الرابع من مراقبة الموقنين:

ثم يعلم العبد يقينًا أنه تُنشر له سنوه فى الآخرة شهورًا، وتُبسط شهوره أيامًا، وتُفترش أيامه ساعات، وتُكشف ساعاته أنفاسًا، ثم يُسأل عن كل نفَس، ويُنشر له بكل فعلة فعلها وإن صغرت ثلاثة دواوين: الأول: لم فعلتَ؟ وهذا مكانُ الابتلاء بالأحكام، فإن سلم له نُشر له الديوان الثانى وهو: كيف فعلتَ؟ وهو موضعُ المطالبة بصحّة العلم، فإن صح له هذا نُشر عليه الديوان الثالث وهو: لمن فعلتَ؟ وهذا مكانُ المطالبة فى الإخلاص، فإن اعتل بكيف، أو بلم، أو بلمن، خيف عليه الهلكة، إلا أن يتعطف عليه الكريم المنّان من حيث لا يحتسب، فيستنقذه

ويسمح له، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ [الأنبياء:٤٧] أى: جئنا بها، أى أحضرناها. وقرئت بالمد «آتينا بها»[١] بمعنى: جازينا بها. وقال عزّ وجلّ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧، ٨]. وقيل: هذه أحكم آية فى كتاب الله عزّ وجلّ، وهى مجملة مبهمة عامة. وكان رسول الله ﷺ إذا سئل عن شىء لم يوح إليه فيه بشىء يقول: «ما عندى فيه إلا هذه الآية الجامعة الفاذة. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية».

ولما تعلم صعصعة جد الفرزدق من أسفل القرآن إلى هذه السورة، قال: حسبى حسبى قد عرفتُ الخيرَ والشرَّ، فقال رسول الله ﷺ: «انصرف الرجلُ فقيهًا».

وقيل: الذَرَّة قِشرة الهباءِ الذى يظهر فى شعاع الشمس مثل رءوس الإبر.

وروى عن ابن عباس أنه قال: إذا وضعتَ كفّك على التراب، ثم رفعتها، فكلُّ شىءٍ تعلق بها من التُّراب فهو ذرّة. وقد قيل: أربع ذرات خردلة. وذكر بعض العلماء أن الذرة جزء من ألفِ جزءٍ من شعيرة.

ففى الأعمالِ ما يزن هذا الشّبح، وما يثقل به هذا الخفاء، فلذلك أخبر به الخبيرُ، وحذّر منه الرءوف.

وفى معنى ما ذكرنا آنفًا مَنْ حَسِبَ أنّه يدخل الجنة بعمل فهو مُتعَنٍّ، ومن حسب أنه يدخلها بغير عملٍ فهو مُتَمَنٍّ. يعنى أنه ينبغى أن يعمل ما عليه، ولا ينظر إليه، ثم يتوكل فى ذلك على الله عزّ وجلّ، ويرجو قبوله بكرمه، ويخاف ردّه بعدله. ولذلك مدح الله سبحانه وتعالى عبادَه الصابرين له، المتوكلين فى أعمالهم عليه، فأنعم أجرهم فقال: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٨، ٥٩]. فالمزيد فى الجنة بفضل الله ورحمته هو تأبيد جزاء المعاملة الموهوبة اليوم، ودوام خلود العامل فى تأبيد جزائه. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى:٢٣]، مع قوله: ﴿لِلَّذِينَ

(١) هذه قراءة مجاهد، انظر: البحر المحيط ٦/٣١٦، المحتسب ٢/٦٣، معانى القرآن، للفراء، ٢/٢٠٥، إعراب القراءات السبع، لابن خالويه، ٢/٦٢.

أحْسَنُوا الحُسْنَى وزِيادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، ومثل قوله: ﴿فأُولَئكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ [سبأ: ٣٧]، ومثله: ﴿ولِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢]، ونحوه: ﴿أُولَئكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [القصص: ٥٤] أى: وبما يدرأون بالحسنة الحديثة السيئة القديمة. فلما استعملهم فى الدنيا بعملين: بالصبر، وبدرء السيئةِ الماضيةِ بالحسنة المستأنفة، أعطاهم فى الآخرة أجرين. وهذا من الكلام المحذوف الموجز، فمحذوفه: «وبما يدرأون» أى: وبما يدفعون أيضًا، فلما حُذفت «بما» أشكل الكلام، فأشبهت الواو واوَ النسقِ، ومؤخره السيئة، والمعنى: يدفعون السيئة التى تقدمت منهم بالحسنة التى يعملونها بعدها، فتكون الحسنةُ المستقبلةُ رافعةً لعقابِ السيئةِ الفارطةِ منهم.

ومن أحسن الصبرِ صبرٌ عن المعصية[١]، ومن أحسنِ الحسنات التوبةُ النصوحُ بعد ما سلف من الذنوب والفضوح. فكأنّهم قد عملوا عملين: صبروا عن الشهوة، ودفعوا بالتوبة ما سلف من السيئة، فأعطاهم أجرين لمّا استعملهم بعملين، إذ لا صبر إلا به، ولا توبة لهم إلا منه، كما قال تعالى: ﴿واصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلاَّ بِالله﴾ [النحل: ١٢٧]، [وقال: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾][٢] [التوبة: ١١٨]، وقال فى مثله: ﴿تَوْبَةً مِنَ الله﴾ [النساء: ٩٢]. وليس للعبدِ أوَّليَّةٌ فيما مَنَّ اللهُ، وإلا كانَ شريكًا بالاسمِ الأوّلِ[٣].

ومن أحسن الحسنات مراقبةُ الرقيبِ عند خطرات القلوب، ومن أفضل القربات محاسبةُ النفس للحسيب واستجابتها بطاعة الحبيب.

وكذلك حكمتُه فى مزيد أهل النار، ودركات بعضهم على بعض فى العتوّ والفساد، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ الله زِدْناهُمْ عَذَابًا فوقَ

(١) فى (ط): «الصبر على المصيبة» وأثبت ما فى (ك).
(٢) هذه الآية ساقطة من المطبوعة وهى فى الأصل المخطوط.
(٣) هذه الجملة كانت فى المطبوعة كما يلى: «وليس من العبد أو إليه فيما من الله وإلا كان مشركًا فى اسم أوّل». وأثبت ما فى (ك).

العَذَابِ﴾ [النحل:٨٨] أي: زدناهم عذابًا فوق عذاب الذين كفروا ولم يصدّوا عن سبيل الله. وبمعناه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ [النساء:١٦٨] فلم يغفر لهم بكفرهم، ولم ينوِّر لهم طريق الهداية بظلمهم. وكذلك قال رسول الله ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة».

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الذينَ فَتَنُوا المُؤْمِنينَ وَالمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠]، فصار عليهم عذابان: عذاب جهنم بما لم يتوبوا، وعذاب الحريق بما فتنوا المؤمنين.

ومثله قوله تعالى: ﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥] أي: يريد أن يعذبهم بها فى الدنيا، ويريد أيضًا أن تزهق أنفسهم على الكفر ليعذبهم بها فى الآخرة، وهذا نص صريح أنّ الله تعالى يريد الكفرَ من الكافرين[١]، لأنَّ «تزهق» انتصب بالعطف على «يريد» الأول، والواو فيه للجمع. وقد قيل[٢]: إن فى هذه الآية تقديمًا وتأخيرًا، فيكون المعنى: ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الدنيا، إنّما يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة، فأراد أن يجمع العذابين عليهم فى جهنم، أحدهما: الأموال والأولاد، والثاني: لإرادته تعالى أن تخرج نفوسهم على الكفر. فمن لا مال له ولا ولد له منهم كان عليه عذاب واحد فى جهنم، لأجل قوله تعالى: ﴿بها﴾ أى بسببها. وهذا مُواطئ للخبر الذى جاء أن «فقراء الكفار يدخلون النار بعد أغنيائهم بخمسمائة عام»؛ لأجل الفقر الذى كانوا فيه فى الدنيا، كما أن الفقراء من المؤمنين يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام؛ لأجل غنى أولئك.

وفى الخبر أيضًا: «وتدخل المَرْضَى إلى الجَنةِ قبل الأصحّاءِ بأربعين خريفًا. ويدخل المقتولُ فى سبيل الله مقبلاً قبل المقتولِ فى سبيل الله مدبرًا بأربعين خريفًا.

(١) انظر: تفسير القرطبى ٨/ ١٦٤.

(٢) هذا قول أكثر أهل العربية، كما فى تفسير القرطبى ٨/ ١٦٤.

وتدخل المماليك قبل الموالى بأربعين خريفًا. ويدخل سليمانُ بن داود الجنةَ بعدَ الأنبياء بأربعين خريفًا، لمكان ملكه».

فالحسرةُ العظمى والفوتُ الأكبرُ الذى لا دَرَك له هو تأبيد حرمان ما أُعطى غيرك من المزيد هناك، لفوت أوقاتك فى الدنيا ههنا، ثم درك ذلك بأوقاته العامرة ههنا تأبيد مزيد جزائه ثَمَّ. وهذا هو التغابن؛ غَبَنَ العاملون البطّالين، وغبن السّابقون المخلّفين، وغبن المسارعون المثبِّطين. ثم خلودُ العبدِ البطّالِ المغبون فى الدنيا فى تأبيد حرمان مزيد الغابن العامل. ومِن هذا قوله ﷺ: «ما من ساعةٍ تأتى على ابن آدمَ لا يذكر اللهَ تعالى فيها إلا كانت عليه حسرةً، وإن دَخَل الجنةَ». وفى لفظ آخر ـ وهو أشدّ ـ «إلا كانت عليه تِرَةً يوم القيامة» أى: مطالبة ومؤاخذة. فالحسرةُ فى الجنة بعد دخولها والظفرِ بنعيمها هو ما ذكرناه من حرمان مزيد العاملين فيها، ثم دوامُ الحرمان مؤبد بها، وهو كونُ العبدِ فى نقصان درجة غيره، ثم هو مخلّد فى النقصان سَرْمدًا. ومع ذلك فلا يُؤْبَه له، ولا يُفطن به، كيلا يُنغَّص عليه نعيمه.

والطرفةُ والنَّفَس إذا خلتا من اليقظةِ والذِّكْر فيهما بمنزلة السّاعة الخالية، إلا أن النبى ﷺ نصّ على السَّاعةِ ولم يذكر ما دونها، لأن اسمَ الساعة أقلُّ الزمانِ المستعمل عند العرب، ليواطئ بقوله ﷺ قولَ الله سبحانه وتعالى: ﴿**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٤]. ومعلوم أنه إذا جاء الأجلُ لا يستأخرون نَفَسًا ولا طَرْفةَ عينٍ، وكذلك لا يستقدمون طَرفة ولا نَفَسًا. فذُكرت الساعة دون ما نَقْص منها؛ لئلا يخرج الكلام عن حد استعمالهم وعُرْفِهم، وليُستدل بها على ما دونها فى القلّة من النَّفَس والطّرْفة.

وكذلك دلّ رسولُ الله ﷺ بنصّه على السَّاعَة على ما دونها لأنّ حكمته من حكمةِ مولاه، وكلامَه على معانى كلامه. وقد دخلت الساعةُ فما دونها فى الأيّام التى قال الله تعالى: ﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ**﴾ [الحاقة: ٢٤]. قيل: هى واللهِ أيامكم هذه، وستخلو، فاشغَلُوها بالأعمال الصّالحة

قبل خلوّها منكم وانقضائها عنكم.

وكان الحسنُ يقول: يا ابنَ آدمَ إنّما أنت مراحل، كلما مضى منك يومٌ أو ليلةٌ قطعت مرحلة، فإذا فنيت المراحلُ بلغتَ المنزلَ إلى الجنّة أو النار.

فالساعاتُ تنقلنا، والأيام تطوينا، كما قال بعضُ الحكماء: مَثَلُ العبدِ فى عمره مَثَلُ رجلٍ فى سفينة تسير وهو قاعد، كذلك العبد يدنو من الآخرة وهو غافل. ويقال: إنّ العبدَ تُعرض عليه ساعاته فى اليوم والليلة، فيراها خزائنَ مصفوفة أربعةً وعشرين خِزانةً، فيرى فى كل خِزانةٍ نعيمًا ولذَّة وعطاءً وجزاءً لما كان أودع خزانته من ساعاته فى الدنيا من الحسنات، فَيَسُرُّه ذلك ويغتبط به. فإذا مرّت به فى الدنيا ساعة لم يذكر الله تعالى فيها رآها فى الآخرة خزائن فَارغةً، لا عطاء فيها ولا جزاءَ عليها، فيسوءه ذلك ويتحسر كيف فاته أن لم يدّخر فيها شيئًا؛ فيرى جزاءه مدّخرًا، ثم يلقى فى نفسه الرضا والسكون. فلو لم يتحسر العبدُ إلا على فوتِ الفضائل والمندوب إليه من الخيرات لكان فى فوت المسابقة والمسارعَة حسَرات. فكيف بمَنْ فَاتته أوقاتُه فى السيئات وفَرطَتْ منه فى الخسارات؟! ولو لم يشتغل العبدُ فى عمره إلا بالحلال والمباحات لكان ذلك نقصانًا من الدرجات له، فكيف بمن اشتغل بالمحظورات؟!

فسبحان اللهِ ما أعظمَ الخطرَ، وأصعب الأمرَ، وأقلّ المشاهدين لذلك، وأغفلَ البطالين! وقد قال بعضُ العلماء: هبْ أنّ المسِيء قد غُفر له أليس قد فاتَه ثوابُ المحسنين.

وقد جاء فى الأثر: إنّ بعضَ أهل الجنة بينا هم فى نعيم إذ سطَع لهم نور من فوقهم أضاءت منه منازلُهم كما تضيء الشمس لأهل الدنيا، فنظروا إلى رجال من فوقهم أهل عليين، يرونهم كما يُرى الكوكب الدرى فى أفق السماء، قد فُضِّلوا عليهم فى الأنوارِ والنعيمِ والجمالِ كما فُضِّل القمر على سائر الكواكب. فينظرون إليهم يَطِيرُون على نُجُب[1] تسرح بهم فى الهواء حيث شاءوا، ويتزاورون بعضهم بعضًا، يزورون ذا الجلال والإكرام. فينادون هؤلاء: يا إخواننا ما أنصفتمونا، كنا

(١) نجب: جمع نجيب، وهى من الإبل القوى الخفيف السريع.

نصلّى كما تصلون، ونصوم كما تصومون، فما هذا الذى فُضّلتم به علينا؟

قال: فإذا النداءُ من الله عزّ وجلّ: إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون، ويعطشون حين تروون، ويعرون حين تكتسون، ويبكون حين تضحكون، ويقُومون حين تنامون، ويخافون حين تأمنون، فلذلك فُضِّلوا عليكم اليوم. فذلك قوله تعالى: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. وقد جاء فى الخبر: «أكثرُ أهلِ الجنة البُلْه، وعليُّون لذوى الألباب».

• ذكر المقام الخامس من مراقبة الموقنين من المقربين:

قال الله تعالى، مخوفًا للكافة: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الموتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعملُ صَالِحًا فِيما تَرَكْتُ﴾ ثم أجابه فقال: ﴿كَلاَّ﴾ وحقّق قوله تعالى فقال: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠]. ثم نهى المؤمنين نهيًا صريحًا عن مثل هذه الحال وأخبر بنقصان مَن فَعلَ ذلك فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ أى: لا تَشغلكم عن الطاعة لله تعالى، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩] أى: المغبونون المنقوصون فى الآخرة؛ لأنهم آثروا المال والولد على الخالق الرازق، ثم أمر بالإنفاق مما رزق، وقرنه بالإيمان، وأخبر أنه استخلَفنا فى مُلْكه اختبارًا لنا، فقال: ﴿آمِنُوا بِالله وَرَسُولِه وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيه﴾ [الحديد: ٧]، فسمع الغافلون نصف الكلام فآمنوا ولم ينفقوا، وعقل العاملون كلّ الكلام فآمنوا وأنفقوا، وما يعقلها إلا العالمون.

وقال سبحانه: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠] أى بالأعمال.

وكان ابن عباس يقول: هذه الآية من أشدّ شىء على أهل التوحيد، لأنه لا يتمنّى التأخير والرجوع إلى الدنيا أحد له عند الله خير فى الآخرة.

ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِى جَنْبِ اللهِ﴾ [الزمر:٥٦]. الحسرة هى أعظم الندامة، وهى اسم لفوت شىء لا تدارك فيه. فرّطت: أى ضيعت ونيت، وفرط منى: أى ذهب وفات. وجنب الله، قيل: على ما فاتنى من الجزاء منه فى الآخرة، وقيل: ما فات من النّصيب فى أيام الدنيا. إلى قوله: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى العذابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ يعنى: إلى الدنيا عودة أخرى ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر:٥٨]، وقوله ﴿أَنْ تقولَ نفسٌ﴾: من الكلام المضمر المعطوف، ومُضمره: من قبل أن تقول، أو خشية أن تقول، ومعطوفه: هو قوله: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر:٥٤] أى: اقبلوا إليه، وتوبوا، واستسلموا، وسلّموا قلوبكم ونفوسكم وأموالكم فى طاعته وعبادته، ﴿وَاتَّبِعُوا أَحسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر:٥٥]، أى: اتبعوا العزائمَ من الأمور، والفواضلَ من الأعمال، فهو أحسن من الرخصِ والمباحات، مثل: الزهد والورع والخوف والإيقان، فهذا من أحسن ما أُنزل إلينا من ربنا، ثم قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِى جَنْبِ اللهِ﴾، فلما طال الكلامُ، وأُضمر معطوفه، وبَعُدَ عاطفُه للاختصار، أشكل فهمه.

وفى القرآن ما هو أشدّ اختصارًا، وأبعد من هذا إضمارًا، كقوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ [التين:٧] المعنى: فما الذى يحملك على التكذيب أيها الإنسان الذى خلقناه فى أحسن تقويم بعد هذا البيان والبرهان بالدّين بالغائبات والكائنات من أمور الدين والحسنات والجزاء، ثم أحكم ذلك برده إليه فقال: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ﴾ [التين:٨]؟!

وكذلك قوله: ﴿وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، المعنى: لا تترك أن تعمل فى الدنيا بأيامك هذه، فتدرك نصيبك غدًا من الآخرة فى الدنيا، فإنك لا تدركه إلا فيها، ثم أحكمه بقوله: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:٧٧]، أى: أحسن إلى نفسك وإلى إخوانك الفقراء كالذى أحسن إليك به من المال والغنى،

فبذلك تدرك نصيبك من الدنيا فى الآخرة.

ثم أخبر الله سبحانه الكلَّ وحذّرهم فقال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام:٣١]، أى: يا ندامتنا على ما ضيعنا فى الدنيا، وفاتنا فى الآخرة.

وفى الخبر: «لا يموت أحد إلا بحسرة وندامة؛ إن كان مسيئًا كيف لم يحسن وإن كان مُحسنًا كيف لم يَزْدَد».

وذلك أن الله تعالى جعل أهلَ السّلامةِ والنجاة طبقتين؛ بعضهم أعلى من بعض، وجعل أهل الهلكة طبقةً واحدة؛ بعضهم أسفل من بعض، فكان صاحب الشمال يتحسّر كيف لم يكن من أصحاب اليمين، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر:٣٨ ـ ٣٩]، وصاحب اليمين يتحسّر كيف لم يكن من المقربين، والصالح من المقربين يتمنّى أن يكون من الشهداء، والشهيد يوّد أنه من الصديقين. فهو يوم الحسرة الذى أنذر به أهل الغفلة، فكيف بهم فى ذلك اليوم، إذا كانوا اليوم أمواتًا، ولم يكن له حسنة، فأنَّى لهم النذارة والتذْكِرة؟ كما قال: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [مريم:٣٩]. وقد قال: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًا﴾ [يس:٧٠]. كما قال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات:٤٥]، ﴿إِنَّما تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وخَشِيَ الرَّحمنَ بِالغَيْبِ﴾ [يس:١١]. وقال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢] يعنى: إلى ما قدمت. وقيل: حديد إلى لسان الميزان، تخاف النقصان. وقال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق:١٩]، قيل: بالسابقة لهم وعليهم، فهو الحق سبقت لهم منا الحسنى، وحقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون، وسقط ما دونها. وقد قيل: إنّما يوزن من الأعمال خواتيمها، والخواتيم من السّوابق، وما بينهما زاهق. والوزنُ يومئذ الحق، ما سبق من العدل والصدق، وتمت كلمة ربّك صِدْقًا لأوليائه، وعَدْلاً على أعدائه. ألا له الخَلْقُ والأمر.

• **ذكر المقام السادس من مشاهدة المقربين:**

الخيراتُ هى من ثمراتِ الإيمان، والصالحاتُ هى مقتضى اليقين، واللعبُ مقتضى الشك، والسمعُ والبصرُ وصفان للمتقين، والعمى والصممُ وصفان للشك[١]. تنتظم هذه المعانى فى قول الله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٣]. فدل أن الإيمان يأمر المؤمنين بالبر والتقوى، وقوله تعالى مخبرًا عمن أيقن فسمع وأبصر فينال العمل الصالح: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢]. وقوله تعالى فى وصف اللاعبين: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان:٩].

ثم ذكر حالهم لعدم اليقين فقال تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود:٢٠] لأنهم لم يكونوا موقنين، فلما جاءهم اليقين، وهو المعاينة، أبصروا وسمعوا [ما كانوا كذبوا به مما أُخْبِروا][٢]، فقالوا: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر:٤٦ ـ ٤٧] فوصفهم بشدة السمع والبصر حينئذ لما أيقنوا، فقال عزّ وجلّ: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم:٣٨] أى: ما أسمعهم وأبصرهم اليوم لما جاءونا فرأوا ما عندنا، وهذا للمبالغة فى الوصف، كما تقول: أَكْرِم وأَعْظِم به، أى: ما أكرمه وأعظمه. فكذلك إذا أتيته اليوم وأنت موقن سمعت ما لم تسمع وأبصرت ما لم تبصر[٣] قبل ذلك، ولكن شغلتك الأزواجُ التى خلَق، والأشكالُ والأشباهُ التى أظهر، فتألَّهْتَ إليها، ووقفتَ معها، ولو فَرَرْتَ منها إلى الله تعالى لفررت إلى خيرِ مَفَرٍّ، ولآواكَ عنده فى أحسن مقر[٤]، وقد أمرك بالفَرار منها[٥] إليه لو قبلتَ، ونهاك عن التألّه إليها لو سمعت، وبيَّن لك النذارةَ لو فهمت، وجعلَ ما خلَق من الأزواجِ تذكرةً به لو عرفت،

(١) كذا فى المطبوعة والمخطوط، ولعلها محرّفة عن «الشّاكين».

(٢) ساقطة من (ط).

(٣) فى (ط): «ما لم تر».

(٤) فى (ك): «مستقر».

(٥) فى (ك): «منه».

ورادَّةً إليه لو أنَّكَ للذكر اتبعت، ومُشوِّقةً إليه لو كنت لقربه أحببت(١)، أمَا سمعتَه يقول: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، أى مثلين وشكلين، لكى تذكروا الله بها، وتشتاقوا إليه منها، ثم قال: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أى: عنها بالزهد، ثم قال: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الذاريات: ٥١] أى: لا تؤلهوا معه إلهًا، ولا تشركوا بتألهكم إليه إياها.

فهذا فهمُ المقربين عن سمعهم، بشهادة أبصار قلوبهم، فعندها كان استجابتُهم له، كما قال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]، وقال: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الشورى: ٢٦].

ولكن كيف يسمع من يُنادَى من مكانٍ بعيد؟! وكيف يُبصر مَنِ القُفل على قلبه عَتيدٌ؟! وكيف يستجيب مَن لا يَسْمعُ؟! وكيف يَشْهد من لا يبصر؟! وقد قال الرسول ﷺ: «حبُّك للشيء يُعْمى ويَصُمّ».

فالهوى يعمى عن الحق، والشّهوةُ تَصُمُّ عن النُّصح والصدق.

وكذلك لو أحببته لنظرتَ إليه، ولو نظرتَ إليه لعَميتَ عمّن سواه، ولو أقبلتَ عليه لاستمعتَ إليه، ولو سَمِعْتَ لصَممتَ عَن غيرِه، ولو أحبّك لكان سمعَك وبصرَك وقلبك ويدَك وناصرك ومؤيدك، تدعوه فيجيبك، وتَسألُه فيعطيك، وتنصحُ له فينصح لك؛ كذلك جاء الخبر بذلك، فشغلك به عنك، وفرَّغك له منك، فكيف تسمع عنه، وتنظر إليه، وتتقلب عنده، وتتحرك به، لا بنفسك وهواك، ولا بشهوتك ودنياك؟!

فهذا وصفُ حبيبٍ عن تقلّب حبيبٍ، وخبرُ محبوبٍ عن تثبيتِ محبوب.

فإذا تيقّن العبدُ يقينَ عينٍ لا يقينَ ظنٍّ وسَمْعٍ بما ذكرناه من سرعةِ فوتِ الوَقْت، وفوتِ دَرْكه، شغله الغمُّ والحزنُ على ما فات عن مثل ما سلف مما ندم عليه فى مستقبلِ الأوقات. فلم يضم إلى الفوتِ الأوّل فوتًا ثانيًا؛ لحزنه وندمه

(١) فى (ك): «ورادة إليه لو عقلت، ومشوقة إليه لو أحببت».

عليه، فكيف يُردفه فى الحال بما يُشبه ما نَدمَ عليه من سُوء الأعمال، وما لا يُحمد عاقبته، ولا يُغتبط به فى المآل؟!

فمَثَلُ العبدِ المتيقظ فى آخر غفلته مَثَلُ عبدٍ كان عليه عمل لا بدّ أن يعمله فى يومه ذلك، إلا أنه لُهِيَ عنه لغفلةٍ مُلْهية، أو نومةٍ مُنسية، فلم يَفق لعمله ذلك الذى لا بدّ منه إلا بعد العصر، فلا يُسأل عن حِرصه وانْكماشه وتَشْهيره وبداره فى بقية نهاره، ليدرك به ما فاتَهُ من أوّل النهار، فهو يود أنّ وقتَه ذلك إلى الليل مُدَّ له أضعافه، أو رُدَّ إلى أوّل النهار ليُدْرِك ما فَاته.

فهذا حالُ التائب المتيقّظِ من رِقْدته. وهذا لا يَسْتَبِينُ له إلا بعد الموت لمعاينة تَقَضّى الأوقات، ولليقين بعدم دَرْكِ ما فات. فهناك وقعتِ الندامةُ الكبرى، وحينئذ حلّتِ الحسرةُ العظمى.

فالحزمُ عند العقلاءِ الموقنين هو الانكماشُ والتّشمير فيما بَقِى من العُمر القصير؛ لأنَّ الاشتغالَ بما فات فى وقتِ دَرْكِ مثله فى المستقبل هو إضاعةٌ ثانية لما هو آت. فَحَرصَ هذا المتيقظُ واجْتَهَدَ[1] أن يكونَ له فى كل وقتٍ وقتٌ، ومن كلِّ ساعةٍ نصيبٌ، فأودَعَ فى كلِّ خزانةٍ من ساعاته التى هى خزائنُ أعمالِه شيئًا فشيئًا؛ لئلاَّ يرى خزائنه فارغةً غدًا، فيتحسر على فَراغه منها. وهذا طريق أهل الرجاء الذين تمنوا زيادة الأعمال، ورغِبوا فى طول البقاء؛ بحسن خدمة المولى. وهو مقام التائب المستقيم ليتدارك بحديث الأوقات ما فَرَط منه من الغفلة فى القديم. فهذا هو الحزمُ والاحتياطُ عند العلماء. فإن يكن الأمرُ صعبًا شديدًا كما يُحدَّث عنه كان قد سَلِم بحسن توفيق الله تعالى من صعوبته. وإن كان الأمرُ سهلاً قريبًا كما يَرْجوه كانت الأعمالُ درجاتٍ والفضائلُ مقامات.

● ذكر المقام السابع من مشاهدة الموقنين:

اعلم أنّ ما ذكرناه من تداركِ الأوقاتِ خوفَ فوتها ليس هو بتمنى مكانٍ دون مكان، ولا هو بانتظار وقتٍ ثانٍ، الذى هو فى الأصل ذكر[2] الوقت الذى هو

(١) فى (ط): «واجتهاده» وأثبت ما فى (ك).

(٢) فى (ط): «فكر» وليست فى (ك).

فيه، ولا توقّع حالٍ سوى الحال الذى هو يليه، إنّما هو صومُ يوم، أو قيام ليلة، أو ذكر فى ساعة، أو جَمْعُ همٍّ عن شتات قلب، أو قطع لأثرٍ فى خَطرَ. ويكون ذلك أيضًا غضَّ طرفه، وصونَ سمعه، وكفَّ يده، وحبسَ قدمه، وصمتًا عن كلمة دنيَّة، وتركَ لُقْمة شهيّة، ونقصانًا من قُوتٍ، وزيادةَ جوعٍ للمقيت، وأمرًا بكلمة رشيدة، ونهيًا عن فعلة دَنِيّة، وعَقْدَ نية حميدة، وحلَّ نية ذميمة، وتجديدَ توبة، وإعمالَ قَلْبٍ فى فكرة، وإخراجَ سُوءِ ظَنٍّ، واعتقادَ حُسْنِ ظَنٍّ، واستقامةً، وصحةَ عزمٍ فى قصدٍ، وتسببًا إلى ما يقوِّى العزمَ، ومعونةً على برٍّ وتقوى.

وهذا كلّه يكون فى الوقتِ، ويُحْدثه فى الحال، لا يُسوِّفُ به ولا ينتظر منه، ولا يتوقعه فى وقت ثانٍ، ولا يؤخره إلى زمان دون وقته، ولا يتربّص به فى مكان دون مكان. فهذا هو التدارُك للأوقات فى وقتك الذى أنت فيه، خشيةَ فوتِ الوقتِ، فيحصل على التّسويف والتّمنى، أو فى الانتظار والتراخى؛ فهذه من جنود إبليس يقطع بها المريدين، وهو مقام المغترين، وأحوال البطالين الذين وُكِلُوا إلى أنفسهم، وتُرِكُوا مع هواهم، ولم يَتَداركُوا فى أحوالِهم، ولم يُقدِّمُوا لغدهم، نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُم، والوقتُ إذا انقضى فُقِدَ ولم يُوجَد إلى يوم القَضَاء، والسَّاعةُ إذا مرّت طُوِيَت فلم تُنْشَر إلى يَوْمِ النُّشور، وإنما يُنشر مثلُها، ويُخلَق شِبْهُها.

فإذا أيقن العبدُ عَلِم أنّ عمرَه كلّه يوم، وأنّ يومَهُ كلّه ساعةٌ، وأنّ ساعته كلّها وقته الآن، وأنّ وقته حاله، وأن حاله قلبه، فأخذَ من حالِه لقَلْبه ما يقرِّبه إلى مُقَلِّبه، بنهاية عمله، فعَمِل أفضلَ ما دَلّ علمُه عليه، وما ندبه مولاه إليه، ومما يحب أن يفجأه عليه، فيكون ذلك خاتمةَ عمله الذى يَلقى مولاه به. ثم أخذ من وقته لحاله ما يُصْلح حالَه لقلبه، ويُقَوِّى قلبه، ويخلّصه لربه. وأخذَ من ساعته لوَقْته ما يُزَيِّن به حاله عند ربه، وأخذَ من يَوْمه لساعته صلاحَه فيها وحاجتَهُ إليها، وأخذ من شَهْرِه ليومه، فكان شهرُه يومَه، وكان يومُه ساعتهُ، فشغله وقته عن ساعته، وشغلَه حالُه عن وقته.

فكان على هذا مراعيًا لوقته، محافظًا على حاله، قائمًا على نفسه، جامعًا لهمّه، مُحصيًا لأنفاسِه، مُراقبًا لرقيبه، مجالسًا لحبيبه، لا يخرج عنه نَفَسٌ فى

أدنى وقت، إلا فى ذكرٍ لمذكور، أو شُكْر على نعمة لمُنْعم، أو صبرٍ فى محنة عتيدة، أو رضًا عند شدّةٍ شديدة. ويكون فى ذلك كله ناظرًا إلى الرقيب، مصغيًا إلى القريب، سائحًا إلى الحبيب، لا ينظر إلا إليه، ولا يعكف إلا عليه، وقد جعل العمرَ يومًا، واليومَ ساعةً، والساعةَ وقتًا، والوقتَ حالاً، والحالَ نَفَسًا، والنَّفَس مراقبةً، والمراقبةَ مواجهةً، فتوجّه فى وجْهته فلم يَنْثنِ، وساح فى قربه فلم يَنِ، فكان من الإيمانِ على مزيد، ومن اليقين فى تجديد، وأُعطى من الحياة الطيبة بغيرِ حساب، وكُشف له عن قَلبه الحجاب. فكانت المعرفةُ مقامَه، وقصُرت عليه أيّامه، فكان وقتُه وقتًا واحدًا لواحدٍ، وكان قلبُه واحدًا لواحدٍ، وهمُّه منفردًا لمنفردٍ.

وهذا حالُ الأبدالِ، الذين هُم من الرُّسل أمثال، وعددُهم فى الموقنين قليل، ونصيبهم من اليقين وافرٌ جليل، وهم المقرّبون والصّديقون. ومَن علَم ما ذكرناه على يقين فهو من الصالحين، ومَن آمن به ولم يشكّ فيه لأهله إيمانَ تصديقٍ فهو من الموقنين، ومَن شهد منه شهادةً يكون له منها مطالعات وزيادة فهو من الشّاهدين.

وجميعُ ما ذكرناه من مراقبة المؤمنين، وشهادة المُقَرَّبين، يُدرَك بأحدِ مقامين؛ من أقيم فى أحدهما جَمع له ذلك استقامةً فى توبة وعَمَلاً بعلم. فمن كان مقامه التوبةَ وحالُه الاستقامةَ رُفع إلى شهادة المحبين، ومن كان مقامُه العلمَ وحالُه العملَ بعلمه تحقّق بنَعْت الخائفين. وهما حالا العارف الدائمِ الوجدِ بقرب القريب، القائمِ بالشهادة بحضورِ الشّهيد. فأنفاسُه وطَرْفَاتُه صالحات، وتصرفاته وآثاره حسنات، وأفكاره وأذكاره مشاهدات. فهو حاضر فى تصريفه، متيقظ فى تقلبه. وبهذا وُصف العارفُ والدّائمُ الوَجْد.

وحُدِّثت عن بعض هذه الطائفة: أنه دخل على بعض المنقطعين إلى الله تعالى من أهل المراقبة، فقال له: أحصيتُ من نِعَم الله تعالى علىّ فى نوع واحد أربعةً وعشرين ألفَ نِعمة. قلت: وكيف ذلك؟ قال: حسبت أنفاسى فى اليوم والليلة فوجدتُها أربعةً وعشرين ألف نَفَس.

ويقال: إنّ الطرفاتِ ضعفُ ذلك؛ لأن كلَّ نَفَسٍ طرفتان.

وسمعتُ أن الله عزّ وجلّ أوحى إلى بعض الأنبياء: كيف تؤدّى شكر نعمتى عليك، ولى فى كل شعرةٍ نعمتان: أن ليّنتُ أصلَها، وأن طَمَّنْتُ رأسها؟

وقال بعض العلماء: روى ذلك أيضًا عن علىٍّ عليه السلام: ليس شىءٌ أعزَّ من الكبريت الأحمر إلا ما بقى من عُمر العبد. قال: ولا يعرف مقدارَ ما بقى من عُمره إلا نبىّ أو صدِّيق.

وقال بعضهم: لا يَعرف قدرَ ما بقى من عمره فى العزة إلاّ من عَرَف يَنبوعَ الكبريتِ الأحمر، فإنّه يقال: إنّه عيون تنبع فى الظلمات، لا يعرفها إلا الأبدال.

والكبريت الأحمر هو كيمياء الذهب، الذى يُعمل منه الذهب الخالص، وإذا أُلقى منه اليسير على كيمياء الذهب المستعمل ثبت على حاله، وإلاَّ استحال وتغيّر بعد سنين.

ولا أعلم ذُكر عن النبى ﷺ الكبريت الأحمر إلا فى حديث على عليه السلام، الذى وصف فيه الأبدال، فذكر عدتهم ونعمتهم، وقال فى آخر وصفهم: «هم فى أمّتى أعزُّ من الكبريتِ الأحمر». ولا ذُكر الذهب الإبريز إلا فى حديث الابتلاء: «إن الله تعالى يجرِّب عبده بالبلاء كما يجرّب أحدُكم ذهبه بالنار، فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز، ومنهم من يخرج أسودَ محترقًا، ومنهم من يخرج بين ذلك».

* * *

الفصل التاسع والعشرون

فيه ذكر أهل المقامات من المقربين وتمييز أهل الغفلة المبعدين

فإذا كان العبدُ بوصف ما ذكرناه كان كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٣٢ ـ ٣٣].

وقال بعضُ العارفين: «عُمْرُ العبدِ أمانةُ الله تعالى عنده يسألُه عنه عند موته، فإن كان فرَّط فيه ضيَّعَ أمانةَ الله تعالى وترك عهده، وإن راعى أوقاته فلم تخرجْ ساعة إلا في طاعة الله حفظ أمانته ووفَّى بعهده، فله الوفاء من الله على الوفاء.

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠] أي في تضييع العهد، وفي تركِ الوفاء، وكما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ [هود: ١٧] أي شهدَ مقامَ الله تعالى منه بالبيان، فقام بشهادةِ الإيقان، فليس هذا كمن زُيِّنَ له سوءُ عملِه، واتّبع هواه، فآثره على طاعة مولاه، بل هذا قائم بشهادته، متبع لشهيده، مستقيم على محبة معبوده، وكان كمن وصف في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وكمن مدحه بحقيقة الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ أي علامته ودلائله ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]. أي: به يثقون، وإليه ينظرون، وعليه في كل حالٍ يعتمدون، ولديه من كل شيء يطمئنون، وعنده دونَ كلِّ شيء يوجدون، ثم قال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: ٤] الآية.

وليس أهلُ الحقائقِ من المتوكلين، الذين مدحهم الحقُّ بالحق، وأعدَّ لهم الدرجاتِ العلى والكريمِ من الرزق، كمن ذكره بعدهم فقال: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥ ـ ٦] مع قوله: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤]. فجعل حالَ هؤلاءِ وصفًا مشبهًا لمقام أعدائه لما بقى عليهم من أهوائهم، وجعل مقام الصالحين بمعنى من وصفهم فى الآية بحقيقة زهدهم، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ [طه: ٧٥] فهو العلى، وأحبَّاؤه الأعْلَوْنَ، وإنما كانوا أعلينَ لأن الأعلى معهم، وكنا نحن الأدنينَ لأن الدنيا عندنا.

قال الله سبحانه فى وصف من أعْرضَ عن ذكرِه، ولم يُرِد إلا الحياةَ الدنيا، إذ أمر الحبيب بالإعراض عنه؛ لأنه طلب الأدنى عاجلاً أو سوَّف بالمغفرة آجلاً، لقوّة جهله وضعف يقينه، فقال تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وقال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩]، وقال فى وصف الصادقين المؤمنين: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقال فى نعت غيرهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣]، فشتان بين من وُصفَ بصدق العهد، وبينَ من ذُكرَ بالخُلف وعُرِّض للمقت، وقال فى وصف طائفة: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠]، فخصَّ أولياءَهُ بتركِ أتباعه، وأدخل بعض المؤمنين فى تصديقِ ظَنِّه واتِّباعه إلا فريقًا، فهمُ الصِّدِّيقونَ والشهداءُ والصالحون، وحَسُنَ أولئك رفيقًا، وهم المتوكلون المؤمنون حقًا، الذين قال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩] وليس من باعَ مالَه ونفسَه محبةً لمولاه كمن لم يسألْه مولاه دون نفسه لئلا يُحفيَه، فيُخرجَ ضغنه عليه، كما قال لطائفة من المؤمنين: ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦ ـ ٣٧]. الإحفاء: الاستقصاء، أى: [إن][1]

(١) ساقطة من (ط).

سألكم سَأَلَ الجملةَ كلّها، وأحبَّ منكم الزهدَ فى نفوسِكم بعدها. والأضغانُ: جمع ضِغْنٍ، وهو الحقد. تقول: فلستم فى مكانِ سؤالٍ إذْ لا يكونُ البخيلُ زاهدًا؛ لأنّ أوّلَ الزهدِ الجودُ، فمَنْ لَمْ يَجُدْ لَم يَزْهَد، ومَنْ لم يزهدْ فى الدنيا لم يحبَّه المولى؛ لأنه محبٌّ لما يبغضُ، ومريدٌ لما لا يحبُّ، فلم يعاملْ مولاه بأخلاقه، ولم يوافقه فى مرضاته، فباعده وحجبه عن مشاهدة أوصافه، كما قال تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧]. وكما قال الرسول ﷺ المبلّغُ عن المآلِ: «إذا أردتَ أن يحبَّك اللهُ فازهدْ فى الدنيا».

ولا تقدر أن تصفَ حشو قلوبِ هذه الطائفة من المؤمنين الذين وصفهم المؤمنُ أن لو سألهم أموالهَم ظهرت عليهم أضغانهم؛ لأنّهم من الله فى اغترارٍ بما ألبسهم من الأظهار. فإذا جاء أجلُهم فإنّ الله كان بعباده بصيرًا. إلا أنّ اللهَ تعالى لا يسأل إلا من يحبّه إكرامًا له، ممن يعلم أنه يسارعُ إليه بجملة ما سأله؛ لأنّه كريمٌ جوادٌ لا يكبرُ عندَهُ شىءٌ؛ إن سألَ سأل الكلية، وهو المالُ والنفسُ، إلا أنّه لا يَسألُ إلا من خَلَّقَه بخُلُقِ من أخلاقه، فمتى لم يكن عند[1] العبد سواه شىءٌ سأله محبوبه كلَّ شىء، ومتى عظُم فى قلبه العَرَضُ الفانى، وهو ضغينٌ، لم يسألْه شيئًا.

فإذا لم يبق للعبدِ فى نفسه نَفْسٌ[2] ولا من مَاله مالٌ، كان الجوادُ عوضًا له من ماله، وكان الجبارُ عوضًا له من نفسه. إلا أن الله سبحانه لم يذكر إيّاه فى العوَض من النفس، وذكر الجنةَ فى البدل عن المال؛ لئلا يدخلَ تحت حكمٍ وهو الحاكم، وكيلا ينضم إلى عِوض، فيكون شَفْعًا، وهو الفرد، فأخفى نفسَه وهو الدليلُ، وذكرَ خلقَه وهو إليه السبيل[3].

فهذا فَهْم أوليائِه عنه، وهذه علامةُ المحبةِ الخالصةِ التى لا شِرْك فيها لسواه، ولا دَخْلَ عليها من غيره إيّاه.

(١) فى (ط): «على» وأثبت ما فى (ك).
(٢) فى (ط): «نفسًا» وأثبت ما فى (ك).
(٣) فى (ك): «فيكون شفعًا وهو الوتر فأخفى نفسه وذكر السبيل ليكون ذلك عليه دليل».

ولا يَصْلُح أيضًا أن يُكْشَف عن وصف هؤلاء المحبِّينَ؛ لأن حالهم يَجِلُّ عن الوصف، ومقامَهم يجاوزُ[(١)] علومَ العقل والوقت، إلا أن الله تعالى قد أحكم ذلك بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وبقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، مع قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣١ ـ ٣٢]، وقوله: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨ ـ ٨٩].

وأحكم ذلك بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٧]. [وأجمل ذلك][(٢)] بقوله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣]. ففيه وصفٌ لأهلِ الولاياتِ والحبِّ، ومدحٌ لأهلِ الدرجات والقرب، بقوله: ﴿بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أى لذلك جعلهم درجات عنده، ولقوله: ﴿وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بما تولاهم به وقرَّبَهُم منه، وفيه أيضًا ذمُّ المنافقينَ على القراءةِ الأخرى: ﴿واللهُ بصيرٌ بما تَعْمَلُونَ﴾[(٣)] فقد أبصر أعمالكم أنتم، فلم يجعلْكم مثلَهم؛ إذ لم تكنْ أعمالُكم كأعمالِهم، [لأنّ قلوبكم ليست كقلوبهم فتكون أعمالكم كأعمالهم][(٤)]، فهذا كما قال: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

ثم قال فى وصف قلوبنا: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥١].

ثم قال فى فَصْل من القول، ليس بهزل، سوّى بين هؤلاء وهؤلاء: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال: ٧٠]، ثم قال فى ضدِّ أولئك كلامًا

(١) فى (ك): «وصفاتهم تجاوز».

(٢) ساقطة من (ط) وأثبتها من (ك).

(٣) القراءة التى أشار إليها هى قراءة نافع وعاصم وأبى عمرو فى إحدى رواياته وابن عامر ولكن فى آية آل عمران رقم١٥٦: ﴿والله بما تعملون بصير﴾. انظر: السبعة، ص ٢١٧.

(٤) ساقطة من (ط).

فاصلاً لمفصل، مفسرًا للمجمل: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، أي: ليس لهم فيه شيء، ولا لهم منه نصيبٌ؛ لأنه لم يجعلْ عندهم مكانًا لخير فيوجد فيه خيرًا، فكان هذا فصلَ الخطاب، وبلاغًا لأولى الألباب. شهد لهم بذلك إذ قال: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]. فأيس المؤمنون من هداية هؤلاء فلم يرجُوا منهم مجاهدةً فيه أبدًا؛ لأن الله تعالى لا يهدى من يضلّ. وقيل: ييأس ـ لغة ـ بمعنى يعلم، أي: فقد علموا مما أعلمهم الله تعالى.

ويشهد لهذا المعنى الحرفُ الآخر؛ لأنه بمعناه: «أفلم يَتبيَّنِ الذين آمنوا» فبيَّن لهم بما بين المبين، فسلموا له وأقبلوا عليه، وأعرضوا عنهم فَسَلِمُوا منهم، فكذلك قال الولى الحميد: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: ١٢٩]، وقال: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، وقال: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧]، فكم بين مَن ثبت قلبه فرسخ العلم فيه وبين مَنْ أزاغه؛ فمال إلى فتنة التأويل يبتغيه. وشتان بين من تولاه بنفسه إذ صلح له وبين من ولاّه نفسَه إذا أعرض عنه.

فهذه مقامات المبعَدين، كما تلك مقامات المقرَّبين، فقد دخلوا تحت حُكمينِ لم يخرجوا منهما، أعلاهم دخل تحت فضله، وأدناهم لم يخرجْ من عدله، وقد أجمل سبحانه وصفَهم بقوله: ﴿لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الروم: ٤٥]، وقال فى ذكر العموم: ﴿لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ [يونس: ٤].

فخص أولياءه بالفضلِ، وعمّ خلقَه بالعدل؛ فكم من قلبٍ لا يشهدُ إلا الله، ولا يسمع إلا منه، ولا يتأله إلا إليه، والله هو الأغلب على همِّه، والأقرب إلى قلبه، وبين قلبٍ حشْوُه الخَلْقُ، وهمُّه الرِّزقُ، لا ينظرُ إلا إليهم، ولا يطمع إلا فيهم، ولا ينظر إلا هم. الخلْقُ أغلب شيء عليه، والخَلْقُ أقرب شيء إليه، فهذا من المبعَدِين بهم؛ لأنّ البعدَ صفتُهم، وظهورَ النفس عليه وتحكُّمَ سلطانها فيه

مكانُ البعد الذى يُوجدُ البعدَ معه. والأوّلُ من المقربينَ به؛ لأن القربَ صفتُه، وخنوسَ نفسه عنه وتسخيرَها له مكانُ القرب الذى يُوجدُ القُربَ عنده، فذلك من السّابقين إلى ربه، والمبعَدُ مثبَّط بنفسه عن ربه، وقد قال تعالى: ﴿فلا تَدْعُ مَعَ الله إلهًا آخرَ فَتَكُونَ منَ الْمُعَذَّبينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣].

فالبعد حجاب، والمبعَدُ فى عذاب. والقُرب نعيم، والمقرَّبُ فى مزيد. ألم تسمع قوله تعالى فى تعذيب المحجوب عن ربّه: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذ لَمَحْجُوبُون * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيم﴾؟ [المطففين: ١٥ ـ ١٦]، وقال فى ترويح المقربين: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨ ـ ٨٩] روح تقريبٍ، وريحانٌ من حبيبٍ، وجنةُ نعيمٍ بقرب مُنْعِم.

وقال المروَّحُ بالقُرب، المُحَيَّا بالحُضور:

فرَوْحِى ورَيحـانى إذا كنتُ حـاضِرًا
وإن غبـتُ فالدنيـا علىَّ مَحـابِسُ
إذا لم أُنَافِسْ فى هواكَ ولَمْ أغِرْ
عَلَيْك فَفِيمَنْ ـ ليـت شعرى ـ أُنافِسُ
فلا تَخْفِـرَنْ نفسى وأنـت حَبِيبُهـا
فكلُّ امرئٍ يصبـو إلى مَنْ يُجَانِسُ(١)

وقال المكروب بالبعد، المغصَّصُ بالفقد:

فكيفَ يصنعُ مَنْ أقصاه مالكُه فَلَيْس يَنْفَعُـه طِبُّ الأطبَّـاءِ؟
مَن غُصَّ دَاوَى بِشُربِ الماءِ غُصَّتَه فَكَيْفَ يَصْنَعُ مَنْ قَدْ غُصَّ بالمـاءِ؟

وشتان بين عبد منقطع إلى ربه يخدُمه وآخر منقطع لخدمةِ الخلقِ. وشتان(٢) بَيْنَ

(١) هذا البيت من (ك) وهو ساقط من (ط).
(٢) فى (ط): «لخدمة الخلق يعبدهم وكم» وأثبت ما فى (ك).

عبدٍ منقطعٍ عن الناسِ وبين عبدٍ موصولٍ به الوسواس. وشتان بين عبدٍ منقطعِ الشوقِ إلى المولى وبين عبدٍ منقطع بالهوى معانقٍ للدنيا.

فهذه مقاماتُ المقَربين الحُسْنى، وأضدادُها مقاماتُ المبعَدين السَّوأى[١].

فإذا كان العبدُ على وصفٍ من الحقيقةِ وفى مقامٍ من اليقين[٢] استحقَّ الثناءَ من مولاه؛ لتحقُّقه بالوصفِ، ونالَ القربَ من القريبِ؛ لتبعُّده عن حظوظ النفس. وفى حسنِ الثناءِ من العظيمِ الأعظمِ غايةُ الطالبين، ونهايةُ رغبةِ الراغبين، ولا يكونُ ذلك إلا لأوليائهِ المتقينَ، وحزبهِ المفلحينَ، وعباده الصالحين، وهم أهلُ القلوبِ السليمةِ الطاهرةِ، وذوو الجوارحِ الخاشعةِ الذاكرةِ، وأولو الألبابِ الراجحةِ الفاخرةِ. وهم ثلاثُ طبقات: من مقربى أصحابِ اليمين؛ أهل العلم بالله تعالى. وأهل الحب لله تعالى. وأهل الخوف من الله تعالى. فهؤلاء خصوصُ أوليائه المقربين، استحضرهم فحضروا، واستحفظهم العلمَ فحفظوا، واستشهدهم عليه فَشَهِدُوا.

فهُمُ الأدلةُ منه عليه، وهو دليلهم إليه، وهم جامعو العباد به إليه، وهو جامعهم عنده لديه. أبدالُ الأنبياءِ، والربانيُّون من العلماء، أئمةُ المتقين وأركانُ الدين، أولو القوةِ والتمكين، الذين كُشِفَ لهم الكتابُ المستبينُ، وهداهم إليه الطريق المستقيم عليه. وهم المنظورُ إلى قلوبهم كفاحًا، والمقصودون بالمزيد والتحف مساءً وصباحًا.

ومَنْ سواهم من عمومِ المؤمنين من القرَّاءِ والعبَّادِ وأهلِ المجاهدةِ والزهدِ والأورادِ قد أعطاهم الولايات، وفرَّقهم فى الأعمال والسياحات، وأظهرَ لهم الآياتِ، تسكينًا لقلوبهم بها، وطمأنينةً منهم إليها؛ لئلا تدخل عليهم الشبهات فيهلكوا ولا تجذبهم الشهواتُ فيرجعوا، فشُغلوا بالإظهار عن الظاهر، وحُجبوا بالظواهر عن الباطن، واغتبطوا بالحجاب، وسكنوا إلى الأسباب، وعكفوا على المقاماتِ، واستتروا بالملكوتِ والآياتِ، فهم مغبوطو الأمواتِ من أهلِ الدنيا، وهم

(١) فى (ط): «المقربين بالحسنى . . . المبعدين بالسوء» وأثبت ما فى (ك).
(٢) فى (ط): «التقوى» وأثبت ما فى (ك).

مرحومو الأحياء من أهل العَلِيّ الأعْلى؛ لأنّ قربَهم بُعْدٌ عند المقربين، وكشفَهم حَجْبٌ عند المشاهدين، وعطاءَهم رَدٌّ عند المواجهين، إلا أن الله تعالى نظر إليهم لما نظروا لنفوسهم؛ حكمةً ورحمةً منه لهم، فَسكَّنَهم فى حالهم، ورضَّاهم بمقامهم، كيلا تشتتَ قلوبُهم، ولا تتحيَّر[1] عقولُهم.

والسَّابقونَ الأوَّلونَ هم الوجهةُ العليا والمتمسِّكون بالعروة الوُثْقَى، نظروا إليه سبحانه وتعالى به فنظر إليهم منه، فهم كما وصفهم: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ﴾** [البقرة:٢٠٧]، لا يرجعون إلى مال، ولا ينظرون إلى حال، **﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾** [المائدة:٥٤]، **﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾** [البينة:٨]، فهم كما وُصفوا فى الكتب السالفة.

قال الحواريون: يا روحَ الله، صِفْ لَنَا أولياءَ اللهِ الذين لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. فقال: هُمُ الَّذينَ نَطَقَ بِهِم الكتابُ وبه نطقوا، وبهم عُلِمَ الكتابُ وبه عَلِمُوا، وبهم قَامَ الكتابُ وبه قاموا، نظروا إلى باطنِ الدنيا حين نظرَ الناسُ إلى ظاهرها، وعايَنُوا آجلَ الدنيا حين عاينَ الناسُ عاجلها، فأماتُوا منْهَا ما خَشَوْا أن يُميتَهم، وتَرَكُوا منها ما عَلِمُوا أن سيَتْرُكَهُم، فصار دَرْكُهم منها فواتًا، وفَرحُهم بها حرمانًا، ما عارضهم منها رفضوه، وما أشرفَ لهم بغير الحق وضعوه، خَلَقَت الدُّنيا عندهم فَلَمْ يُجَدِّدُوها، وخَرِبَت فيما بينهم فلم يَعْمُروها، وماتت فى صدورِهم فلم يُحْيُوها، قدَّمُوهَا فَبَنَوْا بها آخرتَهم، أَحْيَوْا ذِكْرَ الموتِ وأمَاتُوا ذكْرَ الحياةِ، يُحِبُّون اللهَ ويحبون ذِكره، ويستضيئون بنورِه ويضيئون به، لهم خبرٌ عجيبٌ، وعندهُم أعجبُ الخبر العجيب.

وقال عزّ وجلّ فى وصفهم، ومَنْ أَحْسَنُ من الله حديثًا: **﴿والرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾** [المائدة:٤٤]، وقال تعالى: **﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾** [آل عمران:١٨] وفيها مقرأ غريب، بمعنى الجمعِ للشهداءِ، وكأنَّه جُعِلَ وصفًا لما تَقَدَّمَ من ذكرهم،

(١) فى (ك): «ولا تتحول».

في قوله تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ إلى قوله ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ * شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٧ ـ ١٨]، وقال: ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣].

فهذا وصف يزيد على كل وصف، ويستغرقُ نَعت الواصفين.

ويَجْمَعُ هذه المقاماتِ السبعةَ من المراقبة والمشاهدةِ حالانِ عن مقامين، مدارُ المقاماتِ كلّها عليهما، ومستخرج المزيد من الكرامات منهما؛ فأحدهما: الخوف عن مقام العلم. والحال الثاني: الرجاءُ عن مقام العمل. فمن كان مقامُه العلمَ بالله كان حاله الخوفَ منه، ومن كان مقامه الرجاءَ لله تعالى كانت حاله المعاملةَ له. ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]؟

[قال رسول الله ﷺ عند نزول هذه الآية، لما تلاها: «لو لم يُقل من القرآن إلا هذه الآية لكفتهم. أو لكُفيتم». ولا حول ولا قوة إلا بالله][١].

* * *

(١) ما بين المعكوفتين من (ك).

الفصل الثلاثون

فيه كتاب ذكر تفصيل الخواطر لأهل القلوب وصفة القلب وتمثيله بالأنوار والجواهر (١)

قال اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ٨]. أي ألقى فيها وقَذفَ فيها. وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦]. وقال: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ [المائدة: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤] الآية. وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ﴾ [فاطر: ٦]. وقال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ﴾ [المجادلة: ١٩]. وقال عزّ وجلّ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]. وقال سبحانه مخبرًا عن العدوّ: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦ ـ ١٧] إلى آخر الآية.

وروينا عن النبي ﷺ: «إن الشّيطانَ قعدَ لابن آدم بأطرقه. فقعد له بطريقِ الإسلام، فقال: أتُسلِمُ وتَذَرُ دينَك ودينَ آبائك؟ فعصاه فأسلَم. ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر فتذر أرضَكَ وسماءَك؟ فعصاه فهاجر. ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: أتُجاهدُ وهو جُهد النفسِ والمال فتُقاتل فتُقتلُ فتُنكحُ نساؤُك ويُقْسَمُ مالُك؟ فعصاه فجاهد. قال رسولُ الله ﷺ: مَنْ فَعَلَ ذَلكَ فَمَاتَ كَانَ حَقًّا على الله تَعَالَى أنْ يُدْخلَهُ الْجَنَّةَ».

وقد أخبر الله تعالى عنه أنه قال: ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ﴾ [النساء: ١١٩] إلى آخر الآية.

---

(١) انظر: الإحياء، كتاب شرح عجائب القلب، ٣/ ٢ ـ ٤٧.

وروينا أن عثمان بن أبى العاص قال: «يا رسول الله، حال الشيطان بينى وبين صلاتى وقراءتى، فقال: ذَلكَ الشَّيْطَانُ يُقالُ له خِنْزَبُ، إذا أحسسته فتعوَّذ بالله منه، واتْفُلْ عن يسارك ثلاثًا. قال: ففعلتُ ذلك، فأذهبه الله تعالى عنّى».

وفى الخبر: «إن للوضوء شيطانًا يقالُ له الوَلْهَان، فاستعيذوا بالله منه». وقد روينا: «إن الشيطان يجرى من ابن آدمَ مَجْرَى الدَّمِ».

والحديثُ المشهورُ: «مَا مِنْكُمْ من أَحَدٍ إلا ولَهُ شيطانٌ. قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا إلا أن الله تعالى أعَانَنى عليه فَأسْلَمَ».

وقال ابن مسعود رضى الله عنه، وقد رويناه من طريق مسند: فى القَلْبِ لمتَّان: لمةٌ منَ المَلَك إيعادٌ بالخَيْرِ وتَصْديقٌ بالحَقِّ، ولِمَّةٌ مِنَ العَدُوِّ إيعادٌ بالشرِّ وتكْذيبٌ بِالحَقِّ ونَهىٌ عنِ الخَيْرِ.

وروينا عن الحسنِ رحمه الله أنه قال: إنّمَا هُمَا هَمَّان يَجُولاَن فى القلب: همٌّ مِن الله تعالى، وهَم من عدوّه، فرَحِم اللهُ عبدًا وَقَفَ عِنْدَ هَمِّهِ، فَمَا كَانَ من الله أمضاهُ، وما كانَ من عدوّه يجاهد.

وقال مجاهدٌ فى قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤] قال: هو مُنْبَسِطٌ على قلبِ الإنسانِ، فإذَا ذَكَرَ اللهَ تعالىَ خَنَسَ وانقبضَ، وإذا غَفَلَ انبسطَ عَلى قَلبِه.

وقال عكرمةُ: الوسواسُ مَحلُّهُ فِى الرَّجُلِ فى فؤادِهِ وَعَيْنَيْهِ، وَمَحلُّه فى المرأةِ فِى عَيْنَيها إذا أقبلت، وفى عَجيزَتِها إذا أدبرت.

وقال جريرُ بن عَبْدَةَ العَدَوىّ: شكَوْتُ إلى العلاءِ بن زيادٍ ما أجدُ فى صدرى من الوسوسةِ، فقال: إنَّما مَثَلُ ذلكَ مَثلُ النَّقْبِ الذى تَمُرُّ به اللصوصُ، فإن كان فيه شىءٌ عالجوهُ، وإلا مضوا وتركوه.

وقد روى أبو صالح عن أبى هريرةَ عن رسول الله ﷺ قال: «إن العبدَ إذا أخطأ خطيئةً نُكتَ فى قلبِه نُكتةٌ. فإن هو نَزَعَ واستغفَر وتابَ صقُل، وإنْ عَادَ زيدَ فيهَا حتى تعلوَ قلبَه، فهو الرانُ الذى ذكره الله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ

مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]».

وروينا عن جعفرِ بنِ برقان قال: سمعت ميمونَ بن مهران يقول: إنّ العبد إذا أذنبَ ذنبًا نُكِتَ فى قلبه بذلك نُكتةٌ سوداءُ، فإن تابَ مُحيَتْ من قلبه، فَتَرَى قلبَ المؤمنِ مَجْلُوّاً مثلَ المرآة، ما يأتيه الشيطانُ من ناحيةٍ إلا أبصرَه. وأما الَّذى يَتَتَابعُ فى الذنوبِ، كلما أذنب نُكتَ فى قلبه نُكْتَةٌ سوداءُ، فَلا يَزَالُ يُنْكَتُ فى قلبِهِ حتى يَسْوَدَّ قلبُه، فَلا يُبْصِرُ الشيطانَ من حيثُ يأتيه.

وقد أخبر رسولُ اللهِ ﷺ أن قلبَ المؤمن أجردُ، فيه سِراجٌ يُزهر، فى تقسيمه القلوب. روينا عن أبى سعيد الخدرى وأبى كبشةَ الأنمارى، وبعضه أيضًا عن حذيفةَ، عن رسول الله ﷺ قال: «القلوبُ أربعة؛ قلبٌ فيه سراجٌ يُزْهِرُ، فذلك قلبُ المؤمنِ. وقلبٌ أسودُ منكوسٌ، فذلك قلبُ الكافرِ. وقلبٌ أغلفُ مربوطٌ على غلافه، فذلك قلبُ المنافق. وقَلبٌ مُصفحٌ فيه إيمانٌ ونفاقٌ، فَمَثَلُ الإيمانِ فيه مَثَلُ البقلةِ يَمُدُّهَا الماءُ الطيبُ، وَمَثَلُ النفاقِ فيه كَمَثَلِ القَرْحَةِ يَمُدُّهَا القيحُ والصديد، فأىُّ المادّتين غَلَبَت عليه حُكم له بها». وفى لفظ بعضهم: «غلبتْ عليه ذَهَبت به».

وقال الله تعالى، ومَنْ أَصْدَقُ من الله قيلاً: **﴿إِنَّ الذينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾** [الأعراف: ٢٠١].

فأخبر أن جِلاءَ القلوبِ الذكرُ، به يبصرُ القلبُ، وأن بابَ الذكرِ التقوى، به يذكر العبد. فالتقوى بابُ الآخرةِ، كما أن الهوى بابُ الدنيا.

وأمَرَ اللهُ تعالى بالذكر، وأخبرَ أنه مفتاحُ التقوى؛ لأنه سببُ الاتقاء وهو الاجتنابُ والورعُ، فقال تعالى: **﴿وَاذْكُرُوا مَا فيه لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾** [الأعراف: ١٧١]. وأخبر أنه أظهر البيانَ للتقوى فى قوله: **﴿كَذَلكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاته للنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾** [البقرة: ١٨٧]. وقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيم * الذى خَلَقَكَ فَسوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾** [الانفطار: ٦ ـ ٧]. وقال تعالى: **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فى**

أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]. وقال: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]. فمن السّواءِ والتعديلِ والازدواجِ والتقويمِ أدواتُ الظاهرِ وأعراضُ الباطنِ، وهي حَواسُّ الجسم والقلبِ.

فأدواتُ الجسمِ هي الصفاتُ الظاهرةُ، وأعراضُ القلب هي المعاني الباطنة، قد عدّلَها الله تعالى بحكمته، وسوّاها على مشيئته، وقوَّمَها إتقانًا بصُنعه، وإحكامًا بصَنْعَته؛ أولها: النفسُ والروحُ، وهما مكانان للقاء العدوّ والملَك، وهمَا شخصان مُلْقيانِ للفجُورِ والتقوَى. ومنها غرضانِ متمكنانِ في مكانين، وهما العقلَ والهوى، عن حُكمين في مشيئةِ حاكمٍ، وهما التوفيق والإغواء. ومنها نُوران ساطعان في القلب عن تخصيص من رحمة راحمٍ، وهما العلمُ والإيمان. فهذه أدواتُ القلب وحواسُّه ومعانيه الغائبة وآلاتُه، والقلبُ في وسط هذه الأدواتِ كالملكِ وهذه جنودُه تُؤَدِّي إليه، أو كالمِرآة المجلوّة وهذه الآلةُ حولَه تظهر فيراها ويقدح فيه فيجدها.

فتفصيل ذلك على الإيجاز أن جُمَلَ الخواطرِ ستةٌ، هي حدودُ القلبِ وقوادُحه، من ورائِها خزائنُ الغيبِ وملكوتُ القدرةِ، وهي جنودُ اللهِ تعالى عتيدةٌ وسلطانٌ منه مبين.

والقلبُ خزانةٌ من خزائن الملكوت، قد أودعهُ مُقلِّبُهُ من لطائف الرغبوتِ والرهبوتِ، وشعشعَ فيه من أنوارِ العظمةِ والجبروت، ما شاء لأهل الرفيق الأعلى، وذوي الملكوت الأدنى.

فأوّل التفصيل: خاطرُ النفس، وخاطرُ العدوّ: وهذان لا يَعدمُهمَا عمومُ المؤمنينَ، وهما مَذْمُومَان محكومٌ لهما بالسوءِ، لا يَردانِ إلا بالهوى، وضِد العلمِ.

وخاطرُ الروحِ، وخاطرُ الملَك: وهذان لا يَعْدمُهُما خصوصُ المؤمنين، وهما محمودانِ لا يَردَانِ إلا بحقٍّ، وبما دل عليه العلمُ.

وخاطرُ العقلِ: وهو متوسطٌ بين هذه الأربعةِ. يصلحُ للمذمومين فيكونُ حجةً على العبدِ لمكان تمييز العقل وتقسيمِ المعقول؛ لأن العبدَ يدخلُ في هواه بشهوةِ

جُعلت له، واختيارٍ لا يعسر عليه [ولا يقصر عنه][(١)] من حيث لا عقلَ ولا إجبار. ويصلح أيضًا للمحمودين؛ فيكون شاهدًا للمَلَكِ، ومؤيِّدًا لخاطرِ الروحِ. ويُثاب العبدُ فى حسن النية وصدق المقصد.

وإنّما كان خاطر العقل تارةً مع النفسِ والعدوِّ وتارة مع الروح والملكِ حكمةً من الله تعالى لصنعته، وإتقانًا لصنعه؛ ليدخل العبد فى الخير والشرِّ بوجودِ معقول، وصحةِ شهودٍ وتمييز، فيكونُ عاقبةُ ذلك من الجزاء والعقاب عائدًا له وعليه، إذ قد جعل سبحانه هذا الجسمَ مكانًا لجريان أحكامه، ومحلاً لنفاذ مشيئته فى مبانى حكمته.

كذلك جعل العقلَ مطيةً للخير والشر، يجرى معهما فى خزانة الجسم، إذ كان مكانًا للتكليف، وموضعًا للتّصريف، وسببًا للتعريف العائد من معانى ذلك على صورة العبد من لذة النعيم أو عذاب أليم. فلم يكن العقل غائبًا فيكونُ العبدُ عن العقل ذاهبًا، ولم تكن الشهوةُ عازبةً فتكونُ النفس مفقودةً؛ إذ فى ذلك تضعيفٌ لحجةِ الله تعالى عليه، ووهن لبرهانِه؛ لأنّ العقلَ شاهدُ الحجةِ، والشهوةُ فى النفس مكان البلوى.

والنيةُ فى القلب طريقُ الحجة، وذلك أصل سبب عود جزاء الأمر والنهى. فالعقل مطبوعٌ على التميز مجبولٌ على التحسين والتقبيح، والنفس مجبولة على الشّهوة مطبوعة على الأمر بالهوى، وهذا نصيبُهما من عطائه وهداه لهما إلى رشاده وإغوائه، وحظهما من الكتاب، وقسمهما من ولىّ الأسباب.

كما قال تعالى فى أحكام ما ذكرناه تكملةً لما أخبرنا عما سبق فى علمه: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤].

والخاطر السادس: هو خاطرُ اليقين، وهو روحُ الإيمانِ ومَزِيدُ العلمِ، يَرِدانِ

---

(١) زيادة من (ك).

إليه ويَصْدُرَان عنه، وهَذَا الخَاطرُ مَخْصُوصٌ بخصوصٍ لا يَجدُه إلا الموقنون، وهمُ الشهداءُ والصِّدِّيقُون، لا يَردُ إلا بحق وإن خَفِيَ وُرُودُه ودَقَّ، ولا يَقْدَحُ إلا بعلم اختيار لمراد مختار وإن لَطُفت أدلتُه وبطنَ وجهُ الاستدلالِ به. ولكن ليس يَخْفَى هذا الخاطرُ على مقصودٍ به ومُرَادٍ له، وهم الذينَ وصفهم الله تعالى بالذكرى، وردّ الرسولُ ﷺ إليهم[1] الفُتْيَا، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧] أى: من تولى الله حفظ قلبه. وقال رسولُ الله ﷺ: «مَا حَاكَ فى صدرِكَ فدعْهُ، والإثم حزَّازُ القُلُوبِ» يعنى: ما يؤثر فيها فَيَحُزّها لرقّتها وصفَائها وَلينِها ولُطْفِهَا. وقال للرَّجُلِ الذى سأله عنِ البِّر والإثم، وهما أَصْلا أعمالِ الخيرِ والشرِّ: «استفت قلبَكَ وإنْ أفْتَاكَ المفتون» أى: أن المتقينَ يَعْلَمون معانى التأويل والرخصة عن علمِهم العلانية، وأنت على علمٍ فوقهم مطالبٌ بالتحقيقِ والعزيمةِ عن علمك السرِّ.

وأهلُ الظاهر أيضًا يعلمون حُكْمَ الله تعالى الظاهرَ عن علم اللسان الظاهر الذى هو حجةٌ على أهلِ العلم الظاهر، وقلبك فقيهٌ منوَّر بالإيمان تنظر به، أو ينطقُ به حكمُ الله تعالى الباطنُ عن علم القلبِ الباطن، الذى هو حقيقةُ الإيمان، ومنفعتُه لأهلِ العلمِ الباطنِ.

ولا يصلحُ أن يَرُدَّ رسولُ الله ﷺ سائلاً إلا إلى فقيهٍ، فلولا أنّ عِلْمَ القَلْبِ هُو حقيقة الفقهِ ما ردّ صاحبه من فتيا أهل الظاهر إليه، ولا حكم على المفتين به، فقد صار علمُ القلبِ هو علمَ العلم، إذ جعله الرسول ﷺ قاضيًا على المفتين بالحكم، وصارَ عالمُ الباطنِ هو عالم العُلمَاء؛ إذ لم يَسَعْهُ تقليدُ العلماء، وفى الحديث الآخر: «البرُّ ما اطمأنَّ إليه القلبُ وسكَنتْ إليه النفسُ وإن أفتوْكَ وأفتوْكَ».

فهذا وصفُ قلب مكاشَفٍ بالذكرِ، ونعتُ نفسٍ ساكنةٍ بمزيدِ السكينة والبرِّ، كما وصف من قلوبِ المؤمنينَ فى صريحِ الكلامِ، وفى دليلِ الخطاب. فأما صريحه فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ

(١) «إليهم» ليست فى (ك).

الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح:٤].

وأما دليلُ الكلامِ الذى يَشْهَدُ بالتدبُّر فقوله تعالى فى وصفِ قلوبِ أعدائه المحجوبين: ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِى وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف:١٠١]. ومثله: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ [النجم:٣٥]. ففى تدبر معناه أن أولياءه المستجيبين له سامعون منه، مكاشفون بذكره، ناظرون إلى غيبه.

وقال تعالى فى مثله: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ﴾ هذا فريقُ المتَّبعينَ للسُّبُلِ المتفرقةِ عن سواءِ السبيلِ بهم، الضالين عن سواء الصراط ﴿وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ [هود:٢٤] هو فريق المهتدين المتبعين للصراط المستقيم. وقال تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود:٢٠]، ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧]، ﴿إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ [هود:٣٤].

وقال ﷺ فى مجمل صفةِ القلب: «التقوى ههُنا» وأشارَ إلى القلب. وقال الله سبحانه وتعالى فى ذكر القلوب المقفلةِ بالذنوبِ: ﴿لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف:١٠٠]. وقال تعالى فى فض طابعها بالتقوى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا﴾ [المائدة:١٠٨]، و ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]. وفى الخبر: «إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيرًا جعَلَ اللهُ زاجرًا من نفسه، وواعظًا من قَلْبه». وفى الخبر الآخر: «مَنْ كان لهُ من قلبه واعظٌ كان عليه من الله حافظٌ».

وروينا فى تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلإِيمَانِ﴾ [آل عمران:١٩٣] قال: سَمِعْناهُ مِنْ قلوبِنَا. وقالَ فى ضده لأعدائه: ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤] عن قلوبهم.

وقالَ اللهُ تعالى فى التوبة من ميلِ القلوبِ وهمِّها: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ

صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]. وبمعناه: ﴿وهَمُّوا بما لَم يَنالُوا وما نَقَمُوا إلاَّ أنْ أغْنَاهُمُ اللهُ ورسُولُه مِنْ فَضْلِه فإنْ يَتوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [التوبة: ٧٤].

وقال فى تحقيق العمى للقلب: ﴿فإنَّها لا تَعْمَى الأبصَارُ ولَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتى فى الصُّدور﴾ [الحج: ٤٦]. فأهلُ القلوبِ يتعظونَ بلا واعظٍ من خلق، ويَزْدجِرُون بلا زاجرٍ فى ظاهر، وسائر ما ذكرناه من الخواطر لا يَعْدَمُه المؤمنون.

والقلبُ خزانةُ الله تعالى من خزائنِ الغيب، وهذه المعانى جنودُ الله تعالى مقيمةٌ حولَ القلبِ، يُخفى منها ما يَشاءُ، ويُظْهِرُ ويُبْدِى منها ما يريد، ويُعيدُ ويَبسُطُ القلبَ بما يشاءُ منها، ويَقبِضُه فيما شاءَ عنها.

وكلُّ قلبٍ اجتمع فيه ثلاثةُ معانٍ لم تفارقه خواطر اليقين، ولكن يَضعُفُ الخاطرُ ويخفى لضعفِ المعانى ودقتها، ويقوى اليقينُ ويظهرُ بقوتها؛ لأن هذه الثلاثةَ مكانُ اليقين، أحدها: الإيمانُ، وموضعه من اليقين مكان حجر النار. والثانى: العلم، ومكانه موضعُ الزنادِ. والثالث: العقل وهو مكان الحراق. فإذا اجتمعت هذه الأسباب قُدح خاطرُ اليقينِ فى القلب.

ومَثلُ القلب فى قوَّته بقوةِ مدده، وفى صفائه بجودةِ عدده، مَثلُ المصباحِ فى القنديل إلى مكان العقل منه، والزيتُ موضعُ العلمِ به، وهو روحُ المصباحِ، وبمدده يكون ظهورُ اليقينِ، والفتيلةُ مكانُ الإيمان منه وهى أصله وقوامه الذى يظهر بها، فعلى قدر قوةِ الفتيلةِ وجودةِ جوهرها يقوى اليقينُ. وهوَ مثْلُ الإيمان فى قوَّته بالورَع، وكماله بالخوف، وعلى مقدارِ صفاء الزيتِ ورقَّته واتساعه تضىء النار التى هو اليقين، وهو مثل العلم فى مدد الزهد وفقد الهوى، فصار العلمُ مكانًا للتوحيد، فتمكن الموحِّد فى التوحيدِ على قدر المكان، وقد قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أنَّهُ لاَ إلهَ إلاَ اللهُ﴾ [محمد: ١٩]. وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ الله وَأَنْ لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ﴾ [هود: ١٤].

فقدَّم العلم على التوحيد فصار أوَّله، فكلما اتسع القلبُ بالعلم بالله وزَهدَ فى الدنيا ازداد إيمانًا وعلا؛ لأنه يرى فى عُلُوِّه ما لا يراهُ غيرُه، ويعلمُ فى اتساعِه ما

لا يَعْلَمُه سواهُ، فيكبُرُ المؤمنُ به فيكونُ ذلكَ مزيدَ إيمانه وقوته، ثم يشهدُ كلَّ ما آمن بهِ فيكون بذلك قوةَ نفسه وسَعةَ مشاهدته. وكلَّما قَصُرَ عِلْمُ القلبِ بالله تعالى، وبمعانى صفاتِه، وأحكامِ ملكوتهِ، قلّ إيمانُ هذا العبدِ، ثم أشهدَ ما آمنَ به من وراءِ حجابٍ لما غلبَ عليه من حبِّ الأسباب، وسمع الكلام من خلف سترٍ؛ لعجزِهِ عن المسارعةِ إلى البرِّ، فَيَضْعُفُ بِذَلِكَ إيمانُه، ويتخيل مشاهدتَه، ولا يتحققُ.

فليس مَنْ عَلِمَ من صفاتِ الله سبحانه وتعالى وقدْره وآياته مائة ألف معنى ثُمَّ شَهِدَهَا كُلَّهَا من قُربِ عن كشفٍ، مِثلَ مَنْ عَلِم منها عشرةَ معانٍ ثم شَهِدها من بُعدٍ عن حجابٍ، وهما مؤمنان معًا، لكن بين إيمانهما فى القُرْبِ والعُلوِّ والزيادة والنقصانِ كما بين العَشْرَةِ إلى مائةِ ألفِ، فيكون إيمانُ قلبِ المسلمِ معشارَ معشارَ عُشْرِ إيمانِ قلب الموقِن. والمعشار: هو عُشْر العُشر، جزءٌ من مائة جزء. ويكون إيمانُ قلبِ الموقن فيما بين ذلك من الزيادة على العُشْر والنقصان من مائة ألف على قدر قسمه.

ومَثَل ذلك فيما نَعقلُه مَثلُ رجلٍ قال لك: إن عندى فلانًا، فقد حصلَ لَكَ عِلْمٌ أنه عنده، غيرَ أنَّ هذا العلمَ غيرُ يقينٍ؛ لأنه يجوزُ أن يكون قد اشتبه عليه، أو يكون قد كان عنده ثم خرج، وليس هو الآن عنده، وهذا مثلُ إيمان المسلمِ هو علم[1] خبرٍ لا خبرٌ، ثم إنك تأتى إلىّ فتسمع كلامه من وراء حجابٍ، فقد علمتَ الآن أنه عندى؛ لأنك سمعت كلامَه واستدللتَ به على كونه، إلا أنَّ هذا العلمَ أيضًا غير تحقيق؛ لأن الأصوات تشتبه، والأجرامَ تتقاربُ.

ولو قلتُ لك بعد ذلك: لم يكن عندى وإنَّمَا كان ذلك غيره أشبه صوتَه، تشككتَ فيه؛ لاحتمال ذلك، ولم يكن عندك يقينُ عينٍ تدفعُ به قولى، ولا شهادةُ نظرٍ تُنكرُ بها علىّ، وهذا مَثَلٌ لإيمان عمومِ المؤمنين، فهو إيمانُ خبرٍ، لَعَمْرى، وفيهِ يقينُ استدلال ممتزج بظنٍّ، إلا أنه غيرُ يقين العارفين[2]، [ولا

(١) فى (ط): «هو على علم».

(٢) عبارة (ك): «وفيه يقين غير يقين العارفين».

وصف المشاهدين][(١)]؛ لأنه قد يُدخلُ عليهم التخييل والتشبيه، فلا يدفعونه بمشاهدة يقين. ثم إنك تدخل إليَّ الآنَ بعد أن قيل لك: هو عندى، أو بعد أن سمعتَ كلامَه، فتشهدُه جالسًا لا حجاب بينك وبينه. فهذا هو يقينُ المعرفةِ، وهذه شهادةُ الموقن، وعندها انتفى كلُّ شكٍّ، وتحقَّق خبرُ العلم.

وهذا مَثَلٌ لعلمِ إيمانِ الموقنين الذى قد اندرج فيه إيمان عمومِ المؤمنينَ من علمِ الخبرِ المحتملِ، ومن سماعِ الكلامِ المشتبهِ من وراء حجابٍ، واسمُ الإيمانِ واقعٌ على جميعهم، ولكن الأوّلَ علِمَ أنّه عندى بما قيل له فصدَّق، والثانى: علم بما سمع فاستدلَّ ولم يشهد فيقطعَ، والثالث: هو الذى عاينَ فقطعَ، وقد شهدَ له الرسول ﷺ بالمزيدِ، فقال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الْخَبَرُ كَالمعايَنَةِ»، وقال: «ولَيس المُخْبَرُ كَالمعُاينِ».

ومثل هذا أيضًا أن ترى الشىء بالنهار فتعرفه معرفةَ عينٍ، وتعرفَ مكانه بنظرٍ لا تخطئهُ، ثم إنّك تحتاجُ إليه ليلاً فلست تعرفُ مكانهَ رأىَ عينٍ، وإنما تقصده بمعرفة استدلال عليه، وبحسنِ ظنٍّ أنه موجودٌ على حاله، أو يُعرَفُ بشىء معهودٍ أنه لا يتحولُ. وكذلك الأدلةُ للغائبات[(٢)]، وسقوطها مع المشاهدات. وفى معناه رؤية الشىءِ بنور القمرِ، فإنها تسنحُ وتلوح المشكلات[(٣)]، ورؤيته فى ضياء الشمسِ فإنّها تكشفُ الأمرَ على ما هو به. فهذا مَثَلٌ لنورِ اليقينِ إلى نورِ الإيمانِ.

ومَثَلٌ رابعٌ فى تفاوت المؤمنين فى حقيقة الكمالِ ودخولهم فى الاسم والمعنى مَثَلُ صلاة رباعية أُقيمت، فجاء رجلٌ فأدركَ تكبيرةَ الإحرام، ثم جاءَ آخرُ فأدركَ الركوع، ثم جاءَ آخرُ فأدركَ الركعةَ الثانيةَ، ثم جاءَ ثالثٌ فأدركَ الركعةَ الثالثةَ، ثم جاءَ رجلٌ رابعٌ فأدركَ الركعةَ الآخرةَ، فكلهم قد صلُّوا وأدركوا الصلاة فى جماعة ونالوا فضلَها، لقوله ﷺ: «مَنْ أدركَ من الصَّلاة ركْعَةً فقد أدْركَ الصَّلاةَ». ولكنّ

---

(١) ساقطة من (ط).

(٢) فى (ط): «وكذلك الأدلة هى الغائبات» وأثبت ما فى (ك).

(٣) عبارة المطبوعة (ط): «وبمعناها رؤية الشىء بنور القمر، فإنه يشبح ويلوح المشكلات» وأثبت عبارة (ك).

ليس من أدركَ الركعةَ الأولى فى كمالِ الصلاةِ وإدراكِ حقيقتِها كمن أدركَ الثالثة أو الرابعة، ولا يكونُ أيضًا من أدركَ التكبيرةَ للإحرامِ فى الفضلِ كمن لم يدركْ شيئًا من القيامِ، وهما مُدْركانِ معًا[1].

فكذلكَ المؤمنون فى كمال الإيمانِ وحقائقه لا يستوون، وإن استووا فى الاسم والمعنى، وكذلك فى تفاوتهم فى الآخرة. فقد جاء فى الخبر أنه يقال: «أخْرِجُوا مَنْ فى قَلْبِه مِثقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إيمانٍ، ونِصفُ مثقالٍ، وربعُ مثقَالٍ، وشَعيرةٌ وذَرَّةٌ من إيمانٍ»، فقد حصلُوا متفاوتين فى الإيمان ما بين الذّرةِ إلى المثقال، وكلُّهم قد دخلَ النارَ إلا أنهم على مقاماتٍ فيها.

وفيه دليلٌ أن من كان فى قلبه وزنُ دينارٍ من إيمان لم يمنعْه ذلكَ من دخولِ النارِ؛ لعِظَمِ ما اقترفَ من الأوزارِ، وأنَّ من كان فى قلبه وزنُ ذرةٍ من إيمانٍ لم يحقَّ عليه الخلودُ فى دارِ الهوانِ؛ لتعلقه بيسيرِ الإيقانِ، وأنَّ من زاد إيمانُه على وزنِ دينارٍ لم يكن للنَّارِ عليه سلطانٌ، فكانَ من الأبرارِ، وأنَّ من نقصَ إيمانُه عن ذرةٍ لم يَخْرُجْ من النارِ وإن كانت سيماهُ واسمُه فى الظاهر فى المؤمنين؛ لأنه فى علمِ الله من المنافقينَ الفجارِ، وقد قال الله تعالى فى وصفهم: **﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾** [الانفطار: ١٤]، ثم قال: **﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾** [الانفطار: ١٦]، ثم صارَ صاحبُ المثقالِ والذرةِ فى الجنة على تفاوتِ درجاتٍ، وكانَ الزائدُ إيمانُه على مثقالٍ فى أعلى علِّيين على هؤلاء، وارتفعَ أهلُ الدرجاتِ العلَى على أهلِ علِّيينَ ارتفاعَ الكوكبِ الدُّرِّى[2] فى أفقِ السماءِ، وكلهم قد اجتمع فى الجنة على تفاوتِ مقاماتٍ وتَعالِى درجاتٍ. [وقال الرسول ﷺ: «إنّ أهلَ الدرجات العُلى ليراهم» الحديث][3].

وروينا عن رسول الله ﷺ: «ليس شَىءٌ خَيْرًا من ألفِ مثله إلا الإنسانُ، فَلَعَمْرِى إنَّ قلْبَ الموقن خيرٌ من ألف قلبِ مسلمٍ؛ لأن إيمانَه فوقَ إيمانِ مائة

(١) قوله «ولا يكون أيضًا . . . مدركان معًا»: ليس فى (ك).

(٢) فى (ط): «وترفع أهل الدرجات . . . الكوكب الذى» والصواب ما أثبت من (ك).

(٣) زيادة من (ك).

مؤمن، وعلْمَه بالله تعالى أضعافُ علمِ مائةِ مسلم». ويقال: إن واحدًا منَ الأبْدال الثلاثمائة قيمتُه قيمةُ ثلاثمائة مؤمنٍ.

وكان أبو محمد يقول: يُعطى الله تعالى بعضَ المؤمنينَ من الإيمانِ بوزنِ جبلِ أُحُدٍ، ويعطى بعضَهم مثلَ ذرة.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] بالعلوِّ، ولا نهايةَ لعلوِّ الإيمانِ فصارَ علوُّ كلِّ قلبٍ على قدر إيمانه، ولذلك رُفِعَ العلماءُ على المؤمنينَ درجاتٍ في قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، ففسرها ابن عباس رضى الله عنهما فقال: الذين أُوتُوا العِلمَ فَوقَ المؤمنين بسبعمائة درجةٍ بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، وفى الخبر: «أكثَرُ أهلِ الجَنَّةِ البُلْه، وعِلِّيُّونَ لأُولى الألباب». وعن النبى ﷺ: «فَضْلُ العَالِم على العَابِدِ كفضل القمرِ على سَائِرِ الكواكب». وروينا فى لفظٍ أبلغَ من هذا: «كفضلى على أمتى».

فالموقنونَ من المؤمنين أعلى إيمانًا، والعالمونَ من الموقنينَ أرفعُ مقامًا، ثم على قدرِ بياضِ الماءِ يستبينُ من القنديل حُسْنُه وصفاؤُه.

وهذا مثلُ العقل فى صحته من الاعتلال، وصفائه من كدرِ الأحوالِ والأموال، ويجمعُ ذلك كلَّه القنديلُ وهو القلبُ. فعلى قدرِ رقةِ القلبِ ولطفِ جوهرِه وصفائه من كدرِه وحسنِ طهارته عن الآصار[١] تكونُ هذه العلومُ فيه والأنوار. وجوهرُ الزجاجة فى الصفاء محتاجٌ إلى صفاء الماء، كما أن صفاءَ الماء محتاجٌ إلى صفاءِ الجوهرِ، وبمعيارِهما يكون القلبُ والعقلُ. ووقودُ النُّورِ محتاجٌ إلى قوّةِ الفتيلة[٢] ومددِ الزيت، فبموضعها فى القوّةِ والمددِ يكونُ العلمُ باللهِ تعالى واليقين، ذلك تقدير العزيز العليم.

وكلُّ قلبٍ اجتمعَ فيه ثلاثةُ معانٍ لم يفارقْه خواطرُ الهوى: الجهلُ، والطمعُ،

(١) فى (ط): «الآثار»، والصواب: الآثام، وأثبت ما فى (ك)؛ والآصار: جمع إصر، وهو الذنب.
(٢) فى (ك): «بمعيارهما ويكون القلب والعقل وقود النار تحتاج إلى قوة الفتيلة».

وحبُّ الدنيا. ثم يضعف خاطرُ الهوى ويقوى على قدر تمكُّنِ هذه الثلاثة من النفسِ وقوّتها. ويظهر الهوى في القلب ويخفى على قدر تمكُّنِ هذه الثلاث من اليقينِ، وضعفها لوجودِ مكانها في السَّعة والضِّيق[١] وهو: العلمُ، والإيمانُ، والعقلُ. وفي القلبِ يظهرُ سلطانُ ذَينك[٢] أجمعَ، فأيُّ جندٍ كانت المشيئةُ معه غلبَ. وروينا عن على عليه السلام: إن لله في أرضه آنيةً وهي القلوب، فأحبُّها إليه أرقُّها وأصفَاها وأصلبُها. ثم فسّره فقال: أصلبُها في الدينِ، وأصفاها في اليقينِ، وأرقُّها على الإخوانِ.

فمَثَلُ القلوبِ مَثلُ الأواني في تقارب جوهرها، فأرقُّها وأصفاها وأعلاها يصلح للملك والوجه والطيب، وأكثفُها وأرداها يصلح للأدناس، وما بين ذلك يصلحُ لما بينهما.

ومَثلُهما أيضًا مَثَلُ الموازينِ: الطيارُ اللّطيف منها[٣] يصلح لوزن الذهب بالتحرير، والمعيارُ الكثيفُ الجافي يصلح للقتِّ والأنعام، وما بينهما يصلح لما بين ذلك. فيُوزنُ بكل ميزانٍ ما يصلُح له من كل شيءٍ موزونٍ، كما يُجعل في كل إناء ما يليق به من كل شيء مرذولٍ أو مصونٍ [يلزمه. كذلك الطعمة والمأكول][٤]. كذلك الحكمُ والحكمةُ في الملكوتِ الباطنِ كالحكمةِ والحكمِ في الملكوت الظاهرِ بتعديل الظاهرِ الباطن.

وفي تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿مَثَلُ نُورِه كَمِشْكَاة فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَة﴾ [النور: ٣٥] فسره أُبيُّ بنُ كعبٍ قال: مثل نورِ المؤمنِ، وكذلك كان يقرأه. قال: فقلب المؤمنِ هو المشكاةُ فيها مصباحٌ، فكلامه نورٌ وعَمَلُهُ نورٌ ويتقلبُ في نورٍ، ثم قال في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ [النور: ٤٠] قال: قلبُ

---

(١) في (ط): «من النفس وحقائقها على مثل ما ذكرناه من تمكن خواطر اليقين وضعفها لوجود مكانها» وأثبت عبارة (ك).

(٢) في (ط): «ذلك» وأثبت ما في (ك).

(٣) في (ط): «الطيار اللطيف والمعيار يصلح» وأثبت ما في (ك).

(٤) زيادة من (ك).

المنافق، فكلامُه ظلمةٌ، وعملُه ظلمةٌ، ويتقلب فى ظلمة.

وكان زيدُ بن أسلمَ يقول فى قوله تعالى: ﴿فِى لَوْحٍ مَحْفُوظ﴾ [البروج: ٢٢] قال: قلبُ المؤمنِ. وقالَ أبو محمدٍ سهلٌ: مثلُ القلبِ والصدرِ مثل العرشِ والكرسيِّ.

وروينا فى حديث ابن عمر قال: «قيل: يا رسولَ الله، أين الله فى الأرض؟ قال: فى قلوبِ عباده المؤمنين». وفى الخبرِ المأثورِ عن الله تعالى: «لم يَسَعْنى سَمَائِى وَلاَ أرْضِى، وَوَسِعنى قَلْبُ عَبْدِى المؤمنِ» وفى بعضها: «اللينُ الوادع» فاللِّينُ: يعنى السهلَ الرقيقَ القريبَ، والوادعُ: يعنى الساكنَ المطمئنَ.

وفى الخبرِ: «مَا أُلْبِسَ العَبْدُ لِبْسَةً أَحْسَنَ من خُشُوعٍ فِي سَكِينَةٍ»، فهذه لبسةُ المتقين، وصِبْغَةُ الله تعالى للعارفين. وفى الحديث: «قيل: يا رسول الله، مَنْ خيرُ الناس؟ قال: كُلُّ مُؤْمِنٍ مَحْمُومِ القَلْبِ»، ثم فسره رسولُ الله ﷺ فقال: «هو التقىُّ الذى لا غِشَّ فيه ولا بَغىٌ، ولا غلٌ ولا حسدٌ».

وقال بعضُ العارفين فى معنى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩] أى: مما سوى اللهِ، ليس فيه غيرُ اللهِ. وفى قولِ أهلِ التفسيرِ: سليمٌ من الشركِ والنفاقِ.

وقال رسولُ الله ﷺ: «الشركُ فى أمتى أخفَى من دبيبِ النملِ»، وهذا لا يَعْدَمُه المؤمنونَ إلا الصِّديقين. وقال: «أكثرُ مُنَافِقى أُمَّتى قُرَّاؤُها»، وهذا لا يَعدمُه العابِدُونَ إلا العارفينَ.

ومن خواطرِ اليقينِ ما يَرِدُ بشىءٍ لا تظهرُ دلائلُهُ فى الظاهرِ؛ لخفائِه وغموضِ شواهدِه، فليس يُعلَمُ إلا بباطنِ العلمِ وغامضِ الفهمِ والغوصِ على لطائف معانى التبيينِ وباطنِ الاستنباطِ من فهمِ التنزيلِ وتعليمِ التأويلِ، كما قال الحبيبُ الخليلُ رسولُ الله ﷺ لابن عباس: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فى الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأويلَ». وكما قال علىُّ بنُ أبى طالب: ما عندنا شىءٌ أسرَّهُ إلينا رسولُ الله ﷺ سوى كتابِ الله تعالى إلا أن يُؤتىَ اللهُ تعالى عبداً فَهْمًا فى كتابه. وكما جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿يُؤْتِى الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦٩] قال: الفهم فى كتابِ اللهِ. وقال

أصدقُ القائلين: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء:٧٩]، فَخصَّهُ بفهمٍ منه زاده به فوقَ الحُكْمِ والعلمِ الذى شَرِكَ فيه أباه، فزاده على فُتيا أبيه.

وروينا عن على عليه السلامُ فى الحديثِ الطويلِ الذى يقول فيه: واليقينُ على أربعِ شُعبٍ؛ عَلَى: تبصرةِ الفطْنَة، وتأويلِ الحكمةِ، وموعظةِ العبرةِ، وسنةِ الأوّلينَ. فمَنْ تَبصَّر الفطنة تأوَّل الحكمةَ، ومن تأول الحكمة عرف العبرة، ومن عَرَف العبرةَ كان فى الأولين.

إلا أن أهلَ اليقينِ المرادينَ به العارفينَ بأحكام الله تعالى الباطنة يعلمون تفصيلَ خواطرِ اليقينِ ومقتضاها، من حيث أُشْهِدوا مطلعَها من الغيب، وبحيث عَرَفوا مُوجِبهَا من الوصفِ، بنورِ اللهِ الثاقبِ وقربهِ الحاضرِ وسلطانه النافذ.

كما جاء فى الخبر: «اتَّقُوا فِراسَةَ المُؤْمِنِ فإنَّه يَنْظُرُ بنُورِ اللهِ تعالى» أى باليقين. وفى لفظ آخرَ: «اتَّقُوْا فِراسَةَ العَالِمِ»، فكأنه مُفَسِّرٌ له، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر:٧٥]، وقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:١١٨] أى: بنور اليقين.

وكان أبو الدرداء يقول: المؤمنُ يَنْظُرُ إلى الغَيْبِ من وراءِ سِتْرٍ رَقيقٍ، واللهِ إنه لَلحقُّ يقذفُه اللهُ تعالى فى قلوبِهِمْ، ويجريهِ على ألسنتهم.

وقال بعض العلماء: ظنُّ المؤمنِ كِهانةٌ. أى كأنه سحرٌ من نفاذِهِ وَصِحَّةِ وقوعه.

وقال بعض العلماء: يد اللهِ تعالى على أفواهِ الحكماءِ لا ينطقونَ إلا بما هيَّأ اللهُ عز وجلّ لهم من الحق.

وقال آخرُ: لو شئتُ لقلتُ إن الله يُطلِعُ الخاشعينَ على بعضِ سرِّه.

وكتب عمر بنُ الخطاب رضى الله عنه إلى أمراءِ الأجنادِ: احْفَظُوا مَا تَسمعُونَ من المتَّعظِينَ؛ فإنهم يَنجلى لهم أمورٌ صادقةٌ.

وقال الله تعالى، ومَنْ أصدقُ من الله قيلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ

﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، قيل: نورٌ تُفرِّقون به بين الشبهاتِ، ويقينٌ تَفْرُقون به المشكلات.

ومن هذا قولُه سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ قيل: مخرجًا من كلِّ أمرٍ ضاقَ على الناسِ ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣] يُعلِّمه علمًا بغيرِ تعليمٍ، ويُفَطِّنُهُ بغيرِ تجربةٍ؛ أى بالشاهدِ الصحيحِ، والحق الصريح(١).

ومثله قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] قال بعض العلماء(٢): الذينَ يَعْمَلُونَ بما يَعْلَمُونَ يُوفِّقهم ويهديهم إلى ما لا يَعْلَمُونَ حتى يكونُوا علماء حكماء. وقال بعضُ السلفِ: نزلتْ هذهِ الآيةُ فى المتعبِّدينَ المنقطعينَ إلى الله سبحانه وتعالى المستوْحِشينَ من الناس، فيسوقُ الله تعالى إليهم مَنْ يُعَلِّمُهُم، أو يُلْهِمُهُم التوفيقَ والعصمةَ.

وفى الخبرِ: «مَنْ عمل بما يعلمُ أورثَهُ اللهُ تعالى علم ما لم يعلمْ، وَوَفَّقَهُ فيما يعمل، حتى يستوجبَ الجنة. ومن لم يعمل بما يَعلمُ، تاه فيما يعلم ولم يُوفَّق فيما يعمل، حتى يستوجبَ النار».

فمعنَى: أورثَه علمَ ما لم يعلمْ؛ أى: من علومِ المعارفِ التى هى مواريثُ أعمالِ القلوبِ، مثلُ الفرقِ بين الاختبار والاختيار، والابتلاء والاجتباء، والمثوبة والعقوبة، ومعرفة النقص من المزيدِ، والقبضِ والبسطِ، والحل والعقد، والجمع والتفرقة، إلى غيرِ ذلكَ من علوم العارفينَ بعد حسِّ التفقهِ والأدبِ عن مشاهدةِ الرقيبِ، والقربِ لصحةِ المواجيدِ والقلوبِ.

وقال بعضُ التابعين: مَنْ عَمِلَ بعُشْرِ ما يعلمُ علّمه الله تعالى ما يَجْهَلُ. وقد قال حذيفة: أنتم اليومَ فى زمانٍ مَنْ ترك عُشْرَ ما يعلم هَلَكَ، وَسَيأتى بعدكم زمانٌ مَنْ عمل بعشرِ ما يعلمُ نَجَا. وقال بعضُهُم: كلّما ازدادَ العبدُ عبادةً واجتِهَادًا ازدادَ

(١) فى (ك): «والعلم والصريح».
(٢) فى (ط): «قيل» وأثبت ما فى (ك).

القلبُ قوّةً ونشَاطًا، وكُلَّما ملَّ العبدُ وفتر ازدادَ القَلْبُ ضَعْفًا ووَهْنًا.

ولَيسَ يَكَادُ علْمُ اليقين يقدحُ فى معدن العَقْلِ؛ لأنَّ عُلُومَ العقلِ مَخلُوقَات، ولاَ يَكَادُ يُنْتِجهُ الْفِكْرُ، ولا يُخرجهُ التدبرُ، فما أنتجتهُ الأفكارُ واستخرجته الفطرةُ من الخواطرِ والعلومِ فتلكَ علومُ العقلِ، وهى كشوفُ المؤمنينَ ومحموداتٌ لأهلِ الدِّينِ.

فأما خاطرُ اليقينِ، فإنه يظهرُ من عين اليقين، يُنادَى به العبدُ مناداةً، ويبغته مفاجأة؛ لأنه مَخْصُوصٌ به، مرادٌ مقصودٌ به، محبوبٌ مُتَولَّى به، مطلوب مراد به، مَسلوبٌ[1]، لا يجده إلا عارفٌ أو خائفٌ أو محبٌّ. ومَنْ سوى هؤلاء فبحاله محجوبٌ، وبعاداته مطلوبٌ، وإلى مقامه نَاظِرٌ، وفى طريقه بمعقوله سائرٌ.

فأمَّا العَارِفُونَ المُواجَهُون[2] بعينِ اليَقينِ، المكاشَفونَ بعلم الصدِّيقينَ، فإنهم مُسَيَّرُونَ مَحْمُولُونَ، سَابقون مستهترونَ، قد وضعت الأذْكَارُ عنهم الأوزارَ، كما جاء فى الخبرِ: «سِيرُوا سَبَقَ المُفَرَّدُونَ ـ بالفتح ـ والمفرِّدُونَ، أيضًا، بالكسر، فهم مفرِّدون لله تعالى بما أفْرَدَهُمْ الله تعالى، كما قال جلّ ذكره: ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء:٣٤] ـ قيل: ومن المفرِّدُونَ؟ قال: المستهترون بذكرِ الله، وَضَعَ الذِّكْرُ أوْزَارَهُمْ فَوَرَدُوا القيامةَ خفافًا».

فلما أفردهم الله تعالى ممن سواهمُ له أفردوه عما سواهُ به، فذكرَهم فاستَولى عليهم ذكرُه، فاصطَلَمَ قُلُوبَهم نُورُه تعالى، فاندرجَ ذكرُهم فى ذكره، فكان هو الذاكرَ لهم وكانوا هم المكانَ لمجارى قدرته عزّ وجلّ. فلا يُوزَنُ مقدارُ هذا الذكرِ، ولا يُكتَبُ كيفيةُ هذا البرِّ، فلو وُضِعَتِ السمواتُ والأرضُ فى كِفَّةٍ لَرَجَحَ ذكرُه تعالى لهم بها.

وهم الذين قال لهم: «أفترَى مَنْ واجهتُه بوَجْهى يَعْلَم أحدٌ أىَّ شىءٍ أُريدُ أن أُعطِيَهُ؟ لو كانت السمواتُ والأرضُ فى موازينهم لاستَقْلَلْتُهَا لهم. أوّلُ ما أُعطِيهم

(١) عبارة: «مراد به، مسلوب» من (ك) وتكملتها: «لا يجده إلا عارفًا أو خائفًا أو محبًا».
(٢) فى (ك): «المتواجهون».

أن أقذفَ من نُورى فى قلوبهم فيُخبرونَ عنّى كما أُخبِرُ عنهم»(١).

وهذا هو ظاهرُ أوصافهم، وأولُ عطاياهُمْ. فَطَلَبُ هؤلاء لا يُعرَفُ، ونَصيبُهُم لا يُكَيَّفُ، ومطلوبُهم كُنْهُ قَدْرِهِ لا يُوصَفُ. عطاؤهم غيرُ مخلوقٍ، ومشاهدتُهم وصْفُ التحقيقِ بعينِ اليقينِ إلى حقِّ اليقينِ. فأول نصيبهم من مطلوبهم علمُ اليقينِ، وهو صفاءُ المعرفة بالله تعالى، وآخرُهُ(٢) علْمُ الإيمان أولُ عينِ اليقينِ، وهو مشاهدة وصف معروفٍ، وهذهِ وجهةُ التَّوْحيدِ. ولا آخرُ لأوَّلِ عينِ(٣) اليقينِ، ولا انقطاعَ لآخر نصيبهم من مشاهدتهم.

فظاهرُ التوحيدِ توحيدُ الله تعالى فى كلِّ شىء، وتوحيدُه بكلِّ شىء، ومشاهدةُ إيجاده قبلَ كُلِّ شَىء، ولا نهايةَ لعلم التَّوْحيد(٤)، ولا غَايةَ لمزيد عطاءِ الموحِّدينَ، ولكنْ لهم نهاياتٌ يُوَقَّفُونَ تحتهَا، وغاياتٌ يَصْدُرُونَ عنها، تُجعل أماكنَ لمزيدهم، ويزدادُون فى وُسْعِهَا، ويُمَدُّونَ بعلوم يطلبونَ بها ما يُكَاشَفُونَ به لمَا وراءَها أبدًا، لا بديلاً آخرَ، ولا أمدَ، ولا يَصِلُ العَبْدُ إلى مشاهدةِ علمِ التوحيد إلا بعلمِ المعرفةِ، وهو نورُ اليقينِ، ولا يُعطَى نورُ اليقين حتى تَمْخُضَ الجوارحُ بالأعمالِ الصالحاتِ، كما يُمخَضُ الزِّقُّ باللبنِ؛ حتى تظهرَ الزُّبدةُ، وهى اليقينُ.

وليست هذه الزبدةُ غايةَ الطالبينَ، ولا بُغيةَ الصِّدِّيقينَ؛ لأن وراءها صفوَها وخالصَها، ثم تُذابُ هذهِ الزبدةُ حتى يَخْلُصَ سمنُها، وهو صفوُها، ونهايتُها، وهذا مثلٌ لعين اليقين بعد علْمه وبعدَ مشاهدة الوجه بمرآة القُرْبِ، وهى نُوره، فحينئذٍ لا يفارِقُه وَجْدُهُ وحضورُه، فيرتفعُ العبدُ من خواطرِ اليقينِ إلى مشاهدةِ الصِّفاتِ، وبعد ذَوبِ علمِ الخواطرِ يَتَجوهَرُ نُورُ شُعَاعِ وجهِ الذات(٥)، وهذا مقامُ الإحسانِ، وإنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ بعد مجاهدتِهم النفوس فيه، وبيعها مع الأموالِ

---

(١) جزء من حديث قدسى، وسيجىء تخريج الأخبار كلها مجتمعة آخر الكتاب.

(٢) فى (ط): «وآخر» وأثبت ما فى (ك).

(٣) فى (ط): «علم» وأثبت ما فى (ك).

(٤) فى (ك): «ولا نهاية للتوحيد».

(٥) قوله «يتجوهر نور شعاع وجه الذات»: ليس فى (ك).

منه، فأحسنَ إليهم باشترائها منهُم، وكان معهم كما قال: ﴿سَيَجزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٩]، فإنما كانوا محسنينَ؛ لأنّ المحسن معهم، كما كانوا أعلين؛ إذ الأعلى معهم، فقد قال: [﴿فلا تَهِنُوا وتَدْعُوا إلى السَّلْم﴾ أى: لا تضعفوا وتطلبوا الصلح من الأعداء][1] ﴿وأنْتُمُ الأعْلَوْنَ واللهُ معَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

وَسُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن الإحسانِ فقال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كأنكَ تراه».

وينتقلُ العبدُ من أعمال الجوارحِ وهى المجاهدةُ التى طُرِح عليه ثِقَلُها، فحَمَلها، فتحمّل فيما حمل، وتحفَّظَ له ما استُحْفظ إلى علمِ اليقينِ، وهو الرَّوْحُ والرضا، وهذا هو هدايةُ السبيلِ.

وأوّلُ هذا كلِّه أن يَدْخُلَ العبدُ بعد التوبةِ النصوحة فى أحوالِ المريدينَ، وأعمالَ المجاهدينَ للنفسِ والعدوّ، ثم ينتقلُ إلى خواطرِ اليقين، فهذا ميراثُ المجاهدين، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ يعنى: نفوسَهُم وأموالهم وجاهدوا عدوّهم؛ إذ يَعدُهم الفقرَ، ويأمرُهم بالفحشاء، فَصَابَرَهم فغلبوه فباعُوا النفوسَ والأموالَ، فأُعتقوا من رقِّ الهوَى، ونَجوْا من أهوال الحساب، ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أى: لَنُطْرِقنّهم إلى مكاشفاتِ العلومِ، ولَنُسْمِعَنَّهُمْ غرائبَ الفهومِ، ولنُوَصِّلَنَّهُمْ إلى أقربِ الطرقِ إلينا بحسن مجاهدتِهم فينا، ثم ختم الأمرَ بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

هذا مقامُ مشاهدة الصفات، فكانَ المجاهدُ فيه معهم أولاً بالتوفيق فيه صبرُوا له بالتأييدِ، وكان المحسنُ معهم آخرَ اليومِ فيه أحسنوا إلى نفوسهم غدًا.

وروينا عن الحسن البصرى عن رسولِ الله ﷺ: «العلمُ عِلْمَان: فعِلْمُ باطنٍ فى القَلْبِ فَذاكَ هو النَّافِعُ».

وسُئِلَ رَسولُ اللهِ ﷺ عن معنى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإِسْلامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]: ما هذا الشرحُ؟ قال: «هو التوسعةُ» يعنى: أن

(١) من (ك) وهى ساقطة من (ط).

النورَ إذا قُذف فى القلبِ اتسعَ له الصدرُ وانشرحَ.

وقال بعضُ العارفينَ: لى قلبٌ إذا عصيتُه عصيتُ اللهَ تعالى. يعنى: أنه لا يُقذَفُ فيه إلا طاعةٌ، ولا يُقَرُّ فيه إلا حقٌّ، فقد صارَ رسوله إليه، فإذا عصاهُ فقد عَصا المرسلَ، بمعنى الخبر: «الإيمانُ ما وقرَ فى القلب وصدَّقَه العملُ»، وبقوله ﷺ: «المُؤْمنُ يَنْظُرُ بنُور الله، فَمَنْ نَظَرَ بنُورِ الله كَانَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنَ الله تعالى وكَانَ عَمَلُهُ بنورِهِ طاعةً لله تعالى».

وقال بعضُ العارفين: منذ عشرينَ سنةً ما سكنَ قلبى إلى نفسى ساعةً، وما ساكنتُه طرفةَ عينٍ.

وسُئل بعضُ العلماءِ عن علمِ الباطنِ: أىُّ شىءٍ هو؟ فقال: سِرٌّ من سرِّ الله تعالى يَقذفُه فى قلوبِ أحبابِهِ، لم يُطْلعْ عليهِ مَلكًا ولا بَشرًا.

وقد روينا فيه خبرًا مسندًا أحْبَبْنَا أن نُسْنِدَه: «جاء رجلٌ إلى النبىِّ ﷺ فقالَ: عَلِّمْنِى مِنْ غَرائبِ العلمِ، فَقَالَ: هل عَرَفْتَ الرَّبَّ؟». فأخْبرَ أنَّ غرائبَ العلومِ فى المعرفة، وقد أمرَ ﷺ بأصلِ العلومِ الذى فيه غرائبُ الفهومِ فقال: «اقرأُوا القُرآنَ وَالتَمِسُوا غرائبهُ» يعنى تَدبُّرَ معَانيه واستنباط بواطنه؛ إذ بكلامه عرَفَه أولياؤه، وقد قيل: تَكَلَّمُوا تُعرفُوا. فمن عرَفَ معانى الكلامِ ووجوهَ الخطَابِ عرَفَ به معانى الصفاتِ وغرائبَ علومِ أسماء الذات.

وقال ابن مسعودٍ: مَنْ أرادَ علمَ الأوّلينَ وَالآخرينَ فَلْيُثَوِّر[1] القرآن.

وقال بعض أهل المعرفة فى فهم هذه الآية: ﴿إنَّ اللهَ يأمُرُ بالعَدْلِ والإحْسانِ﴾ [النحل: ٩٠] قال: العدل: تدبُّرُ القرآنِ وَفهْمُهُ، والإحسانُ: مشاهدةُ الفهمِ.

وفى تأويلِ قول على رضى الله عنه[2] فى صفة العدلِ شاهدٌ لقوله هذَا فى حديثِه الذِى وصفَ فيه شُعَبَ الإيمانِ فقال: الإيمَانُ عَلَى أربعِ دعائم: على

(١) ثوَّر القرآن: بحث عن علمه.

(٢) فى (ط): «وفى تأويل قوله عليه الصلاة والسلام» وهو خطأ، لأن هذا من كلام علىٍّ رضى الله عنه، وأثبت ما فى (ك).

الصبرِ، واليقينِ، والعدلِ، والجهادِ. ثم قال: والعدلُ على أربعِ شعبٍ: غائصِ الفهمِ، وزهرةِ العلمِ، وروضةِ الحلمِ، وشرائعِ الحكمِ.

فمن فَهِمَ فسَّرَ جُمَلَ العلمِ، ومن عَلِمَ عرف شرائعَ الحكمِ، ومن حَلُمَ لم يفرِّطْ في أمره، وعاش في الناسِ حَميدًا.

وقال بعضُ المكاشَفِينَ: ظهرَ لي المَلَكُ فسألني أن أُمليَ عليه شيْئًا من ذكرى الخفي من مشاهدَتي من التوحيد، وقال: ما نَكْتُبُ لَكَ عَمَلاً، ونحن نحبُّ أن نَصْعَدَ لك بعملٍ نتقرب به إلى الله تعالى. فقلت: أليس تكتبان الفرائض؟ قالا: بلى. قلتُ: فيكفيكما ذلك[1].

وحدثنا بعض العارفين قال[2]: سألتُ بعضَ الأبدالِ عن مسألةٍ من مشاهدةِ اليَقينِ. فالتفتَ إلى شِمَاله وقال: ما تقولُ رحمك الله؟ ثم التفتَ إلى يمينه فقال: ما تقول رحمك الله؟ ثم أطرَقَ إلى صدْرِه وقال: ما تقولَ رحمك الله، ثم أجابني بأغربِ جوابٍ ما سمعتُه قطُّ وأعْلاَه.

فقلتُ: رأيتُك الْتَفَتَّ عن شِمَالِكَ ويمينكَ، ثمَّ أَقْبَلْتَ على صدْرِكَ فماذا؟

فقال: سألتَني عن مسألة لم يكن عنْدي فيها عِلْمٌ عتيدٌ، فالْتَفَتُّ إلى صاحبِ الشِّمَالِ فَسَأَلْتُه عنها وظننتُ أن عندَه منْهَا علمًا، فقال: لا أدْرِي. فسألتُ صاحبَ اليَمينِ، وهو أعلمُ منْهُ، فقال: لا أدْرِي. فنظرتُ إلى قلبِي فسألته، فَحدَّثني بما أجبتُكَ، وإذَا هُوَ أعلمُ منهما.

وقد كَانَ أبو يَزِيدَ وغَيرُه يقولون: ليسَ العالمُ الذي يحفظُ من كتابِ الله، فإذا نسيَ ما حَفَظ صارَ جاهلاً؛ إنّما العالمُ الذي يأخذُ علمَه من ربِّه عزَّ وجلَّ أيَّ وقتٍ شاء، بِلاَ تحفُّظٍ ولاَ دَرْسٍ.

فهذَا ـ لعمري ـ لا يَنْسَى عِلْمَهُ، وهو ذاكرٌ أبدًا لا يَحْتَاجُ إلى كتابٍ، وهو العالمُ الربَّاني، وهذا هو وصفُ قلوبِ الأبدالِ من الموقنين، ليسُوا واقفينَ مع

(١) في (ط): «أليس يكتبان الفرائض؟ قال: بلى. قلت: فيكفيهما ذلك» وأثبت ما في (ك).

(٢) في (ط): «وقال بعض العارفين قال» وأثبت ما في (ك)، وفيه: «العلماء» بدل: «العارفين».

حفْظٍ، إنَّمَا هم قائمونَ بحافظ.

وَقَدْ رُوينَا فى الخَبَرِ: «إنَّ مِنْ أُمَّتى مُحَدَّثِينَ ومُكَلَّمِينَ، وإنَّ عُمَرَ مِنْهُمْ». وقرأ ابنُ عباسٍ: «ومَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلكَ مِنْ رَسُولٍ ولاَ نَبِيٍّ ولاَ مُحَدَّثٍ»(١) يعنى الصِّدِّيقين.

وهذا كان طريقَ السلف من الصحابة وخيارِ التابعين، إذا سُئلُوا وُفِّقُوا وأُلهمُوا الصوابَ؛ لقربهم من حُسْنِ التوفيق، وسُلوكهِمْ حقيقةَ مَحجَّةَ الطريق، فخاطرُ اليقين إذا وَرَدَ عَلَى قَلْبِ مُؤْمنٍ اضطرَّتْه مُشَاهَدتُه إلى القيامِ به، وإن خَفِىَ على غيرِه، وحكم عليه بيانُه وبرهانُه بصحةِ دليله، وإن التبَسَ على من سواه.

وَقدْ قال اللهُ تعالى فى تخصيص الموقنين: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:١١٨]، ﴿هذا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية:٢٠]. وقال فى نعت المتقين: ﴿وَمَا خَلَقَ اللهُ فى السَّمواتِ والأرْض لآيات لقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦]. وقال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨]. وقال فى فضل العلماء: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فى صُدُورِ الذينَ أُوتُوا العِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩]. وقال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٩٧].

فحقيقةُ العلمِ إنَّما هو من التقوى واليقينِ، وهذا هو علمُ المعرفة المخْصُوصِ به المُقربُّون، وهَبَ لهم الآيات، وخصَّهُمْ بالبيانِ والدلالات، ﴿بما اسْتُحْفظُوا مِنْ كتَابِ الله وكانوا عليه شُهَداء﴾ [المائدة:٤٤] فهذه الخواطرُ تبدو فى القلوب عن هذه الأواسط التى هى خزائنُ الله تعالى من خزائنِ الأرضِ: ﴿ولله خَزَائنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ولَكِنَّ المُنافقينَ لاَ يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون:٧]

(١) هذا الخبر وهذه القراءة رواها سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس. وقال مسلم بن القاسم: «فوجدنا المحدَّثين معتصمين بالنبوة ـ على قراءة ابن عباس ـ لأنهم تكلموا بأمور عالية من أنباء الغيب خطرات، ونطقوا بالحكمة الباطنة؛ فأصابوا فيما تكلموا، وعُصموا فيما نطقوا». وقال أبو بكر الأنبارى معلقًا على خبر ابن عباس: «فهذا حديث لا يؤخذ به على أن ذلك قرآن. والمحدَّث هو الذى يُوحَى إليه فى نومه، لأن رؤيا الأنبياء حق» انظر: القرطبى ١٢/ ٧٩ ـ ٨٠.

والفقهُ: صفةٌ للقلبِ لا للسان. والعربُ[١] تقول: فَقِهْتُ بمعنى فهمتُ. وابن عباس يفسر قول الله عز وجل: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩] يقول: لا يفهمون بها، ويجعلُ الفقهَ الفهم.

فخاطرُ اليقينِ والروحِ والملَك من خزائنِ الله. وخاطرُ العقلِ والنفسِ والعدوِّ من خزائن الأرضِ. كما قيل: النفسُ تُرابيَّةٌ خُلقتْ من الأرض فهى تميلُ إلى الترابِ، والروحُ رُوحَانىٌّ خُلِقَ من الملكوتِ فهى تَرْتَاحُ إلى العُلُوِّ.

والقلْبُ خزانةٌ من خزَائنِ الملكُوت مَثَلُهُ كالمرآة تقدحُ هذه الخواطرَ عن أوساطِهَا من خزائنِ الغَيب، فَتُوقدُ فى القلب فَيتَلألأُ فيه للتأثير. فَمنْهَا: مَا يَقَعُ فى سمعِ القلبِ فيكونُ فَهمًا. ومنْهَا: ما يقع فى بَصَرِ القَلْبِ فيكُونُ نَظَرًا، وَهُوَ المُشَاهَدَة. وَمنْهَا: مَا يَقَعُ فى لِسَانِ القَلْب، فَيكُون كَلامًا، وهَو الذوقُ. ومنها: ما يقع فى شَمِّ القلب فيكونُ علمًا وهو الفِكْرُ، وهُوَ العَقْلُ المكتَسَبُ بِتَلقيحِ العَقلِ الغَريزىِّ، وهذا أقلُّهَا لُبْثًا وأيْسَرُها عَنَاءً. وما وقعَ فى ناظرِ القلبِ وَحسِّه فَخَرقَ شَغَافَهُ ووصلَ إلى سُويدائه فهو المباشرةُ، كان وَجْدًا. وهذا هو الحالُ عن مقامِ مشاهدةٍ. ومن هذا قولُهُ ﷺ: «أسألُكَ إيمانًا يُباشِرُ قَلْبِى».

وقال بعضُ العارفين: إذا كان الإيمانُ فى ظاهرِ القلبِ كان العبدُ محبًا للآخرةِ وللدُّنْيَا، وكان مرةً مع الله تعالى ومرةً مع نَفْسِهِ، فَإِذَا دَخَلَ الإيمَانُ إلى باطنِ القلبِ أبغضَ العَبْدُ الدُّنْيَا وَهَجَرَ هواهُ.

وقد قال عالِمُنَا أبو محمد سهلٌ رحمه الله: للقلب تَجْويفان؛ أحدُهُمَا باطنٌ، وفيه السمع والبصر، وكان يُسمِّى هذا: قلبَ القلبِ، والتَّجويفُ الآخرُ: ظَاهرُ القَلْبِ، وَفِيه العَقْلُ.

ومَثَلُ العقلِ فى القلبِ مثلُ النظر فى العينِ، هو صِقَالٌ لموضعِ مخصُوصٍ فيهِ بمنزلةِ الصِّقالِ الذى فى سوادِ العَيْن.

فإذا كانت هذه الخَواطرُ عن أواسطِ الهُداة به، وهى الملَكُ والروحُ، كانت تَقْوَى

(١) فى (ط): «لا لسان العرب» وهو خطأ، صوابه من (ك).

وهُدًى ورُشْدًا، وكانت من خزائنِ الخَيْر ومفَاتح الرحمَة، قَدَحت في قلب العبد نوراً وطيبًا أدركَتْه الحفَظَة، وهُمْ أملاكُ اليمين، فأثبتوها حسنات.

وإن كانت الخواطرُ عن أواسطِ الغُوَاة وَهُمُ العَدُوُّ، والنَّفْسُ كانت فجوراً وضلالاً، وهي مِنْ خزائن الشرِّ، ومغالقِ الأعراض، قَدحَتْ في القلوب ظُلْمَةً ونَتنًا، أدْركَ ذَلك الحفظةُ من أملاك الشمال فكتبُوها سيئات.

وكلُّ هذا إلهامٌ وإلقاءٌ من خالقِ النفسِ ومُسَوِّيها، وَجَبَّارِ القلوب ومُقلِّبها، حكمةً منه، وعدلاً لمن شاء، ومنَّةً وَفَضْلاً لمنْ أحبَّ. كما قال: ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً**﴾ [الأنعام:١١٥]، أي: بالهدَاية صدقًا لأوليائِه ما وَعَدَهُم من ثوابِه، وبالإضْلال عَدْلاً على أعدائه ما أعدَّ لهم من عقابه. ثم قال تعالى: ﴿**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ [الأنبياء:٢٣]. فهذه جنودٌ مُنْقَادةٌ لأوامره، وهو مَلكٌ جبارٌ عزيزٌ قهار، تعالى عن مباشرةِ الأشياء، إذ كانت تَنْقَادُ لمشيئته، وتُطَوِّعُ لقدْرتِه، فَتُنفِّذَ قُدْرَتُهُ إرادتَه، وتُظهِرَ حكمتُه أفعالَه، إذا أراد شيئًا قال له كُنْ بِخفيِّ قدرته، فكانَ بظاهرِ حكْمَتِه.

والرَّبُّ سبحانه قادرٌ على كلِّ شيء، بيدِه ملكوتُ كلِّ شيءٍ، حكيمٌ في كلِّ شيء. والعبدُ ضعيفٌ عاجزٌ جاهلٌ لا يَقْدِرُ على شيءٍ، قد ابتُلِي بالأسْبَاب، ووَقَعَ عليه الحجابُ، وَجُعِلَ مكانًا للأحكامِ بالعقابِ والثوابِ، فالأسبابُ أواسطُ البلاءِ والعبدُ موضعُ الابتلاء.

والأوَّلُ ـ سبحانه وتعالى ـ هُوَ المُبْلِي المريدُ، المُبْدِئُ، المعيدُ، ويُنْشِئُكُمْ فيمَا لا تَعْلَمُونَ، ﴿**وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا**﴾ [الأنفال:١٧] وليس يشهد العبدُ إلا ما أُشْهِدَ، فكذلكَ تفاوت العباد في المشاهدة، ولا يستبين له إلا ما أُبِينَ له وأُريد به.

فعن ذلكَ اختَلَفُوا في الأدلَّة، فإذا أرادَ اللهُ عزَّ وجلَّ إظهارَ شيءٍ منْ خزَائنِ الغيبِ حرك النفسَ بلطيف القدرة، فتحركتْ بإذنه، فقدَحَ من جوهرها بحركتها ظلمةً تُكتَبُ في القلبِ همَّةَ سُوءٍ، فينظرَ العَدُوُّ إلى القَلْبِ، وهو مُراصدٌ ينتظر، والقلوبُ له مَبْسُوطةٌ، والنفوسُ لديهِ مَنشُورةٌ، يَرى ما فيهَا ما كَانَ من عملِه المبتلَى

به، المصرَّف فيه، فإذا رأى همةً قَدْ قَدَحَتْ فى النفس فأثَّرت ظُلْمَةً فى القلب، ظهرَ مكانُه فقَوِىَ بذلك سلطانُه.

والهمَّة تَرِدُ على أحد ثلاث معان، لا تُحْصَى فروعُها؛ لأنَّ همة كلِّ عبدٍ على قدر بُغيته، أحدُها: هوًى، وهو عاجلُ حظِّ النفسِ، أو أمنيته، وهذا عن الجهلِ الغريزى. أو دَعْوَى حركةٍ. أو سكون، وهو آفةُ العقلِ، ومحبةُ القلبِ.

فأىُّ هذه الثلاث قَدَحَ فى القلب، فهو وسوسةُ نفسٍ، وحضورُ عدوٍّ منسوب إليه محكومٍ عليه بالذَّمِّ، ليستْ تَصدُرُ إلا بأحد ثلاثة أصول: بجهلٍ، أو غَفْلَةٍ، أو طلبِ فضولِ دُنْيا. وهُنَّ مما لا يُعنَى ومضافاتٌ إلى الدنيا وأعمالِها.

والأفضلُ مجاهَدَةُ النفسِ والعدوِّ عن إمضائِهَا، وحبسُ الجوارحِ عن السَّعْىِ فيهَا، إنْ كنَّ من فضولِ الدُّنَيا المباحات. فإن كنّ هذه الثلاثُ وردْنَ بمحرّمات، ففرضٌ عليه كفُّ الجَوَارِحِ عن السَّعْى فيهَا. فإن أمرحَ قَلْبَهُ فى ذكْرِهَا، أوْ نَشَرَ خُطُوَاته فى طَلَبِهَا، كُنَّ حجَابًا بينَ قَلْبه وبَيْنَ اليَقينِ. وإن كنَّ وَرَدْنَ بمبَاحَاتٍ ففَضْلٌ له بنفْيهَا عَنْ قَلْبه، كَيْلاَ يكُونَ قَلْبُه مَوْطنًا للغفلات. وأصلُهُنَّ الابتلاءُ منَ الله تعالى بالتَّقْليب، والامتحَانُ منه فى التَّصْريف، ولذلكَ خَلَقَ النَّفسَ والرُّوحَ، والموتَ والحياةَ، وجعلَ مَا على الأرْضِ زينَةً لها؛ ليُظهرَ أحْسَنَ العَمَلَ بالزُّهْد فيها، وينْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ.

فإذا أرادَ اللهُ تعالى سلامةَ هذا العبد ـ بَعْدَ أن أشرفَ [1] على الهلاكِ والبُعْد بتَسليط العَدُوِّ عليه، وتسويلِ النَّفْسِ له ـ نَظَر القلبَ عندَ الابتلاء، فهدَى النفسَ بنور إيمانه إلى الله تعالى، فأسَرَّ الالتجاء إليه، وأخفَى التَّوكُّلَ عليه، عائذًا لائذًا به، واضطرَّ مُخْلصًا له. فهُنَاك توكَّلَ عليه فكانَ حَسبهُ، وعنْدَهَا فوَّضَ إليه أمْرَهُ فوَقَاهُ مكْرَ عدُوِّه، وحينئذ اضطر إليه، واتقاهُ، فجعَل لَهُ مَخْرَجًا ونَجَّاهُ. فينظرُ اللهُ تعالى إلى القلْب نَظْرَةً تُخْمدُ النَّفسَ، وتَمْحقُ الهمَّةَ، وتَخْنَسُ العَدُوَّ بسقُوط مكانِه، وتُذْهبُ بخُنُوسه شدَّةَ سُلْطَانه، فيَصفُو القَلبُ منَ التأثير بنُورِ السِّراج

(١) فى (ك): «أشفى»، وهما بمعنى واحد.

المُنير، ويَمْلُسُ من التحرير بقوّة القهّار العزيز، فيخَافُ العَبْدُ مقامَ الرَّبِّ لصفَاء القَلْبِ عن نظر الرَّبِّ تعالى، فيَفْزَعُ من الخطِيئَة، ويَهْرُبُ، أو يَستغفرُ منها ويتوبُ، ويَظْهرُ عليه شِعَارُ تَقْوَاهُ.

وإن أراد اللهُ تعالى بعبد هلكَةً، وكَانَ قد حكَمَ بوقوعِ الشرِّ، نظر القلبُ بعدَ الهمَّة بهَوَى النَّفْسِ إلى العَقْلِ فرَجعَ العَقْلُ إلى النَّفْس، فَسولَّتْ وطَوَّعَتْ فَسكَنَ العَقْلُ، واطمأَنَّ إلى تَسْوِيلِ النَّفْس وطَوْعِهَا، فَانْشرَحَ الصَّدْرُ بالهوى لسُكُونِ العَقْلِ، وانتَشرَ الهوَى فى القَلْبِ لِشرْحِ الصَّدْرِ وتَوسعته، فقَوِيَ سُلْطَانُ العدُوِّ لاتِّسَاعِ مكانه، فأقبلَ بتزْيينه وغُروره وأمانيِّه ووعده يُوحِي بذلكَ زُخْرُفًا من التَّحَوُّلِ وغُرورًا، فيَضْعُفُ سُلْطَانُ الإيمان لِقُوَّة سُلْطَانِ العَدُوِّ، وَخَفَاء نُورِ اليقين، فغلبَ الهوى لقوّة الشهوة، فأحرقتِ الشهوةُ العلمَ والبيانَ، فارتفعَ الحياءُ، واستتر الإيمانُ بالشهوةِ فظَهرَت المعصيةُ؛ لغلبَةِ الهوى، وارْتِفَاعِ الحياء.

وهذان المعْنيَانِ من ظُهُورِ الخَيْرِ والشَّر، والطاعة والمعصيةِ، فلهذه الأسباب يوجدان فى طرفةِ عينٍ فتصير أجزاءُ العَبْدِ جُزءًا واحدًا، ومفصلاته تَعُودُ بالمراد منه فصلاً واحدًا، كالبرقِ فى السرعةِ بتغليبِ القدرة على المشيئةِ، إذ قال جلّ وعلا له: ﴿كُنْ فيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وإن أراد الله تعالى إظهارَ خير وإلهامَ تَقوى من خزائنِ الملكُوت حرّك الروحَ بخَفيِّ اللُّطْف، فَتَحرَّكَتْ بأمرِهِ جلّت قدرتُه، فَقَدَحَ من جَوْهَرِهَا نُورٌ سَطَعَ فى القَلْبِ همةً عاليةً.

وهمَّةُ الخَيْرِ تُرَى بأحد ثلاثة معانٍ لا تُحْصَى فُرُوعُهَا، لأنَّ كلَّ عَبْدٍ همَّتُهُ فى الخَيْرِ مَبْلَغُ عِلْمه ومُنْتَهَى مَقَامه. فأحدُ الأصول: مسارعةٌ إلى أمرٍ بفَرْضٍ أو ندبٍ لفضلٍ يكونُ عن عملِ حال العبد. أو علمٌ يكونُ فطنةً له، أُظهر عليه من مكاشفة غيبٍ من مَلَك أوْ مَلَكُوت. والمعنى الثالثُ: بتحمُّل مباحٍ من تصرُّف فيما يَعْنِي، مما يعودُ صلاحُه عليه، واستِرَاحَة النفسِ بما أُبيحَ لهُ يكونُ نَفْعُه لغيره، أو تَرْوِيحَاتٍ من الأفكَارِ لِقَلْبِه الغائِص فى البحارِ، يكونُ حِمْلاً لكَرْبه وتخفيفًا لِثِقْله.

فهذه مرافقُ للعبدِ باختيارٍ من المعبودِ، وحكمةٌ من الحكيمِ، وفى كلِّها رضاه سُبْحانه وتعالى، فإمضاؤُها أفضلُ للعبدِ، وبعضُها أفضلُ من بعض.

وهذه الأصولُ الستة من الخيرِ والشَّر هى الفرقُ بين لمَّة الملَك ولمَّة العدُوّ، وبينَ إلهامِ التقوَى وإلهامِ الفجورِ، التى هى النيَّةُ والوسْوَسَةُ؛ وهُمَا الاختيارُ أو الاختبارُ.

وقد تكونُ هذه المعانِى مكاشفات مزيدٍ للعبدِ ينظر إلى الله تعالى منها، ويجدُ اللهَ تعالى بما أوجَدَهُ منه عِندَها، وتكونُ تعريفًا منَ اللهِ يتعرفُ إليه بهَا، ويَفْتَحُ له بابَ الأنسِ والشوقِ منها.

ثم يتفاوتُ العبادُ فى مُشَاهَدَتِها على حسبِ عُلُوِّهم فى اليقين، وعلى قدرِ قوَّتِهم ومكانِهم من التّمْكين. إلا أن أصول معانى الخير وأواسطها إلهامُ المَلَك، والإلقاءُ فى الروح وقوادحِ الأنوار فى كتبِ الإيمانِ وفروعهَا الآخرةِ، والعلمُ ممَّا أُمرَ به أَوْ نُدبَ إليه، والمُبَاحُ. وأُصُولُ معانى الشَّرِّ أضْدَادُها؛ أواسطُهَا النفس والعدوّ، وأسبابُها الشهوةُ والهوَى؛ يَظْهَرْنَ عَنِ الجَهْلِ ويُوقِعْنَ الحجابَ ويَصْدُرْنَ إلى عقابٍ.

فإذا أرادَ اللهُ تعالى إظهارَ خيرٍ من خزانَةِ الرُّوحِ حرَّكَهَا فَسَطَعتْ نُورًا فى القَلْبِ، فأثَّرَتْ، فينظرُ المَلَكُ إلى القلبِ فيَرَى ما أحدَث اللهُ تعالى فيه فيَظْهَر مكانه فَيَتَمكَّن، على مثال فعلِ العدوِّ فى خزانةِ الشر؛ وهى النَّفْسُ.

والمَلَكُ مجبُولٌ على الهداية، مطبوعٌ على حبِّ الطاعة، كما أنَّ العَدُوَّ مجبولٌ على الغوايةِ، مطبوعٌ على حبِّ المعصيةِ، فيُلْقِى الملكُ الإلهامَ، وهُو خُطوره على القلبِ بقدحِ خواطرِه، فيأمُر بتقييدِ ذلكَ ويُحسِّنه له، ويحثُّهُ عليه، وهذا هو إلهامُ التقوى والرُّشْد. وينظرُ المَلَكُ إلى اليقينِ كما ينظُرُ العَدُوُّ إلى النفسِ، فيشهدُ اليقينُ للمَلَكِ بذلك فيطمئنُّ العقلُ، ويسكنُ إلى شهادةِ اليقينِ. ويصيرُ العقلُ الآنَ بإذنِ الله تعالى مع الملَك بتأييدِ الله تعالى كما كان مع النفسِ أوّلَ مرة مطمئنًا إليها، فينشرحُ الصدرُ لِطمأنينةِ العَقلِ، فتَظْهرُ أدلةُ العلمِ لانْشِراحِ الصَّدْرِ، فيَقْوَى سلطانُ

اليقينِ لصفَاء الإيمان، وتَنْدَرِجُ ظُلْمَةُ الهوَى في نور اليقين، وتنطفئُ شعلةُ الشهوة لظهورِ نُورِ الإيمان، ويُزَيَّنُ الإيمانُ بزينَة الحياء، فَتضْعُفُ صفَاتُ النفس لِسُقُوط الشَّهْوَة، ويَقْوى القَلْبُ لِضَعْفِ النَّفْسِ، ويَزِيدُ الإيمانُ بقُوَّة اليقين وظُهُورِ أدلَّة العلمِ، فَتَغْلِبُ الهِدَايَةُ لمزيد الإيمان ولِبْسَة الحيَاء، فتَظْهَرُ الطاعةُ لغلبة الحقِّ، ﴿واللهُ غَالِبٌ على أمْرِه ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

• ذكر نوع آخر من البيان:

وقد تختلفُ اللَّمَّتَان من الملَك والعَدُوِّ، ويتفاوَتُ الإلهامُ والوسوسةُ في المعاني من الخير والشرِّ، فربَّمَا تقدَّمتْ لَمَّةُ العدوِّ بالأمرِ بالشَّر، وتَقْدَحُ بَعدَهَا لمَّةُ الملَك نُصْرَةً للعَبْد، وتَثْبيتًا على الخير، وعنايةً من الرَّبِّ تعالى، فَيَنْهَى عَنْ ذلكَ، فعلى العبدِ أن يَعْصِيَ الخَاطِرَ الأوَّلَ ويُطِيعَ الخَاطِرَ الثَّاني. وقَدْ يَتقدمُ إلهامُ الملَك بالأمْرِ بالخير، ثم يقدحُ بعدَه خاطرُ العَدُوِّ بالنهْيِ عنه والتثبيطِ والإمْلاء فيه بالتأخير، محنةً من الله تعالى للعبد؛ لينظرَ كيفَ يعملُ، وحَسَدًا من العدوِّ، فعليه أن يطيعَ الخاطرَ الأوَّلَ ويَعْصِيَ الخَاطِرَ الثاني.

ثم تَدِقُّ الخَواطرُ من إلهامِ الملَكِ بالخيرِ ومن وسوسةِ العدوِّ بالشر، وقد يَتَفاوتُ ذلكَ من ضعفِ خاطرِ الخير لقوَّة الرغبة في الدُّنْيَا، ومن قوَّة خاطرِ الشَّرِّ لقوَّة الشهوةِ والهوى، وفي المزيدِ والنقصِ منهمَا، والتَّقْديم والتَّأخير بهما، لتفاوت الأحكامِ والإرادةِ من الحاكمِ، ومن قِبَلِ تَقْليبِ القُدْرَة، وغرائبِ الأحكامِ بالمشيئة؛ لأنَّ له في خزانة الخير خزانةَ الشَّرِّ إذا شاءَ، ولهُ في خزانة الشَّرِّ خزائنَ الخيرِ إذا أحَبَّ، لِمَن يُحبُّهُ؛ لئلا يسكنَ إلى سِوَاهُ، ولا يُدِلَّ العبدُ بما منه أبداه.

فإذا شهدَ العارفُ ذلك لم يَقطَعْ بخيرٍ ولم يُدِلَّ به أبدًا، لأنه لا يأمن مكرَ الله تعالى بتقليبِ خزائنِ الشرِّ من خزائنِ الخيرِ إذا عليه أبدَاه ولم يَيْأس من شرٍّ عليه أبدَاهُ؛ لأنَّه يرجُو تقليبَ خزائنِ الخَيرِ من خَزَائنِ الشَّرِّ فيكون بين الخوف والرجاء، ولا يُدرِكُ ذلك إلا بدقائق العلومِ، ولطائفِ الفهومِ، وغوامضِ الفِطَنِ، وصَفَاءِ الأنوارِ، من تعليمِ الرحيمِ الجبارِ.

فما كان للعبد يَجدُ بعد خَطْرَةَ الشَّرِّ خطْرَةَ خَيرٍ منها تَنْهَاهُ عنها فهو منظورٌ إليه مُتَدارَكٌ، وهذا هو الواعظُ القائمُ فى القلبِ، والزاجرُ المؤيِّدُ للعقلِ.

وقد تترادفُ خواطرُ الشرِّ من النَّفْسِ والهَوَى فلا يَتَعَاقَبُها خاطرُ خيرٍ من المَلَكِ، وهذا علامةُ البُعْدِ ونهايةُ قسوةِ القلب.

وقد تتابعُ خواطرُ الخيرِ والبرِّ من الرُّوحِ والمَلَكِ، ويُعافَى العبدُ من خاطرِ الهوَى والنَّفْسِ، وهذا علامةُ القربِ وهو حالُ المقرَّبينَ.

وقد تَرِدُ خواطرُ العدُوِّ ووساوسُه بالخيرِ والبرِّ ابتلاءً من الله تعالى لعبده، وحِيلَةً من العدوِّ، ومكْرًا من النفس. يريد العدوّ بذلك الشر، أو يُخرجه آخرُ إلى إثمٍ أو خيرٍ؛ ليقطعه بذلك عن واجب، أو يشغله به عن الأفضلِ فى الحالِ، فيكون ظاهرُه برًا، وباطنُه إثمًا، ويكون أوّلُه خيرًا، وآخرُه إثمًا.

وبُغيةُ العدوّ من ذلك باطنُه وآخرُه، وشهوةُ النَّفْسِ فى ذلكَ هواهَا ومُنَاهَا، قد لَبَّسَا ظاهره بالخيرِ تَزْيِينًا، ومَوَّهَا أوّلَه بالبرِّ تَحْسِينًا، وَهذَا من أدقِّ ما يُبْتَلَى به العامِلُونَ، ولا يعرفُ بَواطِنَه وَسَرَائِرَهُ إلا العَالِمُونَ.

فأما خاطر المَلَك فَلا يَرِدُ إلا بَخَيرٍ صَرِيح، وبرٍّ مَحْضٍ على كُلِّ حالٍ إذا وَرَدَ؛ لأن الخداعَ والحيلةَ ليسَ من وصفِ الملائكةِ، ولكن قد تنقطعُ خواطرُ المَلَك من القلبِ إذا اشتدَّت قسوتُه، ودامت معصيتُه من المتعبِّدينَ، فيُخَلَّى بين القلبِ وَبَيْنَ نوازعِ العَدُوّ اللعينِ، وَيَتَخَلَّى العدوُّ بِهَوَى النَّفْسِ فَيَسْتَحْوِذُ ويقترنُ بالعبدِ، نَعُوذُ باللهِ من إبعادِه، وَعَدَمِ خيرِه وإرشادِه.

ولا يزالُ العبدُ مع إلهامِ المَلَكِ فى مقامِ الإيمان، فإذا رُفِع إلى مقامِ اليقينِ تولاه اللهُ تعالى بواسطةِ أنوارِ الروحِ، فكان الروحُ مكانَ إلقاءِ الحقِّ، حتى يَرِدَ عليه من الله تعالى بواسطةِ أنوارِ الروحِ من السرائرِ ما لا يَطَّلِعُ عليه المَلَكُ، ولا يكونُ ذلكَ حتى تفنَى خواطرُ النفسِ بالهوى ولا تَبْقَى منها باقية، وتُطوَى النفسُ فتندرجَ فى الروحِ، فلا يظهرُ منها داعيةٌ. ثم يتولاه الله تعالى بنورِ اليقينِ، فيَسْطَعُ له نورُ اليقينِ من خزانةِ الغيبِ المحجوبِ بمكاشفاتِ الجبروتِ، فيشهدُ العبدُ شهادةَ الحقِّ

بالحقِّ معاينةَ الغَيْبِ بِفَقْدِ كونه ووَجْدِ كينونَتِه ومَا لا يَصْلُحُ بعد ذلكَ كَشْفُه إلاَّ لأَهْلِه، أو لِمَن سألَ عنه؛ وهذا يكونُ فى مقامِ التوحيدِ، وهذا أنصبةُ المقرَّبين.

• ذكر بيان آخر من تفصيل المعانى:

وكلُّ عملٍ ـ وإن قَلَّ ـ لا بدَّ فيهِ من ثلاثة معَانٍ قد استأثَرَ اللهُ تعالى بتَولِّيهَا:

أولُها: التوفيقُ، وهو الاتِّفَاقُ أن يجمَع بينكَ وبين الشىء. ثم القوَّة، وهو اسمٌ لثباتِ الحركَةِ التى هى أولُ العَقْل. ثم الصبرُ، وهُو تَمَامُ الفِعْلِ الذى به يتم.

فقد ردَّ اللهُ عزّ وجلّ هذهِ الأصولَ التى يَظْهَرُ عَنْهَا كلُّ عملٍ إليه، فقالَ سبحانه: ﴿**وَمَا تَوْفِيقِى إلاَّ بالله**﴾ [هود:٨٨]. وقال: ﴿**مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إلاَّ بالله**﴾ [الكهف:٣٩]. وقال عزّ وجلَّ: ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلاَّ بالله**﴾ [النحل:١٢٧]. وقد أجملَ اللهُ عزَّ وجلَّ ذكرَ تقليبِ الكون بمشيئته فى قوله تعالى: ﴿**يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**﴾ [النور:٤٤]. والمعنَى: بمَا فيهمَا؛ لأنَّهُمَا ظرْفَان للأشْياء، فَعَبَّرَ عَنْهُمَا بِهِمَا، كقولِه تعالى: ﴿**بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**﴾ [سبأ:٣٣] والمعنى: مَكْرُكُمْ فِى اللَّيلِ والنَّهَارِ، فعبَّر بِهِمَا عن مكْرِهِمْ؛ لأنَّهُمَا مكانٌ لمكرِهم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَهُ مَا سَكَنَ فِى اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**﴾ [الأنعام:١٣] فيه وَجْهَان: أحدُهما: أى ما أقامَ من السَّكَن. والثانى: ما سَكَنَ، من السُّكُون، وإنَّمَا ذَكَرَ السكونَ دُونَ الحَرَكَة، لأنَّه هُو الأصلُ حتى تحرَّكَ؛ وَهُوَ الأقربُ إلى العَجْزِ وَالعَدَمِ، والتَّحْريكُ حَادثٌ جارٍ بإحداث الله تَعَالى وإجرائه.

وَيَجُوزُ أيضًا ذكرُ السكون ليُستَدلَّ به على الحركة؛ لأنهُ ضدُّها. كما قال الله تعالى: ﴿**سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ**﴾ [النحل:٨١] وهى أيضًا تقى البردَ، فذكرَ أحدَ الوصفين ليُستدلَّ به عَلَى الآخر.

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿**وَنُقَلِّبُ أَفْئدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ**﴾ [الأنعام:١١٠]. وكان قَسَمُ رسول الله ﷺ: «لا وَمُقَلِّبَ القُلُوب»، لما شهدَ منْ عظيم القُدْرَة ولَطيف الصُّنْع فى التَّقْلِيبِ؛ ولما رأىَ من سُرْعَةِ نَفَاذِ القُدْرَةِ بالمرادِ فى المُقَلَّبَاتِ ممَّا لَمْ يَشْهد

سواه. فجعله قَسَمًا لَهُ تَعْظيمًا لقُدْرة المحلُوف به وَخوْفًا منْ سَابق العلْم بالتَّقْليب، فَكَانَ يَقُولُ رسولُ الله ﷺ: «يا مُقَلِّبَ القُلُوب ثبِّتْ قَلبى عَلَى دينكَ». قَالوا له: وَتَخَافُ يا رسولَ الله؟ قَالَ: «ومَا يُؤمِّننى وَالقُلُوبُ بين إصبَعيْن منْ أصَابع الرَّحْمَن يُقَلِّبُهَا كَيفَ يَشاءُ». وفى لفظ حديث آخر: «إنْ شَاءَ أنْ يُقيمَهُ أقَامَهُ، وإن شَاءَ أنْ يُزيغَهُ أزَاغَهُ». وقد رُوىَ عَنْهُ ﷺ: «مثَلُ القَلْبِ مثَلُ العُصْفُور فى تَقَلُّبه يتَقَلَّبُ فى كُلِّ سَاعَة». وفى خبرٍ آخرَ: «مَثَلُ القَلْب فى تقلبه كالقدْر إذَا استَجْمَعَتْ غَلْيًا». والخَبرُ المُشْتهرُ: «مثَلُ القَلْبِ كَمثَلِ رِيشَةٍ بأرضٍ فَلاةٍ تُقَلِّبهَا الرِّيَاحُ ظَهْرًا لِبطْنٍ».

فالقلبُ مكانٌ للتقليبِ بمَا فيه من خزائنِ الغَيْب، كالليلِ والنَّهارِ مكانٌ للأحكامِ بالتصريفِ من اختلافِ الأزمانِ فى الأوقات، والإيمانُ بتقليبِ القلوب، وبأن المقلِّبَ يحُولُ بينَ القلبِ وبينَ صاحبه واجبٌ. وقد قَرنَهُ الله عزّ وجلّ بالإيمان والبعث[1] والأمر بهمَا فى قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤]. وفسره ابنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ: يَحُولُ بينَ المُؤْمنِ وبين الكُفرِ، ويحولُ بينَ الكافرِ وَبينَ الإيمان.

وقيل: يحولُ بينَ العَبْد وبينَ الاستجابة لله تعالى والرَّسُول. وقيلَ: يَحُولُ بينَ المؤمنِ وَبيْنَ سوء الخَاتمَة وَبيْنَ الكَافرِ وَبَيْنَ حسنِ الخاتمَة. وقيل: يحولُ بين المُؤْمنِ وَبيْنَ أنْ يُلقيَهُ فى كَبيرةٍ يَهْلَكُ فيهَا، وبينَ المنافقِ وبينَ أن يُوَفِّقهُ لطاعةٍ فينجوَ بها، ويحولُ بينَ الموحِّدِ وبين الخاتمة بالتَّوحيد.

وهَذه مخاوفُ للمُؤْمنينَ بتَحْقيق الوَعيد، وكذلك الكونُ بأسره عندَ المُوحِّدينَ فى القُدْرَة بالتَّقْليب كَمثَلِ رِيشَة فى ريحٍ عَاصف تُقَلِّبُهُ القُدْرَةُ على مشيئة القَادر، وليسَ فِى القُدْرَة تَرْتيبٌ ولا مَسَافَةٌ ولا بُعدٌ ولا يحتَاجُ إلى زمَانٍ ولا مكانٍ.

فَمَا ظهر من المُلْك وثبتَ للعيُون بمكان وزَمان فلأجْلِ الحكْمَة والصَّنْعَة والإتْقَان، وما خَفىَ من الملكوت وتَقَلَّبَ ببَصَائرِ القُلُوب فبلُطْف القُدْرَة وَقَهْر السُّلْطَانِ. وَنَصيبُ كُلِّ عبدٍ من مُشَاهَدَةِ القُدرَة بقدرِ نَصيبه من التوحيدِ، ونصيبُهُ

---

(١) فى (ط): «وقد قرن الله عز وجل الإيمان بالبعث»، والصواب ما أثبت من (ك).

من التوحيد حَسَبَ قِسْمِه من اليقينِ، وقِسْمُهُ من اليقينِ على قربه من القريب، وقُربُه على حَسَبِ قربِ الله تعالى من قلبه، وقربُ الله تعالى منهُ بقدر علمه بالله تعالى، واتساعُه في العلم بالله عزّ وجلّ على نَحْوِ مكانه من مزيد الإيمان، ومزيدُ إيمانِه على قَدْرِ إحسانِ الله تعالى إليه، وإحسانُه إليه على قدرِ عِنايته به وإيثاره له، وعلمُ اللهِ من وراءِ ذلكَ، وذاك سرُّ القدرة المحجوب المختَزَن.

ونصيبُ كلِّ عبدٍ من الجهلِ على قَدْرِ نصيبه من الغَفْلَة، ونَصيبُه من الغفلة على حَسَبِ حُبِّ الدُّنْيا، وحبُّه للدنيا على قدر قوّة الهَوَى، وقوّةُ الهوَى على قدرِ غَلَبة سُلْطَانِ النَّفْسِ ونشْرِ صِفَاتِهَا علَيْه، وقُوّةُ صِفات النَّفْسِ عَلَى قَدْرِ ضَعْفِ اليقينِ، وضعفُ يقينِه على قدر كثَافة الحجابِ والبعد بينَه وبينَ الله[1] عز وجلّ، والحجابُ والبعدُ ميراثُهما الكِبْرُ وقَسْوَةُ القلبِ. والقسوةُ تورثُ الانهماكَ في المعاصي، وإدمانُ المعاصي تورث[2] الإعْراضَ والمَقْتَ، والإعراضُ والمقتُ من قلة عناية المولى بعبدِه، وسوءِ نَظَرِه له. ومن وراءِ ذلكَ سرُّ القدرِ الذى بِه عن الخَلْقِ قد استأثَره.

فهذِه الأوْصَافُ المذمومَةُ لعبد[3] مُبتلًى بها على تَضادٍّ تلكَ الصفات المحمودة التى هى من المُنْعمِ بها، ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة:١٤٨]. ومكانُ الهوَى من القلبِ عَلَى قَدرِ تَزْيينِ العدوِّ له وتسليطه عليه ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام:١٢٥]، ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران:١٦٠]، ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس:١٠٧]، فإذا كان الهادى هو المضل فمن يهدى؟ وقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل:٣٧] أى: فإن اللهَ من شأنه أنَّ أحدًا لا يهدى مَنْ أضلّه، ومَنْ كانَ أضلَّه اللهُ فى سابقِ عِلْمِه فكَيْفَ يهديه الآنَ؟ كذلكَ قالَ على

(١) فى (ك): «وبعد البعد بينه وبين الله».
(٢) فى (ط): «عن»، وفى (ك): «على».
(٣) فى (ط): «العبد» وأثبت ما فى (ك).

الحرفِ الآخرِ: «فإنَّ اللهَ لاَ يَهْدى مَنْ يَضِلُّ». فإذا كانَ المعطِى هوُ المانعَ، فمَنْ يُعطِ؟

ولو كان الخيرُ كلُّه فى قلبِ عبدٍ ما قَدَرَ أن يُوصلَ إلى قلبه من قلبه ذرَّةً، ولا استطاعَ أن ينفعَ نفسَه بنفسه خردلةً؛ لأن قَلبَه وإن كان جارحَتَه فهو خزانَتُه ولهُ فيه ما لا يعلمُ هو فَهُو لا يَطَّلِعُ على ما فيه، كما قال مُعَجِّبًا ممَّن جهلَه وأضلَّه: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أم اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْدًا﴾ [مريم:٧٨] فكيف به أن يملكَ ما فيه فيصرفَه بما يحب؟ وقد قال ﷺ: «سُبْحَانَ مُصَرِّفِ القلوبِ». وَقَدْ خَاطَبَ اللهُ تعالى سَيِّدَ البشرِ وأمرَه أن يخبرَ فقال: ﴿قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إلا مَا شاء اللهُ﴾ [الأعراف:١٨٨]. ثم قال بعد ذلك: ﴿قُلْ إِنِّى لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًا ولا رَشَدًا﴾ [الجن:٢١]. ﴿قُلْ إِنِّى لَنْ يُجِيرَنِى مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِه مُلْتَحَدًا﴾ [الجن:٢٢].

وإذا كان المالكُ عَزيزًا جَبَّارًا، وكان كلُّ شىءٍ بيدِه، لم يُوصَل إلى ما عندَه بقوةٍ ولا حيلةٍ، فليس الطريقُ إليه إلا الصدقَ والإخلاصَ، والذلَّ والافتقارَ. وقد حُجِبَ العقلُ المكيدُ عن النظرِ إلى المبدئِ المعيد، بما أُظْهِرَ له من صورته وحركَتِه، فَسَتَرَهَ [ذلكَ][1] عن الأوَّلِ المصوِّرِ، وعن القَادرِ المحرِّكِ، فادَّعى ـ عن نَظرِه إلى حَرَكَتِه وَسُكُونِهِ التى هى حَجَبَةٌ له عن المحرِّكِ ـ الغيبَ، ادعى الحركةَ والسكونَ لنفسه[2]، لوقوفِ نظرِه على نفسه، إذ كانَ مشهُودًا، وعَمِىَ عن النَّظَرِ إلى الشاهدِ المحرِّكِ المسكِّنِ[3]؛ لبُعد مقامه؛ لأنه غيبٌ من وراءِ الحركةِ، والغيبُ لا يُشهَدُ إلا بغيبٍ، وهو اليقين، كما لا تُدرَكُ الشهادةُ إلا بشهادةٍ، وهى العينُ. فمن عَمِىَ بصرُه لم يرَ من المُلْكِ شيئًا، كذلكَ من حُجِبَ قلبُه لم يرَ من المُلْكِ شيئًا.

---

(١) ساقطة من (ط).

(٢) فى (ط): «المحرك لغيب ادعاء الحركة والسكون بنفسه» وأثبت ما فى (ك).

(٣) فى (ك): «المحرك الساكن».

فلعدمِ اليقينِ عمىً عن المشاهدةِ؛ ولإيقاع الحجةِ والحجابِ أدرك بالمعقولِ الشهادةَ.

ولو كانَ من أولى البصائرِ لاعتبرَ الحركةَ الغيبيةَ[١] بالمتحرِّك المشاهد، فكما أن الحركةَ غيبٌ فى الجسمِ ظهرَ عنها المتحركُ، فأظهرَ سبحانه المتحرِّكَ وأخفىَ الحركةَ فيهِ، وأظهرَ الصنعةَ وأخفى الصُّنْعَ فيها؛ لتفصيلِ حكمَته، كذلكَ الصانع ذو الصنعةِ الأولِ والحاكمُ الأعْلَى ذُو الحكمةِ الأغلبِ غيبٌ عن الحركةِ التى أخفَاها هو من ورائها بلطائفِ القدرة، فشهدَ المعقولُ ما أُشهد ممّا أظْهَرَ له، ووجَدَ به[٢]؛ لأنّه معقولٌ عليه، محدود له. وعمى عما غُيِّبَ عنْهُ لفقدِ اليقينِ منه، فعندهما ادّعى الحركةَ والسكونَ للشاهد، فحجَبَه ذلك عن الشهيد، وشهد الموحِّدُ بشهادةِ التوحيدِ، فوجدَ لما كُشف له الملكوتُ بنور اليقينِ فأفرده[٣].

وقد قال بعضُ العارفين: من نظر فى توحيدِه إلى عقلِه لم يُنْجِه توحيدُه من النار، ومَن كان توحيدُه فى الدنيا معلَّقًا بمعقوله، لم يحملْ توحيدَه معه إلى اليقين.

أحسبُ أن هذا إيمانُ الذى يقال: أخرجوا من النار مَن كان فى قلبه وزنُ مثقالٍ من إيمان. فما زادَ على هذا المقدار فهو متصلٌ باليقين، وهو مؤيَّدٌ بالروح يمده روح التأييدِ فلا ينطفئُ، فهو المزحزح عن النار.

وقد قال بعض علمائنا: من ظن أنه يصل إلى الله بغيرِ الله تعالى قُطع به، ومن استعان على عبادة الله تعالى بنفسه وُكل إلى نفسه.

ثم إن الخلق محجوبون بعد هذا الحجابِ بثلاثة حُجُبٍ؛ بعضها أكثفُ من بعضٍ، أحدها: أواسطُ، وأسبابٌ معترضة، وشهوات جاذبة، وعادات راجعةٌ صادرة.

(١) فى (ك): «الحركة والغيبة».
(٢) فى (ط): «ما أشهدهما أظهر له ووجه به» والصواب ما أثبت من (ك).
(٣) فى (ط): «فأفرد» وأثبت ما فى (ك).

فالأسبابُ تُوقفهم عليها، والشهواتُ تجذبهم إليها، والعاداتُ تردّهم فيها. فأى هذه الحُجب ظهر فى قَلْب ـ وبعضها أشد عليه من بعض ـ فهو مكان للعدوّ أوسع من مكان، فتمكَّن سلطانُه على قدر سعة مكانه، فقويت النفسُ بتزيين العدوّ، وسوّلت بتأميلها[1]، فملكت العبدَ مُلْكًا أشدَّ من مُلك. فإذا ملكت النفسُ العبدَ كان مملوكَها وأسيرَها، وكانت بالهوى أميرةً، فاستهواه الشيطان حينئذ بالغواية والإضلال، واستحوذ عليه بمعانى المشاركة فى الأولاد والأموال، فشغله بذلك عن الله سبحانه وتعالى، وأنساه ذكر الله عزّ وجلّ. وهذا هو الاقتران الذى ذمّه اللهُ تعالى فى قوله: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء:٣٨]. وهو فوق النَّزْغ والهَمْز والخاطر بعد الهَمّة. وهو خطورُ العدوّ على القلب بالوسوسة، يزيِّن الهَمّة، ويُملى للعبد، ويُرجِّيه، ويفسح له فى أمله، ويمنِّيه التوبةَ حتى تهون عليه المعصية، ويَعدُه بعدها بالمغفرة، حتى يُجرِّئَه على الخطيئة. وهذا هو الوعدُ بالغُرُور وبعده الهلاك والثبورُ. كما قال [تعالى]: ﴿يَعِدُهُمْ﴾ أى التوبةَ ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ المغفرةَ ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [النساء:١٢٠].

وهذا كله تصديقُ ظنِّ العدوّ بالعبد، واتباعُ العبد له بالهوى عن مقام البعد، وكشفٌ لعلم الله تعالى بإظهار الحكم، وإنفاذ المشيئة، وهو الابتلاء بالأسباب، فصار العدوُّ سببًا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ:٢٠]. ثم أحكم ذلك بسابق عِلمه فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِنْ سُلْطَانٍ﴾ يعنى بحوله وقوّته وبقهره ومشيئته ﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ [سبأ:٢١]، أى: لنرى. وقيل: لنعلم العلم الذى يجازَى عليه بالثواب والعقاب. وقيل: لنختبر ونكشف. وقيل: لنُعلّم المؤمنين ذلك فيستبين لهم، ويعلمَ من عمل تلك الأعمال التى ظهرت منه، فتوقع عليه بذلك الحجة، ويتبين له كذبه، كما قال: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت:٣].

---

(١) فى (ك): «وسولته بتأميله».

فعلى هذه المعانى مجازُ كلٍّ ما فى كتاب الله عزّ وجلّ من قوله: لنعلم، وحتى نعلم، إذ كان علمه تعالى قد سبق المعلومات، وإذ كانت الأشياء عن علمه بعلمه جاريات، فجعل تسليط العدوّ بسلطانه كشفًا وإظهارًا لما أخفاه من سابق علمه، كما جعل أفعالَ العباد الظاهرة كشفًا وإظهارًا لإرادته الباطنة.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «سَبَقَ العِلْمُ، وجَفَّ القَلَمُ، وقُضى القَضَاءُ، وتمَّ القَدَرُ بالسعادةِ من الله تعالى لأهل طاعته، وبالشّقاء من الله تعالى لأهل معصيته».

• ذكر تقسيم الخواطر وتفصيل أسمائها:

فأما تسميةُ جملةِ الخواطرِ: فما وقع فى القلب من عملِ الخيرِ فهو إلهامٌ. وما وقع من عمل الشرِّ فهو وَسْواسٌ. وما وقع فى القلب من المخاوف فهو إيجاس(١). وما كان من تقدير الخير وتأوّله(٢) فهو نيَّة. وما كان من تدبير الأمور المباحات [والتمنى](٣) وترجِّيها والطمع فيها فهو أمنية وأمل. وما كان من تذكرةِ الآخرةِ والوعدِ والوعيدِ فهو تذكُّر وتفكير(٤). وما كان من معاينة الغيبِ بعين اليقينِ فهو مشاهدة. وما كان من تحدُّث [النّفس](٥) بمعاشها وتصريف أحوالها فهو هَمٌّ. وما كان من خواطرِ العاداتِ ونوازعِ الشهواتِ فهو لَمَم. ويُسمَّى جميعُ ذلكَ خواطر؛ لأنه خطورُ همَّةِ نفس، أو خطور عدوٍّ بحسد، أو خَطْرة مَلَكٍ بهمس.

ثُمّ إن ترتيبَ الخواطر المنشأة من خزائنِ الغيبِ القادحة فى القلب على ستة معانٍ؛ وهذه حدودُ الشىء المظهر؛ ثلاثةٌ منها معفوة، وثلاثةٌ منها مطالَب بها.

فأولُ ذلكَ: الهمَّةُ، وهو ما يبدو من وسوسةِ النفس بالشىء، يجده العبد بالحس؛ كالبَرْقة. فإن صرفها بالذكر انمحت، وإن تركها بالغفلةِ كانت خطرةً.

(١) فى (ط): «فهو الحساس» وأثبت ما فى (ك)، والإيجاس: من التوجُّس.
(٢) فى (ط): «وتأميله» وأثبت ما فى (ك).
(٣) زيادة من (ك).
(٤) فى (ك): «فهو تذكرة وتَفْكِرَة».
(٥) ساقطة من (ط).

وهو خطور العدوّ بالتزيين. وإن نفى الخاطرَ ذهَب. وإنْ ونَى[1] عنه قَوِىَ فصار وسوسةً، وهذا محادثةُ النفسِ للعدوّ وإصغاؤها إليه. وإن نفى العبدُ هذه الوسوسة بذكر الله خَنَس العدوُّ وصفت[2] النفسُ.

وهذه الثلاثُ مَغفورةٌ برحمةِ الله تعالى غيرُ مؤاخَذ بها العبدُ.

وإن أمرج العبدُ النفسَ[3] فى محادثة العدوّ، وطاولت النفسُ العَوْدَ والإصغاءَ والمحادثةَ قويت الوسوسة، فصارت نِيّة، فإن أبدل العبدُ هذه النيةَ بنيةِ خير، أو استغفر منها وتاب، وإلا قوِيَت فصارت عَقْدًا، فإن حَلَّ هذا العقدَ بالتوبة، وهو الإصرار، وإلاَّ قَوِىَ فصار عَزْمًا، وهو القصد.

وهذه الثلاثة من أعمال القلب، مأخوذٌ بها العبد ومسؤولٌ عنها. فإن تداركَه اللهُ تعالى بعد العزم، وإلا تمكَّن العزم فصار طلبًا وسعيًا، وأظهر العملَ على الجوارح من خزائن الغيب والملكوت، فصار من أعمال الجسم فى خِزانة الملك والشهادة.

فهذه الأعمالُ تُوجَدُ من أعمالِ البرِّ والإثم.

فما كان منها من البر: هَمَّةً، ونيةً، وعزمًا؛ كان محسوبًا للعبد فى باب النيات، مكتوبًا له فى ديوانِ الإرادة، له به حسنات.

وما كان منها من الشرِّ: نيّةً، وعقَدًا، وعزْمًا؛ فعلى العبد فيه مؤاخذة، من باب أعمال القلوب، ونياتِ السّوء، وعقود المعاصى.

وليس شىءٌ مجانس للعدوّ مؤاخٍ له إلا النفس، جمع الله تعالى بينهما فى الوسوسة بقوله: ﴿**الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ**﴾ [الناس:٤]، وقوله: ﴿**وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ**﴾ [ق:١٦].

وكلّ شىء خلقه اللهُ تعالى فلَه مِثْلٌ وضِدٌّ. فمثل النّفس: الشيطان، وضدهما: الروح.

(١) فى (ط): «وإن ولّى» والصواب ما أثبت من (ك). وونَى: فَتَر وضعف.

(٢) فى (ك): «وضعفت».

(٣) قوله «أمرج العبد النفس»: أى تركها ترعى بلا راع. القاموس (مرج).

ثم إنّ أعمال الجوارح من النوعين الطاعة والمعصية أعظم فى الأجر والوزر معًا، إلا ما لا يتأتّى أن يعمله بظاهر الجسم من شهادة التوحيد، أو وجودِ شكٍّ، أو كفر، أو اعتقاد بدعةٍ.

• باب آخر من البيان والتفصيل:

فَأَمَّا ما كان مِنْ لائحٍ يلوحُ فى القلبِ مِنْ معصيةٍ ثم ينقلبُ فلا يلبَثُ، فهذا نَزْغٌ مِنْ قِبَلِ العَدُوِّ. وما كان فى القلبِ من هوًى ثابتٍ، أو حالٍ مُزْعِجٍ دائمٍ لابثٍ، فهو مِنْ قِبَلِ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ بِطَبْعِها، أو مطالبة منها بسوء عادتها. ومَا وَرَدَ على العبدِ مِنْ همِّهِ بخطيئةٍ، ووجد العبدُ فيه كراهتَها، فالوُرودُ مِنْ قِبَلِ العدوِّ، والكراهةُ مِنْ قِبَلِ الإيمَانِ. وما وجده العبدُ وجدًا بهوًى أو معصيةٍ ثم ورد عليه المنعُ مِنْ ذلكَ، فالوجدُ مِنَ النَّفْسِ، والواردُ بالمنعِ مِنَ المَلَك. وما وَجَدَهُ العبدُ من فكرٍ فى عاقبةِ الدنيا أو تدبيرِ الحالِ ونظرٍ إلى معهودٍ، فهذا مِنْ قِبَلِ العَقْلِ. وما وجده العبدُ مِنْ خوفٍ أَوْ حياءٍ أو ورَعٍ أو زُهْدٍ أو مِنْ شأنِ الآخرَةِ، فهذا عَنِ الإيمان. وما شَهِدَ القلبُ مِنْ تعظيمٍ أو هَيْبةٍ أو إجْلالٍ أو قُرْبٍ، فهذا مِنَ اليقينِ، وهو من مزيدِ الإيمان: ﴿وإليه يُرْجَعُ الأمرُ كلُّه فاعْبُدْهُ وتَوكَّلْ عليه﴾ [هود: ١٢٣]، كما قال صاحبُ الأمرِ رسولُ الله ﷺ: «أعوذُ بِكَ منكَ».

وإنّما هذا تفصيلُ الحدودِ وإظهارُ المكانِ وإحكامُ العلمِ، كما قال تعالى: ﴿وكُلَّ شَيءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصيلاً﴾ [الإسراء: ١٢]. وقال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

وليس فى التوحيدِ ولا فى المشاهدة تفكُّرٌ، ولا فى الإشارةِ عَيانٌ، ولا فى القدرةِ ترتيبٌ، ولكن لا بدَّ مِنْ علمِ التفصيلِ لا عن التوحيدِ، وهو التفرقةُ بلسان الشَّرعِ عن عينِ الجمعِ؛ لإظهارِ الطُرُقِ، واستنارَةِ السُّبُلِ، وتطريقِ السَّالكينَ، وترتيبِ العاملين؛ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بيِّنَةٍ وَيَحيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بيِّنَةٍ. وَاللهُ غَالبٌ على أمْرِهِ.

وقد فصَّل بعضُ العلماءِ أعمالَ العبادِ، وفرَّقَ بين الأمرِ [من الله][(١)] والإرادة، فقال: إن أعمالَ العبادِ لا تخلو من ثلاثة أنواع: فرض، ونفل[(٢)]، ومعصية. قال: فنقولُ: إنَّ الفرضَ بأمر الله تعالى ومحبَّة الله ومشيئة الله، تجتمعُ هذه المعانى الثلاثةُ فى الفرائضِ. قال: ونقولُ: إنّ النَّفْلَ لا بأمرِ الله؛ لأنه لم يُوجِبْهُ، ولم يعاقِبْ على تَرْكِه، ولكنه بمحبة الله ومشيئته جلَّ وَعَلا، أى: لأنَّهُ شَرَعَهُ وندبَ إليه. قالَ: ونقولُ: إن المعصيةَ لا بأمرِ الله؛ لأنَّهُ لم يَشْرَعْهَا على أَلْسنَة المرسلينَ، ولا بمَحَبَّة الله؛ لأنه قد كَرِهَهَا؛ إذ لم يأمُرْ بِهَا ولم يندبْ إليها، ولكن بمشيئة الله جلَّتْ عظمتُهُ أن لا يخرجَ شىءٌ من إرادَتِه كما لم يَخْرُجْ شىءٌ مِنْ عِلْمِه.

والإرادةُ والمشيئةُ اسْمانِ بمعنًى واحد، فقد دخل كلُّ شىء فيها كما دخل كلُّ شىءٍ فى العلمِ. فالله سبحانه عالمٌ بما أرادَهُ، وقد سَبَقَ به علمُهُ، كذلك هو مريدٌ لما عَلِمَهُ، أظهرتْ إرادتُهُ سابقَ علمه، وكشف علمُ الغيبِ بظهورِ إرادته الشهادةَ، فهو عالمُ الغيبِ والشهادةِ. فالغيبُ علمُه، والشهادةُ معلومُه، فكيف يخالف المعلومُ العلمَ وهو إجراؤه؟ والإرادةُ نفذت سابق العلم فى معلومات الخلق[(٣)]، وهذا فرضُ التوحيد، فخرجت النَّوافلُ عن الأمر وخرجت المعاصى عن المحبة فى تفصيلِ الأحكامِ وتبيُّنِ الحلالِ والحرامِ، ولم تخرجْ معصيةٌ عن مشيئةٍ. وقد قال الله جلّ ثناؤه: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر:٥٣]. وقد قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ شَيءٍ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزُ وَالكَيْس». فذكر عرضين لطيفين؛ هما سببا المنع والعطاء.

وقد فرق عالِمنا بين الأمر والإرادة فرقًا لطيفًا، فحدثنى بعضُ أصحابنا قال: سألتُ عن الله عزّ وجلّ لما أمرَ إبليسَ بالسجود لآدم: أراد منه ذلك أم لا؟ فقال: أراده ولم يُرِدْه منه.

يعنى أراده شرعًا وإظهارًا، وعليه إيجابًا، ولم يرده منه وقوعًا ولا كَوْنًا. إذ لا

(١) زيادة من (ك).

(٢) فى (ط): «وفضل» وهو تحريف، والصواب من (ك).

(٣) فى (ك): «بنفذ الإرادة سابق علمه فى معلومات خلقه».

يكون إلا ما أرادَ الله تعالى، إذ لو أراد كونه لكان، ولو أرادَه فعلاً لوقع، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. فلمّا لم يكن علمتَ أنه لم يرده، فقد كان الأمران معًا، إرادته بالتكليف والتعبد، وإرادته بأن لا يسجد، فلم يقدر أن يمتنعَ من أن لا يسجد، كما لم يقدر من أن يمتنع من أن يُؤمَر[(١)].

فكذلك القولُ فى نهيه لآدم ﷺ عن أكل الشجرة، أنّه أرادَ الأكلَ منه، ولم يرده له، أى: أراده وقوعًا وكونًا؛ لأنه قد وُجد، وكان كقوله: ﴿إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، فلمّا كانَ علمتَ أنه أراده، ولم يُرده شرعًا، ولا أمرًا؛ لأنه لم يأمره بالأكل؛ ولا شرعه له، فقد كان الأمران جميعًا إرادته: أن يكونَ العبدُ مكلفًا مأمورًا، وإرادتُه الأكل منه؛ لأنه قد كان.

وكذلك القولُ فى كل ما أمَر به وأراده: أنه أراد الأمرَ والنهىَ لهم ليكونوا مكلَّفين متعبِّدين، ولم يُرده ممن لم يكن منه الائتمار والانتهاء، لأنه قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. فأخبر أنه إذا أراد شيئًا كوَّنه، كما أنه إذا كوّن شيئًا فقد أراده بدلالة كَوْنِه. فلما لم يكن الأمر من العاصين علمنا أنه لم يرده، إذ لو أراده كان. ولما كان النهىُ من المأمورين علمنا أنه أراد كونه، إذ لو لم يُرِدْهُ لم يكن، فصار كونُ الشىءِ دليلاً على إرادته. وقد وقعت الإرادةُ بالأمر والنهى، فكان الكلُّ مأمورين منتهين، ولم يقع الفعل من الكل؛ لأنه لم يرد وقوعه، إذ لو أراده كان.

وهذا أصلُ الابتلاء، وإرادة ظهور البلاء. يأمر الله تعالى بالشىء ويريد كونَ ضدِّه، وقد أراد الأمرَ به حسب، وينهى عن الشىء ويريد كونه، وقد أراد النهىَ عنه فقط.

وقد كان عالمنا أبو الحسنِ ـ رحمة الله عليه ـ يتكلّمُ فى عِلْمِ الأمرِ والجَبْرِ[(٢)]،

(١) فى (ط): «يؤمن» وأثبت ما فى (ك).
(٢) فى (ط): «والخير» والصواب ما أثبت من (ك).

وفى الابتلاء والقهرِ، بمعانٍ لا يُهتَدَى إليها اليوم، ولا يَسألُ عنها أحدٌ. أى: يُظهر الأمرَ بالتركِ، ويُظهر النهىَ بالفعلِ، ويُظهر الأحكامَ لوقوعِ البلاءِ، ويَقهر الجوارحَ بالجبرِ على إرادتِهِ للابتلاءِ.

وقد فرَّق الحسنُ البصرىُّ ـ رحمه الله ـ قبله، وهو إمامُنا فى هذا العلمِ، بينَ التعذيبِ على جريانِ العلمِ، ومخالفة الأمرِ، لَمَّا بلغه أن عمرو بن عبيد ـ وهو إمامُ المعتزلةِ اليومَ، وإليه نُسبُوا[1] ـ لَمَّا اعتزل الحسنَ البصرىَّ بعد أنْ صَحبَه، ولم يُختم له بصحبته ـ بلغهُ أنَّهُ يقولُ: إنّ اللهَ لا يقضى بالشَّىءِ ثم يُعذِّبُ عليه، فقال له: ويْلَكَ، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يُعَذِّبُ على جريانِ حُكْمِهِ، وإنَّما يُعذِّبُ على مخالفةِ أمرِهِ.

[دخل معتزلى على جعفر الصادق رضى الله عنه، فقال: يا ابن بنت رسول الله، مسألة؟

فقال جعفر: اذكرْ وبالله التوفيق.

فقال المعتزلى: أيقضى ربُّنا بالفحشاء؟

قال جعفر: أفيكون فى مُلكه ما لا يشاء؟

قال المعتزلى: أفتريد ربّنا أن يُعصى؟

قال له جعفر: أفيُعصى قَهْرًا؟

قال المعتزلى: أفتراه إن جَبرنى على الرَّدى، ومنعنى من الهدى، أأحْسنَ فىَّ أم أساء؟

قال جعفر: إن كان منعك حقًا لك عليه فقد أساء، وإن كان الحق له فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فتاب المعتزلىُّ من وقته][2].

---

(١) المعروف أن المعتزلة ينسب ظهورهم إلى «واصل بن عطاء». والعبارة فى المخطوط «. . . وهو إمام المعتزلة إلى اليوم».

(٢) ما بين المعكوفتين برمته لا يوجد فى (ط) وهو من (ك).

تفسيرُ ذلك: أنّ ما حكَمهُ اللهُ تعالى مُنْفرِدًا به لم يَجْعَلْ فيه أمْرًا ولا نهيًا لا يُعذّبُ عليه؛ لأنّه لم يجعلْ للعبدِ مَدْخَلاً فيه بشهوةٍ ولا فعلٍ. وأن ما قضاه على العبدِ ممّا أدخلَهُ فيه بقَصْدِه وشهوته عَذَّبهُ عليه، وهذا من شُؤْمِ النَّفْسِ وتكديرِ الخَلْقِ أنّها إذَا أُدْخِلَتْ فى شىءٍ انْقَلَبَ عليها شَرُّهُ.

والأُمَّةُ مُجْتَمِعَةٌ على قولِ: «مَا شَاء اللهُ كانَ، وما لم يشأ لم يكُنْ»، واجتمعتْ على قولِ: «لا حولَ ولا قوّةَ إلاَّ بالله»، فهذا عَامٌّ فى كلِّ شىءٍ، ليس فى بعضِ الأشْياء دونَ بعضٍ، والحولُ فى اللغةِ هو الحركةُ، والعربُ تقولُ للشخصِ يبدو من بعيدٍ يُظَنّ أنّه إنسانٌ، أو شجرةٌ، أو صخرةٌ: انظروا إليه فإنْ كان يَحولُ فهو إنسانٌ، أى: يتحركُ. والقوّة: هو الثبات بعد الحركة، وهو أولُ الصبر حتى يظهر الفعل بقوّة الله تعالى.

وقد روينا فى تفسير ذلك عن رسول الله ﷺ: لا حول عن معصيةِ الله إلا بعصمةِ الله، ولا قوّةَ على طاعةِ الله إلا بعونِ الله.

وهذا التفصيلُ فى هذه المعانى من الأحكام هو ظاهرُ العلمِ، وفَرْضُ القدَر، وفَحْوى التنزيلِ والشّرع، والجبرُ للمَلك الجَبَّارِ يُجْبِرُ خلْقَه على ما شاء كما خلَقهم لما شاء، ويردُّهُم إلى ما شاء كما يُنْشئهم فيما يشاء، فالحُكْمُ لله العَلىّ الكَبير، الواحدِ القهار، يقهر عبادَه كيف شاء، ويُجرى عليهم ما يشاء، وله الحجة البالغة، والعزة القاهرة، والقدرة النافذة، والمشيئةُ السابقة، بوصف الربوبية وبحكم الجَبْرية. وعليهم الاستسلام والانقياد والطاعة والاجتهاد طوعًا وكرهًا بوصف العبودية وبحق الملكة: ﴿إنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، ﴿إنْ تُعَذِّبْهُمْ فإنَّهُمْ عِبادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨]، ﴿وعَلَى الله قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهداكُمْ أجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩]، ﴿لله الأمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤](١).

***

(١) بعده فى المخطوط الذى لدىّ: «كمل السفر الأول من كتاب قوت القلوب، بحمد الله وعونه، وصلى الله على محمد رسوله وعبده. يتلوه فى السفر الثانى إن شاء الله تعالى: كتاب العلم».

الفصل الحادي والثلاثون

فيه كتاب العلم [١] وتفضيله، وأوصاف العلماء

وذكرُ فضلِ علم المعرفة على سائر العلوم، وكشفُ طرق العلماء من السلف الصالح، وذكرُ بيان تفضيل علوم الصمت وطريق الورعين فى العلم، والفرقُ بين العلم الظاهر والباطن، وبين علماء الدنيا والآخرة، وفضلُ أهل المعرفة على علماء الظاهر، وذكرُ علماء السوء الآكلين بعلومهم الدنيا، ووصفُ العلم، وطريق التعليم، وذم ما أحدثه المتأخرون من القصص والكلام، وبابُ ذكر ما أحدث الناس من القول والفعلِ فيما بينهم مما لم يكن عليه السلف، وبيانُ فضل الإيمان واليقين على سائر العلوم، والتحذيرُ من الرأى، وذكر معنى قول النبى ﷺ: «طلبُ العلمِ فريضةٌ على كُلِّ مُسْلم»، وفى الحديث الآخر: «اطْلُبُوا العِلْمَ وَلَوْ بِالصِّينِ؛ فإنَّ طَلَبَ العلمِ فَرِيضَةٌ على كُلِّ مُسلِم»[٢].

قال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله: أراد بذلك علم حال، يعنى: علم حال العبد من مقامه الذى أُقيمَ فيه، بأن يعلم أحدُكم حالَه الذى بينه وبينَ اللهِ عزّ وجلّ فى دنياه وآخرته خاصة، فيقوم بأحكام الله تعالى عليه فى ذلك.

وقال بعضُ العارفين: معناهُ طلبُ علمِ المعرفةِ، وقيامُ العبدِ بحكمِ ساعتِه، وما يقتضى منه فى كل ساعة من نهاره.

وقال بعضُ علماء الشام: إنما عُنى به طلبُ علم الإخلاص، ومعرفة آفاتِ النفسِ ووساوسها، ومعرفةُ مكايد العدو وخدعه وغروره، وما يصلح الأعمال ويفسدها، فريضةً كله من حيث كان الإخلاصُ فى الأعمالِ فريضةً، ومن حيث أُعلم بعداوة إبليس، ثم أُمر بمعاداته.

(١) انظر: الإحياء، كتاب العلم، ١/ ٤ وما بعدها.

(٢) ليس فى (ك) من هذا العنوان إلا قوله: «كتاب العلم».

وذهب إلى هذا القول: عبد الرحيم بن يحيى الأرموى، ومن تابعه(١).

وقال بعضُ البصريين فى معناه: طلبُ علمِ القلوب ومعرفةُ الخواطر وتفصيلها فريضة، لأنّها رسُل الله تعالى إلى العبد، ووسواس العدوّ والنفس، فيستجيب لله تعالى بتنفيذِ ما منه إليه، ومنها ابتلاء الله تعالى للعبد واختبار تقتضيه مجاهدةُ نفسِه فى نفيها. ولأنها أولُ النيةِ التى هى أولُ كلِّ عملٍ، وعنها تظهرُ الأفعالُ، وعلى قدرِها تضاعف الأعمالُ؛ فيحتاج أن يُفرِّقَ بين لِمَّةِ المَلَكِ ولمةِ العدوّ، وبين خاطرِ الروح ووسوسة النفس، وبين علم اليقين وقوادحِ العقلِ؛ ليميز بذلك الأحكام.

وهذا عند هؤلاء فريضةٌ. وهو مذهبُ مالكِ بن دينار، وفرقد السنجى، وعبد الواحد بن زيد، وأتباعهم من النُّسَّاك، وقد كان أستاذُهم الحسنُ البَصرى يتكلم فى ذلك، وعنه حملوا علومَ القلوب.

وقال عبَّادُ أهل الشام: معناه: طلبُ علم الحلال فريضة، إذ قد أمر الله تعالى به، وأجمع المسلمون على تفسيقِ آكل الحرام، وقد جاء فى خبر مفسر: «طلب الحلال فريضةٌ بعد الفريضة». ومال إلى هذا القول إبراهيم بن أدهم، ويوسف بن أسباط، ووهيب بن الورد، وحبيب بن حرب.

وقال بعض هذه الطائفة من أهل المعرفة: معناهُ: طلب علم الباطن فريضةٌ على أهله، قالوا: وهذا مخصوصٌ لأهل القلوب ممن استعمل به، واقتضى منه دون غيره من عوام المسلمين؛ ولأنه جاء فى لفظ الحديث: «تَعَلَّمُوا الْيَقِينَ» فمعناه: اطلبوا علم اليقين، وعلمُ اليقين لا يوجد إلا عند الموقنين، وهو من أعمال الموقنين المخصوص فى قلوب العارفين، وهو العلم النافع الذى هو حال العبد عند الله تعالى، ومقامُه من الله تعالى كما شهد له الخبر الآخر فى قوله ﷺ: «وعِلمٌ باطنٍ فى القَلْبِ»، وهو العلم النافع، فهذا تفسير ما أُجْمِل فى غيره.

وقال جُنْدُب: كنا مع رسول الله ﷺ فيعلمنا الإيمان، ثم يعلمنا القرآن،

(١) فى (ك): «عبد الرحيم الأموى وعبد الواحد بن زيد».

فازددنا إيمانًا، وسيأتى زمانٌ قومٍ يتعلّمون القرآن قبل الإيمان.

يعنى: تعلمنا علم الإيمان، وهذا مذهب نُسَّاك أهل البصرة.

وقال بعضُ السلف: إنّما معناهُ: طلبُ علمٍ ما لم يَسعْ جهلُه من علم التوحيد وأصولِ الأمر والنهى، والفرقِ بين الحلالِ والحرام؛ إذ لا غايةَ لسائرِ العلوم بعد ذلك، وكلها يقع عليه اسم علم من حيث هى معلومات، ثم قد أجمعوا أن ليس تعليمُ ما زاد على ما ذكرناه فرضًا، وإنما فيه فضلٌ أو ندبٌ.

وقال بعض فقهاء الكوفة: معناه: طلبُ علم البيع والشراء، والنكاح والطلاق، وإذا أراد الدخول فيه افتُرِض عليه مع دخوله فى ذلك طلب علمه؛ لقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لا يتّجر فى سوقنا هذا إلا من تفقّه وإلا أكَلَ الربا شاء أم أبى. وكما قيل: تفقّه ثم اتَّجِرْ. ومال إلى هذا سفيان الثورى وأبو حنيفة وأصحابهما.

وقال بعض المتقدمين من علماء خراسان: هو أن يكون الرجلُ فى منزله فيريد أن يعمل شيئًا من أمر الدّين، أو يخطر على قلبِه مسألةٌ لله سبحانه وتعالى فيها حكم وتعبّد، وعلى العبد فى ذلك اعتقاد أو عمل، فلا يَسعُه أن يسكت على ذلك، ولا يجوز له أن يعمل فيه برأيه، ولا يحكم بهواه، فعليه أن يلبس نعليه، ويخرج، فيسألَ عن أعلم أهل بلده، فيسأله عن ذلك عند النّازلة، فهذا فريضةٌ. وحُكى هذا القول عن ابن المبارك، وبعض أصحاب الحديث.

وقال آخرون: يعنى: طلبُ علم التوحيد فريضة.

وإنّما اختلفوا فى كيفيةِ الطلب، وماهية الإصابة. فمنهم من قال: من طريق الاستدلال والاعتبار. ومنهم من قال: من طريق البحث والنظر. ومنهم من قال: من طريق التّوفيقِ والأثر.

وقالت طائفة من هؤلاء: إنما أراد طلبَ علمِ الشبهاتِ والمشكلاتِ إذا سمعها العبد وابتُلى بها، وقد كان يسعه تركُ الطلب إذا كان غافلاً عنها على أصل التسليم ومعتقد جملة المسلمين، لا يقع فى وهمه، ولا يحيك فى صدره شىء من

الشبهات، فيسعه تركُ البحث، فإذا وقعَ فى سمعه شىءٌ من ذلك، ووقر فى قلبه، ولم يكن عنده تفصيل ذلك، وقَطْعُه، ومعرفةُ تمييز حقّه من باطله، لم يحلَّ له أن يسكت عليه؛ لئلا يعتقد باطلاً أو ينفى حقًا، فافتُرض عليه طلبُ ذلك من العلماء به، فيستكشفه حتى يكون على اليقين من أمره، فيعتقد من ذلك الحق وينفى الباطل. ولا يقعد عن الطلب، فيكون مقيمًا على شبهةٍ فيتبع الهوى، أو يكون شاكًا فى الدين فيعدل عن طريق المؤمنين، أو يعتقد بدعة فيخرج بذلك عن السُّنّة ومذهبِ الجماعة، وهو لا يعلم.

ولهذا المعنى كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول فى دعائه: اللّهم أرنا الحقَّ حقًا فنتبعَه، وأرنا الباطل باطلاً فنجتنبَه، ولا تجعلْ ذلك متشابهًا علينا فنتبع الهوى.

وهذا مذهب أبى ثور إبراهيم بن خالد الكلبى(١)، وداود بن على(٢)، والحسين الكرابيسى، والحارث بن أسد المحاسبى(٣)، ومن تابعهم من المتكلمين.

فهذه أقوالُ العلماء فى معنى هذا الخبر. حكينا ذلك عن عِلْمنَا بمذاهبهم على معنى مذهب كل طائفة، واحتججنا لكل قول، فالألفاظ لنا والمعنى لهم، وهذا كله حسن ومحتمل، وهؤلاء كلهم وإن اختلفوا فى تفسير الحديث بألفاظ فإنهم متقاربون فى المعنى، إلا أهل الظاهر منهم، فإنهم حملوه على ما يعلمونه، وأهل الباطن تأوّلوه على علمهم، ولعمرى إن الظاهر والباطن علمان لا يستغنى أحدهما عن صاحبه، بمنزلة الإسلام والإيمان مرتبط كل واحد بالآخر؛ كالجسم والقلب لا ينفك أحدهما عن صاحبه.

---

(١) أستاذ الجنيد، أحد الأئمة المجتهدين، قال عنه أحمد بن حنبل: «أعرفه بالسُّنّة منذ خمسين سنة، وهو عندى فى صلاح الثورى»، توفى سنة ٢٤٠هـ. انظر: خلاصة تذهيب الكمال، ص١٥.

(٢) هو داود بن على بن خلف، أبو سليمان البغدادى، ولد بالكوفة سنة مائتين، وإليه انتهت رئاسة العلم ببغداد، وأصله من أصفهان، توفى سنة ٢٧٠هـ. انظر: طبقات الشافعية ٢/ ٢٨٤ ـ ٢٩٣.

(٣) أستاذ أكثر البغداديين، وهو من أهل البصرة، له مؤلفات فى الرقائق كثيرة، مات ببغداد سنة ٢٤٣هـ. انظر ترجمته فى: حلية الأولياء ١٠/ ٧٣ ـ ١٠٩، وطبقات الصوفية، ص ٥٦ ـ ٦٠.

وهؤلاء المختلفون في الأقوال مُجمعون على أنه ﷺ لم يُرد بذلك طلبَ علم الأقضية والفتاوى، ولا علم الاختلاف والمذاهب، ولا كتب الأحاديث مما لا يتعين فرضه، وإن كان الله تعالى لا يُخلى من ذلك من يُقيمه بحفظه.

والذى عندنا فى حقيقة معنى هذا الخبر ـ والله أعلم ـ أن قوله ﷺ: «طَلَبُ العِلْمِ فَرِيَضةٌ» يعنى علم هذه الفرائض الخمس التى بُنى الإسلام عليها من حيث لم يُفترض على المسلمين غيرها، ثم إن العمل لا يصح إلا بعلمه، فأولُ العملِ العلمُ به، فصار علمُ العملِ فرضًا من حيث افتُرض العمل.

فلمّا لم يكن على المسلمين فرض من الأعمال إلا هذه الخمس، فصار طلبُ علمِ هذه الخمس فرضًا؛ لأنه فرضُ الفرضِ، وعلم التوحيد داخل فيها؛ لأنه فى أوّله شهادة أن لا إله إلا الله بإثبات صفاته المتصلة بذاته[١]، ونفى صفات سواه المنفصلة عن إياه، كلّه داخل من علم ذلك فى شهادة: «أن لا إله إلا الله».

وعلمُ الإخلاصِ داخلٌ فى صحة الإسلام؛ إذ لا يكون مسلمًا إلا بإخلاص العمل، لقوله ﷺ: «ثلاثٌ لا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قلبُ مُسْلِمٍ: إخلاصُ العملِ لله...»، فبدأ به واشترطه للإسلام.

والأصل فى هذا أنه لم يُرد ﷺ علم كل ما جاز أن يكون معلومًا بإجماع الأمة، إنه لم يَعْنِ بذلك علم الطب، أو علم النجوم، ولا علم النحو، أو الشعر، أو المغازى، وهذه تسمى علومًا؛ لأنها تكون معلومة، وأربابها علماء بها، إلا أن الشرعَ لم يُرد بالأمر بمقتضاها، والأمة مجمعةٌ أيضًا أنه لم يُرد بذلك علم الفتيا والقضاء، ولا علم افتراق المذاهب واختلاف الآراء، وهذه تُسمى علومًا عند أهلها، وبعضها فرض على الكفاية وكلها ساقطة عن الأعيان.

والخبرُ جاء بلفظ العموم، بذكر الكلية، وبمعنى الاسم، فقال: «طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضةٌ» ثم قال: «على كُلِّ مُسْلِمٍ» بعد قوله: «اطْلُبُوا العِلْمَ» فكان هذا على

---

(١) عبارة (ك): «وعلم التوحيد داخل فيها، لأنه فى أولها فى قوله: ﴿**فاعلم أنه لا إله إلا الله**﴾ وهى شهادة أن لا إله إلا الله. فطلب علم لا إله إلا الله بإثبات صفاته المتصلة بذاته».

الأعيان، فكأنه على ما وقع عليه اسم العلم، ومعناه المعهود المعروف بإدخال التعريف عليه فأشير بالألف واللام إليه، فإذا بطلت هذه الوجوه صحّ أن قوله ﷺ: «طَلَبُ العِلمِ فَرِيضةٌ عَلَى كُلِّ مُسلِمٍ» أى طلب علم ما بُنى الإسلام عليه، فافترض على المسلمين علمه فريضة بدليل قوله ﷺ للأعرابى حين سأله: أخبرنى ماذا افترض الله تعالى علىَّ. وفى لفظ آخر: أخبرنا بالذى أرسلك الله تعالى إلينا به. فأخبره بالشهادتين، والصلوات الخمس، والزكاة، وصوم شهر رمضان، وحجِّ البيت. فقال: «هل علىَّ غيرها؟ فقال: لا إلا أن تطوع. فقال: والله لا أزيد عليه شيئًا، ولا أنقص منه شيئًا. فقال: أفلحَ ودخلَ الجنةَ إن صدق»، فكان علمُ هذه الخمس فريضةً من حيث كان معلومه فريضة إذ لا عمل إلا بعلم.

وقد قال عزّ وجلّ: ﴿إلاَّ مَنْ شَهِدَ بالحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦]. وقال فى مثله: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣]. وقال: ﴿هَلْ عِنْدَكُمْ من عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إنْ تَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ﴾ [الأنعام:١٤٨]. وقال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللهُ﴾ [الروم:٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ [الجاثية:١٨ ـ ١٩]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [هود:١٤]. وقال: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧].

فهذه الآى افترض الله فيها طلب العلم، وذلك الخبر الذى جاء فى أبنية الإسلام الخمسة افترض رسول الله ﷺ فيه هذه الأعمال ثم قال مجملاً: «طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ» ثم وكده بقوله ﷺ: «على كلِّ مُسْلِمٍ». فكان تفسير ذلك وتفصيله أن علم هذه الخمس التى هى أبنية الإسلام فرض لأجل فرضها.

وقد روينا عن رسول الله ﷺ من طريق مرسل أنَّهُ مَرَّ برجلٍ والناسُ مجتمعون عليه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: رجل علامة، فقال: بماذا؟ قالوا: بالشعر والأنساب وأيام العرب؟ فقال: «هذا عِلْمٌ لاَ يَضرُّ جهلُه»، وفى لفظ آخر: «عِلْمٌ لا ينفعُ وَجَهْلٌ لا يَضرُّ». وروينا فى الخبر: «إنّ من العلم جهلاً وإنّ من القول عِيًا». وفى

الخبر الآخر: «قليلٌ من التوفيق خيرٌ من كثيرٍ من العلم». وفى خبر غريب: «كُلُّ شَيءٍ يَحْتَاجَ إلى العِلْم، والعِلْمُ يَحْتَاجُ إلى التَّوْفِيق». والخبر المشهور قوله ﷺ: «أعوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ». فسماه علمًا إذ له معلوم، وأن أصحابه علماء عند أصحابهم، ثم رفع المنفعة عنه واستعاذ بالله منه.

وقد روينا فى خبر: «إن الشيطان ربمَا سَبَقكم بالعلم. قلنا: يا رسول الله، كيف يسبقنا بالعلم؟ قال: يقولُ: اطلب العلمَ، ولا تَعْمَلْ حتى تعلمَ، فلا يزالُ فى العلم قائلاً وللعمل مسوِّفًا حتى يموتَ وما عَمِلَ».

ففى هذا الخبر دليلان؛ أحدهما: أنه أريد به طلب فضول العلم الذى لا نفع له فى الآخرة، ولا قربة فى طلبه من الله. والثانى: أن العلم المفضلَ المندوبَ إليه إنما هو الذى يقتضى العمل، لأن النبى ﷺ لا يأمر بعمل بغير علم، ولا يكره طلب علم للعمل به، ألا تسمع إلى قوله ﷺ فى الخبر الآخر: «فَضْلُ مَنْ عَلِمَ أحَبُّ إلَيَّ مِنْ فَضْلِ مَنْ عَمِلَ، وَخَيْرُ دِينِكُمُ الوَرَعُ».

ذكر فضل علم المعرفة واليقين على سائر العلوم وكشف طريق علماء السلف الصالح من علماء الدنيا والآخرة

قُبض رسولُ الله ﷺ عن ألوف من صحابته، كلُّهم علماء بالله، فقهاء عن الله تعالى، أهلُ رضوان من الله تعالى، ولم ينصِّب واحدٌ نفسه إلى الفتيا، ولا حُملت عنه الأحكامُ والقضايَا، إلا بضعة عشر رجلاً.

وكان ابن عمر إذا سُئل عن الفتيا قال: اذهب إلى الأميرِ الذى تقلّد أمورَ الناس فضَعْها فى عنقه. ورُوِى ذلك عن أنس، ثم جماعة من الصحابة والتابعين بإحسان.

وكان ابن مسعود يقول: إن الذى يفتى الناسَ فى كل ما يستفتونه لَمجنونٌ.

وكان ابن عمر رضى الله عنهما يُسأل عن عشر مسائل، فيُجيب عن مسألةٍ،

ويسكتُ عن تسعة. وكان ابن عباس على ضدٍّ ذلك، كان يُسأل عن عشرة فيجيب عن تسعة ويسكت عن واحدة.

وكان من الفقهاء من يقول «لا أدرى» أكثر من أن يقول «أدرى». منهم: سفيان الثورى، ومالك بن أنس، وأحمد بن حنبل، وفضيل بن عياض، وبشر بن الحارث، رضى الله عنهم. وكانوا فى مجالسهم يجيبون عن بعضٍ ويسكتون عن بعض، ولم يكونوا يجيبون عن كل ما يُسألون عنه.

وروينا عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال: أدركتُ فى هذا المسجد مائةً وعشرينَ من أصحاب رسول الله ﷺ ما منهم من أحدٍ يُسأل عن حديثٍ أو فتيا إلا وَدَّ أنَّ أخاه كفاه ذلك.

وفى لفظ آخر: كانت المسألةُ تُعرض على أحدِهم فَيَرُدُّها إلى الآخر، ويردُّها الآخر للآخر، حتى ترجعَ إلى الذى سُئل عنها أول مرة.

وروى عن ابن مسعود وابن عمر وغيرهما من التابعين، وقد رويناه مسندًا: لا يفتى الناسَ إلا ثلاثةٌ: أميرٌ أو مأمورٌ أو متكلِّف.

تفصيل ذلك: أن الأمير هو الذى يتكلم فى علم الفتيا والأحكام، كذلك كان الأمراء يُسألون ويفتون. والمأمور: الذى يأمره الأمير بذلك فيقيمه مقامه، ويستعين به لشغله بالرعية. والمتكلف: هو القاصُّ الذى يتكلم فى القصص السالفة، ويقصُّ أخبار مَنْ مضى؛ لأن ذلك لا يُحتاج إليه فى الحال، ولم يُندب إليه من العلوم، وقد تدخله الزيادة والنقصان والاختلاف، فلذلك كُرِه القَصَصُ، فصار القاصُّ من المتكلفين.

وقد جاء فى لفظ الحديث الآخر بتأويل معناه: «لا يتكلم على الناس إلا ثلاثة: أمير، أو مأمور، أو مُراءٍ».

فكان قولهم أمير: هو المفتى فى الأقضية والأحكام كما ذكرنا آنفًا، ومعنى مأمور: هو العالم بالله عزّ وجلّ، الزاهد فى الدنيا، يتكلم فى علم الإيمان واليقين، وفى علم القرآن، والحث على مصالح أعمال الدين بأمر من الله تعالى،

أذن الله تعالى له فى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. وقد كان أبو هريرة وغيره يقول: لولا آيتان فى كتاب الله تعالى ما حدَّثتكم بحديث أبدًا، ثم يتلو هذه والآية التى قبلها، ويقول: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَتَى اللهُ تعالى عَالِمًا عِلْمًا إلاَّ أَخَذَ عَلَيْهِ مِنَ الميثاقِ مَا أَخَذَ عَلى النَّبِيِّينَ أَنْ يُبَيِّنَهُ وَلا يَكْتُمَه».

وأما المرائى: فهو المتكلمُ فى علوم الدنيا الناطقُ عن الهوى، يستميل بذلك قلوبَ الناس، ويجتلب بكلامه المزيد من الدنيا والرفعة فيها.

وقال بعض العلماء: كان الصحابة والتابعون بإحسان يتدافعون أربعة أشياء: الأمانة، والوديعة، والوصية، والفتيا. وقال بعضهم: كان أسرعهم إلى الفتيا أقلَّهم علمًا، وأشدُّهم دفعًا لها وتوقفًا عنها أورعهم.

وقال بعض السلف: كان شغلُ الصحابة والتابعين بإحسانٍ فى خمسة أشياء: قراءة القرآن، وعمارة المساجد، وذكر الله تعالى، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر.

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ: «كلُّ كلام ابن آدم عليه لا له إلا ثلاثًا: أمرٌ بمعروف، أو نهى عن منكر، أو ذكرُ الله تعالى». وقال الله أصدق القائلين: ﴿لاَ خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أو مَعْرُوفٍ أو إصلاَحٍ بَيْنَ النَّاس﴾ [النساء: ١١٤].

ورأى بعضُ أصحاب الحديث بعضَ فقهاء الكوفة من أهل الرأى بعد موته فى المنام قال: فقلتُ له: ما فعلتَ فيما كنتَ عليه من الفتيا والرأى؟ قال: فكَرَبَ وجهه، وأعرض عنى، وقال: ما وجدناه شيئًا، وما حَمدْنا عاقبتَه.

وحدَّثونا عن على بن نصر بن على الجهْضَمى، عن أبيه، قال: رأيتُ الخليل بن أحمد فى النوم بعد موته فقلت: ما أجد أعقل من الخليل لأسْألنَّه، فقال لى: أرأيتَ ما كنَّا فيه؟ فإنّى لم أر شيئًا، ما رأيتُ أنفعَ من قول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

وحدَّثونا عن بعض الأشياخ قال: رأيت بعضَ العلماء فى المنام فقلت له: ما فعلتْ تلك العلوم التى كنا نجادلُ فيها ونناظر عليها؟ قال: فبسط يده ونفخ فيها، وقال: طاحت(١) كلها هباءً منثورًا، ما انتفعت إلا بركعتين حصلتا لى فى جوف الليل.

وحُدِّثتُ عن أبى داود السجستانى قال: كان بعضُ أصحابنا كثيرَ الطلب للحديث، حسنَ المعرفة به، فمات فرأيته فى المنام، فقلتُ: ما فعل الله بك؟ فسكتَ. فأعدتُ عليه، فسكت. فقلت: غفر الله لك؟ قال: لا. قلت: لِمَ؟ قال: الذنوب كثيرة، والمناقشة دقيقة، ولكن قد وُعدت بخير، وأنا أرجو خيرًا. قلتُ: أى الأعمال وجدتَها فيما هناك أفضل؟ قال: قراءة القرآن، والصلاة فى جوف الليل. قلتُ: فأيما أفضل ما كنت تقرأ أو تقرئ؟ فقال: ما كنت أقرأ. قلتُ: فكيف وجدتَ قولَنا: فلانٌ ثقةٌ، وفلانٌ ضعيفٌ، فقال: إن خَلَصتْ فيه النيةُ لم يكن لك ولا عليك.

وحُدِّثتُ عن بعض الشيوخ قال: حدثنى أحمد بن عمر الخاقانى قال: أُريت فى منامى كأنى فى طريق أمضى إذ صادفنى رجل، فأقبل علىَّ وهو يقول: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِى الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [الأنعام:١١٦]، فقلتُ له: لى تعنى؟ فقال: لك، ولذاك الذى خَلْفك. فالتفتُ فإذا سَرِىٌّ رحمه الله، فأعرضتُ عن الرجل، وأقبلتُ على السَّرِىِّ وقلت: هذا أستاذنا ومؤدِّبنا الذى كان يؤدبنا فى الدنيا، ثم قلتُ له: يا أبا الحسن إنك قد صرت إلى الله تعالى فأخبرنا بأى عمل تقبَّله الله تعالى؟ فأخذ بيدى، ثم قال: تعالَ، فجئتُ أنا وهو إلى بَنِيَّة مثل الكعبة، فوقفنا إلى جانبها إذ أشرف علينا من البنيَّة شخص، فأضاء ذلك الموضعُ منه، فأومأ سرىٌّ إليه، وأشالنى نحوه، وكان سرىٌّ قصيرًا، وأنا أيضًا قصير، فمد ذلك الشخص الذى كان فوق البَنِيَّة يده فأخذنى، فشالنى إليه، فلم أقدر أفتح عينى من أنوار كانت فى ذلك المكان. ثم قال لى: قد سمعتُ كلامك مع الشيخ،

(١) طاح الشىء: فَنِىَ وذهب.

كل خُلُق فى القرآن محمود تَفْعَلُه، وكل خُلُق فى القرآن مذموم تنتهى عنه، وحسبك هذا.

وقد حدَّثونا عن سرى السقطى قال: كان شابٌّ يطلب علمَ الظاهرِ ويواظبُ عليه، ثم ترك ذلك، وانفرد، واشتغل بالعبادة، فسألت عنه فإذا هو قد اعتزل الناس وقعد فى بيته يتعبَّد، فقلت له: قد كنتَ حريصًا على الطلب لعلم الظاهر، فما بالك انقطعت؟ قال: رأيتُ فى النوم قائلاً يقول لى: كم تضيِّع العلم ضيَّعك الله، فقلتُ: إنى لأحفظه. فقال: إنّ حفظَ العلمِ العملُ به، فتركتُ الطّلب، وأقبلتُ على النظر فيه للعمل.

وقد كان ابن مسعود رضى الله عنه يقول: ليس العلم بكثرةِ الروايةِ وإنّما العلم الخشية. وقال غيره من الفقهاء: إنما العلم نور يقذفه الله تعالى فى القلب.

وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يقول: اعلموا ما شئتم أن تعلموا فوالله لا يؤجركم الله تعالى عليه حتى تعملوا، فإنّ السفهاءَ همّتهم الرواية، وإنّ العلماءَ همتهم الرعاية. وروينا عنه أيضًا أنه قال: إن الله لا يعبأ بذى قولٍ ورواية، إنّما يعبأ بذى فهم ودراية.

وقال أبو حصين: إنّ أحدَهُم ليفتى فى مسألة لو ورَدَتْ على عمر بن الخطاب رضى الله عنه لجمعَ لها أهلَ بدر. وقال غيره: يُسأل أحدُهم عن الشىء، فيُسرع للفتيا، ولو سُئل أهل بدر عنها لأعْضَلَتْهُم.

وقال عبد الرحمن بن يحيى الأسود، وغيره من العلماء: إن علم الأحكام والفتاوى كان الولاة والأمراء يقومون به، وترجع العامة إليهم فيه، ثم ضَعُفَ الأمر، وعجزت الولاةُ عن ذلك؛ لميلهم إلى الدنيا، وشُغلِهم بالحروب عنها، فصاروا يستعينون على ذلك بعلماء الظاهرِ، وبالمفتين فى الجوامع، فكان الأميرُ إذا جلس للمظالم قعدَ عن يمينه وشماله مفتيان، يرجع إليهما فى القضاء والأحكام، ويأمر الشُّرَط بمثل ذلك. فكان من الناس من يتعلم علم الفتيا والقضاء؛ ليستعين بهم الولاةُ على الأحكام والقضاء، حتى كثر المفتون؛ رغبةً فى الدنيا وطلبًا للرياسة. ثم اختلف الأمر بعد ذلك؛ حتى تركت الولاةُ الاستعانةَ بالعلماء، ومما

يدلك على ذلك حديث عمر رضى الله عنه حيث كتب إلى ابن مسعود عقبة بن عامر: ألم أُخبر أنك تفتى الناس، ولستَ بأمير ولا مأمور؟

وفى حديث أبى عامر الهروى قال: حججت مع معاوية، فلما قَدِمْنا مكة حُدِّث عن رجل يقضى ويفتى الناس؛ مولًى لبنى مخزوم، فأرسل إليه فقال: أُمِرتَ بهذا؟ قال: لا. قال: فما حملك عليه؟ قال: نفتى وننشر علمًا عندنا. فقال معاوية: لو تقدمتُ إليك قبل يومى هذا لَقطعتُ منك طابقًا[1]، ثم نهاه.

ولم يكونوا يقولون ذلك فى علم القلوب، ولا علم الإيمان واليقين، بل قد كتب عمر إلى أمراء الأجناد: احفظوا ما تسمعون من المطيعين، فإنهم تُجلَّى لهم أمورٌ صادقة. وقد كان عمر رضى الله عنه يجلس إلى المريدين فيستمع إليهم.

وفى الخبر: إذا رأيتم الرجل قد أُوتى صمتًا وزهدًا فاقتربوا منه فإنه تلقَّى الحكمة.

وقال بعض أصحاب الحديث: رأيت سفيان الثورى حزينًا، فسألته فقال وهو بَرِمٌ: ما صرنا إلا مَتْجرًا لأبناء الدنيا. قلت: وكيف؟ قال: يَلزمنا أحدُهم، حتى إذا عُرِف بنا وحَمَلَ عنا جُعِل عاملاً أو جابيًا أو قهرمانًا.

وكان الحسن يقول: يتعلم هذا العلمَ قومٌ لا نصيب لهم منه فى الآخرة، يحفظ الله تعالى بهم العلم على الأمة لئلا يضيع.

وقال المأمون رحمه الله: لولا ثلاثٌ لخربت الدنيا: لولا الشهوةُ لانقطع النسلُ، ولولا حبُّ الجمع لبطلت المعايش، ولولا حبُّ الرياسة لذهب العلم.

فهذا كلُّه وصفُ علماء الدنيا وأهل علم الألسنة. وأما علماءُ الآخرة وأهلُ المعرفة واليقين فإنهم كانوا يهربون من الأمراء ومن أتباعهم وأشياعِهم من أهل الدنيا، وكانوا يَنتقصون علماء الدنيا، ويطعنون عليهم، ويتركون مجالستهم.

وقال ابن أبى ليلى: أدركت فى هذا المسجد مائةً وعشرينَ من الصحابة، ما سُئل أحدُهم عن حديث ولا استُفْتى فى فُتيا إلا وَدَّ أن صاحبه قد كفاه ذلك.

---

(١) الطابق: العضو من أعضاء الإنسان كاليد والرجل ونحوهما.

وقال مرة: أدركتُ ثلاثمائةً يُسأل أحدُهم عن الفتيا أو الحديث فيردُّ ذلك إلى الآخر، ويُحيل الآخر على صاحبه، وكانوا يتدافعون الفتيا فيما بينهم، ولم يكونوا إذا سُئل أحدهم عن مسألة من علم القرآن أو علم اليقين والإيمان يُحيل على صاحبه ولا يسكت عن الجواب.

وقد قال الله سبحانه: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] فهم أهلُ الذكرِ لله تعالى، وأهلُ التوحيدِ والعقل عن الله تعالى. ولم يكونوا يَتلقوْنَ هذا العلم دراسةً من الكتب، ولا يتلقاه بعضُهم عن بعض بالألسنة، إنّما كانوا أهلَ عَمَلٍ وحسنِ معاملات. فكان أحدُهم إذا انقطع إلى الله تعالى، واشتغل به، استعمله المولى بِخدمتِه بأعمال القلوب. وكانوا عنده فى الخلوة بين يديه لا يذكرون سواه، ولا يشتغلون بغيره. فإذا ظهروا للناس فسألوهم ألهمهم الله تعالى رُشْدَهم، ووفَّقهم لسديد قولهم، وآتاهم الحكمة ميراثًا لأعمالهم الباطنة عن قلوبهم الصافية، وعقولهم الزاكية، وهمَمِهم العالية. فآثرهم بحُسن توفيقه أن ألهمهم حقيقةَ العلم، وأطلعهم على مكْنونِ السِّر، حين آثروه بالخدمة، وانقطعوا إليه بحسن المعاملة، فكانوا يجيبون عما عنه يسألون بحُسن أثَرة الله تعالى لهم، وبجميل أثره عندهم. فتكلموا بعلم القدرة، وأظهروا وَصْفَ الحكمةِ، ونطقُوا بعلوم الإيمان، وكشفوا بواطنَ القرآن.

وهذا هو العلمُ النافعُ الذى بين العبدِ وبين الله تعالى، وهو الذى يلقاه به، ويسأله عنه، ويثيبه عليه، وهو ميزان جميع الأعمال.

وعلى قَدْرِ علم العبد بربه تعالى تَرْجَحُ أعماله، وتُضاعَفُ حسناته، وبه يكون عند الله تعالى من المقرَّبين؛ لأنّه لديه من الموقنين، فهم أهلُ الحقائق الذين وصفهم عليٌّ عليه السلام وفضلهم على الخلائق، فقال فى وصفهم(١):

(١) هذا من كلام الإمام على ـ رضى الله عنه ـ فى: نهج البلاغة، بشرح الشيخ محمد عبده، ٢/ ١٧١ ـ ١٧٤، يخاطب به كُميل بن زياد النخعى. وهناك بعض الاختلافات اليسيرة بين نص نهج البلاغة ونص القوت هنا. وانظر: المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، كاظم محمدى، ص١١٢.

القلوبُ أوعية، وخيرُها أوعاها. والناس ثلاثة: عالمٌ ربانيٌّ، ومتعلمٌ على سبيل نجاة، وهَمَجٌ رَعاعٌ أتباعُ كلِّ ناعقٍ، يَميلون مع كلِّ ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى رُكْن وثيق.

العلمُ خيرٌ من المال؛ العلم يحرسُكَ وأنت تحرس المال. والعلمُ يُزكيه العملُ، والمال تَنْقصهُ النفقةُ. محبة العلم دِينٌ يُدان به، به يكسب [الإنسانُ][1] الطاعةَ فى حياته، وجميلَ الأُحْدوثة بعد مَوْته. العلمُ حاكمٌ والمال محكومٌ عليه، ومنفعةُ المال تزول بزواله. مات خُزَّانُ الأمْوالِ وهُمْ أحياء، والعلماءُ باقون ما بقى الدهرُ.

ثم تنفَّس الصُّعَداء فقال: ها إنَّ ههنا علمًا جمًا[2]، لو أجد له حَمَلةً! بلى أجد لَقِنًا غيرَ مأمونٍ [عليه][3]، يستعمل آلةَ الدينِ فى طلب الدنيا، ويستطيل بنِعَم الله تعالى على أوليائه[4]، ويستظهر بحججه على خلقه أو منقادًا لأهل الحقِّ[5]، ينزرع[6] الشكُّ فى قلبه بأوّل عارضٍ من شُبْهةٍ لا بصيرة له [فى أحنائه][7]، وليسا من رُعاة الدين فى شىء، ألاَ لا ذَا ولا ذاك. مَنْهُومٌ[8] باللذة، سَلِسُ القيادة فى طلب الشّهوات، أو مُغرًى بجمع الأموال والادّخار، منقادٌ لهواه، أقربُ [شىء] شبهًا بهما الأنعامُ السّائمة. اللّهم هكذا يموت العلمُ إذا مات حاملوه[9].

بل لا تخلو[10] الأرضُ من قائم لله تعالى بحجّة: إمّا ظاهرٌ مكشوف، وإما

---

(١) من النهج.

(٢) بعده فى النهج: «وأشار إلى صدره».

(٣) من نهج البلاغة.

(٤) فى النهج: «مستعملاً آلة الدين فى طلب الدنيا، ومستظهرًا بنعم الله تعالى على أوليائه» وكلمة «آلة» ساقطة من المطبوعة وأثبتها من (ك).

(٥) فى (ك): «أو منقادًا لجهله».

(٦) فى النهج: «ينقدح».

(٧) من النهج.

(٨) فى (ط): «فمفهوم» وهى محرفة وأثبت ما فى (ك)، وفى النهج: «أو منهومًا».

(٩) عبارة النهج: «كذلك يموت العلم بموت حامليه».

(١٠) فى نهج البلاغة: «اللهم بلى، لا تخلو».

خائف مقهور؛ لئلا تبطل حجَجُ الله تعالى وبيِّناتُهُ، [وكم ذا؟ وأين أولئك؟][(١)]، أولئك الأقلُّون عددًا، الأعْظمون قدرًا. أعيانُهم مفقودةٌ، وأمثالُهم فى القلوب موجودة. يحفظ الله تعالى بهم حججَه، حتى يُودعَها نظراءَهم، ويزرعوها فى قلوب أشباهِهِم. هجم بهم العلمُ على حقيقة الأمر[(٢)] فباشروا روحَ اليقين، فاستلانوا ما استوعر منه المترَفُون، وأنِسُوا بما استَوْحَشَ منه الغافلون[(٣)]. صَحِبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلَّقة بالمحلِّ الأعلى، أولئك أولياءُ الله من خلقه[(٤)]، وعماله فى أرضه، والدعاةُ إلى دينه، ثم بكى، وقال: وا شوقاهُ إلى رُؤْيتهم[(٥)].

فهذه كلها أوصافُ علماءِ الآخرة، وهذه نعوتُ علمِ الباطنِ وعلمِ القلوب لا علم الألسنة.

وكذلك وصفهم معاذُ بن جبل رضى الله عنه فى وصف العلم بالله تعالى فيما رويناه من حديث رجاء بن حَيْوَةَ بن عبد الرحمن بن غُنم عن معاذ[(٦)] قال: تَعلَّمُوا العِلْمَ فَإنَّ تَعَلُّمَهُ لله خَشْيَةٌ، وَطَلَبَهُ عبادةٌ، ومُدَارَسَتَهُ تسبيحٌ، والبحثَ عنه جهادٌ، وتَعليمَه لمن لا يعلمُه صدقةٌ، وبَذْلَه لأهله قُرْبةٌ. وهو الأنيسُ فى الوحدة، والصاحبُ فى الخلوةِ، والدليلُ على السرّاء والضرّاء، والزيْنُ عند الأخلاَّء، والقريبُ عند الغُرباء، [ومعالمُ الحلال والحرام][(٧)]، ومنارُ سبيل الجنة، يرفع الله تعالى به أقوامًا، فيجعلهم فى الخير قادةً وهداةً يُقتدى بهم، أدلّة فى الخير. تُقْتَصُّ آثارهم، وتُرْمَقُ أعمالُهم، ويُقْتدَى بفعالهم، ويُنْتَهى إلى رأيهم، وترغب الملائكة فى خلَّتهم، وبأجنحتها تمسحهم، حتى كل رَطْب ويابس لهم مستغفر، حتى حيتانُ البحر وهوامه، وسباعُ البر ونعامه، والسّماءُ ونجومها؛ لأن العلمَ حياةُ

(١) «كم» ساقطة من المطبوعة، وأضفت من نهج البلاغة «ذا»، و «أولئك» الأولى ليستقيم الكلام.
(٢) فى (ك): «حقائق اليقين» وفى نهج البلاغة: «حقيقة البصيرة».
(٣) فى النهج: «الجاهلون».
(٤) فى نهج البلاغة: «أولئك خلفاء الله فى أرضه».
(٥) انتهى الخبر بتمامه.
(٦) خبر معاذ بن جبل هذا وكلامه فى: الحلية ١/ ٢٣٩.
(٧) الزيادة من الحلية.

القلوب من العمى، ونورُ الأبصار من الظلم، وقوّةُ الأبدان من الضعف، يبلغ به العبدُ منازلَ الأبرارِ والدرجات العلى. والتفكّرُ فيه يُعدَل بالصيام، ومدارستُه بالقيام. به يطاع الله تعالى، وبه يُعبد، وبه يُوحَّد، وبه يُتورَّع، وبه تُوصَل الأرحام. العلم إمام، والعَمَلُ تابعُه، تُلْهَمُه السُّعداءُ، وتُحْرَمُه الأشْقياءُ(١).

فهذه أوصاف علماء الآخرة، ونعت العلم الباطن.

وقد كان من أفضل الأمراء بعد الخلفاء الأربعة: عمرُ بن عبد العزيز، فحدَّثونا عن زكريا بن يحيى الطائى قال: حدثنى عمى زجر بن حصين أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الحسن رحمهما الله: أما بعد، فأشِرْ علىَّ بقومٍ أستعينُ بهم على أمر الله تعالى. فكتب إليه: أما أهلُ الدين فلن يريدوك، وأما أهلُ الدنيا فلن تريدهم، ولكن عليك بالأشْراف فإنهم يصونون شرفهم أن يُدنِّسوه بالخيانة.

وكان الحسنُ يتكلمُ فى بعض علماء البصرة ويذمُّهم، وكان أبو حازمٍ وربيعةُ المدَنيَّان يذمَّان علماءَ بنى مروان. وقد كان الثورى وابن المبارك وأيوب وابن عون يتكلمون فى بعض علماء الدنيا من أهل الكوفة.

وكان الفضيلُ وإبراهيمُ بن أدهم ويوسفُ بن أسباط يتكلمون فى بعض علماء الدنيا من أهل مكة والشام، كرهنا تسمية المتكلِّم فيهم لأنّ السّكوتَ أقربُ إلى السّلامة.

وكان بشر يقول: حدثنا بابٌ من أبوابِ الدنيا: إذا سمعتَ الرجلَ يقول: حُدثنا فإنّما يقول: أوسعوا لى.

وقد كان سفيانُ الثورى إمامَهُ منْ قَبْله يقول لأهلِ عِلم الظاهر: طلبُ هذا ليس من زاد الآخرة.

وقال ابن وهب: ذُكر طلبُ العلم عند مالك، فقال: إنّ طلبَ العلم لحسنٌ، وإن نشرَه لحَسنٌ، إذا صحّت فيه النّية. ولكن انظر ماذا يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسى، ومن حين تمسى إلى حين تصبح، فلا تؤثرنّ عليه شيئًا.

(١) انتهى كلام معاذ، وهو كذلك فى الحلية مع اختلاف يسير فى بعض الألفاظ.

وقال أبو سليمان الداراني: إذا طلبَ الرجلُ الحديثَ، أو تزوّج، أو سافر في طلب المعاش، فقد ركن إلى الدنيا[1].

وأما علم الإيمان والتوحيد، وعلم المعرفة واليقين، فهو مع كل مؤمن موقن حسنِ الإسلام. وهو مقامُه من الله، وحالُه بين يدى الله، ونصيبُه منه في دَرَجات الجنة، به يكون من المقرَّبين عنده. والعلمُ بالله تعالى والإيمانُ به قرينان لا يفترقان. فالعلمُ بالله تعالى هو ميزان الإيمان، به يَستَبِينُ المزيد من النقصان؛ لأنّ العلمَ ظاهرُ الإيمانِ يكشفه ويظهره، والإيمانَ باطنُ العلمِ يهيجه ويشعله. فالإيمانُ مِداد العلم وبصره، والعلم قوّة الإيمان ولسانه. وضَعْفُ الإيمان وقوّتُه ومزيدُه ونقصه بمزيدِ العلمِ بالله عزّ وجلّ ونقصِه وقوّته وضَعفِه.

وفي وصية لقمان الحكيم لابنه: يا بني، كما لا يصلح الزرعُ إلا بالماء والتراب، كذلك لا يصلح الإيمانُ إلا بالعلم والعمل.

ومَثَلُ المشاهدة من المعرفة من اليقين من الإيمان كمَثَل النّشا من الدّقيق من السويق من الحِنطة. والحِنطةُ تجمع ذلك كله، كذلك الإيمان أصل ذلك. والمشاهدةُ أعلى فروعِه، كالحِنطة أصلُ هذه المعاني، والنّشا أعلى فروعِها.

فهذه المقامات موجودةٌ في أنوار الإيمانِ يمدُّها علمُ اليقين.

ثم إنّ المعرفةَ على مقامين: معرفةُ سمعٍ، ومعرفةُ عِيان. فمعرفة السّمع في الإسلام، وهو أنهم سَمِعوا به فعرفوه، وهذا هو التصديق من الإيمان. ومعرفةُ العِيان في المشاهدة، وهو عين اليقين.

والمشاهدةُ أيضًا على مقامين: مُشاهدةُ الاستدلال، ومشاهدة الدليل عنها. فمشاهدةُ الاستدلالِ قبلَ المعرفةِ، وهذه معرفةُ الخبر، وهو في السّمعِ؛ لسانُها

---

(١) يتحدث أبو سليمان عن مقامه هو، لكن طلب العلم والحديث والزواج لا يصدّ عن الوصول إلى أعلى المقامات؛ بل هي أمور مطالب بها أهل الله، إذ أمرت السنة بذلك. ومثل هذه الأقوال أورثت الجهل لكثير من أهل الطرق، وساعدت على ظهور البدع والابتداع. وأبو سليمان نفسه سيروى عنه ما يخالف هذه المقولة، في كتاب العلم.

القول، والواجدُ بها واجدٌ بعلمٍ [وحدها][(١)] علمَ اليقين من قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ [النمل: ٢٢ ـ ٢٣]. فهذا العلم قبل الوجد، وهو علم السمع، وقد يكون سببه التعليم، ومنه قوله ﷺ: «تَعلَّمُوا اليَقِين» أي جالسوا الموقنين، واسمعوا منهم علمَ اليقين؛ لأنهم علماؤه.

وأما مشاهدةُ الدليل: فهي بعد المعرفة التي هي العيان، وهو اليقين، لسانُه الوجدُ، والواجدُ بها واجدُ قُرْبٍ، وبعد هذا الوجدِ علمٌ من عينِ اليقين، وهذا يتولاه الله تعالى بنوره على يده بقدرته. ومنه قوله ﷺ: «فَوَجدْتُ بَرْدَهَا فعلمت». فهذا التعليم بعد الوجدِ من عين اليقين باليقين، وهذا من أعمال القلوب. وهؤلاء علماء الآخرة، وأهلُ الملكوت، وأربابُ القلوب، وهم المقرَّبون من أصحاب اليمين.

وعلمُ الظاهر من علم الملكِ، وهو من أعمالِ اللسان، والعلماءُ به موصوفون بالدنيا، وصالحوهم أصحابُ اليمين.

وجاء رجلٌ إلى معاذ بن جبل فقال: أخبرني عن رجلين؛ أحدهما مجتهدٌ في العبادة، كثيرُ العمل، قليلُ الذنوب، إلا أنّه ضعيف اليقين، يعتريه الشّك في أموره. فقال معاذ: ليُحبِطنّ شكُّه أعمالَه. قال: فأخبرني عن رجلٍ قليل العمل، إلا أنه قوي اليقين، وهو في ذلك كثير الذنوب. فسكتَ معاذٌ. فقال الرجل: والله لئن أحبط شكُّ الأولِ أعمالَ برِّه، ليُحبطنّ يقينُ هذا ذُنوبَه كلَّها. قال: فأخذ معاذ بيده، وقام قائمًا، ثم قال: ما رأيتُ فقيهًا هو أفقه من هذا[(٢)].

وقد روينا معناه مسندًا قيل: يا رسول الله، رجل حسنُ اليقينِ، كثيرُ الذنوبِ، ورجلٌ مجتهدٌ في العبادة، قليلُ اليقين. فقال: «ما من آدَميّ إلا وله ذُنوب، ولكن من كانت غريزتُه العقل، وسجيتُه اليقين، لم تضره الذنوب؛ لأنه كلّما أذنب تابَ واستغفر ونَدِم، فتُكَفَّر ذُنوبه، ويبقى له فَضْلٌ يَدْخل به الجنّةَ».

---

(١) من (ك). وعبارة (ط): «يعلم علم اليقين».

(٢) في (ط): «ما رأيت الذي هو أفقه من هذا» وأثبت ما في (ك).

وروينا في معناه من حديث أبي أمامة عن رسول الله ﷺ: «من أقلِّ ما أُوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومن أُعطى حظَّه منهما لم يبال ما فاته من قيامِ الليلِ وصيام النهار». وفى وصية لقمان لابنه: يا بنى، لا يستطاع العمل إلا باليقين، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه، ولا يقصر عاملٌ حتى يقصر يقينُه. وقد يعمل [الرجلُ العملَ][(١)] الضعيفَ إذا كان متيقنًا أفضل من عمل[(٢)] القوى الضعيف فى يقينه. ومن يضعُف يقينُه تغلبه المحقِّرات من الإثم.

وقد كان يحيى بن معاذ يقول: إن للتوحيد نورًا، وللشرك نارًا، وإن نورَ التوحيدِ أحرقُ لسيِّئات الموحِّدين من نار الشرك لحسنات المشركين.

واليقين على ثلاث مقامات[(٣)]:

يقين معاينة: وهذا لا يختلف خبره، فالعالم به خَبير، وهو للصدِّيقين والشهداء.

ويقين تصديق واستسلام: وهذا فى الخبر، والعالم به مُخبر مسلم. وهذا يقين المؤمنين، وهم الأبرار، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك، كقوله تعالى جده: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢]. وقد يضعفُ هؤلاء بعدم الأسباب ونقصان المعتاد، ويَقوَوْن بوجودها وجريان العادة، ويُحجبون بنظرهم إلى الأواسط، ويكاشَفون بها، ويجعلون مزيدهم وأنسهم بالخَلْق، ويكون نَقْصُهُم ووحشتُهم بفقدهم. ويكون من هؤلاء الاختلاف، ويتلوّنون بالخلاف؛ لتلوين الأشياءِ وتغيّرها [عَلَيْهم و][(٤)] نقصِها.

المقام الثالث من اليقين: وهو يقينُ ظنٍّ يقوى بدلائل العلم والخبر وأقوالِ العلماء، ويجد هؤلاء المزيد من الله تعالى والنصيب منه لهم، ويضعف بفَقد الأدلّة وصمتِ القائلين. وهذا يقينُ الاستدلال، وعلوم هذا فى المعقول، وهو

(١) الزيادة من (ك).

(٢) فى (ط): «العمل» وأثبت ما فى (ك).

(٣) وانظر فى اليقين أيضًا: مدارج السالكين ٢/ ٤١٥.

(٤) الزيادة من (ك).

يقين المتكلمين من عموم المسلمين من أهل الرأى، وعلومِ العقل، والقياس، والنظر. وكلٌّ مُوقن بالله تعالى فهو على عِلمٍ من التوحيد والمعرفة، ولكنّ علمَهُ ومعرفته على قدر يقينه، ويقينَهُ من نحو صفاء إيمانه وقوّته، وإيمانَهُ على مقتضى معاملته ورعايته.

فأعلى العلومِ علمُ المشاهدة عن عينِ اليقين، وهذا مخصوصٌ للمقربين فى مقامات قربهم، ومحادثات مجالستهم، ومأوى أُنسهم، ولطيف تملُّقهم.

وأدنى العلومِ علمُ التسليم والقبول بعدم الإنكار، وفقدِ الشكوك. وهذا لعموم المؤمنين، وهو من علم الإيمان ومزيدِ التصديق، وهذا لأصحاب اليمين.

وبين هذين مقامات لطيفات من أعلى طبقات المقربين إلى أوسط المقامات، ومن أدنى طبقات أصحاب اليمين إلى أعلى أواسط الأعلين[1].

ذكر بيان تفضيل علوم الصمت، وطريق الورعين فى العلوم

روينا فى الخبر: «العلمُ ثلاثةٌ: كتابٌ ناطقٌ، وسنةٌ قائمةٌ، ولا أدْرِى». وعن الشعبى أنه قال: لا أدرى نصفُ العلم. يعنى: أنه من الورع. وكان الثورى رضى الله عنه يقول: إنّما العلمُ الرّخصةُ من ثِقَة، فأما التشديد فكل أحدٍ يحسنه. يعنى أن التورع والتوقف فى الأمور هو سيرة المؤمنين وإن لم يكونوا علماء، لأنّ الورعَ هو الجبنُ عن الإقدام، والهجومُ على الشبهات، والوقوفُ عند المشكلات بسكونٍ أو سكوت. واليقينُ هو الإقدامُ على الأشياء ببصيرة وتمكين، والقطعُ بالأمر على علم وخَبَر.

فهذا صفة العلماء الموثوق بعلمهم لا يُحسنه سواهم. كما قال على[2] عليه السلام لابنه محمد بن الحنفية، وقدّمه أمامه يوم الجمل وجعل يقول له: أقدم أقدم، ومحمد يتأخر، وهو يركزه بقائم رمحه. فالتفت إليه محمد ابنه فقال: هذه والله الفتنة المظلمة العمياء. فوكزه علىٌّ برمحه ثم قال: تقدَّم لا أُمَّ لك، أتكون فتنةٌ

(١) فى (ك): «عليّين».

(٢) خبر الإمام على ليس فى المخطوط.

أبوك قائدها وسائقها؟!

والمرء إذا قال لا أدرى [تورّعًا][(١)] فقد عَملَ بعلمه، وقام بحاله، فله من الثواب بمنزلة مَنْ درى، وقام بحاله[(٢)]، وعمل بعلمه فأظهره. فلذلك كان قول «لا أدرى» نصف العلم. ولأنّ حُسْنَ مَنْ سكتَ لأجلِ اللهِ تعالى تورُّعًا كحُسن من نَطَق لأجله بالعلم تبرُّعًا.

وقال على بن الحسين، ومحمد بن عجلان: إذا أخطأ العالمُ قولَ «لا أدرى» أُصيبت مقاتلُه[(٣)]. وقاله مالك والشافعى بعدهما.

واعلم أن مَثَلَ العلمِ والجهل فى تفاوت الناس فيهما مَثَلُ الجنون والعقل. والمجانين طبقات، كالعقلاء طبقات، وكذلك الجهالُ طبقات كالعلماء، فخصوصُ الجهال يشبهون عموم العلماء، فهم يشتبهونَ على العامة حتى يحسبوهم علماء وهم مكشوفون عند العلماء بالله تعالى، وكذلك العارفونَ يشتَبِهون على عموم العلماء وهم ظاهرون للموقنين.

وقال بعض العلماء: العلمُ علمان؛ علمُ الأمراء، وعلمُ المتقين. فأما علم الأمراءِ فهو علم القضايا، وأما علمُ المتقين فهو علم اليقين والمعرفة.

وقد قال الله سبحانه فى وصف علم المؤمنين، وذكر علم الإيمان: ﴿**يَرْفَعِ اللهُ الَّذينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾ [المجادلة: ١١]. فجعلَ المؤمنينَ علماءَ، فدلّ على أنّ العلمَ والإيمانَ لا يفترقان. والواو هنا عند أهل اللغة للمدح لا للجمع. فالعربُ إذا مدحت بالأوصاف أدخلت الواو للمبالغة فقالوا: فلان العاقل، والعالم، والأديب.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿**لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فى الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ**﴾ [النساء: ١٦٢]،

---

(١) ساقطة من (ط).

(٢) فى (ط): «فقام بحاله» وأثبت ما فى (ك).

(٣) فى (ط): «مقالته» وأثبت ما فى (ك).

فالمؤمنون هم الراسخون فى العلم، والمقيمون والمؤتون، كله نعت للمؤمنين الراسخين فى العلم[(١)]؛ ولذلك انتصب قوله تعالى: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ﴾ ، لأنه مدح، والعرب تنصب وترفع بالمدح، وبمعناه قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران:٧]، فوصف العلماء بالإيمان، كما وصف المؤمنين بالعلم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ﴾ [الروم:٥٦].

ومن هذا حديث أنس عن النبى ﷺ: «أُمَّتِى خَمْسُ طبقات، كُلُّ طَبَقَة أربَعُونَ عَامًا، فَطَبَقتى وطَبَقَةُ أَصْحَابِى أَهْلُ العلمِ والإيمانِ، والذين يَلُونَهُمْ إلى الثمانين أهلُ البرِّ والتقوى، والذين يلونَهم إلى مائة وعشرين أهْلُ التواصلِ والتراحم». فقرن العلمَ بالإيمانِ، وقَدَّمَهُمَا على سَائرِ الطَّبَقات.

وقد قرن اللهُ سُبحانَهُ الإيمانَ بالقرآنِ وهو علْمٌ، كما قرنَ القرآنَ بالإيمان، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢]. قيل: القرآنُ، وتكون الهاءُ عائدةً إلى الله تعالى فى أكثر الوجوه، كما قال: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ [الشورى:٥٢]. فأهلُ الإيمانِ هم أهلُ القرآنِ، وأهلُ القرآنِ أهلُ اللهِ وخاصتُه.

وقال المهدىُّ لسفيانَ بن الحسين لما دخل عليه، وكان أحدَ العلماء: أمِنَ العلماء أنت؟ فسكت، فأعادَ عليه فسكتَ. فقيل: ألا تجيبُ أميرَ المؤمنينَ؟ فقال: يَسْأَلُنى عن مَسْأَلَة لا جوَابَ لهَا: إن قلتُ لستُ بعالمٍ وقد قرأتُ كتابَ الله تعالى كنتُ كاذبًا، وإنْ قلتُ إنِّى عَالمٌ كنتُ جاهلاً.

وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع عن أنسٍ فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]. قال: من لم يخشَ اللهَ تعالى فليس بعالمٍ، ألا ترى أن داود عليه السلام قال ذلك بأنك جعلتَ العلمَ خَشْيَتَكَ، والحكمة والإيمان بك، فما عَلِمَ مَنْ لم يَخْشَكَ، وما حكَمَ مَنْ لم يُؤمِنْ بك.

---

(١) كان ثمت اضطراب فى (ط) أصلحته من (ك).

وقد سَمّى عبدُ الله بنُ رواحةَ العلمَ إيمانًا، فكان يقولُ لأصحابِهِ: «اقعدوا بنا نُؤْمِنْ ساعةً» فيتذاكرون علمَ الإيمانِ.

وقد جعل اللهَ للمؤمنينَ سَمْعًا وبَصرًا وقلبًا، وهذه طرائقُ العلمِ التى يُؤخَذُ العلمُ منها ويوجدُ بها، وهى أصولُ العلمِ والنعم التى أنعم اللهُ على الخلقِ بها وطالبهم بالشكرِ عليها، فقال سبحانه: ﴿**وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [النحل: ٧٨]. فأثْبَتَ العلمَ بها بَعْدَ النفى بها له.

وقال تعالى فى وَصْفِ مَنْ لم يكُنْ مُؤمنًا ونَفَى الغُنية بالعلمِ بها: ﴿**وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُم ولا أبصَارُهُمْ وَلا أفئِدَتُهم مِنْ شيءٍ إذْ كانُوا يَجْحدُونَ بآياتِ الله**﴾ [الأحقاف: ٢٦]. فمَنْ آمنَ بآياتِ الله تعالى أغنى عنه سمعُهُ وبصرُهُ وقلبُه، فكانت طُرقُ العِلمِ[١] إليه.

وقال عزَّ وجَلَّ فى معنى ذلك أيضًا: ﴿**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**﴾ [الإسراء: ٣٦]. فلولا أنَّ العِلْمَ يقعُ بالسمعِ والبصرِ والقلبِ ما نهى عما لا يعلم هذه الأشياء. ففى النهى عن قَفْوِ ما لا يَعْلم هذه الأواسط ويتبعه إثباتُ العلم بها، فكلُّ مؤمنٍ هو ذو سمعٍ، وبصرٍ، وقلبٍ، [وكلُّ ذى سمع وبصرٍ وقلب][٢] فهو عالمٌ بفضلِ الله ورحمته.

ومما فضل الله تعالى به هذه الأمة على سائر الأمم وخصها به ثلاثة أشياء[٣]:

[الأول:] تبقيةُ الإسنادِ فيهم يأثُره خَلَفٌ عن سَلَفٍ، متصلاً إلى نبينا محمد ﷺ، وإلى من خلا من علمائنا. وإنّما كانوا فيهم يستنسخون الصحف، كلما

(١) فى (ك): «العلوم».

(٢) ساقطة من (ط) وأثبت ما فى (ك).

(٣) جمع العلامة أحمد بن محمد القسطلانى ـ توفى ٩٢٣هـ ـ طائفة كبيرة من خصائص الأمة المحمدية، فى كتابه: المواهب اللدنية، انظر: ٢/ ٧٠٧ ـ ٧٣٥، تحقيق صالح أحمد الشافى، المكتب الإسلامى.

اختلقَتْ صحيفةٌ جُدِّدت، فكان ذلك أثَرَةَ العلم فيهم.

والثانى: حفظ كتاب الله تعالى المنزَّل عن ظهر غيب. وإنّما كانوا يقرؤون كتبهم نظرًا، ولم يُحفظ جميعُ كتابِ أنزله الله تعالى قط غيرُ كتابنا، هذا إلا ما ألهمه الله تعالى عُزيرًا من التوراة بعد أن كان بختُنصَّر أحرق جميعها عند إحراق بيت المقدس. فلذلك قال سِبط من اليهود: إنّه ابن الله تعالى، عزّ عن ذلك علوًا كبيرًا، لما خصّه به، وأفرده من حفظِ جميع التوراة.

والثالث: أن كلَّ مؤمنٍ من هذه الأمة يُسأل عن علم الإيمان، ويُسمع قولُه ويُؤخذ من رأيه وعلمه مع حداثة سنِّه. ولم يكونوا فيما مضى يسمعون العلم إلا من الأحبار والقسيسين والرهبان لا غير من الناس.

وزادها رابعةً على أمة موسى؛ عليه الصلاة والسلام: ثباتُ الإيمان فى قلوبهم، لا يعتريه الشك ولا يختلجه الشرك مع تقليب القلوب فى المعاصى. وكانت أمةُ موسى عليه السلام تتقلب قلوبهم فى الشك والشرك كما تتقلب جوارحهم فى المعاصى، فلذلك: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨] بعد أن رأوا الآياتِ العظيمةَ؛ من انفلاق البحر، وسلُوكِهم فيه طرائق، وأنجَاهم من الغرق، وأهلك فرعون.

وروينا بعض الأخبار أن فى بعض الكتب المنزلة: يا بَنى إسرائيلَ، لا تقولوا العلم فى السماء مَنْ ينزلُ به، ولا فى تُخوم الأرَضين مَنْ يصعد به، ولا من وراءِ البحارِ مَنْ يعبره يأتى به. العلمُ مجعولٌ فى قلوبكم، تأدّبوا بين يدىَّ بآداب الروحانيين، وتخلّقوا لى بأخلاق الصدِّيقين، أُظهر العلمَ فى قلوبكم حتى يغطّيكم ويغمرَكم.

وفى الإنجيل مكتوب: لا تطلبوا علم ما لم تَعْملوا حتى تَعْمَلُوا بما قد علمتم.

وفى أخبارنا نحن: مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ. حتى قيل: من عمل بِعُشر ما يعلم ورّثه الله علم ما يجهل.

وقد روينا عن حذيفة بن اليمان: «إنكم اليوم فى زمانٍ مَنْ تَرك فيه عُشر ما

يعلم هلك، ويأتى بعدكم زمانٌ من عَمِل منهم بعُشر ما يعلم نجا». هذا لقلة العاملين، وكثرةِ البطَّالين. وفى كتابنَا المجمل المختصر: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]، ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا﴾ [البقرة:١٩٤]، ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا﴾ [المائدة:١٠٨].

واعلم أن مَنْ عَمِل بعلْمٍ، أو نطَق به، فأصاب الحقيقةَ عند الله تعالى، فله أجران؛ أجرُ التوفيق، وأجرُ العمل، وهذا مقامُ العارفين. ومَنْ نطَق بجهل، أو عمل به وأخطأ الحقيقة، فعليه وِزْرَان، وهذا مقامُ الجهال. ومَنْ قال أو عَمِل بعِلْمه، وأخطأ الحقيقة، فله أجرٌ لأجل العلم، وهذا مقام علماء الظاهر. ومن قال بجهلٍ، أو عملَ عملاً وأصاب الحقيقة، فعليه وِزْرٌ؛ لتركِه طلبَ العلم، وهذا مقام جهلة العابدين[1].

ومَثَلُ العالم مَثَلُ الحاكمِ، وقد قسم النبى ﷺ الحكامَ ثلاثة أقسام فقال ﷺ: «القضاةُ ثلاثة: قاضٍ قضى بالحق وهو يعلمُ فذاك فى الجنة، وقاضٍ قضى بالجور وهو يعلم، أو قضى بالجور وهو لا يعلم، فهما فى النار».

ومن أحسن ما سمعت فى قوله تعالى [الأعراف:٢٦]: ﴿يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ﴾ قيل: العلم ﴿وَرِيشًا﴾ قيل: اليقين، ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ أى: الحياء.

ورُوينا عن وهب بن منبِّه اليمانى فى معناه: «الإيمان عريانٌ، ولباسُه التقوى، وزينتُه الحياءُ، وثمرتُه العلم». وقد أسندَه حمزةُ الخراسانى عن الثورى، فرفعه إلى عبد الله عن النبى ﷺ. وقد رويناه أيضًا مسندًا.

وقال مسعر عن سعد بن إبراهيم، وسأله سائل: أى أهل المدينة أفقهُ؟ فقال: أتقاهم لله عزّ وجلّ.

وقال بعضُ العلماء: لو قال لى قائل: أىُّ الناس أعلم؟ لقلتُ: أورعُهم. ولو

---

(١) هذه الفقرة وبعض الأخبار اختلف موضعها هنا عما عليه فى المخطوط، فتركت المطبوعة على ما هى عليه لاختصار المخطوطة، كما أن النص لا يتأثر بذلك الترتيب على الأغلب.

قال لى قائلٌ: أىُّ أهل هذه المدينة خير؟ لقلت: تعرفون أنصحهم لهم؟ فإذا قالوا: نعم، قلت: هو خيرهم. وقال آخر: لو قيل لى: من أحمق الناس؟ لأخذتُ بيد القاضى فقلتُ: هذا.

وقال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا﴾ [المائدة:١٠٨]، ﴿اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾ [الأحزاب:٧٠]. فجعل الله تعالى مفتاح القول السديد، والعلم الرشيد، والسمع المكين: التّقوى، وهى وصية الله تعالى مَن قبلنا وإيّانا، إذ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾ [النساء:١٣١]. وهذه الآية قطب القرآن، ومداره عليها كمدار الرحى على قُطبها[١].

وروينا عن عيسى [صلّى الله على نبينا وعليه وسلم][٢]: كيفَ يكونُ من أهل العلم مَنْ مسيره إلى آخرته، وهو مقبل على دنياه؟ وكيف يكونُ من أهلِ العلم مَنْ يَطلب الكلامَ ليُخبر به، وهو لا يطلبه ليعمل به؟

وقال الضحاكُ بن مزاحمٍ: أدركتُهم وما يتعلمُ بعضُهم من بعض إلا الورَعَ وهم اليومَ يتعلّمونَ الكلامَ.

وفى الحديث: «ما ضَلَّ قومٌ بعدَ هُدًى كانوا عليهِ إلا أُعْطُوا الجَدَلَ، ثم قَرَأَ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨]»، وفى بعض الحديث: « ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران:٧] الآية: هُمْ أهلُ الجَدَلِ الذينَ عَنَى اللهُ تعالى فَاحْذَرُوهُم».

وعن بعض السّلَف: يكونُ فى آخرِ الزّمَانِ علماءُ يُغلَقُ عَنْهُم بَابُ العَمَلِ، ويُفتحُ عليهم بابُ الجَدَلِ. وفى بعضِ الأخبارِ: إنكم فى زمانٍ أُلهِمتُم فيه العلمَ، وسيأتى قومٌ يُلْهَمُونَ الجَدَلَ.

---

(١) فى (ط): «على الخشبان».
(٢) زيادة من (ك).

وعن ابن مسعود: أنتم اليومَ فى زمانٍ خَيْرُكُم فيه المُسَارِعُ، ويأتى بَعْدَكُم زمانٌ خيرُكُمْ فيه المتبيِّن. يعنى: الآنَ لبيانِ الحقِّ واليقينِ فى القرنِ الأول، وبَعْدَ ذلكَ فى زَمَانِنَا هذا لكثرةِ الشبهات والالتباسِ ودخول المحدَثَات مَدَاخِلَ اللَّيلِ فى السَيْرِ، فأشْكَلَ الأمْرُ إلا على الفَرْدِ الذى يعرفُ طرائقَ السَّلَفِ فَيجتنبُ الحدَثَ كُلَّه.

ورُوينا عَنْ بَعْضِ العُلَمَاءِ: إذا أرادَ اللهُ بعَبْدٍ خيرًا فَتَحَ له بابَ العَمَلِ، وأَغْلَقَ عَنْهُ بابَ الجَدَلِ، وإذا أراد الله بعبدٍ سوءًا أغلقَ عنه بابَ العَمَلِ، وَفَتَحَ عليه بابَ الجَدَلِ.

وفى الخبر المشهورِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «أبْغَضُ الخَلْقِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ الألَدُّ الخَصِمُ».

وقد روينا فى خبر: «الحياءُ والعِىُّ شُعْبَتَانِ منَ الإيمانِ، والبَذَاءُ والبيانُ شُعْبَتَانِ منَ النِّفَاقِ». وفى بَعْضِهَا مُفَسَّرًا: «والعِىَّ عِىُّ اللِّسَانِ لا عِىَّ القلبِ».

والخبرُ الآخَرُ، ما رَوَى الحكمُ بنُ عُيَيْنَة عَنْ عَبْدِ الرحمنِ بن أبى لَيْلَى قال: قالَ رسول الله ﷺ: «ما أُوتِىَ قَوْمٌ المنطقَ إلا مُنِعوا العَمَلَ». وفى الحديث: «إنَّ اللهَ تعالى لَيُبغِضُ البليغَ من الرجالِ الذى يَتخللُ الكلامَ بلسانِهِ كما تتخللُ الباقرةُ الخلاءَ بلسانِها»، والخلاءُ: هو الحشيشُ الرطبُ.

وكان أحمدُ بنُ حنبلٍ يقولُ: العلمُ إنَّما هو ما جاءَ مِنْ فَوق. يعنى: إلهامًا مِنْ غيرِ تعليمٍ. وقالَ أيضًا: علماءُ أهلِ الكلامِ زنادقَةٌ. وقال قبله أبو يوسف: مَنْ طَلَبَ العلمَ بالكلامِ تزَنْدَق.

بيان آخر فى فضل علم الباطن على الظاهر

مما يَدُلُّكَ على أنَّ العِلْمَ الذى فَضَّلَهُ العلماءُ، وأَعْظَمُوا ذِكْرَهُ وَخَطَرَه، وَوَصَفُوا به العالِمَ ومدحُوه به، وجاءتْ بفَضْلِه الآثارُ، ونُدبَ إليه، وفُضِّلَ فى الأخْبَارِ أَهْلُه ـ إنَّما هُوَ العِلْمُ بالله تعالى، الدَّالُّ على اللهِ تعالى، الرَّادُّ إليه، الشَّاهدُ بالتوحيدِ

فى علمِ الإيمانِ واليقينِ وعلمِ المعرفةِ والمعاملة دونَ سائرِ علومِ الفُتْيَا والأحكامِ. إنَّهم يقولونَ مَنْ عَمِلَ بِعلْمه ويذكرون العَمَلَ بالعلمِ، ويَصفونَ جُملَته بالخشية والخشوع. فهذا إنّما هو علمُ القلوبِ لا علمُ اللسان، الذى يكون به العملُ وتتأتى عنه(١) المعاملات من أعمال الإيمان، مِثْل أعمالِ القلوب التى هى مقامات اليقين، وصفات المتقين، ومثلُ أعمالِ الجوارح من الصالحات التى هى مزيد الإيمان، والذين أربابُها: أهل الفقر والزهد، وذُو التوكل والخوف، وأصحابُ الشوق والمحبة.

وليس يَعنُون أن يكون الإنسانُ إذا عَلِمَ علمَ الأحكام والقضايا عمل بها، والتزم الدخول فى أحكامها؛ ليعامل منها، مثل: أن يطلبَ القضاءَ، فيقضى بين الناس إذا كان عالمًا به، أو يقتنى المالَ، ويدخل فى البيع والشراء إذا كان عالمًا بالزكوات والبياعات، أو يتزوجَ النساءَ ويُطلّق؛ لأنّه عالم بالنكاح والطلاق؛ ليكونَ بهذه الأشياء عاملاً بعلمه.

هذا ما قاله أحدٌ، بل قد رُوى فى كراهة ذلك وذمِّه ما يكثر ذكره. وأهل هذه العلوم موصوفون بالرغبة فى الدنيا والحرص على جمعها، ويلابسون الأمراء فيعاملون لهم، فبطل أنهم هم المعنيون بالعلم، الموصوفون بالخشوع والزهد.

ومثل ذلك أيضًا: تفضيل الجمهور من السلف العلم على العمل، وقولهم: ذرة من علم أفضل من كذا من العمل، وركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من عابد، وحديثُ أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ: «فَضْلُ العَالم عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِى عَلَى أمّتِى»، والخبر المشهور: «كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ»، وقول ابن عباس وسعد وقد رويناه مسندًا: «عالمٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطانِ من ألف عابدٍ»، وكذلك قيل فى موته: «أحب إليه من موت ألف عابد» ـ إنَّما يَعنونَ بذلك: العلمُ بالله تعالى أفضلُ من العمل؛ لأنّ العلمَ بالله تعالى وصفٌ من الإيمان، ومعنًى من اليقين الذى لم ينزل من السماء أعزّ منه، فهوَ لا يُعادله شىء، ولا يصح عمل ولا يُقبل إلا به، ولأنه معيار الأعمال كلها؛ على وزنه تُتقبل

(١) فى (ط): «الذى يكون به العلم ولا تتاتى عنه» وأثبت ما فى (ك) لأنه أصح وادق.

الأعمال قبولاً حسنًا بعضه أحسن من بعض، ويثقل فى الميزان ثِقَلاً فوق ثِقَل، ويُرفعُ به العاملونَ فى درجات علِّيين بعضها من بعض، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٥٢]، ثمَّ قال: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف: ٨].

فما كان العائد منه إلى الربوبية أقرب كان أفضل. والعملُ وصف العاملِ وحُكم العبودية، لا أنهم يعنون العلم بالفتيا والأحكام والقضاء، التى هى أماكن الخلق عائدة عليهم أفضلُ من معاملات الله سبحانه وتعالى بالقلوب من مقامات التوكُّل والرضا والمحبة التى هى معاينة اليقين الذى هو مقام المقربين، هذا لا يقوله عالم.

وقد روينا عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ بن جبل قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أقربُ الناسِ من درجةِ النبوّةِ أهلُ العلم وأهلُ الجهاد. أما أهلُ العلمِ فدلُّوا الناسَ على ما جاءت به الرسل، وأما أهلُ الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل». ألا تراه كيف جعل العلم دالاً على الله تعالى كالجهاد؟

وكذلك جاء فى الخبر: «أوَّلُ مَنْ يَشْفَعُ الأنبياءُ ثم الشهداءُ». وفى الخبر: «لِلأَنْبِيَاءِ عَلَى العُلَمَاءِ فَضْلُ دَرَجَةٍ، وَلِلْعُلَمَاءِ عَلَى الشُّهَدَاءِ فَضْلُ دَرَجَتَيْنِ».

وقال ابن عباس فى معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] قال: للعلماء درجات فوق الذين آمنوا بسبعمائة درجةٍ، ما بين الدرجتين خمسمائة عام.

وقال ابن مسعود: لما ماتَ عمرُ رضى الله عنهما إنى لأحْسِبُ أنه ذهب بتسعة أعشار العلم. فقيل: تقول هذا وفينا جِلَّةُ الصحابة. فقال: ليس أعنى العلم الذى تريدون، إنّما أعنى العلم بالله تعالى.

فجعل العلمَ بالمعلوماتِ غير حقيقةِ العلم، وفضَّل العلمَ بالله تعالى بتسعة أعشارها، وليس يزيد علم الظاهر على الأعمال كثير زيادة، إذ هو من الأعمال الظاهرة؛ لأنه صفةُ اللسان؛ ولأنه للعموم من المسلمين.

فأعلى مقاماتِه الإخلاصُ، فإن فاتهم فهو دنيا كسائر الشهوات. والإخلاص هو أول حالِ العالم بالله تعالى بالعلم الباطن، ولا نهاية لمقاماتهم إلى أعلى مقامات العارفين ودرجات الصديقين.

باب ذكر الفرق بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة وذم علماء السوء، الآكلين بعلومهم الدنيا

قد فَرَّقَتِ العُلَماءُ بَيْنَ العِلْمِ باللهِ تعالى وبينَ العلمِ بأمْرِ الله تعالى، وفرَّقوا بين علماءِ الدنيا وعلماءِ الآخرةِ. فقال سُفْيانُ: العلماءُ ثلاثةٌ: عالمٌ بالله وبأمر الله فذاكَ العالمُ الكاملُ، وعالمٌ بالله تعالى فذاكَ التَّقِيُّ الخَائفُ، وعالمٌ بأمْرِ الله تعالى غيرُ عالم باللهِ تعالى فذاك العالمُ الفاجِرُ.

وقيل أيضًا: عَالِمٌ للهِ تعالى وهو العَامِلُ بِعِلْمِهِ، وعالمٌ بأيامِ الله تعالى وهو الخائفُ الرَّاجِي.

وسُئِلَ سفيانُ عنِ العلمِ مَا هو؟ فقال: هو الوَرَعُ. قيل: وأى شَىءٍ هو الوَرَعُ؟ فقال: طلبُ العلم الذى يُعرَفُ به الورع. وهو عِنْدَ قومٍ طولُ الصمتِ وقلَّةُ الكلامِ، وما هو كذلك إنما هو المتكلِّمُ العالِمُ عندنا أفضلُ من الصامت.

وروينا عن لقمان فى وصيته: للعلم ثلاثُ علامات: العلم بالله، وبما يحبهُ اللهُ تعالى، وبما يَكْرَهُ. فَجَعَلَ حقيقةَ العِلْم ودليلَ وجودِهِ هذه الثلاث.

ومما يدلُّكَ على الفرقِ بين علماءِ الدنيا وعلماءِ الآخرةِ أنَّ كلَّ عالمٍ بعلمٍ إذا رآهُ مَنْ لا يَعْرِفُه لم يتبينْ عليه أثرَ عِلْمه ولا عرفَ أنه عَالِمٌ، إلا العلماء بالله عزَّ وجلَّ فإنما يُعْرَفُونَ بسيماهُم للخشوعِ والسَّكِينَة والتواضعِ والذِّلَّة، فهذه صِبغَةُ الله تعالى لأوليائه ولِبْسَتُهُ للعلماء به، ومَنْ أحْسَنُ منَ الله صبغةً، فَمَثَلُهُم فى ذلكَ كَمَثَلِ الصُّنَّاعِ، إذْ كلُّ صانعٍ لو ظَهر لمن لا يَعرفهُ لم يَعرفْ صَنْعَتَهُ دون سائر الصَّنائعِ، ولم يُفرِّقْ بينه وبينَ الصُّنَّاعِ إلا الصُّنَّاعُ، فإنه يُعْرَفُ بصَنْعَته؛ لأنَّهَا ظاهرةٌ عليه، إذ صارتْ له لبسةً وصِفَةً لالتباسِهَا بمُعَامَلَته، فكانت سِيماهُ. كما قيل: ما ألبسَ اللهُ

تعالى عبدًا لِبْسَةً أحسنَ مِنْ خُشُوعٍ فى سكينة، هى لبسةُ الأنبياء، وسيمَا الصِّدِّيقينَ والعلماء. فأعلمُ الناس بلطفِ ما يحبُّ اللهُ تعالى وخَفَىِّ ما يكره أهلُ القلوبِ الفاقهَةِ عن الله تعالى وهم العارفونَ به.

وقد كان سهلٌ رحمَهُ الله يقولُ: العلماءُ ثلاثةٌ: عالمٌ باللهِ تعالى، وعالمٌ للهِ تعالى، وعَالِمٌ بحكمِ الله تعالى.

يعنى: العالمُ بالله تعالى العارف الموقن، والعالمُ لله عزّ وجلّ هو العالمُ بعلمِ الإخلاصِ والأحوالِ والمعاملاتِ، والعالمُ بحكمِ اللهِ تعالى هو العالمُ بتفصيلِ الحلالِ والحرامِ. فسَّرنا ذلك على معانى قوله، ومعرفة مذهبه.

وقد قال مرّة فى كلام أبسطَ من هذا: عالمٌ بالله لا بأمر اللهِ ولا بأيامِ اللهِ، وهم المؤمنون. وعالمٌ بأمر الله لا بأيام الله وهم المفتونَ فى الحلالِ والحرامِ. وعالمٌ بالله تعالى عالمٌ بأيام الله وهم الصِّدِّيقُون.

يعنى قوله «بأيام الله» أى: بنعمته الباطنة، وبعقوباته الغامضة.

ثم قال: الناس كلهم موتى إلا العلماء، والعلماء نيام إلا الخائفين، والخائفون منقطعون إلا المحبين، والمحبون أحياءٌ شهداءُ وهم المؤثِرُونَ لله تعالى على كل حال. وقد كانَ يقولُ: طلابُ العلمِ ثلاثةٌ: واحدٌ يطلبُه للعمل به. وآخرُ يطلبه ليعرفَ الاختلاف، فيتورَّع ويأخذ بالاحتياط. وآخرُ يطلبه ليعرف التأويل فيتناول الحرام فيجعله حلالاً، فهذا يكون هلاكُ الحقِّ على يديه.

وقد حُدِّثتُ عن أبى يوسف أنه كان إذا صار رأسُ الحول وهَب مالَه لامرأتِهِ، واستوهَبَها مالها، فتسقط عنهما الزكاة، فذُكرَ ذلكَ لأبى حنيفةَ فقال: ذلك من فقهه[1].

فإنّما يُطلَب العلمُ لمعرفة الورع والاحتياط للدين، فهذا هو العلم النافع. فإذا طُلب لمثل هذا ولتأويل الهوى كان الجهل خيرًا منه، وصار هذا العلمُ هو الضارَّ

(١) مثل هذه الحكايات لا تصحّ عن قومٍ مشهودٍ لهم بالورع والفقه والاتباع. فإن مثل هذا لا يستحله الجاهل البخيل، فكيف بفقيهٍ ورع؟!

الذى استعاذ الرسول ﷺ منه.

وروينا عن عمرَ وغيرِه: كم من عالم فاجرٍ وعابدٍ جاهلٍ، فاتقوا الفاجر من العلماء والجاهل من المتعبدين. وعن عمرَ أيضًا، وقد رويناه مسندًا: اتّقوا كلَّ منافق عليمَ اللسانِ، يقول ما تعرفون، ويعمل ما تنكرون. وروينا عنه أيضًا: تعلَّموا العلم وتعلّموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تعلَّمون، وليتواضع لكم من يتعلَّم منكم، ولا تكونوا جبابرةَ العلماءِ فلا يقوم علمُكم بجَهْلكم.

وروينا عن على وابن عباس رضى الله عنهما وعن كعب الأحبار: يكون فى آخر الزمانِ علماءُ يُزَهِّدون الناس فى الدنيا ولا يَزْهَدُونَ، ويخوّفون ولا يخافُونَ، وينهون عن غشيانِ الولاةِ ولا ينتهون، ويُؤْثِرون الدنيا على الآخرة، ويأكلون الدنيا بألسنتهم أكلاً، يُقَرِّبونَ الأغنياء ويباعدون الفقراء، يتغايرون على العلم كما تتغاير النساء على الرجال، يغضب أحدُهم على جليسه إذا جالس غيره. ذلك حظهم من العلم. وفى حديث على رضى الله عنه: علماؤهم شرُّ الخليقة، منهم بدت الفتنةُ، وفيهم تعود. وفى حديث ابن عباس: أولئك الجبَّارونَ أعداءُ الرحمن.

وروينا عن على عليه السلام: ما قطع ظهرى فى الإسلام إلا رجلان: عالمٌ فاجرٌ، ومبتدعٌ ناسكٌ. فالعالم الفاجر يَزْهَدُ الناسُ فى علمه لما يَروْنَ من فجورِه، والمبتدعُ الناسكُ يَرْغبُ الناسُ فى بدعته لما يَروْنَ من نُسكه.

وقال صالحُ بنُ حَسَّان البصرى: أدركتُ المشيخةَ وهم يتعوَّذون بالله تعالى من الفاجر العالم بالسنَّة.

وقال الفضيل بن عياض: إنّما هما عالمانِ؛ عالمُ دنْيا، وعالم آخرةٍ. فعالم الدنيا علمُه منشورٌ، وعالم الآخرة علمُهُ مستور. فاطلب عالمَ الآخرةِ واحذَر عالمَ الدُّنْيا لا يصدنَّك بشكره. ثم قرأ ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [التوبة: ٣٤]. قال: فالأحبارُ العلماءُ، والرهبانُ الزهَّادُ.

وقال سهلُ بن عبد الله: طلاب العلم ثلاثة؛ فواحدٌ: يطلب علمَ الورع مخافة

دخول الشبهة عليه، فيدع الحلالَ خوف الحرامِ، فهذا زاهدٌ تقى. وآخرُ: يطلبُ علمَ الاختلافِ والأقاويل، فيدع ما عَلَيْهِ ويدخلُ فيمَا أباح الله تعالى بالسعة ويأخذ بالرخصة. وآخرُ: يسأل عن شىء فيقال: هذا لا يجوز، فيقول: كيف أصنع حتى يجوز لى؟ فيسأل العلماء، فيخبرونه بالاختلاف والشبهة، فهذا يكونُ هلاكُ الخلق على يديه، وقد أهلك نفسه، وهم علماء السوء.

واعلم أن كلَّ محبٍّ للدنيا ناطق بعلم فإنه آكلٌ للمال بالباطل، وكلُّ من أكل أموال الناس بالباطل فإنه يصدُّ عن سبيل الله لا محالةَ، وإن لم يظهر ذلك فى مقاله، ولكنك تعرفه فى لحن معناه بدقائق الصدّ عن مجالسة غيره، وبلطائف المنع من طرقات الآخرة؛ لأنّ حبَّ الدنيا وغلبةَ الهوى يحكمان عليه بذلك شاء أم أبى.

وقال بعض العلماء: إن الله عزّ وجلّ يحبُّ العالمَ المتواضعَ، ويبغضُ الجبَّارَ من العلماء، ومن تواضع لله تعالى ورَّثه اللهُ تعالى الحكمةَ.

وفى الخبر عن ابن مسعود: «إنَّ الله تَعَالى لَيَمْقُتُ الحَبْرَ السَّمِينَ». وقال رسول الله ﷺ لمالك بن الصيف؛ حبر من أحبار اليهود: «نشدتُك اللهَ تعالى، ألم تجد فيما أُنزل على موسى عليه السلام أن الله يبغضُ الحبرَ السّمين؟»[1]. وكان ابن الصيف سمينًا، فغضب عندها فقال: مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَىْء. ففيه نزلت هذه الآية تعريفًا لبُهته: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا﴾ [الأنعام: ٩١]. فقال له أصحابه: ويحكَ ماذا قُلتَ؟ جحدتَ كتابَ موسى! فقال: إنّه مَحكَنى[2] فقلتُ ذلك.

ويقال: ما آتى الله تعالى عبدًا علمًا إلا آتاه معه حِلمًا وتواضعًا وحُسْنَ خلق ورفقًا، فذلك علامة العلم النافع. وقد روينا معناه فى الأثر: «مَنْ آتاه الله عزّ وجلّ زهدًا وتواضعًا وحُسْنَ خُلُق فهو إمام المتقين». وكان الحسنُ يقول: الحلُم

(١) هذا الحديث مرسل، انظر: أسباب نزول القرآن، للواحدى، ص ٢٢٣، والدر المنثور ٣/ ٢٩.
(٢) محكنى: جادلنى.

وزيرُ العلمِ، والرفقُ أبوه، والتواضعُ سربالُه.

وفي أخبار داود عليه السلام: إن الله تعالى أوحى إليه: يا داود، لا تسألنَّ عني عالمًا قد أسكرته الدنيا فيصدَّك عن طريق محبتي، أولئك قطّاع طريق عبادي المريدين. يا داودُ، إن أدنَى ما أصنعُ بالعالم إذا آثرَ شهوتَه على محبَّتي أنْ أحرمَه لذيذَ مُنَاجَاتي. يا داودُ، إذَا رأيتَ لي طالبًا فكُنْ لَهُ خَادمًا. يا داودُ، مَنْ ردَّ إليَّ هاربًا كَتَبْتُهُ عندي جِهْبَذًا، ومَنْ كَتَبْتُه جَهْبَذًا لم أُعَذِّبْهُ أبدًا.

وروينا عَنْ عيسَى عليه السلام: مَثَلُ عُلَمَاء السُّوءِ مَثَلُ صَخْرَةٍ وَقَعَتْ عَلَى فَمِ النَّهْرِ لا هي تَشْرَبُ الماءَ ولا تَتْرُكُ الماءَ يَخْلُصُ إلى الزَّرعِ، وكذلك عُلَمَاءُ الدُّنْيا قَعَدُوا على طريقِ الآخرةَ فلا هُم نَفَذُوا ولا تَرَكُوا العبادَ يَسْلُكُون إلى الله عزّ وجلّ. قال: ومَثَلُ عُلَمَاء السُّوء كَمَثَلِ قَنَاة الحَشِّ ظَاهِرُها حَسَنٌ وبَاطِنُهَا نَتِنٌ، ومَثَلُ القُبُورِ المشَيَّدَةِ ظَاهِرُهَا عَامرٌ وباطِنُهَا عِظَامُ الموتَى.

وقال بِشْرُ بن الحارث: مَنْ طَلَبَ الرِّيَاسَةَ مِنَ العُلَماءِ فتقرَّبَ إلى الله تعالى ببُغْضِه فإنه مَقِيتُ الله في السماءِ والأرضِ.

وكان الأوزاعيُّ يَرْوِي عَنْ بِلالَ بنِ سعدٍ أنه كان يقولُ: يَنْظرُ أحدُكُم إلى الشُّرطيِّ والعَوْن[1] فيستعيذُ بالله تعالى من حالِه ويَمقُتُه، وينظرُ إلى عالِم الدنيا قد تَصنَّعَ للخلقِ وتَشَوَّفَ للطَّمَعِ والرِّيَاسَةِ فلا يَمْقُتُهُ. هذا العالمُ أحَقُّ بالمقتِ من ذلك الشُّرطِيِّ.

وقد كان أبو محمد يقولُ: لا تقطعُوا أمرًا من الدِّين والدنيا إلا بمَشُورَةِ العُلَمَاء تُحْمَدُوا العَاقِبَةَ عِنْدَ الله. قيل: يا أبا مُحمَّد، مَنِ العُلَماءُ؟ قال: الذينَ يُؤثِرُونَ الآخرةَ على الدنيا ويؤثرونَ اللهَ تعالى على نُفُوسِهِم.

وقد قال عُمَرُ رضي الله عنه في وَصِيَّتِهِ: وشاور في أمورك الذين يَخْشَوْنَ اللهَ تعالى.

وروينا في الإسرائيلياتِ: أنَّ حكيمًا مِنَ الحُكَمَاءِ صَنَّفَ ثلاثمائةً وستينَ مُصْحَفًا

(١) العون: الظهير على الأمر، الواحد والاثنان والجمع والمؤنث فيه سواء.

فى الحكمة، حتى وُصِفَ بالحُكْمِ[١]. فأوحى اللهُ تعالى إلى نَبِيِّهم: قل لِفُلان: قد ملأتَ الأرضَ نفاقًا ولم تُرِدْنى بشىءٍ من ذلكَ، وإنى لا أقبلُ شيئًا من نفاقك. قال: فأسْقطَ فى يديه، وحزنَ وتَرَكَ ذلك وخالطَ العامَّةَ ومشى فى الأسواقِ، وواكلَ بنى إسرائيلَ، وتواضَعَ فى نَفْسِه. فأوْحَى اللهُ تعالى إلى النبى عليه السلام: قُلْ له الآن: وافقتَ رضاى.

وقال بعضُ العلماءِ: كان أهلُ العلمِ على ضَرْبين؛ عالمُ عامَّة، وعالمُ خاصَّة. فأمَّا عالمُ العامةِ: فهو المفْتى فى الحَلالِ والحرَامِ، وهؤلاءِ أصحابُ الأساطينِ. وأما عالمُ الخاصةِ: فهو العالمُ بعلمِ التوحيدِ والمعرفةِ، وهؤلاءِ أهلُ الزوايا، وهم المنفردُون. وقد كانوا يقولون: مَثَلُ الإمامِ أحمدَ بن حنبلٍ رضى الله عنه مَثَلُ دجْلَةَ كُلُّ أحدٍ يَعْرِفُها، ومَثَلُ بِشْرِ بن الحارث مَثَلُ بِئْرٍ عَذْبَةٍ مُغَطَّاةٍ لا يَقْصِدُها إلا واحدٌ بعدَ واحدٍ.

وقال حمادُ بن زيدٍ: قيل لأيوبَ: العلمُ اليومَ أكثرُ أو فيما مضى؟ فقال: العلم فيما مضى كان أكثرَ، والكلامُ اليوم أكثر. ففرَّق بينَ العلمِ والكلام.

وقد كانوا يقولونَ: فلانٌ عالم، وفلانٌ متكلمٌ، وفلانٌ أكثرُ كلامًا، وفلانٌ أكثرُ علْمًا. وكان أبو سُلَيْمَانَ يَقولُ: المعرفةُ إلى السكوت أقربُ منها إلى الكلام. وقال بعضُ العارفين: هذا العلمُ على قسمين: نصفُه صمتٌ، ونصفه تَدرى أين تضعه. وزاد آخر: نصفُه وَجْدٌ، ونصفُه نَظَرٌ. يعنى تفكُّرًا واعتبارًا.

وسُئل سفيان عن العالم من هو؟ فقال: مَن يضعُ العلْمَ فى مواضعه، ويؤتى كلَّ شىء حقَّه. وقال بعض الحكماء: إذا كَثُرَ العلمُ قلَّ الكلام. وقد كان إبراهيم الخواصُّ رحمه الله يقول: الصوفىُّ كلّما ازدادَ علمًا نقصت طينتُه. وقال بعض شيوخنا: قلتُ للجنيد: يا أبا القاسم، يكون لسانٌ بلا قلب؟. قال: كثير. قلت: فيكون قلبٌ بلا لسان؟ فقال: نعم قد يكون؛ ولكن لسانٌ بلا قلب بلاء، وقلب بلا لسان نعمة. قلت: فإذا كان لسان وقلب. قال: فذاك الزُّبد بالنِّرْسِيان[٢].

---

(١) الحكم: العلم والفقه.

(٢) النرسيان: من أجود التمر. وليس فى (ك) قوله: «يعنى العسل».

يعنى: العسل.

وقد روينا حديثًا مقطوعًا عن سفيان عن مالك بن مغول قال: «قيل: يا رسول الله، أىُّ العمل أفضلُ؟ قال: اجتنابُ المحارم، ولا يزال فُوك رطبًا من ذكر الله تعالى. قيل: يا رسول الله، فأىُّ الأصحاب خير؟ قال: صاحبٌ إن ذكرتَ أعانَك، وإن نسيتَ ذكَّرك. قيل: فأىُّ الأصحاب شرٌّ؟ قال: صاحبٌ إن سكتَّ لم يذكِّرك، وإن ذَكَرت لم يُعِنْك. قيل: فأىُّ الناس أعلمُ؟ قال: أشدُّهم لله تعالى خشيةً. قيل: فأخبرْنا بخيارنا نُجالِسُهم، قال: الذين إذا رُءوا ذُكِرَ اللهُ تعالى. قالوا: فأى الناسِ شرٌّ يا رسول الله؟ قال: اللّهم غَفْرًا. قالوا: أخبرنا يا رسول الله. قال: العلماءُ إذا فَسَدُوا».

وقد وصف علىٌّ عليه السلام علماء الدنيا الناطقين عن الرأى والهوى بوصف غريب، رويناه عن خالد بن طليق عن أبيه عن جده، وجدُّه عمرانُ بن حصين قال[1]: خطبنا على بن أبى طالب عليه السلام ورضىَ عنه، فقال: ذمّتى [بما أقول][2] رَهينة، وأنا به زعيم، لا يهيج على التقوى زَرْعُ قومٍ، ولا يَظْمأ على الهُدى شحُّ أصلٍ[3]. وإنَّ أجهلَ الناس مَنْ لا يَعْرِف قَدْرَه، وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره. وإنَّ أبغضَ الخلقِ إلى الله تعالى رجلٌ قَمَشَ عِلْمًا[4]، أغار فى أغباش الفتنة، عَمٍ عمّا فى غيب الهدنة، سمّاه أشباهُ الناس وأراذلهم عالمًا، ولم يَغْنَ فى العلم يومًا سالمًا. بكَّر فاستكثر من جمع ما قلّ منه خيرٌ مما كَثُر. حتى إذا

(١) هذا الكلام الذى يورده عن الإمام على ليس من خطبة واحدة فقد ورد فى نهج البلاغة فى مواضع متعددة، انظر: المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، ص١٧، ونهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ١/ ٤٦ ـ ٥٠ وما بعدها. وكان النص مضطربًا فقومته من المخطوط، ومن «نهج البلاغة» المنشور فى المعجم المفهرس، ولم ألتزم الإشارة فى كل مرة.

(٢) زيادة من نهج البلاغة للبيان.

(٣) عبارة نهج البلاغة: «لا يهلك على التقوى سَنْخُ أصلٍ، ولا يظمأ عليها زرعُ قومٍ». نهج البلاغة، محمد عبده، ١/ ٥٠.

(٤) فى النهج ١/ ٥١: «قمش جهلاً» وقمش: جمع. ولفظ النهج بعده: «غادٍ فى أغباش الفتنة، عمٍ بما فى عقْد الهدنة».

ارْتَوى من آجنٍ، وأكثرَ من غير طائل، جلس للنّاس مفتيًا؛ لتخليصِ ما التبس على غيره. فإن نزلت به إحدى المبهمات هيَّأ لها حَشْوَ الرأى من رأيه[١]، [ثم قطع به]، فهو من قَطْع الشّبهاتِ فى مثل غزل العنكبوت لا يدرى أخطأ أم أصاب. ركَّابُ جهَالاتٍ خبّاطُ عشَوات[٢]. لا يعتذر مما لا يعلم فيَسْلَم، ولا يَعَضُّ على العلم بِضِرْسٍ قاطعٍ فيَغْنَم، تبكى منه الدّماءُ، وتصرخُ منه المواريث[٣]، وتُستَحل بقضائه الفروجُ الحرام. لا مَلِيٌّ[٤] والله بإصدارِ ما وَرَدَ عليه، ولا هو أهلٌ لما قُرِّظ به. أولئك الذين حلَّت عليهم النياحةُ والبُكَاءُ أيامَ حياةِ الدنيا[٥].

ووصَفَ عليٌّ عليه السلام علماءَ الآخرةِ فى حديثِ كُمَيل[٦] بن زياد الذى يقول فيه: الناس ثلاثة؛ عالم ربانى. يعنى: عالمًا بالربوبية، فينسبه إلى ربّ، كما سماهم الله فى قوله: ﴿كُونُوا ربَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ﴾ الآية [آل عمران: ٧٩]. فسمّى العالمَ بكتابه ربانيًا، والدارسَ له ربَّانيًا، فهذا قد جمع العلم والعمل.

وكذلك يقال: العالم الربانى هو الذى يَعْلم، ويَعْمل، ويُعَلِّم الناسَ الخير. قال: فذاك الذى يُدعى عظيمًا فى ملكوت السماء. وقال تعالى فى تقدمتهم: ﴿لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٦٣] فقدم الربانيين على الأحبار، وهم علماء الكتب. وكذلك رويناه عن مجاهد قال: الربانيون فوق الأحبار درجةً. وقال غيره: والأحبارُ فوقَ الرهبانِ. يعنى: علماء القلوب أرفعُ من علماء الألسنة. والعلماءُ بالكتب أفضلُ من العبّادِ بدرجة. وقد ضمَّهم الله تَعالَى إلى أنبيائه فى

---

(١) فى نهج البلاغة: «حشوًا رثًا من رأيه» وهو أدق.

(٢) فى النهج: «جاهل، خبّاط جهالات، ركّاب عشوات».

(٣) فى النهج: «تصرخ من جور قضائه الدّماء، وتَعُجُّ منه المواريث».

(٤) المَلِيُّ بالشى: القيّم به الذى يجيد القيام عليه.

(٥) انتهى ما نقله هنا من كلام الإمام على، مع تقديم وتأخير فى الجمل والعبارات والألفاظ، وبقى بقية من خطبته تلك، انظر: المعجم المفهرس، ص١٩ خطبة: ١٧.

(٦) فى (ط): «كهيل» وهو خطأ، وكذا وردت فى موضع تالٍ. وقد مضى كلام الإمام على كاملاً.

النصرةِ له والصبر معه فى قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران:١٤٦]. ثم وصفَهم بالثبات لأمره، والقوةِ فى دينه، والصبرِ لحكمه فى تمام الآية. وربِّيُّون: جمع رِبِّى، يقال: رِبِّى، ورَبَّانِى. فجمعُ ربّى: ربيُّون، وجمع ربّانى: ربّانيون.

وكذلك جاء عن رسول الله ﷺ: «يَشْفَعُ يَوْمَ القيامةِ الأنبياءُ، ثُمَّ العُلَماءُ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ» فقدّم العلماء على الشهداء؛ لأن العالم إمام أمة، فله مثل أجور أمته، والشهيدُ عمله لنفسه. وفى خبر آخر: «حِبْرُ العُلَماء يُوزن بدمِ الشهداء». فأعلى حالِ الشهيد دمُه، وأدْنَى وصف العالم حبره، فسوَّى بينهما، وزادَ العالم على الشهيد بأعلى مقامه.

وكان على عليه السلام يقول: العالمُ أفضلُ من الصائمِ القائمِ والمجاهد فى سبيل الله، وإذا مات العالم ثُلِمَ فى الإسلام ثُلمة لا يسدُّها إلا خَلَفٌ منه. وقد روينا معناه مسندًا: إذا مات العالمُ ثُلِمَ فى الإسلام ثُلْمةٌ لا يسدُّها شىء ما طردَ الليلُ النهارَ، إلا موتُ العالِم بحم طَمْس[١]، وموتُ قبيلةٍ أيسرُ من موت عالم.

ثم قال على عليه السلام فى حديث كُمَيل: «ومتعلم على سبيل النجاة» يعنى: مريدًا طالبًا للعلم، متعلمًا من العلماء بالله تعالى على طريق معاملة وإخلاصٍ لطلب السّلامة، وأن ينجو من الجهل فى الدنيا ومن العذاب فى الآخرة. ثم قال: «وهَمَجٌ رِعاع»، الهَمَج: الفراش الذى يتهافتُ فى النار لجهله، واحدته: هَمَجَة، رِعاع: خفيف طيَّاش لا عقل له، يستفزُّه الطمع، ويستخفُّه الغضب، ويزدهيه العُجْب، ويستطيله الكِبْرُ. ثم بكى علىٌّ عليه السلام وقال: «هكذا يموت العلم بموت حامليه». ثم تنفَّس عند وصف الرَّبانيين فقال: «واشوقاهُ إلى رؤيتهم» يعنى الربانيين من العلماء. وقد ذكرنا هذا الحديث بطوله فى الباب الذى قبل هذا.

(١) حم: أى السورة التى تبدأ بحم، أى طمس لمعالم الإسلام.

فهؤلاء الذين بكى عليهم شوقًا هم الذين اشتاق رسولُ الله ﷺ إليهم قبله، فقال: «وا شوقاه إلى لقاء إخواني، وددتُ أني قد رأيت إخواني». ثم قال: «هم قومٌ يجيئون بعدكم»، ثم وَصفَهم. فإنّما كانوا إخوانَه لأنّ قلوبَهم على قلوب الأنبياء عليهم السلام، وأخلاقَهم بمعاني صفات الإيمان. وهم أبدالُ هذه الأمة، جاء في وصفهم ما يَجلُّ عن الوصف، هم على ثلاث طبقات: صدِّيقون، وشهداء، وصالحون. وإنَّ منهم: مَنْ قلبُه على قلب إبراهيم الخليل، ومنهم: مَن قلبه على قَلْب موسى الكليم، وعيسى الروح، ومحمد الحبيب، صلوات الله عليهم وسلم أجمعين. ومنهم: على قلْب جبريل، وميكائيل، وإسرافيل.

والأخوّةُ تقع بين الاثنين في المجالسة، وقُربِ الشّبه في الأفعال والأخلاق، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحشر:١١] لما كانوا على أوصافهم في القلوب من إسرار الكفر واعتقاد الشَّكِّ جعلهم إخوانًا. وكذلك قال: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء:٢٧]، وهؤلاء ليسوا أمثالهم في الخلقة، ولا بينهم أبوَّة ولا أمومة، لأن الشياطينَ من ولد إبليس والمبذِّرين أولادُ آدمَ عليه السلام، ولكن تشابَهَتْ قلوبُهُم في المواجيد والأخلاقِ والأفعال، فآخى بينهم للتشابه.

فمَن كان مِن علماء الآخرة فعقلُه يستضيءُ من أنوار قلبه، وفهمُه ينبئ عن استنباط علمِه، ومشاهدتُه وأخلاقُه على معاني يقينه، وقوته، وطريقه، وسلوكه في منهاج سَنته، وسبيله؛ فهو من إخوانه؛ وإخوان النبيين الذين اشتاق إلى رؤيتهم رسولُ الله ﷺ، وهم الغرباءُ بين الملأ الذين قال: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء؟ قال: الذين يُصلحونَ إذا فسد الناس». وفي لفظ آخر: «الذين يُصلحون ما أفسَدَه الناسُ من سنتي، والذين يُحْيُون ما أمات الناس من سنتي»، يعني أنّهم يظهرون طريقته التي تركها النَّاسُ وجهلوها.

وفي خبر آخر: «هم المتمسكون بسنتي وما أنتم عليه اليوم».

وفي حديث آخر: «الغرباء ناسٌ قليلونَ صالحونَ بين ناس سوءٍ كَثِيرين، مَن

يَبْغضُهُمْ أكثرُ ممَّن يحبهم».

فهؤلاء الغرباء الذين قد أنعم الله عليهم بمرافقة النبيين في أعلى عليين، فقال: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ إلى قوله: ﴿رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وقد كان الثوري يقول: إذا رأيتَ العالمَ كثير الأصدقاء فاعلم أنه مخلِّط. وقال أيضًا: إذا رأيتَ الرجلَ محببًا إلى إخوانه، محمودًا في جيرانه، فاعلم أنه مُراء.

وقد وصفَ اللهُ تعالى علماءَ السّوء بأكل الدُّنيا بالعلم، ووصفَ علماءَ الآخرة بالخشوع والزهد، فقال تعالى في علماء الدنيا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ [آل عمران: ١٨٧]. وقال في نعت علماء الآخرة: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وقد روينا عن الضحاك عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «عُلَمَاءُ هذه الأمَّة رَجُلان؛ فرَجُلٌ آتاه الله علمًا، فَبَذَلَهُ للنَّاسِ، ولم يأخذْ عليه طمعًا، ولم يَشترِ به ثمنًا، فذاك يُصلّي عليه طيرُ السماء وحيتانُ الماء ودوابُ الأرض والكرامُ الكاتبُون، يَقْدمُ على الله تعالى يوم القيامة سيّدًا شريفًا حتى يرافق المرسلين. ورجل آتاه الله تعالى علمًا في الدنيا، فضنَّ به على عبادِ الله عزّ وجلّ، وأخذ عليه طمعًا، واشترى به ثمنًا، يأتي يوم القيامة مُلْجمًا بلجام من نارٍ، ينادي منادٍ على رؤوس الخلائق: هذا فلانُ ابنُ فلانٍ، آتاه الله تعالى علمًا في الدنيا فضنّ به على عباد الله تعالى، وأخذ عليه طمعًا، واشترى به ثمنًا، يُعذَّبَ حتى يُفْرَغَ من حساب الناس».

ومن أغلظِ ما سمعتُ فيمن أكلَ الدنيا بالعلم: ما حدثونا عن عتبة[1] بن واقد، عن عثمان بن أبي سليمان قال: كان رجلٌ يخدم موسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم فجعل يقول: حدثّني موسى نبي الله، حدثني موسى نجيُّ الله، حدثني موسى كليمُ الله، حتى أَثْرِيَ وكَثُر مالُه، ففقدَه موسى صفيُّ الله دهرًا، فجعل

---

(١) في (ك): «عبيد».

يسأل عنه فلا يحس له أثرًا، حتى جاءه رجلٌ ذات يوم، وفى يدهِ خنزيرٌ فى عنقه حبْل أسود، فقال له موسى عليه السلام: أتعرف فلانًا؟ قال الرجل: نعم، هو ذا الخنزير. فقال موسى: يا ربِّ أسألك أن تردَّه إلى حاله حتى أسألَه فيما أصابه هذا. فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى لو دعوتَنى بما دَعانى به آدمُ فمَن دُونه ما أجبتُك فيه، ولكنِّى أخبرُك لِمَ صنعتُ به هذا؛ لأنه كان يطلبُ الدُّنيا بالدين.

وروينا عن الحسن: أنه انصرف يومًا من مجلسه، فاستأذَن عليه رجلٌ من أهل خراسان فوضع بين يديه كيسًا فيه خمسة آلاف درهم، وأخرج من حقيبته[١] رزمة فيها عشرة أثواب من رَقيق بَزِّ[٢] خراسان. فقال الحسن: ما هذا؟ فقال: يا أبا سعيد، هذه نفقة، وهذه كسوة. فقال له: عافاكَ الله، ضُمَّ إليك نفقتَكَ وكسوتكَ، فلا حاجةَ لنا بذلك. إنّه من جلسَ مثل مجلسى هذَا وَقبِلَ من الناسِ مثلَ هَذا لَقِيَ الله تعالى يوم القيامة لا خَلَاقَ له.

وفى خبر: «إن العبد لَيُنشَرُ له من الثّناء ما بين المَشْرِقِ والمَغْربِ، وما يزن عندَ الله جناح بَعوضة».

وعلماءُ الدنيا الطالبونَ لها بالعلم، الآكلون لها بالدين، المتخذونَ الأصدقاء[٣] والأخلاَّء من أبنائها، المكرِمُونَ المحبون لهم، المقبلون بالبِشْر والبشاشة عليهم ـ هم معرفون فى كل زمان بأوصافهم، ولحن قولهم وسيماهم.

وقد روينا فى مقاماتِ علماءِ السوءِ حَديثًا شديدًا، نعوذ بالله من أهله، ونسأله أن لا يبلونا بمقام منه، فرويناه مرةً مسندًا من طريق، ورويناه موقوفًا على معاذ بن جبل رضى الله عنه، وأنا أذكره موقوفًا أحبّ إلىّ. حدثونا عن منذر بن على، عن أبى نعيم الشامى، عن محمَّد بن زياد، عن معاذِ بن جبلٍ، يقول فيه: قال رسول الله ﷺ، ووقَفْتُه أنا على معاذ، قال: من فتنة العالم أن يكون الكلامُ أحبَّ إليه من الاستماع، وفى الكلام تنميق وزيادة، ولا يُؤمَن على صاحبه الخطأ، وفى

(١) لا تقرأ فى المخطوط «حقيبته» وهى أقرب إلى «حضْنه».

(٢) فى (ط): «دقيق بر» وهو خطأ، والصواب ما أثبت من (ك).

(٣) فى (ك): «المتخذوا الأصدقاء».

الصمت سلامةٌ وعلم. ومن العلماء مَنْ يَخْزِنُ علمَه فلا يحبُّ أن يوجد عند غيره، فذلك فى الدرك الأوَّل من النار، ومن العلماء من يكون فى علمه بمنزلة السلطان، فإن رُدّ عليه شىء من علمه أو تُهاون بشىء من حقه غضب، فذلك فى الدرك الثانى من النار. ومن العلماء من يجعل حديثه وغرائب علمه لأهل الشّرف واليسار، ولا يرى أهلَ الحاجة له أهلاً، فذلك فى الدرك الثالث من النار. ومن العلماء من يَنْصِبُ نفسه للفتيا، فيفتى بالخَطأ، والله عزّ وجلّ يَبْغَضُ المتكلِّفين، فذلك فى الدرك الرابع من النار. ومن العلماء من يتكلم بكلام اليهودِ والنصارَى؛ لِيَغْزُرَ به علمُه، فذلك فى الدرك الخامس من النار. ومن العلماء من يتخذُ علمَه مروءَة ونبلاً وذكرًا فى الناس، فذلك فى الدرك السادس من النار. ومن العلماء من يستفزُّه الزَّهْوُ والعُجْبُ، فإن وَعَظَ عَنَّفَ، وإن وُعِظَ أَنِفَ، فذلك فى الدرك السابع من النار. عليك بالصمت، فبه تغلب الشيطان، وإياك أن تضحك من غير عَجَب، أو تَمْشى فى غير أَرَب.

وقد روينا حديثًا يدل على أوصاف علماء الآخرة، وفيه أصول ما يدعون الخلق إليه من مقامات الإيمان، وأسباب الدين والإيقان. رويناه عن شقيق بن إبراهيم البلخى عن عبَّاد بن كثير عن أبى الزبير عن جابر ذكره عن رسول الله ﷺ ووقَفْتُه أنا على جابر بن عبد الله قال: لا تجلسوا عند كلّ عالم، إلا عالمٌ يدعوكم من خمس إلى خمسٍ: من الشّك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الرغبة إلى الزهد، ومن الكِبْرِ إلى التواضع، ومن العداوة إلى النصيحة.

ومما يدلك أن علمَ اليقين والتقوى، وعلمَ المعرفة والهدى، هو العلمُ المذكور المقصود عند السلف: أنّ الصحابةَ والتابعين كانوا يشفقون من فَقْدِ ذلك، ويخافون عدمه، ويخبرون عن رَفْعِهِ وقلَّته فى آخر الزمان، وإنما يَعنون بذلك علم القلوب والمشاهدات الذى هو نتيجة التقوى، وعلم المعرفة واليقين الذى هو من مزيد الإيمان وثمرة الهدى. فإذا فُقِد المتقون، وقلّ الخائفون، وعُدِمَ الزاهدون، ذهبت هذه العلوم؛ لأنها قائمة بهم موجودة عندهم، هم أربابُها والناطقُون بها، وهى أحوالُهم وطرائقهم، وهم السالكون لها والقائمون بها، فلأجلِ معرفةِ الصحابةِ

والتابعين عِزَّةَ ذلك كانوا يبكون على فقده.

وقد وصف اللهُ العلماءَ بالزهدِ فى الدنيا، والاستصغار لها، وبعمل الصالحات، والإيمان بها، كما وصف أبناء الدنيا بالرغبة فيها، والاستعظام لها، قال تعالى فى معنى ذلك: ﴿فَخَرَجَ على قَوْمه فى زينَته قَالَ الَّذينَ يُريدُونَ الحَياةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مثْلَ مَا أُوتىَ قَارُونُ إنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظيمٍ * وقالَ الَّذينَ أُوتُوا العلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ الله خَيْرٌ لمَنْ آمَنَ وَعَملَ صَالحًا﴾ ثم قال عز وجلّ: ﴿وَلاَ يُلَقَّاهَا إلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٧٩ ـ ٨٠]. أى لا يُلَقَّى هذه الحكمة إلا الصَّابرون عن زينة الدُّنيا التى خرج فيها قارون.

وروينا عن جُنْدُب بن عبد الله البَجَلِىِّ قال: كنا عند رسول الله ﷺ غِلْمَانًا حَزَاوِرَةً، فيعلِّمنا الإيمانَ قبل القرآن، ثم تعلَّمنا القرآنَ فازددنا إيمانًا.

وعن ابن مسعود قال: أُنزل القرآن ليُعمل به، فاتخذتم دراسته عملاً، وسيأتى قومٌ يَثْقُفُونَه[1] تثقيفَ الغناء، ليسوا بخياركم. وفى لفظٍ آخرَ: يقيمونه إقامةَ القَدْحِ[2]، يتعجَّلونه ولا يتأجَّلونه.

وروينا عن ابن عمر وغيره: لقد عِشْنا برهةً من دهرنا وإن أَحَدَنا يُؤتَى الإيمانَ قبل القرآن، وتنزل السورةُ فيتعلم حلالها وحرامَها، وآمِرَها وزاجرَها، وما ينبغى أن يتوقف عنده منها، كما تتعلمون أنتم اليوم القرآن. ولقد رأيتُ رجالاً يُؤتَى أحدُهُم القرآنَ قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته لا يدرى ما آمِرُه ولا زاجره، وما ينبغى أن يقفَ عنده، وينثرُه نَثْرَ الدَّقَل[3].

وفى الخبر الآخر بمعناه: كنّا أصحابَ رسول الله ﷺ أُوتينا الإيمان قبل القرآن، وسيأتى بعدكم قومٌ يُؤتَوْنَ القرآنَ قبل الإيمان، يقيمون حروفه، ويضيّعون حدوده، ويقولون قرأنا فمَنْ أقرأُ منّا، وعَلِمْنا فمَنْ أعلمُ منّا، فذلك حظُّهم منه. وفى لفظ

(١) يقال: ثَقِفَ الشىءَ ثقفًا: حذَقه.
(٢) القدْح: خشبة السَّهم قبل أن تُراش، أى يركب لها الريش.
(٣) الدّقل: أردأ التمر.

آخر: أولئك شِرارُ هذه الأمة.

فأما العلمُ المأثورُ الذى نقَله خلفٌ عن سلف، والخبرُ المرسومُ فى الكتب المستودَع فى الصحف الذى يَسْمَعه مَنْ غَبَرَ عمَّنْ قَدِمَ، فهذا. وعلمُ الأحكامِ والفتيا(١)، وعلمُ الإسلام والقضايا، طريقُهُ السمعُ، ومفتاحُه الاستدلالُ، وخزانتُه العقلُ، وهو مدوَّن فى الكتب، ومحبَّر فى الورق، يتلقَّاه الصغيرُ عن الكبير بالألسنة، وهو باقٍ ببقاء الإسلام، وموجودٌ بوجود المسلمين؛ لأنَّه حجة الله تعالى على عباده، ومحجَّة العموم من خلقه، فضمن إظهاره، فلم يكن ليظهر إلا بحمَلَة تُظهره، ونَقَلةٍ تحمله، فقال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]. وكما قال الرسول ﷺ بمعناه: «وعلمٌ ظاهر على اللسان، فذلك حجة الله تعالى على خلقه». وقال ﷺ لأصحابه: «تسمعون ويُسمَع منكم، ويُسمَع ممَّن سمع منكم». فأخبر ﷺ بالعلم العتيد المستودع ظهور الكتب الذى هو ظاهر الدين، وفى جهله وعدمه وجودُ الشِّرك. كما ضمن الله تعالى تبقية الإسلام على كره المشركين. وقال ﷺ: «رَحِمَ اللهُ مَنْ سمع منا حديثًا فبلَّغه كما سمعه، فرُبَّ حاملِ فقهٍ غير فقيهٍ، وربَّ حاملِ فقهٍ إلى من هو أفقه منه». وقد أخبر أن حاملَ الفقهِ قد يكون غيرَ فقيهِ القلب إذا لم يعملْ بعلمه، وأنه قد يحملهُ إلى مَنْ هو أفقه منه إذا عَمِل به إذا وعاه. كما قال فى الخبر الآخر: «رُبَّ مُبلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»، فمدحه بالعمل به إذا وعاه؛ فتذكّر به وتفكّر فيه، وإن لم يكن سمعه منه ﷺ.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢] يعنى: أذن القلب الحافظة ما سمعت الذاكرة لمَا وَعَتْ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] يعنى: أصغى بسمعه إلى سامعه، وشهد بقلبه ما سمعه من شاهده. وقد جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ قال: أُذن عَقِلَت عن الله تعالى أمرَه ونهيَه فوَعَتْه وعَمِلتْ به، كما وصَف

(١) فى (ط): «فهذا علم الأحكام والفتيا».

سبحانه وتعالى المؤمنين الذين نعتهم بقوله فى تمام وصفهم: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ﴾ [التوبة: ١١٢].

وقد روينا عن عليٍّ رضى الله عنه: اطلُبُوا العلم تُعرَفوا به، واعمَلوا به تكونُوا من أهله. وقال أيضًا رضى الله عنه: إذا سمعتم العلم فاكظموا عليه، ولا تخلطوه بهزل فتَمجَّه القلوبُ.

وقال بعض السلف: من ضحك ضَحْكَةً مَجَّ مجَّةً منَ العلْم. وقال الخليل بن أحمد رحمه الله: ليس العلمُ ما حَواهُ القِمَطْرُ إنَّما العلمُ مَا وَعَاه الصَّدْرُ.

وإذا جمع العالمُ ثلاثًا تَمّت النِّعْمةُ به على المتعَلِّم: الصَّبْرَ، والتَّواضُع، وَحُسْنَ الخُلُق. وإذا جمع المتعَلِّمُ ثلاثًا تمَّت النِّعْمةُ بِهِ عَلَى العالم: العقلَ، والأدَبَ، وَحُسْنَ الفهم.

والله أعلم.

ذكر وصف العلم وطريقة السلف وذم ما أحدث المتأخرون من القصص والكلام

لا بدّ للعَالِم بالله تعالى منْ خَمْسٍ هِىَ عَلامةُ عُلَماءِ الآخِرَة: الخشية، والخُشُوع، والتَّواضُع، وحُسْنِ الخلُق، والزهْد. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَماءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. وقالَ تعالى: ﴿خَاشِعِينَ لله﴾ [آل عمران: ١٩٩] الآية. فلا بدّ له منَ التواضعِ وَحُسْن الخُلُق، قالَ اللهُ عزّ وجلّ: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ المُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٨ ـ ٨٩]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] الآية، والزهْد فى الدُّنْيا، قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٨٠]. فَمَنْ وُجِدَ فِيهِ هَذِهِ الخلالُ فَهُوَ مِنَ العُلَماء بالله عزّ وجلّ.

واعلَمْ أنَّهُ إنما يَسْتَبِينُ العالِمُ عِندَ المشكِلاتِ فى الدِّين، ويُحْتَاجُ إلى العارفِ عِندَ

شُبُهات حَاكَتْ فى الصُّدُور، كما قال عَبْدُ الله بن مسعود رضى الله عنه: لا تَزالُونَ بخيرٍ ما إذا حاك فى صَدْرِ أحَدكُم شَىءٌ وَجَد من يُخبِرُهُ به ويَشْفيه منهُ. وايمُ الله أَوْشَكَ أن لا تَجدوا ذلك.

وكما قال له رسولُ الله ﷺ: «أىُّ الناسِ أعْلمُ؟ فقال: الله ورسوله أعلم. فقال: اعْلَمهُمْ بالحقِّ إذَا اشتبَهت الأمورُ ووَقَعت المشكلاتُ، وإنْ كَانَ يَزْحَفُ على استه». فكَذلكَ إذا اختلفَ الناسُ وإنْ كَانَ فى عَمَله تَقْصيرٌ. وكَما قالَ فى حديث عُمْرَانَ بن حُصينٍ: «إنَّ اللهَ تعالى يُحبُّ البصرَ الناقدَ عندَ وُرُود الشُّبُهَات، والعقلَ الكَاملَ عندَ هُجُومِ الشَّهوَاتِ، ويحب السَّخاءَ ولوْ عَلَى تَمْراتٍ، ويحبَ الشَّجاعةَ ولو عَلَى قتل الحيَّاتِ».

وقَدْ حَصَلَ لنا فى زَمانِنا هذا مِثْلُ مَا خَافهُ ابنُ مسعود؛ لأنَّ مُشْكلَةً لوْ وردتْ فى مَعَانِى التَّوحِيد، وشُبُهَةً لو اخْتلجَتْ فى صَدْرِ مُوقِنٍ[1] من معَانى صفَات الموَحَّد، وأرَدْتَ كشفَ ذَلكَ عَلَى حَقيقة الأمر بما يَشهَدُهُ القلبُ الموقنُ، ويَثلجُ لهُ الصَّدرُ المشرُوحُ بالهدَى، كان ذلك عزيزًا فى وَقْتكَ هذا، ولَكُنتَ فى استكْشَاف ذلكَ بين خمْسة نَفَرٍ:

مُبتدِعٍ ضَالٍّ، يُخبِرُكَ برأيه عَنْ هَواهُ فَيزيدُكَ حَيْرةً.

أوْ مُتكَلِّمٍ، يُفْتيكَ بقُصُورِ عِلْمه عَنْ شَهَادة الموقنين، وبقياسِ معقولِه على ظاهرِ الدين. وهذا شُبْهةٌ، فكيف تنكشفُ شبهةٌ بشُبُهَةٍ؟!

أو صُوفىٍّ شاطحٍ تائه غالط يُجاوزُ بكَ الكتابَ والسُّنَّةَ لا يُباليهما، ويُخالفُ بقوله الأئمَّةَ لا يَتحاشَاها، فيُجيبُكَ بالظَّنِّ والوسواسِ، والحَدْس والتَّمويه، ويمحُو الكونَ والمكان، ويُسْقِطُ العلمَ والأحكَامَ، ويُذْهبُ الأسْماءَ والرُّسُومَ. وهَؤلاءِ تائهونَ فى مفازة التيه لم يقفوا على الحجَّة، قد غَرقوا فى بحر التوحيد، لم يُجْعَلوا أئمَّةً للمتَّقين، ولا حُجَّةً للموقنين. وهذا ساقطُ القَوْلِ، إذ ليسَ معَهُ حُجَّةٌ، ولا هُو على سَنَنِ المحجَّة.

---

(١) فى (ط): «مؤمن» وأثبت ما فى (ك).

أو مُفْت عالم عندَ نفسه، موسوم بالفقه عندَ أصحابه، يقولُ: هذا من أحكام الآخرة ومن علم الغيب لا نتكلَّمُ فيه؛ لأنَّا لم نُكلَّفْهُ، وهو فى أكثر مناظرته يتكلَّمُ فيما لم يُكلَّفْ، ويُجادلُ فيما لم يَنْطقْ به السلفُ، ويتعلَّمُ ما علمهُ بتكلُّف، ولا يعلمُ المسكينُ أنه كُلِّفَ علْمَ يقينِ الإيمان، وحقيقةَ التوحيد، ومعرفةَ إخلاص المعاملة، وعلْمَ ما يقدحُ فى الإخلاص، ويخرجُ من جُمْلته قبل ما هو فيه؛ لأنَّهُ متكلفٌ لبعض ما هو يبْتغيه؛ لأنَّ علْمَ الإيمَان، وصحَّةَ التوحيد، وإخلاصَ العبوديَّة للربُوبيَّة، وإخلاصَ الأعمَال منَ الهوَى الدنْيويَّة، وما يتعلقُ بهَا منْ أعْمال القلوب ـ هو من الفقْه فى الدِّين، ونعْت أوصاف المؤمنين؛ إذ مقتضاهُ الإنذارُ والتحذيرُ؛ لقوله تعالى: ﴿**لِيَتَفَقَّهُوا فى الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ**﴾ [التوبة: ١٢٢] الآية، ولقول الرسُول ﷺ: «تعلَّمُوا اليقينَ فإنى متعلِّمٌ معَكُم»، ولقول الصحابة رضى الله عنهم: «تعلَّمنا الإيمان، ثُم تعلمنا القرآنَ فازددنا إيمانًا»، فهذا ـ مزيدًا ـ الهدايةُ بالإيقان، وهُو زيادةُ المؤمنينَ فى الإيمان، كما قال تعالى: ﴿**فَزَادَهُم إيمانًا**﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقال عزّ وجلّ: ﴿**وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى**﴾ [مريم: ٧٦].

ولا يشعرُ أنَّ حُسْنَ الأدبِ فى المعامَلَة بمعرفة ويقينٍ هُو من صفات الموقنين، وذلك هُو حالُ العبدِ فى مقامه بينه وبين ربِّه عزّ وجلّ، ونصيبُه من ربِّه تعالى، وحَظُّهُ من مزيد آخرته. وذلكَ معقُودٌ بشَهادة التوحيد، المقترنة بالإيمان، الخالصة من خفايا الشِّرْك وشُعَب النفاق، وهو مقترنٌ بالفرائض، وفَرضُ فَرضهَا الإخلاصُ بالمعاملة. وإن عَلمَ مَا سوى هذا[1] ممَّا قد أُشْربَ قلبُهُ وحُبِّبَ إليه من فضول العلوم وغرائبِ الفهوم، إنما هو حوائجُ الناس ونوازلُهم، فهو حجابٌ عن هذا واشتغالٌ عنهُ.

فآثرَ هذا الغافلُ[2] ـ لقلَّة معرفته بحقيقةِ العلم النافع ـ ما زُيِّن له طَلَبُهُ وحُبِّبَ

---

(١) عبارة (ك): «وهو مقترن بالفرائض، وفرض فرضها المقترن بالمعاملة، وعلم ما سوى هذا».

(٢) فى (ك): «البائس».

إليه قصدُهُ، آثر حوائجَ الناسِ وأحوالهم على حاجته وَحاله، وعَملَ فى أنصبتهمْ منه فى عاجلِ دُنياهُم مِنْ نَوازلِ طوارقهمْ وَفُتْياهُم، ولَم يَعْمل فى نصيبه الأوفر من ربِّه الأعلى؛ لأجل آخرتهِ التى هى خيرٌ وأبقى؛ إذ مرجعهُ إليها وَمَثْواه المؤبَّدُ فيها، فآثرَ التقرُّبَ مِنهُمْ على القُربةِ من ربه عزّ وجلّ، وترك ـ للشُّغل بهم ـ حظَّهُ من الله تعالى الأجزل، وقدّم التفرُّغَ لهم على فراغ قلبه لمولاه وشُغله بخدمته وتذكُّر رضاه[(١)]، واشتغل بإصلاح ألسنتهم عن صلاحِ قلبه، وظواهِر أحوالهم عن باطن حاله، وكان سبب ما بُلى به حُبُّ الرياسة وطلبُ الجاه عند الناس والمنزلة بمُوجب السياسةِ والرغبة فى عاجل الدُّنيا وعزِّها، بقلَّة الهمَّة وضعف النيَّة فى عاجل الآخرةِ وذُخرِه، فأفْنَى أيامَه لأيامِهِمْ، وأذهَبَ عُمْرَه فى شهواتِهِمْ؛ ليسمِّيَهُ الجاهلون بالعلمِ عَالمًا، وليكونَ فى قلوبِ البطَّالينَ عندَهُمْ فاضلاً، فورَدَ القيامةَ مُفْلِسًا، وعِندَ ما يراهُ من أنصبةِ المقرَّبينَ مُبْلسًا، إذ فازَ بالقُربِ العاملون، وربح الرضا العالمون، ولكنْ أنَّى له؟ وكيفَ بنصيبِ غيره وقدْ جعلَ اللهُ تعالى لكلِّ عملٍ عاملاً ولكلِّ علم عَالمًا؟ ﴿أُولَئكَ يَنالُهُم نَصِيبُهُم مِنَ الكتابِ﴾ [الأعراف:٣٧]، و«كلٌّ مُيسر لما خلق له».

هذا فصلُ الخطاب بينهما.

وأيضًا فإن الأمة لم تختلف أنَّ علمَ التوحيدِ فريضةٌ، سيَّما إذا وقعت الشُّبُهات وأُدخلَتْ فيه المشكلاتُ. وإنما اختلفوا فى مسألتين: أىُّ شىءٍ هُو التوحيُد؟ وفى كيفية طلبه والتوصل إليه. فمنهم من قال: بالبحث والطلب. ومِنْهُمْ من قال: بالاستدلالِ والنظر. ومنهم من قال: بالسمع والأثر. وقال بعضهم بالتوقيف والتسليم. وقالَ بعضُ النَّاس: يُدْرَكُ دَركُهُ بالعجزِ والتَّقصير عن بُلُوغِ دَركِه.

والرجلُ الخامسُ من العلماء: هُو صاحبُ حديث وآثار، وناقلُ رواية الأخبار، يقولُ لك إذا سألته: اعتقدِ التسليم وأمرَ الحديث كما جاء، ولا تُفتِّشْ. وهذا يتلُو المفتى فى السّلامةِ، وهو أحسنُهُم طريقةً، وأشبهُهُم بسلفِ العامَّة خليقةً، ليْسَ

---

(١) فى (ط): «وقدم التفرغ لهم على فراغ قلبه، لما قدم لغده من تقواه بالشغل بخدمة مولاه وطلب رضاه» وهى عبارة مضطربة، وأثبت عبارة (ك) لأنها أدق.

عندَه شهادةُ يقينٍ، ولا معرفةٌ بحقيقة ما رآه، ولا هو مُشاهدٌ واصفٌ لمعنَى ما نقلهُ، إنَّما هو للعلمِ راويةٌ، وللأثرِ والخبرِ ناقلةٌ عَنْ غير خُبْرٍ لِخَبرِه، ولا فقهٍ فى نقلِه. فَهُوَ على بيِّنةٍ من ربِّه، وليس يتلوهُ شاهدٌ منهُ.

وقد كان الزُّهْرى يقول: حدَّثَنى فلان، وكان من أوعيةِ العلم، ولا يقولُ: وكان عالمًا. وكان مالكُ بنُ أنس رحمه الله يقول: أدركتُ سبعين شيخًا من التابعين، منهم عُبَّادٌ، ومنهم مستجابُ الدعاء، ومنهُمْ مَن يُستَسقَى به، ما حَمَلْتُ عنهُمْ علمًا قَط. قيل: ولمَ ذاك؟ قال: لم يكُونُوا من أهل هذا الشأن. وفى روايةٍ: لم يكونوا يدرون ما يُحدِّثونَ به، ولم يكن لهم فقهٌ فيما يُسألونَ عنه.

قال مالك: ويَقْدُم علينا ابنُ شهاب الزهرى، وهو حديثُ السِّنِّ، فنزدحمُ عليه حتى لا نكاد نَصلُ إليه؛ لأنه كان عالمًا بما يُحدِّث به. فهذا بمعنَى ما رُوِىَ عن رَسُولِ الله ﷺ: «رُبَّ حَاملِ فقهٍ غيرُ فقيه، ورُبَّ حَاملِ فقهٍ إلى مَنْ هو أفقهُ منه».

وقال بعضُ السلف: ما كانوا يعدُّون علمَ مَنْ لا يعرفُ اختلافَ العلماء علمًا. وقال آخر: مَنْ لم يَعرفِ اختلاف العلماء لم يَحلَّ له أن يفتى، ولم يُسمَّ عالمًا. وقال قتادةُ وسعيدُ بن جبير: أعلمُ الناس أعلمُهم باختلاف الناس. وقيل للإمام أحمد رضى الله عنه: إذا كتب الرجلُ مائة ألف حديثٍ له أن يُفْتِىَ؟ قال: لا. قيل: فمائتى ألف حديث؟ قال: لا. قيل: فثلاثمائة ألف حديث؟ قال: أرْجُو. وفى التوراةِ مكتوبٌ: «الطَّبيبُ الحاذِقُ للعلَّة الباطنة يَصْلُحُ».

وكَتَبَ سلمانُ الفارسى من المدائن إلى أبى الدرداء، وكان قد آخى رسُولُ الله ﷺ بينهما فيمَنْ آخى: يا أخى بلغنى أنك أُقعدتَ طبيبًا تُداوى المرضى. فانظر، فإن كنتَ طبيبًا فتكلَّمْ فإن كلامَكَ شِفاءٌ، وإن كُنتَ مُتطبِّبًا فاللهَ اللهَ لا تقتُلْ مُسْلمًا. قال: فكانَ أبو الدرداء يتوقفُ بعدَ ذلك إذا سُئِل عن شىء. وسألهُ إنسانٌ عن شىءٍ فأجابه ثُم قالَ: رُدُّوهُ، فقالَ لهُ: أعِدْ عَلىَّ، فأعَادَ، فقَالَ: مُتطَبِّبٌ والله، فَرَجعَ فى جوابه.

ولَعَمْرى أنَّهُ قد جَاءَ عن رسول الله ﷺ: «مَنْ تَطبَّبَ ولم يُعلَم منهُ طبٌّ فقَتَلَ

فهو ضامنٌ». وقد كان ابنُ عباسٍ رضى الله عنه يقولُ: سلوا جابرَ بن زيدٍ، فلو نَزلَ أهلُ البصرةِ على فُتياهُ لَوسِعَهم، وكان من صالحى التابعين.

وكان ابنُ عمر رضى الله عنهما إذا سُئِل عن شيء يقولُ: سلُوا سعيدَ بنَ المسيَّب. وكان أنسُ بنُ مالكٍ رضى اللهُ عنه يقولُ: سلُوا مَولانا الحسنَ؛ فإنه قد حَفِظَ ونَسينَا.

وقال بعض البصريِّين: قَدِمَ علينا رجلٌ من أصحابِ رسول الله ﷺ، فأتينا الحسن فقُلنا: ألاَ نذهب إلى هذا الصَّحَابى فنسألهُ عن حديثِ رسول الله ﷺ وتجيء معنا؟ قال: نعم، فاذهبُوا. قال: فجعلنا نسألُه عن حديثِ رسولِ الله ﷺ وجعل يحدِّثُنا حتَّى حدَّثنا عشرين حديثًا.

قال: والحسن يُنصِتُ يَستمِعُ إليه. ثُمَّ جثا الحسنُ على ركبتيهِ فقال: يا صاحبَ رسول الله أخبِرْنا بتفسيرِ ما رويتَ عن رسولِ الله ﷺ حتى نفقهَ فيه. فسكتَ الصحابى وقال: ما عندى إلا ما سَمِعتُ.

قال: فابتدأ الحسنُ - رحمه الله - يُفسِّرُ ما رواهُ، فقال: أما الحديثُ الأوّلُ الذى حدثْتَنا به فإنّ تفسيره كيت وكيت، والحديثُ الثانى تفسيرهُ كذا وكذا، حتى سرد عليه الأحاديثَ كُلَّها التى حدَّثنا بها وأخبرنا بتفسيرها.

قال: فلا نَدْرى نَعْجَبُ من حُسْنِ حفظِهِ إياهُ وأدائِه الحديث، أو من علمه وتفسيره؟!

قال: فأخذَ الصحابيُّ كَفًّا من حصًى وحَصَبنا به، ثُمَّ قال: تَسألونى عن العِلم وهذا الحَبرُ بين أظهُرِكُمْ.

فهؤلاء أصحابُ النبيِّ ﷺ يردُّون الأمور فى الفُتْيا وعلمِ اللسانِ إلى مَنْ هو دُونهم فى القدْر والمنزلة، وهُو فى علمِ التوحيدِ والمعرفَةِ والإيمانِ فوقهم درجات، ولا يَرْجِعُونَ إليهم فى الشُّبهات، ولا يردون إليهم فى علمِ المعرفة واليقين. فهذا كما قيل: إنَّما العلمُ نُورٌ يَقْذِفُه الله تبارك وتعالى فى قلوبِ أوليائه. فقد يكونُ ذلك تفضيلاً للنظراءِ بعضهم على بعضٍ، وقد يكُونُ تخصصًا للشَّبابِ على

الشُّيوخ، ولمن جاء بعد السَّلَف منَ التَّابعين، ورُبَّما كَانَ تكرمَةً للخاملينَ المتواضعين؛ لينبَّه عليهم ويعرفون شأنَهُمْ؛ ليَعظُمُوا ويُرْفَعُوا، كما قال اللهُ تعالى: ﴿ونُريدُ أنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذينَ اسْتُضْعِفُوا في الأرْضِ ونَجْعَلَهُمْ أئمَّةً﴾ [القصص: ٥].

والنُّور إذا جُعِلَ فى الصَّدْرِ انشرح القلبُ بالعلم، ونظر باليقين فنطق اللسانُ بحقيقةِ البيانِ، وهُو الحكمةُ التى يُودعها الله تعالى فى قُلُوبِ أوليائه، كما جاء فى تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿وآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، قيل: الإصابة فى القول، فكأنَّه يُوفِّقُهُ للحَقيقَة، وقوله تعالى: ﴿يُؤْتِى الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] قيل: الفهمُ والفطْنة.

وقد قال رسول الله ﷺ فى وصفِ الهداية حين تلا قوله عز وجلّ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلام﴾ [الأنعام: ١٢٥] فقيل: «يا رسول الله، ما هذا الشرح؛ فقال: إنَّ النُّورَ إذا قُذفَ فى القلب انشرحَ له الصَّدْرُ وانفسَحَ. قيلَ: فهَلْ لذلكَ من علامة؟ قال: نعَم، التَّجَافى عن دارِ الغُرور، والإنابةُ إلى دار الخُلودِ، والاستعداد للموتِ قبل نزوله».

فذكر سببَهُ: الزُّهْدَ فى الدنْيا، والإقبالَ على خدْمة المولى، فحُسنُ التوفيقِ والإصابةُ فى العلمِ مواهبُ من الله عزّ وجلّ، وأثرةٌ يختصُّ بها من يشاءُ. كما سُئِل أبو مُوسَى الأشعَرىُّ - وهو أميرُ الكوفة - عن رجلٍ قُتلَ فى سَبيلِ الله مُقْبلاً غير مدبر، أيْنَ هُو؟ فقال أبو موسى: فى الجنَّة. فقال ابنُ مسعود للسائلِ: أعدْ على الأمير فُتْياكَ فلعلَّه لم يَفْهَمْ. قال السائلُ: قلتُ أيُّها الأميرُ: مَا قولُكَ فى رجلٍ قاتلَ فى سبيلِ الله فقُتلَ مُقْبلاً غيرَ مدبرٍ أينَ هُو؟ فقال أبو موسى: فى الجنة. فقال ابن مسعود رضى الله عنه: أعدْ على الأمير فلعلّهُ لم يفهم، فأعاد عليه ثلاثًا، كل ذلك يقول أبو موسى: فى الجنة. ثم قال: ما عندى غيرُ هذا فما تقولُ أنت؟ فقال ابن مسعود: لكنى لا أقول هكذا، قال: فما قولُكَ؟ فقالَ: أقولُ: إن قُتلَ فى سبيلِ الله فأصابَ الحقَّ فهُوَ فى الجنةِ. فقال أبو موسى: صدق، لا تسألونى عن شىءٍ ما دام هذا الحبرُ بين أظهُركم.

والقولُ فى تسليم أخبارِ الصِّفاتِ والسُّكُوتِ عنْ تَفْسيرِها كما قال أصحابُ الحديث، إلا أن معرفةَ معانى الأسماء والصِّفاتِ وشُهودِهَا يَنفى الظنَّ والوسْوَاسَ فيهَا، وتركَ التشبيهِ والتمثيل بها والطُّمأنينةَ إلى اليقينِ بالمعرفةِ بمُشاهدَتِها هو مُقامُ الموقنين، واعتقادَ أنها صفاتٌ لله تعالى يتجَلَّى بها وبما شاءَ من غيرها بلا حَدٍّ ولا عدد يُظْهِرُ بصفةٍ صفةً كيف شاء، غيرَ موقوف على صفة، ولا محكومٍ عليه بصُورة، بلا إظهارِ غيرته، بل هُو كيف ظهر، وبأيٍّ وصفٍ تجَلّى، مع نفى الكيفيَّةِ والمثلية لفقدِ الجنس والجوْهَريَّة، هُو مُقامُ المقرَّبين من الشُّهداء، وهؤلاءِ هُمُ الصِّدِّيقُون، وخُصُوصُ الموقنين.

فمن عُدِل بهِ عن وجهَةِ هؤلاء، ولم يُواجهْ بشهادتهم [عن أصل معرفتهم][(١)] عُدِلَ إلى التسليم والتصديق، فوقفَ عندَهُ، فكان مَعْقله واستراحته. وليسَ بعد هؤلاء مَقَامٌ يُمْدَحُ، ولا وصفٌ يُذكَرُ. فمَنْ فَتَّشَ ذلك بعقلِه، وفسَّرهُ برأيه، دخل عليه التشبيهُ، أو خَرَجَ إلى النَّفْيِ والإبطالِ.

ومن الدليل على فضل هذا العلمِ على سائر العلوم ما جاء فى الأخبار المأثورة عن النبى ﷺ وعن الصحابة والتابعينَ فى فضل مجالس الذِّكرِ وَفَضْلِ الذَّاكرين، إنما يُرِيدُون به علمَ الإيمان والمعرفة وعلومَ المعاملات، والتفقُّهَ فى بصائر القلُوب، والنظرَ بعين اليقين إلى سرائر الغيوب، وليس يريدون به مجالسَ القَصَص، ولا يَعْنُونَ بِذَلكَ القُصَّاصَ؛ لأنَّهُمْ كانُوا يَرَوْنَ القَصَصَ بدْعَةً وَيقُولُونَ: لَم يُقَصَّ فى زَمن رسُول الله ﷺ، ولا أبى بكرٍ، ولا عُمر، حتى ظهرت الفتنةُ، فلمّا وقعت الفتنةُ ظهرَ القُصَّاصُ.

ولَمَّا دَخَلَ عليٌّ رضى الله عنهُ البصرةَ جَعَلَ يُخرِج القُصَّاصَ من المسجِد وَيقول: لا يُقَصُّ فى مَسْجدِنَا، حتّى انتهَى إلى الحَسَنِ وهو يَتكلَّمُ فى هذا العلمِ، فاستمع إليه، ثم انصرف ولم يُخرِجْه.

وجاء ابن عمر إلى مجلسه من المسجد، فوجدَ قاصًا يقُصّ، فوجّه إليه صاحبَ

(١) ساقطة من (ط).

الشُّرْطَةِ أن أخْرِجْهُ من المسجدِ، فأخرجهُ.

فلو كان القَصَصُ من مَجَالس الذِّكْرِ ـ والقُصّاصُ عُلماءُ ـ لما أخرجَهُمْ ابنُ عُمرَ من المسجدِ، هذا معَ ورعه وزهده.

وقد روينا عن ابن شَوْذَب، عن أبى النّياح، قال: قلتُ للحسن: إمامُنا يَقُصّ فيجْتَمِعُ الرِّجَالُ والنِّسَاءُ فيرفعُونَ أصواتَهُمْ بالدعَاء ويمدُّون أيديَهُمْ. فقال الحسنُ: رَفْعُ الصوْتِ بالدُّعاءِ بِدْعةٌ، ومَد الأيدى بالدُّعاء بدعةٌ.

وروى أبُو الأشهبِ عن الحسن: القَصَصُ بدْعة. وقيل لابن سيرينِ: لَوْ قَصَصْتَ على إخوانكَ، فقال: قد قيلَ: لا يَتكلَّمُ عَلَى الناس إلاَّ أحَدُ ثلاثةٍ: أميرٌ أو مأمورٌ أو أحمقُ. فلسْتُ بأميرِ ولا مأمور، وأكره أن أكون الثالثَ.

وَرُوينا عَنْ عَوْنِ بنِ مُوسَى، عن معاوية بن قُرَّةَ قال: سألتُ الحسنَ البصْرِىَّ قلت: أعُودُ مريضًا أحبُّ إليكَ أوْ أجْلسُ إلى قَاصٍّ؟ فقال: عُدْ مَرِيضَك. فقلت: أشيِّعُ جنَازةً أحبُّ إليك أو أجْلسُ إلى قَاصٍّ؟ قال: شيِّع جنازتك. قلتُ: وإن استعانَ بِى رَجُلٌ فى حاجةِ أعينه أو أجلسُ إلى قاصٍّ؟ قال: اذهب فى حاجتك، حتى جعلهُ خيرًا من مجالس الفراغ.

فلو كانت مجالسُ الذكرِ عندهم هى مَجَالسُ القُصّاص، ولو كان القَصَصُ هُوَ الذِّكْر، لما وَسعَ الحسنُ أن يثبِّطَ عنهُ، ولا يُؤْثِرَ عليه كثيرًا من الأعمال؛ لأنهُ قَدْ كَانَ يَدعُو إلى اللهِ تعالى بالتوحِيدِ، ويَتكلَّم فى علْمِ المعرفةِ واليقين والذَّاكِرِين لله تعالى، وحضورُ مجلسِ الذكرِ من مزيدِ الإيمانِ.

وقد رفع الله تعالى مقامَ الذَّاكرين فوق مقام المؤمنين فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ المُسْلِمينَ والمُسْلِمَات وَالمُؤْمِنينَ وَالمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، فجعل الذاكرين والذاكرات أعلى المقامَات.

وقَدْ رُوينا فى خَبَرِ أبى ذرٍّ: «حضورُ مجلسِ ذكر أفضلُ من صلاةِ ألفِ ركعة، وحُضورُ مجلسِ علم أفضلُ من عيادة ألفِ مريض، وحضورُ مجلس علم أفضلُ من شهودِ ألف جنازةِ. قيل: يا رَسُولَ الله، ومن قراءة القرآن؟ فقال: وهَلْ تنفعُ

قِراءةُ القرآن إلا بعلم؟».

وقال بعض السلف: حضور مجلسِ ذكرٍ يكفِّرُ عشْرةً من مجالس الباطلِ.

وأما عطاءٌ فإنه قال: مجلسُ ذكرٍ يكفِّرُ سبعينَ مَجْلسًا من مجالسِ اللّهْو.

وحدَّثُونا عن معاذ الأعلم قال: رآنى يُونُسُ بنُ عُبيدٍ وأنا فى حَلْقة المعتزلةِ، فقال: تعالَ، فجئتُ، فقال: إن كُنتَ لا بدّ فاعلاً فعليك بحلقة القُصَّاص.

وقد كان الحسنُ البصرىُّ أحد المذكِّرينَ، وكانت مجالسُه مجالسَ الذكْرِ، يخلُو فيها معَ إخوانِه وأتباعهِ منَ النسَّاك والعُبَّاد فى بيتِه مثلَ: مالكِ بن دينارٍ، وثابتٍ البنانىّ، وأيُّوبِ السَّخستانىّ، ومُحمد بن واسعٍ، وفرقدِ السنجىّ، وعَبدِ الواحدِ بن زيد، فيقول: هاتُوا انشُرُوا النورَ، فيتكلمُ عليهم فى هذا العلم من علم اليقينِ والقدرة، وفى خواطرِ القلوبِ وفساد الأعمالِ ووَسواسِ النفُوسِ. وربما قنَعَ بعضُ أصحابِ الحديث رأسَهُ فاختفَى مِنْ ورائِهمْ ليسمَعَ ذلكَ، فإذا رآه الحسنُ قال له: يا لُكَعُ وأنتَ مَا تصنَعُ هَهنا؟ إنّما خلَونا مع إخواننا نتذاكرُ.

والحسنُ - رحمه اللهُ - هُو إمامُنَا فى هذا العلمِ الّذى نتكلمُ بِه: أثرَه نقفو، وسَبيلَه نتّبعُ، ومِنْ مشكاتِه نستضىءُ. أخذنا ذلك بإذنِ الله تعالى إمامًا عن إمامٍ إلى أن ينتهىَ ذلك إليه.

وكان من خيارِ التابعين بإحسانٍ. قيل: ما زال يعى الحكمةَ أربعينَ سنةً حتى نَطَق بها. وقد لقى سَبْعينَ بَدْرِيًا، ورأى ثَلاثمائةِ صحابىٍّ، ووُلدَ لليلتين بَقِيتا من خلافة عمرَ بن الخطَّابِ رضى الله عنه سنة عشرين من التاريخ. وُلدَ بالمدينة، وكانتْ أمهُ مولاةً لأمّ سلمةَ زوجِ النبىِّ ﷺ، ويقال: إنَّها ألقمتهُ ثَديَهَا تعلِّله حين بكى، فدرَّ ثديُها عليه. وكان كلامُه يُشبَّهُ بكلامِ رَسُول الله ﷺ. ورأى عثمانَ بن عفَّان، وعلىَّ بن أبى طالبٍ، ومَنْ بقى فى وقْتِه من العشرةِ. ثم رأى مِنْ أصحابِ رسول الله ﷺ من عهدِ عثمان ومن سنة نيِّفٍ وعشرين من الهجرة، إلى سنةِ نيفٍ وتسعينَ.

ومن آخرِ مَنْ ماتَ من أصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بالبصرةِ: أنسُ بنُ مالكٍ،

وبالمدينة: سهلُ بنُ سعد الساعديّ، وبمكةَ: أبو الطُّفيلِ، وباليمنِ: أبيضُ بنُ جمالٍ المازنيّ، وبالكوفةِ: عبدُ الله بنُ أبى أَوْفَى، وبالشامِ: أبوُ قرصافةَ، وبخراسانَ: بُريدةُ الأسْلَميُّ.

ودخلَت سَنَةُ مائةٍ منَ التاريخ ولم يبق على وَجْهِ الأرض عينٌ تَطْرفُ رأتْ رسول الله ﷺ فى جميع أطراف الأرضِ.

ثم توفى الحسنُ فى سنةِ عشرٍ ومائة، وكان أبو قتادةَ العدوىّ يقول: عليكُمْ بهذا الشيَّخ فوالله مَا رأينا أحَدًا لم يصحبْ رسولَ الله ﷺ أشبهَ بأصحاب رسُول الله ﷺ منه. وكانوا يقولون: كُنَّا نُشبِّهُه بهَدْى إبراهيمِ الخليلِ ﷺ فى حِلْمِه وخُشُوعِه ووقارِه وَسكِينته، فكان على شمائِله.

ونذَرت امرأة بالبصرةِ نذْرًا إن فعل الله تعالى ذلك بها أن تنسُج ثوبًا من غزلهَا وَصفته، وتكْسُوهُ خيرَ أهْلِ البصرةِ، فرأت تَمامَ نذْرِها، فَوفَّتْ بِمَا نذرَتْ، ثُمَّ سألت: مَنْ خَيرُ أهلِ البصرةِ؟ فقالوا: الحسن.

وكان الحسنُ رضى الله عنه أول من أنهجَ سبيلَ هذا العلمِ، وفَتَقَ الألسنةَ به، ونَطَقَ بمعانيه، وأظهرَ أنوارَهُ، وكشفَ به قِنَاعَهُ، وكان يتكلمُ فيه بكلامٍ لم يَسْمَعُوهُ من أحدٍ من إخوانه، فقيل له: يا أبا سعيدٍ، إنكَ تتكلمُ فى هذا العلم بكلامٍ لم نسمَعْه مِن أحدٍ غيرِكَ، فممّن أخذتَ هذَا؟ فقال: مِنْ حُذيفَةَ بنِ اليَمانِ.

قيلَ: وقالُوا لحذيفة بنُ اليمان: نَرَاكَ تتكلمُ فى هذا العلم بِكَلامٍ لا نسمعُه من أحد من أصحابِ رسول الله ﷺ، فمن أين أخذْتَه؟ فقال: خصَّنى به رسولُ الله ﷺ، كان الناسُ يسألونهُ عن الخير، وكنت أسألهُ عنِ الشَّرِّ مخافةَ أن أقعَ فيه، وعلمتُ أن الخيرَ لا يَسبقُنى. وقال مرةً: فعلمتُ أنَّ مَنْ لا يَعْرفُ الشَّرَّ لا يَعرفُ الخيرَ.

وفى لفظ آخر: كان الناس يقولون: يا رسول الله، ما لِمَنْ عَملَ كَذا وكَذا؟ يسألونه عن فضائلِ الأعمال، وكنتُ أقولُ: يَا رَسُولَ الله، مَا يُفْسِد كَذا وكَذا؟ فلمَّا رآنى أسألُ عَنْ آفاتِ الأَعْمَالِ خَصَّنى بهذا العلم.

وكان حذيفَةُ قد خُصَّ بعلم المنافِقين، وأُفرِدَ بمعرفة علمِ النِّفاق، وبسَرائرِ العلمِ، ودقائقِ الفهمِ، وخفايا اليقينِ، من بين الصحابة. فكان عمرُ وعثمانُ وأكابرُ أصحابِ رسولِ الله ﷺ يَسْألونهُ عن الفتنِ العامة والفتنِ الخاصَّة، ويَرْجعُون إليهِ في العلمِ الذى خُصَّ بهِ، ويسألونَهُ عن المنافقين، وهلْ بَقى منهم ممَّن ذكَرَ رسولُ الله ﷺ(١) وأخبرَ عنهم أحَدٌ؟ فكانَ يخبرُ بأعدادهم ولا يذكُر أسماءَهُم. وكان عمرُ يستكشفُه عَنْ نفسه، هَلْ يعلم فيه شيئًا من النِّفاق؟ فبرَّأه منه. ثمَّ يَسْألُه عَنْ عَلامات النِّفاقِ، وآيةِ المنافقِ، فيخبرُ منْ ذلكَ بما يصلُحُ مما أُذِن له فيه، ويستعفِى مما لا يجوزُ له أن يُخْبرَ به، فيُعذَرَ فى ذلك.

وكَانَ عُمرُ رضى الله عنهُ إذا دُعِيَ إلى جنازةٍ ليصلِّى عليها نظَر، فإن حضَرَ حذيفةُ صلَّى عليهَا، وإن لم ير حذيفةَ لم يصلِّ عَلَيها. وكان حذيفةُ يسمَّى «صاحبَ السرِّ»، وكانَ [أكابرُ](٢) أصحابِ رسُولِ الله ﷺ إذا سُئلوا عَنْ علْمٍ يقول أحدُهُم: تسألونى عن هذا وصاحب السر فيكم؟ يعنى حذيفةَ.

وروينا عن أنس بن مالكٍ رضى الله عنه أنه لَمَّا حدَّث عن النبى ﷺ فى فضْلِ مجلسِ الذكر: «لأنْ أقعدَ معَ قومٍ يذكرونَ الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمسِ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أعتقَ أربعَ رقابٍ» قال: فالتفَتُ إلى يَزِيد الرَّقَاشيِّ وزياد النُّمَيرى فقَال: لم تكُنْ مجالِسُ الذكْرِ مثْلَ مجالسكُمْ هَذه؛ يقصُّ أحدُكم ويَخطُبُ على أصحابه ويَسْرُدُ الحديثَ سَرْدًا، إنَّما كنا نقعدُ فنذكرُ الإيمانَ ونتدبرُ القرآن ونتفقَّهُ فى الدِّينِ ونَعُدُّ نعمَ الله تعالى عَلَينا.

وَقَدْ كان عبدُ الله بنُ رواحةَ يقول لأصحابِ رسولِ الله ﷺ: تعالوا حَتَّى نُؤْمنَ سَاعَةً، فيجلسُونَ إليهِ فيذكِّرهُمْ العلمَ بالله تعالى والتوحيدَ والآخرة. وكان يَخلُفُ رسول الله ﷺ بعد قيامه فيجتمع إليه الناسُ يُذكِّرهم الله تعالى وأيامَهُ ويفقِّهُهُم فيما قال رسولُ الله ﷺ. فربَّما خرجَ عليهم رَسُولُ الله ﷺ وهُمْ مجتمعونَ عندَه، فيَسْكُتُونَ، فيَجْلِسُ إليهِمْ ويَأمرُهُمْ أنْ يأخذُوا فِيمَا كَانُوا فِيهِ، ويقُولُ ﷺ: «بهذا

(١) فى (ط): «ممن ذكر الله تعالى» وأثبت ما فى (ك).

(٢) زيادة من (ك).

أُمِرْتُ وإلى هذا دَعَوْتُ». ورُوِى نحوَ هذا عن معاذِ بن جبلٍ رضى الله عنه، وقد كان يتكلَّمُ بهذا العلمِ.

وقد رُوينا هذا مفسَّرًا فى حديث جُنْدُبٍ: «كنا مع رسول الله ﷺ فيعلِّمُنا الإيمان قبلَ أن نتعلَّمَ القرآن». فسمَّى علمَ الإيمانِ إيمانًا، كما سمَّاهُ ابنُ رواحةَ؛ لأنَّ علمَ الإيمانِ وصفُ الإيمان، والعربُ تسمِّى الشىء بوصْفِه، وتسميه بأصْلِه، كما قالَ رسولُ الله ﷺ فى مثله: «تعلّموا اليقينَ» أى: علم اليقين. وكما قال تعالى: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ من الحُزْنِ﴾ [يوسف: ٨٤] أى من البكاء، فسماه بأصْلِه؛ لأنّ الحزنَ أصلُ البكاء.

ورُوينا عن رسول الله ﷺ «أنه خرجَ ذات يومٍ فرأى مجلسَين، أحدُهُما يدعونَ الله تعالى ويرغبون إليه، والآخرُ يتفقهونَ فى الدِّين ويعلّمونَ النَّاسَ، فوقف بينهما، ثم قال: أما هؤلاء فيسألون الله تعالى فإن شاءَ أعطاهُمْ وإن شاءَ منعَهُمْ، وأمَّا هؤلاء فيعلِّمُون الناسَ ويفقِّهونَ فى الدين، وإنَّمَا بُعِثْتُ معلِّمًا، ثم عدل إلى الذين يُفَقِّهونَ الناسَ فى الدينِ ويذكُرونَ الله تعالى فجلسَ مَعَهم».

ويُحكَى عن بعض السَّلَف قال: دَخَلْتُ المسجدَ ذاتَ يومٍ فإذا بحلْقتينِ؛ إحداهما: يقصُّونَ ويَدْعُون، والأخرَى: يتكلمُون فى العلم وَفقْه الأعمالِ. قال: فملتُ إلى حلقة الدعاءِ فجلسْتُ إليهم، فحملتنى عيناى فنمْتُ، فهَتَف بى هاتفٌ أو قال لى شخصٌ: جلسْتَ إلى هؤلاء وتركت مجلس العلم، أمَا لو جلسْتَ إليهم لوجدتَ جبريلَ عليه السلام عندهم.

فحقيقةُ الذِّكْرِ هُو العِلْمُ بالله تعالى، ألاَ تَسْمَعُ إلى ما رُوِىَ عَنِ النبىِّ ﷺ: «أفضلُ الذكرِ قولُ لا إله إلا اللهُ»؟ وقال سبحانه وتعالى فى تصْديقه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إلهَ إلاَّ اللهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقال فى مثله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لا إلهَ إلاَّ هُوَ﴾ [هود: ١٤].

ثم إنّ العلمَ من الذكرِ علمُ المشاهدَةِ، والمشاهدةُ صِفَةُ عَينِ القلب[1]، فإذا

(١) فى (ط): «عين اليقين» وأثبت ما فى (ك).

كُشفَ غَطاءُ العين شهدتَ معانى الصِّفَات بأنوارهَا، وهو مزيدُ نور اليقينِ الذى هُو كمالُ الإيمانِ وحقيقتُه. فهنالك ذَكرْتَ المَوصُوفَ بمشاهَدة المذكُور بنور وَصْفه، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فى غطَاء عَنْ ذكْرى﴾ [الكهف:١٠١]؟ فمن كانت عينُه فى كَشْفٍ من ذكره شهدَ المذكورَ، فعندها ذكره، ثُمَّ وجدَ[١] حَقيقة العلم بعد نسْيانِ الخلقِ، كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف:٢٤]. فحقيقة الذِّكْرِ نسيانُ مَا سواه، كما أن حقيقةَ الإيمان الكفرُ بِكلِّ إلهٍ، كقَوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ﴾ [البقرة:٢٥٦].

وقال بعض أهل الحديث: جاءنى رَجُلٌ من إخوانى من أهل المعرفة فقالَ: قد وجدتُ من قَلْبى غَفْلَةً، فأريدُ أن تحملنى إلى مجلس من مجالس الذِّكْرِ. فقلتُ: نعم. فسمَّى لَهُ مُذَكِّرًا يتكلم فى علومِ العامَّة. قال: فحضرْنا عندَهُ واجتمعَ الخلْقُ، فأخذَ فى شىءٍ من القَصَصِ [والإسرائيليات][٢] وذكرِ الجنة والنار. فنظرَ إلىَّ صاحِبى فقال: أليسَ زَعَمْتَ أن هذا يذكر الله ويُذَكِّرُ به[٣]، ويَذكُر أيامَه؟ فقلت: نعم هكذا هو عندنا. فقال: ما أسْمعُ إلا ذكْرَ الخلقِ فأين ذكْرُ الله تعالى؟ ثم توقَّفَ ساعةً ينتظرُ منهُ ما يُريدُ من علم المعرفة ومما سَمعهُ من شيوخه الصوفيَّة. قال: فليسَ إلاَّ القصَصُ والحكاياتُ. فالتفتَ إلىَّ وقال: قُمْ بنَا فإنَّه لا يَسَعُنى الجُلُوسُ؛ لأنَّه لا نيَّةَ لى فى ذَلك. فقلتُ: أمَّا أنا فأسْتَحى أنْ أتخَطَّى الناسَ، فاصْنَعْ أنتَ ما تَرى، فقَامَ يَتخَطَّى الناسَ حتَّى خرجَ.

وقد رَوَى الزُّهْرِىُّ عن سالمٍ عَن ابنِ عُمَرَ أنهُ خَرَجَ من المسجد وقال: مَا أخْرَجَنى إلا القَصَّاصُ ولَوْلاهُ مَا خَرَجْتُ. وقَال ضَمْرَةُ: قلت للثَّورىِّ رحمه الله: نستقبلُ القاصَّ بوجْهنا؟ فقال: ولُّوا البدعَ ظهوركم. وقال ابنُ عون: دخلتُ على ابن سيرينَ فقال: ما كَانَ اليومَ منْ خبرٍ؟ فقلت: نَهَى الأميرُ القُصَّاصَ أن يقصُّوا.

وحُدِّثْنا عن أبى مَعْمَر عَنْ خلفِ بن خَلِيفة قال: رأيتُ سَيَّارًا أبا الحكم يَسْتَاكُ

(١) فى (ط): «ثم توجد» وأثبت ما فى (ك).

(٢) زيادة من (ك).

(٣) فى (ط): «ويذكر ربه عز وجل» وهو تحريف صوبته من (ك).

عَلَى باب المسجد وَقَاصٌّ يقُصُّ فى المسجد. فجاءه رجلٌ فقال: يا أبا الحكم، إن الناسَ يَنْظُرونكَ، فقال: إنِّى فى خَيْرٍ مما هُمْ فيه، أنا فى سُنَّةٍ وهم فى بدعةٍ.

وقد فَعَلَ الأعمشُ أبلغَ منْ ذلكَ: دخَلَ البصرةَ وكان فيها غريبًا، فنظرَ إلى قاصٍّ فى الجامع وهو يقول: حدثنا الأعمشُ، عنْ أبى إسحاق، وحدثنا الأعمَشُ عَنْ أبِى وَائِلٍ، قالَ: فَتوسَّطَ الأعمَشُ الحلْقَةَ ورفع يَدَه وجعل ينتفُ شعرَ إبطه، فبَصُرَ به القاصُّ فقال: يا شيخُ ألاَ تستحى؟ نحنُ فى علمٍ وأنتَ تفعلُ هذا؟ فقال له الأعْمَشُ: الذى أنا فيه أفضلُ من الذى أنتَ فيه. قال: كيف؟ قال: لأنى فى سُنَّة وأنت فى كَذب. أنا الأعمشُ وما حدَّثتك مما تقولُ شيئًا. فلمَّا سَمِعَ النَّاسُ ذِكْرَ الأعمشِ انفضُّوا عَنِ القَاصِّ واجتمعوا حولهُ، وقالوا: حدِّثْنا يا أبا محمدٍ.

وأخْبرونا عن محمد بن أبى هارونَ أن إسحاق حدَّثَهُ قال: صلَّيتُ مع الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه صلاةَ العيد، فإذا قاصٌّ يقُصُّ يلْعَنُ المبتدعَةَ، ويذْكُرُ السُّنة. فلمّا قضينا الصلاة وصِرْنا ببعضِ الطريق ذكر أبو عبدِ الله القاصَّ فقال: ما أنفعَهُمْ للعامة! وإن كان عامةُ ما يُحدِّثُونَ به كَذبًا.

وأُخبرتُ عن محمد بن جعفر: أن أبا الحارث حدَّثَهُ أنه سمعَ الإمامَ أحمد بن حنبل رضى الله عنه يقُول: أكذبُ الناس القُصّاصُ والسُّؤَّال. وحدَّثونا عنه أيضًا أنهُ قال: ما أحوجَ الناس إلى قاصٍّ صدوقٍ؛ لأنهم يذكُرونَ الميزانَ وعذابَ القبرِ. قُلْتُ له: أنت تحضُرُ مَجَالِسَهُم؟ قال: لا.

ورُوينا عن حبيبِ بن أبى ثابتٍ عن زيادٍ النُّمَيرىّ قال: أتيتُ أنسَ بن مالكٍ وهو بالزاويةِ فقال لى: قصّ. فقلت: كيف والناسُ يزعمُون أنه بدْعَة؟ فقال: ليسَ شىءٌ من ذكر الله تعالى بدعةٌ. قال: فقصَصْتُ وجَعَلْتُ أكثرَ قَصَصى ودعائى رجاءَ أن يُؤمِّنَ. قال: فجَعلتُ أقُصّ وهو يؤمِّنُ. وقد كانُوا يَجْعَلُونَ الدعاء قَصَصًا.

وحدّث يوسفُ بن عطية، عن محمد بن عبدِ الرحمنِ الخرَّاز قال: فقد الحسَنُ عامرَ بنَ عبد الله العنبرىَّ فقال: اذهبوا بنَا إلى أبى عَبْد الله، فأتاه الحسنُ فإذا عَامرٌ فى بيتٍ قد لَفَّ رأسَهُ، وليسَ فى البيتِ إلا رَمْلٌ. فقالَ له الحسنُ: يا أبَا عبد الله،

لم نرَكَ منذ أيامٍ. فقال: إنى كنتُ أجلسُ هذه المجالسَ فأسمعُ تخليطًا وتغليطًا، وإنى كنتُ أسمعُ مَشْيَختَنا فيما يروون عن نبيِّنا ﷺ أنه كان يقول: «إنَّ أصْفَى الناس إيمانًا يومَ القيامةِ أكثرُهُمْ فِكرةً فى الدنيا، وأكثرُ الناسِ ضحكًا فى الجنَّة أكثرُهُم بُكَاءً فى الدنيا، وأشدُّ الناسِ فرحًا فى الآخرةِ أطولُهم حُزْنًا فى الدنيا». فوجدتُ البيت أخلى لقلبى وأقدرَ لى من نفسى على ما أُريدُ منها. قال الحسنُ: أمَا إنَّهُ لم يَعْنِ مجالسَنا هذه، إنَّما عَنَى مَجَالِسَ القُصَّاصِ فى الطرقِ الذين يَخْلِطونَ ويَغلَطون، ويُقدِّمون ويؤخِّرون.

وقد قسَّمَ بعضُ العلماءِ المتكلمين ثلاثةَ أقْسامٍ، فوَصَفَهُمْ بأماكِنهِمْ فقال: المتكلمون ثلاثةٌ: أصحابُ الكراسىِّ وهُمُ القُصَّاصُ، وأصحابُ الأسَاطينِ وهم المفتُون، وأصحابُ الزوايا وهم أهلُ المعرفة.

فمجالِسُ أهلِ العلمِ بالله تعالى وأهلِ التوحيدِ والمعرفَةِ هى مَجالِسُ الذِّكْرِ، وهى التى جاءتْ فيها الآثارُ. وفى الخبر: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعُوا فيها. قيل: وما رياض الجنة؟ قال: مجالس الذِّكرِ». وفى الحديث: «إنَّ لله تعالى ملائكةً سيَّاحينَ فى الهواء فضلاً عن كتاب الحلَقِ، إذا رأوا مجَالس الذكرِ يُنادى بَعْضُهُمْ بَعْضًا: ألا هَلُمُّوا إلى بُغْيتِكُمْ، فيأتوهُمْ حتى يجلِسُوا إليهم فيحفُّونَ بِهِم ويستمعون منهُمْ، ألا فاذكُروا الله واذكُروا أيامه».

وقال وهب بن منبه اليمانى: مجلس يُتَنازَعُ فيه العلمُ أحبُّ إلىَّ من قدْره صلاةً، لعلَّ أحَدَهُمْ يَسْمَعُ الكلِمَةَ فينتفعُ بها السَّنَةَ أو مَا بَقِى مِنْ عُمُرِه.

وسئل أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى عن مجالس الذكرِ وفضلِهَا، فرغَّبَ فِيهَا وقَالَ رحمه الله: وأىُّ شىء أحسنُ من أن يجتمعَ الناسُ فيذكُرونَ الله عزَّ وجلَّ؟ ويُعدِّدُونَ نعِمَه عليهِمْ، كما قالت الأنصارُ.

وروينا عن علىٍّ كرم الله وجهه: ما يَسُرنى أن الله تعالى أماتنى طِفْلاً وأدخلنى الدرجات العُلَى من الجَنَّةِ. قيل: ولِمَ؟ قال: لأنه أحْيانى حَتَّى عَرَفْتُه.

وقال مالكُ بنُ دينار: خرجَ الناسُ مِنَ الدُّنيا ولَم يذُوقُوا طَيِّبَ شىءٍ فِيهَا.

قيل: وما هو؟ قال: المعرفةُ، ثم أنشأ يقول:

إنَّ عِرفانَ ذِى الجلالِ لَعِزٌّ   وضيـاءٌ وبهجـةٌ وسُرورُ
وَعلَى العارِفين أيضًا بَهاءٌ   وعليهم منَ المحبَّـةِ نُورُ
فَهَنيئًا لِمَـن عَرَفَـكَ إلِهِى   هُو ـ واللهِ ـ دَهْرَهُ مَسْرُورُ

وقال يحيى بنُ معاذ الرازىُّ: فى الدنيا جَنَّةٌ مَنْ دَخلَها لم يشتقْ إلى شىء ولم يَسْتَوْحِشْ. قيلَ: وَمَا هِىَ؟ قال: معرفةُ الله تعالى. وقال آخرُ: لم يُخْطئكَ من العارف إحدى ثلاث خِلالٍ تَدُلُّ عليه: هيبةٌ، أو حلاوةٌ، أو أُنْسٌ.

وقال عَالمنا أبو مُحمدٍ سَهْلٌ رحمه الله: خرج العُلماءُ والزهَّادُ والعُبَّادُ وقلوبُهم مُقْفَلة، ولم يَفتحْ إلا قلوبَ الصدّيقين والشهداء، ثُمَّ تلا: ﴿**وعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ**﴾ [الأنعام: ٥٩]. يعنى مُقْفلة عن مفاتِح المعرفةِ وشهادة عين التوحيد.

فمجالسُ الذكر هذه قَديمًا كانت لأهلِ المعرفة وأصحابِ معاملاتِ القلوب وعِلْمِ الباطنِ، وهُمْ عُلَماءُ الآخرة وأهلُ الفقْه فى الدينِ. وقد قال الله تعالى وهُو أصدَقُ القائلين: ﴿**فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائفةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فى الدِّينِ**﴾ الآية [التوبة: ١٢٢]، فذكر الفقهَ الذى هو من صِفة القلبِ، والخوْفَ الذى هُوَ سببُ الفقهِ. وعِلْمُ العقل داخلٌ فى عِلْم الظّاهِر، والعلمُ بالله داخلٌ فى اليقينِ، كما رُوى فى الخبر: «اليقينُ الإيمانُ كُلُّه». وقال الله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْقِلُهَا إلاَّ العَالِمُونَ**﴾ [العنكبوت: ٤٣] فجعَلَ العقْلَ وَصْفًا منَ العلم. وقد أمر رسولُ الله ﷺ بتعليمِ اليقين كما أمر بطلبِ العلم، فكانَ هذا الحديثُ مَخْصُوصًا من ذاكَ، فيكونُ قوله ﷺ: «تعلّموا اليقينَ» للخُصُوصِ؛ لأنَّ اليقينَ مَقَامٌ فوقَ العلمِ، ويَكُونُ قولُه: «طلبُ العلمِ فَريضةٌ» للعمومِ. وفى قوله: «تعلَّموا اليَقِين» أمرٌ بمُجَالسة الموقنين؛ لأن اليقينَ لا يَظْهَرُ بذَاته وإنَّما يُوجَدُ عندَ الموقنينَ، فقد أمرهم ولَمْ يقل: تعلَّموا عِلمَ المعقول ولا عِلْمَ الفتاوى. وكانَ علماءُ الظاهرِ قديمًا يُسمَّوْن المفتينَ،

ومن ذلك قوله ﷺ: «استفت قلبَك وإنْ أفتاكَ المفتُون» فردّهُ إلى فقْه القلب وصرَفهُ عن فُتْيا المفتين، فلولا أنّ القلبَ فَقيه لم يَجُزْ أن يَدُلّه ﷺ على غير فقيه. ولولا أنّ عِلمَ الباطِنِ حَاكِمٌ على الظاهرِ ما دَفَعه من عُلُومِ أهلِ الظَّاهِرِ ـ وهُمْ علَماءُ الألْسنة ـ إلى علم الباطنِ وهو علمُ أهلِ القلوبِ وما ردّه إليه، ولا يجُوزُ أن يردَّه من فقيهٍ إلى فَقيهٍ دُونَه، كيف وقَدْ جاءَ هَذَا الحديثُ بلفْظَةٍ مؤكَّدة بالتكرير والمبالغة فقال: «استفت قلبَك وإنْ أفتَوْكَ وأفتَوْكَ»؟ وهذا مخصوصٌ لمَن كان له قلبٌ، أو ألقى سمْعَه، وشهِدَ قيامَ شهِيدِه، وعُرّيَ عَنْ شَهَواته ومَعْهوده؛ لأنَّ الفقْهَ ليسَ مِنْ وَصْفِ اللِّسَانِ. ألم تسمَعْ قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾؟ [الأعراف:١٧٩]. فمَن كان له قلبٌ سميعٌ شهيدٌ فَقِهَ بِهِ الخطابَ فاستجابَ لِما سَمِعَ وأنابَ.

وذكر فى قوله تعالى: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فى الدِّينِ﴾ [التوبة:١٢٢] وَصْفين ظَهَرا عن الفقْه:

أحدُهُما: النِّذارةُ، وهو مقامٌ فى الدعْوة إلى الله عزّ وجلّ، ولا يكونُ النَّذيرُ إلا مُخوِّفًا، ولا يكونُ المخوِّفُ إلا خائفًا، والخائفُ عَالِم.

والثاني: الحذَرُ، وهوَ حالٌ منَ المعرفة بالله عزّ وجلّ، وهوَ الخشْيةُ لهُ.

والفقهُ والفهمُ اسمانِ لمعنًى واحدٍ. والعربُ تقول: «فَقِهتُ» بمعنى «فهِمتُ»، وقد فضَّل الله تعالى الفهمَ عنهُ على العلمِ والحكمةِ، ورفَعَ الأفهامَ على القضاءِ والأحكامِ، فقال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء:٧٩]، فأفردَهُ بالفهم عنه، وهو الذى فضَّله به على حُكْم أبيهِ فى القضية، بعد أن أشركَهُما فى الحكمِ والعلمِ.

وقد فَضَّلَ الحسنُ بنُ عليٍّ رضىَ اللهُ عنهما عُلماءَ الهدايةِ إلى الله سبحانه وتعالى الدالِّينَ عليه عزّ وجلّ، وسمَّاهُمُ العلماءَ، وحقّقهُم بالعلمِ فى كلامٍ رُوِىَ لنا عنه مَنظومًا، وقد رُويناه أيضًا عن عَلىٍّ كرّم الله وجْهَه ورضى عنه:

مـا الفَخْرُ إلا لأهلِ العلْمِ إنَّهمُ ... على الهـدَى لمن استهْدَى أدلاَّءُ

وَوزنُ كلِّ امرئٍ مَا كـان يُحسِنُهُ ... والجاهِلُون لأهلِ العلْمِ أعْـداءُ

فمَن كان عالمًا يعلمُ معلومه اللهُ سبحانه وتعالى فمَن أفضلُ منه؟ وأيُّ قيمةٍ تُعْرَف له؟ إذ كلُّ علمٍ قيمتُه معلومةٌ، ووَزْنُ كلِّ عالمٍ علمُه.

وقد قال عبد الواحد بنُ زيدٍ إمامُ الزاهدين كَلامًا فى هذا المعنى، ويُفْرِد بِهِ العلماءَ باللهِ تعالى، ويرفَعُ طريقَهُمْ فوقَ كلِّ طريقٍ، أنشَدُونا عنه رحمه الله تعالى:

الطُّـرْقُ شتَّى وطُرْقُ الحقِّ مُفـرَدةٌ ... والسَّـالكون طَريقَ الحـقِّ أفرادُ

لا يُعرَفُونَ ولا تُسْلَكْ مقاصدُهُمْ ... فَهُمْ على مَهَلٍ يَمشُون قُصَّادُ

والنـاسُ فى غفلةٍ عمَّـا يُرادُ بهم ... فجُلُّهمْ عَنْ سَبِيلِ الحقِّ رُقَّـادُ

وروينا عن ابن مسعودٍ رضى الله عنه أنه قال، لما ماتَ عمرُ رضى الله عنه: إنِّى لأحِبُّ هذا الرجلَ، قد ذهب بتسعةِ أعشَارِ العلم. فقيلَ له: تقولُ هذا وأصحابُ رسول الله ﷺ مُتَوافِرون؟ فقال: إنى لستُ أعنى العلمَ الذى تذهبونَ إليه، إنّما أعنى العلمَ باللهِ عزّ وجلّ.

وكان ابن مسعودٍ يقولُ: المتقونَ مُتوارون. وكذلك كان يقول: المتقُون سادةٌ والعلماءُ قادةٌ ومُجَالستُهُمْ زيادة. يعنى أنَّ المتقين سادةُ الناسِ، كما قال الله عز وجلّ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

والعلماءُ قادةُ المتقينَ، أى أئمَّتُهُمْ يقتفُونَ آثارَهم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]. ففضَّلَ العلماءَ على المتقينَ وجعلَهمْ أئمَّةً لهم وصارَ المتقونَ أصحابَهم، وأخبرَ بالمزيدِ فى مجَالستَهم؛ أى مجالستُهم زيادةٌ على مجالسة المتقينَ غيرِ العلماء؛ لأنَّ كلَّ عالمٍ تقىٌّ وليس كلُّ تقىٍّ عالمًا، كما رُوِىَ بمعناه: العلماءُ كثيرٌ والحكماءُ مِنَ العلماءِ قليلٌ، والصالحون كثيرٌ والصادقُونَ مِنَ الصَّالحينَ قليلٌ.

وسُئِلَ ابنُ المباركِ: مَنِ الناسُ؟ قال: العلماءُ. قيل: فمَنِ الملوكُ؟ قال: الزهّادُ.

قِيل: فمن السِّفْلة؟ قال: مَنْ يأكلُ بدينهِ. وقال مرة فى رواية: الذين يَتلبَّسُون ويَطلبُونَ ويتعرَّضون للشهادات.

وقالَ فرقدٌ السَّنْجِيُّ للحَسَن رحمهما اللهُ تعالى فى شيء سألهُ عنهُ، فأجابهُ: يا أبا سعيد، إنَّ الفقهاءَ يخالفونك، فقال: ثكلتْكَ أمُّك يا فرقدُ، وهل رأيتَ بعينيكَ فقهاء؟ إنَّما الفقيهُ الزاهدُ فى الدنيا، الراغبُ فى الآخرةِ، البصيرُ بدينه، المداومُ على عبادةِ ربِّه، الوَرِعُ الكافُّ عن أعْراضِ المسلمين، العفيفُ عن أموالهِم، الناصحُ لجماعتهم.

جَمعنْا قوله هذا فى ثلاثِ رواياتٍ عنه مختلفةٍ، فهذهِ صفاتُ العالمِ باللهِ تعالى وهم العارِفُونَ.

وحُدِّثنا عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: قلتُ لأبى: بلَغَنا أنكَ كنتَ تختلفُ إلى معروف الكَرْخى، أكان عنده حديثٌ؟ فقال: يا بنيَّ، كان عندهُ رأسُ الأمرِ: تَقْوَى اللهِ عزّ وجلّ.

وقيل للإمام أحمد رضى الله عنه: بأىِّ شىءٍ ذُكِر هؤلاءِ الأئمَّةُ ووُصِفوا؟ فقال: ما هو إلا الصدْقُ الذى كان فيهم. قيلَ له: وما الصدْقُ؟ قال: هو الإخلاصُ. قيل له: فالإخلاصُ ما هو؟ قال: الزهد. قيل: وما الزهد؟ فأطرقَ ثم قال: سلوا الزهَّاد، سلوا بِشْرَ بنَ الحارثِ.

وقد حُدِّثْتُ عن بِشْرٍ فى منصورِ بنِ عمَّارٍ رحمهما اللهُ حكايات طريفةً، كَانَ منصورُ بنُ عمارٍ من الواعظين المذكِّرين ولم يكن العلماءُ فى وقته مثلَ بِشْرٍ وأحمد وأبى ثور يَعدُّونه عالمًا، كان عندهم من القُصَّاص، وكانت العامةُ تسمِّيه عَالمًا، فحُدِّثتُ عن نصرِ بن علىِّ الجهْضَمِىِّ أنه مزحَ ذاتَ يوم مزاحًا أفرطَ فيه. فقيل له: تقول هذا وأنتَ من العلماء؟ فقال: ما رأيتُ أحَدًا من العلماء إلا وهو يمزحُ. فقيل له: قد رأيتَ بِشْرَ بن الحارث، فهل سمعتَه يمزَح؟ قال: نعم كنتُ جَالسًا معه ذاتَ يومٍ فى بعضِ الدرُوبِ، فجاءَ منصُورُ بن عمَّارٍ يَعْدُو، فقال: يا أبا نصر، الأميرُ قد أمر بجمْعِ العلماء والصَّالحين، فترَى لى أنْ أختفى؟ فدفعه بشرٌ وقال:

تنحَّ عنَّا لا يمرُّ حملُ شوكٍ فيُلقيكَ علينا فنحترق. فهذا كان مَحلَّ القُصَّاصِ عند العلماءِ فيمَا سلف، حتَّى ذهبَ أهلُ هذا العلمِ، وجُهِلَتْ مجالسُ الذكْرِ وعلومُ اليقينِ والمعاملاتِ، إلا مَنْ عَرفَ سيرةَ المتقدمين، وطريقةَ السالفينَ الذينَ كانوا يُفرِّقون بين مجالس الذكْرِ وبين القُصَّاص، ويُميِّزون بين العلماء وبين المتكلِّمين، وبينَ علمِ اللِّسَانِ وفقه القلْب، وبينَ علمِ اليقينِ وعلمِ العقْلِ؛ لأنَّ الفرقَ بين العالِمِ والقاصِّ: أنَّ العالم يسكُتُ حتَّى يُسألَ، فإذا سُئلَ أجابَ فيما يعلمُ بما هيأ الله تعالى له وكَشفَ، وينطقُ فيما أجراه اللهُ عزّ وجلّ عليه وعَرَفَ، فإنْ كان الصمتُ أفضلَ آثرَ السكوتَ لعلمه بالأفضل، فإن لم يرَ أهلَهُ تربَّصَ حتّى يضعه فى أهله، [لئلا يُجْهَل][(١)]، وأهلُه مَنْ عَرفَه، وكان له نصيبٌ من مشاهدته ووَجْده.

وقال اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]. ففى ذلك معنيان:

أحدُهما: أنّ أهل الذكْرِ همُ العلماءُ بالله تعالى، لقوله: ﴿إِنْ كُنتم لا تَعْلَمُونَ﴾ فلا يجوز أن يقول: «سلوا من لا يَعلمُ» وهُمْ جاهِلونَ فيزدادُون جَهْلاً.

والمعنى الثانى: يدُلُّ على أنَّ العلماءَ سُكوتٌ حتَّى يُسْألوا، فإذا سُئلوا وَجَبَ عليهم أن يجيبوا، لقوله تعالى لمن لا يعلمُ: ﴿فاسْئَلُوا﴾. فدلَّ أنَّ مجالسَ الذكْرِ هى مجالسُ العلماءِ التى وردتِ الأخبَارُ بفضَائلهَا. وفى تدبُّره أنَّ أهلَ الذّكْرِ هؤلاء المسؤولون هم الذين وصّلَ لهم القول لعلَّهُم يتذكَّرونَ. فلمَّا وصّلَ لهمُ المفصَّلَ تذكَّروا عمّا وعد تعالى، فلما تذكّروا علمُوا، فعندها أمَر أن يُسألوا. ولذلك رُوينا عن رسول الله ﷺ: «لا ينبغى للجاهل أن يستقرَّ على جَهْلِه، ولا ينبغى للعالِم أن يسكتَ على علمِه».

وكذلك قال رسولُ الله ﷺ فى الخبر الذى رُويناه من طريقِ أهل البيت: «العلم خزائنُ مفتاحُها السؤالُ، فاسألوا فإنَّه يؤجرُ فيه أربعةٌ: السائلُ، والعالمُ،

---

(١) زيادة من (ك).

والمستمعُ، والمحبُّ لهم».

وكان ابن مسعودٍ رضى الله عنه يقولُ: إنَّ من يُفْتى الناسَ فى كلِّ ما يستفتُونه لمجنونٌ.

وقال الأعمش: مِنَ الكلام كلامٌ جوابهُ السكوتُ. وقال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى: حسنُ سؤالِ الصادقينَ مفتاحُ قلوبِ العارفينَ.

فأما القاصُّ فهو الذى يبتدئُ فيقُصّ الأخبارَ ويذكُرُ القصَصَ والآثارَ، ولذلك سُمِّى قاصًا أى يتبعُ قصةَ مَنْ سلفَ. ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَت لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القصص:١١] أى: تتبَّعى أثرَ موسَى تعرفى قصَّته وأخبرينى خبرَه. وقال مالكُ بنُ أنس رحمه اللهُ تعالى: من إذالَة العلمِ أن يُنطَقَ به قبلَ أن يُسْألَ عنه. وقال مرةً: مِنْ إذَالةِ العلمِ أن يجيبَ عن كلِّ ما يُسألُ عنهُ. أى: من إهانَته ووَضْعِه. يُقال: أشلَّ هذا، وأذلَّ هذا؛ أى ارفَعْ وضَعْ.

ويقال: إذا تُكُلِّمَ بالعلم قبلَ أن يُسألَ عنهُ ذهبَ ثلثا نوره. وقد قال إبراهيمُ بنُ أدهمَ وغيره: سكوتُ العالِم أشدُّ على الشيطان من كلامه؛ لأنه يَسْكُتُ بحلمٍ وينَطِقُ بعلمٍ، فيقول الشيطان: انظروا إلى هذا سكوتُه أشدُّ علىَّ من كلامه. ولذلكَ يقال: الصمتُ زينُ العالم وسترُ الجاهل.

وعن القاسمِ بن محمدٍ أنهُ قال: من إكرامِ المرءِ نفْسَه أن يَسْكُتَ على ما عنده حتى يُسْألَ عنه.

وكذلك هُو لعمرى؛ لأنه إذا تكلم بعدَ السؤالِ فهُو صاحبُها، وربَّما كان فَرْضًا وليس الحاجةُ إلاّ القيامَ بالفرضِ منَ الشَّهوات، ولقوله تعالى: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل:٤٣]، فأوجبَ أن يُجيبُوا من حيثُ أمرَ أنْ يُسْألوا. وقال ﷺ: «مَنْ سُئل عن علمٍ فكتَمَهُ أُلجِمَ بلجامٍ مِنْ نارٍ» فتوعَّدَ عليه بالعقابِ. وقد يكُون الابتداءُ بالشىءِ من خَفَايَا الشهواتِ، والشهواتُ من الدنيا.

ووُصِفَ رجلُ لمالكِ بنِ أنسٍ فقال: لا بأس بهِ لولا أنَّه يتكلمُ بالشىء قبلَ أن يُسْأل عنه. وقال مرة: لا بأسَ به إلا أنه يتكلمُ بكلام شهرٍ فى يومٍ. وقد قيل فى

معنى ما ذُكِرَ: إن الكلام من الشهوات. قال: هو الذى يبتدئ به قبل أن يُسأل عنه.

ووصف بعضُهُم الأبدالَ فقالَ فى وَصْفِهِمْ: أكلُهم فاقةٌ، وكلامُهُم ضرورةٌ، وكانُوا لا يتكلمُونَ حتى يُسْألوا عن شىء فيُجيبوا.

ومن لم يتكلَّمْ حتَّى يُسْأَلَ فليسَ يُعَدُّ لاغيًا ولا متكلِّمًا فيما لا يَعْنيه؛ لأنَّ الجوابَ بعدَ السؤالِ كالفرْضِ بمنزلةِ ردِّ السلامِ، وكما قال ابنُ عباس رضى الله عنهما: إنِّى لأرى ردَّ الجوابِ واجبًا كردِّ السلامِ. وقد قال أبو موسَى وابنُ مسعودٍ رضى الله عنهما: من سُئِلَ عن علمٍ فليقلْ به، ومن لا فليسكُتْ وإلا كُتبَ من المتكلِّفين ومَرَقَ من الدِّين. ورويناهُ عن ابنِ عباسٍ أيضًا.

وقد كانوا يَخافونَ من دُخُولِ التكلفِ عليهِمْ فى كلِّ شىءٍ، ويعدُّ بعضُهم الابتداء بالكلام منْ غيرِ حاجة تدعُو إليه أو قبلَ سؤالٍ عنهُ من غير أن يرَى له مَوْضِعًا أو يجد له أهلاً؛ يعدُّونَهُ من التكلُّف.

وفى وصية ابن عباس لمجاهد: لا تتكلَّمْ فيمَا لا يَعْنيكَ فإنه أفضَلُ، ولا آمنُ عليك الخطأ، ولا تتكلَّم فيما يَعْنِيكَ حتَّى ترَىَ له مَوْضِعًا، فربَّ متكلِّمٍ فيما يعنِيه قد وَضَعَه فى غير موضِعِه فعَنَتَ.

ورُوِى فى حديث الأنْصاريِّ الذى قالتْ لهُ أُمُّهُ عِندَ موتِه: «هنيئًا لك الجنَّةُ، جاهدتَ مع رسول الله ﷺ وقُتلت فى سبيلِ الله تعالى. فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك أنه فى الجنَّة، لعلَّه كان يتكلمُ فيما لا يَعْنيه ويَبخَلُ بمَا لا يُغْنيه».

ومَنْ أظهرَ عِلْمًا منْ غيرِ أنْ يُسأل عَنْه ونَشرَهُ فى غيرِ أهله فأُنكِر عليه سُئِل عنه، وكان عليه فيه مُطالبة؛ لأنه قد تَكلَّف إظهاره. فإن كان سُئِل عنه، ثم تكلَّم فيه لم يكُنْ عليه فيه مطالبةٌ فيمَنْ أنكَر؛ لأنهُ خَرَجَ جوابًا على سؤالٍ. ومِنْ هذا كَان السَّلفُ المتكلمون فى هذا العلم يَسْكُتون حتَّى يُسألوا عنه.

وكان أبو محمد يقول: العالم يقعُدُ فيسكتُ، ويرفعُ قلبَهُ إلى مَوْلاهُ، فيفتقرُ إليهِ فى حُسْنِ توفيقِه، ويسألُه أنْ يُلْهِمَهُ الصَّوابَ. فأى شىءٍ سُئِلَ عنهُ تكَلَّم بِمَا

فَتَحَ لهُ مولاه. فجعَلَ العالِمَ فى حالة سكوتِه ونظره إلى سيِّدِه محتاجًا إلى التوكُّلِ، ومنتظرًا للوكيلِ فى أىِّ شىءٍ يُجْريه.

وقال بعضُهُمْ: إنَّما العالِمُ الذى إذا سُئِلَ عن المسألة كأنَّما تقلَّع ضِرْسُه.

وقال رَقْبة بنُ مَصْقلة وغيرُه: ليسَ العالمُ الذى يَجْمعُ الناسَ فيقصّ عليهم، إنَّما العالمُ الذى إذا سُئِلَ عَنِ العلمِ كأنما يُسْعَطُ الخردل. وقد روينا أنّ رَقْبة بنَ مصقلة قال للأعمش، وقد كان محمدُ بنُ سوقة يسألهُ عن الحديثِ، فيُعرِضُ عنه ولا يُجيبه [، فذكر ذلك له][1]. فالتفت الأعمشُ إلى رَقْبة فقال له: هو إذًا أحمقُ مثلُكَ، أنْ كان يدعُ فائدتَه لسوءِ خُلقى. فقال محمد بن سوقة: ويْحَك إنَّما أجعلُه بمنزلة الدواءِ أصبرُ على مرارته لما أرجُو مِنْ منفعته.

وقد روينا عَنْ علىٍّ وابن مسعود رضى الله عنهما: أنه مرَّ برجلٍ يتكلَّمُ على الناسِ فقال: هذا يقولُ اعرفُونى. وحدثنى بعضُ علماء خُراسَانَ عن شيخٍ له عن أبى حفصٍ النيسابورىّ الكبير، وكان هذا هُناك نَظيرَ الجُنيد ههنا، أنه قال: إنَّما العالِمُ الذى يُسْأل عن مسألةٍ فى الدينِ فيغتمُّ، حتَّى لو جُرِحَ لم يخْرجْ منه دمٌ مِنَ الفزعِ، يخافُ أن يُسألَ فى الآخرة عمَّا سُئِل عنه فى الدنيا، ويفزعُ أن لا يتخلَّصَ من السؤال، إلاَّ أن يَرَى أنَّه قد افْتُرِضَ عليه الجواب لفقد العلماء. ومن ههنا كان ابنُ عمر رضى الله عنهما يَسْكُتُ عن تسع مسائلَ ويجيب عن واحدة، ويقول: تريدون أن تَجْعلونا جِسْرًا تعبرونَ عليه فى جهنَّمَ، تقولون: أفتانا ابنُ عمرَ بهذا.

وكان إبراهيمُ التَّيمىُّ إذا سُئِل عن مسألة يبكى ويقول: لم تجدْ مَنْ تسألُه غيرِى، أوَ احتجتُم إلىّ؟ قال: وجَهدنا بإبراهيم النَّخَعىِّ أن نُسْندَه إلى سارية فأبى. وكان إذا سُئِل عن شىءٍ بكى، وقال: قد احتاجَ الناسُ إلىّ. وقد كانَ سفيانُ بنُ عُيينة تفرَّدَ فِى زمانه بعلومٍ انفردَ بها فى وقته، وكانَ مع ذلك يَضربُ المثل لنفسه ويقول:

خَلَتِ الدِّيارُ فسُدْتَ غيرَ مُسَوَّدِ ... ومن الشَّقاءِ تفرُّدِى بالسُّؤدُدِ

---

(١) أضفناها من عندنا ليستقيم الكلام. و«مصقلة» وردت قبل ذلك بالسين، انظر ص ١١٣ والهامش رقم (٤) منها.

وأمّا أبو العاليةِ الرياحيّ فكانَ يتكلَّمُ على الاثنينِ والثلاثة، فإذا صاروا أربعةً قامَ. وكذلك كان إبراهيمُ، والثوريّ، وابنُ أدْهَم رحمهم الله تعالى، يتكلّمون عَلَى النفَر، فإذا كَثُرَ الناس انصرفُوا. وكان أبو محمد سهْل رحمه الله يجلسُ إليه خمسةٌ أو ستّةٌ إلى العَشْرة. وقالَ لى بعضُ الشُّيوخِ: كان الجنيدُ رحمه الله يتكلَّمُ على بضعَ عشْرَةَ. قال: وما تم أهل الجِلْسَة عِشْرُون.

وقد حُدِّثتُ عن أبى الحسن بن سالم شيخنا رحمه الله أنَّ قومًا اجْتَمَعُوا فى مَسْجده، فأرسلُوا إليه بَعْضَهُمْ أن إخوانك قد حضروا ويحبون لقاءكَ والسَّماعَ منكَ، فإنْ رأيت أن تخرُجَ إليهم فذَاكَ. وكانَ المسجدُ علَى بَاب بَيْته، ولم يكُنْ يُدْخَلُ عليه فى منزله. فقَالَ للرسُولِ بعد أن خرج إليهم: من هُمْ؟ فقال: فلانٌ وفلانٌ وسمّاهُمْ. فقال: ليس هؤلاء من أصحَابى، هؤلاء أصحابُ المجلس، ولم يخرج.

كأنَّه رآهم عُمومًا لا يصلُحُونَ لتخْصِيصِ عِلْمه فلَمْ يُذْهِبْ وقته لوقتهم.

وكذلكَ العالمُ خلوته تَعِزُّ عليه، فإن وافقَ خصوصَ أصحابِ آثرهُمْ عَلَى خلوته، فكانَ ذلك مَزِيدًا لهم، وإن هُو لم يُوَافِقْ لم يُؤثِرْ على خَلْوته غيره، فيكونُ مناخًا للبطَّالين. وقد كان ابنُ سالمٍ أبو الحسن يخرجُ إلى إخوانه ممَّن يراهُ مَوْضِعًا لعلمه، فَيجْلِسُ إليهِمْ ويُذاكِرُهُمْ، ورُبَّما أدخلهم إليه نهارًا أو ليلاً.

ولَعَمْرى إنَّ المذاكرةَ تكونُ بين النظراء، والمحادثةَ تكونُ معَ الإخوانِ، والجلوسَ للعِلم يكونُ للأصحابِ، والجوابُ عن السؤالِ نصيبُ العُموم.

وكان عند أهل هذا العلم أنَّ علْمَهم مَخْصوصٌ لا يصلُح إلا للخُصُوص، والخصُوصُ قليلٌ. ولم يكونوا يَنْطقُونَ به إلا عندَ أهله، ويَرونَ أنَّ ذلك من حَقِّه، وأنَّه واجبٌ عليهم، كما وصفَهُمْ عليٌّ كرّم الله وجهه فى قوله: حتَّى يُودعُوه أمثالهم ويزرَعُوه فى قلوبِ أشكالهمْ.

وكذلك جاءت الآثارُ بذلك عنْ نَبِيِّنَا ﷺ، وعن عيسَى عليه السلام: «لا تَضعُوا الحِكْمَةَ عِندَ غيرِ أهلِهَا فتظلِمُوهَا، ولا تمنَعُوهَا أهلَها فتظلِمُوهُمْ. كونوا

كالطبيبِ الرفيقِ الذى يضعُ الدَّواء فى موضع الداء». وفى لفظ آخرَ: «مَنْ وضعَ الحِكْمةَ فى غيرِ أهلِها جَهِل، ومن منَعها أهلَها ظلَم. إنَّ للحكمة حقًا، وإنَّ لها أهلاً، وإنَّ لأهلها حقًا، فأعْطِ كلَّ ذى حقٍّ حقَّه».

وفى حديث عيسى صلاةُ الله وسلامُه عليه: «لا تُعلِّقُوا الجوهرَ فى أعناقِ الخنازيرِ، فإنَّ الحِكمة خيرٌ من الجوهرِ، ومَنْ كرهها فهو شرٌّ منَ الخنزير».

وكان بعضُ هذهِ الطائفةِ يقول: نصفُ هذا العلمِ سُكوتٌ، ونصفه تدْرِى أينَ تَضعُه.

وقد قال بعضُ العارفين: مَن كلَّمَ الناسَ بمبلغِ علْمه وبمقْدَارِ عقله، ولم يخاطِبْهُمْ بقدرِ حدودِهِمْ، فقد بَخَسَهُمْ حقَّهُمْ، ولم يَقُمْ بحقِّ الله عزّ وجلّ فيهم.

وكان يحيى بن معاذ يقول: اغرِفْ لكلٍّ واحدٍ من نهرِه، واسقِه بكأسِه.

ونحنُ نقول بمعناهُ: كِلْ لكلٍّ عبدٍ بمعيارِ عقله، وزِنْ له بميزانِ علمِه، حتَّى تَسْلَمَ منهُ وينتفعَ بِك، وإلا وقَعَ الإنكَارُ لتفاوتِ المعْيَارِ.

وحدثنى بعضُ أشياخنا من هذه الطائفةِ عن أبى عمران، وهو المزينُ الكبيرُ المكِّى، قال: سمعته يقولُ لأبى بكرٍ الكتابىِّ، وكان سَمْحًا بهذا العلمِ بذُولاً له لجميعِ الفقراء، فجعلَ أبو عمران يعاتبهُ وينهاهُ عن بَذْلِه لَهُ وكثرةِ كلامِه فيه، إلى أنْ قالَ: أنا منذُ عشرينَ سنة أسأل اللهَ تعالى أن يُنْسِيَنى هذا العلمَ. قال: ولمَ؟ قال: رأيتُ النبىَّ ﷺ فى المنامِ فسمعتُه يقول: إن لكلِّ شىء عندَ الله تعالى حُرْمةً، ومن أعظم الأشياء حرمةُ الحكمةِ، فمن وضعَها فى غيرِ أهلِهَا طالَبه اللهُ تعالى بحقِّها، ومَنْ طالبه خصَمَه.

وقد كان بعضُ السلف يقول: إذا استَنَد الرجلُ إلى ساريةٍ أو أحبَّ أنْ يُسألَ فلاَ تجلسْ إليه، ولا ينبغى أن يُسألَ.

ولم يُرَ فى مجالس أهل هذا العلمِ فيما سلفَ ثلاثون رَجُلاً ولا عشرُون إلا نَادرًا غيرَ لِزامٍ ولا دَوامٍ، إنَّمَا كَانُوا منَ الأربعة إلى العشرة وبضْعة عَشَرَ. وقد كان يجتمِعُ فى مَجَالس القصَّاصِ والمذكِّرينَ والواعظِين مِئُون مِن عَهْدِ الحسنِ إلى وقتنا

هذا. فهذا أيضًا من الفرقِ بينهما أنَّ العلْمَ مخصوصٌ لِقَليلٍ وأن القَصَصَ عامٌّ لكثيرٍ.

وقال بعضُ عُلَمائنَا: كان فى البصرةِ مائةٌ وعِشْرُونَ مُتكلِّمًا فى الذكْرِ والوعْظ، ولم يكُنْ مَنْ يَتكلَّمُ في علمِ المعرفة واليقين والمقاماتِ والأحـوالِ إلا ستَّةٌ منهم: أبو محمدٍ سهلٌ، والصُّبيحى، وعبدُ الرحيم.

وقد قيل: من لم ينتفعْ بسكوتِ العالمِ لم ينتفعْ بكلامه. أى ينبغى أن يتأدّبَ بصمتِه وخشوعِه وورعِه ويقتدِى بيقينِه فى ذلك، كما يتأدبُ بنطقِه ويقتدى بكلامِه.

على أنَّهم كَانوا يقولون: علمُ الظاهرِ من علمِ المُلْكِ، وعلمُ الباطِنِ من علم الملكُوتِ، يعنونَ أن ذلك من علمِ الدنيا؛ لأنه يُحتاجُ إليه فى أمورِ الدنيا، وهذا من علمِ الآخرةِ؛ لأنه مِنْ زَادِهَا. وهذا كَما قالوه؛ لأنَّ اللسَانَ ظاهرٌ فهُوَ مِنَ الملكِ وهو خزانة العلمِ الظاهرِ، والقلبُ خزانةُ الملكوتِ وهُو بابُ العلمِ الباطن. فقد صارَ فضلُ العلمِ الباطنِ على الظاهر كفضلِ الملكوت على الملكِ، وهو الملكُ الباطنُ الخفىُّ، وكفضل القلبِ على اللسانِ، وهو الظاهرُ الجلىُّ.

وقد كان بشرُ بن الحارث رحمه الله يقول: حدَّثنا وأخبرَنا بابٌ من أبوابِ الدُّنْيَا. وقال مرة: الحديثُ ليس من زاد الآخرة. وحدَّثنا بعض أشياخنا عن بعضِ أصحابِه قال: دفنَّا[1] له بضعةَ عَشَرَ ما بين قِمَطْرٍ وقَوْصَرَّة كُتُبًا، لم يحدِّثْ منها بشىء، إلا ما سُمعَ منه نادرًا فى الفرد. وكان رحمه الله تعالى يقول: إنِّى أشْتَهى أن أحدِّث، ولو ذهبَ عنِّى شهوةُ الحديث لحدّثتُ. ثم قال: أنا أجاهدُ نفْسى منذ أربعينَ سنةً. وقال: إذا سمعتَ الرجلَ يقولُ حدّثنا وأخبرنا، فإنّما يقول: أوسعوا لى. وكانَ زاهدًا عالمًا. وقال هو وغيره: إذا اشتهيتَ أن تحدّثَ فلا تُحدِّثْ، وإن لم تشته أن تحدِّث فحدِّثْ.

---

(١) فى (ك): «أنه دُفن». والقمطر: ما تُصان فيه الكتب، والجمع: قماطر. والقوصرة: وعاء للتمر من قَصَب.

وقد كانت رابعةُ العدويةُ رحمها الله تعالى قبلَه تقول للثورى رضى الله عنه: نِعْم الرجلُ سفيانُ، لولا أنّه يحب الحَديث. وكانت تقولُ: فتنةُ الحديث أشدُّ مِنْ فتنةِ المالِ والولدِ. وقالت مرةً: لولا أنّهُ يحبُّ الدُّنيَا. يعنى اجتماعُ النّاسِ حولَه للحديث.

وكان أبو سُلَيمان الدَّارانى رحمه الله تعالى يقولُ: مَنْ تزوّجَ، أو كتبَ الحديثَ، أو طلبَ معاشًا، فقد ركنَ إلى الدنيا. وقالَ بعضُ هذه الطائفة: كلُّ مَنْ أدرك العلومَ غيرَ العلمِ باللهِ عزّ وجلّ فقد استدركَ، والذى أدرك العلم بالله فقد تُدُورك. ثُمَّ تلا قوله تعالى: ﴿لَوْلاَ أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالعَرَاءِ﴾ [القلم:٤٩] أى: لولا أن تُدورك بعلمِ المعرفةِ لَطُرِح فى بُعْدِ الهَوى. والعراء: البعد. وعلمُ المعقولِ بُعْدٌ إلى جنب عِلْمِ اليقين.

وقال أيضًا فى فهْمِ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ [الإسراء:٧٤] أى: ثبتّناك بالمعرفةِ، لقد كدت تسكُن إلى عُلومِ العقْلِ.

وقال سهل بنُ عبدِ الله رحمه الله تعالى فى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاجْعَلْ لِى مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [الإسراء:٨٠] قال: لسَانًا ينطقُ عنكَ لا عَن سِواكَ.

وفضلُ العلمِ باللهِ عزّ وجلّ والعلمِ بالإيمان وعلمِ اليقينِ على العلم بالأحكَامِ والقضايا كفضلِ المشاهَدةِ على الخبر. وقد قالَ الرسولُ ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة». وفى لفظ آخر: «ليس المخبرُ كالمعايِن».

وقد روى عياضُ بنُ غنم عن النبى ﷺ فى تفسيرِ قوله عزّ وجلّ: ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٥]: كرأى العينِ.

وفى هذا الخبر: إنَّ من خيار أمتى قومًا يضحكُون جَهْرًا من سَعة رحمة ربِّهم، ويبكُونَ سرًا مِنْ خوف عذابه؛ أقدامُهم فى الأرض، وقلوبُهم فى السَّماء، أرواحُهم فى الدنْيا، وعقولُهمْ فى الآخِرَةِ، يمشُونَ بالسَّكِينة، ويتقربونَ بالوَسِيلة.

فالفُتْيا هى الإخبارُ، والاستفتاء هو الاستخبارُ. ومنهُ قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ [الصافات:١١]، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾ [النساء:١٢٧] أى: يستخبرُونك. فعلمُ

الخبرِ قد يدخلُه الظنُّ والشكُّ، والمشاهدةُ ترفعُ الظَّنَّ وتزيلُ الشَّكَّ، كما قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١] فأثبت الرؤيةَ للقَلْبِ بالعين، فرؤيةُ القلبِ هو اليقينُ، وذُو القلب هو الموقنُ.

وقال النبى ﷺ: «كفى باليقينِ غنًى». ففى علمِ اليقينِ غُنْيَةٌ عَنْ جميعِ العلومِ؛ لأنَّه حقيقةُ العلمِ وخالصُهُ، وليس فى جَميعِ العلومِ غنًى عن علمِ اليقينِ؛ لأنَّ الفقر بالشَّكِّ. والحاجَةُ إلى اليقينِ فى علمِ التوحيدِ وعلمِ الإيمانِ أشدُّ من الفقر بالحاجة إلى علوم الفُتْيا وغيرِها. فلذلك صارَ الغِنَى باليقينِ أعظمَ من الاستغناءِ بسائر العلوم.

ففى هذا العلمِ مَثَلٌ من فاتحة الكتابِ إلى سائر القرآن، كما رُوِى عن النبى ﷺ: «فاتحةُ الكتابِ تُجْزِى من كلِّ القرآنِ، وليسَ القرآنُ كلُّه يُجزِى من فاتحةِ الكتاب». فكذلك مَثَلُ العلمِ باللهِ عزّ وجلّ إلى العلمِ بِمَا سوَاه. ففى العلمِ بالله تعالى عِوَضٌ من كلِّ العلومِ، وليسَ فى سائر العلوم عوضٌ من العلمِ بالله عزّ وجلّ، من حيثُ كانَ فى اللهِ تعالى عوضٌ به عَنْ كلِّ ما سواه.

وكلُّ عِلْمٍ موقوفٌ على معلومه، فعلمُ اليقينِ معلومُه اللهُ تعالى، ففضْلُه كفَضْلِ الله تعالى على ما سواه. وقد قال بعضُ الحكماء فى معنى ما ذكرناه: مَنْ عَرَفَ الله تعالى فمَاذَا جَهِلَ؟ ومن جَهِلَ اللهَ تعالىَ فمَاذَا عَرَفَ؟

فالعلماءُ بالله تعالى هم ورثةُ الأنبياءِ؛ لأَنَّهُمْ وَرِثُوا عنهم الدلالةَ على الله تعالى، والدعوةَ إليه والاقتداءَ بهم فى أعمالِ القُلُوب. وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [فصلت: ٣٣]. وكما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]. وكما أمره بالدعاء وأشركَ معه أتباعَهُ فى الدعاء إلى الله تعالى لا فى البصيرة فقال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِى أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]، ويُحشرونَ يوم القيامة مع الأنبياء كما قال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾ [النساء: ٦٩]، وكما قال تعالى: ﴿وَجِىءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩]. ثم فسَّرهُ فقال تعالى: ﴿بِمَا

استُحْفظُوا منْ كتابِ الله وكانُوا عَلَيْه شُهَداءَ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقد روينا معناهُ عَنْ معاذِ بن جبلٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ أقربَ الناس مِنْ درجَةِ النبوّة أهلُ العلم وأهلُ الجهاد».

أما أهلُ العلمِ فدلُّوا الناسَ على ما جاءتْ به الأنبياءُ. وأما أهلُ الجهاد فجاهدُوا بأسيافِهِمْ على ما جاءتْ به الرسلُ. وعلمَاءُ الدنيا يُحْشَرُون مع الولاة والسَّلاطين.

وقد قال بعضُ السلف: العلماءُ يُحشرونَ فى زمرةِ الأنبياءِ، والقضاةُ يُحشرون فى زمرةِ السلاطينِ. وكان إسماعيل بن إسحاق القاضى من علماء أهل الدنيا، ومن سادة القضاة وعُقلائهِمْ، وكان مؤاخيًا لأبى الحسنِ بن أبى الورْد، وكانَ هَذا من أهلِ المعرفة[1]، فلمَّا وَلِّى إسماعيلُ القضاء هَجرهُ ابنُ أبى الورد، ثم إنَّه اضطرَّ إلى أنْ دخلَ عليه فى شهادةٍ، فضربَ ابنُ أبى الوردِ يدَه على كَتَفِ إسماعيل القاضى، وقال: يا إسماعيل، علمٌ أجلسَكَ هذا المجلسَ لقد كان الجهْلُ خيرًا منه. فوضعَ إسماعيلُ رداءَهُ على وجهِهِ وجعَلَ يبكى حتَّى بلَّه.

وعلماءُ الظاهرِ هم زينةُ الأرضِ والمُلك، وعلماءُ الباطن زينةُ السَّماء والملكوت. وعلماءُ الظاهر أهلُ الخبرِ واللسانِ، وعلماءُ الباطنِ أربابُ القلوبِ والعيان[2].

وقال بعضُ العلماء: لما خلق الله تعالى اللسان قال: هذا معقلُ خبرِى، إن صدَّقنى نجَّيْتُه. ولمَّا خلق الله تعالى القلْبَ قال: هذا موضع نظرى، إن صفا لى صافيته. وقال بعض الخلف: الجاهل ينجُو بالعلمِ، والعالمُ ينجُو بالحجةِ، والعارفُ ينجُو بالجاه. وقال بعضُ العارفينَ: علْمُ الظاهرِ حُكَمٌ، وعلمُ الباطنِ حاكم، والحكْمُ موقوفٌ حتَّى يجىء الحاكم يحكمُ فيه.

وقد كان علماءُ الظاهرِ إذا أشْكَلَ عليهمُ العلمُ فى مَسألة لاختلاف الأدلة سألوا أهلَ العلمِ بالله؛ لأنهُمْ أقربُ إلى التوفيقِ عندهُمْ، وأبعدُ من الهوَى والمعصية. منهم الشَّافعىُّ رحمه الله تعالى، كان إذا اشتبهتْ عليه المسألة؛ لاختلافِ أقوالِ العلماء فيها، وتكافُؤ الاستدلالِ عليها، رجعَ إلى علماء أهل المعرفة فسألهم.

(١) فى (ك): «الباطن».

(٢) وهذا يعنى أنه لا غنى للحياة عن الاثنين معًا، فكلاهما مطلوب.

قال: وكان يجلسُ بين يدَى «شيبانَ الراعى» كما يجلسُ الصبىُّ بين يدى الْمُكْتِب[١] ويسأله: كيف يُفعل فى كذا؟ وكيف يُصنع فى كذا؟ فيقال له: مثلُك يا أبا عبد الله فى علمِك وفقهك تسأل هذا البدوىَّ؟! فيقول: إنَّ هذا وُفِّق لما عَلمناه.

وكان الشافعىُّ رحمه الله قد اعتلَّ علةً شديدةً، فكان يقولُ: اللهمَّ إن كَانَ فى هذَا رِضَاك فزِدْنِى منه. فكتبَ إليه المعافرىُّ من سوادِ مصرَ: يا أبا عبد الله لستُ وإيَّاكَ من رجالِ البلاءِ فنسألُ الرِّضا، الأوْلى بنا أن نسألَ الرِّفْقَ والعافيةَ. فرجَعَ الشافعى رحمه الله عن قوله هذا، وقال: أستغفرُ الله تعالى وأتوبُ إليه. فكان بعد ذلك رحمه الله يقول: اللهم اجعلْ خَيْرتِى فيما أُحِبُّ.

وقد كان أحمدُ بنُ حنبلٍ ويحيى بن معين رضى الله عنهما يختلفانِ إلى معروف ابن فيروز الكرخىِّ رحمه الله، ولم يكن يُحسنُ من العلم والسُّنَنِ ما يحسنانِه، فكانَا يَسألانه.

وقد رُوِى فى الخبر: «قيل: يا رسولَ الله، كيفَ نصنع إذا جَاءَنَا أمرٌ لم نَجدْه فى كتاب الله تعالى ولا فى سُنَّة رسولِ الله ﷺ؟ فقال: سَلُوا الصالحينَ واجعلُوه شُورى بينهم، ولا تَقْضُوا فيه أمرًا دُونهم».

وفى حديث معاذٍ رضى الله عنه: «فإن جاءك ما ليسَ فى كتَابِ الله تعالى ولا سنةِ رسول الله؟ قالَ: أقضى فيه بما قَضَى الصالحونَ. فقال: الحمدُ لله الذى وَفَّقَ رسولَ رسولِه». وفى بعضها: «أجتهدُ رأيى».

وحدثُونا عن الجُنيد قال: كنتُ إذَا قُمْتُ منْ عند سَرِىٍّ السَّقطى قالَ لى: إذا فارقتنَى مَنْ تجالس؟ فقلتُ: الحارثُ المحاسبىُّ، فقالَ: نعم خُذ منْ علمه وأدبه، ودَعْ عنكَ تشقيقه للكلامِ وردَّه على المتكلّمينَ. قال: فلمّا ولَّيتُ سمعتُه يقولُ: جعلك اللهُ صاحبَ حديثٍ صُوفيًا، ولا جَعلك صُوفيًا صاحبَ حديث. يعنى: أنكَ إذا ابتدأت بعلم الحَديث والأثر، ومعرفةِ الأصولِ والسنن، ثم تزهّدتَ

(١) المُكتِب: المُعلِّم.

وتعبّدتَ، تقدّمتَ فى علمِ الصوفية، وكنتَ صُوفيًا عارفًا. وإذا ابتدأتَ بالتعبد والتّقوَى والحالِ، شُغلتَ به عن العلم والسنن، فخرجتَ إمَّا: شاطحًا أو غالطًا؛ لجَهْلك بالأصولِ والسنن، فأحسنُ أحوالك أن ترجع إلى العلم الظاهرِ وكُتُبِ الحديثِ؛ لأنَّه هُوَ الأصلُ الذى تُفرَّعُ عليه العبادةُ والعلمُ، وأنتَ قد بُودِئتَ بالفرعِ قبلَ الأصْلِ.

وقد قيلَ: إنَّما حُرِمُوا الوُصولَ بتضييع الأُصُولِ. هى كُتُبُ الحديثِ ومعرفةُ الآثارِ والسنن. فإذا أنتَ ردَدْتَ إلى الأصْلِ، فقد انحططتَ عن مرتبةِ الناقدِين، ونزلت من دَرَجةِ العارفين، وفاتَك مزيدُ الإيمان واليقين.

وقال سفيانُ الثوريُّ رضى الله عنه: كان الناسُ إذا طَلَبوا العلمَ عَملُوا، فإذا عَملوا أخلصُوا، فإذا أخلصُوا هَربوا. وقال آخرُ: العالِمُ إذا هَربَ مِنَ الناس فاطْلُبْهُ، وإذا طلبَ الناسَ فاهرُبْ منهُ، وقال أبو محمدٍ سهْل: العِلْمُ يهتفُ بالعَمَلِ، فإن أجابهَ وإلاَّ ارتَحَل.

وكان ذُو النون يَقُولُ: اجْلسْ إلى مَنْ تُكَلِّمُكَ صِفَتُهُ، ولا تَجْلسْ إلى مَنْ يكلِّمُكَ لِسَانُه. وقد كان الحسَنُ قبلَهُ يقول: جالِسْ مَنْ تكلِّمُكَ أعمَالُه ولا تجالِسْ من يخاطبك مَقالُه.

وقد كان طائفة يَصْحَبُونَ كَثيرًا من أهل المعرفة؛ للتأدُّبِ بهمْ، والنظرِ إلى هَدْيِهمْ وأخلاقِهم، وإن لم يكونوا علماءَ؛ لأن التأديبَ يكونُ بالأفعال، والتعلُّم يكون بالمقالِ. ومن أبلغِ ما سمعتُ منهم فى هذا المعنى ما قالَ بعضُ الحكماء: وَعْظُ واحدٍ لألفٍ بفعلٍ أنجحُ فيهم وأوقعُ من وَعْظِ ألفٍ لواحدٍ بقَول.

وكانَ سهلٌ يقولُ: العِلْمُ كلُّه دُنيا، والآخرةُ منهُ العملُ به، والعملُ هباءٌ إلا الإخلاصُ. وقال مرة: الناس موتى إلا العلماء، والعلماءُ سكارَى إلا العاملين، والعاملون مغرورون إلا المخلصِين، والمخلصُ على وَجَلٍ حتَّى يُخْتَم له به.

ولم يكن العالم عند العلماءِ مَنْ كان عالمًا بعلمِ غيره ولا حافظًا لفقه سواه، هذا كان اسمُه: رَاويةً، ووَاعيًا، وحَامِلاً، وناقِلاً.

وقدْ كان أبو حازم الزّاهدُ يقولُ: ذَهَبَ العلماءُ وبَقِيتْ عُلومٌ في أوعيةٍ سُودٍ.

وقد كان الزهريُّ يقولُ: كانَ فلان وعاءً للعلمِ، وحدَّثني فلانٌ وكانَ من أوْعيةِ العلمِ، ولا يقولُ كانَ عالمًا.

وكذلك جاءَ الخبرُ: «رُبَّ حاملِ فقهٍ غيرُ فقيهٍ، ورُبَّ حاملِ فقهٍ إلى مَنْ هُو أفقهُ منه».

وكانوا يقولون: «حمّاد الرّاوية» يعنون أنَّه كان رَاويًا. ودُخُول الهاءِ في الاسمِ للمُبالغةِ في الوصفِ، كما يقال: علاَّمة ونسَّابة.

وإنما كان العالم عندَهم الغَنيَّ بعلْمه لا بعلْمِ غَيره. وكَانَ الفقيهُ فيهم هو الفقيهَ بفقه علمه وقلبه لا بحديث سِواهُ. كما جاءَ في الأثر: «أيُّ الناسِ أغنى؟ قال: العالِم الغَنيُّ بعلمه، إنِ احتيجَ إليه نَفَع، وإلاَّ اكتَفَى عَن النَّاسِ بعلمه. لأنَّ كُلَّ عَالمٍ بعلمِ غيرِه، فإنَّما صَارَ عَالمًا بمجْمُوعِه، فمجموعُهُ هُمُ العلمَاءُ. وكلُّ فاضلٍ بوَصْفِ سِواه فموصوفُه هم الفضلاءُ. فإذا تركَهُمْ وانفردَ سكتَ فلم يَرجعْ إلى علمٍ لنفسه يختصُّ بِهِ، فصارَ في الحقيقة موصوفًا بالجهل، واصفًا لطرائقِ أهل الفضل، مَوْسومًا بعلمِ السَّمعِ والنقلِ، فمَثَلُ العالم بعلمِ غيره مثَلُ الواصفِ لأحوالِ الصالحين، العارف بمقامات الصدِّيقين، ولَا حالَ لَهُ ولَا مُقامَ، فليسَ يعودُ عليه مِنْ وَصفه إلا الحجَّةُ بالعلمِ والكلامِ. وسبق العارفونَ بالله في الحجة بالأعمال والمقام. فمَثلهُ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:١٨]، وكقوله عز وجلّ: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: ٢٠]، [إذ لا حالَ له مما يَصِفُ ولا مقام][1] يرجعُ إلى بصيرة فيه بما اشتبه من ظلمات الشّبه عليه مما اختلفَ العلماءُ فيه، ولا يتحقّقُ بوَجْدٍ منه يَجدُهُ عَنْ حَالٍ ألبسَهَا بوَجْده، وإنَّما هُوَ مُتواجِدٌ بوَجْدِ غَيْرِه، فغيرُه هُو الوَاجِدُ وشاهدٌ على شهادة سواهُ، فأيسوا من[2] الشّاهد.

(١) هذه الزيادة من (ك).

(٢) في (ط): «فالسوى هو الشاهد» وأثبت ما في (ك) لأنه أصح.

وقد كان الحسنُ يقول: إن الله تبارك وتعالى لا يَعْبأ بصاحبِ روايةٍ إنما يعبأ بذى فهمٍ ودرايةٍ. وقال أيضًا: من لم يكن له عَقْلٌ يَسُوسُه لم تَنفعْه كثرةُ مَرْوياته للحديث.

وقد أُنشدنا لبعض الحكماءِ فى معنى ذلكَ:

العلمُ عِلْمانِ فمصنوعٌ ومَجموعُ[1]

ولا يَنفَعُ مجموعٌ إذا لم يَكُ مصنوعُ

كما لا تنفع الشمسُ وضَوْءُ العينِ ممنوعُ

وكان الجنيد رحمه الله كثيرًا ينشد:

علمُ التصوُّف علمٌ ليسَ يعرفُه

إلاَّ أخو فطنةٍ ، بالحقِّ مَوْصوفُ[2]

وكيف يَعرِفُ شيئًا[3] ليسَ يشهَدُه

وكيفَ يشهد ضَوْءَ الشمسِ مكفوفُ؟!

لأنَّ الكتبَ والمجْمُوعات مُحْدَثة، والقولُ بمقالاتِ الناسِ، والفُتْيا بمذهبِ الواحدِ منَ الناس، وانتحالُ[4] قولهِ والحكايةُ له فى كلِّ شيءٍ، والتفقّه على مذهبهِ ـ محدَثٌ، لَمْ يكنِ الناسُ قديمًا على ذلكَ فى القرنِ الأوّل والثانى.

وهذه المصنفات من الكتبِ حادثةٌ بعدَ سَنة عشرينَ ومائة منَ التاريخِ، وبعد وفاة كلِّ الصحابة وعِلْيةِ التابعين. يقال: إنّ أوّلَ كتابٍ صُنِّفَ فِى الإسلام كتابُ ابن جُرَيج فى الآثارِ وحروف من التفاسيرِ، عَنْ مجاهدٍ، وعطاء، وأصحاب ابن عبّاس بمكة. ثم كتاب: مَعْمر بن رَاشدِ الصّنْعَانىّ، باليمَنِ، جَمَعَ فِيه سُنَنًا منثورة مبوّبة.

---

(١) فى (ط): «ومطبوع».
(٢) فى (ط): «معروف».
(٣) فى (ط): «وليس يعرفه من».
(٤) فى (ط): «وانتحاء».

ثم كتابُ «الموطأ» بالمدينة لمالك بن أنس رضى الله عنه فى الفقه. ثم جمع ابن عُيينة كتابَ الجوامع فى السنن والأبواب، وكتاب التفسير فى أحرف من علم القرآن، و«جامع» سفيان الثورىّ الكبير رضى الله عنه فى الفقهِ والأحاديث، [صنّفه أيضًا فى هذه المدّة](١).

فهذه من أوّل ما صُنِّف ووُضِع من الكتب بعد وفاةِ سعيدِ بن المسيَّبِ وخيار التابعين، وبعد سنة عشرينَ ومائة أو أكثر من التاريخ. فكانَ العلماءُ الذينَ هُمْ أئمَّةُ هؤلاء العلماء من طبقات الصحابةِ الأربعةِ ومنْ بعدِ موت الطبقةِ الأُولى من خيارِ التَّابِعينَ، هُمُ الَّذين انقَرضوا قبلَ تصْنيفِ الكُتبِ، وكَانُوا يكرهُونَ كُتُب الحديث، ووَضْعَ الناس الكتُبَ؛ لئلا يُشتغلَ بِها عن القرآنِ وعن الذكر والفكرِ. وقالوا: احفَظُوا كما حَفظنا. ولئلاً يشتغلَ الناسُ عن الله تعالى برسمٍ ولا وسْمٍ، كما كره أبو بكر الصديق رضى الله عنه وعِلْيةُ الصحابة تصحيفَ القرآن فى مصحف وقالوا: كيف نفعل شيئًا لم يَفعلْهُ رسول الله ﷺ؟ وخَشُوا اشتغَالَ الناس بالصُّحُفِ واتكالَهم على المصاحف فقالوا: نتركُ القرآنَ يتلقاه الناسُ بعضُهم من بعض تلقنًا بالتلقينِ والإقراء، ليكونَ هُو شغلَهُم وهمتَهُمْ وذكرَهُمْ، حتَّى أشارَ عليه عمرُ رضىَ الله عنه وبقيةُ الصحابة أن يجمعَ القرآنَ فى المصاحفِ؛ لأنه أحفظُ له وليرجِعَ الناسُ إلى المصحفِ لما لا يُؤمَنُ منَ الاشتغالِ بأسبابِ الدنيا عَنْهُ، فشَرحَ الله تعالى صَدْرَ أبى بكرٍ رضى الله عنه لذلكَ فجَمَع القرآنَ من الصُّحُفِ المتفرِّقةِ فى المصحف الواحدِ.

وكذلك كانُوا يتلقَّونَ العلمَ بعضَهُمْ عن بعضٍ ويحفظُونَه حفْظًا. هَذَا لطهارةِ القلوبِ من الريب، وفَراغِها من أسباب الدنْيا، وصفَائها من الهَوى، وعلوِّ الهمَّة وقوّةِ العزيمةِ وحسنِ النية.

ثمّ ظهرتْ بعدَ سنة مائتين، وبعد تقضِّى ثلاثة قرون فى القرن الرابع المرفوضِ، مصنفاتُ الكلامِ وكتبُ المتكلمينَ بالرأى والمعقولِ والقياسِ، وذهبَ علمُ المتقينَ، وغابتْ معرفةُ الموقنينَ من علمِ التقوى وإلهام الرشدِ واليقين، فخلفَ من بعدهم

(١) زيادة من (ك).

خَلْفٌ فلم نزلْ فى الخلُوفِ إلى هذا الوقت، [والله المستعان، ولا قوّة إلا بالله العلى العظيم](١).

ثم اختلط الأمرُ بعد هذا التفصيل فى زماننا هذا، فصَارَ المتكلِّمُونَ يُدْعَون عُلَماءَ، والقُصَّاصُ يُسمَّوْن عارفين، والرواةُ والنقلةُ يقال علماءُ، من غير فقهٍ فى دينٍ ولا بصيرةٍ فى يقينٍ.

وروينا عن ابن أبى عبلةَ قال: «كنا نجلسُ إلى عطاءِ الخُراسَانى بعد الصبح فيتكلَّمُ علينا، فاحتبسَ ذاتَ غداة، فتكلمَ رجلٌ منَ المؤذنين لا بأسَ به بمثلِ مَا كان يتكلمُ به عطَاء، فأنكَرَ صوتَه رجاءُ بن أبى حَيْوَةَ فقال: من هذا المتكلمُ؟ فقال: أنا فلانٌ. فقال: اسكُتْ فإنه يُكره أن يُسمَعَ العلم إلا من أهله.

وكذلك كانُوا يقولُون: أبىَ أهلُ العلمِ بالله تعالى أن يَسمعوا هذا العلم إلا من أهلهِ الزاهدين فى الدُّنيا، وكرهوا أن يسمعوه من أبناء الدُّنيا وزعمُوا أنّه لا يليقُ بهم.

واعلم أن العبد إذا كان يذكُر الله تعالى بالمعرفة وعلم اليقين لم يَسعْهُ تقليدُ أحدٍ من العلماءِ. وكذلك كان المتقدمون إذا افتتحُوا هذا المقام خالَفُوا مَنْ حملوا عنه العلمَ لمزيد اليقينِ والإفهام. وقال ابنُ عباس رضى الله عنهما: ليسَ أحدٌ إلا يُؤْخَذُ من قوله ويُتركُ إلا رسولُ الله ﷺ. وقد كانَ تعلّم من زيد بن ثابت الفقه، وقرأ على أُبَىّ بن كعبٍ، ثم خالف زيدًا فى الفقهِ، وأبيًا فى القراءة.

وقال بعضُ الفقهاءِ من السلفِ: ما جاءَنَا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَبلناه على الرأس والعينِ، وما جاءَنا عن الصحابة فنأخذُ به ونتركُ، وما جاءنا عن التابعين فهُمْ رِجَالٌ ونحنُ رجالٌ. قالوا: ونقولُ: ولأجلِ ذلك كَانَ الفقهاءُ يكْرهُونَ التقليدَ ويقولُون: لا ينبغى للرَّجُل أن يُفتى حتَّى يعرفَ اختلافَ الفقهاء، أى فيختارُ منهَا على علمه الأحوطَ للدِّين والأقوى باليقينِ. فلو كَانُوا يستحبُّونَ أن يُفتىَ العَالمُ بمذهبِ غَيرِه لم يَحْتَجْ أن يعرفَ الاختلافَ، ولكانَ إذَا عَرَفَ مذهبَ صاحبه كفاه.

---

(١) زيادة من (ك).

ومن ثَمَّ قيل: إنَّ العبدَ يُسألُ غدًا فيقالُ: ماذا عَمِلْتَ فيما عَلِمتَ؟ ولا يقالُ له: فيما علم غَيرُكَ.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الروم: ٥٦]، ففرَّق بينهما، فدلَّ به أنّ من أُوتِيَ إيمانًا أوتِي عِلمًا، كما أنَّ مَنْ أوتِيَ علمًا نَافعًا أُوتِي إيمانًا. وهذا أحدُ الوجوهِ فى معنًى قوله سبحانه: ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] أى: قوَّاهم بعلم الإيمانِ، فعلمُ الإيمانِ هو روحُه وتكونُ «الهاءُ» عائدةً إلى الإيمان. وكذا العالِمُ الذى هُوَ من أهْلِ الاستنباطِ والاستدلال مِن الكتابِ والسُّنةِ، فإنَّه أداةُ الصَّنْعةِ وآلةُ الصنعِ؛ لأنه ذُو تمييزٍ وبصيرةٍ ومن أهلِ التدبُّر والعبرةِ.

فأما الجَاهِلُ والعامِّىُّ الغافلُ فله أن يقلِّدَ العلماءَ، ولِعالمِ عمومٍ أيضًا أن يقلِّدَ عالمَ خصوصٍ، وللعالم بالعلم الظاهرِ أن يقلِّدَ مَنْ فوقه ممَّن جُعل على عِلْمٍ باطنٍ من أهل القُلوبِ؛ لأن النبى ﷺ ردّ مِنْ علمِ الألسنةِ والفُتْيا إلى علم القلوبِ، ولم يردَّ أهلَ القلوبِ فى علمِهمُ الذينَ يختصُّونَ به إلى المفتينَ، لأنهم يأخذُونَ من المفتين فُتياهُمْ ثم يجدونَ فى قلوبهم حيكًا وحَزازة، فيلزمهم فُتيا القلبِ، لقوله: «استفت قلبك» بعد قوله: «وإن أفتاك المفتون» مع قوله: «الإثم حزَّازُ القلوب» إلى قوله: «مَا حاكَ فى صَدْرِكَ فدَعْه، وإن أفتوْك وأفتوْك».

ثم دَرس معرفةُ هذا أيضًا فجُهل، فصارَ كلُّ مَنْ نطقَ بكلامٍ وصْفُه غَرَب علَى السامعين[١]، لا يُعْرَف حقّه من باطله، سُمِّى عَالمًا. وكلُّ كلام يُستحسن زخرفُهُ ورونقُه لا أصلَ له يُسَمَّى علمًا؛ لجهل العامَّة بالعلمِ أىِّ شىء هُو؟ ولقلّة معرفةِ السامع بوصف مَنْ سلف من العلماء كيفَ كانوا[٢]، فصارَ كثيرٌ من متكلمى الزمانِ فتنةً لمفْتُون، وصارَ كثيرٌ منَ كلامِ الرأى والعقل[٣]، الذى حقيقتُه جهلٌ،

(١) هذه الجملة ليست فى (ك). وغرب: أى كان غريبًا فى لفظه ومعناه.

(٢) عبارة (ك): «لجهل السّامعين بالعلم أى شىء هو؛ ولقلة معرفة الحاضرين بوصف من غاب من العلماء كيف كانوا».

(٣) فى (ط): «وصار كثير من الكلام والرأى والمعقول» وأثبت ما فى (ك).

كأنَّه علْم عند الجاهلين، فلا يفرقُون بين المتكلمين والعلماء، ولا يميِّزون بين العلمِ والكلام. وقد قلْنا: إنّ خصوصَ الجُهّال يُشبَّهُونَ بالعلماء، فيشتبهونَ على مُجالسيهم فى الحال. فأعلمُ الناس فى زمانك هذا أعرفُهُم بسيرة المتقدمينَ، وأعلمهُم بطرائقِ السالفينَ، ثم أعلمُهمْ بالعلمِ أىّ شىء هو، وبالعالم مَنْ هو، ومَنْ المتعلِّم والمتعالم. وهذا كالفرض على طالبى العلمِ أن يعرفوه، لأنه لما قَال ﷺ: «طَلَبُ العلمِ فَريضة» وجب عليهم أن يَعْرِفوا أىَّ شىء هو العلم حتَّى يطلبوهُ، إذْ لا يصحُّ طلبُ مَا لا يُعْرَفُ. ثُمّ وجَبَ عليهم مِنْ هذَا أن يَعْرِفُوا العالمَ مَنْ هُو ليطلبوا عنده العلمَ؛ إذ العلمُ عَرَضٌ ولا يقوم إلا بجسم، فلا يوجدُ إلا عند أهله.

كما قيل لعلىّ كرم الله وجهه وقيل له: إنك خالفتَ فُلانًا فى كذا، فقال: خَيرُنا أتبعنا لهذا الدّين.

وكما قيل لسعد: إن ابنَ المسيَّب يقرأ: «ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسأها» فقال: إن القرآنَ لم ينزل على ابن المسيِّبِ ولا على أبيه، ثم قرأ: ﴿أو نُنْسِها﴾ [البقرة:١٠٦].

فأعلمُ الناس فى هذا الوقتِ وأقربُهم من التوفيقِ والرُّشْد أتبعُهُم لمن سلفَ، وأشبهُهم بشمائل صالحى الخلف. كيف وقد روينا عن رسُولِ الله ﷺ أنه سُئِلَ: «مَنْ أعلمُ الناسِ؟ فقال: أعرفُهُمْ بالحقِّ إذا اشْتَبهَتِ الأمورُ».

وقال بعضُ السلف: أعلمُ الناس أعرفُهُمْ باختلاف النَّاس.

وكان الحسنُ البصرىُّ رضى الله عنه يقول: مُحْدَثَان أُحْدثا فى الإسلام: رجلٌ ذُو رأى سوءٍ زَعمَ أن الجنَّة لمن رَأى مثلَ رأيه. ومُترَفٌ يعبدُ الدنْيا، لها يَغْضبُ ولها يَرضَى وإياها يطلبُ، فارفُضُوهما إلى النار، اعرفوا إنكارَهُمْ لربِّهم بأعمالهم. إنّ رَجُلاً أصبحَ فى هذه الدنيا بين مترَف يدعُو إلى دنياه، وصاحبِ هوًى يدعُو إلى هواه، قد عصمه اللهُ تعالى منهما، يَحِنُّ إلى السَّلف الصَّالح، يسألُ عن فعالهم، ويقتصُّ آثارهم، لَتعرَّضَ لأجرٍ عظيمٍ، فكذلك فكونوا.

وكما روينا عن ابن مسعود رضى الله عنه، وقد جاء مسندًا: «إنما هما اثنان: الكلام والهدى، فأحسنُ الكلامِ كلامُ الله تعالى، وأحسنُ الهَدْى هدْىُ محمدٍ

ﷺ، ألاَ وإياكم ومحدثات الأمور، فإنَّ شرَّ الأمور محدثاتُها، وإنَّ كلَّ محدثة بدعةٌ وكلَّ بدعة ضلالةٌ. ألاَ لا يَطولَنَّ عليكُمُ الأمدُ فتقسُوَ قلوبكم. ألاَ كُلُّ ما هو آتٍ قريب، ألا إن البعيد ما ليس بآتٍ».

وفى خُطبةِ النبى ﷺ التى رويناها عن أبان عن أنسٍ: «طُوبَى لمن شغله عيبُه عن عيوبِ الناس، وأنفقَ من مَالٍ اكتسَبَهُ من غيرِ معصيةٍ، وخالط أهلَ الفقه والحكمة، وجانبَ أهلَ الذلِّ والمعصيةِ. طُوبى لمن ذلَّ فى نفسه، وحسُنَتْ خليقتُه، وصلُحَتْ سريرتُه، وعزلَ عن الناس شرَّهُ. طُوبى لمَنْ عَمل بعلْمه، وأنفقَ الفَضْلَ مِنْ ماله، وأمسك الفضلَ من قوله، ووسِعَتْه السُّنَّةُ، ولم يَعْدُها إلى بِدْعةٍ».

وقال بعضُ الأدباءِ كلامًا منظُومًا فى وصفِ زمانِنا هذا، كأنَّه شاهَده:

ذهبَ الرجالُ المقتدَى بفعالِهِمْ ... والمنكِـرون لكـلِّ أمـرٍ مُنكَـرِ
وَبقيـتُ فى خَلَفٍ يزكِّى بعضُهم ... بَعْضًا، ليَدفعَ مُعْوِرٌ عن مُعـوِرِ
أبُنَىَّ إنَّ مِنَ الرجـال بَهيمـةً ... فى صُورةِ الرجُلِ السميعِ المبصرِ
فَطِنًا بكل مصيبـةٍ فى مَـالهِ ... فإذَا أُصيـبَ بدينـهِ لمْ يَشعُرِ
فسَـلِ الفقيـهَ تكنْ فقيهًا مثلَهُ ... مَنْ يَسْعَ فى أمرٍ بفقهٍ يَظْفرِ

وقد كان ابنُ مسعودٍ رضى الله عنه يقول: حسنُ الهدَى فى آخرِ الزمانِ خيرٌ من كثيرٍ من العلم. وقال فى وصف زمانه باليقين، وفى وصفِ زمانِنا بالشَّكِّ فقال: إنكم فى زمانٍ خيركم فيه المسارعُ فى الأمورِ، وسيأتى بعدكم زمانٌ يكونُ خيرُهُمْ فيه المتثبِّت المتوقِّفُ. يعنى: لكثرة الشبهات.

وقال حذيفةُ رضى الله عنه أعجبَ من هذا، قال: إنّ معْروفكم هَذا مُنكَرُ زمانٍ قد مَضى، وإنَّ مُنكَرَكُمْ معْروفُ زمانٍ قد يأتى. وإنكم لنْ تزالُوا بخيرٍ مَا عرفتُم الحق، وكان العالمُ فيكم غيرَ مُستخف. وكان يقول أيضًا: يأتى فى آخر الزمان قومٌ يكون العالمُ فيهم بمنزلة الحمار الميِّت، لا يلتفتُونَ إليه، يَسْتخفى المؤمنُ فيهم كما يَسْتَخفِى المنافقُ فِينَا اليومَ، المؤمنُ فيهم أذلُّ من الأمَة.

وفى حديث على كرّم الله وجهه: يأتى على الناس زمانٌ ينكرُ الحقَّ تسعةُ أعشارِهم، لا ينجُو منهُم يومئذٍ إلا كلُّ مؤمن نُوَمة (يعنى: صَمُوتًا متغافلاً) أولئكَ مصابيحُ العلم، وأئمةُ الهدَى، وليسُوا بالمذَاييعِ[١] البُذُرِ. (يعنى: المتكلِّمين كثيرًا) المتظاهرينَ بالكلام افتخارًا.

وفى خبر: «يأتى على الناس زمانٌ مَنْ عرَف فِيه الحقَّ نَجَا. قيلَ: فأينَ العمل؟ قال: لا عملَ يومئذٍ، لا ينجُو[٢] فيه إلا من هَرَب بدينه من شاهِقٍ إلى شاهقٍ.

وفى حديث أبى هريرةَ رضى الله عنه: «يأتى علَى الناسِ زمانٌ مَنْ عَمِل منهُم بعُشْرِ ما أُمِرَ به نَجَا». وفى بعضها: «بعشرِ مَا يعلَمُ». وعن بعض الصحابة [رضى الله عنهم]: أنتمُ اليوم فى زمانٍ من تركَ منكم عُشرَ مَا يعلمُ هلكَ، ويأتى عليكم زمانٌ من عَمِل فيه بعُشْرِ ما يَعْلَمُ نجا.

وقال بعض الحكماء[٣]: يأتى عليكم زمَانٌ يكونُ أفضلَ العلم الصمّتُ، وأفضلَ العمل النومُ. يعنى: لكثرة الناطقين بالجهل[٤] فصار الصمتُ للجَاهلِ علمًا، ولكثرة العاملين بالهَوى[٥] فصار النوم عبادةَ البطَّال. ولعمرى إن الصمتَ والنومَ أدنَى أحوال العالِم، وهما أعلى أحوال الجاهل.

وكان يونس بن عبيد يقولُ: أصبحَ اليومَ مَنْ يعرفُ السُّنَّةَ غريبًا، وأغربُ منهُ من يعرفه. يَعنى: طريقةَ السلفِ. يقول: فمن يَعْرِفُهُ عَرَفَ طريقَ مَنْ مَضَى، وَهُوَ غريبٌ أيضًا، لأنه قد عَرَف غريبًا.

وقال حذيفةُ المرعشى: كَتب إلىَّ يوسفُ بن أسباط: ذهَبَت الطاعَةُ ومَن يَعْرِفُها. وكان أيضًا يقول: ما بقى من يُؤنَسُ به. وقال: ما ظَنُّكَ بزمانٍ مذاكرةُ العلمِ فيه مَعْصيةٌ. قيلَ: ولم ذلكَ؟ قال: لأنه لا يجدُ أهلَهُ.

---

(١) فى (ك): «بالمزاريع». والمذاييع: جمع مذْياع، من أذاع الشىء إذا أفشاه. والبذر: جمع بذور، يقال: بذرتُ الكلامَ بين الناس، أى أفشيتُه وفرّقته.

(٢) فى (ك): «لا يسلم».

(٣) فى (ط): «الخلفاء».

(٤) فى (ط): «لكثرة المنافقين بالشبهات» وأثبت ما فى (ك).

(٥) فى (ط): «ولكثرة العاملين بالشهوات» وأثبت ما فى (ك).

وقد كَانَ أبو الدرداء رضى الله عنه يقول: إنكم لن تزالوا بخيرٍ ما أحببتمْ خِيارَكُمْ، وقيلَ فيكمُ الحَقُّ فعُرِفَ، ويلٌ لكم إذا كان العالم فيكمْ كالشاةِ النطيح.

وقد كان للمتقدمينَ علومٌ يجتمعون عليها ويتفاوضُونَها بينهم قَدْ دَرَسَتْ فى زَمَانِنَا. وكان للصَّالحين مَعَانٍ وطَرَائقُ يسلكُونَها ويَسْألونَ عَنْها، قد ذهَبَتْ فى وَقتنا. وكان لليقين والمعرفة مقاماتٌ وأحوالٌ، يتذاكرهَا أهلُها، ويطلبونَ أربابَها، قد عَفَتْ آثارُها عندنَا، لقلَّةِ الطالبينَ لها، ولعدَمِ الرَّاغبينَ فيَها، وفَقْد العلماء بها، وذهاب السالكينَ فى طرقها، منها:

طلبُ الحلال، وعِلْمُ الورعِ فى المكاسبِ والمعاملاتِ، وعلمُ الإخلاص، وعلمُ آفاتِ النفوس وفسادِ الأعمال، وعلمُ نفاق العلم والعمل، والفرقُ بين نفاقِ العلم والعملِ، والفرقُ بين نفاق القلب ونفاقِ النفسِ وبين إظهار النفس شهوتَها وإخفائها ذلك، والفرقُ بين سكون القلبِ بالله وسكون النفسِ بالأسباب، والفرقُ بين خواطرِ الروحِ والنفس وبينَ خاطرِ الإيمانِ واليقين والعقلِ، وعلمُ خلائقِ الأحوال، وأحوالُ طرائقِ العمَّالِ، وتفاوتُ مشاهدات العارفينَ، وتلويناتُ الشواهد على المريدين، وعلمُ القبضِ والبسط، والتحقيقُ بصفاتِ العبودية، والتخلقَ بأخلاقِ الربوبية، وتباينُ مقاماتِ[1] العلماء، إلى غير ذلك ممّا لا نذكرهُ من علم التوحيد، ومعرفةِ معانى الصِّفاتِ، وعلوم المكاشفة بتجلِّى الذاتِ، وإظهار الأفعال الدالَّة على معانى الصفاتِ الباطنة، وظهور المعانى الدالة على النظر والإعراض، والتقريب والإبعاد، والنقْصِ والمزيدِ، والمثوبةِ والعقوبةِ، والاختبار والاختيار.

وقد ذكرنا من جميع هذه المعانى فصولاً، ورسمنا جُمَلاً وأصولاً، تنبِّه على فروعها، وتدلُّ على أشكالها، لمن وُفِّق لتدبرِها، وأُريد بتذكُّرِها، وَجُعِل له نصيبٌ منْها.

وقال بعضُ علمائنا: أعرفُ للمتقدِّمينَ سبعين علْمًا، كانُوا يتحَاوُرونها ويتعارفُونها فى هذا العلم، لم يبقَ منها اليومَ علمٌ واحد يُعْرَف. قال: وأعرف فى زمانِنا هذا عُلُومًا كثيرةً من الأباطيلِ والدعاوى والغرور، وقد ظهرتْ وسُمِّيتْ

(١) فى (ك): «وتفاوت مشاهدات».

عُلُومًا لَمْ تكنْ فيمَا مضَى تُعْرَفُ، فهذا كالسَّرابِ الذى وصفه الله تعالى فقال: ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

وكان الجُنيد رحمه الله تعالى من قبله يَقُول: علْمُنا هذا الذى نتكلَّمُ فيه قد طُوى بسَاطُه منذ عشرينَ سنةً، وإنَّما نتكلَّمُ فى حوَاشيه. وكانَ يقولُ أيضًا: قد كنتُ أجالسُ قومًا سنينَ يتحاورُون فى علومٍ لا أفهَمُهَا، ولا أدْرى ما هى، وما بُليتُ بالإنكَارِ قطّ، كنتُ أتقبَّلُها وأحبُّها منْ غيرِ أنْ أعْرفها. وكان أيضًا يقُولُ: كنا نتَجَارى(١) مع إخواننا قديمًا فى علومٍ كثيرة ما تُعْرَفُ فى وقْتنا هذا، ولا سَألنى عنْها أحَدٌ، وهذا بابٌ قد أُغلق ورُدِمَ.

ولَمَّا صنّف شيخُنا أبو سعيد بن الأعرابىّ كتابَ (طبقات النسَّاك)، وصفَ أوّلَ مَنْ تكلَّمَ فى هذا العلم وأظهرَهُ، ثُمَّ مَنْ بعده من البصريينَ والشَّاميِّينَ وأهلِ خُراسان إلى أن كانَ آخرُهمْ البغداديين. وقال آخر: مَنْ تكلَّم فى هذَا صَاحبُنَا جُنيدٌ القَواريرى وكانتْ له بصيرَةٌ فيه وحقيقةٌ منه وحسنُ عبارة، وما بَقِىَ بَعْدَهُ إلا مَنْ مُجَالسَتُه غيظٌ. وقال مرة أخرى: ما بَقِىَ بَعْدَ جُنيدٍ إلا مَنْ يُسْتَحى من ذكْره.

وقد كان إمامُنا أبُو محمدٍ سهل رحمه الله يقول: بعد سنة ثلاثمائة لا يَحلُّ أن يُتكلَّم بعلمنَا هذا، لأنَّه يحدث قومٌ يتصنّعونَ للخلق، ويتزيَّنُون بالكَلامِ؛ لتكون مواجيدُهم لِباسَهم، وحِلْيتُهم كلامَهم، ومعبُودُهم بطونَهم.

وقد كان حذيفةُ رضى الله عنه إذا سُئِل: أىُّ الفتَنِ أشدُّ؟ قال: أن يُعْرَضَ علَيكَ الخيرُ والشرُّ، فلا تدْرى أيَّهما تأخذ؛ لكثرة الشبهات.

كما كان سهلٌ يقول: بعد سنةِ ثلاثمائة لا يصحُّ لأحد توبة، لأنَّه يَفْسُدُ خُبْزُهُم، وهم لا يصْبرون عن الخبز. يعنى: أن أوّلَ التوبة أكلُ الحلال. وقد روينا فى خبرٍ: «يأتى على الناسِ زمانٌ يُضلُّونَ فيه دينَهُم فلا يعرفونَهُ، يُصبح الرجُلُ على دينٍ ويُمسى على دين. يضلُّ أمره على غير يقين، وتُسْلَبُ عقولُ أكثر أهل ذلك الزمان. وأوّلُ ما يُرْفَع عنهُم الخشوعُ، ثم الإجابةُ، ثمَّ الورعُ. ويقال: أوّلُ ما يُرْفَعُ من الناسِ الأُلْفةُ.

---

(١) تجاروا فى الحديث: تناظروا فيه.

ذكر ما أحدث الناس من القول والفعل فيما بينهم مما لم يكن عليه السلف (١)

كانَ الناسُ قديمًا إذا التقَوْا يقول أحدُهم لصاحبه: ما خبرُك وما حالُكَ؟ يعنونَ بذلكَ: ما خبرُ نفسك فى مجاهدتها وصبرها؟ وما حالُ قلبك من مزيد الإيمان وعلم اليقين؟ ويريدون أيضًا: ما خبرُك فى المعاملة لمولاك؟ وما حالُكَ فى أمور الدنيا والآخرة؟ هل ازددتَ أم انتقصتَ؟ فيتذاكرون أحوالَ قلوبهم، ويصفون أعمالَ علومِهم، ويذكُرون مَا وهب اللهُ تعالى لهم من حسن المعاملةِ، وما فتحَ لهم من غرائبِ الفهومِ. فكان هذا من تعديدِ نعمِ الله تعالى عليهم، ومن جميل شكرهم، ويكون مزيدًا لهم فى المعرفةِ والمعاملةِ.

وقد كان بعضُهم يقول: أكثرُ علومِنا ومواجيدنا ما يعرفُه بعضُنا من بعضٍ، وما يخبرُ به أحدُنا أخاه إذا التقينا، فقد جُهِلَ هذا اليومَ فتُركَ، فهُم إذا تساءلوا عن الخبر والحالِ إنَّما يريدونَ به أمورَ الدنيا وأسبابَ الهوى، ثمّ يشكُو كلُّ واحدٍ مولاه الجليلَ سبحانه وتعالى إلى عبده الذليل، ويتسخَّطُ أحكامَه، ويتبرَّم بقضائه، وينسَى نفسَه وما قدّمت يداه، فمثَلُه كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف:٥٧]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات:٦] قيل: كفورٌ بنعمتِه، يُعدِّدُ المصائبِ وينسى النعَمَ. كلُّ ذلكَ جهَالةٌ بالله تعالى وغفلةٌ عنه.

ومنه قولهم الآن: كيفَ أصبحت؟ وكيف أمسيتَ؟ هذا مُحدَثٌ. إنّما كانُوا إذا التقوْا قالوا: السلامُ عليكُم ورحمةُ الله. وفى الخبر: «من بدأكُم بالكلام قبلَ السلامِ فلا تُجيبوه». وإنَّما حَدثَ هذا فى زمانِ الطاعُونِ، الذى كان يُدْعَى «طاعون عَمْواس» بالشام، من الموت الذريع، كان الرجلُ يلقَى أخاه غُدوةً فيقولُ:

---

(١) انظر: الإحياء ٢/ ٣٣٥.

كيف أصبحتَ من الطاعون؟ ويلقاه عشيَّةً فيقول: كيف أمسيتَ منه؟ لأنّ أحدَهم كان إذا أصبحَ لم يُمس، وإذا أمسى لم يصبح. فبقى هذا إلى اليوم ونُسى سببه، وكان من عَرفَ حُدوثَه من المتقدمين يكرهُه. حدّثُونا عن أحمدَ بن أبى الحوارى قال: قال رجلٌ لأبى بكر بن عيَّاشٍ: كيف أصبحتَ، أو كيف أمسيت؟ فلم يكلِّمْه، وقال: دعُونا من هذه البدعَة. قال: وقلتُ لبعضِ السلفِ: كيفَ أصبحت؟ فأعرض عنِّى، وقال: ما كيف أصبحتَ؟ قل بالسَّلامِ.

وروى أبو معشر عن الحسن رضى الله عنه: إنّما كانوا يقولونَ: السلام عليكم، سَلِمَت والله القلوبُ. فأما اليومَ: كيف أصبحت أصلحك الله؟ كيفَ أمسيت عافاك الله؟ فإنْ أخذْنا بقولهم كانت بِدْعةً، ألاَ ولا كرامةَ فإن شاؤُوا غضبوا علينا.

ومن ذلكَ ابتداءُ الرجل فى عنوان الكتابِ باسم المكتوبِ إليه، وإنّما السّنّةُ أن يبتدئ بنفسه فيكتبُ: مِنْ فلانٍ إلى فلان. قال ابن سيرين رحمه الله تعالى: غبتُ غيبةً فكتبتُ إلى أبى فابتدأت باسمِه، فكتبَ إلىَّ: يا بنى، إذا كتبتَ إلىَّ فابدأ باسمكَ فى الكتاب، فإن ابتدأتَ باسمى قبل اسمك، لا قرأتُ لك كتابًا، ولا رَددْت إليك جوابًا.

وكتب العلاءُ بن الحضرميّ رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ فبدأ بنفسه وكتبَ: من العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله ﷺ.

ويقال: أولُ مَنْ أحدثَه «زياد» فعابَه العلماءُ عليه، وعدُّوه من إحداث بنى أمية. وقد بَقى سُنّةً هذا فى كتب الخلفاء والأمراءِ إلى اليوم، على نحوِ ما مضى، فهم يُقدِّمونَ أسماءَهم فى كتبهم.

ومن الإحداث: قولُ الرجل إذا جاء منزل أخيه: يا غلامُ، يا جاريةُ. فيه مخالفةٌ لأمر الله عزّ وجلّ وأمر رسوله عليه السلام، قال الله عزّ وجلّ: ﴿لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتّى تَسْتَأْنسُوا وَتُسَلِّمُوا على أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]. قال أهلُ التفسيرِ: الاستئناسُ: الدّقُّ، أو التنحنح، أو الحركَةُ، حتى يُؤذنَ بذلكَ أن وراءَها إنسَانًا. وقال رسولُ الله ﷺ: «إذا جاءَ أحدُكُم منزلَ أخيه فليُسَلِّمْ ثلاثًا، فإن أُذنَ

لهُ فليَدخلْ، وإلا فَليرجِعْ».

وكان السلفُ يَقرعُ أحدُهُمْ بابَ أخيه، ثم يسلِّمُ ثلاثًا يقفُ بعدَ كلِّ تسليمةٍ هُنيهةً، فإن أُذنَ له دخلَ. وقدْ لا يحبُّ صاحبُ المنزلِ أن يدخل عليه في ذلك الوقتِ؛ لسببِ عذرٍ له، فيقولُ: وعليكم السلام ورحمة اللهِ، ارجعْ عافاك الله، فإني على شغلٍ، فيرجع عنه غير كارهٍ لرجوعه، ولا يؤثر ذلكَ عليهِ في نفسه. وقد يكونُ قوله «ارجعْ» أحبَّ إليه؛ لأنه أفضلُ له رجاءَ الإجابةِ والتزكيةِ، لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النور:٢٨]، فربما رجَعَ في اليومِ مرّتين أو ثلاثًا بعد ردِّ صاحبِهِ له وهو يعودُ؛ لأنَّ ذلك لم يؤثِّر في قلبه شيئًا. وهذا لو فُعل ببعضِ الناسِ من أهلِ عصرِنا هذا لَكرِههُ، ولعلَّ أن لا يعودَ يومَهُ ذلك[1].

فأمّا العلماءُ فقد كانَ بعضُ الناسِ لا يستأذنُ عليهم إلا لمهمٍّ لا بدَّ منه، بل كانوا يقعدُون على أبوابِهم وفي مساجِدِهم ينتظرُون خروجهم لأوقاتِ الصَّلاة؛ إجلالاً للعلم وهيبةً للعلماءِ.

وحدثُونا عن أبي عبيدٍ قال: ما قرعتُ على عالمٍ قط بابَهُ، كنتُ أجيءُ إلى منزلِهِ فأقعدُ على بابه أنتظر خروجه من قِبَلِ نفسه، أتأوّل قول الله عزَّ وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [الحجرات:٥].

وقد رُوينا مثلَ هذا عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما في موضعِهِ من العلمِ والشرف: أن المارَّ كانَ يمرُّ به وهو قَائمٌ على بابِ منزلِ الرجلِ منَ الأنصار، تسفي عليه الرياحُ، فيقول: ما يُجْلسكَ ههنا يا ابنَ عمِّ رسولِ الله؟ فيقول: أنتظر خروجَ صاحبِ المنزلِ. فيخرج الرجلُ فيقول: ابنُ عمِّ رسول الله؟ لو أرسلتَ إليَّ لجئتُكَ، فيقول: لا، أنا كنتُ أحقَّ أن آتيَكَ. فيسألُه عمّا يريدُ من حديثٍ بلَغَه أنَّه يرويهِ عن رسولِ الله ﷺ لم يكن هو سمعَهُ منهُ.

(١) وكيف بعصرنا نحن اليوم، فقد تكون قطيعة؟!

ومن ذلك[١]: استقصاءُ الرجلِ فى المسألةِ عن حالِ أخيهِ وخبره. وقد كُرِهَ ذلكَ. تزوّجَ سلمانُ الفارسىُّ رضى الله عنه، فلمّا دخلَ على أهله خرجَ إلى الناسِ من الغدِ، فقالَ لهُ رجلٌ: كيفَ أنتَ يا أبا عبدِ الله؟ قال: بخيرٍ أحمدُ الله تعالى، قال: كيفَ حالُك وكيف بتَّ البارحةَ؟ وكيفَ وجدتَ أهلك؟[٢] فغضب سَلْمان وقال: لِمَ يَسْأل أحدُكم فيُحْفى[٣] المسألة، ويَسْألْ عما وراءَ البيوتِ؟ يكفى أحدُكم أنْ يسألَ عن ظاهرِ الأمر.

وأما سليمانُ بن مهرانِ الأعمشُ، فإنَّ رجلاً قال له فى منزلِه: كيفَ أنت يا أبا محمد؟ قال: بخير. قال: كيف حالك؟ قال: فى عافية. قال: كيف بِتَّ البارحةَ؟ فصاحَ: يا جاريةُ انزلى بالفراش والمخاد، فأنزلتْ بذلكَ. فقال: افرشى، ففرشت. فقال: اضطجعى[٤] حتَّى أضّطجعَ إلى جنبِكَ لنُرِيَ أخانَا[٥] كيف بتُّ البارحةَ. وكان يقولُ: يلقَى أحدُهم أخاه فيسألُه عن كلِّ شىءٍ، حتَّى عن الدجاجِ فى البيتِ، ولو سأله درهمًا ما أعطاه[٦].

وكانَ مَنْ مضى مِنَ السلفِ إذا لَقِيَ أخاه لا يزيدُ على قوله: كيف أنتم؟ أو: حيَّاكم الله بالسلام، ولو سأله شَطْرَ ماله قاسمَه.

ومن ذلك: قولُ الرجل لأخيهِ إذا لقيهُ ذاهبًا فى الطريق: إلى أين تريد؟ أو: من أين جئت؟ فقد كُرِه هذا، وليس مِنَ السُّنَّة ولا الأدبِ، وهو داخلٌ فى التجسسِ والتَّحسس؛ لأنَّ التحسسَ فى الآثار، والتجسسَ فى الأخبارِ، وهذا السؤالُ عن ذلك يجمعُهما، وقد لا يحبُّ الرجلُ أن يعلمَ صاحبُه أين يذهب ولا من أين جاءَ.

(١) أى من الأمور المحدثة التى يسردها.
(٢) فى المطبوعة: «وفى لفظ آخر: كيف وجدت أهلك» وأثبت ما فى (ك).
(٣) يحفى: أحفَى السؤالَ: ردَّدهُ، وألحّ فيه.
(٤) فى (ط): «افرشى واضطجعى» والزيادة من (ك).
(٥) فى (ك): «حتى يرى أخونا».
(٦) فى المخطوطة كرر هذا الخبر بروايته عن «الأعمش».

وقد كَرِهَ ذلك(١) مجاهدٌ وعطاءٌ، قالا: إذا لقيتَ أخاكَ فى طريقٍ فلا تسألْه من أين جئتَ ولا أين يذهبُ، فلعلَّه أن يَصْدُقَكَ فتكرَه ذلك، ولعله أن يَكْذِبَك فتكونَ قد حمَّلْته [ما يشق](٢) عليه.

وقد كانوا يكرهُونَ بيعَ المصاحفِ وشراءَها. وكانَ بعضُهم لبيعِها أكرَه منهُ لشرائِها.

وقد ابتدعَ الناسُ علومًا لم تكن تُعرف فيما سلفَ، منها: علمُ الكلام والجدلِ، وعلومُ المقاييسِ والنظرِ والاستدلالِ على سنن الرسول ﷺ بأدلَّة الرأى والمعقولِ.

ومنها: إيثارُ علم العقل والرأى والقياس على ظواهرِ القرآنِ، وعلى الأخبارِ.

ومنها: إظهارُ الإشاراتِ بالمواجيدِ من غيرِ علومِهَا ولا بيانِ تفصيلها. وفى ذلكَ تحييرٌ للسّامعين، وإضلالٌ للعاملينَ.

وإنَّما كَانَ العلماءُ بِهَذا العلمِ يُظهِرُون علومَ المواجيدِ، ويُخْفُونَ الإشارةَ بالوَجْد، فيُظهِرون للناسِ ما ينفعُ، ويخفونَ ما يضرُّ، ولأنَّ المواجيدَ أحوالُ قلوبهم، فكتمهُا أفضلُ، وعلومُها أنصبةُ المريدينَ والعاملين، فإظهارُهَا هُو البُغْيَةُ لهم، فأظْهرُوهُ وأخفَوْا وَجْدَهم؛ لأنه سرٌّ لهم فسَلِمُوا من التصنُّع والدعْوى، وأعطوا السَّامعينَ نصيبَهم، ومنعُوهُمْ ما ليسَ لهم، فعَدَلُوا فى الوصفينِ معًا، ففُضِّلوا فى الحالينِ جَميعًا. فجُهِلَ هذَا الآنَ فأُظهِرَ ضدُّه، وكان إلى الضررِ أقربَ، ومنَ السلامة أبعدَ(٣).

فمَنْ لم يُحسنِ التفصيل ولم يُرزقِ العبارة، فإنه يَحْسُنُ الصمتُ فهو واسعٌ؛ لأن مَنْ لم يتكلَّمْ بعلمٍ على سُنَّة [ينفع به] فسكوتُه [عن شُبهةٍ لا يوقن الضّرر بها](٤) أقربُ له إلى الله تعالى، فمَثَلُه فى ذلك كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿**وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا**﴾ [الطلاق: ٧].

---

(١) فى (ك): «وروينا كراهية ذلك عن».

(٢) ساقطة من (ط). وفى (ك): «ما يشق عليك».

(٣) سبحان الله!! يتكلم هكذا عن عصره، فكيف بأبى طالب المكى لو أدرك عصرنا هذا؟!

(٤) ما بين المعكفات زيادة من (ك)، وعبارة (ك) بعدها: «أفضلُ قال الله عز وجل».

ومما ظهَر: إظهارُ علوم المعرفة بمعانى الرغبة؛ ليتميَّزوا عن الفقراء، تكبُّرًا منهم، فلا يُجْعَلُون مجعلهم، وليُصْرَفْ إليهم من الأسبابِ على قدرِ أُنسِهم[١] وأحوالهم، وهذا من أكبر أبواب الدنيا، وأضرّه على مريدى الآخرة وألطفه[٢] تَمْويهًا فى الدين.

ومنها: الكلامُ فى التوحيد بمخالفة علمِ الشرع، وأنَّ الحقيقة تخالفُ العلمَ، والحقيقةُ هى علمٌ، وهى أحدُ طرقاتِ الشريعة، وعلمُ الشرعِ عنها، فكيفَ تنافيها وهى التى أوجبته، وإنّما هِيَ عزيمته وصنعه[٣]، وعلمُ الظاهرِ هو الرّخصةُ والسَّعة.

فمَنْ تكلَّم فى علمِ الباطنِ على غيرِ قواعدِ العلمِ الظاهرِ وأصولِهِ فذلك من الإلحادِ فى الشريعةِ والوليجةِ بين الكتابِ والسنة.

وقد قال بعض العارفينَ: نظرتُ إلى هؤلاءِ الشاطحينَ فما وَجَدْتُ إلا جَاهلاً مغرورًا، أو خاسئًا حبورًا، أو مُستظْهِرًا بلا شىء.

ومنها: الكلامُ فى الدينِ بالوساوس والخطراتِ عن غير ردٍّ مواجيدها إلى الكتابِ والسُّنَّة. والواجبُ معرفةُ تفصيلِها، ونَفْىِ ما لم يَشْهد له الكتابُ والسنّة منها، إذْ فى المواجِيدِ ضلالٌ وغرورٌ، وفى المشاهدات باطلٌ وزورٌ، معَ دعواهُم المحبةَ، وإنكارهم الصفةَ التى جاءتْ بِهَا السنّة عن غيرِ شهادةِ موصوفٍ، وادعائِهمُ المعرفةَ من غيرِ تعرف معروفٍ.

وممّا أحدثُوا: السجعُ فى الدعاء، والتغريبُ فيه، ولم يَرِد الكتابُ به، ولا نُقلَ عن رسولِ الله ﷺ ولا الصحابة، بل كانوا يَنهَوْنَ عنِ الاعتداء فى الدعاء، ويجتنبون مجاوزةَ ما أخبرَ اللهُ تعالى عن أوليائِه منَ الأدعيةِ الجامعةِ المختصرةِ المعروفة[٤].

(١) فى (ك): قد تقرأ «لبسهم».

(٢) فى (ك): «وأضرها على مريدى الآخرة وألطفها».

(٣) فى (ط): «عزيمة وضيقة».

(٤) فكيف بزماننا الذى صار فيه الدعاء فنًا وصنعة، لا خشوعًا وتضرُّعًا.

ورُوينا عن رسول الله ﷺ: «إيَّاكُم والسجعَ فى الدعاء، حسبُ أحدِكم أنْ يقولَ: اللّهمَّ إنى أسألُكَ الجنَّةَ وما قرَّبَ إليهَا من قولٍ وعملٍ، وأعوذُ بك من النَّارِ وما قرَّبَ إليها من قول وعملٍ». وفى الخبر: «سيأتى قومٌ يعتدُون فى الدعاءِ والطَّهورِ».

وسَمِعَ عبدُ الله بن مُغَفَّل ابنَه يدعُو بدعاءٍ تَعمَّق فيه، فقال: يا بنى، إيّاك والحدثَ والاعتداءَ فى الدعاء.

وفى قوله عزّ وجلّ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف:٥٥] قيل: فى الدعاءِ، فالاعتداءُ فى الدعاءِ هو تركُ ما أخبرَ الله عزّ وجلّ عن أوليائه الصالحينَ منَ الدعاء بالمغفرةِ والرحمةِ والتوبةِ، ومعنى ذلكَ: من الدعاءِ المعروف والقولِ المشهور إلى التنطُّع والتّعميقِ والتغريبِ والتَّدْقيق.

ويقال: إن العلماءَ والأبدال لا يزيدُ أحدُهم على سبْعِ كلماتٍ فى الدعاءِ، ووجدتُ تصديقَ ذلكَ فى الكتابِ: إن الله تعالى ما أخبر عن عباده فى الدعاءِ فى مكانٍ واحد أكثر من سبع دعوات، وهى التى فى آخرِ سورة البقرة، وإلا إنّما يخبرُ عنهم بالدعوتينِ والثلاثِ والأربعِ إلى الخَمْسِ فى مواضعَ مِنَ الكتابِ متفرقةً.

ومرّ بعضُ السلفِ بقاصٍّ يدعُو بَسجْعٍ فى دعائه ويتعمَّقُ فقال له: ويلَك، على الله تبالغ، أشهدُ لقد رأيتُ حبيبًا العجَميَّ(١) يدعُو وما يزيد على قوله: اللّهم اجعلنا جيِّدينَ، اللّهمَّ لا تَفْضَحْنا يومَ القيامةِ، اللهم وفّقنا للخَير. قال: والناسُ يبكونَ من كلٍّ ناحيةٍ، وكنا نتعرّفُ إجابةَ دعائه وبركَته.

وكانَ أبو يزيدَ البسطامىّ يقول: سَلْهُ بلسانِ الحاجةِ لا بلسان الحكمةِ. وقال الحسن: ادْعُ بلسانِ الاستكانةِ والافتقار لا بالفَصاحةِ والانطلاقِ.

ومما أحدثُوه: أخذُ القرآنِ بالإدارة(٢) وتنازعُ الاثنين الآيةَ، أو تَلَقّى الرجُلين

(١) فى (ك): «الفارسى» وله ترجمة فى الحلية ٦/ ١٤٩ ـ ١٥٥.

(٢) أى: يديرونه بينهم ويتنازعونه، من قولهم: «أدرت فلانًا على الأمر؛ إذا حاولت إلزامه إياه» اللسان (دور).

للآيتينِ فى مكانٍ واحدٍ بمنزلة الاختلاسِ والنُّهبةِ من غير خشوعٍ للقرآنِ ولا هيبةٍ. وقراءةُ القرآنِ تحتاجُ إلى حُزنٍ وسكونٍ وخشوعٍ.

ومن ذلكَ: أخذُ المقرئ على الاثنين، وليته قام بقراءة الواحد؛ لسهوِ القلبِ. كما قيل لإبراهيمَ الحربىّ: إنّ فلانًا يأخذُ على الاثنين، فقال: هاه، يحتاجُ اثنانِ أنْ يأخذا على واحدٍ.

ومن البدَعِ: التلحينُ فى القراءةِ حتَّى لا تُفهَمَ التلاوةُ، وحتَّى يجاوزَ إعرابَ الكلمة بمدّ المقصورِ وقصرِ الممدودِ، وإدغامِ المظهرِ وإظهار المدغمِ؛ ليستوىَ بذلكَ التلاحُنُ، ولا يبالى باعوجاجِ الكلِمِ وإحالته عن حقيقته، فهو بدعةٌ ومكروهٌ استماعُهُ. قال بشر بن الحارث: سألتُ ابنَ داودِ الحربىَّ: أمرٌّ بالرجل يقرأ، فأجلِسُ إليه. قال: يقولُ: يُطْرِب؟ قلتُ: نعم. قالَ: لا، هذا قد أظهر بدْعتَه.

ومن ذلك: التلحينُ فى الأذانِ، وهو من البغيِ والاعتداء فيه. قال رجل من المؤذِّنين لابن عمر رضى الله عنهما: إنى لأحبكَ فى الله تعالى، فقال له: لكنِّى أبغضكَ فى الله تعالى، قال: يا أبا عبدِ الرحمن لم؟[1] قال: لأنّكَ تبغى فى أذانك وتأخذُ عليه أجرًا.

وكان أبو بكرٍ الآجرىُّ رحمه الله يقول: خرجتُ من بغدادَ وما يَحِلُّ لى المقامُ بها، قد ابتدعُوا فى كلِّ شىءٍ حتَّى فى قراءةِ القرآن وفى الأذان. وكانَ يعنى بذلكَ: قَراءةَ الإدارةِ والتلحينِ. وقَدِمَ علينا مكةَ فى سنةِ ثلاثين وثلاث مائة[2].

ومن جُمَلِ ما أحدَث الخلفُ فخالفُوا به سَنَنَ السّلف: أنهُمْ شدّدوا فى أشياءَ كانَ السلفُ يسهّلون فيهَا، وسهّلوا أشياءَ كان السَّلَفُ يشدّدون فيها. فمثَلُهم فى ذلك كالخوارجِ[3]؛ شدّدوا فى الصغائر من الذنوبِ، وسهّلوا فى الآثار والسنّةِ، وفى تركِ مذهبِ الجماعةِ حتى فارقوهم.

---

(١) فى (ك): «ولِمَ يا سيدى؟».

(٢) كلمة «وثلاث مائة» ساقطة من (ط) وهى من (ك).

(٣) فى (ك): «فما أشبههم فى ذلك إلا بمثل الخوارج».

فممّا شدَّدَ فيه الخلفُ مما كان السلف يسهِّلونه كَتْبَ الأحاديثِ من أنواعِ طُرقِها، وتتبع الغرائبِ من طرقَاتِها، وتحرِّى الألفاظ فيها، وقد قال ابن عون: أدركتُ ثلاثةً يرخِّصون فى المعَانى: إبراهيمَ، والشَّعبىَّ، والحسنَ، رحمهم الله تعالى.

وعن جماعةٍ من علماء السلفِ والصحابةِ التوسعةُ فى معانى الأحاديثِ، وإن لم يؤدِّ ألفاظَها.

ومن ذلكَ: تجريدُ الحروفِ، وتحرِّى المقرئِ الواحدِ فى جميعِ اختيارِه، حتَّى كأنه فُرِضَ عليه.

ومن ذلكَ: التدقيقُ فى القياسِ والنظرِ، والتبحُّرِ فى علومِ النحوِ والعربيةِ. كما قال إبراهيم بنُ أدهمَ رحمه الله تعالى: أعربْنا فى الكلامِ فلم نلحنْ ولحنّا فى الأعمال، فيا ليتَنا لحنَّا فى الكلامِ وأعربْنا فِى الأعمالِ.

وذُكرت «العربية»[١] عند القاسمِ بن المخيمرَةِ فقال: أولها كِبْرٌ وآخرها بغْىٌ. وقد قالَ بعضُ السلفِ: النحوُ يُذْهِبُ الخشوعَ من القلبِ. وقال آخرُ: مَنْ أحبَّ أن يزدرىَ الناسَ كلَّهم فليتعلَّم العربيةَ[٢].

وشدّدوا فى الطهارةِ بالماء، وتنظيفِ الثيابِ، وكثرةِ غسلِهَا مِنْ عرقِ الجنُبِ، ولُبْسِ الحائضِ، ومنْ أرواثِ ما يُؤكَلُ لحمُه وأبواله، وغسلِ اليسير من الدمِ، ونحو ذلك. وكان السلفُ يُرخِّصُونَ فى هذا كلّه.

ومما سهّلوه ممَّا كان السلفُ يشدِّدون فيه: أمرُ المكاسبِ، وتَرْكُ التحرِّى فيَها، والكلامُ فيها لا يَعْنِى، والخوْضُ فى الباطِلِ، والغيبةُ والنميمةُ والاستمَاعُ إليهما، والعقدُ على البلاغات[٣]، وسُوءُ الظنِّ لأجلهَا، وهو اشتراكٌ فى النميمة [واستماعٌ إليها][٤]. وكلُّ بلاغةٍ تزيدُ وتنقصُ: إن كان شرًا ازددتَ فيهِ، وإن كانَ خيرًا نقصتَ منهُ.

---

(١) يقصد «علم العربية».

(٢) ليس هذا الكلام على إطلاقه عندهم، بل هو مرتبط بأحوال ومناسبات خاصة بهم.

(٣) فى (ك): «والعمل على البلايات، وهو اشتراك... إلخ».

(٤) زيادة من (ك).

وسهّلوا فى النظرِ إلى الزورِ واللهوِ ومجالسةِ البطّالينَ، والمشْيِ فى أسبابِ الهوى، والتعصبِ، وشدةِ الحرصِ على الدنيا؛ وهذا كلُّه كان السّلفُ يشدِّدون فيه.

ومما أحدثوا: دخولُ النساءِ الحمامَ من غيرِ ضرورة، ودخولُ الرجلِ بغير مئزر، وهو فسقٌ. وسُئِلَ إبراهيمُ الحربىُّ رحمه الله تعالى عمَّنْ يشربُ النبيذَ ولا يَسْكَر أيُصلَّى خلفه؟ قال: نعم. قيل: فمَنْ دخلَ الحمامَ بغير مئزرٍ، فقال: لا يُصلَّى خلفه. هذا، لأنَّ شُربَ النبيذِ يُختلَفُ فيه إذا لم يُسكرْ، ودخولُ الحمامِ بغير مئزرٍ محرمٌ بإجماعٍ. وكان بعضُ العلماء يقول: يحتاجُ داخلُ الحمام إلى مئزرين: مئزرٍ لوجهِه، ومِئزرٍ لعورتِه، وإلا لم يَسْلَمْ فى دخولِه. وكان ابنُ عمرَ يقول: الحمام من النعيم الذى أحدثُوه.

ومن المنكرِ فى الحمامِ تولِّى القيِّم لعورةِ الرجلِ المسلم فى الإطلاء بالنُّورَة[1].

وقد كان من هَدْى العلماء فى قعودهم أن يجتمعَ أحدُهم فى جِلْسَته فيَنصبُ ركبتَيْه، ومنهم من يقعدُ على قدَمَيه ويضَعُ مِرْفقيهِ عَلَى ركبتيه. كذلك كانَ شمائلُ كلِّ من تكلَّمَ فى هذا العلمِ خاصَّةً من عهدِ أصحابِ رسولِ الله ﷺ، ومن زمنِ الحسنِ البصرى؛ وهو أوّل مَنْ أظهرَ هذا العلم، وفَتَقَ الألسنَ به، إلى وقتِ أبى القاسم الجنيدِ، قبل أن تظهرَ الكراسىُّ.

وكذلك رُوِى عن رسولِ الله ﷺ: «أنه كانَ يقعد القُرفُصاءَ ويَحْتبِى بيديه». وفى رواية أخرى: «أنَّهُ كان يَقعدُ على قدميه ويجعلُ مِرفقيْهِ عَلَى ركبتيه».

وأولُ مَنْ قعد على كرسىٍّ من أهلِ هذا العلمِ يحيى بنُ معاذ رحمه الله تعالى بمصر، وتبعَهُ أبو حمزةَ ببغداد، فعابَ الأشياخُ عليهما ذلك، ولم يكن ذلكَ من سيرةِ العارِفين الذينَ يتكلَّمُون فى علمِ المعرفةِ واليقين، إنما كان يجلسُ متربِّعًا النحويُّون واللغويُّونَ وأبناءُ الدنيا مِنَ العلماءِ المفتين، وهى جِلْسَةُ المتكبرِين. ومن التواضعِ الاجتماعُ فى الجِلْسَةِ[2].

---

(١) النورة: أخلاط من أملاح تستعمل لإزالة الشعر.

(٢) فى (ك): «فى الحَلْقة».

ذكر تفصيل العلوم: معروفها ومنكرها، قديمها ومحدثها

اعلَمْ أن العلوم تسعةٌ: أربعةٌ منها سنّة معروفة من الصحابةِ والتابعينَ، وخمسةٌ مُحْدَثةٌ لم تكن تُعرف فيما سَلَف.

فأما الأربعة المعروفة: فعلمُ الإيمانِ، وعلمُ القرآن، وعلمُ السنن والآثارِ، وعلمُ الفتَاوَى والأحكام.

وأما الخمسة المحدَثة: فالنحوُ والعَروضُ، وعلمُ المقاييس، والجدلُ في الفقه، وعلمُ المعقول بالنظر، وعلم عللِ الحديث وتطريقِ الطرقات فيه وتعليلِ الضعفاء وتضعيفِ النَّقَلةِ للآثارِ، فهذا العلمُ من المحدَثِ إلا أنه عِلْمٌ لأهلهِ فيسمعُه أصحابُه منهم.

وقد كانُوا يَروْنَ القَصصَ بدعةً ويَنهوْنَ عنهُ ويكرهُون مجالسةَ القُصَّاصِ. قال بعضُ العلماء: نِعْمَ الرجلُ فلانٌ لولا أنه يقصُّ.

وقال بعضُ هذه الطائفة: مَثَلُ أصحابِ الحكاياتِ في أهلِ المعرفةِ مَثَلُ القصَّاص في الفقهاءِ.

وقال آخر: مَثَلُ القصَّاص في العلماءِ مَثَلُ أهلِ السوادِ في أهل المدنِ.

فأمّا أكلُ الدنيا بالدينِ، وأخذُهَا على الصلاح، وبيعُ العلمِ بالدنيا، والتصنُّع والتزيُّنِ للعموم - فمن قبيحِ ما أُحدثَ. وهو أظهرُ من أن يُستدل[1] على فساده عند من عَرَفَ ظاهرَ العلمِ. وقد سمَّى هؤلاء في زماننا هذا الجاهِلُون بالعلمِ علماءَ، وجعلهم الناقصُونَ عن الفضل فضلاء؛ لقلّةِ معرفتهم بطريقِ المتقدمينَ، وعدمِ بصيرتِهم بحقيقةِ علمِ الدين.

واعلمْ أن الكلامَ ينقسمُ عندنا سبعةَ أقسامٍ: العلمُ منه قسمٌ واحدٌ، وسائرُ الستةِ لغوٌ مطَّرِحٌ يلتقطُه مَنْ لا يَعْرِفه، ولا يفرقُ بين العلمِ والجهلِ، والعربُ تقول:

(١) في (ط): «من أن يدل».

«لكلِّ ساقطة لاقطةٌ»(١)، و«لكلِّ قائلة ناقلةٌ». فالستَّةُ: إفكٌ، وسَفَهٌ، وخطأٌ، وظَنٌّ، وزخرفٌ، ووَسْوسة. فهذه أسماؤها عند العلماء، يفصِّلون ذلك بما فَصَّل اللهُ تعالى لهم من بيانه، واستحفَظَهُمْ من كتابه، وجعلهم شهداءَ على دينه وعباده.

فالقسمُ السابعُ من الكلامِ هو مَا عدا هذه الستة، ولم يقعْ عليه اسمٌ منها مذمومٌ، فهو علمٌ، وهو نَصُّ القرآنِ والسنةِ، أو ما دلاّ عليه، واستُنبِطَ منهما، أو وُجِدَ فيهِمَا اسمُهُ ومَعْناهُ مِنْ قولٍ وفعلٍ.

والتأويلُ ـ إذا لم يخرج عن الإجماع ـ داخلٌ في العلمِ والاستنباط، إذا كان مُستودَعًا في الكتاب، يَشهدُ له المجمل ولا ينافيه النصّ، فهو علم. وقد كان ابن مسعودٍ رضي الله عنه يقول: أنتم اليومَ في زمانِ الهوَى فيهِ تابعٌ للعلمِ، وسيأتي عليكم زمانٌ يكونُ العلمُ فيه تابعًا للهوى.

وقد جمعَ الله تعالى بين رَوْنَقِ العقلِ ومُتعة الدنيا بتسمية الزُّخرفِ فقال تعالى: ﴿ولِبُيُوتهِمْ أبْوابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وزُخْرُفًا﴾ [الزخرف: ٣٤ ـ ٣٥]، وكما قال: ﴿زُخْرُفَ القول غُرورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، فذَهابُ الجاهلِ بالاستحسانِ لزُخْرفِ القولِ منَ المموَّه من عُلماءِ الدّنيا كمتعة الجاهلِ مِن أبناء الدنيا بزخرف الذهَب، ذاهبًا عن حقيقةِ الأمر، والزخرفُ ما يُموَّهُ به على الذهبِ، فَيُشَبَّهُ به، يحسبُه الجاهلُ والصبيُّ عينَ الذهب. كذلك الزخرفُ من القولِ: ما يُموَّه ويُشبَّه على العلمِ، يحسبُه المستمعُ من الجهّال علمًا، فلذلك جمع بينهُما في التسمية الزخرف.

وقد قيل: إنّ الزخرفَ هو الذهبُ(٢)، فعَلَى هذا شبَّه قولَ الغُرور بالذَّهب، الذي يذهبُ بقاؤه وتقلُّ حقيقته عند الربانيّين وأهل الحقيقةِ الزاهدينَ، إذ شَبَّهَهُ الأنبياءُ والصديقُون بالحجرِ والمدَرِ.

وكان الإمامُ أحمد بنُ حنبل رضي الله عنه يقول: تركُوا العلمَ وأقبلُوا على

---

(١) من أمثال العرب، انظر: مجمع الأمثال، للميداني، ٢/ ٩٤، وجمهرة الأمثال، للعسكري، ٢/ ٢٠٧، ومعناه: «لكل كلمة رديئة دنيئة متحفِّظ» ودخلت الهاء على «لاقطة» ليصح الازدواج.

(٢) هذا قول ابن عباس وغيره، انظر: تفسير القرطبي ١٦/ ٨٧.

الغِراسِ. ما أقلَّ العلمَ فيهمْ! والله المستعان.

وقال الإمام مالك بنُ أنس رضى الله عنه: لم يكنِ الناسُ ـ فيما مضى ـ يَسألونَ عن هذه الأمورِ، كما يَسأل الناسُ اليومَ، ولم يكنِ العلماءُ يقولون حرام ولا حلال فى أكثرِ الأمورِ، أدركتُهُم يقولون: مستحَبٌّ ومكروه. وكان مالكٌ كثيرَ التوقُّفِ فى الأجوبةِ إذَا سُئِل، ويُكثر أن يقول: لا أدرى! سَلْ غيرى.

وقال رجلٌ لعبد الرحمنِ بن مهدى: ألاَ ترى إلى قولِ فلانٍ فى العلم: حلال وحرام، وقَطْعه فى الأمور بعلمهِ ـ يعنى: رجُلاً من أهل الرأى ـ وإلى قولِ مالك إذا سُئِلَ: أحْسَبُ [أحْسَبُ][(1)]؟ فقال عبد الرحمن: ويلك! قولُ مالكٍ أحسبُ أحسبُ أحبُّ إلىّ من قولِ فلان: أشهَدُ أشهدُ.

وكان هشامُ بنُ عروةَ يقول: لا تسألُوهم اليومَ عمَّا أحدثُوا، فإنَّهم قد أعدُّوا له جوَابًا، ولكنِ اسْألُوهم عنِ السننِ فإنّهم لا يعرفُونها.

وكان الشَّعبىُّ رحمه الله تعالى إذا نظر إلى ما أحدث الناسُ من الرأى والهوى يقول: لقد كان القعودُ فى هذا المسجدِ أحبَّ إلىَّ مما يُعْدَلُ به، فمُذْ صارَ فيه هؤلاء المراؤون فقد بغَّضوا إلىَّ الجلوسَ فيه، ولأن أقعُد على مزبلةٍ أحبُّ إلىَّ من أن أجلسَ فيه. وكان يقول: ما حدّثوك عن السننِ والآثارِ فخُذْ بهِ، وما حدَّثوكَ عمَّا أحدثُوا من رأيهِمْ فامخَطْ عليه. وقد قال مرةً: فبُلْ عليه.

وقد كان السلفُ يستحبُّونَ العِىَّ والبَلَه عن علومِ المعقولِ.

وقد جعلهُ رسولُ الله ﷺ من الإيمان؛ إذ قَرنَهُ بالحياءِ فقال: «الحياءُ والعِىُّ شعبتانِ من الإيمانِ، والبذاءُ والبيانُ شعبتانِ من النفاقِ».

وقال ﷺ: «أبغضُ الخلقِ إلى الله عزّ وجلّ البليغُ الذى يتخلَّلُ الكلامَ بلسانهِ كمَا تتخلَّلُ الباقرةُ الخَلَى بلسانها» يعنى: الحشيش الرطب. وقال فى حديث آخر: «العِىُّ عِىُّ اللسانِ لا عىُّ القلبِ». وقال: «إنَّ الله عزّ وجلّ كَرِهَ لكمُ البيانَ كلَّ البيانِ».

---

(1) ساقطة من (ط).

فَصَار الفقهُ إنَّما هُوَ فقهُ القلب عن الربِّ سبحانه وتعالى، وصار فقه اللسان بالبيان إنّما هو عى القلبِ عنِ الشهادةِ والإيقانِ. وعيُّ اللسانِ وطولُ الصمْتِ الذى كان يستحبهُ السلفُ هو اليومَ عيبٌ.

ومن المتكَلمينَ مَنْ لا يعرفُ أن كلامَ البدع وعلمَ المنافقينَ الذى ذمّهُ القدماءُ هو اليوم سنّة، وأن أهلَ النطقِ به هم العلماءُ اليومَ. ولقد صارَ المعروفُ منكرًا والمنكرُ معروفًا، وصارتِ السنّة بدعةً والبدعةُ سنّةً. وكذلك جاءتْ به الأخبارُ فى وصف علماء آخرِ الزمان. وفى الخبر المشهور: «إنَّ الله تعالى يبغضُ الثّرثارينَ المتشدِّقين». فمَنْ غُلبَ عليهِ هذا الوصفُ فكان متشدِّقًا بليغًا فى علمِ الرأىِ والمعقولِ، عىَّ القلبِ عن مشاهدةِ اليقينِ وعلمِ الإيمانِ، كان إلى النفاقِ أقربَ، ومنْ حقيقةِ الإيمان أبعدَ.

وقد كان أبو سليمان الدارانى يقول: لا ينبغى لمن أُلهِمَ شيئًا من الخيراتِ أن يُعَلِّمه[1] حتى يَسمعَ به فى الأثر، فيحمدُ اللهَ تعالى إذا وافقَ مَا فى نفسه.

وقال بعضُ العارفِينَ: ما قَبلتُ خَاطِرًا من قلبِى حتَّى يقيمَ لِى شاهِدَىْ عدلٍ من كتابٍ وسنةٍ.

وكان إمامنا أبو محمدٍ سهل رحمه الله تعالى يقول: لا يبلغُ العبدُ حقيقةَ الإيمانِ حتَّى يكونَ فيهِ هذهِ الأربع: أداءُ الفرائضِ بالسنّة، وأكلُ الحلالِ بالورعِ، واجتنابُ النهى من الظاهرِ والباطنِ، والصبرُ على ذلك حتَّى الممات.

وقد كانوا يعيبونَ على مَنْ تكلَّمَ بعدَ طلوعِ الفجرِ إلى طلوعِ الشمسِ بغيرِ ذكرِ الله تعالى، وكانوا يُخْرِجُونَ المتحدِّثينَ من المساجدِ فلا يبقى فيه إلا مُصَلٍّ أو ذاكرٌ لله تعالى.

وقد كان السلفُ يَستعظِمُونَ يسيرَ الحديثِ فى الدينِ ودقائقَ البدعِ فى الإسلام؛ لِعظَمِ الإيمانِ والسنّةِ فى قلوبهم، ولمعرفتِهمْ بحقيقةِ المعروف. قال عبدُ الله بن مغفَّلٍ لابنهِ، وقد سمعه يقرأ خلف الإمام: يا بنىَّ، إياك والحدَثَ إيَّاكَ والحدَثَ.

(١) فى (ط): «يعمله» وأثبت ما فى (ك).

وقال سعدُ بنُ أبى وقاصٍ رضى الله عنه لابنه عمرُ، وقد سمعه يَسْجع فى كلامه: هذا الذى يُبغِّضكَ إلىَّ، لا قضيتُ حاجتَكَ أبدًا ـ وكان قد جاءهُ يسألهُ حاجةً لهُ ـ سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما أُوتِىَ امرؤٌ شرًا مِنْ طَلاَقةٍ فى لسانه».

وقال ﷺ لابْنِ رواحةَ حينَ سمعه سَجَعَ فوالَى بين ثلاثٍ، قال: «إياك والسجعَ يا ابن رواحة». فكأن السجعَ ما زادَ على كلمتين. وكذلك قالَ رسولُ الله ﷺ للرجُلِ الذى أمرهُ بديَةِ الجنينِ، لما قال: كيفَ نَدى من لا شَرِبَ ولا أكَلَ ولا صَاحَ ولا استهلَّ، فمثْلُ هذا يُطَلُّ[1]. فقال رسول الله ﷺ: «أسجعٌ كسجع الأعراب؟».

ورُوينا أنَّ مروانَ لما أحدثَ المنبر فى صلاةِ العيدِ عند المصلَّى، قام إليه أبو سعيد الخدرىّ فقالَ: يا مروانُ ما هذه البدعة؟ فقال: إنها ليست بدعةً، هى خيرٌ مما تعلمُ. إنّ الناسَ قد كثرُوا فأردتُ أن يبلُغهم الصوتُ. قال أبو سعيد رضى الله عنه: لا تأتونَ بخيرٍ مما أعلمُ أبدًا، والله لا صلَّيتُ وراءك اليوم. فانصرَفَ ولم يُصلِّ معهُ صلاة العيد.

فالخطبة على منبرٍ فى صلاةِ العيدِ وخطبةُ الاستسقاء بدعةٌ. وكان عليه الصلاة والسلام يخطُب فيهما على الأرضِ متوكِّئًا على قوسٍ أوْ عصًا.

ورُوِىَ: «أنَّ عمرَ رضى الله عنه أخَّر صلاة المغرب ليلةً حتى طلع نجمٌ فأعتق رقبةً». وفعله عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أيضًا فأعتق رقبةً، استنَانًا بعُمرَ وهو جَدُّه لأمِّه. وروينا عَنِ ابنِ عمرَ رضى الله عنهما «أنه أخّر صلاةَ المغربِ حتَّى طلَعَ كَوكبانِ، فأعتقَ رقبتين». وفى الخبرَ: «لا تزال أمتى على مُسْكَةٍ[2] مِنْ دِينها ما لم يؤخِّروا صلاة المغربِ إلى اشتباك النجوم، تشبُّهًا باليهوديةِ، ولم يؤخِّروا صلاة الصبحِ إلى افتراقِ النجومِ، تشبُّهًا بالنصرانية».

وقال سفيانُ الثوريُّ رحمه الله ويوسفُ بن أسباطِ: لا تقلِّدْ دِينَك مَنْ لا دِينَ له. وقالَ وكيعٌ: لأنْ أزنِىَ أحبُّ إلىَّ من أن أسألَ مبتدِعًا عن دينى. وكان الإمامُ

---

(١) يُطَلّ: يُنقص من حقه.

(٢) المسْكة: ما يُتَمسَّك به، أو ما يُتبَلَّغ به.

أحمدُ بنُ حنبل رحمه الله تعالى قد أكثرَ عنْ عُبيدِ الله بن موسَى العَبْسِىّ، ثم بلغَهُ عنه أدنَى بدعةٍ، قيل: إنهُ كانَ يُقدِّمُ عليًا علىَ عثمانَ، وقيل: بل ذكرَ معاويةَ بسوءٍ. فانصرفَ أحمدُ ومزّقَ جميعَ ما حَملَ عنهُ ولم يحدِّثْ عنه شيئًا. وقيل له مرَّةً: يَا أبا عَبْدِ الله، أوَكيعٌ أشبهُ بالسلفِ أم عبيدُ الله؟ فقال: وكيعٌ وإن زنَى.

وحدثُونا عن إبراهيم الحربىِّ قالَ: كتبتُ عن علىّ بنِ المدينى رضى الله عنهُ جُملاً لله تعالى على أن لا أُحدِّثَ عنه بحرف. قيل: ولِمَ يا أبا إسحاق؟ فذكرَ صلاتَهُ خلفَ مبتدعٍ. وكان رحمه الله تعالى يقول: صحبتُ الفقهاءَ وأصحابَ الحديثِ وأهلَ العربيةِ واللغةِ سبعين سنةً، ما سمعتُ هذه المسائلَ التى أُحدثَتْ فى هذا الوقتِ من أحدٍ منهم قط. يعنى: الاسمَ والمسمَّى، ونحو ذلك. وقال: وأُحرِّج على مَنْ كانَ من أهلِ الكلامِ والجدلِ أن يحضرَ مجلسِى، أوْ يسألنى عن شىءٍ، فإنه لا علمَ لى بالكلام، ولا أنا أحسنُه ولا أقول بأهله، ولو عرفتُ أحدًا منهم ما كلَّمتُه، ولا أجبتُه عن شىءٍ.

وهَجَر الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل رحمه الله تعالى أبا ثورٍ صاحبَ الشافعىّ لما سُئِلَ عن معنَى قول النبى ﷺ: «إن الله تعالى خلق آدم على صورته» قال: إن الهاء عائدة على آدم، فغَضِب وقال: ويلهُ، وأىُّ صورة كانتْ لآدمَ يخلَقُهُ علَيْهَا؟ ويلهُ، يقول: إن الله تعالى خلَقَ على مثالٍ، فأىُّ شىءٍ يَعْملُ فى الحديثِ المفسَّر: «إن الله تعالى خلق آدم على صورةِ الرحمن»؟ فبلغ ذلك أبا ثورٍ فجاءه واعتذر وحَلَفَ أنه ما قلتُ عن اعتقادٍ، وإنَّما هُو رأى رأيتُهُ، والقولَ ما قلتَ، وهو مذهبى.

وهَجَر أيضًا حارثًا المحاسبى رحمه الله تعالى فى ردِّه على المبتدعة ـ وكان من أهل السنة ـ فقال: أين تردُّ عليهم وقد حكيتَ قولهم؟ وأيضًا فإنكَ تحملُهم على التفكُّرِ والرأىِ فيما قلتَ، فيكونَ سببًا لردِّ الحقِّ بالباطلِ. وهَجَر أيضًا يحيى بن معين فى كلمةٍ تكلَّمَ بها، وهو قوله: لو أعطانى الشيطانُ شيئًا أخذتُه.

وقال مالكُ بنُ أنس رضى الله عنه: ليس من السنّة أن تجادلَ عن السنّة، ولكنْ تخبرَ بها، فإنْ قُبِلَ منك وإلا فاسكتْ.

وقيل لعبدِ الرحمنِ بن مهدى رضى الله عنه: إنَّ فلانًا يردّ على المبتدعَة، فقال:

بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ؟ قالوا: لا، بلْ بالمعقولِ. قال: بئسما صنع، ردَّ بِدْعةً ببدعة.

وحدَّثَ زيدُ بن أحزمَ عن وهبِ بن جريرٍ قال: سَمِعتُ شعبةَ رحمه الله تعالى يقول: أتيت الحارثَ العكليَّ فقلت: ما معنى قولِ النبيِّ ﷺ: «إذا تَبِع أحدُكم جنازةً فلا يجلسْ حتى توضع»؟ قال: أرأيتَ إن جئنا ولم يُحْفَرْ له ينبغى لنا أن نقومَ قيامًا؟ فحيثُ قالَ لى: أرأيت، تركتُه.

وروى محمودُ بنُ غيلان أيضًا، عن وهب أيضًا، عن شعبة قال: «أتيتُ المنهالَ ابنَ عَمْرو أسألُه عن حديثٍ، فسمعتُ من منزلِه صوتَ طنبورٍ[1]، فرجعتُ ولم أسألْهُ، ثُمَّ ندمتُ بعد ذلك فقلتُ: هلا سألته فعسَى كانَ لا يعلمُ به.

ومما أحدثُوا: البيعُ والشراءُ على الطريقِ، وكان الورِعون لا يشترون شيئًا ممن قعَد يَبِيعه على طريقٍ.

وكذلك إخراجُ الرَّواشِنِ من البيوتِ، وتقديمُ العضَايد بين يدى الحوانيتِ إلى الطريقِ مكروهٌ[2].

ومما كرهَهُ أهلُ الورعِ: البيعُ والشراءُ من الصبيانِ؛ لأنهم لا يَمْلِكُونَ، وكلامُهم غيرُ مقبول.

وحُدِّثْتُ عن أبى بكر المروزىِّ أن شيخًا كان يجالسُ الإمامَ أحمدَ بن حنبل رحمه الله تعالى ذا هيبةٍ، فكانَ أحمدُ يقبلُ عليهِ ويكرمُه، فبلغَهُ عنه أنه طيَّنَ حائطَ

---

(١) آلة من آلات اللعب واللهو.

(٢) عبارة (ك): «وتقديم العضايد فى الأسواق إلى الطرقات مكروهة». والروشن، كما فى اللسان (رشن): «الرَّفُّ. والروشن: الكُوَّة». وفى كتاب المغنى لابن قدامة (٧/ ٣١)، نشرة هجر، ما نصه: «ولا يجوز أن يشرع إلى طريقٍ نافذ جناحًا؛ وهو الرَّوْشَنُ، يكون على أطراف خشبة مدفونة فى الحائط، وأطرافها خارجةٌ فى الطريق، سواء كان ذلك يضرُّ فى العادةِ أو لا يضرُّ».
والعضَايد: مثله «وهو ما شُدَّ من حَوالى البناء كالصَّفائح المنصوبة حول شفير الحوض».
وفى المغنى ثَمَّ جملة طيبة من هذه الآداب الإسلامية التى لا غنى عنها للمجتمع مما ذكره أبو طالب هنا، راجعه ثَمَّ، كتاب الصُّلح ٧/ ٥ ـ ٥٥.

دارِه من خارج. قال: فأعرضَ عنهُ في المجلسِ، فاستنكرَ الشيخُ ذلك فقال: يا أبا عبد الله، هل بلغكَ عنِّي حدثٌ أحدثتُه؟ قال: نعم طيَّنتَ حائطَكَ من خارج. قال: أوَ لا يَجُوز؟ قال: لا؛ لأنَّكَ قد أخذتَ مِنْ طَرِيقِ المسلمينَ أنمُلةً. قال: فكيف أصنعُ؟ قال: إمَّا أن تَكشُطَ ما طيَّنته وإمَّا أن تهدمَ الحائطَ وتؤخِّرَهُ إلى وراء مقدارَ أُصبعٍ ثُمَّ تطينهُ مِنْ خَارِجٍ. قال: فهدَمَ الرجلُ الحائط، وأخَّرَهُ أصبُعًا، ثم طيَّنه من خارج. قال: فأقبل عليه أبو عبد الله كما كان.

ومما كَرِهَهُ السلفُ طَرْحُ السِّنَّوْر والدّابةِ على المزابلِ في الطرقات، فيتأذَّى المسلمون بروائحِ ذلك. وكان شُرَيحٌ وغيره إذا ماتَ لهم سنّور دفنوهَا في دُورهم.

ومثله إخراجُ الميازِيبِ وصبُّها إلى الطرقات. وكان الإمامُ أحمد بنُ حنبل رحمه الله وأهلُ الورعِ يجعلون ميازيبَهمْ إلى داخلِ دُورِهمْ.

وقال إبراهيم النخعي رحمه الله: كانَ أحدُهُمْ يكذبُ مرَّتينِ ولا يَشْعُر، يقول لشيءٍ لا شيءَ، ولشيءٍ ليس بشيءٍ[1]. يعني: قولُ الناسِ للشيءِ اليسيرِ الذي لا يوصفُ بكثيرٍ: لا شيء، فاستعظمَ هذا ورآه كذبًا مرتين.

وروينا عن عمر رضي الله عنه أنَّه قالَ لعوانة: كنتُ أَرْثِي لك من العمَى فصرتُ الآن أغبطك به. قال: وكيف؟ قال: صِرْتَ لا ترى أبا الصغرى بعينيكَ. مبتدع كانَ بالمدينة.

وقيل لقتادة: تَودُّ لو أنكَ بصير؟ فقال: لا، عَلَى مَن كُنتُ أفتح عينيَّ؟ بلْ لَو كانَ في وقتِ أصحابِ رسولِ الله ﷺ كنتُ أنظرُ إليهمْ.

وحدَّثونا عن الفضْل بنِ مهرانَ قال: قلتُ ليَحيى بن معينٍ: أخ لي يقعدُ إلى القُصّاصِ، فقال: انهَهُ، فقلت: لا يَقبلُ. قال: عِظْهُ، قلت: لا يقبل أأهجره؟ قال: نعم. قال: فأتيتُ الإمامَ أحمد بن حنبلٍ فذكرتُ له نحوَ ذلكَ فقال: قل لهُ يقرأ في المصحفِ ويذكر اللهَ تعالى في نفسه، ويطلبُ حديثَ رسول الله ﷺ. قلتُ: فإن لم يفعلْ، قال: بلى، إن شاءَ الله تعالى، فإن هذا الاجتماعَ محدثٌ.

(١) في (ط): «يقول: لا شيء إلا شيء، ليس بشيء» وأثبت ما في (ك).

قلت: فإن لم يقبلْ أأهجره؟ فتبسَّم وَسكتَ. وَسأل رجلٌ بشرَ بنَ الحارث رحمه الله تعالى عن مَسألة من علمِ القلوبِ فتوقَّف، ثمّ أجابهُ. ثمَّ سألهُ مسألةً أخرَى مِنْ علمِ المعاملاتِ، فسكتَ، ونظرَ إليه ثم قال: مَنْ تجالسُ مِنَ الناسِ؟ فقال: منصورَ بن عمارٍ، وابنَ السماك. فقال: ألا تستحى تسألنا عن علمِ القلوبِ ثم تجالسُ القصّاصَ؟ قال: وأعرَضَ عنهُ حتىَّ قلنا له: يا أبا نصر إنه لا بأسَ به، إنّه من أهلِ السنّة.

وقد كانُوا يكرهونَ الصلاةَ فى المقصورة، ويَروْنَ أنها أولُ بدعةٍ أُحدثتْ فى المساجدِ. ويكرهُون تزويقَ المساجدِ وكذا القِبْلة بالزخرف، وتحليةَ المصاحف، وهذا من البدع. وفى الخبر: «إذا ما زخرفتمْ مساجدَكم، وحلَّيتمْ مصاحِفكم، فَالدَّبارُ[1] عليكُمْ».

وقد كانوا يكرهون كثرةَ المساجدِ فى المحلّة الواحدة. وروى أنَّ أنسَ بن مالك رضى الله عنهُمَا لما دخَل البصرة جَعَل كلَّما خطَا خطوتينِ رأى مسجدًا. فقال: ما هَذه البدعة؟ لما كثُرت المساجد قلَّ المصلُّونَ. أشهد لقد كانت القبيلة بأسرهَا ليس فيها إلا مسجدٌ واحدٌ، وكان أهلُ القبائلِ يَتبانَوْنَ المسجدَ الواحِدَ فى الحىِّ من الأحياء.

واختلفوا فى أيِّهما يُصلَّى إذا اتفق مسجدان فى محلة. فمنهُمْ مَنْ قال: فى أقدمِهما. وإليه ذهبَ أنسُ بنُ مالكٍ وغيرُه من الصحابة. قال: وكانُوا يجاوزونَ المساجدَ المُحدثَة إلى المساجِد العُتُقِ. وكان الحسنُ يقول: يُصلِّى فى أقربِهما منه.

ويقال: أولُ ما حدث من البدعِ أربعٌ: الموائدُ، والمناخلُ، والأشنانُ، والشِّبعُ.

وكانوا يكرهُونَ أن تكونَ أوانى البيتِ غيرَ الخزف، ولا يتوضأ أهلُ الورع فى آنية الصُّفْر والنُّحاس. قالَ الجنيد: قال لى سَرِىٌّ السقطىُّ: اجتهدْ أن لا تَستْعملَ مِنْ آنيةِ بيتكَ إلا جنسَك. يعنى من الطين. ويقال: لا حسابَ عليه.

(١) أى الهلاك.

ومما كَرِهَهُ السلفُ: تشييدُ البناءِ بالجصِّ والآجُرِّ. يقال: أول من طبخ الطينَ هامانُ، أمرهُ به فرعونُ. ويقال: هو بناء الجبابرةِ.

وكرهوا النقوشَ والتزويقَ فى السقوفِ والأبوابِ، وكانُوا يغضُّونَ منَ النَّظرِ إلى ذلك. وغابَ الأحنفُ بن قيسٍ غَيبةً، فرجعَ وقد خَضّروا سقفَ بيتِه وصفّروه، فلمَّا نظرَ إليه خرَجَ من منزله وحلَف أن لا يدخله حتَّى يقلعُوا ذلكَ منه، ويُعيدوه كما كانَ.

وقال يحيى بن معاذ من أصحابِ الثوريِّ رحمه الله: كنتُ أمشى معَ الثوريّ فى طريقٍ فمررنا ببابٍ منقوشٍ مزوّقٍ فنظرتُ إليه، فجذبَنى سفْيانُ حتَّى جُزْتُ، فقلت: ما تكرَهُ من النظرِ إلى هذا؟ فقال: إنمَا بنَوْهُ ليُنْظَر إليه، ولَوْ كان كلُّ مَنْ مرّ به لا ينظُر إليه ما بَنَوْه. فكأنه خَشِى أن يكون بنظرِه إليه مُعاونًا له على بنائه.

ومما أحدَثَ الناسُ مما كانُوا يكرهُونهَ: الثيابُ الرقاقُ، مثلُ القَصَبِ ورقيقُ بزِّ مصرَ للنساء والرجال، وهو للنساء أكرهُ وأغلظُ، وكانُوا يقولون: الثيابُ الرّقاقُ لباسُ الفسَّاقِ، ومَنْ رقّ ثوبُه رقَّ دينُه. ويقولونُ: أول النُّسك الزىُّ.

وقال ابنُ مسعودٍ رضى الله عنه: لا يشبهُ الزىُّ الزىَّ حتَّى يشبهَ القلبُ القلبَ.

وخطبَ بشرُ بنُ مروانَ وعليه ثوبٌ رقيقٌ، فجعلَ رافعُ بن خديج رضى الله عنه يهزأ بهِ ويقول: انظروا إلى أميركم يعظُ الناسَ وعليه ثيابُ الفسّاق.

ولما جاء عبد الله بنُ عامر بن ربيعة فى بزَّته إلى أبى ذَرٍّ رضى الله عنه وسأله عن الزهد، وأخَذَ يتكلمُ فيه، فجعَل أبو ذرٍّ يُضَرِّطُ به فى كفِّه، ثم أعرضَ عنهُ ولم يكلِّمْه. فغضبَ ابنُ عامرٍ، وكان قُرَشيًا شَرِيفًا، وشكاهُ إلى ابنِ عمر رضى الله عنهُما، فقال له: أنت فعلْتَ بنفسِكَ، تأتى أبا ذرٍّ فى هذه الثيابِ وتسأله عن الزهدِ.

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ وقد وصَف نساءً يكنَّ فى آخرِ الزمانِ فقال: «كاسيات عاريات مائلات مميلات على رؤوسهنَّ أمثالُ أسنمةِ البقر ـ يعنى المعاجر والأكوار ـ لا يَجِدْنَ رائحةَ الجنةِ».

وكان ابنُ عباسٍ يفسر التبرّج أنه لِبسُ ما رقّ من الثياب، وقال في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾ [الأحزاب:٣٣] قال: كانت المرأة تلبسُ ثيابًا قيمتها كذا وكذا، لا توارى لها عورةً مما لا يجُوز فيه الصلاةُ؛ لأنه يَصِفُ أوْ يشفُّ، فمكروهٌ لُبْسُهُ. وإنَّما كَانَتْ ثيابُ السَّلَفِ: السنبلاني، والقَطَواني، وعَصْبَ اليمنِ، ومعافريَّ مصر، والقُباطيَّ؛ مثل كسوةِ الكعبةِ، والثياب السحولية اليمانية، والكرابيسَ الحضرميَّة؛ وهذه كلهَا غلاظٌ كثيفة. وكانتِ الأثمانُ من خمسةِ دراهمَ إلى ثلاثين ردهمًا وما بين ذلكَ. ثم أحدثَ الناسُ الثيابَ الرقاقَ من كتانِ مصر، وقطن خراسانَ. وكان طولُ مئزرِ رسول الله ﷺ أربعةَ أذرعٍ ونصفًا، وثمنُهُ إلى الأربعةِ والخمسةِ. وكانت أثمانُ ثيابهم القُمُص من الخمسةِ إلى العشرةِ وفيما بينهما من الثمن.

ولكن قد جَاء في الخبر: «لا تقومُ الساعة حتى يصيرَ المعروفُ منكرًا والمنكرُ معروفًا». وكان ابن عباسٍ رضى الله عنهما يقول: «لا يأتى على الناسِ عَامٌ إلا أماتُوا فيه سُنَّةً وأحْيَوْا فيه بدعةً حتى تموت السننُ وتحيا البدع». وإنما قيل: مُنْكر؛ لأنه لا يُعرَفُ، فإذا خَفِيَ الحق فلم يُعْرَفْ وَقَعَ عليه اسمُ منكرٍ. وكذلك قيل: معروف؛ لأنهُ مشهُورٌ مألوفٌ. فإذا فَشَا البـاطلُ وكثُر الجهلُ حتى أُلِف وعُرِفَ وقعَ عليه اسمُ المعروفِ. وكذلك قيلَ: يكثر الجورُ حتَّى يُولَدَ فيه مَنْ لا يعرفُ العدلَ.

وكان الشعبيُ رحمه الله يقول: يأتى على الناس زمانٌ يصلُّونَ فيه على الحجَّاج، وهذَا قد أتَى منذُ زمان؛ لأن الحجاجَ قد ابتدعَ أشياء أنكرَها الناس عليه في زمانه هيَ اليومَ سننٌ معروفةٌ، وأعمالٌ مستحسنةٌ، يترحَّمُ الناسُ ويغبطُون من أحْدثَها، ويحسبون أنه مأجور عليها، مشكور له سعيُه فيها، إلا أنهم لا يعرفُون أنه أحدثها. فهم وإن لم يَفُوهوا بالصلاة عليه قولاً (١) فإن استعمالَهم لما أحدث، واستحسانَهم لما ابتَدعَ، ترحُّمٌ منهم عليه؛ والترحُّمُ هو الصلاة.

(١) في (ك): «فهم وإن لم يفوهوا بذلك قولاً».

وأيضًا فإنه(١) ابتدعَ أشياءَ من الخيرِ وداخلةً فى أبوابِ الآخرة، ثم ظهرتْ ولاةٌ بعده أحدثوا أحداثًا من الجور، وابتدعوا بدعًا من الفسوقِ، فصارتْ سُننًا بعدهُمْ. فوجبَ بذلكَ الصلاةُ على الحجاج إلى جنبِ مَا أُظهِرَ بعده.

فممّا أحدثَ: هذه المحاملُ والقبابُ التى خالفَ بها هَدْىَ السلف بالتنعُّم والرفاهية، وإنَّما كان الناسُ يَخرجُونَ عَلَىَ الرَّواحِلِ والزواملِ، فَيَضْحَوْنَ للشمسِ، ويَنْصَبُون فى سبيل الله تعالى، ويَشْعَثُون ويَغْبرون، ويَقِلُّ أكلُهم ونومُهُم، وتكثرُ رفَاهيةُ الإبل، وتقلُّ المشقَّةُ والحملُ عليها، فيكون ذلك أثوبَ لهمْ، وأزكى لحجِّهم، وأدنَى إلى السلامةِ لإبلِهمْ، ويوافقون به سنّة نبيهم ﷺ، فأخرجَهُمْ من جميع ذلكَ بما أدخلهُمْ فيهِ من بدْعته، فصاروا يخرجُون فى بيوتٍ ظليلةٍ مع الحمل على الإبل ما لا تُطِيق، فيكونَ سببَ تلفها، فيَشْرَكُونه فِيه، ويَشْرَكُهم بسُنَّته(٢).

وابتدَعَ أيضًا هَذه الأخْمَاسَ، والعواشر، ورؤوسَ الآيِ، وحَمَّر السّوادَ، وخَضَّرَه، وصَفَّرهُ، فأدخلَ فى المصحفِ ما ليسَ فيهِ من الزُّخرف. وكان السلفُ يقولونَ: جرِّدوا القرآنَ كما أنزلهُ اللهُ تعالى، ولا تخلطُوا به غيرَه. فأنكر العلماءُ ذلكَ عليه، حتى قال أبو رُزينٍ: يأتى على الناسِ زمانٌ ينشأُ فيه نَشْءٌ يحسبونَ أنَّ مَا أحدثَ الحجاجُ فى المصاحفِ هكَذا أنزلَهُ اللهُ تعالى. يذمُّه بذلكَ. وحتَّى نُقِلَ الاخْتِلاَفُ، وأنَّ بعضَهُمْ كَانَ لا يَقْرأ فى مصحَفٍ منقوط بحُمرة، لأن بعضَهم كان لا يرى القراءةَ فى مصحفٍ منقوط. كما نُقل أنَّ بعضَهُمْ كان يرَى شراءَ المصحفِ، ويكرهُ بيعَهُ. أى: فكذلك إذا لم تَنقطْهُ أنتَ، فلا بأسَ أن تَقرأ فِيمَا نَقَطه غيرُك.

وقد كانوا يكرهُون أخذَ الأجرِ على تنقيط القرآن؛ لأجل أنه مبتدعٌ. وقال أبُو بكرٍ الهذليُّ: سألتُ الحسنَ رحمه الله عن تنقيطِ المصاحف بالأجْرِ. قال: وما تنقيطُها؟ قلتُ: يُعربون الكلمَ بالعربية. فقال: أما إعرابُ القرآنِ فلا بأسَ به. وقال خالد الحذاءُ: دخلتُ على ابن سيرين فرأيتُه يقرأ فى مصحفٍ منقوطٍ، وقد

(١) أى: «الحجاج».

(٢) أى: يشتركون معًا فيما ابتدعه الحجاج قديمًا وحديثًا.

كان يكرهُ النقطَ. وقال فراسُ بنُ يحيى: وجدتُ وَرَقًا منقوطًا بالنحوِ فى سجنِ الحجاجِ فعجِبْتُ منه، وكان أولَ نقطٍ رأيتُه، فأتيت به الشعبىَّ فأخبرتُهُ، فقال لى: اقرأ عليه ولا تنقطه أنتَ بيدك.

ومنها: أنه جَمَعَ مِنْ القرَّاءِ ثلاثين رجُلاً فكانوا يعدُّون حروف المصحف ويعدُّون كَلِمَهُ شهرًا. ولو رآهم عمرُ أو عثمان أو علىٌّ يصنعونَ هذا بالقرآن ـ أى يعدُّون حروفَهُ وكَلِمه ـ لأوجَعَ رؤوسَهُمْ ضربًا. وهذا الذى كَرِهَتهُ الصحابةُ، ووصَفُوا به قُرَّاءَ آخرِ الزمانِ أنهم يحفظُونَ حُروفَهُ ويضيِّعونَ حُدودَه. وكانَ الحجاجُ أقرأَ القرَّاءِ وأحفظَهُمْ لحروفِ القرآنِ، كان يختُم القرآنَ فى كلِّ ثلاثٍ، وكانَ أضيعَ الناسِ لحدوده.

ومنها: أنه ابتدعَ إخراجَ الحصَى والرملَ مِنَ المساجدِ وفرشَها بالبوارى[1]. كما رُوى أن قتادةَ سجدَ، فدخلتْ فى عينه قصَبة، وكانَ ضَريرًا، فقال: لعنَ اللهُ الحجاجَ، ابتدعَ هذه البوارىَّ يُؤذِى بها المصلِّين. وَقَدْ كانوا يستحبُّونَ السجُودَ على الأرضِ والترابِ تواضُعًا لله تعالى وتخشُّعًا وُذلاً.

إلى غير ذلكَ من بِدَعه التى لم نَقْصدْ تعديدها عليه ولا جمعها، فهىَ اليوم سننٌ معروفة وشرائعُ مألوفةٌ، معَ ما أحدثَ غيرُه مما يكثرُ عددُه، مُنْكَرٌ كلُّه عند مَنْ عَرَفَ المعروفَ من سيرةِ المتقدمينَ وشمائل الصَّالحينَ.

وقد قال ابنُ مسعودٍ رضى الله عنه: يظهر المنكرُ والبدعُ، حتى إذا غُيِّر منها شىءٌ قيل: غُيِّرت السنَّة. وقال فى آخرِ حديثه: أكيَسُهُمْ فى ذلكَ الزمانِ الذى يَروغُ بدينه رَوَغانَ الثعالب. وقد كان أنسُ بن مالكٍ رضى الله عنه فى سنة ثمانينَ وأيامَ الحجاجِ يقول: ما أعرفُ اليومَ شيئًا كانَ على عهدِ رسولِ الله ﷺ إلا قد غُيِّر إلا شهادةُ أن لا إله إلا اللهُ. قيل: فالصلاة يا أبا حمزة؟ قال: أو ليسَ قد أحدثُوا فى الصلاة ما علِمتُمْ؟! يعنى تأخيرَها والتثويبَ قبلها، وتعيُّن السلام، حتى أنهم يضاهُونَ به الإقامةَ فجعلُوه كالسنّة. وكان يقول للقرَّاءِ إذا دخلُوا عليه، مثلَ يزيدِ

(١) البوارى: الحصير من القصب.

الرقاشيّ، وزيادِ النميرىّ، وفرْقد السنجىّ: ما أشبَهكُمْ بأصحابِ محمدٍ ﷺ! فيفرحون. فيقولُ: نعم، رؤوسكُمْ ولحاكم. فهٰذا كما قال المجنون:

أما الخيامُ فإنّها كَخيامهِمْ وأرى نساءَ الحىِّ غيرَ نِسَائهَا

وعن جماعةٍ من الصحابة: لو نُشر أصحابُ رسول الله ﷺ ورأوكم لما عرفُوا شيئًا مما أنتمْ عليه الآن إلا الصلاةَ فى جماعة. وفى لفظ آخر: إلا أنكمْ تصلُّونَ جَميعًا. وكان الحسنُ يقولُ: صحبتُ طوائفَ لَوْ رأيتمُوهُمْ لقلتُم مجانينَ، ولو رأوا خِيَاركم لقالوا: ما لهؤلاءِ من خَلاق.

وقال أبو حازم: أدركتُ القرّاءَ وهم القرّاءُ حقًا، ولوْ كَانَ حَامِلُ القرآنِ فى مائة رجلٍ لعُرِف بشدة تواضعه وحسنِ سمته وخشوعه، وقد وقّره القرآنُ فى سَمْته، وقد خضّعهُ القرآنُ وأخشَعَهُ. فأما هؤلاء، فوالله ما هُمْ بالقرّاء، ولكنهم الجُرَّاءُ. وقد قالَ بعضُهم: كنا نَشْهَدُ الجنازةَ فلا نعرفُ صاحبَ المصيبةِ، ولا ندرى مَنْ نعزِّى مَن شدةِ حُزن القوم. قال: وكان أحدُهُم يبقَى بعدَ شهودِ الجنازةِ ثلاثًا لا يُنتفع به.

وكان الفضيلُ رحمه الله يحذّر من قرّاء زمانه فقالَ: إياك وصحبةَ هؤلاء القرّاء، فإنكَ إن خالفتَهم فى شىءٍ كفَّروكَ. وقال سفيانُ الثورىُّ رحمه الله: ما شىءٌ أحبُّ إلىَّ من صحبةِ فتًى، ولا شىء أبغضُ إلىَّ من صحبةِ قارئ. وكان كثيرًا يقول: مَنْ لم يُحسنْ يتغنَّى لم يُحسن يتقرّى.

وكان بِشْرُ بنُ الحارث يقول: لأن أصحبَ فتًى أحبُّ إلىَّ من أن أصحبَ قارئًا، فإياك وصحبةَ القرّاء، فإنهمْ يذمُّونَ غيرَ مذمومٍ، وإن تركتَ الصّلاةَ معهُمْ فى جماعةٍ تشاهدُوا عليكَ.

كُلُّ ذلك، لأنهم يجاوزُون الحدَّ فى الشىء، ويسرعُون الإنكارَ إلى كلِّ شىء، لغلبة الجهلِ عليهم، وقلة مجالستهِمْ للعلماء ومعاناتهِمْ للعلْمِ، وإنهم موصُوفون بدقائقِ الرياءِ والتصنُّع للعامة، فيُنكرونَ غيرَ مُنْكَرٍ، ويتعصبونَ بالبُغْضَة والهجرِ فى الشىءِ اليسيرِ الذى قد يُغتفَرُ مثلُه. وهُمْ غيرُ موصوفِين بمحاسنِ الأخْلاقِ، ولا

موسُومينَ بالبشاشةِ والانطلاق، إذ فيهمْ كَزازةٌ، وتغليظٌ على الناس ولزازةٌ، وحنَقٌ على الأغنياء، حتى كأنهُمْ يأكُلون أرزاقَهُم، وكأنهم يعملونَ العبادةَ لهمْ. وفيهمْ كثرةُ مقتٍ لأهلِ البِشْرِ والطّلاقة، فلذلك قال بعضهم: الشريفُ إذا تقرّى تواضَع، والوضيع إنْ تقرَّى تكبَّر. وقال آخر: السِّفْلة إذا تقرَّى أكثرَ الأمرَ بالمعروف واعترضَ على جيرانه فى كل شىء. يعنى: أكثرَ الأمرَ بالمعروف؛ ليُعرفَ به؛ فمن أجلِ ذلك رفضَهُمُ العلماءُ، وذمَّهُمُ الحكماءُ؛ لأن العلمَ ينبسطُ ويتوسَّعُ، وتكونُ معه الأخلاقُ الحسنةُ والآدابُ والمروءاتُ الواسعةُ.

والعالمُ يضعُ الأشياءَ فى مواضعها من الناس، ولا يجاوزُ بها ولا بهمُ المقاديرَ، ويَسْتخْرجُ لهم المعاذير. ومن صفَةِ العلماءِ الانقباضُ فى بسط خُلُقٍ. وقد قالَ الإمامُ الشافعىُّ رحمه الله: الانقباض على الناس مكسبَةٌ لعداوتهمْ، فكُنْ بين المنقبضِ والمنبسط. وفى الخبر: «إنكم لا تَسعُونَ الناسَ بأموالكُمْ، فليَسعْهُمْ منكُم وَجْهٌ طَلْقٌ، وخُلُقٌ حَسنٌ». وفى لفظِ آخرَ: «وبِشْرٌ وبشاشةٌ». وهذا كلُّه معدومٌ من القرّاء ولا يعرفُونَهُ. وقَدْ جعلَ الله تعالى لكلِّ شىءٍ قَدْرًا، فمَنْ تعدَّى حَدَّ الشىءَ فقد أفسده. وقال بعضُ السلَفِ: قليلُ التواضُع يكفِى من كثيرِ العمَلِ، وقليلُ الورعِ يكفِى من كثيرِ العلم.

ومن أخلاق السّلف مما تهَاون به الخلفُ: أنّهم كانوا يعدّون من النفاق أن يتكلمَ الرجلُ فيمَنْ يكلِّمُه، أو يكلِّمُ مَنْ تكلَّم فيه؛ لأنهُمْ كَانُوا إذَا كلّمُوا أحَدًا أو سلّموا علَيه سَلمتْ له قلوبُهم، ولم يتكلّموا فيه. وإذا تكلّموا فى أحدٍ لبدْعته أو ظهورِ فسْقه لم يكلِّموه، وكانوا إذا مدَحُوا أحدًا بقولٍ لم يذمّوه بفعل، وإذا ذمُّوا واحدًا بفعلٍ لم يمدحوه بقولٍ؛ لأنّ فى ذلكَ لسانينِ واختلافَ وجهينِ، واختلافَ سرٍّ وعلانيةٍ.

وكانوا يقولون: معنى: «سلامٌ عليكَ» إذا لقيتَه، أى سَلِمْتَ منى أن أغتابكَ وأذمَّكَ، فكان اختلافُ هذا عِنْدهُم مِنْ أبوابِ النِّفاقِ.

ورُوينا عن رسول الله ﷺ: «شرُّ الناسِ ذُو الوجهينِ الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاءِ بوجهِ». وفى حديثِ آخرَ: «مَنْ كان ذا لسانينِ فى الدنيا جعلَ اللهُ لهُ يومَ

القيامةِ لسانينِ من نار».

وكان بعضُهُم يقول: ما ذُكرَ عندى إنسانٌ قط إلا مثَّلتُه جالسًا فقلتُ فى غيبته بما يحبُّ أن يَسْمع. وقال آخر: ما ذُكر عندى رجلٌ إلا تصورَّتُ فى نفسِى مثالَهُ، فكلُّ ما أحبُّ أن يقالَ لى قلتُهُ لهُ.

وقال بعض السلفِ: قليلُ التواضع يكفِى عَنْ كثيرِ العملِ، وقليلُ الورعِ يكفى عن كثيرِ العلم.

فهذه كانتْ صفاتُ المسلمِينَ الذينَ يُسلِمُ الناسُ على أيديهم وقلوبهم. كانَ أحدُهم إذا ذُكر عنده غيرُه بسوءٍ وقَفَ وتفكّر فى شأن نفسه، فإنْ كان فيه مثل ذلك السوءِ قطعهُ الحياءُ عن الكلامِ فى أخيه فسكتَ، وإن لم يكن ذلك فيه حَمِدَ اللهَ عزّ وجلّ ورحمَ أخاه، فشغلهُ الشكرُ لمولاه؛ إذ عافاهُ. فهذه كانت سيرة السلف.

ويقال فى بعض كتب الله تعالى: عجبًا لمن قيلَ فيه الخيرُ وليسَ فيه كيف يفرح؟ ولمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب؟ وأعجَبُ من ذلكَ مَنْ أحبَّ نفسَه على اليقينِ، وأبغض الناسَ على الشكِّ.

ومن طريقة السلفِ مما كانوا يشدّدون فيه حبُّ المدح وطلبُ الحمدِ، حتَّى قال بعضُهُمْ: من أحبّ المدحَ وكَرِهَ الذمَّ فهو منافقٌ.

وقال عمرُ رضى الله عنه لرجل: مَنْ سيِّد قومِك؟ قال: أنا. قال: لو كنتَ كذلكَ لم تقلْ.

وكتب محمدُ بن كعب فانتسب فقال: القرظى، قيل له: قل الأنصارى. قال: أكره أن أمُنَّ على الله عزّ وجلّ بما لم أفعلْ.

وقال الثورىُّ رضى الله عنه: إذا قيل لَكَ بِئْسَ الرجلُ أنتَ تغضبُ فأنت بِئْسَ الرجل. وقال آخر: لا يزال فيك خيرٌ ما لم تَرَ أن فيك خيرًا. وسُئِلَ بعضُ العلماءِ: مَا عَلاَمَةُ النفاقِ؟ قال: الذى إذا مُدِحَ بما ليسَ فيه ارتاحَ لذلك قلبُه.

وكان سفيان رضى الله عنه يقول: إذا رأيتَ الرجلَ يحب أن يحبَّه الناسُ كلُّهُمْ

ويكرهُ أن يذكُرَهُ أحد بسوءٍ، فاعلمْ أنّه منافق.

فهذا داخل فى وصف الله تعالى المنافقينَ بقوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ [النساء: ٩١]. فينبغى لمن أمِنَ فى أهل السُّنة أن يخافَ فى أهلِ البدعِ، وهذا مما دخَل على القرّاءِ الذين ذمّهم العلماءُ مداخلَ الليلِ فى النهار.

ولعلَّ مغرورًا جَاهلاً يتأوّلُ الحديثَ الذى جاء: «إذا مُدِحَ المؤمنُ ربَا الإيمانُ فى قلبِه» على غيرِ تأويله، ويَحملُه على غيرِ مَحْمَلِه، فإنَّما قال: «ربَا الإيمَانُ» ولم يقل: ربَا المؤمنُ. فرُبوُّ الإيمان زيادتُه، وزيادتُه بالخوف والإشفَاق مِنَ المكرِ به والاستدراجِ. وَفيه طريقٌ للعارفينَ بأنْ يعلوَ الإيمانُ المُعلَّى إلى المولى الأعلَى[1]، فيفرحُ بذلكَ لمولاهُ ويضيفُه إلى سيده الذى به تولاّه، فيردُّ الصنعةَ إلى صَانعهَا، ويشهدُ فى الفطْرة فاطرَهَا، فَيكونُ ذلكَ مَدْحًا للصانع، ووَصفًا للفَاطر، لا ينظرُ إلى نفسه، ولاَ يُعْجَبُ بِوَصْفِهِ. وهذه طُرُقَاتٌ قدْ درسَتْ وانقَطَعَ سُلاَّكُها إلا مَنْ رَحِمَ ربُّكَ.

باب تفضيل علم الإيمان واليقين على سائر العلوم والتحذير من الزلل فيه، وبيان ما ذكرناه

اعلم أن كلَّ علمٍ من العلومِ قد يتأتّى حفظُه ونشرُه لمنافقٍ أو مبتدعٍ أو مشركٍ إذا رغبَ فيه وحرصَ عليه؛ لأنه نتيجةُ الذهنِ وثمرةُ العقلِ، إلا علمَ الإيمانِ واليقينِ، فإنَّه لا يتأتّى ظهورُ مشاهدته والكلامُ فى حقائقه إلا لمؤمنٍ مُوقنٍ مِنْ قِبَلِ أن ذلك تقريرُ مزيدِ الإيمانِ وحقيقةُ العلمِ والإيقانِ، فهُوَ آياتُ الله تعالى وعهدُهُ عن مكاشفة قدرته وعظمته. وآياتُ الله تعالى لا تكون للفاسقين، وعَهْدُه لا ينال الظَّالمين، وعظمتُه وقدرتُه لا تكونُ شهادةً للزائغينَ ولا وَجْدًا للمبطلين؛ إذ فى ذلك توهينٌ لآياتِ اللهِ وحججِهِ، وانتقاصٌ لبراهينه وقدرتهِ، ودخولُ الشكِّ فى

(١) فى (ط) «يعلو الإيمان العلى إلى المؤمن الأعلى» وأثبت ما فى (ك).

اليقينِ الذى هو محجةُ المخلصين(١)، والذين هم بقيةُ الله تعالى من عباده، واشتباهُ الباطلِ بالحقِّ الذى هو وصفُ أهلِ الصدقِ الذينَ هم أدلَّتُه عليه مِنْ أهلِ وداده، وهذا مِنْ أدلِّ دليلٍ على فضلِ علمِ المعرفةِ على غيرِه، قالَ اللهُ عزّ وجلّ: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِى إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧]. وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر:٧٥]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:١١٨]. وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٠٥].

فهؤلاء العلماءُ بالله تعالى، الناطقُونَ عن الله عزّ وجلّ، جعلَ لهمْ أنصبةً منهُ، ومكانًا عنده. ولا يكون ذلكَ لمن لَيْسَ أهلاً لهُ، ولا حَقِيقًا به؛ لأنّهم آياتُ الله تعالى وبيناتُه وشهودُه وبصائرُه(٢)، كاشِفُو طَرِيقِه، ومُظْهِرو بيانه؛ إذ يقولُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة:١٩]. وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن:٣ ـ ٤]، بعد قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، معَ قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح:٢٦]. فنصرُوهُ بِمَا نصرَهُمْ به، وتحقَّقوا بِمَا حقَّقهمْ منهُ، وشَهِدوا له ما شَهِد لهم عنه، فكانُوا للمتقين إِمامًا، وإلى الهِدايةِ أعلامًا.

وقال بعضُ أهلِ المعرفةِ: مَنْ لم تكنْ له مشاهدةٌ مِنْ هَذا العلمِ لم يَعْرَ مِنْ شرْكٍ أو نفاقٍ؛ لأنه عارٍ من علمِ اليقينِ، ومن عَرِىَ من اليقينِ وُجِدَ فيه دقائقُ الشكِّ. وقالَ بعضُ العارفينَ: مَنْ لم يكن له نصيبٌ من هذا العلم أخافُ عليه سوءَ الخاتمة. وأدنَى النصيب منه التصديقُ به وتسليمُه لأهله. وقال آخر: مَنْ كان فيه خَصْلتانِ لم يُفتَحْ له من هذا العِلمِ شىءٌ: بدعةٌ أو كِبْرٌ. وقالت طائفةٌ من أهله: مَنْ كان محبًا للدنيا أو مُصرًا على هوًى لم يتحقق به.

---

(١) فى (ك): «المتقين».

(٢) فى (ك): «وطرقاته».

وقال أبو محمد سهل: أقلُّ عقوبةِ مَنْ أنكرَ هذا العلمَ أن لا يُرزقَ منه شيئًا أبدًا.

واتفقوا على أنّه علمُ الصديقينَ، وأنَّ مَنْ كانَ له منهُ نصيبٌ فهوَ من المقربينَ، وينالُ درجةَ أصحابِ اليمينِ.

واعلم أنّ علمَ التوحيد ومعرفةَ الصفاتِ مباينٌ لسائرِ العلوم. فالاختلافُ فى سائرِ العلومِ الظاهرةِ رحمةٌ، والاختلافُ فى علمِ التوحيدِ ضلالٌ وبدعةٌ، والخطأ فى علْمِ الظاهرِ مغفور وربَّما كَانت حسنةً إذا اجتهَد، والخطأ فى علمِ التوحيدِ وشهادةِ اليقين كفرٌ، من قِبَلِ أنّ العبادَ لم يُكلَّفوا حقيقةَ العلمِ عند الله تعالى فى طلبِ العلم الظاهر، وعليهم واجبُ طلبِ موافقة الحقيقة عندَ الله فى التوحيدِ. ومنِ ابتدَعَ شيئًا رُدَّتْ عليه بدعتُهُ، وكان مَسؤولاً عَنهُ، ولم يكنْ حجةً لله تعالى على عباده، ولا غيثًا نافعًا فى بلاده، بلْ كانَ موصُوفًا بالدنيا وفيها من الراغبين، ولم يكن دليلاً على الله عزّ وجلّ، ولا من دعَاة الدين، ولا إمامًا للمتقينَ. وقد جاءَ فى الخبرِ: «العلماءُ أمناءُ الرسلِ ما لم يدخلوا فى الدنيا، فإذا دخلوا فى الدنيا فاحْذَرُوهمْ على دِينكم»، والخبر المشهور: «من أحْدَثَ فى دِيننا ما ليسَ فيه فهُو رَدٌّ».

وقد رُوينا عن عيسَى عليه السلام وقيل له: مَنْ أشدُّ الناس فتنةً؟ فقال: «زَلَّةُ عالِم إذا زَلَّ زلَّ بزلَّته عالَم».

وقد رُوينا معناه عن نبينا محمدٍ ﷺ: «مما أخافُ على أمَّتى زَلَّةُ عالمٍ، وجِدالُ منافقٍ فى القرآن».

وكان بعضُ السلفِ يقول: مَثَلُ العالمِ إذا زلَّ مَثَلُ سفينة إذا غَرِقتَ غرِقَ معها خلقٌ كثيرٌ، ومَثَلُ كُسوفِ الشمسِ، يَصيح الناسُ: يا غَافلُون الصَّلاةَ، وإنّها عِندَ العامَّةِ آيةٌ يُفزَعُ منها.

ويُروَى فى خبرٍ غريب: «مَنْ غَشَّ أمتى فعَليه لَعْنةُ الله والملائكةِ والناسِ أجمعين. قيل: يا رسولَ الله، وما غِشُّ أمتِك؟ قال: أن يبتدعَ بدْعةً فى الإسلامِ

يحملُ الناسَ عليها». وكان ابنُ عباسٍ رضى الله عنه يقول: ويلٌ للعالِم من الأتباع، وويل للأتباع من العالِم، يزِلُّ العالِمُ بزلة فيتبعُه عليها فِئامٌ من الناس، وتبلغُ الآفاقَ.

وما أعلمُ أحدًا أعظمَ جُرْمًا ممن ابتدعَ فى دينِ الله عزّ وجلّ، فنطَقَ فى كتاب الله تعالى وفى علمِ المعرفةِ بما لم يأذَنْ به الله، ثم لم يَعْبأ بسننِ رسولِ الله ﷺ الذى هُوَ حجَّةُ الله تعالى على جميع خلْقه، وطريق مقرَّبيه من عباده، فأضلَّ بذلكَ عبادَ الله عزّ وجلّ. فإنَّ مَثَلَ مَنِ ابتدعَ فى الدين واتّخذَ وليجةً دون الكتابِ والسنّةِ ومن[1] طريق المؤمنين إلى جَنْبِ مَنْ يكاثرُ فى أمورِ الدنيا وارتكبَ فيهَا شهواتِ الأهواءِ ـ كَمَثَلِ من اجترحَ المظالمَ بينَ الناس فى الأموالِ والدماء، إلى جنبِ مَنْ ظلمَ نفسَه بكسْبِ الذنوب بينَهُ وبينَ ربّه. إنَّ مظالمَ العبادِ أعظَمُ، وهوَ الدِّيوانُ الذى لا يُتركُ، كذلكَ التمويهُ فى الدِّين أعظمُ، لأنهُ مظالمُ الآخرَةِ وقطْعُ طرقاتِ المؤمنين ومحوُ شريعةِ المرسلين[2].

ومَثَلُه أيضًا مَثلُ من أذنبَ وجَحَدَ ذنبَهُ واحتجَّ لنفْسِهِ إلى من أذنَبَ، واعترفَ بذنبِهِ واعتذرَ من نفسِهِ، فهُوَ أقربُ للعفوِ وأرجى للرحمةِ من الآخر.

كذلكَ من اعتلَّ بالتقصيرِ والتفريطِ فى العلمِ ولم ينصحْ لنفسِهِ إلا أنه أظهرَ حقيقةَ العلمِ ونصحَ لله تعالى ولرسولِه ببيان كتابه وذكرِ سنته أقربُ إلى حُسْنِ الإخلاصِ، وأوْلى بالتدارُكِ فى العافيةِ ممن شرَعَ فى دينِ الله تعالى وابتدعَ فى الأمة ما يُخَالفُ به الكتابَ والسنّةَ. هكذا كأنهُ قد قلَبَ ملَّةً وبدَّلَ شريعةً. فهذا يولِّدُ النفاقَ فى قلبِهِ حتَّى يُخْتَمَ لهُ بِهِ.

ومَثَلُ من ابتدَعَ فى الملّة مخالفًا للسنة[3]، إلى من أساء إلى نَفْسِه بالذنوب، مَثَلُ مَنْ عصَى الملِكَ فى قلبِ دولتِه، وتظاهرَ عليه فى ملكِهِ بالإزالةِ، إلى جنْبِ من

(١) فى (ط): «وبين» وأثبت ما فى (ك).

(٢) عبارة (ك): «كذلك التمويه فى الدين يتعاظم لأنه مظالم الدّين ومظالم الرسل كهذه مظالم الخلق».

(٣) فى (ك): «لسنة رسول الله ﷺ».

عَصَى أمرَهُ، وقصَّرَ في حقِّه منَ الرعيَّة. وقَدْ قال بعضُ الحكماء: ثلاثٌ لا يَحْسُنُ من الملك أن يغفرَها: من قلبَ دولةً من رعيته، أو عَمِلَ فيما يُوهِنُ المُلْكَ، أو أفسَدَ (١) حرمةً من حُرَمه.

وروينا عن النبى ﷺ: «إن لله تعالى ملكًا ينادى كلَّ يومٍ: مَنْ خالفَ سنّةَ رسولِ الله ﷺ لم تنلْه شفاعتُه». وقال على كرّم الله وجهه: الهوى شريكُ العمَى. وقال الله تعالى ومن أصدق من الله قيلاً: ﴿ومَنْ أظلَمُ ممَّنِ افترى على الله كَذبًا﴾، ثم قال تعالى: ﴿أوْ قَالَ أُوحِىَ إلىَّ ولَمْ يُوحَ إليه شَىءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أنزلَ اللهُ﴾ [الأنعام:٩٣]، فسَوّى بينَ الكذَّابِ فى الفِرْيَةِ على الله تعالى وبين المتشبهِ المضاهِى للربوبيَّة.

وكذلك مِنْ أعظم المنكرِ بعد هذا إنكارُ الحقّ من أهله وردُّه عليهم بالتكذيب. وقد سوّى تعالى أيضًا بين التكذيبِ بالحقّ وبينَ ابتداء الكذبِ على الخالق فى قوله عزّ وجلّ: ﴿ومَنْ أظلَمُ ممَّنِ افْتَرَى على الله كَذبًا أَوْ كَذَّبَ بالحَقِّ لَمَّا جاءَهُ﴾ [العنكبوت:٦٨]. وقال تعالى فى مثله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى الله وَكَذَّبَ بالصِّدْقِ إذْ جاءَهُ﴾ [الزمر:٣٢]. كذلك أيضًا فى ضده سَوّى، كما سَوّى عزّ وجلّ بين الصادق بالصدْقِ والمصدِّق به فقال تعالى: ﴿والذى جاءَ بالصِّدْقِ وَصدَّقَ به أُولئكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر:٣٣].

قال رسولُ الله ﷺ: «العالمُ والمتعلِّمُ شريكان فى العلمِ». وقال عيسى عليه السلام بمعناه: «المستمعُ شريكُ القائلِ».

ولكنّ الله تعالى قد جعلَ هذه الطائفةَ من أهلِ العلمِ بالله تعالى تردُّ على جميعِ الطوائف من الشَّاطحينَ والمبتَدعينَ أهل الجهالة بالدِّين والحَيْدَةَ عن سبيلِ المؤمنينَ بمَا أراهُم اللهُ تعالى من علم اليقين، وبمَا شهدَ لهُم رسُولُ الله ﷺ بالعلمِ والتعديل فى قوله: «يَحمل هذا العِلْمَ مِنْ كلِّ خَلَفٍ عُدُولُه، يَنفُونَ عنهُ تحريفَ

(١) فى (ك): «إفساد».

الغالينَ وانتحالَ المبطلينَ وتأويلَ الجاهلين». فالغالُونَ: هم الشاطحُونَ؛ لأنهم قد جاوزوا العلمَ، ومَحوُا الرسْمَ فأسقطُوا الحكْمَ. والمبطلونَ: هم المدّعُون المبتدعُون؛ لأنَّهُمْ جَادلوا بالباطِلِ ليَدحَضُوا به الحقَّ، وافتروْا بالدعوَى، وابتدعُوا بالرَّأى والهوى. والجَاهلُون: هُم المنكرونَ لغرائبِ العلم، المفترونَ لما عَرَفُوا من ظاهرِ العقلِ. كما روينا عن النبى ﷺ: «إنَّ منَ العلمِ كَهَيئة المكنونِ لا يَعلمُه إلا أهلُ المعرفة بالله عزّ وجلّ». فإذا نطقُوا به لم يَجْهَلْه إلا أهلُ الاغترار بالله تعالى. ولا تُحقِّروا عَالمًا آتاهُ اللهُ تعالى علْمًا، فإنَّ الله عزّ وجلّ لم يُحقِّرهُ إذ آتاهُ.

وكلُّ من تأوَّل السنن بالرأى أو المعقول، أو نطق بمَا لم يسبقْ إليه السلفُ من القَول أو بمعناهُ فهو متكلِّفٌ مبطلٌ. فأهلُ العلمِ بالله تعالى يردّون علومَ المعقولِ بعلمِ اليقينِ، وعلمَ الرأى بعلم السنَّةِ، يثبِّتون أهلَ الآثارِ، ويؤيدُونَ نَقَلَةَ الأخبارِ، بمَا يُفصِّلُونَ منْ أخبارهِمْ، ويفسِّرُون من حديثِهم، مما لم يُجعَلْ للنَّقَلةَ طريقٌ إليه، ولم يهتدِ الرُّواةُ إلى كشْفِ منهُ بمَا أشهدَهُمُ اللهُ عزّ وجلّ، واستودَعهُمْ، ونوَّرَ به قلوبَهُمْ ونطَّقهُمْ، فهم ينطقُون عن الله سبحانه وتعالى فيما يُخبرون عنه، ذَلكَ فَضْلُ الله يُؤْتيهِ مَنْ يَشَاءُ: ﴿**وجَعَلْنا منْهُمْ أئمَّةً يَهْدُونَ بأمْرنَا لَمَّا صَبَرُوا وكانُوا بآياتنا يُوقنُون**﴾ [السجدة: ٢٤].

وقد قال بعضُ العلماء: ما تكلّم فِيه السلفُ فالسكُوتُ عنه جَفَاءٌ، وما سَكَتَ عنهُ السلفُ فالكلامُ فيه تكلفٌ. وقال آخر: الحقُّ ثقيلٌ، من جاوزَهُ ظَلَمَ، ومَنْ قَصُرَ عنه عَجزَ، ومن وقف معه اكتفَى. وقال علىٌّ رضى الله عنه: عليكُمْ بالنَّمطِ الأوسَط الذى يَرْجعُ إليه العَالى، ويرتَفعُ عنه القَالى.

وهكذا سيرةُ السَّلَف أنه لا يُستمَعُ إلى مبتدعٍ لأنه مُنكَر، ولا يُرَدُّ عليه بالجدالِ والنظرِ لأنه بدْعَةٌ، ولكن يُخبَرُ بالسُّنَن، ويُحْتَجُّ بالأثرِ، فإنْ قِيلَ: فَهُوَ أخُوكَ فى الله عزّ وجلّ، ووجبت عليك موالاتُهُ، وإن لم يَرْجِعْ وأنكر نُقِضَ بإنكاره، وعُرِّفَ ببدعته، وحقَّتْ عداوتُه، وهُجرَ فى الله تعالى. وهذا طريقٌ لا يَسْلُكُه فى وقتنا هذا إلَا من عَرَفَ فضْلَهُ وطريقةَ السلفِ فيه.

وحُدِّثتُ عن إبليس ـ لعنه الله ـ أنه بثَّ جنودَهُ فى وقت الصحابة، فرجَعُوا إليه محسُورين، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: ما رأينا مثْلَ هؤلاء القوم، ما نُصيبُ منهُمْ شيئًا، قد أتعبونا. فيقول: إنَّكُمْ لا تَقْدِرُونَ عليهمْ قد صحبُوا نبيَّهُمْ، وشهدوا تنزيلَ ربّهم، ولكن سيأتى بعدهم قومٌ تنالُونَ منهم حَاجَتكم. فلما جاء التابعُون بثَّ جنودَه فيهم فرجَعُوا إليه منكسرين منكُوسين، فقال: ما شأنُكمْ، قالُوا: ما رأينا أعجَبَ من هؤلاء القوم، نصيبُ منهم الشئَ بعدَ الشيءِ من الخطايا، فإذا كان من آخر النهارِ أخذُوا فى الاستغفار فتُبدَّل سيئاتُهم حسنات، فقال: إنكم لن تنالوا من هؤلاء شيئًا لصحَّة توحيدهم، واتباعهم سنّة نبيهمْ، ولكن سيأتى بعد هؤلاء قومٌ تَقرُّ أعينُكم بهم، تلعبُونَ بهم لَعبًا وتقودونهُمْ بأزمَّة أهوائهم كيف شئتم؛ إن استغفرُوا لم يُغْفَرْ لهُمْ، ولا يتُوبون فتُبدَّلْ حَسناتُهمْ سيئات. قال: فجاء قومٌ بعد القرنِ الأول، فبعثَ فيهمُ الأهواءَ، وزيَّن لهمُ البدعَ، فاستحَلُّوهَا واتخذوها دينًا، لا يستغفرون منها، ولا يتوبون إلى الله. قال: فتسلَّطتْ عليهمُ الأعداءُ، وقادَتْهم أينَ شاؤوا.

وقد قالَ ابن عباسٍ رضى الله عنه: إن للضلالة حلاوةً فى قلوبِ أهْلِها.

وقد قال اللهُ تعالى: ﴿**اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا**﴾ [الأنعام: ٧٠]. وقال تعالى: ﴿**أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا**﴾ [فاطر: ٨]. كما قال تعالى: ﴿**أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ**﴾ [هود: ١٧].

فالعلمُ ـ رحمك الله ـ هُو الذى كان عليه السلفُ الصالحُ المقتَفى آثارُهم، والخلَفُ التابعُ المقتَدى بهَدْيِهمْ. وهُمُ الصحابةُ أهلُ السَّكِينة والرِّضَا، ثم التابعُون لهم بإحسانٍ من أهلِ الزّهدِ والنُّهى.

والعالمُ هو الذى يدعُو الناسَ إلى مثل حاله حتَّى يكُونوا مثلَه، فإذا نظروا إليه زَهدُوا فى الدُّنيا لزُهْده فيها، كما كانَ ذو النُّون رحمه الله يقول: جالسْ من يكلِّمُكَ علْمُه لا مَنْ يكلِّمُكَ لِسَانُه. وقد قال الحسن رضى الله عنه قبلهُ: عِظِ الناسَ بفِعْلِكَ ولا تَعِظْهُمْ بقولك.

وقال سهلٌ رحمه الله: العلمُ يهتفُ بالعَمل، فإن أجابه وإلا ارتحلَ. وقد روينا معنى ذلك عن رسول الله ﷺ أنه قيل له: «أيُّ جلسائنا خير؟ فقال: مَنْ ذكَّركُمْ بالله تعالى رؤيتُه، وزاد فى علمكُم مَنْطقُه، وذكّركُمْ بالآخرة عملُه».

فأمّا الذى يطلبُ دنياهُمْ حتَّى يكونَ مثلَهُمْ، فإذا رأوهُ اغتبطوا بحالِهِمْ، فهذا شرٌّ منهم، لأنه يدعُو إلى نفسِه لا إلى مولاه؛ ولأنه طامعٌ فيهم وهُم زاهدون فيه.

فالعلماءُ الذين هُم ورثةُ الأنبياء همُ الورعون فى دين الله عزّ وجلّ، الزاهدون فى فضولِ الدنيا، الناطقُونَ بعِلمِ اليقينِ والقدرة لا عِلْمِ الرأى والهوى، والصائمون[1] عن الشّبهَاتِ والآراء، لا يختلفُ هذا إلى يومِ القيامةِ عندَ العلماءِ الشّهداءِ على الله تعالى برأىِ قائلٍ، ولا بقولِ مُبطلٍ جاهلٍ.

كما رُوى عن عبد الله بن عمر، عن النبى ﷺ: «صَلُح أولُ هذه الأمةِ بالزهْدِ واليقين، ويَهلكُ آخرُها بالبخلِ والأملِ».

وقال يوسفُ بنُ أسباطٍ: كتبَ إلىَّ حُذَيفةُ المرعشى: ما ظنُّكَ بمن قد بَقِىَ لا يجدُ أحدًا يذكُر الله تعالى معه إلا كان آثمًا وكانت مذاكرتُه معصيةً؛ وذلك أنه لا يجدُ أهله. قلت ليوسف: يا أبا محمدٍ، وتعرفهُمْ؟ قال: لا يَخْفَوْنَ علَينا.

ويقال: إن الأبدالَ إنّما انقطَعُوا فى أطرافِ الأرضِ، واستتروا عن أعينِ الجمهورِ؛ لأنهُمْ لا يطيقونَ النظرَ إلى علماءِ هذا الوقتِ، ولا يصبُرون على الاستماع لكلامهم؛ لأنهُم عندهم جهّالٌ بالله تعالى، وهم عِندَ أنفسهِمْ وعند الجاهِلينَ علماء، فقد صاروا من أهلِ الجهل. وأهلُ الجهل بالجهلِ على الوصف الذى قال سَهْلٌ رحمه الله: إن منْ أعظمِ المعاصى الجهلَ بالجهلِ، والنظرَ إلى العامة. واستماعُ كلام أهلِ الغفلة أيسرُ عندهم؛ لأنهُمْ لا يَعْدمُونَ ذَلكَ حَيثُ كانوا من أطراف الأمصار؛ لأنّ العامةَ لا يموّهون فى الدين، ولا يغرُّون المؤمنين، ولا يدَّعُونَ أنهمْ علماء؛ لأنهم يتعلَّمُونَ، وبالجهْلِ معترفُونَ، فهم إلى الرحمةِ أقربُ، ومن المقتِ أبعدُ.

---

(١) فى (ط): «والصامتون».

وكان أبو محمد أيضًا يقول: قسوةُ القلب بالجهلِ بالعلمِ أشدُّ من القسوةِ بالمعاصِي؛ لأن الجاهلَ بالعلم تاركٌ ومدّعٍ، والعاصى بالفعل مقرٌّ بالعلمِ. ويقول أيضًا: لأنّ العلمَ دواءٌ به تصلُحُ الأدواء، فهو يُزيل فسادَ الأعمالِ بالتداركِ، والجهلُ داءٌ يُفْسِدُ الأعمالَ بعد صلاحِها، فهو يزيل الحسناتِ فيجعلها سيئات. فكمْ بينَ ما يُصْلِحُ الفاسدَ وبينَ ما يُفسِدُ الصالحات؟ وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

فهذا من أدلِّ دَليلٍ على فضلِ العالِم المقصِّر على العابدِ المجتهدِ.

واعلم أنَّ العبدَ إذا باينَ الناسَ فى كلِّ شيءٍ من أحوالهم انفردَ عن جمعهم، ولم يألفْ أحدًا منهم. وإن باينهُمْ فى أكثرِ أحوالهم اعتزلَ عنِ الأكثرِ منهُم. فإنْ فارقَهُمْ فى بَعْضِ الأحوالِ ووافقَهُمْ فى بعضِ حاله خَالطَ أهلَ الخيرِ وفارقَ أهلَ الشرِّ.

باب تفضيل الأخبار، وبيان طريق الإرشاد وذكر الرخصة والسعة فى النقل والرواية

جميعُ ما ذكرناه فى هذا الكتابِ من الأخبارِ عن النبى ﷺ ثم عن الصحابة وعن التابعين وتابعيهم، رسمناه حفظًا، وسُقناه على المعنى إلا يسيرًا اتفقَ وجودُه فى أيدينا، وقَرُبَ تناوله منَّا من أخبارٍ فيهَا طولُ فإنَّا نقلناها من مَواضعهَا، وما بَعُدَ علينا فلمْ نَفْقه ولم نشغَلْ همتَنا بهِ، فمَا كان فيهِ من صَوابٍ وبيان وتثبُّتٍ فمن الله تعالى بحُسن توفيقه وقوّة تأييده، وما كان فيه من خطأٍ وعَجَلةٍ وهوًى فمنَّا بالسّهْوِ والغفلةِ، ومن عملِ الشيطانِ بالعجلةِ والنسيانِ.

كذلك روينا عنِ ابن مسعُودٍ رضى الله عنه فى قضيَّتهِ التى قَضاهَا بِرأيه، وقولُنا لرأيه تَبعٌ.

وَرُوينا عن رسولِ الله ﷺ: «البيانُ والتثبُّتُ من الله عزّ وجلّ، والعجلةُ والنسيانُ من الشيطان» يعني بواسطته وبقلّة التوفيق.

ولم أعتبرْ ألفاظَ الأخبارِ في أكثره، ولم آلُ عَنْ سياقِ المعنى في كلّه؛ إذ ليسَ تحريرُ الألفاظِ عندى واجبًا إذا أتيتُ بالمعنَى بعد أن تكونَ عالمًا بتصريفِ الكلام، وبتفاوتِ وجوهِ المعانى، مجتنبًا لما يكونُ به تحريفٌ، أو إحالةٌ بين اللفظين.

وقد رَخَّصَ في سَوْقِ الحديثِ على المعنى دُونَ سِيَاقه على اللفظ جماعةٌ من الصحابة منهم: عليٌّ، وابنُ عباسٍ، وأنسُ بنُ مالك، وواثلةُ بن الأسقع، وأبو هريرة، ثمَّ جماعةٌ منَ التابعينَ يكْثُرُ عددُهُمْ منهُمْ: إمامُ الأئمةِ الحسنُ البصريُّ، ثم الشّعْبيُّ، وعمرو بن دينار، وإبراهيم النخعي، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، رضى الله عنهم، نقلنا ذلكَ عنهم في كُتبِ سِيَرِهم بأخبار مختلفة الألفاظ. وقال ابن سيرين: كنتُ أسمعُ الحديثَ من عشرةٍ؛ المعنى واحدٌ والألفاظُ مختلفةٌ. ولذلك اختلف الصحابةُ في روايةِ الحديثِ عن رسولِ الله ﷺ، فمنهُمْ من يرويه تامًا، ومنهُمْ من يَجِيءُ به مختصرًا، ومنهم من يرويه على المعنى، وبعضُهُم يغايرُ بين اللفظتين ويراه واسعًا إذا لم يخالفِ المعنى، ولم يُحلِ البُغْيَةَ. وكلُّهمُ لا يتعمدُ الكذبَ، وجميعُهم يَقصدُ الصدقَ، ومَعْنَى ما سَمِعَ، ولا يُحيل البُغْيَةَ. فلذلكَ وَسِعَهم وكانوا يقولون: إنّما الكذبُ على مَنْ تَعمّده.

وقد رُوينا عن عمرانَ بن مسلمٍ قال: قال رجل للحسن: يا أبا سعيد، إنكَ تحدِّثُ بالحديث أنتَ أحسنُ له سِياقًا، وأجوُد تحبيرًا، وأفصحُ به لسانًا منّا، إذا حدَّثتنا به. فقال: إذا أصبتَ المعنَى فلا بأسَ بذلك.

وقد قال النضْرُ بن شُمَيل: كان هِشَام لحَّانًا فكسوتُ لكُمْ حديثَهُ كسوةً حسنةً. يَعْنِى بالإعرابِ، وكان النضرُ نَحْوِيًا.

ونحن قائلونَ في جميع ما رويناهُ: أو كما قيلَ، ونحوه، وشبهه. وبمعناه كذلك قال ابنُ مسعودٍ في حديثه. وكان سليمانُ التيميُّ يقوله في كلّ ما يحدِّثُ به. وقدْ كانَ سفيانُ رحمه الله يقولُ: إذا رأيتَ الرجُلَ يشدّدُ في ألفاظِ الحديثِ في

المجلس فاعلمْ أنه يقول: اعرفُونى. قال: وجعلَ رجُلٌ يسألُ يحيى بن سعيدٍ القطّان عن حرف فى الحديث على لفظه، فقال له يحيى: يا هذا ليسَ فى أيدينا أجَلُّ من كتابِ اللهِ تعالى، وقد رُخِّصَ بالقراءةِ فيه بالكلمة على سبعةِ أحرفٍ، فلا تُشدِّدْ.

وفى بعضِ ما رويناه مراسيل، ومقاطيعُ، ومنها ما فى سنده مقالٌ، وربما كان المقطوعُ والمرسلُ أصحَّ من بعض المسند؛ إذ رواهُ الأئمةُ. وجازَ لَنَا رسْمُ ذَلكَ لمعانٍ:

أحدُهَا: أنَّا لسْنَا على يقينٍ من باطلها.

والثانى: أنّ معَنا حجةً بذلكَ وهو روايتُنَا له، وأنَّا قد سمعناه، فإن أخطأنا الحقيقةَ عندَ اللهِ تعالى فذلك ساقطٌ عنا، كما قال الأسباطُ: ﴿**وما شَهدْنا إلا بما علمْنا ومَا كنّا للغَيْبِ حَافظين**﴾ فى قولهم: ﴿**إنَّ ابْنَكَ سَرقَ**﴾ [يوسف:٨١]، فأخطؤوا الحقيقة عند الله تعالى، إلا أنهم كانوا معذُورينَ لوجودِ الدليل، وهو شهادتُهم للصّاعِ مستخرَجٌ من رَحْلِ أخيهمْ.

والثالث: أن الأخبارَ الضِّعافَ غيرَ المخالفةِ للكتابِ والسنّةِ لا يلزمُنا ردُّها، بلْ فيهما ما يدلُّ علَيْها.

والرابعُ: أنَّا متعبِّدُونَ بحُسْنِ الظنِّ، منهيُّونَ عَنْ كثيرٍ من الظنّ، مذمُومُونَ بظنِّ السوءِ.

والخامس: أنهُ لا يُتوصَّلُ إلى حقيقة ذلك إلا من طريقِ المعاينة، ولا سبيلَ إليها فاضطُررنا إلى التقليد، والتَّصْديق بحُسْنِ الظن بالنَّقَلَة، معَ ما تسكُن إليه قلوبُنا، وتلينُ لهُ أبشارُنا، ونَرَى أنه حَقٌّ، كما جَاءَ فى الخبر.

وأيضًا فإنه ينبغى أن نعتقدَ فى سلفنا المؤمنين أنَّهم خيرٌ منَّا، ثم نحنُ لا نكذِبُ على رسولِ الله ﷺ، ولا على التابعين، فكيفَ نظنُّ بهم أن يكْذِبُوا وَهُمْ فوقنا.

على أنّهُ قد جاءَتْ أحاديثُ ضعافٌ بأسانيدَ صحاحٍ، فكذلك يَصْلُح أن نُوردَ

أحاديثَ صحاحًا بسند ضعيف؛ لاحتمال أن يكونَ قد رُوِىَ من وجه صحيح؛ إذ لم نُحطْ بجُمْلَة العلم، أو لأن بعضَ مَنْ يُضَعِّفه أهلُ الحديث يقوِّيه بعضُهم، وبعضَ من يجرحُه ويذمّه أحدٌ يعدِّله ويَمْدحُه آخرُ، فصار مختَلَفًا فيه، فلَمْ يُرَدَّ حديثُهُ بقولِ واحدٍ دونَ مَنْ فوقَه أو مثلَه. أو لأنَّ بعضَ ما يُضعَّفُ به رواةُ الحديث وتُعلَّلُ به أحاديثُهم لا يكون تعليلاً ولا جَرْحًا عند الفقهاء، ولا عند العلماء بالله تعالى، مثلَ أن يكون الراوى مجهُولاً لإيثارِهِ الخُمُولَ وقد نُدبَ إليه، أو لقلة الأتباع له إذ لم يَقُمْ لهم الأثرةُ عنه، أو ينفرد بلفظٍ أو حديثٍ حفظَهُ أو خُصَّ به دون غيرِهِ من الثقاتِ، أو يكون غيرَ سائقٍ للحديث على لَفْظه، أو لا يكونُ معتنيًا بحفظه ودَرْسه.

وقد يتكلم بعضُ الحفّاظ بالإقدامِ والجراءة، فيجاوزُ الحدَّ فى الجرح، ويتعدّى فى اللفظ، ويكونُ المتكلَّم فيه أفضلَ منه، وعند العلماء بالله تعالى أعلى درجةً، فيعودُ الجرحُ على الجارِحِ. أو يكون رأى عليه لباسًا أو سمعَ منه كلامًا يجرحُه عند الفقهاء علّله به بعضُ القرّاء من الرواة، وأن[1] بعضَ مَنْ يضعِّفه أصحابُ الحديث هو مِنْ علماءِ الآخرة، ومن أهلِ المعرفةِ بالله تعالى، ولهُ فى الروايةِ والحديث مذهبٌ غيرُ طريقة بعض أصحابِ الحديثِ، فيعملُ فى روايته بمذهبه، فلا يكونُ أصحابُ الحديثِ حجةً عليه إلا كَانَ هو حجةً عليهم؛ إذ ليس هو عند أصحابه من العلماءِ دون أصحابِ الحديثِ ممن ضعّفه؛ إذ رأى غيرَ رأى مذهبه.

وقال بعضُ العلماء: الحديثُ وإنّ كانَ شَهَادةً فَقَدْ وُسِّعَ فيه بحُسْنِ الظَّن كما جُوِّز فيه قَبُولُ شهادةِ واحدٍ؛ أىْ للضَّرُورة كشَهَادة القابلة ونحوها. وروينا معناه عن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه. والحديثُ إذا لم ينافه كتاب أو سنّة وإن لم يَشْهدا لَهُ إنْ لم يَخْرجْ تأويلُه عن إجماع الأمة فإنه يُوجِبُ القَبُولَ والعملَ بقوله ﷺ، كيف وقد قيلَ: والحديثُ الضعيفُ عندى آثرُ من الرأى والقياس. وهذا مذهبُ الإمام أبى عبد الله أحمد بن حنبل رضى الله عنه.

---

(١) فى (ك): «أو يكون رأى عليه لباسًا أو سمع منه كلامًا لا يجرحه عند الفقهاء علله به بعض القراء والرواة وإذ بعض»

والحديثُ إذا تداوله عصران، أو رواهُ القرونُ الثلاثةُ، أو دارَ فى العصرِ الواحدِ، فلم ينكره علماؤه، وكان مشهورًا لا ينكرُهُ الطبقةُ من المسلمين، احتُملَ ووقع به حجةٌ، وإن كان فى سَنَده قولٌ؛ إلا ما خالفَ الكتَابَ والسنن الصحيحة، أو إجماعَ الأمة، أو ظَهَرَ كذبُ ناقليه بشهادة الصادقينَ من الأئمَّة.

وقال وكيعُ بنُ الجراح: ما ينبغى لأحدٍ أن يقولَ: هذا الحديثُ باطلٌ؛ لأن الحديثَ أكثرُ من ذلكَ. وقال أبو داود: قال أبو زرعة الرازى: قُبِضَ رسولُ الله ﷺ عن عشرين ألف عين تطرُف، كلٌّ واحد قد رَوَى عَنهُ ولو حديثًا، ولَوْ كَلمةً أو روايةً. فحديثُ رسولِ الله ﷺ أكثرُ من أنْ يُحصَى.

وذكر رجلٌ عندَ الزهرىّ حديثًا فقالَ: مَا سَمعنا بهَذا، فقال: أكُلَّ حديث رسولِ الله ﷺ سمعتَ؟ قال: لا. قال: فثُلثاه، قال: لا، قال: فنصفه، فسكت. وقال: عُدَّ هذا من النصفِ الذى لم تَسْمَعْهُ.

وقال الإمامُ أحمد بنُ حنبل رضى الله عنه: كان يزيدُ بن هارون يكتبُ عن الرجلِ وهُو يعلمُ أنه ضعيفٌ وكان له ذكاءٌ وعلمٌ بالحديث. وقال إسحاقُ بن راهويه: قيل للإمام أحمد بن حنبل: هذه الفوائدُ التى فيها المَناكيرُ ترى أن نكتبَ الجيدَ منها؟ فقال: المنكر أبدًا منكر. قيل له: فالضعفاء؟ قال: قد يُحتاج إليهِمْ فى وقتٍ. كأنَّه لم يرَ بالكتابةِ عنهُمْ بأسًا.

وقال أبُو بكرٍ المروزىّ عنهُ: إنَّ الحديثَ عَنِ الضعفاءِ قد يُحتاجُ إليه.

ومما يدلُّكَ على مذهبه[١] فى التوسعَة أنه أخرجَ حديثَه كلَّهُ فى المسندِ المأثورِ عنه الذى رُويناهُ عنْ أشياخنا عن ابنه عبدِ الله عنهُ ولمْ يَعْتبرِ الصحيحَ منهُ، وفيه أحاديثُ كثيرةٌ يعلمُ الثقاتُ أنها ضعيفةٌ، وهو أعلمُ بضعفها منهُمْ، ثم أدخلَها فى مسنده؛ لأنه أرادَ تخريجَ المسند ولم يقصدْ تصحيحَ السندِ، فاستجَازَ روايتَهَا كما سَمِعَها. وقد كان قَطع أن يُحدِّثَ الناسَ فى سنة ثمانٍ وعشرين، وتُوفِّى فى سنة إحدى وأربعين، فلمْ يَسْمعْ أحدٌ منه فى هذه المَدةِ إلا ابنُه عبدُ الله، وابنُ منيع

(١) يقصد مذهب الإمام أحمد بن حنبل.

جُزءًا واحدًا بشفاعَةَ جدّه أحمد بن منيع.

وحدثونا عنه ـ أعنى الإمامَ أحمدَ ـ قال: كان عبدُ الرحمن ينكرُ الحديثَ ثم يَخْرجُ إلينا بعد وقت فيقولُ: هو صحيح قد وَجَدته. قال: وأما وكيعٌ فلم ينكرْ ولكنْ يقولُ إذا سُئِل عنه: لا أحفظُه. وحدثونا عن ابن أختِ عبدِ الرحمن بن مهدى قال: كان خَالِى قَدْ خَطَّ علىَّ أحاديثَ، ثم صحَّحَ عَليها بعد ذلك، وقرأتُها عليه، فقلت: قد كنتَ خَطَطْتَ عليها، قال: نعم، ثم تفكَّرتُ فإذا أنى إن ضعفَّتها أسقطتُ عدالةَ ناقليها، فإنْ جاء بى بين يدَى الله تعالى وقال: لِمَ أسقطتَ عدالتى؟ رأيتَنى، سمعتَ كلامى؟ لم يكنْ لى حجة.

هذا كان مذهب الورِعينَ من السلف. وقدْ كان بعضُهُم يقول: كنَّا نَتْركُ مجالسة شُعبة لأنه كان يُدخِلُنا فى الغِيبةِ، وإنَّما كان كلامُه فى التَّضْعيف.

وقال بعضُهم فى تضعيف الرواة: إن خلُصَت نيتك ـ يَعْنِى إنْ أردْتَ الله عزّ وجلّ والدين بذلك ـ لم يكنْ لكَ ولا عليكَ.

فهذه الفصُول التى ذكرناها هى أصُولٌ فى معرفة الحديث، وهُو علمٌ لأهله، وطريقٌ هُمْ سالِكُوهُ. ثم حدَّثَ قومٌ لم يكنْ لهم علمٌ يُختَصُّونَ به، ولا حال من علمٍ يُوصفونَ به، ولا شغلٌ من عبادةٍ تقطعُهم، فجعلُوا لنفوسهم علمًا تشاغَلُوا به، وَشَغَلوا منِ استمعَ إليهم، فصنَّفوا كتبًا، وأخذوا يتكلَّمُونَ فى نَقَلةِ الأخبارِ بالتعليلِ وتتبُّع العِثارِ، فطرَقُوا لأهل البدعِ إلى ردّ السُّنن وإيثارِ الرأى والمعقول عليْها لما يَرَوْنَ من طعنهِمْ فيهَا، واغتبطُوا بالقياسِ والنظرِ لما وَجَدُوا من زهدِهم فى السنّة والخبرِ، سيَّما فى زَمانك هذا.

والأحاديثُ فى الترغيبِ فى الآخرةِ والتزهيدِ فى الدنيا، والترهيبِ لوعيدِ الله تعالى وفى فضائلِ الأعمال، وتفضيلِ الأصحابِ ـ متقبلةٌ محتملةٌ على كلِّ حالٍ: مقاطيعها ومراسيلها، لا تُعارَضُ ولا تُرَدُّ. وكذلك فى أهوال القيامة ووصفَ زلازلها وعظائمها لا تُنكر بعقلٍ، بل تُتَقَبَّل بالتصديقِ والتسليم. كذلك كان السلفُ يفعلُونَ، لأن العلمَ قد دَلَّ على ذلك، والأصولُ قد وردتْ به.

وقد رُوينا: من بلغه عن الله فضيلةٌ أو عَنْ رسول الله ﷺ وعَمِلَ به أعطَاهُ اللهُ ثوابَ ذلك وإنْ لم يكُنْ ما قيل. والخَبرُ الآخر: «مَنْ رَوَى عنِّي حقًّا فأنا أقولُه وإن لم أكنْ قلتُه، ومَن روَى باطلاً فإنّى لا أقول بالباطل».

وفى كلِّ ما رسمناه من هذا الكتابِ نقولُ: الله أعلمُ وأحْكَمُ، وعلْمُهُ المقدَّمُ، وعندَهُ حقائقُ العلومِ، وإليه تُرْجَعُ الأمورُ، وما شاءَ كانَ، واللهُ المستعانُ، ولا حَوْلَ ولا قوّةَ إلا باللهِ.

وهذا آخرُ كتاب العلمِ، وتفصيلِ العلوم، ووَصْفِ طريقِ السّلفِ، ونَشْرِ ما أحدثَ بعدَهُمُ الخَلَفُ.

* * *

فهرس موضوعات الجزء الأول

الموضوع	الصفحة
مقدمة المحقق	٣
* أبو طالب المكى وكتابه «سيرة موجزة»	٦
- شيوخ أبى طالب المكى	٨
- تلاميذه	١٠
- سلامة عقيدة أبى طالب المكى من البدع	١٠
- مؤلفات أبى طالب	١٣
* كتاب «قوت القلوب»	١٤
- أهمية هذا الكتاب	١٤
- مآخذ على كتاب القوت	١٧
- شرح القوت واختصاره	١٨
- أثر الكتاب فى اللاحقين	١٨
* النسخ المخطوطة المعتمدة فى التحقيق	١٩
- وصف النسخ	١٩
* منهج تحقيق الكتاب	٢٤

كتاب «قوت القلوب»

مقدمة	٣
الفصل الأول: فى ذكر الآى التى فيها ذكر المعاملة	٩
الفصل الثانى: فى ذكر الآى التى فيها أوراد الليل والنهار	١٠
الفصل الثالث: فى ذكر عمل المريد فى اليوم والليلة من فرائض الأوامر وفضائل النوادب	١١

الموضـــــــــوع — الصفحة

الفصل الرابع: فى ذكر ما يستحب من الذكر، وقراءة الآى المندوب إليها بعد التسليم من صلاة الصبح، استخرجناها من الآثار ١٥
الفصل الخامس: فى ذكر الأدعية المختارة بعد صلاة الصبح الجامعة المختصرة المأثورة فى الأخبار المتفرقة ٢٠
الفصل السادس: فى ذكر عمل المريد بعد صلاة الغداة ٣٨
الفصل السابع: فى ذكر أوراد النهار ٤٢
الفصل الثامن: فى ذكر أوراد الليل الخمسة ٥٥
الفصل التاسع: فيه ذكر وقت الفجر، وحكم ركعتيه؛ الأداء والقضاء، وحكم الوتر، ووقت القضاء له والأداء ٦٦
الفصل العاشر: فيه كتاب معرفة الزوال، وزيادة الظل ونقصانه بالأقدام، واختلاف ذلك فى الصيف والشتاء ٦٨
الفصل الحادى عشر: فيه كتاب فضل الصلاة فى الأيام والليالى ٧٩
* ذكر ما جاء فى صلاة النهار من الفضائل ٧٩
* ذكر ما جاء فى صلوات الليل وما دخل فيه من الصلاة بين العشاءين ٨٤
* ذكر فضل الصلاة بين العشاءين وما يختص به ذلك الوقت فى كل ليلة ٨٧
الفصل الثانى عشر: فى ذكر الوتر وفضل الصلاة بالليل ٩٢
الفصل الثالث عشر: فيه كتاب جامع لما يستحب أن يقول العبد إذا استيقظ من نومه للتهجد وفى يقظته عند الصباح ٩٥
* ذكر ما يستحب من القول إذا أخذ العبد مضجعه للنوم ٩٦
* ذكر هيئة العبد عند النوم وأهبته للمضجع ومعنى الاعتبار بذلك لذوى الأبصار ٩٩
* بيان آخر من الاعتبار لأهل التبصرة والتذكار ١٠٢
* ذكر ما يستحب من القول عند القيام إلى التهجد ١٠٤

الموضـــــــــــوع الصفحة

الفصل الرابع عشر: فى ذكر تقسيم قيام الليل ونومه ووصف القائمين والمتهجدين ١٠٦
* ذكر من روى عنه أنه أحيا الليل كله ١١٣
الفصل الخامس عشر: فى ذكر ورد العبد من التسبيح والذكر والصلاة فى اليوم والليلة، وفضل صلاة الجماعة، وذكر أفضل الأوقات المرجو فيها الإجابة، وذكر صلاة التسبيح، وما يُستحب أن يكون شعاره من أخلاق السلف ١٢٤
* ذكر صلاة التسبيح ١٣٤
الفصل السادس عشر: فى ذكر معاملة العبد فى التلاوة، ووصف التالين للقرآن حق تلاوته بقيام الشهادة ١٣٧
* ذكر أحزاب القرآن وكيف حزبه الصحابة رضى الله عنهم ١٣٨
الفصل السابع عشر: فيه كتاب ذكر نوع من المفصل والموصل من الكلام، وفيه مدح العالمين، وذم الغافلين عنه، وتفسير الغريب، والمشكل من القرآن، باختصار الأصول الدالة على المعنى ١٥٧
الفصل الثامن عشر: فيه كتاب ذكر الوصف المكروه من نعت الغافلين ١٧٦
الفصل التاسع عشر: فيه كتاب الجهر بالقرآن، وما فى ذلك من النيات، وتفصيل حكم الجهر، وبيان حكم الإخفات ١٨٢
الفصل العشرون: فى ذكر إحياء الليالى المرجو فيها الفضل المستحب إحياؤها، وذكر مواصلة الأوراد فى الأيام الفاضلة ١٨٩
* ذكر مواصلة الأوراد فى الأيام الفاضلة ١٩٠
الفصل الحادى والعشرون: فيه كتاب الجمعة وذكر هيئاتها وآدابها وذكر ما يستحب للمريد فى يوم الجمعة وليلتها ١٩٣
الفصل الثانى والعشرون: فيه كتاب الصيام وترتيبه، ووصف الصائمين، وذكر ما يستحب للعبد من الصيام، وطرقات الصائمين فى الصوم، ووصف صوم الخصوص ٢١٨

الموضـــــــــــوع	الصفحة
* ذكر صوم الخصوص من الموقنين	٢٢٢
الفصل الثالث والعشرون: فيه كتاب محاسبة النفس ومراعاة الوقت	٢٢٥
الفصل الرابع والعشرون: فى ذكر ماهية الورد للمريد ووصف حال العارف من المزيد	٢٤٠
* ذكر الأوراد وما يرجى بها من الازدياد	٢٤٣
الفصل الخامس والعشرون: فى ذكر تعريف النفس، وتصريف مواجيد العارفين	٢٤٨
الفصل السادس والعشرون: فيه كتاب ذكر مشاهدة أهل المراقبة	٢٥٨
الفصل السابع والعشرون: فيه كتاب أساس المريدين	٢٧٣
الفصل الثامن والعشرون: فيه كتاب مراقبة المقربين ومقامات الموقنين	٢٨٧
* ذكر المقام الأول من المراقبة	٢٨٧
* ذكر المقام الثانى من المراقبة	٢٩٠
* ذكر المقام الثالث من المراقبة	٢٩٥
* ذكر المقام الرابع من مراقبة الموقنين	٢٩٧
* ذكر المقام الخامس من مراقبة الموقنين من المقربين	٣٠٣
* ذكر المقام السادس من مشاهدة المقربين	٣٠٦
* ذكر المقام السابع من مشاهدة الموقنين	٣٠٨
الفصل التاسع والعشرون: فيه ذكر أهل المقامات من المقربين وتمييز أهل الغفلة المبعدين	٣١٢
الفصل الثلاثون: فيه كتاب ذكر تفصيل الخواطر لأهل القلوب وصفة القلب وتمثيله بالأنوار والجواهر	٣٢١
* ذكر نوع آخر من البيان	٣٤٨
* ذكر بيان آخر من تفصيل المعانى	٣٥٠
* ذكر تفصيل الخواطر وتفصيل أسمائها	٣٥٦
* باب آخر من البيان والتفصيل	٣٥٨

الموضـــــــــــوع	الصفحة
الفصل الحادى والثلاثون: فيه كتاب العلم وتفضيله، وأوصاف العلماء	٣٦٣
* ذكر فضل علم المعرفة واليقين على سائر العلوم وكشف طريق علماء السلف الصالح من علماء الدنيا والآخرة	٣٦٩
* ذكر بيان تفضيل علوم الصمت، وطريق الورعين فى العلوم	٣٨٢
* بيان آخر فى فضل علم الباطن على الظاهر	٣٨٩
* باب ذكر الفرق بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة وذم علماء السوء، الآكلين بعلومهم الدنيا	٣٩٢
* ذكر وصف العلم وطريقة السلف وذم ما أحدث المتأخرون من القصص والكلام	٤٠٧
* ذكر ما أحدث الناس من القول والفعل فيما بينهم مما لم يكن عليه السلف	٤٤٩
* ذكر تفضيل العلوم: معروفها ومنكرها، قديمها ومحدثها	٤٥٩
* باب تفضيل علم الإيمان واليقين على سائر العلوم والتحذير من الزلل فيه، وبيان ما ذكرناه	٤٧٥
* باب تفضيل الأخبار، وبيان طريق الإرشاد وذكر الرخصة والسعة فى النقل والرواية	٤٨٣
فهرس الموضوعات	٤٩١

* * *